التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة النمل
تفسير سورة القصص

اعتنى به

أشرف بن كمال

الجزء الثامن





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة النمل
تفسير سورة القصص

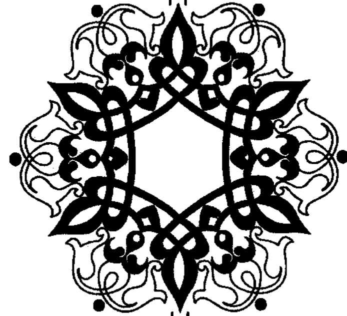
بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ



ALTABARI'S LIBERARY

سنة الطبع :	١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
رقم الإيداع :	١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨
رقم الطبعة :	الأولى



مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ - ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة النمل

تفسير سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه سورة النمل، وسميت به لذكر النمل فيها، وتسمية السور، يكون بأدنى مناسبة؛ ولهذا سميت سورة البقرة لذكر البقرة فيها، ولا يمتنع أن تسمى السورة بعدة أسماء لعدة مناسبات.

وهي مكية، والفرق بين المكي والمدني: ما نزل قبل الهجرة؛ فهو مكي، وما نزل بعدها فهو مدني، وقيل: المكي ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة.

وقيل: المكي ما فيه ذكر الأصول: أصول الإسلام، أو الإيمان.

والمدني: ما فيه ذكر الفروع.

على الأول: يكون المعتبر الزمن، وعلى الثاني: المعتبر المكان، وعلى الثالث: المعتبر الموضوع.

ولكن الذي عليه الحق: يكون، ما كان بعد الهجرة فهو مدني، وما قبلها فهو مكي.

أما البسملة فقد تقدم الكلام عنها عدة مرات، وبينا أن أحسن ما تُقَدَّر به أن يكون فعلاً مناسبًا متأخرًا، أن يكون فعلاً؛ - لأن الأصل في العمل الأفعال -، متأخرًا: لفائدتين هما: الأول: التبرك بتقديم اسم الله، والثاني: إفادة الحصر، يعني بسم الله لا بسم غيره.

فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ التقدير بسم الله الرحمن الرحيم أقرأ، ويجوز أن تقدر أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، ويجوز أن تقدر قراءتي بسم الله الرحمن الرحيم، أو بسم الله الرحمن الرحيم قراءتي، ولكن ما ذكرنا أولاً هو الأرجح، وأشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى رجحانه لحديث النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ»[1]، فذكرها فعلاً، ولم يقل فليكن ذبحه قال فليذبح على اسم الله.



قال الله تعالى:

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ١-٣]

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥٠٠) ومسلم (٢/ ١٩٦٠) من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

التَّفْسِيرُ

قوله الله تعالى: ﴿طسٓ﴾، [الله أعلم بمراده بذلك]، هذا ما سلكه المؤلف وجماعة من أهل العلم؛ بأن هذه الحروف الهجائية الموجودة في أوائل بعض السور موقفنا منها أن نقول: الله أعلم بمراده بذلك، وقد سبق في مواضع كثيرة أن الراجح من ذلك أن هذه الحروف هجائية، وأنه بمقتضى كون القرآن بلسان عربي يقتضي أنه لا معنى لها، وهذا قد روي عن مجاهد، وأنها حروف هجائية أتى الله بها ليس لها معني، وعلى هذا نجزم بأنه لا معنى لها؛ لأنه لا معني لها، ولكن لها مغزى، وهو: أن هذا القرآن الذي أعجز هؤلاء الفصحاء البلغاء، إنما هو من هذه الحروف الهجائية التي يتكون منها كلامنا، ويؤيد ذلك أنه ما من حروف هجائية إلا ويأتي بعدها ذكر القرآن، اللهم إلا في سورتين وهما: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ [العنكبوت: ١ - ٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١ - ٢] فإن فيها ما يدل على القرآن، كالأخبار في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾[الروم: ٢ - ٣]، وهذا من خصائص الوحي، و قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [العنكبوت: ٢]، فيها - أيضًا - إخبار عمن مضى ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

وأما ما زعمه المتأخرون الخالفون من أن هذه الحروف تدل على إعجازٍ؛ حيث زعموا أن هذه الحروف الهجائية يوجد نظيرها في السورة المفتتحة بها، ويكون مجموع هذا منقسمًا على تسعة عشر، ويزعمون أن هذا أكبر آية من أن القرآن كلام الله، ويحتجون لذلك بأن أول آية نزلت على زعمهم هي ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وأنها مكونة من تسعة عشر حرفًا، وأن هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾[المدَّثر:٣٠]، وأن هذا ﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ هي هذه الحروف، كل هذا - والعياذ بالله - كذب، ولا ينضبط، وهو متناقض - أيضًا -، وغير مضطرد، لكنهم فرحون بهذا الكمبيوتر الذي أخرج لهم عدد الحروف، ونحن نقول: لا يمتنع أن الله أراد هذا، ولكننا نقول: لا نجزم بأن الله أراد هذا، فهناك فرق بين الجزم بأن هذه آية في القرآن، وبين أن نقول: لا نقول هذا، أولاً: لأنه ليس في ذلك إعجاز، والبشر قد يصنع خطبة أو كلامًا تتكون الحروف الموجودة فيه، وتنتظم على هذا العدد، أو على أي عدد كان، وليس بمشكل، ثم إن البسملة ليست أول ما نزل من القرآن، أول ما نزل ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ثم إن البسملة - أيضًا - حروفها ليست كما قالوا: أنها تسعة عشر؛ لأن القرآن نزل مقروءًا أم مكتوبًا؟ مقروءًا، وهي بحروفها في القراءة، والقراءة ليست كذلك، والكتابة كما تعلمون هي قناع ربما لو فرض أن الكتابة في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وفي عهد الخلفاء ليست على هذا الشكل، ممكن أم غير ممكن؟ ممكن، الآن في بعض الكتابات لبعض اللغات يجعلون الحركة حرفًا، ويجعلون الحرف حرفين، أو يختصرون الحرفين حرفًا واحدًا، فالحاصل أن القرآن ما نزل مكتوبًا، وإنما نزل مقروءًا، ولا حجة في ذلك،

إذن نقول: الله أعلم بمراده بذلك، هذا أحد الأقوال في المسألة، والقول الثاني: أنها رموز لأشياء معينة مثل ما ذهب إليها المتأخرون، مثل ما يذكر بعضهم: أنها إشارة إلى حروب وملاحم تكون في آخر الزمان، وما أشبه ذلك، والثالث: أن يُقال أنها ليس لها معنى، وإذا، ورد علينا كيف نجزم بذلك؟ فالجواب: أن هذا القرآن نزل بلغة العرب، ولغة العرب لا تجد لهذه الحروف معنًى، لكنها إذا قلنا: بأنه ليس لها معنى فإنما لها مغزىً يظهر - والله أعلم - إن أراد بها ذلك.

قوله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ آيات منه، ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مظهر للحق من الباطل، عطف بزيادة الصفة، هو ﴿هُدًى﴾ أي هاد من الضلالة.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ المشار إليه سابق، أم لاحق؟ المشار إليه لاحقٌ، وليس بسابق، وهذا مما تعود فيه الإشارة على متأخرٍ لفظًا، ورتبة، وهو جائز إذا دلَّ الدليل عليه.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [آيات منه]، وإنما لجأ المؤلف لقوله: [آيات منه]، لو أخذنا بظاهر ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ لكان في ذلك حصر للقرآن في هذه الآيات قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: هذا الذي نشير إليه، ومعلوم أن هذا ليس آيات القرآن كلها، ولكنه بعضٌ منها، ويجوز مثلاً أن نجعل الآية على ظاهرها، ولا حاجة إلى التأويل، ونقول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ يُشار إلى بعض الجنس والمراد الجنس كله، كما تقول مثلاً: هذا البشر، وتشير إلى رجلٍ واحد، أو هذا الإنسان، وتشير إلى رجلٍ واحد، فالمعنى أن الإشارة إلى بعض الجنس هنا للجنس كله، هذا ثابت ولا يحتاج إلى تأويل كما قال المؤلف.

وقوله: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: [عطف بزيادة صفة]، عطف يمشي على آيات، لكن آيات مرفوعة، وكتاب مجرور، إذن على ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾، تلك آيات القرآن، وتلك آيات الكتاب، وإنما وصف هذا القرآن بالقرآن، والكتاب؛ لأنه مقروء، ومكتوب، فهو مكتوبٌ باللفظ محفوظ، وهو مقروءٌ بالألسن، وهو مكتوبٌ في المصاحف - أيضًا -، وكتابته سابقة، ولاحقة، وقراءته لاحقة؛ لأنه بعد أن تكلم الله به، ونزل به جبريل ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٨]، والقرآن: مصدر غير مشتق؛ لأنه مثل الغفران والشكران، فهو مصدر قرأ يقرأ بمعنى: تلا، وقيل: إنه بمعني جمع؛ لأن القاف والراء تدل على الجمع، ومنه القرية؛ لأنها تجمع الناس في مكان واحد، وفي الحقيقة أن القرآن جامع للوصفين، فهو متلوٌّ، وهو مجموع - أيضًا -.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ﴾ فهو فِعَال بمعنى: مفعول، أي: مكتوب، وفِعَال بمعنى: مفعول تأتي كثيرًا في اللغة العربية مثل بِنَاء بمعنى مبني، وغِرَاس بمعنى مغروس، وفِرَاط بمعنى مفروط، والأمثال كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: [مظهر للحق من الباطل]، كلمة مبين هي لغة أبان، وأبان يأتي لازمًا، ويأتي متعديًا، أي: يأتي بمعنى أظهر، ويأتي بمعنى بان، ولهذا تجد المؤلف يفسر ﴿مُّبِينٍ﴾

أحيانًا بمعني بيِّن، وعلى هذا التقدير يكون من اللازم غير المتعدي، ويُفسرها أحيانًا بمعنى مُظهِر فتكون من المتعدي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ معنى مبين أي: بيِّن، فبيِّن منها بان اللازم، وأما مثل هذه الآية أن القرآن مبين، فهو بمعنى مُظهِر، وهل يستلزم كونه مظهرًا أن يكون هو بيِّنًا؟ نعم يستلزم، أو نقول: إنه من باب استعمال المشترك في معنييْن، والصحيح إيراده، وقد مرَّ علينا هذا، هل يجوز استعمال المشترك في معنيين؟ والمشترك - أيضًا - فهمناه من قبل: وهو ما اتحد لفظه، وتعدد معناه، هذا المشترك، وسُمي بذلك؛ لأن معاني المشترك مشتركة في لفظٍ واحد، المشترك الصحيح أنه يجوز استعماله في معنيين بشرط، أو بشرطين ذكرناهما، ألَّا يقع بينهما تعارض، وأن يكون محتملاً لهما، فإن كان لا يحتمل لهما لا يمكن الاعتماد عليه، أو كان بينهما تعارض، لابد أن يكون أحدهما هو المقصود، هنا مثلاً إذا قلنا: إن (بيِّن) من أبان اللازم، ومن أبان المتعدي يجوز، أم لا يجوز؟ يجوز، وإن كان هذا مشتركًا، لكنه إذا استعمل فإنه مستعمل على وجهٍ لا تعارض فيه، فالقرآن بيِّن، والقرآن - أيضًا - مبين مُظهِر، وعلى هذا التفسير، يكون دلالة المبيِّن على أن القرآن بيِّن دلالة مطابقة، أو دلالة التزام؟ دلالة مطابقة، إذا جعلنا مبين مستعملة في المعنيين الدلالة مطابقة، لكن لو قلنا: إن مُبين بمعنى مُظهِر فدلالته على كونه بينًا من باب دلالة الالتزام.

قوله تعالى: ﴿وَكِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن مُظهِر للحق من الباطل، هل هو على عمومه، وإلا خاص بما نزل به القرآن، يقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وهو عامٌ لكل شيء، لكن البيان قد يكون بيانًا للشيء على وجه التفصيل، وقد يكون بيانًا لأسبابه، وطرقه، فالقرآن حقيقة تبيان لكل شيء، حتى في غير الأمور الشرعية يبينها، لكن ما يبين تفصيلاتها؛ لأن هذه غير الأمور الشرعية خاضعة للزمن، والمكان، وأفهام الناس، وقوَّاتهم، لكنه يذكر الأسباب والطرق، وأن تستعملها في نفسك، ولهذا إذا قال قائل: كيف يصح هذا القول منكم، ونحن لا نرى في القرآن عدد ركعات الصلاة؟ ولا نرى فيه أنها خمس صلوات، ولا نرى أنصبة الزكاة، ولا مقادير الوقت فيها، فما هو الجواب؟

نقول: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]، فالآية تجمع بين هذه الأمور كما قال ابن مسعود: فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ الله ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: لَعَنَ اللهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله، فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ وَكَانَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ فَقَالَ عَبْدُ الله: وَمَا لِي لَا

أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ الله فَقَالَتِ المَرْأَةُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَي المُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ فَقَالَ لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(1). القارئ للقرآن يعلم أنه بيان لكل شيء، لكن البيان قد يكون تفصيليًا، وهذا في بعض الأمور موجود، كما في المواريث والمطلقات مثلًا، ولا يشذ عن هذا إلا مسائل قليلة جدًا، ومع ذلك بيانها موجود عند التأمل، وتفصيل الفرائض موجود في القرآن، كالجد، والأخوة، وغيرهما لكنه يحتاج إلى تأمل.

وأيضًا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: ٤٤]، إذن يكون القرآن مُنَزَّلًا على هذا ببيان سببه، وطريقه، فعندنا الآن طريقة للعلم بهذا الشيء، وهذا ما فسره الرسول ﷺ، إنما هذا بينه القرآن، ولا يلزم أن يكون هذا القرآن، لابد أن يسلك كل التفاصيل.

قال الله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [مظهر للحق من الباطل، عطف بزيادة صفة]، والصفة قوله: ﴿مُّبِينٍ﴾.

ثم قال: ﴿هُدًى﴾ قدر المؤلف (هو) ليبين لنا إعراب هدى فعلى تقديره، يكون ﴿هُدًى﴾ خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو هدي أي: هاد من الضلالة، ومعلوم أن هدي مصدر، وأن هادٍ اسم فاعل فيكون المؤلف هنا فسر المصدر باسم الفاعل، وفي تفسيره نظر؛ لأن الأولى أن يُجعل المصدر على بابه لسببين: السبب الأول: أن تحويل اسم الفاعل إلى المصدر أبلغ، فإنك إذا قلت: فلانٌ عدلٌ، وفلانٌ عادل، أيها الأبلغ؟ عدلٌ أبلغ، يعني كأنه مصدر العدل، لكن عادل متصفٌ بالعدل الموجود في غيره، فلا شك أن المصدر أبلغ، السبب الثاني في هذه الآية: أن جعله هدىً معناه: أن القرآن نفسه هدىً يهتدي به الإنسان، فهو كالعلم الذي يكون الإنسان وراؤه، حتى يصل إلى غايته، لذا سماه الله - تعالى - نورًا ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٧]، فنحن نقول: ﴿هُدًى﴾ يجب أن تبقي على ما هي عليه أي: أنها مصدر، وهو أبلغ من تحويلها إلى اسم الفاعل، والثاني: أنها مصدر؛ وأن القرآن نفسه هدىً، ليس هاديًا، بل هو هدىً، مثلها قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾، وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (بشرى) - أيضًا - بمعنى بشارة، لكن لمن؟ للمؤمن أي المصدقون بالجنة، قوله: [بالجنة] سنذكر هذا لاحقًا، قوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدقون؟، ما يكفي هنا الإيمان مجرد التصديق، فالإيمان الموجود في القرآن لابد فيه من قبول، وإذعان، أما مجرد التصديق لا يكفي، والدليل على أن التصديق لا يكفي؛ أن أبا طالب كان مصدقًا لما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام -، ويقول:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابنَنَا لا مُكَذَّبٌ ... لَدَيهِم وَلا يُعنَى بِقَولِ الأَباطِلِ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٨٦) ومسلم (١٢٠/ ٢١٢٥).

وقال أيضًا:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِيْنَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِيْنَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حَذَارِي سُبَّةً لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

فإذن، هو ما قَبِل ولا أذعن؛ فلا نقول: إنه مؤمن، فالإيمان كلما وجدته في كتاب الله فالمراد به: التصديق المستلزم للقبول والإذعان؛ فليس مجرد تصديق، فإذن ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، المصدّقين به، القابلين له، المذعنين لأحكامه، لابد من هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [بالجنة]، كما قال المؤلف: أم الله أعلم؟ الله أعلم، والدليل قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١]، ثم قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف:١٣].

ثم قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يأتون بها على وجهها، أقام الشيء: أتى به مستقيمًا، ولا تكون الصلاة مستقيمة إلا إذا أتى بها على وجهها، وإقامة الصلاة نوعان: نوعٌ لابد منه وهو: الإتيان بالأركان، والواجبات، والشروط، ونوعٌ يكون على وجه الكمال وهو: الإتيان بالمكملات وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ يعطون الزكاة إلخ.

قوله تعالى: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ هل المراد الفريضة أم النافلة؟ عام؛ لأنه لا يجوز لإنسان أن يأتي بالسنة مثلاً على وجهٍ ينافي الكمال الوارد، لو جاء واحد، وقال أنا أتطوع بسنن، لكنه لم يقرأ الفاتحة فنقول: الآن يجب عليك أن تقرأ الفاتحة؛ لأن قراءة الفاتحة من إقامة الصلاة، فإذن الآية للصلاة عامة، إقامتها في الواجب، وفي التطوع.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ما بيّن المفعول الثاني في يؤتون، لكنه معلوم، وفي الصحيح: يؤتون الزكاة لمستحقها، وقد بيّن الله ـ تبارك وتعالى ـ مستحق الزكاة في سورة براءة ببيان واضح مُفصَّل، وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الزكاة لا حاجة إلى تعريفها، وسميت زكاةً؛ لأنها تزكي الإنسان ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ هذا ثناء على المؤتين للزكاة، والسورة، كما رأينا مكية، فهل معنى ذلك أن الزكاة فرضت بمكة، أو بالمدينة؟ المعروف عند أهل العلم أنها فرضت بالمدينة، ولكن الصحيح أنها فرضت بمكة، ولكنَّ تقدير أنصبائها، وبيان الأموال على وجه التفصيل كان ذلك في المدينة، هذا هو الصحيح، وهو الذي به تجتمع الأدلة، وهذا من باب التطور في التشريع، فالإنسان يخرج ما شاء لأجل أن النفوس تتعود ثم بعد ذلك يُفرض عليه الأشياء الذي أرادها الله ـ سبحانه وتعالى ـ والكثير من الأشياء التي تطورت، الصلاة فرضت ركعتين ثم تطورت بعد ذلك فصارت هناك صلاة في السفر، و صلاة في الحضر، والزكاة هكذا فرضت أولاً على اختيار الإنسان، ثم حُدد

الصيام بعد ذلك على سبيل التخيير ثم عُيِّنَ، الحج ما أعرف فيه إلا أنه فُرِض مرة واحدة، ولكن السبب في ذلك أنه أتى في السنة التاسعة، أو العاشرة بعد أن استقر الإيمان في القلوب، فلا حاجة إلى أن تُدرَّب النفوس من مرحلة إلى مرحلة.

هل يجوز التدرج في الأحكام؟

الظاهر لي: أنه يجوز، وأن نأمره بالأهم فالأهم، مثلما أمر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ معاذ بن جبل[1] مع أن الأحكام مستقرة قال: أول ما تدعوهم إليه شهادة ألَّا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ثم إقام الصلاة ثم إيتاء الزكاة مع أن كل هذه كانت مفروضة ، وحكم الصوم، والحج ـ أيضًا ـ مفروض.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [يعلمونها بالاستدلال، وأُعيد ﴿هُمْ﴾ لما فُصل بينهم، وبين الخبر]. قوله تعالى: ﴿وَهُم﴾ مبتدأ،قوله تعالى: ﴿يُوقِنُونَ﴾ خبره، و قوله تعالى: ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾ متعلق بـ﴿يُوقِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: وهم هم الذين يوقنون بالآخرة دون غيرهم، أو، أن ﴿وَهُم﴾، كما قال المؤلف: [للفصل بين ﴿وَهُم﴾، وبين الخبر]، والفاصل قوله تعالى: ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾ يحتمل هذا، وهذا، وقد يجوز أن يكون المراد هو التوكيد، فبين الله ـ تبارك وتعالى ـ أنهم هم أهل الإيقان حيث كرر الضمير مرتين، وكُرِّرَ ـ أيضًا ـ مرتين لوجود الفصل بين الخبر، ولكن الإيقان يقول المؤلف: [يعلمونها بالاستدلال]، وإنما قال بالاستدلال؛ لأن اليقين أخص من العلم، إذ إن اليقين هو العلم الذي لا يتطرق إليه الاحتمال، فهو أعلى درجات العلم، وهذا، إنما يكون بالاستدلال، ومن الأدلة المبينة المقنعة، ولهذا فسر المؤلف اليقين بأنه العلم بالأشياء عن طريق الاستدلال.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ليس المراد بالآخرة أنه فيه يبعث الناس فقط، لكن كلما أخبر الله ـ تعالى ـ بما يكون في هذا اليوم، وأخبر به رسوله فإنه يدخل فيه ما يكون بعد الموت، فعلى هذا تكون الآخرة المراد بها: ما بعد الدنيا دفنًا، وعذاب القبر، ونعيم القبر، ويشمل كذلك الموازين يوم القيامة، والحوض المورود للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما ذُكر.

هل بقي شيء من الإيمان؟ لأنه ذكر إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيقان بالآخرة، ذكرنا أن الإيمان بالله يتضمن الإيمان بالرسل، ويتضمن الإيمان بالكتب، ويتضمن الإيمان باليوم الآخر ـ أيضًا ـ ، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالقدر من الإيمان بالله؛ لأن القدر قدر الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكن بقي عندنا الصيام، والحج، وهما من أركان الإسلام، والجواب على ذلك أن السورة مكية، والصيام، والحج لم يُفرضا بمكة بالاتفاق، فالصيام فُرض في السنة الثانية، والحج فُرض في السنة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٥٨) ومسلم (٣١/ ١٩) ابن عباس رضي الله عنهما.

التاسعة، أو العاشرة على القول الراجح، وعلى هذا لا يوجد في الآية إشكال، ويُستفاد منها أن الإنسان إذا آمن بالشرائع المُنزلة، فهو كامل الإيمان، وإن لم يدرك الفرائض المتأخرة، فالذين ماتوا من الصحابة قبل فرض الصيام إسلامهم كامل، بل إن الرجل، يمكن أن يؤمن، ويموت قبل أن يصليَ صلاة واحدة، ويكون بذلك كامل الإيمان، يعني: إيمانه هو كامل، وإن كان بغير الذي أدرك، لكن هو بالنسبة إليه ما يُقال إيمانه ناقص أي أنه ناقص نقصًا يُخلُ به.

الفوائد:

١ ـ يُستفاد من هذه الآيات: أنه كلما كمل الإيمان في العبد كَمُل اهتداؤه بالقرآن؛ لأن الشيء إذا عُلِّق بوصف زاد بزيادة ذلك الوصف، ونقص بنقصه، الحكم إذا علق بوصف، فإن هذا الوصف يزيد الحكم بزيادته، وينقص بنقصانه، وهذا معلوم، حتى في المحسوس تجد أن الشيء المعلق بشيء يزيد بزيادته، وينقص بنقصانه فنقول: كلما زاد الإنسان إيمانًا ازداد اهتداءًا بالقرآن، ويدلك على هذا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة:١٢٤]، ويدلنا على هذا ـ أيضًا ـ قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]، وأيضًا: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ البشارة هي: الإخبار بما يسر، وقد تطلق على الإخبار بما يسوء، لكن بقرينة، وهنا يقول: بشرى بالجنة، ولكن الصحيح أنها بشرى بما هو أعلى: بالجنة، وبالعزة، والكرامة، وبالنصر قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣]، بشرهم بما لهم في الجنة، وبشرهم بما لهم في الدنيا من النصر، وكل إنسان بطبيعته البشرية يحب أن ينتصر على عدوه، ويحب أن يكون له العزة والكرامة، هذا لا يمكن أن يكون إلا بالإيمان، وكلما زاد الإنسان إيمانًا ازددنا انتصارًا على عدونا، وكلما تخاذلنا في الإيمان هُزمنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، وإذا أردتم دليلًا على هذا فانظروا إلى الذين يُطنْطنون بالقومية العربية، منذ متى يُطنْطنون بها؟ أظن من أول القرن، يعني منذ زمن، وتبلغ هذه الدعوة، أو غيرها ومع ذلك لا يزدادون إلا تأخرًا، وضعفًا؛ لأنها ما بُنيت على الإيمان، لكن لما ظهرت الدعوة للإسلام والتضامن الإسلامي ماذا حصل؟ حاولوا بكل ما يستطيعون أن يقضوا على هذا، ليس من الدول الكافرة، بل حتى من الدول التي تزعم أنها مسلمة، وأنها عربية، وصاروا يقولون: هذه دعوة رجعية إلخ، وأخيرًا قُضي على مَن قام بها، وبالدعوة إليها.

فالحاصل الآن، أننا لو أردنا أن نرجع إلى العزة والكرامة والنصر فلا يكون ذلك إلا بالإيمان.

وقد **يقول قائل**: كيف ننتصر بالإيمان على القنابل الذرية، والهيدروجينية؟ الجواب: إذا أخذنا بالقوة المعنوية، فإن توفرت لنا القوة المادية وإلا جاءت القوة الإلهية، نحن مثلاً: من جملة الإيمان أن نستعد، لكن إذا عجزنا عن الاستعداد جاء دور النصر الإلهي؛ فيبطل ما عليه هؤلاء من القوة، والله ـ تبارك وتعالى ـ على كل شيء قدير، التغيرات الجوية تؤثر بأسلحتهم، هذه الصواعق تدمره، نعم؛ فإنَّ الخسف يذهب بها وبأهلها، وكل هذا بيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقد حدثني إنسان في العام الماضي ذهب إلى أفغانستان للقتال معهم، وهو شاب متخرج من أمريكا، لكنه قد أصر إلا أن يجاهد، وقال: لا يمكن أن أموت بدون جهاد، ولزم على أمه، وأبيه، وجعلوا الحكم إلى الله ـ تعالى ـ ثم إليَّ أحكم بينهم، هم يقولون: لا تذهب، وهو يقول: سأذهب، يقولون: لا تذهب مع أحد يا بني هذه ليست فريضة، وهو يقول: سأذهب، وألتزم لكم أني أرجع في ذي الحجة، المهم أنه بعد رمضان العام الماضي ذهب، والشاهد شاهد عيان يقول: مع قلة العدة التي كانت عندهم، حتى يقول: ليس عندهم أدوية إلا أدوية قديمة فاسدة جاءت إليهم من الشركات، لكن يقول: شاهدت بعيني أن الروس يحرصون يوم الجمعة على أن يأتوا إلى هذا المسجد ليدمروه، هم ينشرون على المناطق أناسًا يحرسون المسجد وما حوله فجاءوا بالقنابل، وضربت على الأرض على المسجد يريدون المسجد، لكن يقول: كلما ضربتْ لا تضرب المسجد، وتضرب النحور والصخور، يقول: ليس هناك إلا واحدة فقط صارت على أحد الجنود وقتلته، والباقي يخرجون ليس هناك شيء، فالحاصل أن نقول: إن النصر لا يعتمد على القوة المادية فقط هناك، لا بد أن يكون وراءه شيء، ولهذا يقول: الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠]،ويقول أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج:٤١] أربع صفات، قد يقول قائل:، وما لنا، والنصر مع هذه الصفات عند القنابل، وغيره، لكن ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤١]، ففي الأمور الحسية العاقبة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يسوق الأيام على من عصا وخالف. على كل حال، نحن نستبعد النصر؛ بسبب أعمالنا العظيمة، ما عندنا رصيد يخول لنا أن ننتصر.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٤-٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [القبيحة بتركيب الشهوة، حتى رأوها حسنة].

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يتحيرون فيها لقبحها عندنا].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدِّقونَ بها فلا يؤمنون، فهم إذا لم يُصَدِّقُوا لا ينقادون، ولا يقبلون؛ لأن من لم يُصَدِّق لا يذعن، بل إذا صَدَّقُوا بها، ولم يقبلوا، ولم يذعنوا نفس الشيء، إذن لا يؤمنون بالآخرة يشمل نفي التصديق، ونفي القبول، ولكن ما الفرق بين القبول، والإذعان؟ أضرب مثلاً أن هذا الشيء فرض، وأعتقده فرضًا، لكن ما أفعله إذن أي شيء صار عدم إذعان.

وأما عدم القبول يرفض هذا، ولا يعترف أنه فرض،أما التصديق، يعني: أن المصدِّق على حق، لكن ما يقبله، والقبول: في الغالب، يكون في المعتقدات، والإذعان:، يكون في الأعمال الظاهرة أعمال الجوارح.

وقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ﴾ خبر إن، وتفيد أن العلة في التزيين عدم الإيمان بالآخرة، وأن الله ـ تعالى ـ لم يزين لهم، فإن الذي زُين له سوء عمله، يكون ذلك دليلاً على نقص إيمانه بالآخرة؛ لأنه لو كَمُل إيمانه بالآخرة لكان يعرف الحسن من السيئ فيفعل الحسن، ويتجنب السيئ، ولكن لضعف إيمانه بالآخرة يحسُن له هذا العمل، ويفعل هذا الفعل القبيح، ويراه حسنًا، ولا حاجة إلى أن نعدد أنواعًا من ذلك؛ لأن الأنواع المنهية لِمَنْ زُين له سوء عمله كثيرة جدًّا، ولا شك من العمل السيئ أنه إذا نزل في أرض أخذ أربعة أحجار، ووضع ثلاثة للقِدح وواحدًا يعبده، ولا شك أن من العمل السيئ المُزين أن الإنسان يصنع له تمرًا على صورة صنم فيعبده، فإذا جاع أكله، ولا شك أن من سوء العمل المُزين أن الإنسان يأتي بابنته، وهي ثمرة فؤاده، ويحفر لها الحفرة، ويدفنها، وهي حية، هذا لا يكون ـ والعياذ بالله تعالى - إلَّا من الكفر وتزيين العمل السيء لصاحبه، ولذلك زُين لقومٍ من الجاهلية هذا العمل، حتى أنهم يقولون: إنه يقف على الحفرة ليلقيها، وهي إذا هم أن يلقيها تتشبث به، وتقول: يا أبت يا أبت، فتستجير به، وهو جارها.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، [يتحيرون فيها]، وهذا، - والعياذ بالله - من عدم الإيمان أن الإنسان الذي لم تدركه الهداية تجده حائرًا؛ لأنه لم يؤمن، وأبرز مثال لذلك ما يقع لأهل الكلام من الحيرة؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله حق الإيمان به، أنكروا صفاته، وأنكروا ما جاء به كتابه، وسنة رسوله فصاروا متحيرين، ولهذا قال بعض الناس: (أكثر الناس شكًّا عند الموت أهل الكلام) - والعياذ بالله - ؛ لأنهم - نسأل الله العافية - ما آمنوا.

فكل إنسان يَضْعُفُ إيمانه يترتب عليه هذان الأمران السيئان: أولاً: تزيين العمل السئ في عينه، حتى يُمارسه، ولا ينتزع منه، والثاني: شكه، وحيرته، وتردده.

من هذا نعرف الآن أنه كلما قوي الإيمان بالآخرة عرف الإنسان الطريق، ولم يتردد فيه؛ لأن هذه نتيجة عملية حسابية، إذا كان هذا الوصف يقتضي هذا الوصف فعدمه يقتضي عدمه، معادلة بيِّنة جدًّا، فالذين لا يؤمنون بالآخرة ابتلوا بهذين الأمرين، والذين يؤمنون بالآخرة ينتفي عنهم هذان الأمران - نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا وإياكم من المؤمنين - فهم ليس عندهم إيمان في الحقيقة ولو كان عندهم إيمان في الحقيقة ما زيِّن لهم؛ لأن هذه الآية مقياس، فكل إنسان يُزين له سوء عمله فاعلم أنه ناقص الإيمان؛ لأنه لو كان عندهم إيمان حقيقي ما الذي يخرجهم عن طريق الرسول ﷺ؟!

إذنْ كلما ضعُف الإيمان بالآخرة ازداد التزيين للقبيح في عين الإنسان، وكلما ازداد الإيمان بالآخرة كره القبائح، وهذا أمرٌ مُسلم الآن.

على هذا يمكن أن نستنتج أن الرجل الذي يستحسن القبائح، أنه ضعيف الإيمان بالآخرة؛ لأنه لو قوي إيمانه بالآخرة ما حسُن في نفسه قبائح الأعمال، وهذا لا يستدل عليه، وفي الآيات - أيضًا - دليل على أن عدم الإيمان بالآخرة سببٌ للحيرة لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، وعلى هذا فالإيمان بالآخرة سببٌ لليقين، والنور، وهذا أمرٌ - أيضًا - مُشاهد، والإنسان ما يُصاب بعدم اليقين إلا بسبب أعماله، ونقص إيمانه، وكلما قوي الإيمان فعلمه يزداد، حتى بالأمور غير العلمية الشرعية يعطيه الله - تبارك وتعالى - فراسة يتبين بها الأشياء.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [أشده في الدنيا القتل والأسر]، قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المُشار إليه الذين لا يؤمنون بالآخرة، لما ذكر، - والعياذ بالله - طريقهم، وأنهم زُين لهم سوء أعمالهم، ذكر جزاءهم، ومآلهم فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، ثم بين المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بما يكون في الدنيا من الأسر، والقتل، ولكنه لا ينبغي أن يُقيد به، بل يُقال أن هذا من سوء العذاب الذي ينالهم، وهم ينالون سوء العذاب في الدنيا، وفي الآخرة، ومن أجل ذلك لم يكن لهم نصيبٌ في الآخرة، بل قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾، ﴿وَهُمْ﴾ الأولى: مبتدأ، والثانية: توكيد، ويجوز أن تكون ضمير فصل، لكن لما سبق لها نظير، وهي كلمة هم

فالأحسن أن تكون ضمير فصل ويستفاد من ضمير الفصل التوكيد، ونستفيد الحصر من تعريف المبتدأ، والخبر ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

والأخسر: اسم تفضيل مأخوذ من الخسران، وهو النقص، وحصر الأخسرية فيهم دليلٌ على أن هناك خسارةً في غيرهم، لكن هم الأخسرون، والخسارة التي تكون لغيرهم هي أن الفُسَّاق من المؤمنين يُعذبون بقدر ذنوبهم، وهذا خسارة؛ لأنه لم يكمل لهم النعيم في الآخرة، حيث عُذبوا على ما فعلوا من الذنوب فهذا لا شك أنه نقص، وأنه خسارة، ولكن الأخسر هؤلاء الذين يخلدون في النار، ولهذا يقول: المؤلف: [لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم].

وعليه فإن الناس في الآخرة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: رابحون، وخاسرون، وأخسرون: فالرابح: الذي مَنَّ الله عليه فخرج من الدنيا، وهو لايستحق العقاب في الآخرة، سواءٌ كان ذلك لتوبة، أو لمصائب تكفِّر، أو لأعمال صالحة جليلة جدًّا تضمحل معها الأعمال السيئة، فأهل بدر قال الله لهم: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1]، ولو عملوا مهما عملوا من الذنوب، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يغفره لهم بسبب الحسنات العظيمة التي قاموا بها في غزوة بدر، وقد يكون ـ أيضًا ـ هذا الإنسان الذي عمل سيئًا في الدنيا قد يعفو الله عنه؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فتكون حاله في الآخرة إحسانًا، والثاني الخاسر غير الأخسر: وهو الذي أصاب بعض الذنوب، ولم يُقدر له الخلاص منها فعوقب عليها، والأخسر: هو الذي لا حظ له في الآخرة، ما لهم في الآخرة من خلاق، وهم الكفار.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ، وهذا الخطاب مؤكد بإنَّ ثم مؤكدٌ بتأكيدٍ آخر، وهو قوله تعالى: ﴿لَتُلَقَّى﴾؛ لأن اللام هذه للتوكيد، وفي إعراب بعضهم قال: إنها اللام المزحلقة، ما معنى مزحلقة؟ يعني: مؤخرة، يقولون: إن الأصل أن تكون في أول الكلام، ولكن لما كان في أول الكلام مؤكِّد صارت اللام تؤخر؛ لأنه لا يجتمع موكدان في مكانٍ واحد، ولا هي تتمة للتوكيد، لكن إذا سُئلنا أين محلها؟ نقول: في أول الجملة، ولكنها زحلقت من أجل أن في أول الجملة مؤكدًا آخر.

وقوله: [﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يُلقى عليك بشدة ﴿مِن لَّدُنْ﴾ من عند ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، في ذلك].

ومعنى التلقية: التلقين، والإعطاء، لقيت كذا، بمعنى: لقنته إياه إذا كان ذكرًا، أو أعطيته إياه إذا كان عينًا، والقرآن ليس عينًا فيُعطى، ولكنه ذكرٌ يُلقن، والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يُلقَّن القرآن، وكان إذا سمعه من جبريل في أول الأمر يتعجل ﷺ بقراءته فنهاه الله عن ذلك قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٦ـ ١٧]، ضمان من الله ـ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (١٦١/ ٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

سبحانه وتعالى ـ أن يجمعه، ويقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨ ـ ١٩]، بيانه لفظًا، ومعنًى، وحكمًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾، سبق معنى القرآن: وأنه مشتقٌّ من قرأ بمعنى تلا، ومن قرأ بمعنى جمع، وقول المؤلف: [أي يُلقى عليك بشدة] من أين أخذ كلمة بشدة؟ من اللفظ تُلَقَّى، ولم يقل تَلقى أنت، فكأنه يُلقَّاه، كأنه يُشعر بالشدة، ولكنه ما يتبين لي كثيرًا، إنما لا شك أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجد من تلقى الوحي يجد شَدةً(١)، فدلالة تُلقى: فيها غموض الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ﴾ [من عند]، يعني أن لدن بمعنى عند، ويُقال فيها ـ أيضًا ـ لدى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩]، نعم،قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، لدنا: هي لدن، ولديَّ: هي لدى، فيُقال هذا، وهذا، لكن القرآن، كما هو معلوم توقيفي، لا يمكن أن نبدل لفظًا مكان آخر، ولو كان بمعنى آخر.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ المراد به الله ـ سبحانه وتعالى ـ، والحكيم: مرَّ علينا أنه مشتق من الحكم، والإحكام الذي بمعنى الإتقان، وهو الحكمة.

والحكم الثابت لله – عز وجل –، أو المُتصف به الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسم إلى قسمين: حكم شرعي، وحكم قدري.

الحكم الشرعي كثير في القرآن، كما في قوله ـ تعالى ـ في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]، لما ذكر أحكام النساء الكافرات، والنساء المهاجرات قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، والحكم القدري مثل قول أخي يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾[يوسف: ٨٠] يعني يُقدر، هنا ما ينتظر حكمًا شرعيًا، وإنما ينتظر حكمًا قدريًا.

الحكم الشرعي هل تمكن مخالفته؟ نعم تمكن، من الناس من يقبله، ومن الناس من لا يقبله، والحكم القدري: لا تمكن مخالفته إذن، فهو واقع لا محالة، إذا حكم الله ـ تعالى ـ بشيء قدرًا، فهو واقع لا محالة.

الحكم الشرعي محبوبٌ لله، أو مبغوضٌ إليه؟

محبوب، ومبغوض، إذا حكم بفعل الشيء، فهو محبوب، وإذا حكم بتركه، فهو مكروه، فالله ـ تعالى ـ حكم بتحريم الزنا مثلاً وهو مكروهٌ له، حكم بتحريم الشرك، وهو مكروهٌ له.

كذلك الحكم الكوني فيه محبوبٌ، ومكروهٌ له، ولا يمكن أن نعارض ذلك فنقول: كيف يقع الحكم الكوني، وهو مكروهٌ له؟ إذن معناه: أنه يُجبر، يعني: يفعل الشيء، وهو يكرهه، هذا لا يكون إلا في إنسان يُجبر، أو في فاعلٍ يُجبر، فهل الله ـ تعالى ـ يُجبر؟ إذن كيف تقول: إن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥) ومسلم (١٤٨/ ٤٤٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

في الحكم الكوني ما هو مكروهٌ لله؟

إذن هو مكروهٌ من وجه، ومحبوبٌ من وجهٍ آخر، فهو من حيث ذاته مكروهٌ لله ـ سبحانه ـ وتعالى ـ فالمعاصي الله يُقدرها، الله ـ تعالى ـ يُقدر المعاصي مع أنه يكرهها، لكنه محبوبٌ إليه من وجهٍ آخر، ويكون هذا الوجه أقوي من الوجه الآخر، فيقع هذا الشيء فيفعل هذا الشيء.

إذن الحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ مشتقة من الحكم، والإحكام، والحكم المتصف به الله - تعالى - منقسم إلى قسمين:

كوني، وشرعي، ولكل منهما حكم: أولاً: الحكم الشرعي: لا يلزم منه وقوع المحكوم به؛ لأنه قد يقع، وقد لا يقع.

والحكم الكوني: يلزم منه وقوع المحكوم به في كل حال.

أما من حيث الكراهة، والبغض لله فنقول: كلاهما محبوبٌ، ومكروهٌ لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

الآن الحكم الشرعي تحريم الزنا مثلًا محبوب إليه لكنه محكوم به؛ لأنه مكروه إلى الله، الحكم الشرعي منه محكوم به محبوب، ومنه مكروه بمعنى المحكوم به بالكراهة مثلًا حكم الله بتحريم الزنا؛ لأنه مكروه إليه ، وحكم بالصلاة؛ لأنها محبوبة إليه، وأما نفس الحكم الذي هو فعله فهذا أمر ما يفهم؛ لأنه ما حكم بشيء إلا أنه يحب أن يكون كذلك.

إذن بالنسبة للإحكام: الإحكام بمعنى الإتقان، وهي الحكمة: تنزيل الأشياء في منازلها، ووضعها في مواضعها لا شك أن هذا إتقان، والله ـ تبارك وتعالى ـ متصفٌ بالحكمة البالغة، حكمةٌ بالغةٌ، فهو يضع الأشياء في مواضعها، فالحكمة تكون في صورة الشيء، وفي غايته: في صورة الشيء، ووقوعه على هذا النحو، وتكون ـ أيضًا ـ في غاية هذا الشيء، وتكون ـ أيضا ـ الحكمة في الأمور الشرعية، وفي الأمور القدرية؛ لأن الحكمين السابقين الكوني، والشرعي كلاهما مشتملٌ على الحكمة، وعلى هذا تكون الحكمة في الأحكام الكونية، وفي الأحكام الشرعية، وتكون في الصورية بمعنى أنه على هذه الصورة المعينة توجد حكمة، وغائية: بمعنى ما ينتج عليه أو منه من الغايات المحمودة، عندما مثلاً نتأمل الشريعة نجد أن وضعها على ما هو عليه هذا هو الحكمة؛ لأنها كلها تنشد المصالح، وتدرأ المفاسد، هذه القاعدة العامة في الشريعة، إذن هي على هذا الوجه، أو هذه الصورة موافقة للشرع ثم إن الحكمة الغائية: ما هي ثمرة هذه الشريعة التي تتمثل فيها؟ هي السعادة في الدنيا، وفي الآخرة، وهذه لا شك أنها غاية محمودة، وأن تشريع الأمور من أجل هذه الغاية أنه حكمة.

كذلك نأتي إلى الأمور القدرية: نقول: إن الأمور القدرية ـ أيضًا ـ ، وضعها على ما هو عليه في هذه الصورة، فهو حكمة، ثم الغاية منها حكمةٌ ـ أيضًا ـ ، لكن هذه الحكمة في صورة الشيء، وفي غاية الشيء شرعًا، أو قدرًا قد تكون معلومة للعباد، وقد تكون مجهولة، ولكن ما هو فرضنا نحن

فيما نجهله من فتن الأمور؟ فرضنا الإيمان والتسليم نحن نؤمن بأن ما من شيء يفعله الله إلا وله حكمة، يجب علينا أن نؤمن بهذا؛ لأن هذا مقتضى وصفه بالحكيم، لكننا قد نفهم هذا الشيء، وقد لا نفهم ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩]، لكن علينا أن نؤمن هذا الإيمان، ونحن إذا آمنا هذا الإيمان فسوف نستبدل، وسوف نرضى بالشرع، وبالقدر ونعلم أن هذا هو العلم.

عندما نتأمل الآن أحوال المسلمين، وضعف دينهم، وانصرافهم عن الدين، لا شك أن هذا يُحزننا، ولكننا إذا نظرنا إليه من جهةٍ أخرى، وجدنا أنه مُقدر من جهة الله، وأنه لا بد أن يكون لهذا حكمة، لكننا قد لا نعلمها، وهذا يجب أن تجعله جاريًا على جميع أحوالك الخاصة، والعامة، أن تتيقن أن هذا لحكمة، ولكن تيقننا للحكمة لا يمنعنا من فعل الأسباب الشرعية التي أُمِرنا بها، مثال ذلك مسألة ضعف المسلمين، وانصرافهم، هذا يُوجب لنا أن نتحرك أكثر للدعوة إلى الإسلام، وبيان محاسنه، والتحذير من مخالفته، وسوء العاقبة للعصاة، والفاسقين، هذا يوجب لنا أن نتحرك أكثر، وهذا من الحكمة أن يتحرك أهل الخير، والدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - وبيان الحق، وبيان العاقبة الحميدة لمن تمسك بدين الله، لأجل أن يكثر سوادهم، ولأجل أن يدخل الناس في دين الله عن اقتناع؛ لأني أظن أن الناس لو وُجدوا على حالة معينة، هل يدركون هذه الحال المعينة على حقيقتها؟ لا؛ لأنها أمرٌ معتاد عندهم، وقد لا يفهمون ما ينتج عنها من خير، أو من شر، لكن عندما يوغرون في الشر، وينتهون إلى غايته ثم يبين لهم الحق، ويرجعون إليه، يكون هذا أحسن حالًا من الحال الأولى التي وجدوا أباءهم على شيء فمشوا عليها؛ لأنهم الآن يأتون عن اقتناع، وعن محبة لهذا الأمر الجديد الذي بُيِّن لهم.

ولذلك الآن - الحمد لله - توجد بادرة طيبة في جميع الأقطار الإسلامية، بادرة الرجوع للإسلام عن اقتناع، ولا شك في ذلك، وهذا من الحكمة في أن الله - سبحانه وتعالى - يقدر مثل هذه الأمور المكروهة في الدين لأجل أن تكون غاية لما هو أحمد.

وقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ العليم معناها: المتصف بالعلم، والعلم كما حدده أهل الأصول: هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا مطابقًا، ولا شك أن الله - سبحانه وتعالى - له من هذا الوصف أتمه، وأعلاه، فهو - سبحانه وتعالى - عليمٌ علمًا مطلقًا لم يُسبق بجهلٍ، ولم يُلحق بنسيان، ولا يُحد بحد، وعلم المخلوق مسبوق بالجهل ملحقٌ بالنسيان، ومحدود - أيضًا -، ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥]، بخلاف علم الله.

وهنا قُدِّم الحكيم على العليم، وأكثر ما يرد في القرآن تقديم العليم على الحكيم إذن ما الحكمة من تقديم الحكيم على العليم؟ لأن تلقي القرآن مشتمل على الشريعة، والشريعة فيها أوامر ونواهٍ، وإذا لم نعتقد أن هذه الأوامر والنواهي مبنية على الحكمة فإنه يضعُف إنقيادنا لها، ولهذا قدم

الحكمة، أما العلم فإنه مفهومٌ من قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لأنه بمجرد تلقي القرآن، يكون العلم، لكن هل هذا الموجود في القرآن هو أصل الحكمة؟

نعم، هو موافق في الواقع، ولذلك قدِّمت الحكمة لأجل أن يشعر الإنسان قبل كل شيء بأن ما تلقاه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من القرآن فإنه حكمة، نظير ذلك في سورة الذاريات ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٩ ـ ٣٠]، وما قال العليم الحكيم، لماذا؟؛ لأن، ولادة العجوز أمرٌ خارج عن العادة؛ لأنه كيف تلد العجوز، ولماذا؟ فقدمت الحكمة لأجل أن يشعر الإنسان قبل كل شيء أن هذا الأمر النافذ الخارج عن العادة صادرٌ عن حكمة، وليس عن سفه، أو عن أمرٍ سبقي.

إذن هذا مثلها، نقول قُدم اسم الحكيم الذي يدل على وصف الله ـ تعالى ـ بالحكمة في هذا المقام؛ لأن ما يُلقاه ﷺ من القرآن مشتملٌ على التشريع الذي يحتاج إلى بيان الحكمة فيه، حتى يقتنع به المرء، ولذلك قدمت الحكمة على العلم، أما العلم فإنه مفهومٌ من كلمة تُلَقَّى؛ لأنه إذا لُقِّي القرآن فقد عُلِم، لذلك صار في المرتبة الثانية.

السؤال الثاني: ما هو الحكمة من اقتران الحكمة بالعلم؟ تجد أن الحكيم مقرونًا بالعليم كثيرًا، ويُقرن بالعزيز ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ـ أيضًا ـ، فما الحكمة من ذلك؟

الجواب البيِّن أن نقول: إن الحكمة قد تخفى على بعض الناس فهل خفاؤها علينا يقتضي أنها ليست معلومة عند الله؟ لا، وكأنه جمع بينهما ليتبين أن هذه الحكمة معلومة عند الله، وإن خفيت علينا، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ حكيم عليم، يضع الأشياء في مواضعها، وإن خفي علينا ذلك، ما نقول مثلًا: إذا شرع الله شيئًا، أو قضى بشيء إن هذا ليس عن علم، بل هو عن علم، حتى لو فُرض أننا نحن لم نعلم حكمته، ووجهته، فهذا هو وجه الجمع في القرآن الكريم في آيات كثيرة بين العلم، والحكمة.

الخلاصة أن نقول: لما كانت الحكمة تخفى على العباد قرنها الله ـ تعالى ـ بالعلم ليطمئن المرء إلى أن هذه الحكمة معلومة عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وإن كانت خافية علينا.



قال الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النمل: ٧ - ١١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ قال المؤلف: [اذكر إذ قال]، وهذه طريقته، وهي - أيضًا - معروفة عند النحويين أن إذ ظرف، والظرف لابد له من عامل ومتعلَّق فيقدرون اذكر دائمًا في مثل هذا التفصيل، اذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ﴾، وموسى - عليه الصلاة والسلام - هو أفضل أنبياء بني إسرائيل، ويقع بين أولي العزم في المرتبة الثالثة؛ لأن أولي العزم من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أفضلهم النبي ﷺ ثم إبراهيم ثم موسى، وعيسى، ونوح، ما يجد الإنسان بينهما مُفاضلة؛ لأن لكل واحد منهما مزية ليست للآخر، ولهذا ما نُرجح واحدًا منهما على الآخر، أما الأولون الثلاثة فالتفريق بينهم واضح.

هل الترجيح بينهم من السنة؟

لا، ولكن هذا من باب بيان الفضل، لكن المُفاضلة على سبيل المُفاخرة هذه لا تجوز

وفي الآية الثانية ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الشورى: ١٣]، والظاهر - والله أعلم - أن نوحًا قُدِّم هنا؛ لأنه هو صاحب أول الرسالات، لا لأنه أفضل، ولا شك أنه أول رسول، وهارون هذا أخوه، ولكن لم يُذكر له نبوة في القرآن.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

إلى آخر القصة، وهذه من جملة ما يُلقَّاه النبي ﷺ من القرآن، وهي قصص الأنبياء، وفائدة ذكر هذه القصص ما ذكره الله - تبارك وتعالى - في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، عبرة نعتبر بها في أحكامها، وفي عواقبها، ولهذا الصحيح أن ما ذُكر من هذه القصص من الأحكام فإنه يجوز لنا أن نتبعه، وأن نقتديَ به لقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، كذلك نعتبر مما جرى من العواقب للرسل، وأتباعهم، وما جرى من العواقب لمخالفيهم، ومعلومٌ أن عاقبة الأولين عاقبةٌ محمودة، وعاقبة الآخرين سيئة.

فمن جملة القصص التي كثر ذكرها في القرآن قصة موسى، ولا غرو أن تكثر في السور المدنية؛

لأن المدينة كان بها طائفة من اليهود، حتى يتبين أمرهم، ولهذا فصلت أحوالهم كثيرًا في سورة البقرة، وأما ذكر قصة موسى في السور المكية كهذه، فإن فائدتها التوطئة، والتمهيد للنبي ﷺ حتى يكون على بصيرة من أمرهم، وهذا التوجيه وهو الاستعداد للمستقبل سلكه النبي ﷺ أخذًا بتوجيه القرآن، كما قال لمعاذ بن جبل: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»(١).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾، وأظننا تكلمنا عن موسى - عليه الصلاة السلام -، وأنه موسى بن عمران، وأنه أفضل أنبياء بني إسرائيل،قوله تعالى: ﴿لِأَهْلِهِۦٓ﴾ [زوجته عند مسيره من مدين إلى مصر]، يقول: [زوجته] لماذا؟

١- لأنه خرج من مصر، وحيدًا والتقى بالمرأتين، ثم اتصل بأبيهما ثم زوَّجه على أن يأجره ثماني حجج، وانتهت الحجج.

٢ - عند مسيره من مدين إلى مصر، وبهذه المناسبة بعض الناس يظنون أن صاحب مدين هو شعيب النبي، وليس كذلك، فإن بينه، وبين موسى برهة من الزمن، وإنما صاحب مدين رجلٌ من أهل مدين هذا هو الصحيح بلا شك.

وقوله تعالى : ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ﴾ [أبصرت من بعيدٍ] ﴿نَارًا﴾، قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ﴾ جملة مقول القول، ولهذا كسرت إن، وقال تعالى : ﴿ءَانَسْتُ﴾ أبصرت من بعيد، آنس: أبصر، وكونها من بعيد ما يدل عليه اللفظ في الحقيقة اللهم إلا أن يُقال: إن الإيناس لا يدل على القرب، إنما يدل على الخفاء، والخفاء في النارما يكون إلا إذا كانت بعيدةً.

وقوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ السين للتنفيس، وقد ذكرنا فيما سبق أنها إذا دخلت على الجملة، وهي - طبعًا - لا تدخل إلا على المضارع وهي تفيد أمرين: هما: القرب، والثاني: التحقق.

قوله تعالى: ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠]، آتيكم أو أتيكم؟ وما الفرق؟ آتيكم: أي أعطيكم، وأتيكم بمعنى: أجيئكم، هكذا يصير، أو أنه خطأ؟

أتيتُ: مضارعه يأتي، آتيتُ: أُوتِيَ، إذن فآتيكم بمعنى: أجيئكم، أي: أنا آتيكم على كل حال، والإنسان ما يتبادر إلى ذهنه يطلب الجميع وهنا قال تعالى : ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾، وفي آية أخرى ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه: ١٠]، فهل بينهما فرق أم هما بمعنى واحد؟

ولكن قد يكونا بمعنىً واحد؛ لأن لعل قد تأتي للتوقع، فقد أخذنا فيما سبق في النحو أن لعل تكون للترجي، والإشفاق، والتعليل، والتوقع، فإذا كانت للتوقع صار معناها: التوكيد، أما إذا قلنا إن لعل للرجاء، فهو رجاء أولاً ثم قوي، وجزم به، وقال: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [عن حال الطريق، وكان قد ضلها] هذا، واضح؛ لأن الخبر

(١) تقدم تخريجه.

الذي يريده خبر من يدله على الطريق؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قد ضلها.

قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [بالإضافة للبيان، وتركها] أي: ترك الإضافة فهي قراءتان﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابِ قَبَسٍ﴾ أو قوله تعالى: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، أما إذا كانت ﴿بشهابِ قبس﴾ فهي للبيان، كما قال المؤلف: ، [والإضافة إذا كانت للبيان فهي على تقدير مِن]، مثلما يُقال: خاتمُ حديدٍ: أي خاتمٌ من حديد، فهنا شهابِ قبسٍ: أي شهاب من قبس هنا بيانية، أما إذا كانت ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ صارت قبس صفة لشهاب، صفة مبينة ـ أيضًا ـ ، فيكون الإضافة، والقصر بمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ﴾ هل أو هذه مانعةُ جمعٍ، أو مانعةُ خلو؟ مانعة الجمع: لا يكون إلا أحد الأمرين إما هذا، أو هذا، ومانعة الخلو: ما يخلو الأمر من واحد منهما، أو منهما جميعًا، وهي تشبه قول النحويين: إن (أو) تأتي للإباحة، وللتخيير، إذا كانت في سياق الطلب، تقول: مثلاً تزوج هندًا، أو أختها هذه للتخيير لا تأتي للإباحة، جَالِس فلانًا، أو فلانًا، هذه للإباحة، كُل خُبزًا، أو أرزًا هذه للإباحة، لو للإباحة ما تمنع الجمع، ولو للتخيير تمنع الجمع، وإذا كانت أو في خبر فإنهم يسمونها مانعة خلو، أو مانعة جمع، إذن إذا كانت مانعة خلو بمعنى أنه يمكن أن نأتي بالأمرين جميعًا، الدلالة، والشهاب القبس، وفُهم من هذا الكلام ﴿ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أن الليلة كانت باردة، وما أحوج الضال في الطريق في ليلة باردة إلى نارٍ يصطلي بها، وإلى أهل نارٍ يخبرونه عن الطريق؛ لأن النار معلوم أنها ما تكون، وحدها لابد أن يكون عندها أحد يُخبر.

وقوله تعالى : [﴿أَوْ ءَاتِيكُم﴾ بشعلة نارٍ في رأس فتيلة، أو عود]، هذا القبس الذي يُقتبس منه، وهذه تكون، كما قال المؤلف: [شعلة نار في رأس فتيلة، أو عود].

وقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ لعل هنا للتعليل أي: لأجل أن تصطلوا بها، والطاء بدل من تاء الافتعال، اصطلى أصله اصتلى بالتاء على، وزن افتعل، لكن أبدلت التاء طاءًا لسببٍ صرفي.

قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ الطاء بدلاً من تاء الافتعال من صَلِي بالنار بكسر اللام، وفتحها، تستدفئون من البرد، وما أحلى النار التي يصطلي بها الإنسان في حال البرد.

ذهب موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وبقي أهله في هذا المكان، وذهب هو وحده للنار لعله يأتيهم بالخبر، أو بالشهاب.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ فيها حذف، والتقدير فذهب فلما جاءها، ومن ثَمَّ هذا الإيجاز إيجاز الحذف؛ لأن الإيجاز عندهم في البلاغة إما إيجاز قِصَر، وإما إيجاز حذف، فإذا كانت الجملة

القصيرة تشتمل على معانٍ كثيرة من دون حذف يُسمى إيجاز قصر، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ هذه جملة مختصرة، لكنها تتضمن معانٍ كثيرة، فعلماء البيان يُسمون هذا إيجاز قِصَر، وهو: أن تكون الجملة قصيرة، لكنها متضمنة لمعانٍ كثيرة.

إيجاز الحذف معناه: قِصر الجملة، لكن الجملة نفسها ما تتضمن معانٍ كثيرة إلا بتقدير أشياء مخصوصة، هذا من إيجاز القِصر، ومن إيجاز الحذف، وأمثلته في القرآن كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، فيها إيجاز حذف، والتقدير: تعذر فعدة من أيام أُخر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ﴾ أي: [بأن ﴿بُورِكَ﴾ أي: بارك الله ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ أي: موسى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي الملائكة، أو العكس]، قوله تعالى: ﴿نُودِيَ﴾ المنادِي هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والدليل: أنه في آيات أخرى صرح بذلك ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، فالمنادي هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله تعالى: ﴿أَن﴾ أي: [بأن]، أفادنا المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن هنا مخففة من الثقيلة حينما قدَّر الباء؛ لأن تقدير الباء يدل على أن ما بعدها مؤولًا بمصدر، وهناك قولٌ آخر يجعلون أن تفصيلية، مثل ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ نعم ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] ويقولون: إن ﴿نُودِيَ﴾ متضمن لمعنى القول حين نُودِيَ، وأن إذا سُبقت بما يتضمن معنى القول دون حروفه فهي تفصيلية، ولكن من حيث المعنى واحد ولكن الاختلاف في الإعراب.

قوله تعالى: ﴿بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ قال المُفسِّر: [بارك الله من في النار]، قدَّر هذا ليبين أن فاعل البركة الله، وأن (بارك) يتعدى بنفسهِ بارك اللهُ فلانًا، وكما يُقال: بارك الله في فلان، فهو يتعدى بنفسه ويتعدى بحرف الجر، يقول: المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بارك الله مَن في النار] من أعربها المفسر بدون تقدير المُفسِّر اسم موصول في محل رفع نائب فاعل.

وقوله تعالى: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ أي: موسى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: الملائكة، أو العكس، أي: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ أي الملائكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: موسى، واحتمالٌ ثالث: أن يكون من في النار موسى، ومن حولها البلاد التي حول هذه النار؛ لأنها بلاد الشام مباركة، أو: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي أهله، كل ذلك سيأتي معناه.

تجد قوله تعالى: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ فيه إشكال في الحقيقة؛ لأن في الظرفية، والنار ظرف فهل موسى في النار، المؤلف فطن لهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [و قوله تعالى: ﴿بُورِكَ﴾ يتعدى بنفسه، وبالحرف، ويُقدر بعد ﴿فِي﴾ مكان؛ أي من في مكان النار؛ لأنه لو كان في النار حقيقةً لاحترق، ولكن يُقدر مكان، فإذا قيل: ما الفائدة من قوله تعالى: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾، وحذف المكان؟

قلنا: الفائدة من ذلك ـ والله أعلم ـ هي الشيء الأول: القرب التام منها، والشيء الثاني: أن

شعاع النار قد وصل هذا القريب منها يعني: النار، كما هو واضح لها شعاع، والإنسان القريب منها يكون في نفس الشعاع، فكأنه لقربه ووصول شعاع النار إليه صار كأنه فيها، - هذا والله أعلم - الحكمة من قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾.

وقد يسأل شخص ما: هل هذه النار حقيقية؟ نعم، حقيقة هذا هو الأصل .

هذه النار ما هو وقودها؟ ما لنا أن نقول إلا ما قال الله، ما ندري، وما لنا ألا نتكلم.

الكثير من المفسرين يقولون حول الموضوع هذا: أراد أن يأخذ منها شيئًا، فاتجهت إليه ثم انقلبت إلى نور؟

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩] فكل علم يأتينا عن هؤلاء الأمم من غير القرآن، أو صحيح السنة فليس بشيء، غاية ما هنالك أن يكون من أقوال بني إسرائيل التي لا تصدق، ولا تكذب، ولهذا القصص لا يجب أن نتعدى فيها القرآن، أو ما جاءت به السنة؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ معناها: قطع أي خبر يأتي من غير طريق الله؛ لأن لو كان هناك أخبار صحيحة تأتي من غير الله لكان الله يعلمها، وهؤلاء المفسرون - أيضًا - يعلمونها، والله - تعالى - حصر ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهذا من أقوى طرق الحصر الذي هو النفي، والإثبات ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهذه الآية تبين لنا: إن قيل: ما يُقال في هذه القصة، وكذلك في قصة سليمان، وداود، وغيرهم من المسائل إن كان الشرع ينافيها، أو مقام النبوة ينافيها، فهي باطلة وكذب، كما في قصة داود ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [ص: ٢٣]، الخ، وإن كانت غير مبينة في شرعنا فموقفنا فيها أن نقول: لا نصدق، ولا نكذب أما أن نفسر بها كلام الله فهذا لا يجوز أن يفسر بها كلام الله.

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معلوم أن (سبحان) اسم مصدر، وأن عمله محذوف دائمًا، وأنه ملازمٌ للإضافة، وأن معنى سبحان الله: أي تنزيه الله - سبحانه وتعالى - عن كل نقص وعيب، ولكن هل الجملة هنا خبرية بمعنى الطلب، أو خبرية على ظاهرها؟

يقول بعض المفسرين: إنها تعجيبٌ لموسى، يعني: أعجب، وأسبح الله - سبحانه وتعالى - عما لا يليق به، وأن هذا الأمر الذي رأيت، والكلام الذي سمعت ما هو إلا كلام رب العالمين فسبحان الله رب العالمين، فعلى هذا تكون الجملة الخبرية هنا من حيث المعنى طلبية أي: سبح الله رب العالمين عما لا يليق به، وإذا قلنا: إنها على ظاهرها صار معناه: أنه ثناءٌ من الله - عَزَّ وجَلَّ المُكلم المُنادي - على نفسه، أي المعنيين أشمل؟ الأول: الطلبية؛ لأنها تتضمن إذا أُمر بها موسى تتضمن أن الله أهلٌ لها فهذا هو الخبر، وتتضمن الثانية، وهو تعجيب موسى - عليه الصلاة والسلام -، واعتقاده بأن الله - سبحانه وتعالى - منزه عن كل عيب.

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ما معنى الرب؟: المالك المتصرف، لكنها - أيضًا - متضمنة لمعنىً أدق، وهو التربية، فهو - سبحانه وتعالى - يربى مع كونه خالقًا مدبرًا متصرفًا.

وقوله تعالى: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ كلُّ ما سوى الله، فهو من العالمين، وسُموا (عالمين) قيل: لأنهم علمٌ على خالقهم، علمٌ ودليلٌ عليه، فإن ما في الكون شاهدٌ بوحدانية الله - تبارك وتعالى - ، وبما تقتضيه هذه الأقوام لمعاني ربوبيته - سبحانه وتعالى - .

قوله تعالى: ﴿رَبِّ﴾ معناها: أنه يُربي عباده تربية حسية، ومعنوية، فالتربية الحسية مثلاً لنضرب مثلاً بالإنسان كونه في الخلقة يتطور من شيء إلى شيء عقلاً، وجسمًا، وفكرًا هذه تربية، هذا الطفل الصغير لو فرضنا أن عقله كالكبير ممكن أن يعيش؟ لا يمكن أن يعيش؛ لأنه لا يتحمل الأشياء التي تقابله، فهذا الطفل لو فرضنا أنه بعقل الكبير ما يستقر أبدًا، وكان ينخدع، وبالعكس لو كان الكبير بعقل الصغير ما استطاع أن يفعل شيئًا، وهكذا - أيضًا - الطعام يأتي إلى الإنسان شيئًا فشيئًا، هذه من التربية الحسية، والتربية المعنوية: ظاهره أن الله - سبحانه وتعالى - يربي عباده بالعلم النافع شيئًا فشيئًا.

قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يا موسى [من جملة ما نودي، ومعناه: تنزيه الله من السوء يقصد معنى التنزيه].

ثم قال الله تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ﴾ أي: [الشأن] ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذا تفسير الضمير، ضمير الشأن هو ضمير يتصل، ويُفسر بالجملة التي بعده، فعلى هذا يكون ﴿إِنَّهُ﴾ هذا الشأن، و قوله تعالى: ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذه تفسيرٌ لهذا الضمير، أما من حيث الإعراب فإننا نقول: (إنَّ): حرف توكيد ينصب الاسم، ويرفع الخبر، والهاء: اسمها، و قوله تعالى: ﴿أَنَا اللَّهُ﴾، الخبر، والجملة في محل رفع خبر إنَّ، وقال بعض المفسرين: ﴿إِنَّهُ أَنَا﴾ فرأوا أن الهاء ضمير لا ضمير شأن، ضمير حقيقي للغائب، أي إن الذي يكلمك أنا، ثم بيَّن هذا الضمير بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، لكن ما سلكه المؤلف أقرب، وإن كان الثاني مشتملاً على المعنيين، الثاني يقول: إنَّ: حرف توكيد ينصب الاسم، ويرفع الخبر، والهاء: اسمها، وليس ضمير شأن، و قوله تعالى: ﴿أَنَا﴾ خبرها، والأول يرون أن ﴿أَنَا اللَّهُ﴾ مبتدأ وخبره، يعني: أن الله قال لموسى: ﴿إِنَّهُ أَنَا﴾، يعني: إن الذي يكلمك أنا، وكلمة ﴿إِنَّهُ أَنَا﴾ هل يتبين من هو؟ ما يتبين، لذلك نُهي أن يقول: الإنسان إذا استأذن عند الباب، وقيل له: من فقال: أنا، إذن ﴿أَنَا﴾ هنا مبهمة بُينت بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هنا يستقيم لك أن الأول أقوم، قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الشأن ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فهذا الذي قدَّره المؤلف أحسن مما قدَّره بعض المفسرين مثل الزمخشري.

وقوله: ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال: الله ابتدأ بالألوهية، والله - تبارك وتعالى - هو الاسم العلم

على الله الذي لا يتسمى به غيره، وجميع ما يأتي من أسماء الله دائمًا تجدونها تبعًا لهذا الاسم، دائمًا يُقدَّر أسماء الله بكلمة الله؛ لأنه العلم الذي لا يُسمى به غيره ثم تأتي باقي الأسماء بعد ذلك تابعةٌ له، والعزيز ما معناه؟ القوي الذي لا يُغلب، بل هو الغالب.

وقيل: إن العزة تنقسم إلى ثلاث أقسام:

عزة الامتناع، وقالوا: إنها مشتقة من الأرض العزاز، يعني الصُّلبة القوية، ونحن نسميها باللغة العامية عزب، فالعزيز معناه: القوي الغالب الذي لا يُغلب إذا قلنا بهذه الثلاثة أتينا بالمعاني الثلاثة، عزة القدر، والامتناع.

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدم لنا الكلام عليه.

وإنما ذكر الله له ذلك ليشعره بأن مآله للعز، وأنما سيوحى إليه، فهو حكمة؛ لأن الصادر من العزيز يكون عزيزًا، ومن الحكيم يكون حكمة.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ ما هي العصا التي معه؟ عصا يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، عصا عادية، وإضافتها إلى موسى - عليه الصلاة والسلام - إضافة مملوكٍ إلى مالكه، وليس مخصوصًا إلى من اختص به، أي أن هذا العصا ليس له اختصاص، وأنه عصا من جوهر معين، وما أشبه ذلك، وعصى عاص،قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها،قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ هذا - أيضًا - من إيجاز الحذف، كما مر، ودائمًا القصص ما يكون فيها إيجاز حذف؛ لأن المحذوف، يكون معلومًا من السياق فيكون حذفُه سهلاً، ومُيَّسر، وقد قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الألفية» قاعدة من آكد ما يكون، وذكرها في باب المبتدأ، وهي صالحة لكل شيء فقال:

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا تقول زيدٌ بَعْدَ مَنْ عِنْدَكُما

(وحذف ما يُعلم جائز) هذه قاعدة قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك، ولكن تفسير الاهتزاز بمطلق التحرك فيه نظر؛ لأن الاهتزاز أبلغ من التحرك؛ لأن الاهتزاز فيه نوع من القوة، والاضطراب.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [حيةٌ خفيفة]، وقيل: حيةٌ عظيمة، وقيل: الذكر من الحيَّات، وأيًّا كان فإنها صارت هذه العصا التي كانت في يده عقب ما ألقاها حية تهتز، وتتحرك، وتضطرب مثل الجان.

جان: تطلق على الجان والحية؛ فهي من الأسماء المشتركة.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ لو أخذنا الآية بظاهرها لكانت تهتز، وهي بيده قبل أن يلقيها، لكنه قال في موضع آخر: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠].

فألقاها قبلُ مثلما قدره المؤلف، فألقاها محذوف لابد من تقديره؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما قال له الله ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ لو أخذنا بظاهر القرآن كان لما أُمر أن يلقي عصاه اهتزت، فلابد من تقدير الفعل.

قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾، ولَّى: هذه جواب لَمَّا، مدبرًا: حال، يعني هاربًا، لهذا يقول: ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يرجع، لماذا ولى؟ خوفًا منها؛ لأنها بطبيعة البشر إن إنسان ألقى عصاه، وصارت حية لابد أن يخاف لاسيما، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما علم أنه سيرسل، وأنه رسول، وإنما كلمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإلى الآن ما صار شيئًا.

فالحاصل: هذه طبيعة البشر لابد أن يوليَ، وليس في هذا نقص من النبي – صلى الله عليه وسلم –؛ لأن الأمور البشرية تعتري الرسل، وغيرهم، ولهذا كان الرسول ﷺ ينسى في أعظم العبادات في الصلاة، ويقول: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»[1]، وليس في هذا أي قدح للرسل.

قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ فقال الله تعالى له: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ منها، هذه فيها ـ أيضًا ـ إيجاز بالحذف، ونحن نقول ـ باختصار ـ : جميع القصص، ولاسيما القصص الطويلة غالبًا، يكون فيها إيجاز حذف، وأحيانًا، يكون جملة، وأحيانًا جمل، وسيأتينا – إن شاء الله – في القصص التي تلي هذه شيء كثير من هذا.

قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ وناداه باسمه ليطمئنه؛ لأن الإنسان الذي يناديك، وهو يعرفك تطمئن إليه أكثر، لم يقل: يا هذا لا تخف، بل قال: يا موسى؛ لأنه معلوم الذي يعرفك تطمئن إليه أكثر الآن لو مثلاً رأيت عدوًا، وفهمت أنه عدوَّك ثم رآك شخص فقال: يا فلان يا فلان تطمئن له أكثر؛ لأن هذا ما عمل لي سوءًا.

قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ منها، والتقدير: منها الذي أوجب للمؤلف أن يأتيَ به هو ظاهر السياق؛ لأن الظاهر أن موسى ﷺ، إنما هرب منها فقال: لا تخف.

قوله تعالى: [﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ عندي ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من حيةٍ]، وغيرها، معلوم أن الذي بحضرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يمكن أن يخاف من شيء؛ لأنه في كنف الله ـ تعالى ـ ، وفي جواره فلا يمكن أن يخاف، وهو عند الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هذا ـ أيضًا ـ فيه بَشارة لموسى ﷺ؛ لأنه عند الله، وأنه من المرسلين، ومعلومٌ أنه إذا بُشِّر بهذه البشارة سوف يزول عنه الخوف نهائيًا، وسوف يحل مكان الخوف أمنٌ، ومكان الذعر سرور.

ثم قال – جل وعلا – مستثنيًا: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قال المؤلف: [﴿إِلَّا﴾، لكن ﴿مَن ظَلَمَ﴾ نفسه ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا﴾ أتاه ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ أي: تاب

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤١٠) ومسلم (٨٩/ ٥٧٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أقبل التوبة وأغفر له]، قد يقول قائل: ما هذه الجملة، وللكلام الذي يليه ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، لكن موسى - عليه الصلاة والسلام - لما قال الله له: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ لعله تذكر أنه قد وقع منه خطيئة، وما الخطيئة؟ أنه قتل نفسًا، وكأنه عندما يتذكر هذا قد يستبعد في نفسه أن يكون من الرسل.

فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ ليذكره بما منَّ به عليه من التوبة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ بدل: المؤلف فسرها بقوله: [أتى حسنًا]؛ لأن ظاهره في الحقيقة ما يستقيم به المعنى،قوله تعالى: ﴿بَدَّلَ حُسْنًا﴾ بسوءٍ؛ لأن بدل تدل على أن هناك بدلًا، ومبدلًا منه، فإذا قلت: حسنًا بسوءٍ يصير الحسن مدفوع، والسوء مأخوذ، بدلتُ ثوبي بثوبك: أين المأخوذ؟ الأخير وهكذا. فهنا ﴿بَدَّلَ حُسْنًا﴾ لو أخذنا بظاهرها معناه: أنه ترك حسنًا، وترك سوءًا، ولهذا فسر المؤلف قوله تعالى: ﴿بَدَّلَ﴾ يأتي، والدليل على ذلك أنه لو كان المراد بالتبديل ظاهر معناه ما صحَّ أن يُعبَّر بقوله تعالى: ﴿بَعْدَ سُوءٍ﴾ لو كان كذلك لقال: بدَّل حسنًا بسوءٍ ما قال تعالى: ﴿بَعْدَ﴾، لما قال: بعد عُلِم أن بدَّل هنا بمعنى: استبدل، واستبدل بمعنى: أخذ، قال تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، وأخذ مثل ما أخذ الذي نعرفه، والمعنى من الآية الكريمة أن من أتى حسنًا بعد سوءٍ، فإن هذا الحسن يمحو السوء، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يعني: غفر له، ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إذا قال قائلٌ: ما مطابقتها للشرط؛ لأن ﴿مَن ظَلَمَ﴾ ما إعرابها؟ من: اسم شرط جازم، وليست اسمًا موصولاً مستثنى؛ لأن المستثنى هنا منقطع.

وقوله تعالى: ﴿مَن ظَلَمَ﴾ ظلم: فعل الشرط، وجملة ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ جواب الشرط أقول: لو قال قائلٌ: ما وجه ارتباط الجواب بالشرط؟

الجواب على هذا أن نقول: لما ذكر الله - سبحانه وتعالى - هذين الاثنين ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإنه يريد مقتضاه هنا، ومقتضى المغفرة أن يغفر لهذا الذي ظلم ثم بدل حسنًا بعد سوء، ومقتضى الرحمة - أيضًا - أن يرحمه، ونظير هذا قوله - تعالى - في المحاربين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يعني معناه: يسقط عنه الحد؛ لأن هذا مقتضى المغفرة، والرحمة، فهنا مقتضى المغفرة، والرحمة أن من بدل حسنًا بعد سوء، فإن الله - تبارك وتعالى - يغفر له، ويرحمه، يشمل الرسل، وغير الرسل.

ومن ثَمَّ حسُنَ أن يقول: المؤلف، ونقول معه - أيضًا - : إن ﴿إِلَّا﴾ هنا الاستثناء منقطع؛ لأنه يشمل الرسل، وغير الرسل.

الفوائد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

تَصۡطَلُونَ﴾:

١ ـ **يُستفاد من هذه الآية:** حُسن خلق موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذلك من مكالمته لأهله، ومراجعته إياهم فيما يحدث من الأمور؛ لأنه لم يذهب هو بدون أن يقول لهم هذا القول، مما يدل على أنه يتراجع معهم فيما يهمه.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الزوجة من الأهل، وهذا هو القول الصحيح، فعلى هذا آل النبي ﷺ يدخل فيهم أزواجه، وأنهم من الأهل، وقد اختلف العلماء فيما إذا أوصى الإنسان لأهله، أو أوقف لأهله هل يدخل الزوجات في ذلك أو لا؟

الذين يقولون بعدم الدخول، يردون ذلك إلى العرف، ويقولون: إن العرف عند الناس أن الزوجات ليست من الأهل، وإنما الأهل القرابة، فإذا أوقف الإنسان على أهل فلان، أو أوصى لهم دخل فيهم الزوجات بمقتضى اللغة، ثم إن وجدَ عرفٌ مختلف ينافي ذلك رجعنا فيه إلى العرف؛ لأن الصحيح أن الأقوال تردُ إلى أعراف الناس، وعاداتهم.

فإذا لم يوجد عرف رجعنا إلى الشرع، أو اللغة حسب ما يكون ذلك.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن الطبائع البشرية تطرأ حتى على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فإن موسى كان قد ضلَّ الطريق، ولم يهتدِ إليه، وقد أصابه البرد هو وأهله، والأنبياء والرسل لا يختلفون عن غيرهم إلا بالرسالة ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، فالأول: المماثلة بالبشرية، والثاني: الاختصاص، يُوحى إليه بالوحي.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان لا يُلام على اتخاذه الوقاية الدافعة، أو الرافعة لقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ هذه الوقاية دافعةٌ رافعة، رافعةٌ للبرد السابق، ودافعةٌ للبرد اللاحق، فاتخاذ الوقاية الدافعة، أو الرافعة لا يُلام عليه، بل إنه ربما يؤمر به أمر إيجاب، أو أمر استحسان: حسب ما تقتضيه الحالة التي يريد أن يدفعها، أو يرفعها.

٥ ـ **ومن فوائدها:** قبول خبر الثقة ويؤخذ هذا من قوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ فالعمل بخبر الثقة هذا الشائع، وأما من ليس بثقة فقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦]، والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام:

قسمٌ يوثق به، وقسمٌ لا يوثق به، وقسم مُحتمل؛ الذي لا يوثق به لا يُقبل، والموثوق به يُقبل، والمجهول، أو المحتمل يُتبين عنه، يُتوقف في طرقه.

قوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ هذا يُخاطِب أهله، وفيه دليلٌ على مخاطبة الواحد بلفظ الجمع، لكن هذه فائدة لغوية.

مسألة: هل خبر الثقة عام أو خاص؟

الجواب: عام وخاص فقد يكون هذا الإنسان معلوم الحال عندي أثق به، وهو عند الناس

مجهولٌ يتوقفون في أمره، فالكلام عن الثقة الذي تثق به.

إذن لو أن رجلاً قال: إنه رأى الهلال، وهو نظره ضعيف، وأخبر أنه رأى الهلال، والناس الذين معه ما رأوه، لا يُقبل خبره، وهو ثقة، وهو عدل، ما يقبل، وهذا وقع عند بعض القضاة فيما سبق، رأى الناس الهلال فقال شيخٌ منهم: إني رأيتُ الهلال، والناس الذي معه أقوي منه بصرًا فقالوا: ما رأيناه، والشيخ هذا في دينه، وأمانته موثوقٌ به، وأصرَّ على أنه رأى الهلال، فقال القاضي: ادنوا مني، فدنى منه فمسح حاجبه فقال: له انظر، قال: الآن ما رأيته، فإذا هي شعرة بيضاء، وهذا من لطائف بعضهم؛ لأنه كيف للناس معه ما يرونه، وهو رآه؟ هذا لا يمكن وهو ثقة، رجلٌ يوثق في خبره، لكن قد يُخطئ.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

١ - يُستفاد من هذه الآية: إثبات الكلام لله - سبحانه وتعالى - لقوله: ﴿نُودِيَ﴾.

فإذا قال قائلٌ: الفعل هنا مبنيٌ للمجهول لم يُبيَّن مَن المُنادي، ولا دليل فيه على كلام الله، فما الجواب؟

نقول: قال الله في استفتاح الكلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٢- ومن فوائدها: أن كلام الله - سبحانه وتعالى - بصوت لقوله تعالى: ﴿نُودِيَ﴾، والنداء لا يكون إلا بصوت، وفيه ردٌ على طائفتين:

الأشاعرة والكلَّابية الذين يقولون: إن كلام الله - تعالى - معنًى قائمٌ بنفسه، فهذا القول باطل باطل.

٣ - ومن فوائدها: أنه ينبغي إيناس المستوحش، فالإنسان المستوحش أنت تقوم له، أو تفعل معه ما يؤنسه؛ ليطمئن وليكون قابلًا لما يُوحى إليه؛ لأن المستوحش ما يقبل ما يُوحى إليه - لا يتمكن من قبوله - وهذا يُفهم من قوله: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾؛ فإن البركة لمن في النار ومن حولها يزداد به طمأنينة؛ ولهذا أول ما خاطبه الله في هذه الآية قال: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾.

٤ - وفيها دليلٌ على: تنزيه الله - سبحانه وتعالى - عما لا يليق به لقوله تعالى: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

٥ - وفيها دليل على: عموم ربوبية الله - سبحانه وتعالى - لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهل معه ربٌ آخر؟! لو كان معه رب آخر لم يقل الله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - بأنه لا يمكن أن يكون مع الله إله آخر عقلاً، وقال تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢]، ولم تفسدا، فدلَّ على امتناع الآلهة بامتناع تصادمها دلَّ على امتناع تعدد الآلهة، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[المؤمنون: ٩١]، وهذا أمر بيِّن.

فإثبات وحدانية الله - سبحانه وتعالى - في ربوبيته معلوم، حتى المشركين في عهد الرسول ﷺ كانوا يقرون بوحدانيته في ربوبيته.

٦ - وفيها دليلٌ على: ثناء الله - تبارك وتعالى - على نفسه، وأن ذلك من كماله، فإنه أثني على نفسه بقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أثني على نفسه بنفي، وإثبات، النفي: سبحان الله، والإثبات: رَبِّ الْعَالَمِينَ، ومنهما نعرف أنه لا يتم الكمال لاسيما كمالُ الأوصاف إلا بهذين الأمرين، وهما النفي، والإثبات؛ لأن إثبات الكمالات فقط لا يدل على نفي النقائص، ونفي النقائص فقط لا يدل على إثبات الكمالات، وباجتماعهما يحصل الكمال المطلق، ولهذا قالوا لابد من تخلية، وتحلية.

٧ - وفي الآية دليل على: أن جميع الخلق مربوبون لله - تعالى - يتصرف فيهم بمقتضى ربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولهذا حكم الربوبية ما أحد يستطيع أن يخالفه.

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

١ - في الآية دليل على: أن تعيين الشخص في النداء له فائدة، وهو الطمأنينة، والإيناس؛ لأني إذا قلتُ يا فلان طمأنته بلا شك فهذا يعرفني ما ينال مني، ولهذا قال: يا موسى، وفيه دليل على إثبات العزة، والحكمة لله - عَزَّ وجَلَّ - لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

٢ - وفيها - أيضًا - دليل على: أنه ينبغي من أراد تعيين نفسه أن يبين اسمه لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ما قال: أنا، مثلاً، أو: أنا أنا، أو ما أشبه ذلك، بل بيَّن - سبحانه وتعالى - من الذي يكلِّمك.

هل فيها إثبات الألوهية لله كيف ذلك؟

نعم فإثبات صفتي العزيز، والحكيم يعني: وصفه بالعزة، والحكمة: يقتضي أن يكون هو المألوه وحده.

٣ - وفيها أيضًا: إثبات الحكم المطلق لله - سبحانه وتعالى - ومأخوذة من ﴿الْحَكِيمُ﴾ ذكرنا أن الحكيم ذو الحكم، والحكمة.

أما فوائد قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

١ - ففي هذه الآية العظيمة: الدلالة على كمال قدرة الله - سبحانه وتعالى -، وهي من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾؛ لأنه أُمر بإلقائها فألقاها، بمجرد، وصولها للأرض، صارت حية، ولهذا في سورة طه: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾ [طه: ٢٠]، إذا فُجائية، تدل على مفاجأة الأمر، ووقوعه على وجه المفاجأة.

٢ ـ **ومن فوائدها:** كمال قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه إذا قال للشيء: كن فإنه يكون.

٣ ـ **وفيها أيضًا دليل على:** حكمة الله - تعالى - في آياته، وأنها تناسب العقل لقوله تعالى: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾؛ لأن هذا أشبه ما يكون فيما تطور تطورًا بالغًا عندهم في ذلك الوقت، وهو السحر، فإن أحدًا لو أنه أتى بعصا أمامك، ووضعها في الأرض ثم رأيتها حية ماذا تقول؟ تقول: هذا سحر. فلذلك أوتي موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الآيات ما يقضي على سحرهم.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن من البلاغة الإيجاز بالحذف، ولا يؤثر هذا قصورًا ولا تقصيرًا، إذن من أين؟ من النوع الأول: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ بلا شك، ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾؛ لأنه لو أُخذ الكلام على ظاهره لكان: ألقِ عصاك فلما أُمر بهذا اهتزت، وهي في يده، وليس الأمر كذلك.

٥ ـ **وفيه أيضًا دليلٌ على:** أن هذه العصا ليست مجرد حيوان يتحرك، ولكنها أبلغ من ذلك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، ومعلومٌ أن الجان بنفسه مروع، الحية بنفسها مروعة، فإذا كانت من عظيم الحيات صارت أشد وأبلغ.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز الخوف، أو على جواز أن يعتريَ الأنبياء الخوف ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾، وأن ذلك لا يُعد نقصًا فيه؛ لأنه من مقتضى الطبيعة البشرية، وهذا الذي يكون من الطبيعة البشرية ما أحد يُلام عليه، فالأنبياء يبولون، ويعطسون، ويبردون، ويمرضون، ويموتون أيضًا.

٧ ـ **وفيها دليل على:** رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ بنبيه موسى؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾، فإن هذا من رحمة الله به؛ لأنه إذا قال له، وقد علم أنه رب العالمين إذا قال له: لا تخف لا يمكن أن يخاف.

٨ ـ **ومن فوائدها:** جواز توجيه الأحكام الشرعية إلى الأمور الفطرية: يعني مثلاً: ﴿لَا تَخَفْ﴾ إذا قال قائل: أنت إذا قلت للإنسان: لا تخف الخوف طبيعي كيف يستعيض عنه؟

الإنسان، وإن كان يخاف فالخوف أمر طبيعي، لكنه يمكنه معالجته بالمجاهدة، ولهذا جاء رجلٌ للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: أوصني، قال: لا تغضب، والغضب من طبيعة الإنسان، ولكن معنى لا تغضب: حاول أن تقلل من غضبك، وأن تكون دائمًا هادئًا، ثم إن غضبتَ فلا تنفذ مقتضى هذا الغضب، فإذن الأمور الطبيعية البشرية التي هي مقتضى الطبيعة البشرية يجوز أن يُوجه الحكم إليها أمرًا، أو نهيًا، ويكون ذلك من باب المُدافعة، أو من باب تقليل الآثار، من باب مدافعتها قبل وجودها، أو من باب تقليل آثارها، فلا نقول: إن الإنسان أُمرَ بما لا يستطيع، أُمر بعدم الغضب، وهو لابد أن يغضب، وأُمر بعدم الخوف، وهو لابد أن يخاف مما هو مُخيف.

٩ ـ **ومن فوائدها:** أن من كان مع الله – سبحانه وتعالى – فلا ينبغي أن يخاف، قال تعالى: ﴿إِنِّي

﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لديَّ أي: عندي، ولذلك كلما ذكر الإنسان ربه زال عنه الخوف ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأنفال: ٤٥]، ففي ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ زوال الخوف، والقوة، والرهبة، ولهذا أمر الله به في الجهاد.

١٠ ـ وفيها دليل على: أن من ظلم ثم أتى بعملٍ صالح، فإن الله يمحو العمل السيئ بالعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

١١ ـ وفيها أيضًا: إثبات المغفرة والرحمة لله بقوله تعالى: ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٢ ـ ومن فوائدها: أخذ الأحكام من مقتضى أسماء الله - تعالى - وصفاته من أين جاء؟ فإن قوله تعالى: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي أَغْفِرُ له، وهذا حُكْمٌ، وأخذ الأحكام من مقتضى الأسماء والصفات هذا من أحسن ما يكون من الاستدلال.

ذُكر أن رجلًا قرأ عند أعرابي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة:٣٨] فقال: (والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ـ سهوًا ـ فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقال له: كلام الله، قال: أعد، فأعاد الرجل: (والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ) ثم تنبه الرجل ـ فأعادها الثالثة على الصواب ـ فقرأها: ﴿والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال الأعرابي: الآن أصبت فقال له: كيف عرفت يا هذا ﴿والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؟ قال :عز وحكم فقطع ولو غفر ورحم ما قطع، وهذا هو الصحيح.

ويدل على هذا الفهم قوله تعالى في المحاربين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، [المائدة: ٣٤]، إذن معنى إذا علمنا أن الله غفور رحيم، معناه: أنهم يُتركون، ولهذا إذا تاب قاطع الطريق قبل القدرة سقط عنه الحد، وهل يُلحق أحد غير من ذوي الحدود، أو لا؟ الجواب: لا يلحق أحد.

إذن يُستفاد من هذا أخذ الأحكام من مقتضي أسماء الله، وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

سؤال: هل الأنبياء معصومون من الخطأ؟

أولاً: أنهم لا يمكن أن يصدر منهم ما يُخل بالرسالة مثل: الكذب، والخيانة، ولا ما يخل بالشرف، أو ما يخل بالمروءة كالزنا، وما أشبه ذلك.

ثانيًا: أنه إذا وقع منهم ما يمكن وقوعه من المعاصي فإنهم لا يُقرون عليها، لابد أن نحفظ لهم ما يُوجب تركهم لهذا الشيء؛ لأنهم رسل قدوة، ولو أُقروا على المعاصي لكانت المعاصي شرائعهم، وأما القول بالعصمة مطلقًا فلا وجه له، لا يوجد عصمة مطلقة، بل الصواب أنهم يحصل منهم ما يحصل، لكنهم لا يقرون عليه.

مسألة: هل قتل النفس من الكبائر؟

الجواب: نعم قتل النفس من الكبائر، لذلك لما قتل موسى الرجل الذي من بني إسرائيل قال الله حكاية عن قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، هذا يدل على أن القتل، وقع من موسى - عليه الصلاة والسلام -، لكنه غُفِر له ما أصرَّ عليه.

مسألة: ما الحكمة من وجود النار في هذا المكان؟

الجواب: الحكمة من وجود هذه النار الله أعلم بذلك، لكن لعل الحكمة من مكانها هذا بالذات في الوادي المقدس أن الوادي هذا مبارك ومقدس، فصار ابتداء الوحي من ذات المكان، وإن كان بعيدًا منه.



قال الله تعالى:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: ١٢ - ١٣]

التفسير

قال تعالى : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [طوق القميص].

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ اليد: تطلق على الكف فقط، ولا تشمل الذراع إلا مُقيَّدة، والدليل على هذا أن الله - تعالى - لما قال في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣]، صار خاصًّا بالكفين، ولما أراد الله - تبارك وتعالى - الذراع قال في الوضوء: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، إذن الذي أدخله - حتى في اللغة العربية أن الذي أُمر أن يُدخله موسى - ليس الذراع بل الكف أدخله في جيبه .

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ تخرج مجزومة مع أنها فعل مضارع، وما دخل عليه حرف جازم، مجزوم بجواب الطلب.

قوله: ﴿تَخْرُجْ﴾ يعني اليد خلاف لونها من الخُدْمة ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من أين أخذ المؤلف أنها كانت لون الخدمة؟ من قوله تعالى: ﴿بَيْضَاءَ﴾؛ لأنها لو كانت بيضاء من قبل ما قال تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾، ولابد أنها تغيرت من اللون الأول إلى اللون الثاني.

وقوله تعالى: ﴿بَيۡضَآءَ﴾ قال: [من غير برصٍ لها شعاعٌ يغشى البصر]﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ هذا تقييدٌ لقوله تعالى: ﴿بَيۡضَآءَ﴾؛ لأن البيضاء قد يكون بياضها سوءًا مثل البرص، وإنه سوء؛ لأنه عيبٌ يسوء صاحبه، لكنه قال تعالى: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ إذن البياض ليس كبياض البرص، ولهذا يقول: المؤلف: [﴿بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ من غير برصٍ لها شعاعٌ يغشى البصر آيةً]، أما قوله: لها شعاع فهذا يحتاج إلى دليل، والله ـ تبارك وتعالى ـ ما ذكر بأنه كان.لها شعاع، وكفى بذلك آية أن تدخل اليد على لونٍ ثم تخرج بلونٍ آخر، وأما زيادة الشعاع، فإن الله ـ تعالى ـ لم يذكرها، وليس لنا أن نتجاوز في هذه الأمور ما دلَّ عليه القرآن؛ لأنا ذكرنا فيما سبق أن المسائل الخبرية لا مجال للرأي فيها، المسائل الخبرية ما للرأي فيها مجال، يُقتصر فيها على ما جاء به الخبر، فنقول: هي بيضاء، وكفى بها آية.

قال المؤلف: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾ [في للظرفية]، فتكون الآية هذه، وكذلك آية العصا تكون من جملة التسع، وليست زائدةً على التسع،قوله تعالى: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾ مرسلاً بها ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾، عرف موسى آيتين منها من هذه التسع، وهي: العصا، واليد، لكن بقي سبع آيات، ما هي؟

إذن نقول،قوله تعالى: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾ آيتان معروفتان، بقية التسع ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، هذه كم؟ سبع ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، تسع آيات، هذه الآيات:

الطوفان: ما الطوفان؟: الفيضان فيضان الماء، الجراد: معروف، القُمَّل: الدودة التي تكون في الحبوب عادةً، الضفادع: معروفة، والدم: معروف، والدم: بعض العلماء يقول: إن الدم هذا، إذا شربوا منه، فإذا هو دم، وإذا سلمه إلى الإسرائيلي عاد ماء، ولكن الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ ، قال: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ الفيضان، وهذا يُفسد الزروع قبل خروجها، ﴿وَٱلۡجَرَادَ﴾ يأكل الزروع بعد خروجها؛ لأن الشيء الخارج يأكله الجراد، والشيء المُدخر يُفسده القُمَّل، الماء يفسده الضفادع، إذن المأكول، والمشروب فسد، هذا المأكول، والمشروب إذا أكله الإنسان يتحول إلى دم، أُرسلَ عليهم الدم ـ أيضًا ـ ، وهو النزيف: الرعاف، فعلى هذا يكون غذاؤهم فسد، وما حصل في الغذاء من شيء، وهذه الحقيقة ما معناها: بأن كل الماء فيه دم، وبالنسبة للضفادع إذا صار عندنا في الماء ضفادع كيف يشرب الواحد؟ تكون رائحته كريهة ومنظره قبيح، ويمكن ما يعرف يضع شفتيه.

وقوله تعالى: ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ هو علم جنس لكل مَنْ مَلَكَ مصر كافرًا، مثل كسرى لكل من ملك الفُرس كافرًا، وكذلك قيصر لكل من ملك الروم كافرًا.

وقوله: ﴿وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ القوم: الأصحاب، وسُميَ الأصحاب قومًا؛ لأن بهم قوام الإنسان، فالإنسان يعتز، ويقوم بقومه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ هذا تعليل للرسالة إليهم، يعني، إنما أرسلناك بتسع آيات إلى هؤلاء؛ لأنهم كانوا قومًا فاسقين، يعني خارجين عن الطاعة، والفسق ينقسم إلى قسمين:

١ ـ فسق أكبر: وهو الخروج عن مطلق الطاعة،

٢ ـ فسق أصغر: وهو الخروج عن الطاعة المطلقة.

وما الفرق بين مطلق الطاعة، والطاعة المطلقة؟

الطاعة المطلقة: هي الطاعة الشاملة لكل أفراد الطاعة لكل أمر، يُقال: هذا الرجل قد أطاع الله طاعة مطلقة معناه: في كلِّ ما أمره ربه، لكن إذا فسق فقد خرج عن الطاعة المطلقة؛ لأن الفرق بين مطلق الشيء، والشيء المطلق، مطلق الشيء معناه: وجود أوجه إيمان، والشيء المطلق: الكامل.

ولهذا الفاسق عند أهل السنة، والجماعة هل معه إيمانٌ مطلق أو مطلق الإيمان؟

معه مطلق الإيمان، ومطلق الطاعة أن يُقال: هذا الرجل فاسقٌ أي: خارجٌ عن مطلق الطاعة (فاسقٌ أكبر)، يعني معناه: ما يصدق في حقه، ولا أقل طاعة.

وإذا قيل: هذا الكافر خارج عن الطاعة المطلقة، معناه: أنه معه طاعة، لكن الطاعة الكاملة ما معه، ولذلك عندهم ـ أيضًا ـ، حتى في الفقه مثل: هذا ماءٌ مطلق، وهذا مطلق ماء.

الثاني: هذا ما تغير بالأشياء الطاهرة، ليس بطهور؛ لأنه ليس بماءٍ مطلقًا، وإنما هو مطلق ماء، الكلام في الفرق بين التعريفين معروف عند الفقهاء، وعند الأصوليين، وعند أهل الكلام.

ثم الفرق بين مطلق الشيء، والشيء المطلق، والشيء المطلق معناه: الكمال، ومطلق الشيء معناه: الأصل.

إذنْ بما إنهم كانوا قومًا فاسقين أي الفسقين؟ الفسق الأكبر؛ لأنهم خارجين عن مطلق الطاعة ما عندهم طاعة.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ الضمير يعود إلى ﴿فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ أي: العلامات الدالة على صدق موسى ﷺ برسالته، وعلى أحقية ما دعا إليه؛ لأن الآيات التي جاء بها موسى تدل على أمرين:

١- على صدق موسى، وهذا تأييد له.

٢ ـ وعلى صحة ما جاء به.

وقوله تعالى: ﴿مُبْصِرَةً﴾ فسرها المؤلف: [أي مضيئةً واضحة]، وهنا كلمة ﴿مُبْصِرَةً﴾ اسم فاعل، والفعل منها أبصر، فهل الآيات هي التي فيها البصر، أو مبصرة جاعلة غيرها يبصر بها؟

أيهما أبلغ، الثاني أبلغ، أنها جاعلة غيرها يبصر بها، يعني أنها تبصِر غيرها.

فالآيات هذه هي بنفسها ظاهرة، واضحة، والذي يراها يبصر بها، ولهذا نقول: ﴿مُبْصِرَةً﴾ هي تعني: أنها باصِرة بنفسها، وموجبة للإبصار لغيرها.

لما جاءت هذه الآيات المبصرة كان الجواب: ﴿قَالُوا هَٰذَا﴾ أي: ما جاءنا، ولم يقولوا: هذه الآيات من أجل أن يشمل كل شيء، هذا الذي جاءنا من الآيات ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ بيِّنٌ ظاهر، ومبين هنا على تفسير المؤلف موافق، أبان: اللازم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ﴾ السحر معناه في اللغة العربية: كل شيء صار خفي السبب، ما خفي سببه ولطف يسمى سحرًا، ولهذا ذكر ابن كثير أقسام السحر في تفسيره، وذكر من جملة السحر: الساعات، الساعات الآن تطورت إلى ما ترون الآن، لماذا؟ خفية السبب، عندك الآن العقرب هذا، وترى ما الذي يجعل المسمار إذا لمسته تحول التاريخ إلى تاريخ آخر؟ أو أقل التاريخ الشهر، أو اليوم، لو جاءت بغير الوقت لتعذب الناس بها، هذا يُسمى سحر لغة لا شرعًا؛ لأن السحر شرعًا هو عبارة عن عُقد، وعزائم، ورقى تؤثر في بدن مسحور، أو عقله، ربما تمرضه، أو ربما تهلكه، أو ربما تخذله، هذا هو السحر.

هنا الآن قولهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ قول فرعون، وقومه ماذا يقصدون بهذا؟ السحر الحقيقي الشرعي، أم اللغوي؟

الحقيقي الشرعي؛ لأنهم قالوا: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، - والعياذ بالله -، فهم قالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وهذا الجواب ليس صادرًا من فرعون فقط، بل جميع المكذبين للرسل قالوا: هذا، قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، كل الرسل السابقين يقول قومهم هذا: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ لا ما تواصوا به، لكنهم جمع مشترك الطغيان ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

مجرد الضرر لا يدخل في الكفر في الحقيقة، ولهذا لو ضررت الإنسان بدواء كسم وشبهه ما تركوك، لكن ما ظهر أنه يقترن به من الأحوال الشيطانية، واعتقاد أن هذا مؤثر من دون الله - سبحانه وتعالى - هذا هو الباطل.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾:

١ - من فوائد هذه الآية الكريمة: أن فيها آية من آيات الله - سبحانه وتعالى - وذلك أن يد موسى دخلت على طبيعتها ثم خرجت بيضاء من غير سوء في لحظة؛ لأن قوله: أدخل تخرج، تخرج جواب لتدخل، والمعنى أن بمجرد الإدخال تخرج هكذا، وهذا من آيات الله - سبحانه

وتعالى -.

٢ - وفيها أيضًا دليل على: حكمة الله - تبارك وتعالى - في آيات الأنبياء؛ حيث تكون منافسةً للعقل الذي بعثوا فيه، ويُؤخذ هذا من أن هذه الآية تشبه السحر، والسحر خيال، السحر لا يمكن يقلب اليد إلى بيضاء، أو المتحرك إلى ساكن، أو الساكن إلى متحرك لا يمكن أن يقلبه في الحقيقة، لكن هذه الآية حقيقة.

٣ - وفي الآية دليلٌ على: مبدأ الاحتراز في الكلام، فينبغي الاحتراز في الكلام عندما يُوهم الشيء بأمرٍ يُحترز منه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، فإن البيضاء قد تكون من سوءٍ، لكنه احترز بقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

٤ - وفيها دليلٌ على: أن موسى - عليه الصلاة والسلام - أعطاه الله - تعالى - تسع آيات منها آيتان سابقتان، والباقي لاحق فما هذه التسع؟

هي: السني، نقص، والثمرات، اليد، العصا، الطوفان، الجراد، القُمَّل، الضفادع، الدم.

٥ - ومن فوائد الآية: أن الله - سبحانه وتعالى - لم يرسل نبيًّا إلا بآية لتقوم الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾، إذن ما هي الحكمة في أن الله لم يُرسل رسولاً إلا بآية؟

لأنه لا تقوم الحجة إلا بآية؛ ولو جاء رسول من عند الله بدون آيات ما يُصدق، وإذا لم يُصدق فلا حُجة على الخلق به، وقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ في هنا للظرفية على ذلك؛ وأما ذكره وغيره لابد من الآيات العظيمة.

٦ - وفيها دليل على: طغيان فرعون، وقومه: تؤخذ هذه من قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

٧ - وفيه دليل على: أن من الفصاحة والبلاغة قرن الحكم بالتعليل؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، وقد ذكرنا أن من فوائد قرن الحكم بالتعليل. إذا ذكرت العلة فلها ثلاث فوائد أو أكثر:

أولاً: بيان حكمة الله سبحانه وتعالى في تشريعه وقضائه،

الثاني: التعميم، أي: عموم العلة،

الثالث: أن المخاطب إذا علم الحكم، يزداد طمأنينة.

والفائدة من التعليل بالحكم: أنه من البلاغة قرن الحكم بالتعليل، وفيه دليل على أن الفسق يُطلق على الكفر من أين؟ من قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، وقد ذكرنا أن الفسق نوعان:

١ - فسقٌ مطلق: هو الكفر.

٢ - مطلق الفسق: هو العصيان من المؤمنين.

فأصل الفسق هو الخروج عن الطاعة، فإن كان خروجًا كاملاً شاملاً، فهو فسق مطلق، وإن كان بعض خروج، فهو مطلق فسق.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾:

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** أن الحجة قامت على فرعون، وقومه حيث جاءتهم الآية مبصرة.

٢ - **من فوائد الآية:** أن آيات الله - سبحانه وتعالى - فيها الإبصار فهل هي مبصرة بنفسها، يعني باصرة، أو مبصرة لغيرها؟ كلاهما، يعني مبصرة: هي باصرة، وكذلك تبصر غيرها، وتدل عليه، وفي هذا دليل على أن آيات الله - سبحانه وتعالى - بينة واضحة تورث الحق، ولولا ذلك ما كانت آيات.

٣ - ومنها: أن فيها دليل على عِظم طغيان فرعون وقومه: لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٤ - **ومنها أيضًا:** مبالغة صاحب الباطل بدعواه: حيث قالوا: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، يعني: بين ظاهر،حيث فيه مبالغة بالكلمات التي تُشبِّه على الخلق، حتى يصل إلى ما يريده من الباطل.

وهنا لماذا قال تعالى؟: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، ولم يقل هذه مع أنه قال آيات مبصرات؟

ليشمل كل ما جاء، حتى موسى نفسه، يكون ساحرًا.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[النمل:١٤]

❁ التفسير ❁

ثم قال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ جحدوا: الضمير يعود على فرعون، وقومه.

والجحد: الإنكار، وجَحَد: متعدٍ بنفسه، ولكنه قد يُضم له معنى التكذيب فيتعدى بالباء، وجحدوا مكذبين بها: وهنا الجحد ضُم له معنى التكذيب، ولهذا تعدى بالباء، ذلك؛ لأن الجحد قد يكون تكذيبًا، وقد، يكون مراعاة لمصلحة من المصالح، والصالِحُ المُتعدَّى لَه جَحْد؛ لأنه قد يقول لك قائل: ماذا فعلت؟ فتجحد لمصلحة تريدها لا تكذيبًا، ولكنه هنا تكذيب، جحدهم هذا تكذيب، الدليل أنه عُدي بالباء، والذي يُعدى بالباء هو التكذيب، فجحدوا بها: أي كذبوا بها جحدًا، هم كذبوا، ومع ذلك ما أظهروها، ولهذا يقول المؤلف: [أي لم يُقروا بها]، ولم يقروا بها هو معناه: التكذيب، والمؤلف أتى بـ[لم يقروا] لأمرين: الأمر الأول: لأجل أن يسلم التعدي بالباء، والثاني: لأجل ألا يتضمن ذلك إخفاءها لمن طلبها؛ لأن تعبير المؤلف: جعل الجحد نفي الإقرار، ولكننا لا نوافقه على هذا التفسير:

أولاً: أنه فسر المُثبت بالمنفي جحد مُثبت، لم يُقر منفي.

الثاني: بتفسيره هذا يُفوت معنًى دلت عليه الآية، وهو: كتمانهم لهذه الآيات لو سُئلوا عنها، كتمانهم لو سُئلوا؛ لأن كون الإنسان ما يُقر يفُهم منه أنه جحد وكتم عن غيره، فإبقاء الآية على ما هي عليه أولى، ويُقال: أنه عُديَ الجحد بالباء لتصميمهم على التكذيب، ويكون دائمًا على أمرين:

١ ـ على إخفاءها عند طلبها. ٢ ـ وعلى التكذيب بها عند عرضها.

فالآية شاملة لما ذكره المؤلف، لكننا نقول: إن تفسير المؤلف لها فيه نظر من وجهين: الوجه الأول: تفسير الإثبات بالنفي، وهذا قصور، والثاني: أنه فوت معنًى، وهو الجحود عند السؤال، فهو تكذيبٌ عند العرض، وجحودٌ عند الطلب.

قال المؤلف: [وقد استيقنتها أنفسهم]: أي تيقنوا أنها من عند الله، فما الذي أوجب له أن يُقدر قد؟

نقول: لأن الجملة حالية، والجملة الحالية إذا كانت فعلًا ماضيًا يُقدر فيها قد للتحقيق.

والثاني: قال في ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ قال: [أي تيقنوا أنها من عند الله]، ففسر استيقن بتيقن إشارة إلى أن السين، والتاء زائدتان، ولكن الأولى أن تبقى السين، والتاء على بابها، ولو حُكم بزيادتها؛ لأن الاستيقان أبلغ من التيقن، ومن المعروف عندهم أنهم يقولون: زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فالاستيقان أبلغ فإنهم قد استيقنوها استيقانًا كاملاً ليس عندهم فيها شك، ومع ذلك جحدوا بها، يكون هذا جحد مع الاستيقان أبلغ، ولهذا قال: ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ الخ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾، ولم يقل: واستيقنوها، فإرادة الاستيقان هي من النفس أبلغ، أي: أنه يقينٌ بلغ نفوسهم، حتى تمكن منها، ومع ذلك، ـ والعياذ بالله ـ جحدوا بها، وأنكروها.

وقوله: ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ يقول: المؤلف: [تكبرًا عن الإيمان بما جاء به موسى]، ففسر الكلمتين بكلمة واحدة، وهي تكبرًا، ولكنه ـ أيضًا ـ لو نظرنا إلى الآية الكريمة، وجدنا أنها أبلغ لما فسرها به، قوله تعالى: ﴿ظُلۡمٗا﴾ الظلم في الأصل النقص، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [الكهف: ٣٣]، ما معنى ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ﴾؟ أي: لم تنقص، فالأصل فيه أنه بمعنى: النقص، وكل من نقص حق غيره، فهو ظالم، إذا نقص الإنسان حق نفسه، فهو ظالم لها، إذا نقص حق غيره، فهو ظالم له، هنا هؤلاء نقصوا حق موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهم ظالمون، ونقصوا حق أنفسهم أي فلم يقودوها إلى ما فيه صلاحها، فهم ـ أيضًا ـ ظالمون، ثم هذا الظلم والنقص ما الحامل عليه؟ قال: ﴿وَعُلُوّٗا﴾ وهذا بمعني: غير الظلم، يعني ترفعًا عما جاء به موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ورغم أن فرعون قد قال: أنا ربكم الأعلى، إلا أن موسى قد أتاه وقال له: أنا رسولٌ إليك لابد أن تتبعني. بطبيعة البشر الفاسق أن يترفع عمومًا جاء به موسى، ولهذا جحدوا ظلمًا لموسى، وعلوًا لأنفسهم: ترفعًا عن موسى، وعما جاء به ـ أيضًا ـ، فهم، ـ

والعياذ بالله - اتصفوا بالوصفين.

وقوله تعالى: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يقول: المؤلف: [راجعٌ إلى الجحد]، صحيح؛ لأنه لو استيقن فرعون وقومه، لاستيقنوا أن موسى صادق، فهو حق، هذا عدلٌ وتواضع، لكن ما استيقنوا هم، يعني: ما انقادوا لهذا الاستيقان، إذن فهو راجعٌ إلى الجحد، يعني: جحدوا بها ظلمًا وعلوًا، لكن فائدة الإتيان بالجملة الحالية ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا﴾ بين المتعلَّق، والمتعلق به: التشنيع عليهم - المبادرة بالتشنيع - عليهم؛ لأن كونهم يجحدون مع الاستيقان أشد وأعظم، والجاحد مع الشك؟ قد يُعذر، لكن مع الاستيقان لا وجه له.

ففائدة الاعتراف بالجملة الحالية ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا﴾ بين المتعلِّق، ومُتعلَّقه ما فائدتها؟ المبادرة بالتشنيع عليهم، وبيان أنهم بلغوا في هذا الوصف غايته الوصف والعلو.

ثم إعراب ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ هل هي مفعول لأجله؟ يعني من أجل الظلم، والعلو، أم هي نصًّا بمعنى الحال، أي ظالمين عالين؟

الأخير أولى؛ لأن الظلم، والعلو إذا قلنا: إنه مفعول لأجله: فهو سابقٌ على الجحد، إذ إنهم ظلموا، وعلوا ثم جحدوا، فعلى هذا نقول: إن ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ إنها مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي جحدوا بها حال كونهم ظالمين عالين.

قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد الخ، قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ﴾، نظر اعتبار، أو نظر إبصار؟ نظر اعتبار؛ لأن نظر الإبصار هنا متعذِّر، لسبق زمني، لكنه نظر اعتبار، والخطاب على كلام المؤلف: يعود إلى رسول الله ﷺ فانظر يا محمد، وقد مرَّ علينا عدة مرات أن الخطاب للمفرد في القرآن لا يختص بالرسول - عليه الصلاة والسلام - إلا ما دلَّ عليه الدليل، وإلا فهو عامٌّ، إذن فالتقدير: فانظر أيها المُخاطَب؛ لأن القرآن بين أيدي كل أحد، كل واحد بين يديه قرآن، أما ما دلَّ الدليل على أنه خاص بالرسول - عليه الصلاة والسلام - ، فهو خاصٌّ به، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، ويدل على أن الخطاب المفرد عام:

أولاً: أن القرآن بين أيدي الناس جميعًا، ثانيًا: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١]، خاطب بالإفراد والجمع، فدل هذا على أن الخطاب الموجه للرسول ﷺ موجهٌ للأمة ما لم يدل الدليل على اختصاصه به مثل ما مثلنا بالمثالين، وكذلك منه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[التحريم: ١]؛ لأن هذا خاصٌّ بالرسول - عليه الصلاة والسلام - ، هو الذي حرم، لكن مع ذلك الحكم عام.

إذنْ فانظر أيها المُخاطب، هنا خاطب بها الجمع، أي: فانظر قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في هذه الآية:

كان: فعل ناسخ ينصب الخبر ويرفع المبتدأ، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١١٣].

عاقبة: اسم كان مرفوع، ولكن إذا كان الاسم مؤنثًا، فلا بد أن يكون الفعل مؤنث، فما الجواب على هذا لإشكال؟

الجواب: إن عاقبة مؤنث لفظي وليس مؤنثًا حقيقيًا.

يعني: عاقبة مؤنث مجازي لا حقيقي، والفرق بين المؤنث المجازي، والحقيقي: ما كان له فرج، فهو مؤنث حقيقي، وما لم يكن له فرج، وإنما تأنيثه لفظي، فهو مؤنث مجازي.

والخبر مقدم، وهو كيف، مقدم وجوبًا.

لماذا وجوبًا؟ لأنه اسم استفهام، والاستفهام له الصدارة، لا يمكن يأتي الاستفهام في وسط الكلام، لابد أن يكون متقدمًا.

إذن: عاقبةُ: ما معنى العاقبة؟ العاقبة في الأصل: التأخر، ومنه العاقب في القدم، وعاقب القدم هو العرقوب المؤخر، العاقبة معناها: الأمر المُتأخر، يعني: انظروا ماذا كان من أمره في النهاية.

وقوله: ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين صار شأنهم الإفساد، والمراد بالإفساد هنا ليس إفساد العمران، فقد يكون العمران في زمن فرعون قد بلغ غايته، لكن المراد بالإفساد الإفساد المعنوي: إفساد الأخلاق، والعقائد، وربما يتبعه إفساد العمران كما قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]،قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]، وبهذا التقرير، وهو أن الأصل في الإفساد المذكور في القرآن إفساد الأخلاق، والعقائد، ويتبعه فساد الأمان، بهذا نعرف خطأ ما يطنطن به الناس الآن مثل الرفاهية، والطمأنينة، والأمن، وما أشبه ذلك، وإذا أتوا إلى ذكر الدين يقول: العقيدة السمحاء، ولا يذكر العمل، ثم إن كلمة السمحاء ـ أيضًا ـ تدل على ضعفٍ في هذه العقيدة، سمحاء: كيف؟ صحيح أن العقيدة سمحاء - لا شك -، لكن لها أعمال، ولها حزم، ولهذا التركيز على الترفيه البدني، والنعيم البدني مع ذكر العقيدة، وحدها في نظري أنه خبيٌّ؛ لأنه كل واحد ينشد أنه عنده عقيدة فهذا بين أمرين:

١ ـ تجده ما عنده عقيدة سليمة، عقيدة سمحاء هينة لينة، في أي شيء تقبله وفي الذي قلنا تنشد ـ أيضًا ـ رفاهية البدن، والأمن، وما أشبه ذلك، لكن استقامة الدين، والسعي في إقامته بين الناس في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، هذا أمرٌ لا يكاد يُفرض.

وفي الحقيقة: أن الرفاهية إذا كانت للبدن، وحده فهي فساد، ما يدوم هذا أبدًا لا يمكن أن يدوم، على أن الرفاهية المطلقة للبدن لابد أن تكون مصحوبة بقلق في القلب؛ لأن الله ـ تعالى ـ،

إنما ضمن الحياة الطيبة لمن؟ أي نعم، قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، هذه عقيدة وعمل، وبدأ بالعمل أيضًا، حياة طيبة في الدنيا، وأجرٌ حسنٌ يكون في الآخرة، هذا الذي يجب أن يُركز عليه، أما الرفاهية المطلقة فإنها ضرر عظيم على الإنسان: توجب الغفلة عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وانشغال الإنسان بطلب الرفاهية الجسدية الزائلة، يقول بعض السلف: (لو يعلم الملوك، وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف)، فالأصل على ألا تزيد من النعيم والسرور، وانشراح الصدر، وما أشبه ذلك.

الفوائد:

١ ـ **يُستفاد منها:** أنه بالرغم من قوة الآيات التي جاء بها موسى لم يستفد منها هؤلاء، وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾، والآيات إذا قويت ما يبقى من مجال للجهل، ولكن، ـ والعياذ بالله ـ أعمى الله بصائرهم فجحدوا بها.

٢ ـ **ويُستفاد من ذلك:** أن جحد هؤلاء المُرسل إليهم كان عن عنادٍ لا عن شبهة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، وهل هذا وقع من كفار قريش مع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟ نعم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وليست؛ لأن هذا واقع من الرؤساء، والزعماء، لكن عامة الناس قد لا يكون لديهم هذا الأمر، وإنما هم نعم مقلدون، أما الزعماء، والكبراء فليس استحياءً.

٣ ـ **وفي هذا دليل على:** سوء أحوال أهل فرعون؛ لقوله تعالى: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يعني: ظلمًا لأنفسهم ولموسى، وعلوًا: ترفعًا عن الحق، وفي هذا دليل على أن الاتصاف بهذين الوصفين يجعل الإنسان من الأمة الفرعونية، وهما الظلم والعلو، وما من صفةٍ يخرج بها العبد عن سواء السبيل إلا وله فيها إمام من أهل الكفر، ولهذا أخبر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**أن سيتبعون سنن من كان قبلهم**»[1]، فالجحد بالحق ليس هذا من الإيمان مثل فرعون وقومه، الحسد ليس من الإيمان مثل اليهود، الرياء ليس من الإيمان كالمنافقين، وهكذا، بل إنه من المنافقين، بل فما من خصلة يخرج بها العبد عن سواء السبيل إلا وله فيها إمام من أهل الكفر.

٤ ـ **وفيها دليلٌ على:** ذم الترفع عن الحق: لقوله: ﴿وَعُلُوًّا﴾، ولا فرق في أن يكون ذلك عن حسن نية، أو لا، فالطريقة هذه مذمومة ولو عن حسن نية، وقولنا: (ولو عن حسن نية) ليدخل في ذلك بعض المقلدين الذين إذا عُرض عليهم الدليل من الكتاب والسنة قالوا: نحن نتبع فلانًا؛

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٥٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

لأنه أعلم منك، هذا عن حسن نية فيما يبدو، لماذا عن حسن نية؟؛ لأنهم يرون أن هذا الإمام الذي يتبعونه أعلم منه، ويقول: نحن جُهَّال، ولا نعرف، وليس لنا إلا أن نُقلد، والرجل هذا أعلم منه.

٥ ـ ويُستفاد من هذه الآية: أنه إذا كان هذا الوصف مذمومًا وفرعونيًا، فإن عكسه محمود، وهو التواضع للحق، وقبوله لأن الله ـ تعالى ـ إذا أثنى بالسوء على وصف، فإن ضده يُثنى عليه بالحسن.

٦ ـ وفي هذا دليل على: أنه ينبغي للإنسان ويجب أن يتفكر، ويتأمل في عواقب من سبق لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وهل الإنسان ينظر في عواقب المفسدين أو في عواقب المصلحين؟ الاثنين، إذن ما الحكمة من الترهيب هنا؟ لأن المقام مقام ترهيب، وإذا كان المقام مقام ترغيب فإننا نقول للإنسان: انظر كيف كان عاقبة المصلحين، قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[هود: ١١٦]، فالمسألة تختلف: ففي مقام الترهيب يُشير الإنسان إلى عواقب المفسدين، وفي مقام الترغيب يشير إلى عواقب المصلحين، ليُحذر من أولئك، ويُرغب في هؤلاء.

٧ ـ ومن فوائد هذه الآية: فضيلة التأمل والتفكر في أخبار مَنْ مضى، وأن دراسة علم التاريخ من الأشياء التي جاء بها الشرع، فإننا لا يمكن أن ننظر كيف كان عاقبتهم إلا بدراسة أخبارهم وتدبرها، فعلم التاريخ إذن من الأمور المفقودة، لكن هل هو من الأمور المفقودة إسلاميًا، أو عربيًا؟ عربيًا إلا سيرة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والخلفاء الراشدين فإنها من الدين؛ لأنها كلها أحكام، بخلاف النظر في التاريخ لأجل الاعتبار فقط، فلكل مقام مقال؛ لأن النظر في التاريخ للاعتبار فقط قد يعتبر الإنسان بغيره وقد يستغني عنه، لكن النظر في سيرة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنها أحكام فقه هذا مقصودٌ لذاته ما يستغني بغيرها عنها.

وعلى هذا، فإن الذين يذهبون إلى ديار ثمود للتفرج، والتنزه هؤلاء عصاة، الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ»(١)، فلا يجوز للإنسان أن يذهب في رحلة مثلاً إلى ذلك المكان إلا إذا كان يدخل وهو باكٍ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم - الحمد لله -، الإنسان في غنى عن هذا، لكنها للأسف الآن صارت آثار، يعني يقتضى منها بيان قوة هؤلاء في إبداعهم، وإتقانهم لأمورهم.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٣٨/ ٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٥-١٦]

❁ التفسير ❁

فوائد هذه الآيات(١):

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

١ - **يُستفاد من هذه الآية**: بيان ما منَّ الله - سبحانه وتعالى - به على داود، وسليمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

٢ - **وفيها دليل أيضًا على**: ثناء الله - تعالى - على نفسه؛ لأن كونه يتمدَّح بإيتاء داود وسليمان علمًا، هذا من الثناء، وهل هذا محمودٌ بالنسبة للخلق، أن يتمدح الإنسان بفضله أو لا؟

ليس هذا محمود إلا إذا كان في ذلك مصلحة للغير، ليس لك أنت، أما الله - تعالى - فتمدح بنفسه للثناء على نفسه، لكن أنت لا تفعل هذا، أما إذا كان فيه مصلحة للغير، كإنسان مثلاً يذكر عن نفسه شيئًا لأجل أن يُستفاد بالخير، وهذا لا بأس به، أو لأجل أن ينتفع الناس بما عنده فهذا - أيضًا - لا بأس به، فابن مسعود رضي الله عنه قال: «**لو أعلم أحدًا تبلغه الإبل أعلم مني بكتاب الله لذهبت إليه**»(٢) أو، كما قال، والعلماء مازالوا يمدحون كتبهم، ابن مالك يقول:

تُقَرِّبُ الْأَقْصَى بِلَفْظٍ مُوجَزِ ... وَتَبْسُطُ الْبَذْلَ بِوَعْدٍ مُنْجَزِ

وَتَقْتَضِي رِضًا بِغَيْرِ سُخْطِ ... فَائِقَةً أَلْفِيَّةَ ابْنِ مُعْطِي

المهم: أنه على كل حال: مثل هذا ما يكون في مصلحة الإنسان، هذا لمصلحة غيره لأجل أن ينتفع من هذا المؤلَّف مثلاً، على كل حال إن هناك رخصة، مع أن الإنسان قد يُتهم مهما كان، أُصلح ما بيني وبين ربي، وما يهمني الناس.

المهم أن في هذه الآية دليل على: تمدُح الله - سبحانه وتعالى - بما تفضل به على عباده لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

٣ - **ومن فوائدها**: فضيلة داود وسليمان، وأنهما أهلٌ لهذه النعمة؛ لأن الله - تبارك وتعالى -

(١) هذه الآيات من (١٥ - ١٦) لا يوجد لها تفسير؛ نظرًا لعدم وضوح سماعها.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٠٢) ومسلم (١١٥/ ٢٤٦٣).

يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام: ١٢٤]، فما مِن فضلٍ يُعطيه الله للعبد إلا وهو في مكانه؛ لأن الله حكيم.

وفيه دليل على فضيلة العلم، لقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗا﴾، وهذا - لا شك - فيه، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[الزمر:٩].

لكن يبقى النظر ما هو العلم الممدوح؟ هذا هو الذي الآن يحتاج الناس أن تبذل فيه البدن، المراد بذلك علم الشريعة، أما ما سوى علم الشريعة فإنه لا يُمدح إلا حيث يُوصل إلى أمرٍ محمود، عكس ما عليه الناس اليوم، كثير من الناس الجهال يمدحون العلم بغير الشريعة، بعض الناس، ـ والعياذ بالله ـ يرى أن علم الشريعة تأخر، وأن علم الطبيعة تقدم، ولهذا يُنَبِّهُ هؤلاء العلماء على دراسة العلوم الطبيعية وطبقات الأرض، وغير ذلك، وتجده مثلاً مستمتعًا ومتفاخرًا بقوله: هذا أفضل علم، أو هذا هو العلم، أو إذا رأى مثلاً أشياء غريبة في العلم، يعني لا يوجد شك أن الآن هذا يُفضِل هذا العصر على عصر الصحابة، هذا ليس هو المقصود، بل المقصود به علم الشريعة؛ لأن علم الشريعة هو الذي ينفع الخلق، حتى إن علم الشريعة هو الذي يدلهم على هذه العلوم التي يحتفون بها؛ لأن الله يأمر بأن نسعى في الأرض: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾[الملك: ١٥]، قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، وما أشبه ذلك.

لأن العلم الذي منَّ الله به على داود وسليمان وأثنى عليهما به هو: علم الشريعة، وهذا دليل ما في النصوص أن مدح العلم هو علم الشريعة؛ لأنه هو الذي يُحمد لذاته، وما عداه متى يُحمد؟ إذا كان مُوَصِّلًا إلى أمر محمود، وإلا فإن كونه أوصل إلى أمرٍ مذموم كان مذمومًا، وإن أوصل إلى أمرٍ لا يُحمد، ولا يُذم فهو لا يُحمد، ولا يُذم.

هؤلاء الذين وصلوا إلى أعماق البحار، وآفاق الفضاء هؤلاء هم الذين صنعوا ما يُدمر الخلق، من القنابل، والأسلحة فهل هذا محمود، ثم نقول: هذه العلوم هنا نقصد العلوم الشرعية التي نحن نتمنى أن المسلمين ـ أيضًا ـ يصلون إلى هذه العلوم لينفعوا بها أنفسهم، وينفعوا الخلق.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن فيها دليل على: فضيلة داود وسليمان ـ أيضًا ـ : من جهة اعترافهما بنعمة الله، وشكرهما لها لقوله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا﴾، ولم يقولا: إننا أوتينا هذا على علمٍ منا، أو لأننا أذكياء، أو ما أشبه ذلك ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها:** أن الشكر يكون بالقول، كما هو ـ أيضًا ـ بالفعل، يكون بالقول، وبالفعل، ويكون ـ أيضًا ـ بالاعتقاد، والشكر له ثلاث محلات: القلب، واللسان، والجوارح: قال الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

الدليل على هذا أن الشكر، يكون في ثلاثة مواضع:

١ - في اللسان.

٢ - وبالفعل حيث قال النبي - عليه الصلاة والسلام - ، وقد قيل: له: كيف تفعل هذا، وكان يقوم، حتى تتورم قدماه، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، فقال: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»[1]. فجعل الفعل شكرًا لله - سبحانه وتعالى - وقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سباء: ١٣].

٣ - وبالقلب: أن يعتقد بالنعم في القلب، فهو من الشكر، ما الدليل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، هذا الخبر يريد الله منا أن نعتقده، ولهذا ضم الله - تبارك وتعالى - الذين نسبوا نعمته إلى أنفسهم فقال عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨].

وفي هذه المسألة: كل الأنواع الثلاثة للشكر قلَّ مَنْ يقوم بها، فبعض الناس مثلاً يعتمد على السبب في جلب النعمة عليه، وينسى المُسبِّب عندما يعطيه إنسان شيئًا أو حاجة من الحاجات تجد أنه يكون في قلبه مِنْ شكْر هذا المُعطي أكثر مما يكون من شكر الله، تجده - أيضًا - يُثني على هذا أكثر مما يُثني على الله، تجده يقوم بخدمة هذا أكثر ما يقوم بخدمة الله، مع أن هذا الذي بسط النعمة على يديه ما هو إلا طريقٌ ليوصلها إليه فقط، وإلا فالذي جعل في قلبه أن يُوصل هذه النعمة إليه من هو؟ الله - سبحانه وتعالى - هو الذي يسَّر هذا.

الحاصل أن الناس الآن أكثرهم، أو غالبهم، يُقِلون في مقام الشكر إما بالقلب، أو باللسان، أو بالجوارح.

٦ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن فيها دليل على: أن الإنسان يُشرع له إذا منَّ الله عليه منةً أن يحمده عليها، وقد وردت نصوصٌ في ذلك، فعندما تنتهي من الأكل، والشرب تقول: : الحمد لله، عندما تستيقظ تحمد الله، عندما تلبس ثوبًا تحمد الله، وهكذا، وهذا من الأمور المشروعة - الحمد لله تعالى - على النعم.

٧ - **ومن فوائد الآية:** تواضع داود وسليمان بمعرفتهما للحقيقة لقوله: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما ذكر التفضيل المطلق على المؤمنين بل على كثير من عباده المؤمنين، هل يُستفاد من قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنهما من المؤمنين؟

الظاهر: أنه يُشعر بهذا، يعني أننا شاركناهم، وصف الإيمان، وفضلنا الله علي كثير منهم.

٨ - **وفي الآية دليل على،** أن الإنسان إذا رأى أنه أفضل من غيره بنعمة الله عليه، فإن هذا لا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٣٠) ومسلم (٧٩/ ٢٨١٩) من حديث المغيرة رضي الله عنه.

يُنافي التواضع، بل عندما تشعر أن الله أنعم عليك بالمال، فضَّلك على هذا، هل معنى ذلك أنك ترفعت وتكبرت؟ لا، بل إنك لا يمكن أن تمسك نعمة الله عليك، حتى تعرف أنه ضدها في غيرك، لا يمكن أن تعرف هذا إلا إذا رأيت مثلاً إنسانًا مُبتلىً في بدنه، والله - تعالى - قد عافاك، فتعرف أن هذا من فضل الله وتقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه به، وفضَّلني عليه، عندما ترى جاهلاً، وأنت منَّ الله عليك بالعلم كذلك ـ أيضًا ـ ترى فضل نعمة الله عليك في هذا، ولا يُعد هذا من باب التكبر، والاستهانة بالغير، ولهذا قالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذه قد يتراءى للإنسان أنه إذا رأى فضله على غيره بما أنعم الله عليه قد يتراءى له أن ذلك أمر مذموم، وأنه يتضمن الترفع، والاستهانة بالغير، وليس الأمر كذلك.

٩ ـ **وفيها من الفوائد:** مشروعية التحدث بنعمة الله، لكن لا على سبيل الافتخار، والعلو على الغير، ولهذا جاء في الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ**»[(١)]. فالإنسان إذا تحدث بنعمة الله غير مفتخرٍ بها فإنه لا بأس به، بل قد يكون هذا مشروعًا؛ لأنه ثناء على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بما أنعم به عليه.

١٠ـ **وفي هذه الآية:** إثبات علم الله؛ لأنه أعطى علمًا، وفاقد الشيء لا يعطيه؛ وجهه: أن الله - تعالى - أعطى هؤلاء علمًا، ولا يعطي العلم إلا من كان عالمًا؛ لأنه يعلمهم بالعلم، بما يعلم هو.

١١ ـ **ويؤخذ أيضًا من الآية:** أن من فاق غيره في صفة لا يلزم أن يكون أفضل منه فضلًا مطلقًا.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أن سليمان متأخر عن داود؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ﴾، والإرث، كما قلنا: أن يخلف الإنسان غيره في شيء ما علمًا كان أو مالاً.

٢ ـ **وفيها دليل على:** مشروعية تحدث الإنسان بنعمة الله لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

٣ ـ **وفيها أيضًا:** أن هذا التحدث لا بأس أن يكون علنًا، يعني شاملاً؛ لأن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداءٌ للبعيد، فكأن سليمان أعلم ذلك لجميع الناس.

٤ ـ **وفي هذا دليل على:** أن الطير تنطق؛ لقوله تعالى: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

٥ ـ **وفيها:** أن منطقها مفهومٌ ومعلوم، ولكن فيما بينها معلوم، ولغيرها مجهول إلا لمن علَّمَهُ الله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء:٤٤].

٦ ـ **وفي هذه الآية دليل على:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعطى سليمان من كل شيء يتم به

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣/ ٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ملكه؛ لقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو نظير قوله تعالى عن ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي مما يتم به ملكها، هذا إذا قيدنا أن ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يتم به الملك فتكون ﴿مِن﴾ لبيان الجنس، فإذا قلنا: إن ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عامٌ لكل شيء، فإن من تكون: للتبعيض، يعني: ما أوتوا كل شيء، بل بعض كل شيء.

٧ ـ وفيها دليل على: أن ما يعطيه الله ـ تعالى ـ للعبد مثل العينين، والفم، فهو من فضله لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[يونس: ٥٨].

هل يُستفاد من ذلك أن مَنْ علم لغة غيره فله ميزة على غيره؟

الجواب: نعم له ميزة على غيره؛ لأنه من باب قوله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾؛ إذن تعلم لغة غير العربية هي في الحقيقة من مِنَّة الله على العبد، لكن نستعملها في أي شيء، فإن استعملها مكان اللغة العربية، فهو مُخطئ، وكان عمر يضرب على ذلك، وإن استعملها لمصلحة دينية، فهذا له أجر في ذلك، إن استعملها لمصلحة في السعي إلى الله، وتفهيم الخلق الذين لا يفهمون اللغة العربية بهذه الوسيلة فهي مفيدة، المهم أنه لا شك أن الإنسان المُتعلم لغة غيره فله ميزة على غيره في هذا، لكن كونه محمودًا، أو غير محمود يرجع إلى ما يُتوصل إليه بهذه اللغة.

إن الإنسان يُمدح إذا علم لغة غيره، لكن لا شك أنه علم، وأنه إذا تُوصل به إلى أمر محمود، فهو محمود، وإن تُوصل به إلى أمرٍ مذموم كان مذمومًا، فمثلاً إذا كان الإنسان يتعلم لغة غير اللغة العربية، يعني: ويحلها محل العربية، ويبدأ يخاطب غيره بهذه اللغة فلا شك أنه مذموم، ويُنهى عنه؛ لأنه خالف الشرع من جهة، وخالف العقل من جهةٍ أخرى، الأمم الآن تسعى بكل وسيلة للحفاظ على لغتها، بل إنها تسعي لإحياء لغتها البائدة مثل ما يفعل اليهود الآن يحاولون بشتى الوسائل أن قومهم يرجعون للغة العبرية، فكيف لنا أن نضيع اللغة العربية التي هي لغة العالم شرعًا؟!، ولهذا يجب على جميع العالم أن يتعلم اللغة العربية؛ لأن القرآن باللغة العربية، ولا يمكن فهمه إلا باللغة العربية، ولكن نحن الآن مع الأسف نرى أن غير اللغة العربية هي العالمية، مثل ما نرى الآن الشعوب غير العربية هي العالمية؛ لأننا ما عرفنا قدر أنفسنا، وإلا فالمسلمون هم العالم في الحقيقة، هم العالم في دينهم، وفي كتابهم، وفي تاريخهم، يقول: الله ـ تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾[البقرة: ١٨٩]، قال: ﴿لِلنَّاسِ﴾ لم يقل للعرب، بل مواقيت للناس، قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[التوبة: ٣٦]، وقد فسرها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذه الشهور العربية، ولكن:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

الحاصل أني أقول: إن مع الأسف الشديد تجد بعض الناس يتعلم لغة هؤلاء، ويجعلها هي لغة التخاطب فيما بينهم، وهذا لا شك أنه نقص في الشرع والعقل.

لو أن الناس نُقلوا من اللغة العامية إلى اللغة العربية الفصحى هذا جيد إذن من أحسن ما يكون؛ لأنهم باقون على لغة القرآن، والسنة، لكن هذا تغير لهجة فقط، ولو تأملت ما عليه الناس الآن من اللغة العربية العامية لوجدت أن كل كلماتهم لها أصول في اللغة العربية، لكن الاختلاف اختلاف لهجات، فأملنا في الحقيقة أن نرجع إلى اللغة العربية الفصحى، ولكننا لابد أن نتخلى عن لغتنا هذه العامية إلى الفصحى، هذا في نظري.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

ثم قال الله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أتاه الله ـ تعالى ـ ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، حتى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما همَّ أن يقبض على الشيطان قال: ذكرت قول أخي سليمان ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥].

من جملة ملكه هذا التنظيم العظيم، قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ﴾ جُمع، ومن الجامع؟ الجامع النقباء والعرفاء الذين جعلهم يجمعون هؤلاء الجموع، فهو قد نظم ملكه غاية التنظيم، وجعل لكل أُناسٍ قادة، وعرفاء فهم يجمعونهم.

قوله تعالى: ﴿جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾، وغيرهم.

الجن: واضح، والإنس مكلفون، والطير: غير مُكلفين، لكنها تطير، هل الحيوانات الأخرى الماشية والزاحفة، تدخل في هذا؟ من باب أولى، ونقول: إذا حُشرت الطيور التي لا يمكن السيطرة عليها فغيرها من باب أولى؟ أو نقول إن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما كان يستعمل إلا الطيور فقط؛ لأنه يستخدمها لمصالحه ممكن على عموم هذا؛ لأنه يجعل مِنْ للتبعيض فليس على العموم، وإن جعلنا كل شيء يثبت بالملك، ويقوى به مثل هذا الشيء فهو محل إشكال عندنا: الآن نقول: سكت عن بقية الحيوانات، فهل هي داخلة في جنوده أو لا؟

الجواب: قد تكون داخلة من باب الأولى، وقد تكون ليست بداخلة. ما يدخل فيه من باب الأولى أن نقول: إذا كان الطير، وهو لا يمكن السيطرة عليه لطيرانه يُحشر ويُجمع فغيره من باب أولى وقد تقول: إنه ليس بداخل؛ لأنه يمكن أن سليمان ﷺ ما يستخدم من الحيوانات سوى

الطير، وإذا لم يستخدم سواها فلا حاجة له في أن يجمع الباقي.

وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يقول المؤلف: [يُجمعون ثم يُساقون]، وهذا - أيضًا - من التنظيم، يوزعون، يعني يُساقون، يعني يُنظمون في جمعهم، وسيرهم، يُجمعون أولاً، وبعد أن يُجمعوا يوزعون: يُساقون على وجهٍ مُنظم، وهذا لا شك أنه من التنظيم الذي يحفظ على الناس الوقت والعمل؛ لأن أكثر ما يضيع الإنسان وقته، وعمله هو عدم التنظيم، ولهذا أقول: أنه ينبغي لنا أن نكون عندنا تنظيم في أعمالنا اليومية بقدر المُستطاع، لكن ليس معنى ذلك أن نصر على هذه الأعمال، وإن وجد ما هو أفضل،لكنني أكون إنسانًا مرتبًا منظمًا، ما أترك وقتًا يضيع، ومن المستحسن أنه كلّ ما كان أهم يُبدأ به أولاً، كان بعض الناس يقولون: من جملة تنظيمه أنه يجعل قراءة الجرائد والصحف إذا تغدي، ما يجعل قراءة الكتب الهامة التي تحتاج إلى تعب بعد الغداء، لكن قراءة الصحف قراءة سطحية مثل التحدث العادي لا يتعب، ولا شيء، لكن الكتب والتعمق يحتاج إلى عمل، وهذا لا يتناسب مع وجود الشِّبع.

الفوائد:

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - قد نظم جنوده، ورتبهم بحيث يُجمعون عند الجمع، ويفرَّقون عند التفريق؛ لقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾.

٢- **في هذه الآية دليل على:** أن الجنود التي يستخدمهم سليمان ثلاثة أصناف، وهم: الجن، والإنس، والطير، أما الإنس فاستصحابه لهم ظاهر؛ لأنه منهم، وأما الجن: فلاستخدامهم فيما لا يقدر عليه الإنس، وأما الطير: فقال بعض العلماء: إنها تصحبه لتظله لتغطية رأسه، فهي ظل له من الشمس، وهذا قد يكون مقصودًا وقد يكون أيضًا من مقصود استصحاب الطير أنها تأتيه بالأخبار البعيدة، كما في قصة الهدهد.

٣ - **وفيها أيضًا:** في قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ دليل على كمال التنظيم أيضًا؛ لأن الوزع: ما معناه: الجمع والسَوق،قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]، يجمعون إليها، ويُساقون إليها، وهذا دليل - أيضًا - على كمال التنظيم.

٤ - **ومن فوائدها:** استعمال الساقة في الجند والجيش أن يكون لهم سائق، كما أن لهم قائدًا دليلاً، فلهم - أيضًا - سائق، وقد كان من هدْي الرسول ﷺ أنه يكون في الساقة في أخريات القوم، مع أنه ﷺ رئيسهم وزعيمهم وكان يتأخر ولكنه يتأخر لأجل أن يساعد من قصَّر، ويعين من احتاج، وهذه فائدة عظيمة.



قال الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[النمل:١٨،١٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾ هذه غاية لما سبق، وهو قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ﴾، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ﴾، وعلى هذا فيكون في الكلام حذف تقديره: وساروا حتى إذا أتوا، فبعد أن جمع الجنود، ووزعوا، ورُدَّ أولهم إلى آخرهم ونُظموا ساروا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ﴿أَتَوۡاْ﴾ أي: سليمان وجنوده أي: مرّوا، قوله: ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ظاهر الكلام أن هذا الوادي معروفٌ بهذا اللقب، أنه يُسمى وادي النمل، لكن خلاف الظاهر أن يكون هذا الوادي واديًا فيه نمل، يعني: حتى إذا أتوا على وادٍ فيه نمل، وليس معروفًا بهذا اللقب بأنه وادي النمل، ولكن الأولى الأخذ بظاهر اللفظ، وهو أن يكون هذا الوادي معروفًا بكثرة نمله، وأنه يُلقب بهذا اللقب لكثرته، والنمل معروف، وهو من الحيوانات التي نُهي عن قتلها، كما في السنن: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعًا مِنَ الدَّوَابِّ، وَذَكَرَ مِنْهَا النَّمْلَةَ»[(١)].

وفي الصحيح ـ أيضًا ـ: «في أحد الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أنه قرصته نملة فأمر بقرية النمل كلها فأحرقت، فعاتبه الله على ذلك، وقال هلا نملة واحدة»[(٢)].

هذا النمل من جملة المخلوقات التي تعرف ربها، وتعرف ما ينفعها، وما يضرها على حسب ما رُكِّب فيها من هداية، وقد قال موسى ﷺ لفرعون لما قال: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٠]، أعطى كل شيء خلقه أي: الخَلْق اللائق به، كل شيء من الحيوان وغيره له خلقٌ يليق به أعطاه الله، ثم هداه: هدى هذا الخَلق ـ أيضًا ـ بما تقوم به مصالحه.

فهذا النمل من جملة المخلوقات التي أعطاها الله ـ تبارك وتعالى ـ خلقها، وهداها.

قوله تعالى: ﴿أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ [وهو بالطائف أو بالشام]، فيه خلاف، ولا دليل لا على

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠١٩) ومسلم (١٤٨/ ٢٢٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الطائف، ولا على الشام، والأقرب أنه في الشام، ومع ذلك لا نجزم به؛ لأن مقرَّ سليمان - عليه الصلاة والسلام - كان في الشام، ومع هذا لا نجزم به.

وتعيين المكان هل هو من الأمور التي لابد منها في القصة؟

لا؛ لأن المقصود الاعتبار بما جرى في أي مكان كان من الأرض.

وقال: [نمله صغار، أو كبار]، ولكن ما لنا ولهذا، ولهذا بعضهم يقول: النمل الكِبار: النملة الكُبرى الذئب، يعني صارت النمل كالحمير، هذا ما هو صحيح، بل النمل هو المعروف في لغة العرب، وكل من فسر شيئًا من القرآن بخلاف ما تقتضيه اللغة العربية فإنه لابد له من دليل، وإلا فيُرد عليه؛ لأنه معنا أصلٌ أصيل في تفسير القرآن في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، فمن زعم أن شيئًا من هذا القرآن على خلاف هذا اللسان العربي المبين فعليه الدليل.

على هذا نقول: النمل هو النمل المعروف، وأما القول بأنه الكبار، وأن الكبرى الذئاب فلا دليل عليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾، هذا جواب إذا، حتى إذا أتوا ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ [ملكة النمل، وقد رأت جند سليمان].

أما قوله: [وقد رأت جند سليمان] هذا واضح، الله أعلم أنها رأته، أو أحسته، قد يكون إحساسًا بدون نظر، وقد يكون نظرًا، إنما على كل حال هي أدركت قربه، ووصول سليمان بجنوده إليهم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾، نملة مُنَكر، وظاهر كلام المفسر أنها مُعرفة؛ لأنه قال: [ملكة النمل]، وهذا يقتضي أن يكون التعبير: قالت: النملة؛ لأنها النملة المعهودة، وهي الملكة، ولما لم يكن التعبير بقوله: قالت النملة، دلَّ على أن القائل لا يتعيَّن أن تكون ملكة النمل، وإنما هي نملة من النمل، وهذا ليس بغريب، فإنه كما لو أقبل جندٌ على طائفة من الناس، ورآه واحد منهم يصيح بهم ، ولا يلزم أن يكون هذا الصائح هو الأمير، أو الملك، وإنما الصحيح إبقاء القرآن على ظاهره، وأنها نملة من هذا النمل، ولا يلزم أن تكون الملكة؛ لأن مثل هذه الأحوال أي: واحد يشعر من الطائفة الموجودة يشعر بالخوف يصيح به وينذر، أنا النذير العُرْيان.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ إذن الصواب أن نقول: قالت نملة من النمل، ولا نعينها بأنها الملكة.

وقد رأت جند سليمان: هل يتعين - أيضًا - أن تكون رؤيةً، أو يجوز أن يكون إحساسًا؛ يعني: هل يتعين الإدراك بالرؤية، أو يجوز أن يكون بالاحساس والسمع؟

الجواب: يمكن هذا، وحينئذٍ نسأل هل للنمل أعين؟ وقد رأيت كلامًا يقول: إن النمل بإذن الله إذا مشى يفرز أشياءً تمشى النملات الأخرى على رائحتها، وهذا الشيء أنا شاهدته بعيني كان

في بساط كبير، وكان النمل هذا يمشي، يعني يأتي على زاوية ثم يرجع، كل النمل على هذا، يعني: ما يروح يختصر، فأنا تعجبت كيف أنه يعرف الطريق إذا كان على تراب فالذي على التراب يبين أثر النمل، ويمشى بعضه مع بعض، لكن هذا ما هو على التراب، ولكن بعد أن قرأت هذا أمس عرفت أنه إذا مشى هذا، يكون للرائحة، وتمشي بقية النمل عليه، وهذا من آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا معني قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

على كل حال نحن الذي يلزمنا من هذه الآية الكريمة: أن النملة أدركت ذلك برؤية، أو بغير رؤية.

يقول: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾،

هذه الجملة تضمنت: نداءًا، وأمرًا، وإرشادًا، وتحذيرًا، وتعذيرًا، وغير ذلك مما يمكن أن ندركه - إن شاء الله -.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ هذا نداء، وقد مرَّ علينا مرات أن تصدير جملة النداء الغرض منه: التنبيه؛ لأنك لو قلت: افعَلْ أو يا فلان افعَلْ الأخيرة أعظم وأبلغ، فهذا لتنبيههم، ثم قولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ نداء للبعيد مُصدَّر بتنبيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾؛ لأنها لو قالت: يا نمل؛ لأنكم كما تعلمون أن الإنسان أول ما يتكلم قد يخفى أول الجملة، فتخفى أول الجملة، ولو جاء بشيء ينبه قبل الدخول في الموضوع المقصود لا يفوت السامع من المقصود شيء، لذلك قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾، ولم تقل: يا نمل.

ثم إن نداء البعيد ـ أيضًا ـ يدل على أنها صوتت بصوت سمعه الكل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾

وفي قولها: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ هذا أمر، والمراد به الإرشاد، وفي تعيين المساكن وهي الملاجئ، هذا مثْل صفارة الإنذار عند الناس، هل يهربون للسطوح أم للملاجئ؟، للملاجئ، هي ـ أيضًا ـ أرشدتهم إلى ملاجئهم ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾

ثم فيها ـ أيضًا ـ إشارة إلى أن هذه المساكن، كما أنها أفنان يهتم بها الإنسان هي ـ أيضًا ـ حصون يحترز بها الإنسان، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦].

وفي قولها: ﴿مَسَٰكِنَكُمْ﴾ الإضافة هنا على تقدير اللام؟ لأن الإضافة تكون على تقدير من: إذا كان المضاف من جنس المضاف إليه: خاتم حديد، باب خشب.

وتكون على تقدير في: إذا كان المضاف إليه ظرفًا من المضاف، كما في قوله تعالى: ﴿بل مَكْرُ اللَّيْلِ، والنَّهارِ﴾ [سبأ:٣٣] أي مكرٌ في الليل.

وتكون على تقدير اللام، وهو الغالب، والأكثر، وهنا على تقدير اللام، واللام المقدرة بالإضافة هنا للاختصاص، أم الملك؟

الجواب: بالنسبة لنا للاختصاص، لكن بالنسبة لهن للنمل فيما بينهن الظاهر أنه للملك؛ لأن كل واحدة منهن تعرف بيتها، وأنه ما أحدٌ يدخل عليها.

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، هذا إرشاد وتحذير،قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ يكسرنكم، والجملة هذه كالتعليل للأمر، لقولها: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾، يعني: كأن قائلًا يقول: لماذا؟ الجواب،قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، فالجملة تعليل وتحذير.

وهذا من بلاغتها - أيضًا - ، ما قالت: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ فقط، لكن عينت المُحذر منه، وهو قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ﴾ ثم أتت بهذه الجملة الشديدة الوقع، ما قالت: لا يطأنكم، قالت: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أيهما أشد، وقعًا؟ الأخيرة أشد؛ لأن الوطء قد يلزم منه كسر وإتلاف، وقد لا يلزم، هذا هو بالنسبة لكلمة التحطيم.

وهل المقام يقتضي هكذا، أن يأتي بهذه العبارة الغليظة؟ نعم؛ لأن المقام مقام تحذير وسرعة، إذا لم يفعلن هذا بسرعة فإنهن يحطمن.

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ بالنون هذا لا يكون إلا للعاقل؛ لأن غير العاقل يؤنث: ادخلن مساكنكم، ولا يحطمنكن، ولكن هي قالت: ادخلوا، ولا يحطمنكم تنزيلاً لهن منزلة العاقل، أو يُقال: هن بالنسبة لبعضهن عقلاء، مثل ما قلنا: إن مساكن بالنسبة لبعضهن ملك، وبالنسبة لنا اختصاص.

وقوله تعالى: ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، كأن هذا التعليل يدل على أن عظمة سليمان متقررة عندهن، وهو كذلك.

قوله تعالى: ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ ما قالت: وجنده؛ لأن الذي فهمناه من القرآن من أن معه ثلاثة أصناف من الجنود، مَنْ؟ الإنس، والجن، والطير، كما سبق.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا اعتذار، اعتذار لسليمان وجنوده، أنهم لن يقصدوا أن يحطموكم، ولكن بغير شعور منهم؛ لأنكم كما تعرفون الجنود الجيش العظيم الواسع، وهذه نمل صغار، يمكن أن يحطمهم وهو لا يشعر، ثم إن الغالب من مثل هذا الجند الكثير ما يستطيع أن ينكف بعضه عن بعض إذا وجدوا جُحر نملٍ مثلًا، فهذا معنى قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يعني لو قال قائل: كيف، وهم لا يشعرون؟ هل هم يمشون بغير هدى؟

نقول: لا يمشون بهدى، لكن من المعروف أننا إذا قارنا بين هذا الجند العظيم الواسع، وبين صغر هذه النمل، فإن الغالب أنهم لا يشعرون بها.

هذه الجمل البليغة العظيمة من هذا المخلوق الذي ليس في أعين الناس شيئًا، وهو من أصغر المخلوقات، على أي شيء يدلنا؟ يدل على عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - وإنَّ ما هو أعظم من هذه المخلوقات النمل هو أعظم منها - أيضًا - في هذه الأمور؛ لأنه من أعطى الصغير هذا

الإعطاء، وهداه هذه الهداية فالكبير أحوج إلي الهداية من ذلك، وعنده من العلم ما عنده.

[نُزِّل النمل منزلة العقلاء في الخطاب بخطابهن] ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾، و قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾؛ لأن النون هذه لجماعة العقلاء، والواو - أيضًا - لجماعة العقلاء، ولذلك خوطبوا بخطاب العقلاء مثل ما قلنا: إما لأن بعضهم مع بعضٍ عاقل، أو أنه لما كان هذا الخطاب يُفهم ويُعمل به صار كأنها تخاطب عقلاء.

هنا عبر ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ للكسر، وإنما الحيوانات طرية، والحشرات طرية؟

ولكن، لا يراد بالكسر هنا كسر عضو فقط، المراد بالكسر الإهلاك على سبيل التحطيم، يعني مثلاً النملة إذا آذيتها تقطعت تمزقت هكذا، ما معناه: أن تنكسر رجلها، وتبقى معلقة مثلاً بها، وهو أشد في الحذر،قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة: ٥]، هذا التحطيم أبلغ.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

قال: [﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سليمان ابتداءً ﴿ضَاحِكًا﴾ انتهاءً ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾]، يقولون: إن الضحك ثلاثة أنواع: ابتدائي، ووسط، وانتهائي.

الابتدائي: التبسم، والوسط: الضحك، والمنتهى: القهقهة، والقهقهة لا تليق بالإنسان العاقل الرزين، والتبسم هو أكثر ضحك الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

والضحك:، يكون من الأنبياء أحيانًا. فهنا ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ المؤلف - رحمه الله تعالى - يرى أن سليمان ﷺ كان له مرحلتان في هذا الضحك الأولى التبسم، والثانية: الضحك، فابتدأ بالتبسم، وانتهى بالضحك، ويُحتمل أن يكون ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أنه ضحك متبسمًا، يعني معناه: أنه ما ظهر له صوت، ولكنه تبسم تبسمًا، والله أعلم.

وعلى هذا التقدير، يكون ضاحكًا: هذه حال مبينة للنوع، يعني معناه: أن ضحكه كان تبسمًا، على كل حال هذه مسألة لا يضر لو كان ضحك، ابتدأ بالتبسم، وأنهى بالضحك، ما الفرق بين التبسم، والضحك؟

التبسم: إذا انفتح الفم بدون صوت، الضحك:، يكون صوت، لكن دون قهقهة، القهقهة: هي تكرر الصوت.

يقول: ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ ﴿مِّن﴾ بيانية، والبيانية للتعليل: يعني: بسبب قولها تبسم، هذا التبسم ما مصدره؟ من تحذيرها، من اعتذارها، من إرشادها، من أين؟

من كل ما يتضمنه هذا القول؛ لأنه في الحقيقة محل عجب، أنك تتكلم بهذا الكلام البليغ، وبهذه السرعة، ما تسترسل فتجيب العناصر، وتزين، هذا لا شك أنه محل ضحك.

ثم - أيضًا - محل ضحك ما من الأقوال فقط: من مغزى هذا القول، ولهذا جعله من نعمة الله،

وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، مغزى هذا القول: أن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ تعترف حتى الحشرات بعظمته وعظمة جنوده، هذا - لا شك - من نعمة الله عليه، فهذا التبسم إذن من القول من مضمونه ودلالته، وكذلك من مغزاه، وما يتضمنه من نعمة الله ـ تبارك وتعالى ـ على سليمان.

قوله تعالى: ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ [وقد سمعه من ثلاثة أميال حملته إليه الريح فحبس جنده، حتى أشرف على واديهم، حتى دخلوا: أي النمل بيوتهم، وكان جنده ركبانًا، ومشاةً في هذا السير].

يقول المؤلف: وقد سمعه من ثلاثة أميال، من أين جاءت؟ هي أخبار إسرائيلية، بل إن الله تعالى قال في القرآن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾، ما الذي يدل على أنه سمعه على بُعد ثلاثة أميال؟، غاية ما هنالك أنهم عرفوا لما خُبِّر النمل بهذا التخبير دخلن في المساكن، يعني ما بينهم وبين أن يطئوا هذا النمل إلا دخول النمل مساكنهم، وهذا لا يقتضي أن يكون بينه وبين النمل ثلاثة أميال، ولا دليل على ذلك، وإنما يُقال أنه سمعه من قرب.

وهل سمعه غيره من جنوده؟

الظاهر: أنهم ما عرفوه، ولا سمعوه؛ لأن قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ يدل على أن هذا التعليل نطق الحيوانات خاصٌ بسليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وليس كما يزعم بعض العامة، بعض العامة يقولون: إن الكرسي يتكلم، ويأتون بقصص على هذا، إن هذا ما هو صحيح، ما من كلامٍ معلوم إلا في الأمم فيما بينها، وأما إن الإنس مثلًا يعلمون كلام الجن، أو يعلمون كلام الحشرات، فهذا لا يكون إلا بدليل، إذا وُجد دليل عن المعصوم فهذا صحيح، مثل ما أخبر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الذئب الذي تكلم، وأخبر ـ أيضًا ـ عن البقرة التي يُعذبها صاحبها، وقالت له: إنها لم تُخلق لهذا، المهم ما دلَّ عليه الدليل، وجب علينا أن نقبله، وإلا فالأصل أن الشيء يتكلم بلغته، وأن كل جنسٍ لا يفهم لغة الآخر.

يقول: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ [ألهمني] ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ :

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ﴾، هذا مُنادٍ حُذفت منه ياء النداء، وأصله: يا ربي، وحذفت الياء المضاف إليها للتخفيف؛ لأن أصلها ربِّي، ودائمًا ما يأت الدعاء بحذف ياء النداء، لماذا يأتي الدعاء دائمًا بحذف حرف النداء؟ ابتداءً باسم الله، وعناية بالمقصود، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ ربٌّ يُبتدأ به قبل كل شيء، وكأن الإنسان من شدة شوقه لربه أثناء دعائه ما يذكر منه إلا اسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أوزعني: من حيث الإعراب فعل أمر، لكن النحويين - رحمهم الله - تأدبًا مع الله ما يقولون: فعل أمر؛ لأنك ما تأمر الله وإنما، يسمونه فعل دعاء، عندما نعرب هذه نقول: أوزعني: فعل دعاءٍ، ما نقول: فعل أمر يُقصد به الدعاء، وحقيقي أنه فعل أمر،

والمقصود به الدعاء، لكن تأدبًا مع الله نقول: فعل دعاء.

قوله تعالى: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ [ألهمني] ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، ما الحامل لسليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ في أن يقول هذا؟

الاعتراف بنعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وخوف الغرور بالنفس؛ لأنه إذا كانت النملة تقول هكذا خوفًا منه وجنوده، وتعتذر لهم، ويفهم كلامها، هذا قد يؤدي بالإنسان إلى الغرور، مثل ما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، فلهذا سأل الله في هذا المقام الذي ربما يحصل فيه الغرور للمرء، والإنسان بشر، سأل الله أن يلهمه شكر نعمته التي أنعمها عليه وعلى والديه، وأن يعمل صالحًا يرضاه، وهكذا ينبغي للإنسان إذا حصل له نعمة أن يسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يلهمه شكرها، حتى لا يلحقه الغرور بهذه النعمة التي أنعم الله بها عليه سواءٌ كانت النعمة مالية، أو جسدية، معنوية، أم حسية.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ أن: هذه مصدرية، ما موقعها من الإعراب؟

مفعول ثانٍ لـ ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾؛ لأن المفعول الأول: الياء، والمفعول الثاني: أن أشكر، يعني: ألهمني شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والديّ.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ النعمة ما معنى النعمة؟ الإحسان الذي يَنْعَمُ به المُحسَنُ إليه، والنعمة كما تعرفون تنقسم إلى قسمين:

إما حصول مطلوب، وإما نجاة من مهروب، والله ـ تبارك وتعالى ـ دائمًا ينعم على عبده، والعبد دائرٌ بين هذين الصنفين من النعمة، دائمًا يحصل له مطلوبه، وينجو من مهروبه.

وقول المفسر: [أنعمت بها عليّ]: لماذا قدَّر بها؛ لأنه من المعروف أن الجملة التي تكون صلة للموصول، لابد فيها من عائد يعود على الموصول، هنا ﴿أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ تحتاج جملة (أنعمت) أن يكون فيها ضمير يعود على التي قدره المؤلف بقوله: [بها]، لأن تقدير الضمير لأجل أن يكون عائدًا على موصول، هذا واضح مُسلَّم، هذه قاعدة نحوية: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، أي: منه، هذا واضح، وهذا كثير في الكلام العربي، وفي القرآن والسنة وكلام الناس؛ أنه لابد من عائد يعود على الموصول ليربط جملة الصلة بموصولها، ولكن هل ما ذهب إليه المؤلف صواب؟

يقولون: إن العائد ما يُحذف إذا كان مجرورًا إلا إذا جُرَّ الموصول بحرفٍ مشابهٍ للمحذوف لفظًا ومعنًى وتقديرًا، وأنه إذا كان مجرورًا يُشترط أن يكون مجرورًا بالحرف الذي جرَّ الموصول، وأن يكون موافقًا له في اللفظ، ومتعلَّقه واحدًا موافقًا في اللفظ والمعنى والتقدير، والمعنى: المؤلف

الآن قدر (بها) مع أنها غير موجودة في القرآن: نعمتك التي أنعمت بها، وعلى هذا فالتقدير السليم أن يقول: أنعمتها عليَّ وعلى والدي؛ لأنه ما يمكن أن يُحذف العائد المجرور إلا إذا كان الموصول مجرورًا بحرف الجر الذي جُر به ذلك العائد.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، عليَّ: فظاهر أن نعمة الله عليه تحتاج إلى شكر، لكن نعمة الله على والديه، ما وجه كون هذا يحتاج إلى شكر منه؟

لأن نعمة الله على الوالدين نعمة على الولد، لاسيما نعمته هذه التي حصلت، وهو أنه ورث من داود النُّبوة، وخلفه فيها، فهذه النعمة نعمة الله على والديه هي في الحقيقة نعمة عليه، ولهذا قال تعالى : ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٰلِدَيَّ﴾ هذه مثنى مضاف لذلك حُذفت النون منه، وأصله: وَالِدَيْنِ لي، لكن حُذفت النون لأجل الإضافة.

إذن قوله تعالى: ﴿وَٰلِدَيَّ﴾ من المراد بالوالد؟ والده لصلبه أو حتى الجَدّ، وَمَنْ عَلا؟

نقول: الحقيقة أن كلمة (والد) أحيانًا يدخل فيها الجد، وإن علا وأحيانًا تتعين بالوالد الأدنى، والذي يُعيّن ذلك القرائن، القرائن اللفظية، أو القرائن الحالية، فمثلاً: لا يجوز لوالد أن يرجع فيما وهبه إلى ولده فيما يعطي، ما المراد بالوالد؟ الوالد الأدنى، والجد لا يُلحق به، الوالد في تحريم النكاح: يشمل الأدنى والأعلى، الوالد من جهة الميراث: يشمل الأدنى، والأعلى إن فُقد الأدنى، الذكور والإناث، فمثلاً الأب الوالد في الميراث يشمل الأب الأعلى إن فقد الأدنى، فصار في الحقيقة أن كلمة والد: صارت المراد بها الأدنى، وصارت المراد بها الأعلى، الأدنى والأعلى مجتمعين أو منفردين، وتارة المراد بها الأدنى والأعلى لا مجتمعين، والذي يعين ذلك هو القرائن اللفظية، أو الحالية.

وقوله: ﴿وَٰلِدَيَّ﴾ يعني الوالد، والوالدة، وإذا عبرت بـ والدِينا: عند أهل السنة والجماعة، واضح؛ لأن إذا قلت، والدِينا، وهما اثنين يصيروا أكثر وهكذا، ولذلك بعض الإخوان يقرأون في رمضان اللهم اغفر لنا، ولوالدَينا: هذا غير صحيح إلا على سبيل التجوز؛ لأن والدَينا معناه: عيال لرجلٍ واحد.

ما نحن بأخوة، ولهذا ما تأتي والدَينا إلا على سبيل التجوز، أي، والدَي كل واحد منّا، ولهذا التعبير السليم في مثل هذا أن تقول : والدِينا.

قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ﴾: معطوفة على قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ يعني: وألهمني أن أعمل صالحًا ترضاه، وهنا قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ أي: أعمل عملاً صالحًا، والعمل الصالح لا يكون إلا إذا تضمن شرطين أساسيين هما:

الإخلاص والمتابعة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة: ٥]،

الإخلاص، واضح للأنبياء وغيرهم، والمتابعة في غير الأنبياء واضحة، وفي الأنبياء غير واضحٌ عندكم، ولكنه واضح؛ لأن النبي يتبع شريعةً تُوحَى إليه.

هو قد لا يتبع هذه الشريعة، لكن، كما مرَّ علينا أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ معصومون من الإقرار على المعاصي مطلقًا - فإذن المتابعة موجودة في الأنبياء ـ أيضًا ـ ؛ لأنها متابعةٌ للشرع الذي أوحي إليه.

وهذا العمل الصالح ما جمع بين أمرين: الإخلاص، والمتابعة، ففي فقد الإخلاص يكون الشرك، وفي فقد المتابعة يكون الابتداع، فالعمل الذي فيه شرك مردود قال الله ـ تعالى ـ ، كما في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1]، حتى الرياء: الرياء نوع من الشرك إذا عمل الإنسان العبادة وهو مراءٍ فيها، فهو مع الإثم مردودٌ عليه عمله.

وكذلك - أيضًا - في الابتداع قال النبي ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[2]، وهو أعم من اللفظ الثاني: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْـهُ، فَهُوَ رَدٌّ**»[3] نعم، إلا إذا قلنا: من أحدث: في ذاته وصفاته، فإذا قلنا: من أحدث في أمرنا ما ليس منه سواء في نفس العمل، أو فى وصف العمل صار موافقًا للفظ الآخر.

على كل حال: العمل إذا لم يكن خالصًا فليس مقبولاً، وإذا لم يكن صوابًا، يعني: على السنة فليس مقبولاً، وليس بصالح ـ أيضًا ـ ، بل هو فاسد.

وقوله تعالى: ﴿صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ الرضى: بمعنى: القبول، وكلمة: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ بعد قوله: ﴿صَٰلِحًا﴾ هل لها معنى؟ وأن كل صالح، فهو مرضي، فهل تكون الجملة حينئذٍ صفة مبينة، أو مُقيدة؟ الظاهر إنها مبينة، يعني: إن العمل الصالح مرضي، قد يقول قائل: إن العمل قد يكون صالحًا بظاهره، ولكنه غير مرضيٍّ في مآله، أو في مصاحفه، قد يعمل الإنسان مخلصًا لله متبعًا للرسول ﷺ، لكن يحصل منه إعجابٌ في عمله، هذا الإعجاب يمنع ما نزل الله به،قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾[الحجرات: ١٧]، قد يكون عملاً صالحًا في أوله، وفي نهايته لا يرضاه الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٤]، كالرجل يتصدق بالصدقة مخلصًا لله ـ تعالى ـ متبعًا لرسول الله ﷺ فيه، لكنه يُتبعها بالمنِّ والأذى، وحينئذٍ تبطل الصدقة.

على هذا التقدير يكون قوله تعالى: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ صفة مقيدةً، أيُّ الأمرين أولى؟ هل الأولى أن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٦/ ٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٨/ ١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧/ ١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

نجعل الصفة مبينة، يعني مفسِّرة فقط، أو نجعلها مقيدة؟

الأولى: أن تكون مقيدة؛ لأن بالتقييد زيادة معنى، والتفسير ما يعدو شيئًا خارجًا عما سبق، فكل صفة تأتي في الكلام في هذا وفي غيره فالأصل أن تكون مقيدة، ولا يمكن أن نلجأ إلى كونها مفسرة لمجرد بيان الأمر إلا عند الضرورة، إذا تعذر أن تكون مقيدة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، خلقكم والذين من قبلكم هذه مبينة، ومفسرة، وليست مقيدة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من البلاغة الإيجاز بالحذف؛ لأن قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا﴾ هذا الشيء محذوف، وفي التقدير: فساروا حتى إذا أتوا، يعني: حتى للغاية، يعني: لابد أن يكون هناك شيء مغيب قبله.

٢ - **وفيها دليل على:** إضافة الشيء إلى ساكنه: إضافة المكان إلى ساكنه لقوله: ﴿وَادِ النَّمْلِ﴾، كما يُفعل الآن في الأحياء، أحياء البلد هذا حيّ بني فلان، كما هو معروف من قديم الزمان أن الأحياء تضاف إلى ساكنيها، هل نقول في هذا دليل على أن النمل إذا سكن أرضًا ملكها بحيث ما يجوز إحياؤها ولا الانتفاع بها أو لا؟

إذنْ: وادي النمل، بيت فلان: هل يحق لك أن تأتي إلى بيت فلان، وتسكنه؟

الجواب: لو نظرنا إلى مطلق اللفظ لكان هذا الوادي لهم، ولكن الله - تعالى - يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩]، إذا كان النمل يؤكل أكلناه فكيف لا نأخذ مساكنه!! فبنو آدم هم أحق بهذا من غيرهم، فهم إذا - مثلاً - احتاج الإنسان لعمارة هذه الأرض وكان فيها نمل، ولو لزم من ذلك أن يموت النمل؛ لأن هذا الموت غير مقصود، وإنما جاء ضرورة لتناول المباح فإنه لا يضر، وهذه القاعدة معروفة في الشرع: إن الشيء الذي يأتي ضرورة لفعل المباح، وهو غير مقصود فإنه لا بأس به، فينظر مثلاً إلى قتل النساء، والذرية في الحرب يجوز؟ لا يجوز، لكن إذا لم نتوصل إلى قتل المقاتلين إلا بالرمي بالمنجنيق، والمدافع العامة يجوز؟ يجوز، ولو لزم من ذلك قتل النساء، والذرية؛ لأنه غير مقصود، كذلك - أيضًا - قطع النخيل، نخيل العدو؟ لا يجوز، ولكن إذا لم نتوصل إليهم إلا بقطع نخيلهم جاز، كما فعل النبي ﷺ في بني النضير، فالحاصل أن نقول: إن قتل النمل إذا لزم من إحياء الأرض فإنه ليس به بأس؛ لأنه لم يكن مقصودًا، وإنما جاء ضرورة لتناول أمرٍ مباحٍ لنا، حتى بني آدم لو آذاك أو تطاول عليك بالقتل

فاقتله، وهو أعظم الحيوانات حرمة.

٣ ـ وفي هذه الآية دليل على: أن للحشرات نطقًا: لقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾، وفيه دليل على أن قولها ـ أيضًا ـ مسموع يسمعه بنو جنسها؛ لأنهم لو لم يكونوا يسمعونه لم يكن به فائدة إذن فهم يسمعون قولها، وقد يُسمعه الله ـ تبارك وتعالى ـ مَنْ يشاء إما آية أو كرامة.

وفيه ردٌّ لكلام المؤلف في قوله: [إن النملة ملكة النمل]؛ لقوله: ﴿نَمْلَةٌ﴾ تنكر، وليس بغريب أن تكون نملة من النملات هي التي فعلت هذا.

٤ ـ وفيه دليل على: فصاحة هذه النملة ونطقها وذكائها؛ لأن الكلام الذي دار يتضمن هذا كله، فهو من بلاغتها استعملت في كل مكان ما يناسبه،قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ أتت بياء المنادي للبعيد؛ لأن النمل ليس قريبًا منها كله، بل بعضه قريب وبعضه بعيد، ومن كمال نطقها: إرشادها إلى المخابئ والملاجئ لقولها: ﴿ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾، ومن كمال ذكائها: أنها استعملت العبارات المثيرة المزعجة لقولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾.

٥ ـ ومن فوائدها: عدل النملة؛ حيث إنها قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فتضمن هذا الكلام أنواعًا كثيرة من البلاغة، والفصاحة، والنضج، والتحذير، والتعذير، وغير ذلك مما مرَّ في الشرح.

٦ ـ وفيه ـ أيضًا ـ: عظمة مُلْكِ سليمان وجنوده؛ لأن النملة عرفت ذلك، وحذرت منه.

قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]:

١ ـ من فوائد هذه الآية: جواز التبسم عند وجود سببه، وجواز الضحك ـ أيضا ـ؛ لقوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾، وهذا من فعل النبي، وكلام الأنبياء حجة حتى وإن كان غير نبينا ﷺ إلا ما ورد شرعنا بنصه فهذا لا يعتبر، والدليل على أن كلام الأنبياء حجة قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

٢ ـ وفيها دليل على: على ما كان عليه سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ من التواضع لله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث لم يأخذه الغرور بهذا المُلك العظيم، حتى قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل:١٩].

٣ ـ وفيها دليل على: الاعتراف بنعمة الله، وأنه ليس من الافتخار؛ لأن سليمان ذكر نعمة الله عليه، ولكنه لم يقصد بذلك الافتخار، والعلوّ على غيره، وقد قال الله ـ تعالى ـ للرسول ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحى:١١]، لكن لا على سبيل الافتخار والعلو؛ لأنه حينئذٍ ينقلب إلى نقمة.

٤ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن نعمة الله على الوالدين نعمة على الولد لقوله:

﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾، ولا سيما نعمة الإسلام فإنها من أكبر النعم على الولد، لو مات طفلٌ وأبواه كافران، لكان هذا الطفل في الدنيا في حكم الكافرين، وفي الآخرة الله أعلم بحاله، لو مات طفلٌ بين أبوين مسلمين لكان هذا الطفل مسلمًا في الدنيا والآخرة، وعلى هذا فنعمة الله على الوالدين لاسيما في الدين نعمة على الولد، وهذا هو وجه قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾.

٥ - **وفيها دليلٌ على:** أن من العقل والعدل والشرع إضافة المنة إلى المانِّ بها، لقوله: ﴿نِعْمَتَكَ﴾، وهذا اعتراف وأبلغ من أن يقول إنسان: أوزعني أن أشكر النعمة فقط؛ لأن قوله: ﴿نِعْمَتَكَ﴾، واضح جدًّا بخضوع هذا الإنسان بهذه النعمة العظيمة التي أنعم الله بها عليه، وهذا فيه دليل على أنه من العقل والعدل والشرع إضافة المنة إلى المانّ بها، ومن الألفاظ المعروفة عندهم، (إنما يعرف الفضل من الناس ذووه)، ما معنى ذووه؟ أصحاب الفضل، ما يعرف الفضل إلا أصحابُ الفَضْلِ، أما مَنْ ليس بأهلِ فَضْلٍ فإنهم يُنكرون الفضل، بل إنك لو تفضَّلتَ عليهم لرأَوْا أن هذا حقٌّ لازمٌ عليك، وليس مِنَّة، وأعظم شيء في هذا مَنْ يمُنُّ على الله - سبحانه وتعالى - بما أنعم الله به عليه، كما في قصة الأعراب: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحُجُرات:١٧].

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كغيرهم مفتقرون إلى توفيق الله، وأنهم بدون توفيق الله - سبحانه وتعالى - ما يسوون خيرًا يرضي الله لقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل:١٩].

٧ - **ومن فوائد الآية:** أن العمل غير الصالح ليس فيه فائدة، فالعمل غير الصالح دائرٌ بين أمرين: إما الإثم، وإما السلامة فقط، فإن صدر عن عِلْم، فهو إثم، وإن صدر عن جهل فالإنسان سالم، ولكن لا فائدة له فيه، كما لو صلّى إنسان مثلًا صلاةً باطلة في الحدث، صلاة بحدث فإنه إن تعمد ذلك كان آثمًا، وإن كان جاهلاً لم تفده، لم تفده في إبراء الذمة، ويُطالب بإعادتها، أما الأجر فقد يُؤجر عليها من أجل النية والعمل الذي حصل فيه مشقة، ولكن الإنسان ما يستفيد منها في إبراء ذمته، ولا تسقط عنه.

٨ - **ومن فوائد الآية:** أن الغاية التي يصير إليها الأنبياء، وَمَنْ بعدهم أو ومَنْ تبعهم هي رضا الله لقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾؛ لأن المقصود من عمل الإنسان الوصول إلى رضا الله - سبحانه وتعالى - ، بل إن رضا الله غاية فوق كل شيء، قال الله - تعالى - في امتداح المؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً

﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة:٧٢] يعني: أكبر من كل شيء، وإذا حلَّ على الإنسان رضا الله فهذا غاية ما يريد.

٩ ـ ومن فوائد الآية: أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يتوسلون إلى الله، يعني: يسألون الله ـ تعالى ـ بالوسيلة لقوله: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ [الإسراء:٥٧]، يعني: أولئك الذين يدعونهم هؤلاء المشركون أولئك ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ﴾ [الإسراء:٥٧] فكل الناس ـ كل الخلق - يسألون الله - تعالى - ويتوسلون إليه بما هو جائز.

١٠ ـ ومن فوائد الآية: جواز التوسل بصفات الله؛ لقوله: ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾

ولكن هناك إشكال في الحقيقة في قوله: ﴿فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، إذا قال قائل: مقام النبوة أعلى من مقام الصلاح، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩] فكيف دعا الله أن يكون من عباده الصالحين مع أنه نبي أعلى درجة من مرتبة الصلاح؟

هذا هو الأصل، الأصل: أن المراد بالصلاح هنا الصلاح المطلق، والصلاح المطلق هذا أعلى مرتبة، وقد قال يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] نعم، وقال الله ـ تعالى ـ عن إبراهيم: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل:١٢٢] فالمراد هنا الصلاح المطلق لا الصلاح الذي يُذكر مع المراتب، فإن مقام الصلاح مع المراتب دون مقام النبوة.

١١ ـ ومن فوائد الآية: أن العبادة مرتبة شريفة عظيمة يسألها حتى الأنبياء؛ لقوله: ﴿فِي عِبَادِكَ﴾، ولهذا يذكر الله نبيه محمدًا ﷺ بوصف العبودية في أعلى مقاماته عند إنزال القرآن، وعند الدفاع عنه، وما أشبه ذلك، وقد قال الشاعر يخاطب:

لَا تَـدْعُنِي إِلَّا بِيَـا عَبْـدَهَا ... فَإِنَّـهُ أَشْرَفُ أَسْـمَائِي

نعم هذا ـ أعوذ بالله ـ عاشق، لنفرض أن اسمه مثلاً بكر، يقول: لا تقل لي: يا بكر. قل: يا عبد ليلى، فإنه أشرف أسمائي، فالعبودية لله ـ سبحانه وتعالى ـ لا شك أن أشرف أوقات الإنسان أن يكون عبدًا لله، والإنسان لابد أن يكون عبدًا، ولا بد أن يتخذ إلهًا حتى الشيوعيين، والملحدين لابد أن يكونوا عبيدًا، ولهم آلهة، أم لا؟

نعم لابد، لو لم يكن لهم آلهة إلا أهواؤهم: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال الرسول ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ**»(١)، وهؤلاء - بلا شك - يعبدون الدينار والدرهم، بل إنهم لا يسعون إلا لذلك، هؤلاء الملحدون ما يسعون إلا لذلك،

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إذن لابد لكل إنسان أن يكون عبدًا، فإن كان عبدًا لله فقد تحرر من العبودية الموهومة؛ لأن عبد الله حُرّ، ما يرى شيئًا في الدنيا أو في المخلوقات أنه عبدٌ له، لكن يرى خالقه هو سيده، وإلهه؛ وأنه عبدٌ لهذا الخالق، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٩] هل شكر النعم من النعم؟

لا شك أن شكر النعم من النعم، وقد قال الشاعر:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... ، وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ، وَاتَّصَلَ العُمْرُ

وهذا صحيح، فإن هداية الله فقط للشكر نعمة، يجب عليك أن تشكر الله على هذه النعمة، فإذا شكرته صارت نعمة ثانية توجب الشكر؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

١٢ ـ ومن فوائد الآية: أن فيها ردًا على القدرية؛ لأن القدرية يرون أن الإنسان مستقل بعمله لا يحتاج إلى معونة من الله ولا شيء، ولا شك أن هذا قولٌ باطل، لكن هذه الآية ترد عليهم.

١٣ـ وفيها: رد على الجبرية؛ لأنه أضاف العمل إليه فقال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [الأحقاف:١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾ أنه ممكن أن أعمل غير صالح فهو مختار، ففيه ردٌ على الطائفتين جميعًا: القدرية والجبرية.



قال الله تعالى:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[النمل:٢٠-٢٢]

التفسير

قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ (أل) هذه للعهد؛ لأنها تعود على الطير المذكور ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾، وعلى هذا فيكون تفقده للطير في نفس هذه المسيرة.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [وتفقد الطير ليرى الهدهد الذي يرى الماء تحت الأرض، ويدله عليه بنقره فيها لتستخرجه الشياطين لاحتياج سليمان إليه للصلاة فلم يره]، إذا تفقد الطير لابد أن يرى الهدهد، الهدهد يرى الماء تحت الأرض، إذا رأى أنهارًا تجري تحت الأرض نقر بمنقاره ثم يأمر الشياطين فتحفر؛ لأنه كما سلف كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينظم الجنود،

ويتفقدهم، ولهذا ما قال: وتفقد الهدهد، أو الهداهد، بل قال: تفقد الطير كله، نعم؛ لأنكم تعرفون أن الطيور تسبح في الهواء فقد يشذ منها شيء - فعليه الصلاة والسلام ـ تفقدها من أجل كمال التنظيم، ثم إن قولهم أو دعواهم: إن الهدهد يرى ما تحت الأرض كلام غير صحيح؛ فإن عينه لا تراه ،وهذا الشيء إذا لم تر الحد القريب فكيف ترى المياه البعيدة، ثم إن الهدهد مثل غيره فينحجب نور عينيه ولا يرى شيئًا، ثم إن سليمان - عليه السلام - ليس بحاجة إلى هذا، بل إن سليمان من هذه الناحية في غير ما ذكر، إن وجد ماءً انتفع به، وإن لم يجد فإن الله ـ تعالى ـ ييسر له الماء بأي وسيلة.

وقوله تعالى: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ يسأل سؤالًا حقيقيًا ﴿ما﴾ اسم استفهام، وهل الغرض منه استخبار، أو استنكار؟ هنا الغرض استخبار، وقيل: إنه استنكار، وفيه يتضح أن الأصل في الاستفهام يتنافى فيه الاستخبار. قال بعضهم: وفي الآية قلب: على تقدير: ما للهدهد لا أراه، ولكن هذا ليس بصحيح، بل الآية على تقديرها، فهو يسأل: لماذا لا أرى الهدهد؟ نعم هل هناك مانع منع من رؤيته، أو أنه كان غير موجود، ولذلك أَضْرَب عن الأول، وقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وأم المنقطعة كما مرَّ علينا عدة مرات تكون بمعنى: بل والهمزة، يعني:، بل أكان من الغائبين، وحينئذٍ أضرب عن الكلام الأول، وعرف أنه لا علة في ذلك، وإنما العلة غيبة هذا الهدهد، ثم قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ أم كان غائبًا فلم أره لغيبته، فلما تحققها.

ثم قال تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا﴾ قال: [تعذيبًا ﴿شَدِيدًا﴾]،قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ الجملة هذه مؤكدة بثلاثة مؤكِّدات، وهي: اللام: لام القسم، والقسم قبلها مقدر، والثالث النون ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ ويقول: ﴿عذابًا﴾، يقول: المؤلف: [تعذيبًا] إشارة إلى أن عذابًا اسم مصدر؛ لأن عذَّب مصدرها تعذيبًا، واسم المصدر منها عذابًا، نظيرها: كلم مصدرها تكليمًا، واسم المصدر منها: كلامًا، وسلم تسليمًا، واسم المصدر منها سلامًا.

وقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ العذاب الشديد على رأى المؤلف: [بنتف ريشه، وضربه، ورميه في الشمس فلا يمتنع من الهوام]، هذا شيء عجيب، فتقدير هذا التعذيب بهذا الشيء على أي دليل؟! إن هذا التعذيب الشديد الذي جاء به المؤلف، بعضهم يقول: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أحبسه مع شيء ليس من جنسه، يضع الهدهد مع العصافير مثلاً، إذنْ جعل عذاب الحيوان أن يُحشر في غير جنسه، لو وُضِعَ الآدمي مع الجن يتعذب، أو الجن مع الآدمي يتعذبون، ولكن هذا ـ أيضًا ـ ما هو صحيح؛ لأننا نشاهد الآن أن أجناس مع غير أجناسها، ولا تتعذب واحد عنده مواشٍ؛ بقر، وغنم، وإبل، والغنم ضأن وماعز، ولا يتعذبون، فالصواب: أن هذا

التعذيب الذي قاله سليمان غير معلوم لنا إنه عذاب شديد، والله ـ تبارك وتعالى ـ لم يبينه، ولكن يكفي أن نعرف أنه شديد، هذه واحدة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ هذه للتمويه، يعني: إما هذا، أو هذا، وقوله تعالى: ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ يقول: [بقطع حلقومه] قول المؤلف يعني: من عند الرقبة.

الثالث: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ [بنونٍ مشددة مكسورة، أو مفتوحة يليها نون مكسورة] ﴿يأتِيَنَنِي﴾ فيها نون الوقاية إما تُحذف، أو تثبت، ونون التوكيد مشددة لكنها إن حُذفت نون الوقاية كُسرت نون التوكيد: يأتِيَنِّي، وإن لم تُحذف (يأتِيَنَّني) فإنها تبقى مفتوحة هذا أمر ثالث فتوعده سليمان بواحد من أمرين إلا إذا أتى ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [ببرهان بيِّن ظاهر على عُذره].

قوله تعالى: ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ كلمة سلطان ترد كثيرًا في القرآن، ومعناها العام: هي السلطة التي يتمكن بها الإنسان من الوصول إلى غرضه، هذا معناها العام، فتارةً يكون المراد به: الدليل ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾، وتارةً يُراد به القدرة ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[الرحمن: ٣٣]، وتارة يُراد به البينة مثل هذا، كلمة ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: ببينة على عذره، والمراد الآن قلنا بالسلطان: هي السلطة التي يتمكن بها الإنسان أو صاحبها من الوصول إلى غرضه سواء كان ذلك دفاعًا عن نفسه، أم إثباتًا لأمر.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ فسره المؤلف: [بيِّن]، ولا تصلح بمعنى: مُظهِر، يعني: ما تصلح متعدية؛ لأنها الآن لازمة.

تصلح ـ أيضًا ـ متعدية؛ لأن بسلطان مُظهر لعذره، وهذا إذا فسرنا بهذا نكون أخذنا بالتفسير الذي فسرها به المؤلف، وزيادة.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ﴾ [بضم الكاف، وفتحها] مكَث، ومَكُث، والفاعل الهدهد، ويحتمل أن يكون الفاعل سليمان، بأن بقي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: [يسيرًا من الزمان] وحضر لسليمان، هنا: حضر لسليمان ما الدليل عليه؟ أنه كان غائبًا في الأول ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، والغائب لا يُخاطب إلا إذا حضر، ولكنَّ قول المؤلف: [متواضعًا برفع رأسه، وإرخاء ذنبه، وجناحيه]، الظاهر أن المؤلف، كأنه معهم، يعني: الهدهد جاء، ورفع رأسه، ونزل ذنبه، وجناحيه، هل هذا استنباط؟ لا يمكن أن نقول هذا أبدًا، لا يمكن أن نصف كيف جاء، إنما يكفينا أن نقول ما قال الله ـ تعالى ـ في القرآن، وقد ذكرنا قبل قاعدةً: (كل ما سبق فإنه لا طريق لنا إلى العلم به إلا من طريق الوحي) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ما لنا طريق إلا الوحي إما في القرآن، أو السنة الصحيحة.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ﴿أَحَطتُ﴾ يُخاطب سليمان، وفي الحقيقة أن هذا

الهدهد قوي، قوي جدًّا، كما يقولون: كيف يُخاطب سليمان، وله هذا الملك العظيم، ويقول: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ما: تفيد التعظيم، ونحن الآن بشر، ونخاطب في بعض الأحيان المدير، أو مَن فوقه، ونقول مثلاً: أنتم، سيادتكم، أو سادتكم، ولا حضرتكم، ونعطيهم أكبر من اللازم مع أنهم بشر، وكل هذه الحقيقة من الأمور الشكلية التي لا تنذر عن شيء، ولا تندر - أيضًا -، الصحابة يخاطبون الرسول - عليه الصلاة والسلام - بهذا الخطاب، وهو أشرف عندهم من كل بشر، وكذلك الخلفاء الراشدون ما كانوا يُخاطبون بمثل هذا، ومن عجب الأمة أن بعض هؤلاء الذين يخاطبون بمثل هذه الألفاظ تجد قلوبهم تغلي على بعض هؤلاء المُخاطبين، تغلي عليهم، فيكون هذا الخطاب كأنه تهكمٌ بهم، ولو أن الناس تخاطبوا فيما بينهم على خطاب عادي، هذا الهدهد ما مكانه مع سليمان؟ جند من جنده الأضعفين، ومع ذلك يقول: بغاية الصراحة: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، وهذا أول ما كلمه بعد، لكن في الحقيقة فيه نوع من الأدب، ما قال مثلاً: أنت جاهل، ولا تعرف، وأنا ذهبت وبحثت، بل قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، يعني لأجل أن يعرف سليمان قدره، وأنه ليس محيطًا بكل شيء، فهذا الهدهد صار أشد إحاطة منه، والإنسان بشر ضعيف في كل شيء، حتى ما علمنا كيف نقبر موتانا إلا الغراب، مما يدل على أننا لسنا بشيء، الصراحة.

قوله تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يشبهه قول إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ما قال له: إنك جاهل، وهذا من لطافة الأسلوب.

هنا قال تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ الكلمة الشديدة، أي أطلعت على ما لم تتطلع عليه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

وأكد الخبر بقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ فما بالك؟ قال تعالى: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ومع أن الهدهد كان متيقنًا إلا أنه قال له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لماذا قال سليمان هذا مع أنه يقول له: ﴿بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾؛ لأن حقيقة الأمر أن كلام الهدهد فيه مقام الدفاع عن نفسه أن يصير مُدافعًا؛ لأنه متوعد بالعذاب الشديد، أو بالذبح، أو بخبر ﴿بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾، فلما كان في مقام الدفاع احتاج أن يتثبت هذا ببيِّنة، وقد وقع مثل ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: استأذن عليه أبو موسى ثلاث مرات ثم انصرف فلما عاتبه في ذلك قال: هكذا أمرنا رسول الله ﷺ، قال: ما البينة على ما تقول: ؟[1] مع أن أبا موسى صحابي ثقة لا يمكن أن يتقول على رسول الله - عليه الصلاة والسلام -، لكن المقام يقتضي زيادة التثبت؛ لأن الإنسان قد يفهم من النص ما ليس مرادًا، فلذلك طلب عمر من أبي موسى أن يأتي بشاهد، هنا هذا الهدهد

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٤٥) ومسلم (٣٣/ ٢١٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

سليمان - عليه الصلاة والسلام - مع أنه قد يقن وأكّد له الخبر قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ثم أعطاه آية وقرينة ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، والقصة في الحقيقة عظيمة جدًّا، وفيها فوائد كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ سبأ: [بالصرف، وتركه]، بالصرف ﴿مِن سَبَإٍ﴾، وتركه ﴿مِن سَبَأَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مِن سَبَأَ﴾ جُر بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف، و ﴿مِن سَبَإٍ﴾ جُر بالكسرة؛ لأنه اسم ينصرف، على أي اعتبار من الصرف، وعدمه، قوله: ﴿مِن سَبَأَ﴾: [قبيلة باليمن سميت باسم جد لهم].

الفوائد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾:

١ - **يُستفادُ من هذه الآية الكريمة:** سرعة رجوع الهدهد إلى سليمان مما يدل على أن جنود سليمان يهتمون به وبشئونه، ولا يتأخرون عن أعمالهم لقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

٢ - **ويُستفاد منها أيضًا:** أن سليمان إن كان أُعطي ملكًا عظيمًا لم يُعطه أحد فإنه لا يحيط بكل شيء، فهو على سِعَةِ مُلْكه، وقوته لا يحيط بكل شيء فغيره من باب أولى، فيُستفاد منه: ضعف إدراك المرء، الإنسان مهما بلغ من الملك، ومن القوة، ويدل على هذا قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]؛ لأن هذا يبين ضعف الإنسان، الضعف يشوبه: في كل شيء في القوى العقلية، والقوى الجسمية، وكل ما يمكن أن يوصف بالقوة أو الضعف، فإن حال الإنسان فيه الضعف.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أنه يجوز أن يُخاطب الرئيس بمثل هذا الخطاب، علمت ما لم تعلم، أو فعلت ما لم تفعل، ومثله قول إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لأبيه: ﴿إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣].

٤ - **ومن فوائده أيضًا:** أنه ينبغي للمتكلم أن يؤكد الخبر للمخاطب عند الحاجة إليه لقوله: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، فإن قال قائلٌ: ما فائدة تأكيده له، وهو مصدر الخبر، إنما التأكيد يفيد إذا جاء من طرفٍ آخر، يكون شاهدًا للمخبر، أما نفس المخبر فكيف يُقال: إن في تأكيده للخبر فائدة؟

فالجواب: أن المقصود من ذلك زيادة طمأنينة المُخبَر؛ لأنه أيضًا يدل على أن له فائدة: أنك إذا أخبرك مخبرٌ بخبر قد تقول له: هل أنت متأكد؟ فيقول: نعم، أو لا.

فإذن تأكيد المُخبِر لخبره لا يُقال: إنه لا فائدة منه؛ لأنه هو مصدر الخبر، بل نقول: فيه فائدة، وهي رفع توهم المخبِر في خبره، فيرفع هذا التوهم، ويطمئن المخاطب، ولهذا: ﴿وَجِئْتُكَ مِن

سَبَإِ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

٥ ـ ومن فوائد الآية: أن استعمال ضمير الجمع المخاطب المُعظم ليس بلازم، وليس من شأن خطاب الأنبياء؛ لأنه مثلاً عندما يقول لإنسان مُعظم: أتيتُكم، جئتُكم، وما أشبه ذلك، كما هو المعتاد الآن عندنا، عندنا إذا كان الإنسان معظمًا يُقال كما تريدون مثلاً: سعادتكم، وسيادتكم، أو سماحتكم، أو فضيلتكم، أو ما أشبه ذلك.

لا، هذا ليس مُعتادًا فيما سبق، وإنما يُخاطب الإنسان بما تقتضيه الحال، حتى إن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يرد السلام على المُسلِم بقوله: عليك السلام، إذا سلم عليه أحد يقول: عليك السلام، وإذا كانوا مثلاً جماعة يُقال: عليكم السلام.

٦ ـ ومن هذه الفوائد: أنه من عادة السلف أنهم يخاطبون، أو يتكلمون مع المُخاطب بما تقتضيه حاله.



قال الله تعالى:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٣-٢٤][(١)]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ الضمير جمع، والعائد عليه مفرد ﴿سَبَإٍ﴾، لكن لما كان المرادُ به القبيلة صحَّ أن يعود الضمير إليه جمعًا، وهذا سبق لنا في الشرح: سبإٍ، وسبأَ باعتبار القبيلة والجد.

الفوائد:

١ ـ يُستفاد من هذه الآية: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ أن المرأة لا تصلح للملك؛ لأنه ما قال ملكة، بل قال تملكهم، والمفسر تقدم أنه قال: [هي ملكة لهم]، وأن الغرض من تفسير ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾ بملكة، خوفًا من أن يُقال: إنها تملكهم ملك استرقاق.

والمرأة هل يصح أن تكون ملكة؟ لا، ففي شرعنا لا يجوز أن تُولّى المرأة على الرجال، فلا يمكن أن تكون ملكة، ولا يمكن أن تكون أميرًا، ولا يمكن أن تكون وزيرة، ولا يمكن أن

(١) تفسير هذه الآيات غير واضح سماعًا.

تكون قاضية، كل هذا لا يجوز؛ لأن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ، وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً**»(١).

اسم أميرة أو سيدة، هذا اسم فقط، أميرة اسم، يعني أنها من الأميرات فقط، وسيدة:أي امرأة، لكن الناس يسمونها سيدة، وهذه قد نبهنا عليها فيما سبق، وقلنا: إن هذه متلقاة من الغرب الذين يقدسون المرأة، وأن هذا ما ينبغي، ولهذا، حتى بعض الكُتّاب تجدهم يكتبون السيدة عائشة، السيدة خديجة، هذا ما ينبغي، بل يُقال: المرأة والأنثى، أما السيدة فلا يصح على الإطلاق، لاسيما وأنه مُتلقاة من غير المسلمين.

٢ ـ **ويستفاد من هذه الآية:** سعة ملك هذه المرأة، بل عظمة ملك هذه المرأة لقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، والمراد من كل شيء من مقومات الملك، كما قال المؤلف: المفسر.

٣ ـ **وفيه أيضًا دليل على:** أنها ذات أُبهة لقوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، وأما وصف العرش، كما ذكره المفسر فلا دليل عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

١ ـ **يُستفاد من هذه الآية:** أن هؤلاء القوم مشركون بالله؛ لقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾.

٢ ـ **وفيه دليل على:** أن الشمس معبودة من قديم الزمان؛ لأن هؤلاء في زمن سليمان، ومازال إلى الآن يوجد من يعبد الشمس، ومن يعبد النار، ومن يعبد القمر بل ومن يعبد البقر.

٣ ـ **وفيه دليل على:** أن الخلق مفطورون على إنكار الشرك؛ لأن الهدهد أنكر عليهم شركهم، مع أن الهدهد ليس من العقلاء، لكن جميع الحيوانات ـ أيضًا ـ بل، والمخلوقات مفطورة على توحيد الله - عز وجل -: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

٤ ـ **ويُستفاد من هذا فائدة:** أن المشركين شرّ البرية، كما قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وإذا كانت البهائم والجمادات تسبح الله وتعرف حقّه، وبنو آدم هؤلاء يشركون به صاروا شرّ الخليقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البيِّنة:٦].

٥ ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان يُذم على فعله، أو يُمدح على فعله؛ لأن الهدهد ساق ذلك على سبيل الذم، والغرض من ذكر هذه الفائدة: الوصول إلى أن فعل الإنسان باختياره إذ لو كان مجبرًا عليه لم يصح أن يكون محلاً للذم، أو للمدح؛ لأن الذي يُجبر على العمل يُمدح عليه إن كان خيرًا، ولا يُذم عليه إن كان سوءًا، ولكنه هو فعله، وفيه دليلٌ على إسقاط قول الجبرية الذين يقولون: أن

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٢٥) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

الإنسان مُجبر على عمله؛ لأنه إذا كان مجبرًا لم يكن أهلاً للثناء في الخير، أو في الشر.

٦ - في هذه الآية دليل على: أن الأعمال السيئة من تزيين الشيطان؛ لقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فكيف يُجمع بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤] أضاف الله التزيين إليه، وهنا أضافه إلى الشيطان، وفي آية ثالثة: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة:٣٧]، وقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ مبنية للمجهول، لكن هذه ما تُعارض الآيات الأخرى.

الجواب: يضاف إلى الله تقديرًا، وإلى الشيطان مباشرة.

إذن فإذا قال قائل: إن الأعمال السيئة تُزين للناس في رمضان، وقد ثبت أن الشياطين تُصفد فيها، وتُغل، ومع ذلك نرى أن كثيرًا من الخلق يُزين لهم سوء الأعمال في رمضان، فكيف الجمع بين الواقع؟

قلنا: هذا من تزيين النفس؛ لأنها تُزين - أيضًا - سوء الأعمال.



قال الله تعالى:

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٥-٢٦]

التفسير

قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ بمعني: هلا يسجدوا، وألّا للتحقيق، ولكن هذا التقدير فيه إشكال - أيضًا -، وهو حذف النون من الأفعال الخمسة من دون ناصب، ولا جازم؛ لأن ﴿أَلَّا﴾ لا تنصب، ولا تجزم، وإذا قلنا: [أن يسجدوا]، أن للتحقيق، وهي لا تنصب، ولا تجزم، وإذا نظرنا إلى ﴿يَسْجُدُوا۟﴾، وجدنا أن فيها حذف النون نصبًا، أو جزمًا، وهنا لا يوجد ناصبٌ، ولا جازم، ولكن الجواب على هذا قد يكون سهلاً؛ لأن حذف نون الأفعال الخمسة بغير ناصب، ولا جازم جائز، ووارد في اللغة العربية؛ لقول النبي ﷺ: «**وَالله لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا**»[1]، فـ (لا تدخلوا): لا نافية لا تنصب، ولا تجزم، ومع ذلك حُذفَت النون، ولم يقل: لا تدخلون الجنة.

فالجواب على ذلك أن يُقال: إن نون الأفعال الخمسة قد تُحذف بدون ناصب، ولا جازم لاسيما في مثل هذا التعبير ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ الدال على: التحفيز، فإن حذف النون هنا يُسهله وجود هذا الحرف السابق للفعل، وعلى كل حال: إذا كانت على تقدير المؤلف، فإن هذه الجملة بالنسبة لما

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٩٣/ ٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قبلها فهي كالمؤكِّدة، لأنه لما قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا يقتضي ألَّا يهتدون إلى الحق، إلَّا أن يسجدوا لله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وأما معنى القول الثاني: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ إن ألَّا: للتحقيق بمعنى: هَلَّا، فإنه يدل على أن الهدهد انتقدهم بهذا الفعل، وبيّن أن الأولى، بل الأوجب أن يكون السجود لله ـ سبحانه وتعالى ـ وتكون الجملة منفصلة عما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مع قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾، لأن معنى قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ يجب أن يُفردوا الله ـ تعالى ـ بالسجود لا لغيره، فيكون مناط الذم كونهم يخصصون الشمس بالسجود، وكذلك ـ أيضًا ـ لو أشركوا بها مع الله، ولهذا لأنه لا يمكن أن يزول الذنب إلا إذا خُصص السجود لله وحده.

وقراءة ﴿ألا يا اسجدوا لله﴾ تكون ألا ـ أيضًا ـ : افتتاحية، و(يا): حرف نداء، والمنادى محذوف، يعني: ألا يا قوم اسجدوا لله، أو تكون يا: للتنبيه، نظيرها قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ﴾ [النساء:٧٣]، فإن (يا) بهذا المعنى تكون للتنبيه؛ لأنها لا تدخل على الأفعال، ولا على الحروف، وإما أن تكون للنداء، والمنادى محذوف.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ [مصدرٌ بمعنى المخبوء من المطر والنبات ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ في قلوبهم، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ الخبء بمعنى: المخبوء، كما قال المؤلف: وهو مصدر بمعنى اسم المفعول، والمصدر بمعنى اسم المفعول واردٌ في اللغة العربية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ﴾ [الطلاق:٦] أي: محمول؛ لأن الحمل فعل المرأة، وأما المحمول، فهو الجنين، وكذلك قوله: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤]، ومنه قول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] أي: مردود، ومنه ـ أيضًا ـ قول الله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان:١١] أي: مخلوقه.

فالخبء بمعني مفعول، قال: [من المطر]: هذا باعتبار المخبوء في السماء، والنبات: هذا المخبوء في الأرض، فالله ـ تبارك وتعالى ـ هو الذي يخرج ما في هذا ، وما في هذا، قال: [﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ في قلوبهم، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم]، ولم يُشر المؤلف إلى القراءة الثانية، وهي سبعيَّة في قوله: ﴿يخفون﴾، و﴿يعلنون﴾، فإن الذي في المصحف في قراءة عاصم، وهي: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ يخاطب بذلك سليمان، وقوله: [﴿مَا تُخْفُونَ﴾ في قلوبكم، ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بألسنتكم] وفيه قصور حين خصّ الألسن فقط، فلو قال: بألسنتكم،

---

(١) تقدم تخريجه.

وجوارحكم لكان أشمل؛ لأن ما يُفعل بالجوارح مُعلن، كما أن ما يُنطق فيه باللسان مُعلنٌ أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، وهذا من الوصفين إخراج الخبء، والعلم بما يُخفى العبد وما يُعلن، ولا يكون لأحدٍ من المخلوقين لا للشمس، ولا لغير الشمس، وإنما ذلك خاصٌ بالله تعالى، ولهذا جعله الهدهد من الأسباب التي تستلزم أن تكون العبادة لله وحده؛ لأنه العالم بها، ولا يمكن أن يُؤتي بوصفٍ يستلزم العبادة إلا إذا كان خاصًا بالله؛ لأنه يُؤتى بهذا الوصف استدلالاً على بطلان العبادة لما سواه، ولو كان لا يمكن أن يكون لله لم يكن ذلك دليلًا على اختصاص الله ـ تعالى ـ بالعبودية، قد يقول: العابد للشيء، وهذا وصف موجودٌ في معبودي فأنا أعبده، فالمهم: أنه لا يمكن أن تقام الحجة إلا بدليلٍ خاصٍ للمحتجّ له، بمعنى: لا يمكن أن تقوم الحجة بأن العبادة لله وحده إلا بوصفٍ خاصٍ بالله؛ لأنك لو احتججت بوصفٍ، يكون لله ولغيره لكان العابد لغير الله يقول: وهذا الوصف ـ أيضًا ـ ممكن لمعبود فلا يدل على أنه مما يتصف به الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩﴾ [استئناف جملة ثناءً مشتملًا على عرش الرحمن في مقابلة عرش بلقيس، وبينهما بونٌ عظيم]، يقول هذا الهدهد: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهذه كلمة التوحيد، والمؤلف يقول: إنها جملة استئنافية للثناء على الله ـ تبارك وتعالى ـ بما لا يكون لغيره، فالأول: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ﴾: هذا يتعلق بتوحيد الربوبية، والثاني: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: توحيد الألوهية يعني: لا معبود سواه، لكن لا معبود بحق؛ لأن هناك معبودات سوى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بغير حق، فإذن أثنى على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصفة الربوبية، وبصفة الألوهية وربما نقول ـ أيضًا ـ : وبصفة الأسماء والصفات؛ لأن توحيد الربوبية مستلزم للأسماء، والصفات؛ لأن التصرف في الخلق، والتدبير، والعلم كل هذا من الصفات.

وقوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿رَبُّ﴾ بمعنى صاحب، أي: صاحبه، كما تقول: رب الدابة: أي صاحب الدابة، وقوله: ﴿الْعَرْشِ﴾ (أل) هذه للعهد الذهني: أي العرش المعهود في أذهان الخلق ﴿الْعَظِيمِ﴾ بخلاف عرش بلقيس، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، وهنا قال: ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ بأل، فالتعبير ظاهر جدًّا في الفرق بينهما؛ لأن (عرش): نكرة، والعرش: معرفة، فدلَّ ذلك على أن هذا العرش عرشٌ عظيم معلوم مفهوم بالأذهان بخلاف الأول.

ويقول المؤلف: إنه قاله في مقابلة عرش بلقيس: نعم هذا صحيح يعني واضح أنه قاله لأجل أن يبين أن صاحب العرش العظيم هو المستحق لأن يكون ملكًا، وأما هذه الملكة فإنَّ لها عرشًا، وليس لها العرش.



۞ قال الله تعالى:

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٧-٣١]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ يقوله سليمان، والسين، كما مرَّ علينا: تدل على التحقيق مع التراخي، لكنها تدل على التحقيق، قوله تعالى: ﴿سَنَنظُرُ﴾ يعني: أن نظرنا هذا مُحقق، لكنه سيكون له مقدمات: فهي تدل على التأكيد.

قال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾، ولم يقبل كلامه من أول الأمر؛ خشية أن يكون قد أتى بذلك دفاعًا عن نفسه، ونظير هذا ما سلكه عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي موسى الأشعري حين استأذن ثلاثًا، وانصرف ثم حدثه أن النبي ﷺ أمره بذلك، فطلب منه من يشهد له.

فهنا التُّهم، أو عدم الثقة بالقوم لها أسباب، من جملتها أن يكون المُخطئ على هذا الوصف يتضمن إخباره دفاعًا عن نفسه، فهنا مهما كان من الثقة تجد أنك تتردد في قبول هذا الخبر.

قال: [﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما أخبرتنا به ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي من هذا النوع، فهو أبلغ من: أم كذبت فيه].

وقوله تعالى: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، صريح الأول أنه فعل، وهنا قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: من هذا النوع، فهو أبلغ من: (أم كذبت)؛ لأنه يدل على الوصف الدائم في قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فهو أبلغ من قوله: (أم كذبت)؛ لأن (أم كذبت) فعل، والفعل قد يكون مرة، لكن ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، هذا وصف يدل على استمرار الفعل فيه، وهذا ما قرره المؤلف.

وعندي: أن فيه لباقة في تعبير سليمان للهدهد؛ لأن مصارحته، ومقابلته بقوله: إن كذبت أشد وقعًا من قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأن ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أهون مما لو قال: أم كذبت، فالثاني في الحقيقة من جهةٍ أشد بالنظر إلى أن قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وصفٌ لازم، ومن جهة المخاطبة: أهون من قوله: أم كذبت، ولهذا وجد اختلاف بين قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، يقول: [ثم دلهم على الماء، واستُخرج، وارتووا، وتوضأوا، وصلوا ثم كتب سليمان

كتابًا صورته: من عبد الله سليمان ابن داود إلى بلقيس ملكة سبأ، بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا عليَّ، واتوني مسلمين ثم طبعه بالمسك، وختمه بخاتمه ثم قال للهدهد اذهب بكتابي هذا]، كل هذه من الإسرائيليات التي لا دليل عليها في القرآن، وكونه دلهم على الماء، واستخرجوه، وارتووا، وتوضأوا، وصلّوا ـ أيضًا ـ ليس موجودًا في القرآن، ولكننا نقول: هذا لا دليل عليه، ولا يجوز لنا أن نعتقده، ولا أن نكذبه، هذا إذا صحَّ عن بني إسرائيل، ـ وأين الطريق بيننا وبين بني إسرائيل، مَنْ رواه عن بني إسرائيل؟ فإذا صحَّ عن بني إسرائيل، وأنهم مما حدثوا في هذه الأمة نقول فيه إنه لا يُصدق، ولا يُكذب؛ لأنه ليس فيه شيء يعارض كتابنا، ولا في كتابنا ما يُؤيده، وإلا لو كان في كتابنا ما يؤيده قبلناه، ولو كان في كتابنا ما يعارضه رددناه.

قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هل يحق لسليمان - عليه السلام - لمجرد الفعل هذا أن يصفه وصفًا مطلقًا؟

الجواب: لا، لأن الكاذبين: هم الذين من دأبهم الكذب، فهو لم يصفه ولو كان هذا من الكاذبين إما أنه من دأبه الكذب، أو في جملتهم، وقد يكذب مرةً واحدة، وهو ـ أيضًا ـ ما وصفه؛ لأن قوله: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ مقابل لقوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فلا يُعلم هل يكون متصفًا بقوله: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ أم بقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

هذا لا يستحق أن يُوصف بأن يكون من الكاذبين، ولكنه كما قلنا: هذا من باب التوقف في الخطاب؛ إذن هذا يكون أرجح، وكل واحد له وجه، وليس بينهم تعارض حتى يكون هناك ترجيح، ما بينهم تعارض أصلاً، فكونه من الكاذبين هذا أشد من وصفه بالكذب، وكونه يخاطبه بقوله: أن كذبت، يكون أهون، مثل قول إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ للضيوف: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[الذاريات: ١٨] ما قال: أنكركم، ولا أعرفكم، بل قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، وهذا من باب الفصاحة في التعبير.

قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾:

إذا قال قائلٌ: قوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ يقتضي أنه صدقه، هل هذا صحيح، أو هذا اختبار له؟

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ ما الذي يدل عليه؟ هل هو صدقه في ذلك، ولهذا كتب لهم، أو قال: هذا من جملة الاختبار؟

يعني: أنه إذا كان كاذبًا فسيقول: ليس هناك أحد، ما وجدت أحدًا مثلاً، فيكون هذا من جملة وسائل الاختبار العائدة على قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾، وقد يُقال: إن قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ إن في الآية تقديرًا، فنظر وتحقق صدقه فأعطاه الكتاب، والله أعلم بما جرى، فإما أن يكون هذا

الكتاب من جملة اختباره، مثل ما لو أخبرك إنسان بخبر تقول: اذهب وأحضر لي منه ذكرًا، يُقال مثلاً: تُباع السلعة الفلانية الآن في السوق قلت: اذهب وأحضر لي - مثلاً - منها شيئًا لأنني يلزم أن أختبر هل هو صحيح، أم لا؟ وإن كان ظاهرًا فعليًا لما أعطيته الأموال أنني صدقته، لكن قد يكون هذا من وسائل الاختبار.

فالحاصل: إذا كان سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ حقق هذا الأمر ثم أرسل بالكتاب فالأمر ظاهر، ولكن ليس في القرآن ما يدل على ذلك فنقول: إن إعطاءه الكتاب من الوسائل التي تبين صدقه.

وقوله: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ أشار إليه للتعيين؛ لأن سليمان يكتب لهم ولغيرهم، ولكنه عيَّن الكتاب الذي كتبه لهم قال تعالى: [﴿فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي بلقيس، وقومها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ انصرف ﴿عَنۡهُمۡ﴾، وقف قريبًا منهم ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ يردون من الجواب، فأخذه، وأتاها، وحولها جندها فألقاه في حجرها، فلما رأته ارتعدت وخضعت خوفًا، ثم وقفت على ما فيه ثم قالت لأشراف قومها: يا أيها الملأ].

ذهب به الهدهد فألقاه إليهم أي: طرحه بين أيديهم، وتولى عنهم، كما أرشده سليمان، لكن هذا التولي ليس بعيدًا بدليل قوله: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ فهو يدل على أن هذا التولي يكون قريبًا منهم، ثم ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾.

أخذت الكتاب، وقرأته ثم قالت: لأشراف قومها: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ والملأ، كما بين المؤلف: [هم الأشراف]، وهنا نادتهم: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾، إشارة إلى علو مرتبتهم في دولتها؛ لأن يا أيها: ما تكون إلا للبعيد، فهي لم تقل: يا ملأ، بل قالت: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ﴾ [بتحقيق الهمزتين] ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ﴾، [وتسهيل الثانية، وقلبها واوًا مكسورة]؛ لأنه إذا جاءت الهمزة بعد الضم جاز أن تقلب واوًا ـ قاعدة في اللغة العربية ـ، ومنه قول كثير من المؤذنين: الله وكبر؛ لأنه يجوز الله أكبر، ويجوز الله وكبر، فالهمزة إذا وقعت بعد ضم يجوز أن تُسهل إلى واو، وعلى حسب الحال إن جاءت قبل كسر كُسرت، أو جاءت قبل ضم ضُمّت، أو الفتح.

قال: [بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية بقلبها، واوًا مكسورة].

وقوله تعالى ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ [مختوم]، فسر الكريم بالمختوم؛ لأن ختمه يدل على أهميته، فالكتب والرسائل المختومة يُعتنى بها، وحتى الآن إذا كان الشيء مهمًا تجده يُختم بالشمع، وما إلى ذلك لئلا يُزوَّر، ولكنَّ تفسير الكريم بالمختوم غير صحيح؛ لأن الختم دليلٌ على كرمه، وليس هو معنى كرمه، فالكريم معناه: المتضمن للمعاني العظيمة المؤثرة، وفي قولها: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ﴾، ما قالت: ألقى الهدهد؛ لأن الظاهر أنه مرّ هكذا ثم ألقاه عليها، وليس معناه: أنه جاء ووقف بين يديها، وأعطاها الكتاب، وهذا ربما يكون أبلغ في الهيبة من أنه يعطيها إياه، وهو مارٌّ، بخلاف ما لو

وقع بين يديها فإنه لا يكون هيبة على أنه لو وقع بين يديها، فالمفترض - وكونه هدهدًا - أن تمسكه، لكنه ألقاه إلقاءً.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾، ولم تنسبه إلى أبيه؛ لأنه كان معروفًا، ومعلومًا عندهم أنه - عليه الصلاة والسلام - رسولٌ أعطاه الله - تعالى - من الملك ما لم يعطه غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي مضمونه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، وليس فيه (أي الكتاب): والسلام على من اتبع الهدى، ولا أن ناداها، كما قال المؤلف: من أين أتى به المؤلف؟ يمكن أن تكون من أخبار بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، لكن قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هل سليمان قال: مِنْ سليمان إلى بلقيس؟

الجواب: لا، ما قال ذلك، ولكنه لعلها فهمته إما بتوقيع أو بكتابة ما على الظرف، أو في صلب الكتاب: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ هذا الصلب، وهذا هو الظاهر؛ لأنه لا يمكن أن يبدأ سليمان - عليه الصلاة والسلام - بقوله: من سليمان بسم الله الرحمن الرحيم، بل سيبدأ بالبسملة قبله، فلما لم يذكر الله إلا البسملة دلَّ ذلك على أنه لم يحكِ بقوله: إنه من سليمان ما أتى بها، لكنه لابد أن يكون في الكتاب ما يشير إلى ذلك، وإلا لما فهمناه.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ المقصود: الخضوع له؛ لأن معناه: ذلُّوا لي؛ لأنهم ما كانوا يعلون عليه، حتى يقول: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، وإنما أراد أن يأتوا إليه أذلّة مسلمين لله، أو مسلمين له أي مستسلمين؟

الجواب: فيها احتمال مسلمين لله، أو مستسلمين له، ولكن هل يلزم من إتيانهم مستسلمين له أن يكونوا مسلمين لله؟ لا يلزم، لكن يلزم من كونهم مسلمين لله أن يستسلموا له، وأن يأتوا مطيعين غير مخالفين.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الكرم بالمال معناه: بذله بالسَّخاء والكرم - أيضًا - في المال: يطلق على الجيد منه؛ لقول النبي ﷺ: «وَاتَّقِ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»، أو «وَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»(١).

وكذلك - أيضًا - يوصف ما يتضمن الشيء به يوصف بالكرم لأي شيء هذا الوصف؟ لكتاب سليمان - عليه الصلاة والسلام -.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن الأَوْلَى أن يُبدأ الكاتب باسمه فيقول: مِنْ فلان قبل أن يبدأ باسم المرسل إليه، أو المكتوب إليه، وهل هذا من باب التعبد، أو من باب العادة؟

(١) تقدم تخريجه من حديث علي بن أبي طالب أن النبي بعث معاذًا إلى اليمن إلخ، والحديث متفق عليه.

الظاهر: أنه من باب العادة، ولكن مع تلك العادة التي كان عليها السلف أولى من العادة التي اعتاد الناس عليها اليوم. اعتاد الناس اليوم أنهم يبدأون بالمكتوب إليه، فلان ابن فلان، لكن العادة الأُولى أَوْلى؛ لأن الإنسان إذا قرأ كتابًا يقرأه من أوله، فإذا قرأ: من فلان عرف الآن الكتاب، ما هذا الكتاب، وما قيمة الكتاب قبل أن يقرأه كله، ثم إن الترتيب الطبيعي يقتضي هكذا؛ لأن الكتاب، واردٌ منه إِليَّ فيقتضي أن نبدأ بالوارد منه قبل الوارد إليه، فإذن نقول: الأولى أن يبدأ الإنسان باسمه إذا أرسل كتابًا إلى أحد، فإن هذه السنة مبتدعة.

إذن: هل يُؤخذ من هذا الكتاب أنه لا يحتاج إلى ذكر مكتوب إليه؟ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾، وأرسل إلى ملكة سبأ؟

إنه إذا دلَّ الدليل على المكتوب إليه فلا حاجة إلى ذكره. مثلاً: إذا أرسلت هذا الكتاب إلى شخص، ولكنني مثل ما في قصة سليمان أنه جاء به هذا الطائر إلى صاحبه، فهنا احتمال أن يصل الكتاب لغير المكتوب إليه والمقصود ببيان المكتوب إليه: أن يتعين، ويصل إليه.

وهنا إذا جاء الكتاب على هذا الوجه فإنه يحصل به أكبر تعيين، فنقول: إنه لا حاجة إلى ذكره إذا كان الأمر يحصل بدونه، ولكن مع هذا يصبح أولى، لاسيما إذا كان يترتب عليه شيء في المستقبل، وإذا فرضنا أن صاحبه الذي أُرسل إليه علم وأخذه، لكن في المستقبل ما يدري من أرسل له هذا الخطاب، فذكره بلا شكٍ أولى.

٣ - **ومن فوائد الآية:** استحباب البداءة بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أول الرسائل؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية:** استعمال الإيجاز إذا لم يكن فيه تقصير؛ لأن هذا الكتاب الذي كتبه سليمان في غاية ما يكون من الإيجاز فهو جملتان فقط ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، لكن بشرط ألا يكون الإيجاز مُخلًا بالمقصود، فإن كان مخلاً بالمقصود صار تقصيرًا.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - دعاهم إلى الله - سبحانه وتعالى - ولا يريد التملك والسيطرة، وإنما يريد بذلك الدخول في الإسلام؛ لأن الهدهد لما أخبره أنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فهذا كفر، فلابد أن يطلب منهم أن يدخلوا في الإسلام، لقوله: ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

٦ - **وفيه أيضًا دليل على:** قوة سليمان - عليه الصلاة والسلام - ؛ لأنه لم يقل: وأسلموا، بل قال: ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، فطلب منهم أن يأتوا إليه، وهم على إسلام.

وهل المراد أن يأتوا جميعًا؟ لا، المراد أعيانهم وأشرافهم؛ لأن الأعيان والأشراف يقومون مقام العامة.



قال الله تعالى:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٢-٣٧]

التفسير[1]

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** استحباب المشاورة في كل الأمور العامة؛ لقولها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ مع أنها ملكة، ولها تمام السلطة مع ذلك: لم تستغنِ عن المشاورة، قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية:** حزم هذه المرأة، وأنها تريد أن تكون سياستها مبنية على المسئولية على الجميع؛ لقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾، وحينئذٍ لو جاء أمرٌ خلاف المقصود لم يكن عليها لوم ما دامت تُشهد هؤلاء، وتُبين لهم.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أنه يجوز للمستشِير أن يُخالف المُستشَار إذا لم ير أنه مصيب في مشورته؛ لأنهم لما ذكروا أنهم يريدون قتاله وهي لا تراه خالفتْهم، لأنها قالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ إلخ.

٤ - **ومن فوائد الآية:** مكانة هذه المرأة من قومها؛ لأنها بعد أن استشارتهم وأبدوا رأيهم، تأدبوا معها، وقالوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

فهل يؤخذ من ذلك - أيضًا - أنه إذا قدم المُستشار مشورته؛ للإنسان الكبير أكبر منه قدرًا، أو

---

(١) تعذر سماع تفسير هذه الآيات.

فهمًا، أو علمًا أن له أن يقول مثل هذا؟

الجواب: نعم، فقول مثل هذا يُعتبر تأدبًا، وصاحبه بالخيار إن شاء أخذ بمشورته، وإن شاء لم يأخذ.

٥ - **ومن فوائد الآية:** حزم هذه المرأة - أيضًا - من جهة أنها نظرت في العواقب ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، وهكذا ينبغي للعاقل ألا يحكم على الأمور ببوادرها، وظواهرها، وإنما يحكم على الأمور بعواقبها، فإن الشيء قد تكون بوادره وظواهره مفيدة في نظر الإنسان، لكنه عند التأمل، يكون الأمر بالعكس، لكن هل الأولى المبادرة، أو التأنِّي؟

الجواب: في الأصل التأني أولى؛ لأن الإنسان إذا تأنى لا يندم؛ لأنه ما فعل شيئًا، لكن إذا تسرع، فهو الذي يكون عُرضة للندم، وكم من كلمة قال الإنسان: ليتني لم أَقُلْهَا، وكم من فعلٍ قال: ليتني لم أفعله، ولكن مع هذا ينبغي استعمال الحزم في الأمور، ولا يتأمل تأملاً يفوت المقصود، ولا يتسرع تسرعًا يحصل به الندم، وأظن أني أنشدت بيتين في هذا المعنى، أنه قد يكون التسرع أولى، وقد يكون التأني أولى:

قَـدْ يُـدْرِكُ الْمُتَـأَنِّي بَعْـضَ حَاجَتِـهِ ... وَقَـدْ يَكُـونُ مَـعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَـلُ

وَرُبَّـمَا فَـاتَ قَومًـا جُـلُّ أَمْـرِهِمُ ... مَـعَ التَّـأَنِّي وَكَـانَ الـرَّأْيُ لَـوْ عَجِلُـوا

وهذا صحيحٌ وواضح.

إذنْ المهم أننا نقول: إذا دار الأمر بين الإسراع، والتأني، ولم يترجح الإسراع عليه فالأولى التأني؛ لأن الإنسان يكون الأمر بيده ما دام لم يُحدث شيئًا، لكن إذا أحدث شيئًا فاته الأمر، ولم يتمكن من التخلص منه.

٦ - ويُؤخذ من الآية؛ لأنها قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أنها نظرت في العواقب؛ لأن النظر في العواقب يستدعي إما التسرع، وإما التأني، قد يكون مثلاً الإنسان يرى الرأي أنه إذا لم يُسرع فات المقصد فيسرع، أو إذا أسرع حصل الزلل فيتأنى، وهذا مأخوذ من قولها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾.

أما فوائد قوله: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** ذكاء هذه المرأة، وحنكتها.

٢ - **ويُستفاد من ذلك:** جواز الاختبار والامتحان، وأن ذلك لا يُعد خديعة إذا أراد الإنسان أن يمتحن غيره بشيء من الأشياء، لا يُعد هذا خديعة؛ لأنه يريد أن يستظهر به حاله، وهذا لا مانع منه.

٣ - **ومن فوائد الآية:** العمل بالقرائن؛ لأنها أرادت أن ترسل هذه الهدية لتختبر مراد سليمان،

هل يريد المال فقط فتكفيه هذه الهدية، أو يُريد أنهم يسلمون، فلا تنفع فيه هذه الهدية، ولا يكف عن طلبه الأول؟ وهو: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾. فيها إذن ثلاث فوائد.

وهل ورد مثلٌ لذلك؟

الجواب: نعم، في قصة داود في المرأتين اللتين احتكمتا إليه في ابن إحداهما، خرجت امرأتان إلى خارج البلد، ومع كل واحدة منهن ابن فأكل الذئب ابن الكبرى، فاحتكمتا إلى داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ قضى بالابن الموجود للكبرى، بناءً على أن الصغرى يمكنها أن تلد فيما بعد، ولكنه لما تحاكمتا إلى سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: ليس هذا الحكم، بل الحكم أننا نأتي بالسكين، ونشق الولد نصفين، فيكون للكبيرة نصف، وللصغيرة نصف، أما الكبيرة فوافقت على أن ينشق نصفين لماذا؟ لأنه مات ولدها، وأما الصغيرة فقالت: لا يا نبي الله الولد لها[1]، فعلم بذلك أن الولد للصغرى فحكم به لها.

فهذا من باب الاستظهار للحق بالقرائن، ولا مانع من ذلك، وقد كان القضاة يفعلونه.

فهذه مسألة إرسال الهدية إلى سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ من هذا الموقف لتستظهر بها حاله فتعمل بالقرينة.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن هذه الهدية كانت كبيرة، من أين تؤخذ؟ من قوله: ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾، ولا يرسل جماعة بهدية إلا وهي كبيرة، وأيضًا ربما نقول: مع كبرها ثمينة؛ لأجل أن يدافع هؤلاء المرسلون عنها لو حاول أحدٌ أن يعتديَ عليها.

أما فوائد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

١ ـ **يُستفاد من قوله:** ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ أن من المستحسن أن يتقدم الرئيس ـ رئيس الوفد، أو القوم ـ بالكلام، أو بالفعل إذا كان مُكلف بالفعل؛ لأن تقدم الجميع دفعة واحدة غير لائق لضياع المسئولية، فلابد أن يتقدم واحد، وكلما حصر الأمر كان أقرب إلى الفهم، وإلى حصول المقصود.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** توجيه الخطاب للجماعة، وإن كان المتقدم رئيسهم؛ لقوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** جواز الغلظة في القول إذا كانت المصلحة فيه؛ لأن هذا الأسلوب من سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أسلوب قوي، إذ إننا قلنا: إن الاستفهام في قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للتوبيخ، والتعجيب، يعني أنه يوبخهم على فعلهم، ويتعجب من فعلهم؛ كيف يمدونه بمالٍ، وهو

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٢٧) ومسلم (٢٠/ ١٧٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ملك معروف مشهور.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** جواز التحدث بنعمة الله، أي يجوز للإنسان أن يتحدث بنعمة الله لقوله: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾، ولكن هل يتحدث بهذه النعمة على سبيل الافتخار، أو على سبيل الاستصغار والافتقار؟

الجواب: على حسب الحال؛ فمع العدو يجوز أن يتحدث بها افتخارًا، ولذلك تجوز الخيلاء في الحرب؛ مع أن الخيلاء محرمة، ومن الكبائر، لكن في الحرب لإغاظة العدو لا بأس بها.

فسليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحدث هنا بنعمة الله افتخارًا فيما يظهر منه، افتخارًا على هؤلاء القوم، وهذا لا بأس به إذا كان أمام العدو؛ فأما إذا كان لإظهار النعمة فإنه لا يجوز إلا على سبيل الاستصغار والافتقار إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا على سبيل الافتخار، والعلو على الخلق.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه يجوز للإنسان أن يصف غيره بما يبدو من حاله؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، إذ إن الفرح، أمرٌ باطني، تظهر علاماته على ظاهر البدن، ولكنه في الأصل أمرٌ باطني؛ لأن من يفرح لا نسمع لفرحه صوتًا، ولا يظهر عليه حركات، ولكن تظهر علاماته، فلا بأس أن الإنسان يحكم على غيره بالقرائن لما يظهر من حاله، وقد مر عليكم كثيرًا مثل هذا الأمر، فقد قال الرجل الذي جامع زوجته في نهار رمضان: والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني[1]، ومع هذا، فإن هذا الرجل لم يقف ببيوت أهل المدينة فيفتشها، حتى يعرف أنه ما في أحد أفقر منه.

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** إظهار القوة للإعداء؛ لقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، وهذا داخلٌ في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال: ٦٠]، فإن ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾، نكرة تشمل كل ما يمكن من القوى؛ سواء أكانت القوة قولية، أم مادية، أم معنوية، المهم أن جميع القوى في معاملة الأعداء ينبغي للمرء أن يستعملها، حتى إنه جاء في الحديث: «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ»[2]، لكن الخيانة هل تجوز؟

الجواب: لا تجوز، لا يجوز للإنسان أن يخون عدوه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، ولا تخونهم، وكذلك إذا خانوا يكونون قد نقضوا العهد، وقد مرَّ علينا أن هذه المسألة لها ثلاث حالات ـ المعاهدون لهم ثلاث حالات- :

١ ـ إما أن يستقيموا لنا ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾.

٢ ـ وإما أن ينقضوا العهد فحينئذٍ لا عهد، قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢].

٣ ـ وإما ألا ينقضوا عهدًا، وظاهرهم الاستقامة، لكن نخاف منهم الخيانة: فهؤلاء ننبذ العهد

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٩٣٦) ومسلم (٨١/ ١١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٢٩) ومسلم (١٨/ ١٧٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إليهم، ونخبرهم بأننا أبطلنا العهد، حتى لو قالوا سنبقى على العهد نقول: لا، الآن لكل منا حكم.

هنا توجد قوة في الكلام ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ هذا التهديد، والوعيد لا شك أنه مظهر قوة، فيكون داخلًا في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٧ - **وفيها أيضًا دليل:** في قوله - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ على كثرة جنود سليمان؛ لأن هذه الملكة التي لها العرش العظيم، وعندها قوم مطيعون يمتثلون لأوامرها يقول: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، ولم يبين هذه الجنود، لكنه مرَّ في أول القصة أن جنوده ثلاثة أصناف: هي الجن، والإنس، والطير، هذه كلها، يمكن أن يسلطها عليهم، إذا سلط الجن، فالجن لا قبل لهم بها، وإن سلط الطيور تنقر عيونهم - أيضًا - لا قبل لهم بها.

والحاصل: أن الجنود التي لسليمان لا يمكن لهؤلاء أن يقاتلوها، لا كمية ولا كيفية.



۞ قال الله تعالى:

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴾ [النمل: ٣٨- ٤٠]

۞ التفسير ۞

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا ﴾ قال: [في الهمزتين ما تقدم]، ما الذي تقدم؟

الجواب: تحقيقهما ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ﴾، وتسهيل الثانية: بقلبها، واوًا ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ [منقادين طائعين فلي أخذه قبل ذلك لا بعده].

قال: ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ من أين عرف أنهم سيأتون مسلمين إليه؟

عرف ذلك من أنهم إذا سمعوا بما قاله الرسول الذي قال له: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ فإنه لابد أن يستسلموا وينقادوا، فهو - أيضًا - حكم بالقرائن.

ويجوز أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أوحى إليه بذلك؛ لأنه نبي، فالمسألة دائرة بين أن يكون حكم بكونهم يأتون مسلمين بناءً على القرينة، ويحتمل أن يكون ذلك بوحي من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكنَّ قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ نبَّه المفسر على أنه إذا كان العرش أُخذ قبل أن يأتوا مسلمين إليه، فهو جائز، وإذا كان بعد ذلك فليس بجائز، وفي هذا نظر؛ لأنها هي بمجرد ما تفارقه مسلمة تكون قد أحرزت مالها وقد حمته، فمالها محترم قبل أن تصل إلى سليمان بمجرد إسلامها، وهي إذا غادرت ستأتي إليه مستسلمة؛ لأنه قال لهم في الأول: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

وليس غرضه ـ والله أعلم ـ أنه إذا كان قبل إسلامهم جاز له أخذه، وإذا كان بعده لم يجُز. ثم إن الظاهر ـ أيضًا ـ أن سليمان لا يريد تملك هذا العرش، وإنما يريد إظهار قوته أمامها، وأنه استطاع أن يأتي بعرشها قبل أن يصلوا إليه، لا ليتملكه، حتى يرد ما قاله المؤلف.

وقوله تعالى: ﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [هو القوي الشديد]، العفريت: القوي الشديد، ولا زال هذا المعنى إلى الآن موجودًا، يقولون: فلان عفريت يعني: قوي شديد.

ثم قال الله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾:

آتي: اسم فاعل أم فعل؟

فعل، إذن يصلح أن أقول: أنا آتٍ إليك به، ويكون التقدير: أنا آتٍ إليك به قبل أن تقوم من مقامك؟ يصلح لكن الظاهر أنها فعل؛ لأن هذا العمل من الأفعال.

وقوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾، ولكن الأقرب أنه فعل يقربه؛ لأن الأصل في العمل الأفعال، والكاف معلوم أنه مفعول به، فهذا هو الأصل.

قال تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [الذي تجلس فيه للقضاء، وهو من الغداة إلى نصف النهار]، هذا لا دليل عليه، ولكن قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ المراد أنا آتيك به بسرعة، وهذا أسلوب معروف، أنا آتي به قبل أن تقوم، لا يزال إلى الآن موجودًا هذا الأسلوب، فالمعنى: أنا آتيك به بسرعة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾، أي على هذا العرش، وقوله تعالى: ﴿لَقَوِىٌّ﴾ أي: [على حمله]، قوله تعالى: ﴿أَمِينٌ﴾ أي: [على ما فيه من الجواهر، وغيرها] مثلما قال: ﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ هذا إخبار، ولكن يحتاج إلى تأكيد لهذا الأمر أن يحضره قبل أن يقوم من مقامه، فقال: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ﴾، ولست بضعيف على أن أحضره بهذه السرعة، و ـ أيضًا ـ ﴿أَمِينٌ﴾ أي: لا أخون فيه بشيء لا على نفس العرش، ولا على نفس ما فيه من جواهر، وغيرها، وهذان الوصفان يحتاج إليهما كل عامل، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ عن صاحب بنت مدين: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وهذان الوصفان مطلوبان في كل عمل؛ لأنه إذا فاتت القوة لم يحصل الأمر من

أجل العجز، وإذا وجدت القوة، ولكن فاتت الأمانة فإنه - أيضًا - يتخلف العمل بسبب الخيانة.

قال المؤلف: [قال سليمان: أريد أسرع من ذلك]، من الذي قالها؟ لا دليل عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

[قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المُنزل، وهو: آصف بن برخيا كان صديقًا يعلم اسم الله الأعظم؛ الذي إذا دُعِيَ به أجاب]، هو معلوم أن اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، لكن يحتمل أنه إذا دعا به هذا الرجل الذي عنده علم من الكتاب، يعني أن هذا الرجل قد جرب، وقد عرف أنه إذا دعا الله - تعالى - بهذا الاسم أجابه، فيكون هنا الأنسب أن يُقال: إذا دعا به أجاب؛ لأن هذا الرجل الذي عنده علم من الكتاب يعلم، أو قد جرب أنه إذا دعا بهذا الاسم أجاب.

وهذا - أيضًا - ليس بلازم أن يكون هذا الإنسان الذي عنده علم من الكتاب يريد أن يسأل الله - تبارك وتعالى - باسمه الأعظم، وإنما نقول: هذا الرجل أعطاه الله - تعالى - علمًا من الكتاب المنزل، ولا شك أن الإنسان العالم يعرف الأدوات، والصيغ التي تكون أقرب إلى الإجابة، سواء باسم الله الأعظم، أم بغيره.

يقول: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [إذا نظرت به إلى شيء] - الله أكبر - أيهما أسرع؟ الثاني.

قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ﴾ أي: يرجع، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي: نظرك، يعني: إذا نظرت هكذا أمامك بسرعة، بسرعة فائقة، وكأن -سبحان الله العظيم - هكذا يأتي من اليمن إلى الشام بهذه السرعة العظيمة؛ لأنه يأتي بأمر الله - سبحانه وتعالى - والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[القمر: ٥٠]. فالله - تبارك وتعالى - إذا أجاب الداعي لا يحتاج إلى مدة، ولا إلى مهلة، ولكن مع ذلك يُقدر الله - تبارك وتعالى - الأمور بأسبابها، قد يدعو الإنسان لمريض أن يشفيَه الله - سبحانه وتعالى - لكن هل يُشفى كلمح بالبصر؟ لا له أسباب تُقدر، لكن الأسباب تنعقد فورًا إذا أراد الله - تبارك وتعالى - أن يُجيب، مع أن الله قادر أن يُبرأ هذا المريض في لحظة، مثلما كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يُؤتى أحيانًا بمريض فيدعو له فيُشفى في لحظة، فقد جِيءَ إليه بعليّ بن أبي طالب في خيبر، وهو يشتكي عينه فبصق فيها، ودعا فبرأت كأن لم يكن بها وجع في الحال، والله - تبارك وتعالى - على كل شيء قدير، ولكن تأخر الشيء لا يدل على أن الله - سبحانه وتعالى - ليس بقادرٍ على إبرائه حالاً، ولكنه يدل على أن الله حكيم، يُقدّر الأمور بأسبابها، حتى خلق السموات والأرض في ستة أيام ذكرنا فيما سبق أنه لفائدتين:

أولاً: ما اشتهر عند أهل العلم من أن الله - تعالى - جعلها في ستة أيام ليعلم العباد التأني في

الأمور، وأن المهم إحكام الأمر لا التعجيل فيه.

وفيها فرق أن خلق هذه الأشياء يحتاج إلى أسباب، ومكونات تتفاعل، وتنتهي إلى الكمال، لهذا صار في ستة أيام.

[هنا قال: ﴿قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ فقال له: انظر إلى السماء فنظر إليها ثم رد بطرفه فوجده موضوعًا بين يديه، وفي نظره إلى السماء دعا آصف بالاسم الأعظم أن يأتيَ الله به فحصل بأن جرى تحت الأرض، حتى نزع تحت كرسي سليمان] ـ الله أكبر يعني غرائب القصص، يعني هل هذا الذي عنده علم بالكتاب قال لسليمان: انظر إلى السماء؟ ما فيه دليل، ولا أحد يقدر،قوله تعالى: ﴿قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ بأي نظرٍ أتاك طرفك إليه.

ثانيًا: من أين جاء من الأرض بأن جرى في الأرض نزعًا من تحت الكرسي، يجوز أنه جاء من الأرض، ويجوز جاء من فوق الأرض، أو جاء من محلٍ عالٍ جدًّا، ونزل، كل هذا لا ينبغي الجزم به، بل يُقال: إن الله على كل شيء قدير، المهم أن العرش حضر بلحظة حسبما قدر القائل.

وفي قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا﴾ أي: [ساكنًا]، هذه أشكلت على النحويين؛ لأنهم يقولون من قواعدهم: إذا كان الظرف، أو الجار والمجرور متعلَّقه عامًّا فإنه يجب حذفه، مثلاً نقول: زيدٌ في البيت، ولا تقول: زيدٌ كائنٌ في البيت فيجب حذف كائن؛ لأنه عام، أما إذا كان خاصًّا مثل: زيدٌ محبوسٌ في البيت فيجب ذكره، فمحبوس لو حُذفت ما يدل عليها دليل، بخلاف زيد في البيت فإنه بمجرد النطق به يتبين للمخاطب أن المعنى: كائنٌ في البيت، أو موجود فيه، فهم يقولون: إذا كان الجار والمجرور، أو الظرف متعلَّقه عام، وجب حذفه، وهنا مستقر: عام، كلمة مستقر: عام، مثل كائنٌ في البيت يعني: مستقر في البيت، إذن نقول كما قال ابن مالك:

وَأَخْـــبَرُوا بِظَـــرْفٍ أَوْ بِحَـــرفِ جَـــر   نَـــاوِينَ مَعْنَـــى كَـــائِنٍ أَوِ اسْـــتَقَرّ

لكن قالوا: إن الاستقرار هنا ليس استقرارًا عامًا، بل هو استقرار خاص غير مطلق الوجود، فلما كان استقرارًا خاصًّا غير مطلق الوجود صار كالمعنى الخاص، ولذلك ذُكر قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا﴾، لاحظ لو قال: فلما رآه عنده: ما يدل على معناه: في كلمة مستقر، صحيح معناه: لو رآه كائنًا عنده، لكن ما تدل على أن هذه الكينونة كانت استقرارًا، وثباتًا، وأيضًا هذا يُفهم من قوله: ﴿مُسۡتَقِرًّا﴾ ما أشار إليه العفريت في الأول: وهو القوة، والأمانة؛ لأنه بالقوة والأمانة يأتي العرش على ما هو عليه، ما يتكسر، والإنسان الضعيف ربما إذا ما قدر على حمله، وهو ضعيف ربما يسقط من يديه، أو ما أشبه ذلك فيتكسر، أو إذا ما كان أمينًا ما يهمه أن يضربه جبل، أو شجر، أو ما أشبه ذلك، أو هو نفسه يتسلَّط عليه.

فالحاصل من هذا: أن الاستقرار له معنىً خاص غير الاستقرار العام فلذلك ذُكر.

قال المؤلف في قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ [الإتيان لي به ﴿مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾].

[﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا﴾ أي: ساكنًا ﴿عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا﴾ أي: الإتيان لي به ﴿مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي: سليمان، رأى العرش، والاستقرار هنا أمرٌ زائد على مجرد الكينونة، ولو كان المراد بالاستقرار هنا مجرد الكينونة لكان ذكره غير بليغ، ولهذا فسره المفسر هنا بالسكون، يعني: كأن له أزمانًا، وهو في هذا المكان، مثلاً أي شيء تضعه في مكان تعدله، وتزينه لاسيما مثل العرش الذي له قوائم في العادة، وهذا ثابت، وهذا من كمال القدرة أيضًا ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾، (من) هذه لبيان الجنس، أم للتبعيض؟

الجواب: يجوز هذا وهذا؛ لأنه إذا قصدنا أن الباء للجنس: فهي لبيان الجنس، وإذا قصدنا بالفضل هذا الشيء المعين فهي للتبعيض.

وقوله: ﴿فَضۡلِ رَبِّي﴾، الفضل: هو العطاء الزائد، وفضل الله ـ تبارك وتعالى ـ على العبد لا يُعد، ولا يُحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[النحل: ١٨]، ومن فضله على عبده أن يحسن إليه، ثم يعد إحسانه إحسانًا، ثم يعد إحسان العبد إحسانًا ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فما جزاء المحسنين الذين أحسنوا عملهم إلا أن يحسن إليهم، وإحسانهم عملهم إحسانٌ من الله، ولكن هذا من باب تمام الفضل من الله على عباده أن يعد إحسان عملهم، وهو منه إحسانًا منهم كأنهم هم المتفضلون به ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[الرحمن: ٦٠] ـ اللهم لك الحمد- .

وقوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾ الربوبية هنا: خاصة، ولهذا أضافها إلى نفسه فقال: ﴿رَبِّي﴾، وقد مرَّ علينا أن الربوبية: عامة، وخاصة، وأن العبودية كذلك عامة، وخاصة، وأن الخاصة فيها ما هو أخص. قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ لأن الربوبية هنا غير الربوبية لعباد الله الصالحين الآخرين.

وقوله: ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ﴾، ليختبرني، واللام هنا: للتعليل.

[﴿ءَأَشۡكُرُ﴾ بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفًا، وتكريرها وإدخال ألف بين المُسهلة والأخرى وتركه]، هذا ما أحد يقرأه، إذن بتحقيق الهمزتين ﴿ءَأَشۡكُرُ﴾، بإبدال الثانية ألفًا: ﴿أاشكر﴾، تسهيلها: ﴿آشكر﴾، إذن همزة مسهلة، إدخال ألف بين المسهلة والأخرى وتركها؛ لأن قراءة التسهيل لها صورتان:

١ ـ إدخال ألف: أاشكر، التي بعد الألف همزة مسهلة.

٢ ـ أو بدون ألف، يعني أن التسهيل تجد فيه المد قبل التسهيل، وعدم المد.

﴿أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [بالنعمة]، إذن بما يكون الشكر؟

أولًا: يكون الشكر بالثناء على الله ـ تبارك وتعالى ـ على هذه النعمة بذاتها.

وثانيًا: الاعتراف بالقلب على أنها محض فضلٍ من الله، وأنه ليس لك بها منة على ربك.

والثالث: القيام بما تقتضيه هذه النعمة من واجب، وهذا الشكر الخاص غير الشكر العام؛ لأن الشكر، يكون عامًّا بحيث يوصف الإنسان بأنه من الشاكرين على الإطلاق، ويكون خاصًا بحيث يوصف بأنه من الشاكرين على هذه النعمة فقط، مثال ذلك: رجل آتاه الله مالاً، الشكر الخاص على هذا المال أن يتحدث بهذا المال على أنه من فضل الله عليه، ونحوه، وأن يعترف من قلبه أنه فضل من الله ما يقول: أوتيته على علم عندي، والثالث: أن يقوم بواجب هذا المال؛ من دفع زكاته، وما يترتب عليه من نفقات بسبب هذا المال، لكن قد يكون الإنسان مثلاً من جهة أخرى يعصي الله، يخرف في الصلاة مخرف في الصيام، هذا نقول له بأنه شاكر على الإطلاق، لكنه قائمٌ بشكر نعمة معينة، إذن الشكر نوعان: شكر مطلق، وشكر خاص.

فالشكر الخاص: أن يقوم بشكر النعمة المعينة بما تقتضيه، والشكر العام: أن يكون قائمًا بطاعة المنعم مطلقا في كل حال.

وأنت لو تأملت هذا لوجدته موجودًا في عامة الأوقات المحمودة، والمذمومة، فالتوبة قد يوصف الإنسان بأنه تائب توبة خاصة مقيدة من ذنبٍ معين، وقد يوصف بأنه من التائبين على سبيل الإطلاق.

قول سليمان -عليه الصلاة والسلام-: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ على أي وجه نحمله؟

إذا قلنا: إنه على العموم معناه: أننا رمينا سليمان بأنه ليس بشاكر نعمة الله في غير هذا، وإذا قلنا على الخصوص، يعني على هذه النعمة المعينة، فهو أولى، ولهذا قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي﴾ به أأشكر الله عليه أم أكفر، فالظاهر أنه هنا على سبيل الخصوص، يعني على هذه النعمة، أما النعم الأخرى فنحن نؤمن أن سليمان قد قام بشكرها؛ لأنه ﷺ كما مرَّ علينا، كما في قصة النملة قال مثل هذا الكلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

فالحاصل الذي يظهر لنا: أنه على هذه النعمة، هل أشكرها أو أكفرها؟ وكل نعمة تحتاج إلى شكر خاص، والشكر العام معروف، فالإنسان يقول: أشكر الله، ويعتقد ويؤمن من قلبه أنه شاكر لله على جميع النعم، لكن عند نعمة معينة تحتاج هي أيضًا إلى شكرٍ خاص، فالشكر على المال ليس كالشكر على القوة، مثلاً: إنسان عنده قوة، وقدرة على الرمي والجهاد، فالشكر على النعمة أنه يستعملها في الجهاد، عنده قدرة على بيان الحق بما أعطاه الله من العلم، والفهم، شكر الله على هذه النعمة أن يبين هذا الأمر، فتجد أن الشكر يختلف إذا اعتبرنا كل نعمة بحسبها، فيختلف

شكر هذا عن شكر هذا، لكن في الشكر المطلق أن نعتقد بأن جميع الفضائل، والنعم كلها من الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

يقول: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ إذا قال قائل: كيف يقول: سليمان ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾، والكفر كلمة نافية؟ لماذا لم يقل: أأشكر أم لا أشكر، مع أن المعنى واحد، لكن هذا أهون.

نقول: لأجل ردع نفسه عن المخالفة، وعدم الشكر، حتى يبين لنفسه أنه إذا لم يشكر، أنه كفر، فلكل مقام مقال، قد تخاطب إنسانًا ترى أنه لم يشكر نعمة الله عليه فتخشى إذا قلت: أنت كافر بالنعمة أن ينفر منك، ويزداد نفورًا من أصل النعمة إذا أنت قلت: أنت لم تشكر تمام الشكر، أو حق الشكر، أو ما أشبه ذلك لا شك أنه أهون، والأساليب تؤثر، يُقال: إن ملكًا من الملوك رأى رؤية فأفزعته فقال: عليَّ بالمعبرين، أو بالمعابرين، فأحضروا له المعبرين فقال لهم: إني رأيت أن أسناني قد سقطت فماذا ترون؟ فقام كبيرهم فقال: أرى أن أهلك سيموتون، فقال: أشبعوه ضربًا، فأشبعوه ضربًا، ثم قعد مع اثنين آخرين فقال لهم: إني رأيت أن أسناني قد سقطت، قام كبيرهم فقال: الملك أطول أهله عمرًا، فقال: أجيزوه، مع أن المعنى واحد؛ لأنه لم يتسرع، فالحاصل أن التعبير له دخل في قبول الحق، أو النفور منه، وقد مرَّ علينا قصة إبراهيم عليه السلام حيث قال لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾[مريم: ٤٣] ما قال: أنت جاهل وما تدري، ولا تعرف بل قال: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وبعض الناس يهبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ قدرة على التعبير، حتى إن العبارات تكون في يده كالعجين يلان له القول، فتجده يستطيع، حتى لو أراد أن ينطق لسانه بكلمة لا يريدها فبسرعة يجد بديلًا لها.

إذن: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ نقول عبر بهذا التعبير لأجل أن يردع نفسه عن المخالفة، وعدم الإتيان بالشكر.

وقوله: [﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإفضال على من يكفرها]؛ لأن من شكر، ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ غني عن شكره صحيح، أو غنيٌّ مطلقًا، ومن جملة ما يتضمنه المعنى شكر هذا الإنسان على نعمة الله، فإن الله ـ تعالى ـ ما أنعم على العباد لحاجته إلى أن يشكروه، بل لفضله عليهم، وظهور آثار أفضاله العظيمة، فظهور آثار أفضاله العظيمة ما يكون إلا بأفعاله، والتي من جملتها النعم، أو النقم ـ أيضًا ـ ليظهر بذلك صفات الانتقام، والغضب.

وقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾، أي أنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد يبقي النعمة على من كفرها تكرمًا منه أحيانًا، وأحيانًا استدراكًا، والله ـ تبارك وتعالى ـ حكيم يهب فضله من يشاء، قد يبقي الله النعمة على الكافر استدراكًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾[آل عمران: ١٧٨]، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقد يبقي الله - تعالى - النعم مع الكفر تربية بحيث إن الإنسان يفتح الله عليه بالتأمل فيخجل من الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يبارز الله - تعالى - بالمعاصي، والله - تبارك وتعالى - يدر عليه بالنعم فيرتدع، وهذا هو ظاهر قوله: ﴿كَرِيمٌ﴾؛ لأن الكرم في مقابل الكفر ما يكون إلا إذا كان ذلك الكرم من مصلحة الكافر بها، وإلا ما ظهر أثر الكرم، بل ظهر آثار الكفر، لو قال حكيم، صار هذا يشمل من تكرم الله له حتى أهلكه، لكن: كريم: ما يتم الكرم للكافر بالنعمة إلا حيث كان إبقاء النعمة عليه مصلحةً له لأجل أن يعود.

الفوائد:

فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾:

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** أن فيها دليل على جواز الخطاب إلى المبهم إذا كان تعين بعد ذلك لقوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ ما قال: ائتني يا فلان، وهذا النوع من الخطاب يترتب عليه فوائد كثيرة حكمية، وخبرية:

فمنها مثلاً: أنه يجوز أن نقول: زوجتك إحدى ابنتي هاتين، ثم يختار إحداهما، مثلما فعل صاحب مدين مع موسى.

ومنها يجوز أن نقول: بعتك إحدى هاتين السلعتين بكذا فيختار إحداهما.

ومنها بعتك هذا بعشرة نقدًا، أو بعشرين نسيئة: فيختار أحد الثمنين.

فصار الآن أنه يجوز الخطاب حكمًا، وخبرًا، لكن بشرط أن يتعين قبل تمام الحكم. إذن هنا: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أنه يجوز للإنسان أمام عدوه أن يظهر العظمة؛ لأن سليمان أراد بإحضار هذا العرش.

إظهار عظمته، وقدرته، وأنه استطاع أن يأتيَ بعرشها المُحصن بلا شك؛ لأنه كما هو في العادة: بيوت الملوك لابد أن تكون محصنة، وعليها حرس لاسيما عند العرش.

وأما زعم المؤلف: أنه أراد أن يتملكه، فإنه لا دليل في الآية عليه.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - إما أنه تفرّس، أو أُوحِيَ إليه بأن هؤلاء القوم سوف يأتونه؛ لأنه لما ردّ الرسول بالهدية، وقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، ما جاءه جواب، فطلب أن يُحضر عرشها، مما يدل على أنه عالمٌ بأنها ستأتي وقومها، ولكن من أين علم ذلك؟

إما من وحيٍ، وإما من فراسة؛ لأن مثل هذه العبارات التي ترسل ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ بهذه القوة؛ يقتضي أن العدو يخضع ويفزع.

إن كانت هذه فراسة، فهو يدل على: جواز الحكم بالفراسة، وقد ذكرنا عدة مرات: أنه

يجوز الحكم على الشيء بمقتضى غلبة الظن، بل يجوز أن يحلف عليه بمقتضى غلبة الظن، والفراسة تؤدي إلى غلبة الظن، ولكن ليس مجرد الوهم يجوز أن تحكم بالظن، بل لابد للفراسة من قرائن تدل عليها: إما قرائن سابقة، وإما قرائن مقاربة، وأما أن تحكم بشيء ما فيه قرينة فهذا حكم بالظن.

فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾:

١ - **في هذه الآية دليل على**: تسخير الجن لسليمان لقوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ هو، أو من تكلم.

٢ - **وفيها**: دليلٌ على قوة الجند؛ لأنه كيف يأتي بهذا العرش العظيم من سبأ في اليمن إلى الشام.

٣ - **ومن فوائد الآية**: سرعة الجن وهو من أصناف القوة لقوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، وهذه سرعة فائقة، سرعة عظيمة، ومعلوم أنهم عندهم سرعات عظيمة بدليل أنهم يسترقون السمع من السماء، ولا يأتي السماء إلا من كان عنده سرعة هائلة عظيمة.

٤ - **ومن فوائد الآية**: أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما اتصف به من صفات الكمال ترغيبًا، أو ترهيبًا، لقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ هذا ترغيبًا، وقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ ترهيبًا، فيجوز هذا، وهذا، لكن بشرط أن يكون متصفًا به حقيقة، أما دعوى فلا، فهذا، مثلما قال في ذات الحديث: «مَنْ تَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ، فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»(١). فالإنسان الذي يمدح نفسه بما ليس فيها هذا بلا شك أنه مزور بالخبر، ومزور بالصفة، هو أخبر عن نفسه ما ليس فيها الخبر الكذب، وثبوت الوصف هذا للنفس مثلاً كذب، فهو كلابس ثوبي زور.

قال ابن مسعود: (لو أعلم أن أحدًا تناله الإبل أعلم مني بكتاب الله لسرت إليه) أو كما قال.

٥ - **ومن فوائد الآية**: مدار العمل على هذين الوصفين، وهما: القوة، والأمانة لقوله: ﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾؛ لأن من ليس بقوي: لا يتقن العمل لضعفه، ومن ليس بأمين لا يتقن العمل - أيضًا - لخيانته، فقد يكون الإنسان قويًا، ويستطيع أن يعمل هذا العمل بكل سهولة، لكنه ليس بأمين فلا يثق الإنسان به، ثم إن العمل لو أنه أتقنه يبقى الإنسان شاكًا، يقول: ما أقدر على أكثر من هذا، ولكن ما يفعل؛ لأنه خائن، وكذلك - أيضًا - لو كان الإنسان أمينًا، لكنه عاجز فإنه لا يتقن العمل لعجزه، أيهما أشد لومًا؟ الخائن أشد، والضعيف عنده - أيضًا - من الخيانة؛ لأن هذا كونه يقوم بالعمل وهو ليس بقادر عليه، هذا لا شك أنه خطأ وخيانة، لهذا قال النبي ﷺ لأبي ذر: «إِنَّكَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ؛ فَلَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»(٢).

فالإنسان الضعيف ما يتدخل في شيء إلا إذا كان يستطيع إتقانه لاسيما إذا كان يوجد في الناس

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٦/ ٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٩٧٢).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧/ ١٨٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

من يحسنه، فهذه تعتبر خيانة لنفسه، ولغيره، خيانة لنفسه؛ لأنه في الحقيقةارتقى مرتقىً صعبًا، فيظهر ضعفه أمام الناس، وخيانة لغيره: حيث تقبل أعمالاً، وهو لا يحسنها،قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ مَنْ؟ ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

إذا قال قائل: إذا اجتمع عندنا أربعة أشخاص؛ أحدهم قويٌّ أمين، والثاني: قوي غير أمين، والثالث: أمين غير قوي، والرابع: ضعيفٌ خائن؟

القوي الأمين يُقدم، والخائن الضعيف يُؤخر بلا شك. وفينا قوي خائن، وضعيفٌ أمين؟

يجب أن نرى أيهما أولى مراعاة: إذا كان في عملٍ القوة فيه أظهر: فهنا يُقدم القوي؛ لأن القوي، وإن كان عنده خيانة ربما تحمله قوته على إتقان العمل لأجل أن يشتهر بهذه القوة مثلاً ولا يريد الله، أما إذا كان في المسألة: تحتاج إلى عمل وقوة، لكنها تتطلب الأمان فهنا يُقدم الأمين، إذن هذا واضح، إذا كان في عملين أحدهما يظهر فيه خصل الأمانة، والثاني يظهر فيه خصل القوة، فالأمير مثلاً: القوة في حقه أظهر إن كان قويًا غير أمين فإنه أنفع من استعمال أمير ضعيفٍ أمين، والقاضي: بالعكس الأمانة في حقه أظهر؛ لأنه إذا كان أمينًا، وإن كان ضعيفًا، وهذا موجود كثيرٌ في عصرنا الآن، التنفيذ لمن؟ لجهة الأمارة القاضي يحكم، فإذا كان أمينًا فهنا خصل الأمانة في القضاء أظهر من خصل القوة.

وعلى هذا فقس، ولكن إذا كان العمل يتعارف فيه القوة والأمانة فهذه محل نظر، ولا يمكن أن نحكم بحكمٍ عام، بل إننا ننظر في القضية المعينة، ونرى يعني: إذا كنا في عمل يتطلب القوة والأمانة معًا، ولا يظهر فيه فضل أحدهما على الآخر حينئذٍ ما أستطيع أن أحكم هنا حكمًا عامًا، بل إنما يُنظر في كل مسألة بخصوصها، ويُنظر للقرائن، ويُنظر - أيضًا - للأشخاص، ويُنظر هل فيه القوة أكثر من ظهور الأمانة في الثاني، أو الأمانة في هذا أكثر منها في الثاني، على كل حال: هذه المسألة لا نحكم فيها بحكم عام، بل نحكم فيها بالقضية المعينة، ثم نقول: يقدم هذا على هذا، عندما تحصل القضية المعينة. فالحاصل إذن: أن أقسام الناس باعتبار العمل أربعة:

قوي أمين، وقوي خائن، وضعيفٌ أمين، وضعيف خائن. ومعلومٌ أن الأول يُقدم على كل حال، والثاني يؤخر على كل حال، والثالث، والرابع بينهما تجافي، فينظر ما إذا كان يحتاج فيه للقوة أكثر فيقدم فيه القوي، وما كان يحتاج الأمانة أكثر يقدم فيه الأمين، وإن احتمل أمرين؟ يُنظر فيه للقضية المعينة حتى نستطيع أن نقدم هذا على هذا.

٦ - ومن فوائد الآية: أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما يتصف به، لكن بشرط أن يكون ذلك حقيقة.

وصف الإنسان نفسه نعتبره من الأحكام الخمسة، قد يكون واجبًا أحيانًا، وقد يكون محرمًا، إنما هو على سبيل الإباحة، ولا يمكن أن نقول في كل حال؛ لأنه قد يكون بغرض سيئ، ولا نقول

في كل حال؛ لأنه قد يكون بغرض حسن، أو على سبيل الجواز، وقد يكون للتحدث بنعمة الله فيكون مندوبًا، وقد يكون لأجل أن نمنع من ليس بأهلٍ في مباشرة هذا العمل فيكون قد وجب، ليبيِّن نفسه.

٧ - يُستفاد من قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - قد رتب شئون حياته بأن له مجلسًا خاصًا معروفًا معينًا؛ لأن قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ لاشك أنه مقدر بنسبة معلومة، وإلا لم يكن لذلك فائدة؛ لأن قيامه من مقامه إذا لم يكن معلومًا، فهل يُدرى مثلاً التوقيت، قد يبقى يومًا كاملاً مثلاً، وقد لا يبقى إلا دقيقة واحدة، فلولا أنه - عليه الصلاة والسلام - قد رتب أوقاته، حتى أصبحت معلومة للناس ما قال مثل هذا الكلام.

وأما ما قاله المُفسر: [من الغداة إلى نصف النهار]، فهذا الله أعلم به، على كل حال يؤخذ منه: أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - كان قد رتب أوقاته، حتى صارت معلومة، وهذا لاسيما بالنسبة للإنسان المراد الذي يريده الناس في أمرٍ من أهم الأمور أنه يرتب أموره، حتى إن الإنسان الذي يريده في حاجة يعلم أنه في هذه الساعة يجده وفي ساعة اللقاء لا يجده فيستريح، مثلاً يرتب لنفسه جلسة مثلاً في بيته، أو مكان واسع على سبيل العموم بين العشاءين، أو بعد العصر، أو الضحى، المهم شيء يعرفه الناس، يرتب نفسه مثلاً على عمل معين يعرفه الناس، حتى من أراده لهذا العمل يأتي إليه.

٨ - ويستفاد من هذه الآية: أن سليمان قد رتب أوقاته في عمله، والثاني: أنه ينبغي للإنسان خصوصًا المراد من أميرٍ، وقاضٍ، وعالم، ووجيه، وغيره أن يجعل له وقتًا معينًا في أوقات محددة، حتى إن الناس يشعرون بأن هذا الرجل رجل منظَّم، ويشعرون أن الإنسان الفوضوي إن شاء جلس، وإن شاء قام؛ لأنه ليس بمنظم، فلا يعتبرونه شيئًا.

فوائد قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾:

١ - في هذا دليل على: أن جنود الله - سبحانه وتعالى - وهم الملائكة أقوى من الجن؛ لأنه قال: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، وهذا قال: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أيهما أسرع؟

الأخير بلا شك، ولا تردد؛ لأن الذي عنده علم بالكتاب عالم، ولا قوَّة له إلا بالدعاء؛ لأن هذا هو الظاهر؛ لأن قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مفصول عن قوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، والأصل أن الكلام مع الإنس، فالظاهر أنه رجل ليس من الجن.

لأن كل إنسان، أو كل قائل ليس من البشر لابد أن ينوه عنه؛ لأن الأصل أن البشر هم الذين يتخاطبون، وما كان من غيرهم ينوه عنه.

٢ - وفي هذه الآية دليل على: كمال قدرة الله - عز وجل -؛ لأن كون هذا العرش العظيم

يأتي من اليمن إلى الشام بلحظة لا شك أنه من كمال قدرة الله التي لا يتصور الإنسان كيف تكون.

الآن هل يمكن أن نتصور كيف جاء هذا من اليمن إلى الشام قبل أن يرتد إلي الإنسان طرفه؟!!

ولا نتصور أن الأرض كسرت كسرًا، حتى يلتقي هذا بهذا - أيضًا - ، فقدرة الله - سبحانه وتعالى - لا يمكن للإنسان أن يتصورها، تأتي فوق التصور، في كتاب الله ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣،١٤] هم: تبلغ الخلائق كلهم على وجه الأرض كيف تتصور هذا؟ لا تستطيع التصور، يعني لو كانت الأرض تتشقق، وتتفتح، فالمهم أن هذا نموذج من صفات الله - سبحانه وتعالى - يعجز العقل مهما بلغ عن إدراك كُنْه قدرة الله، وكذلك بقية صفاته فأنت إنسان علمك محدود، وطاقتك محدودة، ولا يمكن أن تتجاوز أكثر مما تشاهد، أو ما أطلعك الله عليه.

٣ - ومن فوائد الآية: فضل الله - سبحانه وتعالى - على سليمان حيث سخر له أهل العلم والجن، الجن في الأول، وصاحب العلم في الثاني، وهل قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ مبالغة، أم حقيقة؟

حقيقة، وإلا لقلنا: أنه يجوز المبالغة في الأمور، ولكن على كل حال المبالغة في الأمور قد وردت في غير هذا النص، أن الإنسان يبالغ، وإن كان ليس مقصودًا على سبيل الحقيقة، وقد جاء في القرآن، وفي السنة - أيضًا - المبالغة في الأمور.

٤ - في هذه الآية من الفوائد: التحدث بنعمة الله - سبحانه وتعالى - بإضافة النعمة إليه، من قوله: ﴿هذا من فضل ربي﴾، وهذا هو الواجب شرعًا، والمقتضى عقلًا؛ لأن إضافة النعم، إنما تكون إلى مُسدِيها، ومُولِيها.

٥ - ومن فوائد الآية: إثبات التعليل لأحكام الله - سبحانه وتعالى - الكونية كما ثبت ذلك في الأحكام الشرعية، ويُؤخذ من قوله: من اللام للتعليل في قوله: ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾، ففيه دليل على تعليل أحكام الله الكونية، كما أن أحكامه الشرعية كذلك مُعلَّلة، ففيه ردٌّ على الجهمية الذين يقولون: إن فعل الله - سبحانه وتعالى - ليس مُعلَّلًا، ، إنما يفعله لمجرد المشيئة، إذا شاء فعل لحكمة، أو لغيرها.

٦ - ومن فوائد الآية: اختبار المرء بما يُظهِر حقيقة أمره، لقوله: ﴿لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

مسألة: هل يجوز اختبار المرء وإن كان المختبِر يعلم حاله.

الجواب: هذا يُنظر فيه إلى المصلحة، قد، يكون مُحرَّمًا، كما لو أردتَ أن تُظهِر ضعفه أمام الناس، وقد يكون، واجبًا، كما لو كان إنسانًا داعيةً إلى ضلالة، وأردتَ أن تختبره ليتبيَّن أمره للناس، وأنت تعرف ما عنده إجابة، لكن تريد أن تُظهِر للناس أمره، فهو بالنسبة لله - سبحانه وتعالى - ممدوحٌ كله؛ لأن الله يعلم المآل، لكن بالنسبة للإنسان فاختباره عما يعلم مآله على حسب المصلحة والفائدة.

وفيه إشكال؛ حيث قد يُقال: أليس الله ـ تعالى ـ يعلم ما يؤول إليه الأمر؟

فالجواب: بلى، إذنْ ما فائدة الاختبار وهو يعلم؟ ليترتَّب الجزاء على ظاهر الحال؛ لأن الله لو جازى الإنسان على ما يعلم من حاله من قبل أن يبلُوَه لكان ذلك ظلمًا له في ظاهر الحال، فإذا ابتلاه فأطاعه، أو عصاه تبيَّن الأمر، فيكون هنا الفائدة عظيمة، وهي ظهور أثر هذا الشيء للناس، وأنه ليس بظلم من الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا خالف لظهور نعمة الله على العبد العامل إذا أعطاه؛ حيث يشكر الله سعيَه.

الحاصل: أن الابتلاء في مثل هذه الأمور فائدته أن يجري الجزاء على ظاهر الحال، لا على علم الله. مسألة: هل يُؤخذ منه أنه لا يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه؟

الجواب: نعم، يجوز لأنه إذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو أحكم الحاكمين ـ لا يحكم بمجرد العلم حتى تظهر الآثار، فالقاضي من باب أولَى، ولهذا ذكر أهل العلم أنه لا يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه، لقول النبي ﷺ: «**إِنَّمَا أَقْضِي بِنَحوِ مِمَّا أَسْمَعُ**»(١)، قد يُقال: إنها تُؤخذ، وقد يُقال: إن هذا توسع في الاستدلال، وأنها لا تؤخذ من هذه الآية.

٧ ـ ومن فوائد الآية: أنه ينبغي للإنسان أن يُخاطِب نفسَه بما تقتضيه الحال، لقوله: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، فإننا ذكرنا أن قوله: ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ هذه العبارة الشديدة من أجل أن يردع نفسه عن ممارسة كفر النعمة.

٨ - ومن فوائد الآية: أن الإنسان الذي يشكر الله لا يُسدي إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ نفعًا، أو يدفع عنه ضررًا، وإنما هو إذا شكر فإنما يشكر لنفسه، المصلحة لنفسه ليست لله.

٩- ومن فوائد الآية: أن الشاكر يُثاب؛ لقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، ولم يقل: عن نفسه، فدل ذلك على أن للشاكر ثوابًا يُجازَى به، وهو كذلك.

١٠- ومن فوائد الآية: أن العامل عمله له، وليس لغيره إلا أنه قد يُؤخذ منه مُقاصَّة، كما جاء في الحديث الصحيح في المُفلِس الذي يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، وقد ظلم هذا، وأخذ مال هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته وإلا فثوابه يبقى، لا يمكن أحد أن يعتدي عليه أبدًا، أو يأخذه، فهو مُدَّخر عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ ما قال: ومن كفر فإنما يكفر على نفسه، كما قال: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأن رحمة الله ـ تعالى ـ سبقت غضبه، وإلا في الحقيقة، أن من كفر فعلى نفسه؛ مثلما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصِّلَت:٤٦]، لكن أحيانًا، يكون السياق يقتضي خلاف ذلك، فهنا يقول: من كفر فإنه لا يضر الله شيئًا؛ لأن الله ـ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤/ ١٧١٣) من حديث أم سلمة ﵂.

تعالى ـ غني عنه وعن شكره، وهو مع ذلك كريم، قد يجود على الكافر بالإمهال لعله يشكر، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١]



❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ نكروه: أي: [غيروه إلى حالٍ تُنكره إذا رأته]، والتنكير يحصل بتغيير أدنى صفة من صفاته، أدنى صفةٍ من صفاته يحصل به التنكير:

إذا كان له قوائم طويلة يمكن أن يقصر تلك القوائم، إذا كان لونه أحمر مثلاً يجعله أخضر، يعني سواء أكان هذا التنكير بالأشياء، أم باللون، أم بالفرش هذا داخلٌ في التنكير.

وقوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ننظر: ما الذي جزم هذا الفعل؟

نكروا فعل أمر، ننظر: مجزوم بجواب الأمر ﴿نَكِّرُوا﴾ لم يوجه الخطاب لشخص معين يدل على أن كل جنوده بطاعته؛ لأنه لو كان يخشى أن أحدًا من جنوده يتمرد لكان وجه الخطاب إلى شخصٍ معين لأجل أن يخرجه فلا يستطيع أن يقول: لا، وهكذا عظمة السلطان تكون في مثل هذا.

وقوله: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ نقول هذه ـ أيضًا ـ خطاب عظمة، ولهذا قال: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ إما يقصد نفسه تعظيمًا، أو مع جنوده، وحاشيته ينظرون جميعًا ﴿أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، وهذا كله ـ أيضًا ـ من أساليب الاختبار الذي يستخدمه سليمان لهذه المرأة، كما اختبرها ـ أيضًا ـ فيما يأتي في مسألة الصرح.

الفوائد:

١ ـ **يُستفاد من هذه الآية:** امتحان الغير بما يُعرف به ذكاؤه، وفطنتُه؛ لقوله: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾، وقد سبق أن المراد بتنكيره تغييره، والعلة في ذلك قوله: ﴿أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾،قوله تعالى: ﴿أَتَهْتَدِي﴾ أتعرف أم تكون من الذين لا يعرفون، وكيف تعرف، أو لا تعرف؟

لأنه لو بقي العرش على ما هو عليه لعرفته، ولو غُيِّر نهائيًّا لكان لها العُذر في ألَّا تعرفه، ولكنه إذا غُيِّرت صفتُه، وبقي أصلُه، حينئذٍ يُعرَف به ذكاؤها؛ أي: تعرفه، والمقام في الحقيقة هنا مقام مدهش، ليس مقامًا عاديًّا طبيعيًّا؛ لأنها هي سوف تستبعد أن يؤتى بعرشها، وهو محفوظ في مكانه، ثم يؤتى

به إلى سليمان. ثم - أيضًا - لعلها حسب الطبيعة، والعادة تستبعد جدًّا أن يسبقها العرش مع أن الظاهر أنها أتت إلى سليمان بأسرع ما يمكن من السير، فعلى كل حال هذا التنكير سوف يدل على دهائها، وعقلها.

وقوله: ﴿أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ مثل قوله للهدهد: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، ما قال: أم لا تهتدي، بل قال: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

٢ - ومن فوائد الآية: الإشارة إلى أنها إذا كانت تعرف عرشها مع تغييره؛ فستعرف أن الذي يستحق العبادة هو الله؛ لأنها هي وقومها يسجدون للشمس من دون الله -، كما مرَّ -، فإذا كانت هي تعرف عرشها مع تنكيره، فإنه لا شك أن معرفتها بأن الله - تعالى - هو المستحق للعبادة من باب أولَى.



قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٢-٤٤]

التفسير

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ يعني: إلى سليمان، ونظرت إلى العرش، قيل: لها: أهكذا عرشُكِ؟ والقائل: إما سليمان أو أحد جنوده، ولم يُبيَّن؛ لأن المقصود معنى هذا القول دون قائله.

وقوله: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ الاستفهام هنا على حقيقته، والمراد به الاستخبار، والهاء للتنبيه، والكاف حرف جر حالَت بين هاء التنبيه، واسم الإشارة، مع أن هاء التنبيه تقترن باسم الإشارة، لكن الكاف تحول بينها وبين اسم الإشارة لمباشرة حرف الجر للمجرور، ولكن - أيضًا - هو خاصٌّ بالكاف، لو أنك أتيت بحرف جر سوى الكاف ما جاز أن تفصل بينه وبين اسم الإشارة، لو قلت مثلًا: أَلهذا حضرتَ؟ يعني: ما يُفصَل بين اسم الإشارة وبين هاء التنبيه بأي حرف من حروف الجر إلا بالكاف فقط، إذنْ نقول: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ الجار والمجرور خبر مُقدَّم، وعرشك مبتدأ مؤخر، وتقديم الخبر هنا واجب، لأجل الاستفهام؛ لأن له الصدارة، وهنا ما قالوا: أهذا عرشك؟، بل قالوا: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؛ يعني: هل عرشكِ مثل هذا؟ هي أجابت بمثل ما سُئِلت عنه، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، وكأن للتشبيه، ولم تقل: إنه هو، ولم تنفِ، السبب: أنه مُشابِهٌ لعرشها من حيث

الأصل، ومُخالفٌ له من حيث الصفة؛ لأنه غُيِّر، وهذا - أيضًا - من ذكائها أنها لما وقع في نفسها أنه عرشها التي تغيَّرت صفته قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، والجواب مُطابقٌ للسؤال.

والمؤلف سلك في ذلك مسلكًا غريبًا، قال: [أي: فعرفته، وشبَّهت عليهم، كما شبَّهوا عليها؛ إذ لم يقل: أهذا عرشكِ، ولو قيل هذا لقالت: نعم].

إنما جوابها مُطابق للسؤال، ومطابق لمقتضى الحال، أما مطابقته للسؤال؛ فلأنه سألها: ﴿أَهَٰكَذَا﴾؛ يعني: أهو مثل هذا، فكان الجواب: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، وأما مطابقته لمُقتضى الحال؛ فلأن المرأة قد رأت أن العرش قد غُيِّر، فلم تجزم بنفيه، أو ولم تجزم بإثباته، إن نُظِر إلى أصل العرش، فهو هو، وإن نُظِر إلى صفته فليس إياه، لذلك كان جوابها جيِّدًا جدًّا، وليس فيه تشبيه، كما قال المؤلف.

ولو قالوا: أهذا عرشُكِ؟ ما ندري هل تقول: : نعم، أو تقول: : كأنه هو، وجزم المؤلف بأنها تقول: ليس بصحيح؛ لأن المرأة ذكية جدًّا، والإنسان إذا حصل له مثل هذه الحال هل يجزم بأن ما شاهَدَه هو ما كان يعرفه من قبل؟ ما يجزم، بل إن مُقتضى الجزم والتحرُّز أن يقول: كأنه هو، لاسيَّما مع القرائن التي تُبعِد أن يكون إياه، كما في هذه القصة، فإنه عرشٌ محروسٌ من مكان بعيد، فيبعُد أن يمثل أمامها في هذه الحال، المهم أننا نأخذ من جوابها هذا ذكاءها من وجهين:

أولًا: أنها أجابت بجوابٍ مُطابقٍ للسؤال.

وثانيًا: أنها أجابت بجواب مُطابق لمُقتضى الحال؛ أي: لا يمكن؛ إذ الجزم بهذا تسرُّع، ونفيُه تباطؤ - أيضًا - ، لاحتمال أن يكون إياه، ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾.

[قال سليمان لما رأى لها معرفة، وعلمًا]: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، ووجه ارتباط هذه الجملة بما سبق أنه أراد أن يتحدث سليمان بما أنعم الله به عليه من العلم، العلم يشمل العلم الشرعي، ويشمل العلم بقواعد الملك ومُثبِّتاته، وما أشبه ذلك؛ يعني: كأن الملأ من قومه لما رأوا ما رأوا من ذكائها، ومعرفتها، وتحرُّزها، وتثبُّتها، رأوا أنها عليمة، فأراد سليمان أن يُذكِّرهم بما هو أعظم من ذلك، وهو ما آتاهم الله - تعالى - من العلم السابق، والإسلام ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

ويرى بعض المُفسِّرين أن قوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ من قول المرأة؛ يعني: وأوتينا العلم، والمسألة متصلة، يقول: ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ أي: من قبل هذه القضية؛ أي: أننا عندنا علمٌ من قبل هذه القضية فلا تعجَّبوا من علمنا بهذا، فإن لنا علمًا سابقًا، ولكن هذا الاحتمال، وإن ذُكِر ضعيف، والصواب: أن هذا من قول سليمان - عليه الصلاة والسلام - يتحدث بنعمة الله - سبحانه وتعالى - عليه، وعلى قومه السابق لمعرفة هذه المرأة.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا﴾ قال المؤلف: [عن عبادة الله ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾].

إذنْ ﴿مَا﴾ إعرابها أنها فاعل؛ يعني: صدَّها الذي كانت تعبد من دون الله، ويحتمل أن تكون

﴿مَا﴾ المصدرية؛ أي: وصدَّها كونها تعبد من دون الله، لكنه وإن كان سائغًا لغةً، لكنه ليس له محل هنا، فـ ﴿مَا﴾ هذه اسم موصول.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ ما هو الذي كانت تعبده من دون الله؟ الشمس، والعائد على ﴿مَا﴾ المنقولة محذوف، التقدير: ما كانت تعبده من دون الله، وصدَّ بمعنى: صرف، ومناسبة هذا لما سبق أنه قال: إذا كانت هذه المرأة بهذا الذكاء، وهذه المعرفة، فلماذا لم تعبد الله؟ مع ظهور أن العبادة لله وحده. بيَّن أن الذي صدَّها عن عبادة الله أنها اشتغلت من أول أمرها بعبادة غير الله، وأنها كانت من قوم كافرين، فنشأت في بيئة كافرة، واشتغلت بعبادة المخلوق عن عبادة الخالق، فكأن هذه المرأة مع كونها ذكية، وفاهمة، وعندها احتراز وتحفُّز كأنها مع ذلك، إنما عدلت عن عبادة الله مع ظهورها ووضوحها بسبب انشغالها بالباطل، والنفس لابد أن تكون مشغولة إما بالحق، وإما بالباطل.

وهنا نقول: ما مناسبة قوله: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟ أنه كالجواب عن سؤال مُقدَّر، وهو: لماذا لم تعبد الله؟ فقال: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، فقد نشأت من أول أمرها في بيئة كافرة، وقد أخبر النبي ﷺ أن كل مولودٍ يُولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه(١).

وقيل: إن (صدها) الفاعل يعود على سليمان، أي أن سليمان منع ما كانت تعبد من دون الله؛ أي: منعها عما كانت تعبد من دون الله بسبب ما رأت من الملك العظيم الذي لسليمان - عليه السلام -، ولكن الأول أولَى بالسياق، أن ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ فاعل، ولكن لا بأس من هذا الاحتمال؛ لأنه يمكن عند التأمل أن يكون هذا الاحتمال صحيح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؛ يعني: بيئتها منذ نشأت، وهم كافرون بالله - سبحانه وتعالى - يعبدون الشمس، فلهذا اشتغلت بعبادة غير الله عن عبادة الله.

ثم قال الله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿قِيلَ لَهَا﴾ أيضًا ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾، والقائل، كما قلنا: مُبهم، إما سليمان، أو غيره. وهذا الصرح يقول عنه المؤلف: [هو صرحٌ من زجاج أبيض شفاف، تحته ماء عذبٌ جارٍ فيه سمك، اصطنعه سليمان لما قيل: له: إن ساقيها، وقدميها كقدمَي الحمار].

أما قوله: [صرحٌ من زجاج أبيض] هذا صحيح، والأصل في الصرح: أنه البناء العالي، كما قال فرعون لهامان: ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾[غافر: ٣٦]، ولكنه يُطلق على الصرح، وإن لم يكن عاليًا، وهذا عبارة عن صرح من زجاج، وتحته ماء يقول: المؤلف: [إنه جارٍ]، وأخذ كونه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٢/ ٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

جاريًا من قوله: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾؛ لأن اللُّجَّة هي أمواج البحر المُتردِّدة؛ لأن كل شيءٍ مُتردِّد يُسمَّى لجَّة، ومنه اللَّجَّة تردُّد الأصوات، وارتفاعها، فالظاهر أن المؤلف أخذ الجريان، وأن ما في الآية ما يدل على أنه جرَيَان، أخذه من قوله: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾.

وقوله: [فيه سمك] هذا ليس بشرط؛ لأن اللُّجَّة قد تكون فيها سمك، وقد لا تكون، وقد يكون فيها سمك بعيد لا يُرى.

وكذلك - أيضًا - قوله: [ماء عذب] ما في دليل على أنه ماء عذب، ولا مالح، المهم أنه ماء.

حتى لو قال قائل: إن الزجاج هذا يُعطي كأنه ماء بسبب مثلًا أضلاع فيه أو شيء لو قيل بهذا لم يكن بعيدًا؛ لأنه لا يتعيَّن أن يكون تحته ماء.

وأما قوله: [لما قيل: له إن ساقيها، وقدميها كقدمَي الحمار] يقولون: إن الجن لما أن سليمان أعجبته هذه المرأة همَّ أن يتزوَّجها، فحسدوها على ذلك، فقالوا له: إن قدمَيْها وساقيها قدما دابة وساقا دابة، لأنه أقبح، وهذا ليس بصحيح، وإنما المقصود من هذا الصرح اختبار المرأة - أيضًا - ؛ لأنه لما قيل: ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ هي في الحقيقة كانت تحسبه لجُة، إذا كانت خائفة لا تدخل أصلًا، وإذا كانت مُغفَّلة دخلت وثيابها نازلة، وإذا كانت حازمة وشجاعة دخلت، ورفعت عن ساقيها، ثم هي - أيضًا - من ذكائها أنها تعلم أنها ما أُكرِمت، وقيل لها: (ادخُلي الصرح)، فتُدخَل في بحرٍ لُجِّيٍّ يغرقها، فعلِمَت أن هذا البحر غاية ما فيه أن يصِل إلى ركبتها، أو نحو ذلك؛ لأنه لا يمكن أن يكون بحرًا لُجِّيًا عميقًا؛ لأنها قيل لها على سبيل الإكرام: ادخلي الصرح، المهم أن هذا - أيضًا - اختبار ثانٍ لذكائها، وحزمها، وشجاعتها، أما القول بأن قدميها كقدمي حمار وساقيها كساقي حمار فهذا كذب بلا شك، والأصل أنها امرأة مثل أي امرأة من بنات آدم وليس بها شيء من هذا.

[قال: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ من الماء] ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ ، وهذا لا شك أنه يدل على حزمها، وقوتها، وشجاعتها؛ لأن الإنسان الغريب إذا حصل له مثل هذا الأمر قد لا يتوقع، ويقول في نفسه: ما أدري إن كانوا يخدعونني، يجعلوني أدخل في هذا، وأموت، لكنها كانت قوية، وحازمة - أيضًا - ، أقدمت على الدخول، لكن مع الاحتراز عن الأذية؛ حيث رفعت عن ساقيها، والرفع عن الساقين هل يُؤخذ منه جواز إظهار المرأة لساقيها؟

نقول: أولًا: لا يُؤخذ منه ذلك؛ لأنه هنا فعَلَته للحاجة، وكشف المرأة ساقيها للحاجة لا بأس به، حتى في شريعتنا إذا احتاجت المرأة إلى كشف ساقيها في مثل هذه الحال فلا حرج فيه؛ لأن ما حُرِّم تحريم الوسائل تُبيحه الحاجات، كما هو مقرر في علم الأصول، ولهذا يجوز النظر إلى العورة لأجل حاجة، حتى إنهم قالوا: يجوز أن يحلق عانة من لا يُحسِن حلق عانته، فهذا بالضرورة سوف يكشفها.

فالحاصل إننا نقول: إن كانت شريعة سليمان تُبيح مثل ذلك فلا غرابة فيه، وإذا كانت لا تُبيحه

فإنه - أيضًا - لا يُخالف شريعتنا؛ لأن الحاجة هنا تدعو إليه.

[قوله تعالى: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه، وكان سليمان على سريره في صدر الصرح، فرأى ساقيها، وقدميها حِسانًا]، فاطمأن.

﴿قَالَ﴾ [لها ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مُملَّس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: زجاج] هذه الجملة - أيضًا - تفيد أنه قُصِد به مع اختبارها، وامتحانها إظهار عظمة مُلك سليمان؛ مثل ما قصد بإحضار العرش هذا المقصد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ فتبيَّن بذلك أمران:

أحدهما: عظمة ملك سليمان؛ حيث إن الزجاج يُصنع له حتى يكون كالبحر اللُّجِّي.

وثانيًا: الإشارة إلى أن هذه المرأة، وإن كانت عاقلة، وحازمة، وذكية فإنه يخفى عليها الأمر؛ لأنها حسِبَت أن هذا الزجاج لُجَّة من الماء مع أنه ليس كذلك، ففيه نوع من إظهار ضعفها - أيضًا -؛ حيث إنها ظنَّت الأمر على خلاف ما هو عليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ حينئذٍ عرفت مكانتها، وعرفت مكانة سليمان.

وقوله: [دعاها إلى الإسلام] ليس في الآية ما يدل عليه، بل إن الظاهر أنها بما شاهَدَت ألجأها ما شاهدته إلى أن تُسلِم؛ لأنها شاهدت أمورًا منها: إتيان عرشها، ومنها: هذا الصرح العظيم المُمرَّد من قوارير، ومنها - أيضًا -: أن سليمان - عليه السلام - أخبرها بعظمته، وقوته؛ حيث إن هذا صرحٌ مُمرَّد من قوارير، وليس ماءً، حينئذٍ اعترفت فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [بعبادة غيرك]، وعبادة غير الله من أعظم الظلم، قال الله - تعالى - عن لقمان لما قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؛ لأن أعظم الظلم أن تتسلط على من حقه أبين وأوضح، ولا أبين وأوضح من حق الله على العباد، لهذا كان الشرك أظلم الظلم.

عندما تُخاصم إنسانًا، وأنت تعرف أن الحق له لا لك تُعدُّ ظالمًا، عندما يشتبه عليك الأمر؛ بحيث تُرجِّح ثمانين بالمائة أنه له، وعشرين بالمائة أنه لك، يكون هذا الظلم أخف من الأول، عندما يكون خمسين بالمائة لك، وخمسين بالمائة له، يكون أخف من الثاني، عندما تُرجِّح ثلاثين بالمائة، وسبعين بالمائة له، يكون أقرب، وهكذا، فالمهم أن الظلم يكون أقبح وأشنع بحسب ظهور الحق ودوامه، وأظهر الحقوق، وأعظمها عبادة الله - سبحانه وتعالى - فيكون أعظم الظلم الإشراك مع الله، أن تُشرِك مع الله أحدًا، ولهذا تقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ إذنْ النفس عندك أمانة يجب عليك أن تسعى لها بما فيه خيرُها، فأنت يجب أن تسعى لنفسك بما هو خيرٌ لها، وإن تجرَّأتَ على ما ليس لك فقد ظلمتَ نفسك، أو فرَّطت فيما يجب عليك فقد ظلمت نفسك، وإذا كنت لا تستطيع أن تتصرف في بدنك بما تريد؛ فكيف تستطيع أن تتصرف في فعلك بما تريد، فلا يجوز أن تتصرف في أفعالك بما يعود على نفسك بالضرر، فإن فعلت فأنت ظالم.

قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أسلمتُ [كائنة] أفاد المؤلف بتقدير كائنة أن شبه الجملة في قولها: ﴿مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ في موضع الحال؛ يعني: أسلمتُ حالة كوني مع سليمان ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هنا تعتبر مسلمة، إذا قال الرجل: أسلمتُ، لو قال: أشهد ألّا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله فقد أسلم،قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، فإذا عبَّر الإنسان عن العمل بما يدل عليه الفعل حُكِم عليه به، ولهذا لو قال قائلٌ؛ لإنسان: حلفتُ عليك أن تفعل كذا صار يمينًا، هو ما قال: والله، قال: حلفتُ أن أفعل كذا، صار يمينًا، وإن لم يقل: بالله؛ لأن هذا هو الفعل، إذا قال: أسلمتُ صار إسلامًا، وإن لم يقل: أشهد ألّا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

قوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه أنها أسلَمت مع سليمان إسلامًا كاملًا؛ حيث أقرَّت بألوهية الله بقولها: ﴿لِلَّهِ﴾، وبربوبيته العامة في قولها: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال المؤلف: [وأراد تزوجها فكره شعر ساقيها فعملت له الشياطين النورة فأزالته بها]، والنورة تُزيل الشعر، ويُقال: أول من عُمِلَت له النورة بلقيس بأمر سليمان؛ حيث إن الشياطين عمِلَتها له، كل هذا كذب، ويجب أن يُنزَّه كلام الله عن مثل هذه الأشياء، وموقفنا مع مثل هؤلاء العلماء: أن نسأل الله لهم العفو وأننا نخالفهم؛ لأن كونهم يضعون في كلام الله مثل هذه الأمور هذا من الأشياء التي ينتقص بها الإنسان كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وأكثر ما وردت هذه الأخبار، كما قال ابن كثير في هذا الموضع عن رجلين، وهما كعب الأحبار، ووهب بن مُنبِّه، فإنهما أرسلا كثيرًا من الإسرائيليات في كلام الله، وغيره.

قال المؤلف: [فتزوَّجها، وأحبَّها، وأقرَّها على مُلكِها، وكان يزورها في كل شهر مرة، ويُقيمُ عندها ثلاثة أيام، وانقضى مُلكُها بانقضاء مُلكِ سليمان، رُوِيَ أنَّه مَلَكَ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فسبحان من لا انقضاء لدوام ملكه].

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾:

١ - **يُستفاد منها:** التورية في الكلام، وهو أن يُظهِر الإنسان شيئًا غير ما يُريد، فإن قوله: ﴿أَهَٰكَذَا﴾ تورية؛ لأن حقيقة الأمر أن العرش الذي بين أيديهم هو عرشها، فكان مُقتضى الحال أن يقولوا: أهذا عرشُكِ؟ لكن أتوا بصيغة تورية لإبعاد الأمر؛ لأن كونه عرشها قد تتسرَّع، وتقول: لا؛ لأنها تستبعد أن يكون حضر في هذه المدة، وعليه الحرس، وعليه المغاليق، فقيل لها: أهكذا عرشُكِ، وقوله: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن الجواب ينبغي أن يكون مطابقًا للسؤال؛ لأنها قالت: كأنه هو للتشبيه، ولم تقل: هو.

٣ - **ومن فوائد الآية:** ذكاء هذه المرأة لاحترازها مما يُخشى أن يكون مُستبعدًا؛ لأنها لو قالت: لا، فقد يكون هو، ولو قالت: نعم، فقد يكون غيره، فقالت: كأنه هو، فاختارت هذا للسببين اللذين ذكرناهما في التفسير.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي للإنسان أن يتحدث بنعمة الله عليه؛ لقوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾؛ لأن الصحيح أن هذه الجملة من كلام سليمان، وإن كان بعضهم ذكر احتمال أنه من كلامها، لكن الصحيح أنه من كلام سليمان.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾:

١ - **يُستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان لابد أن يُشغل نفسه، فلابد أن تكون النفس مشغولة إما بحق، وإما بباطل، فهذه المرأة اشتغلت بالباطل عن الحق، وقد قيل: من الحِكْمة إن لم تشغل نفسك بالحق شغلَتك بالباطل، وقيل - أيضًا -: (الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطَعَك)، وهذا صحيح، وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «كُلُّكُمْ حَارِثٌ، وكُلُّكُمْ هَمَّامٌ»[1]، فلابد للإنسان أن يهم ويعمل، إما بخير، أو بغيره فمن الحكمة أن تشغل نفسك بالحق.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن البيئة لها تأثير، لقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، فهؤلاء القوم أثَّروا عليها، فصارت كافرة تعبد مع الله غيرَه.

٣ - **ومن فوائد الآية:** التحذير من مُصاحبة الأشرار؛ لقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، حتى لو كانوا من أقاربك فلا ينبغي أن تُصاحبهم، وإذا كان لهم حق عليك بالقرابة فأعطِهم حقَّهم الذي لهم، ولكن لا تكن مُخالِطًا لهم مُصاحبًا لهم؛ لأن النبي ﷺ قال فيما رُوي عنه، وهو حديث حسن: «المَرْءُ عَلَى دِيْنِ خَلِيْلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[2]، وهذا واقع يشهد له التاريخ السابق والحديث.

ثم قال الله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** عظمة ملك سليمان، وتسخير الله له، ففي ذلك الوقت حسب علمنا ليس هناك أفران تصهر الزجاج، ويفعل بها الإنسان ما يشاء، ولكن لا شك أن الزجاج موجود، قد يكون مُستخرجًا من البحر وقد تكون الشياطين قد صنعته، وقد يكون هناك مصاهر وأفران حسب حالهم، ولهذا قال الله عن الشياطين: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

فالحاصل: أننا نقول: إن هذا دليل على عظمة مُلك سليمان؛ حيث سُخِّر له الجن والإنس

---

(١) هذا ليس حديثًا أصلًا ولعل الشيخ وهم في ذلك «انظر المصنوع» ص (١٣٩) و«أسنى المطالب» ص (٢٠٠) و«المقاصد الحسنة» ص (٥١٠).

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (٤٨٣٣) من حديث أبي هريرة ﷺ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

يعملون له ما يشاء.

٢ - **ومن فوائد الآية:** جواز اختبار المرء كما سبق، وهذه القصة فيها عدة اختبارات؛ لقوله: ﴿ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾، ليُرى هل تهاب فلا تدخل، أو تُغامر فتدخل بدون تحرُّز، أم ماذا تفعل؟ فالمرأة بذكائها دخلت، ولكن مع التحفُّظ والاحتراز كشفت عن ساقيها، أو رفعت عن ثوبها حتى بان الساقان.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن المرأة من قديم الزمان سيمتها التستُّر؛ لأن قوله: ﴿وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَا﴾، دليل على أن الأصل أنها مستورة، وهو كذلك، بخلاف الرجل، فإن أُزْرة المؤمن فوق نصف ساقه، الآن أصبح الأمر بالعكس، فأصبح الرجال ثيابهم مُسبَلة، والنساء ثيابهن قصيرة، وهذا خلاف الفطرة التي فطر الله عليها الخلقَ

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن الرؤية قد تكذب، وأن ما يُدرَك بالحواس ليس على الأمر الواقع مائة بالمائة؛ لقوله: ﴿حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ﴾، فإن هذا، صرحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير، وتنظر إليه نظر العين، ومع ذلك تحسبه لُجَّة، فدلَّ هذا على أن ما يُدرَك بالحواس قد يقع فيه الخطأ، قد يرى الإنسان الساكن مُتحرِّكًا، والمُتحرِّك ساكنًا، والأبيض أَسْوَد، والرجل امرأةً، بل قد يتخيَّل له في بصره شيء، وليس له حقيقة، وكذلك بالنسبة للسمع، وبهذا نعلم أن الشهادات، ورواية الأخبار، وغيرها كلها، يمكن أن يقع فيها الخطأ، وليست معصومة مائة بالمائة، ولكن لا شك أنه كلما تواردت الأخبار، وتكاثَرَت فإنه تدل على أن الأمر متأكِّد، ولكن نفي احتمال الخطأ مهما بلغ الرائي أو السامع من القوة والأمانة، فإن الخطأ عُرْضة فيما رأى، أو فيما سمع، أو في اللمس، الآن تلمس الشيء فتظنه لينًا أو أملس وهو بالعكس، الرجل الفلاح يلمس الشيء الخشن فيظنه أملس وهكذا، فالحاصل: أن الخطأ قد يقع أيضًا في الأمور الحسية، فما بالك بالأمور العقلية؟! فهي من باب أولى وأعظم؛ وبهذا نعرف ضعف الإنسان، وأنه بحاجة ماسَّة إلى علم الشرع، والوحي مهما بلَغ فإنه بحاجة إلى هذا الأمر.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي تأكيد الكلام في موضعه، ما قال: هذا صرح، قال: ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ﴾، وإن للتوكيد، والتوكيد هنا في محله؛ لأنها هي، وإن لم تكن مُنكِرة، لكن حالها حال المُنكِر؛ حيث ظنَّته لُجَّة، وكشفت عن ساقيها.

٦ - وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ فيه دليل على: أن الله - تبارك وتعالى - قد يهَب المرء ما يُوجِبُ له أن يُسلِم، بل قد يُيسِّر له الأسباب التي تُوجِب إسلامه بكل فروعه، هذه المرأة حسب القصة ما وجدنا أنها دُعِيَت، وأُكِّد عليها، وبُيِّن لها الخطأ إلا في قوله في أول القصة: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾[النمل: ٣١]، لكن لما شاهدت ما شاهدت من عظمة ملك سليمان، وقوته عرفت أنها لابد أن تُسلِم، وهكذا إذا يسَّر الله - تعالى - للعبد هذه الهداية، فإن الأمر، يكون

عليه يسيرًا، وإذا لم تُيسَّر له أصبح كل مانع يمنعه من الهداية، وإن لم يكن مانعًا قويًّا.

٧ ـ ومن فوائد الآية: أن المرأة آمنت بسليمان، لم تُسلِم إسلامًا مطلقًا؛ لأنها قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾، فدلَّ هذا على أنها آمنت به؛ لأن مع للمُصاحبة، فكانت من أصحابه المؤمنين به.

٨ ـ وفي هذا دليل على: أن المعاصي هي ظلمٌ للنفس، وسبق وجه ذلك، وأن الإنسان مؤتمن على نفسه من حيث السلوك، مؤتمن على نفسه من حيث التصرف في ماله، مؤتمن على نفسه من حيث التصرف في بدنه، ولهذا نُهِي عن إضاعة المال، ونُهِي عن قتل النفس،قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ١٩٥]، وأُمِر بالدواء «تَدَاوَوْا، ولَا تَدَاوَوا بِالحَرَامِ»[(١)]، وأُمِر بالأكل، وبالشرب، وباللباس، وبالوقاية من الحر، وبالوقاية من البرد، كل هذا من أجل حفظ النفس التي هي أمانة عنده، فالإنسان ليس حرًّا يتصرَّف، كما يشاء في بدنه، أو، كما يشاء في سلوكه، أو كما يشاء في ماله، هو مُقيَّد، فالإنسان فيه نفسان وقيل: ثلاثة أنفس: أمارة، ولوامة، ومطمنة، والظاهر نفسان أمارة تأمرة بالخير والشر ومطمنة تأمر تالخير، فيكون الظلم لنفسي المطمنة.

٩ ـ وفي هذه الآية: إثبات عمومية رب العالمين؛ لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، ولا أحد له الربوبية العامة الشاملة سوى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الإنسان قد، يكون ربًّا لبيته، وقد، يكون لدابَّته، وقد يكون ربًّا لمملوكه، كما في الحديث الصحيح: «**أَنْ تَلِدُ الأَمَةَ رَبَّتَها، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ**».

وتقدَّم لنا في التفسير أن ما ذكره المؤلف من هذه الإسرائيليات أنه لا يجب التصديق به، بل ما كان منها مخالفًا للقرآن، أو لا يليقُ بحال النبي ﷺ، فإنه يجب تكذيبُه، وما كان منها ليس مُخالفًا، ولا مُنافيًا لما يليق بالنبي ﷺ، فإنه لا يُصدَّق، ولا يُكذَّب، ونلاحظه بالتفسير، إلحاقنا إياه بالتفسير يصدَّق.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[النمل: ٤٥-٤٦]

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٨٧٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

التفسير

تقدَّم أن هذا التعبير أو الجملة فيها ثلاث مُؤكِّدات: القسم، واللام، وقد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا﴾ ﴿أَخَاهُمْ﴾ مفعول ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، و﴿صَـٰلِحًا﴾ عطف بيان له وليس بدلًا، بل عطف بيان أوضح؛ لأنه يُبيِّن المُبهَم في قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ ثمود هذه قبيلة موجودة في مكان يُسمَّى الآن مدائن صالح، ويُسمَّى الحِجْر، ويُسمَّى ديار ثمود، وهذه القبيلة يسَّر الله - تعالى - لها من أسباب العمران في السهل، والجبل ما برزت به على غيرها، كما قال لهم نبيهم مُذكِّرًا لهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، أرسل الله إليهم صالحًا، وآتاهم بآية عجيبة، وهي ناقة لها شِربٌ، وللقوم شِربٌ؛ يعني: أن هذه البئر التي تشرب منها الناقة، وهي أوسع الآبار، وأغزرها ماءً أُذِن لهم أن يشربوا منها يومًا، وأُمِروا بأن يضعوها يومًا للناقة تشرب منها، وتذهب في اليوم الثاني للرعي، وفي اليوم الذي تشرب منه قيل: إنهم يأتون إليها ومن سقاها دلوًا أعطته دلوًا من اللبن، وهذا من الأمور الإسرائيلية لا تُصدَّق، ولا تُكذَّب، لكنهم مع هذه النعمة العظيمة في هذه الناقة كفروها - والعياذ بالله - ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، وعقروا هذه الناقة، وكفروا بهذه النعمة العظيمة.

يقول: [﴿أَخَاهُمْ﴾ من القبيلة ﴿صَـٰلِحًا﴾] لماذا قال من القبيلة؟ احترازًا من الخطأ؛ لأنه ليس أخًا لأحد منهم إلا نفرًا يسيرًا وهم الذين آمنوا معه.

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، [أي: بأن ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾]، أفادنا المؤلف بأنَّ (أن) هنا مصدرية، ولكن يجوز فيها وجه آخر، أن تكون تفسيرية؛ لأن ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ يتضمَّن أوحينا، والوحي فيه معنى القول دون حروفه، وهذا هو دلالة (أن) التفسيرية يسبقها فعل فيه معنى القول دون حروفه، إذا قلنا: إنها تفسيرية ما صحَّ أن نُقدِّر الباء؛ أي: بأن، بل نُقدِّر أن؛ بمعنى: أي، أن: اعبدوا الله؛ يعني: أوحينا إليه أن اعبدوا الله.

وقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ قال: [وحِّدوه]، وهذا مأخوذ من تفسير ابن عباس - فيما أظن - لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] قال: ليُوحِّدونِ، فجعل العبادة هي التوحيد، ولكن الصحيح أن العبادة هي التذلُّل لله - سبحانه وتعالى - بالطاعة؛ لأن هذه المادة (العين، والباء، والدال) تدل على الذل، ومنه قولهم: طريق مُعبَّد؛ أي: مُذلَّل لسالكيه، فعبادة الله معناها: الذل له بالطاعة.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الفاء حرف عطف، وإذا فُجائية؛ يعني: ما الذي حصل بعد إرساله؟ المُفاجأة في التفرُّق.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، قال المؤلف: [في الدين، فريقٌ مؤمنون من حين

إرساله إليهم، وفريقٌ كافرون] فانقسم قومه إلى قسمين: قسم آمنوا به، وقسم آخر كفروا به، من الذين آمنوا به؟ المُستضعفون، كما قال الله - تعالى - في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأعراف:٧٥]، ما قالوا: أتؤمنون به؟ بل ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فماذا قال هؤلاء؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:٧٥]؛ يعني: لسنا نعلم فقط، بل نعلم ونُؤمن، قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[الأعراف:٧٦] ما قالوا: إنا به كافرون؛ لإظهار المُضادة لهم، والمُعاندة والاستنكار، وقولهم هذا أبلغ في المعاندة والمضادة، كأنهم يقولون: أنتم الذين تؤمنون به هذا نكفر به.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني: يجري بينهم خصام، وهذا الخِصام الذي جرى بين قوم صالح جرى - أيضًا - في قوم الرسول ﷺ، ولابد، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الفرقان: ٣١]، فلابد من هذا، ولا يمكن أن يتمحَّص الحق إلا بظهور العدو؛ لأن العدو يُورِد، والوحي يُجيب، حتى يتمحَّص الحق بينًا ظاهرًا حتى في الانتصار، وفي الخذلان، فالله - تبارك وتعالى - ذكر من فوائد الخذلان في أُحُد: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤١]، فلا يتبيَّن الحق تمامًا إلا بظهور عدو له يُناقضه، ويُعاديه، حتى يظهر الحق على الباطل.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

قوله: [للمكذِّبين]﴿قَالَ﴾ ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [أي: بالعذاب قبل الرحمة؛ حيث قلتم: إن كان ما آتيتنا به حقًّا فأتنا بالعذاب].

وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، والتعجُّب؛ يعني أنه يُوبِّخهم، ويُنكِر عليهم هذا الأمر، ويتعجَّب من حالهم؛ لأن حال العاقل أن يستعجل بالحسنة قبل السيئة، لا أن يستعجل بالسيئة قبل الحسنة، لكن السفيه - والعياذ بالله - سفيه؛ مثلما قالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، ما قالوا: إن هذا هو الحق فاهدنا إليه، وهذا - نسأل الله العافية - في غاية ما يكون من الاستكبار، فهؤلاء يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، ويقولون: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وهذا التحدِّي من أعداء الرسل للرسل يدل على تماديهم في العناد، وأنهم غير مؤمنين، ولكن ذلك لا يُجابُون إليه، وإن كان في ذلك نصر للرسول، لكنهم لا يُجابون إلى ذلك؛ لأنهم إذا أُجِيبوا إليه صار معناه: أنهم يُجابون على اقتراحاتهم؛ مثلما قالوا لما أخبرهم عن

حتمية البعث: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[الجاثية: ٢٥]، فيُقال لهم: إن الرسل ما قالوا لكم: إنكم تُبعثون الآن، بل تُبعثون يوم القيامة، لو قالوا: تُبعثون الآن فنقول: نعم، يأتون بآبائكم، لكنهم قالوا: تُبعثون يوم القيامة، وانتظروا يوم القيامة، وستجدون آباءكم.

يقول الله ـ عزَّ وجَلَّ ـ على لسان صالح: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ﴾، قال: [من الشرك]، ﴿لَوۡلَا﴾ بمعنى: هلَّا، وهذا من معانيه، ومن معاني (لولا) أيضًا: أن تكون للتحضيض، وهي حرف امتناع لوجود ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ﴾[الحج: ٤٠] ما الذي يمتنع؟ تهديم الصوامع، وذلك لوجود دفع الله ـ سبحانه وتعالى ـ الناس بعضهم ببعض.

ما الذي يُعيِّن هذا المعنى من هذا المعنى؟ السياق، وبهذا وبكثير من أمثاله يتبيَّن أن الكلمات ليس لها معنى ذاتي؛ بمعنى: أنها خُلِقت له، وإنما هي قوالب، وسياق للمعنى الذي يدل عليه السياق، فأي ثوبٍ تُركِّبه معنى السياق، فهو هو، وبهذا التقرير ـ أيضًا ـ يتبيَّن أن ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ من أنه لا مجاز في اللغة العربية أمر صحيح، وأن كل كلمة تُستخدم في مقامها فهي حقيقة فيه، وكل ما تُعرف بهذا اللفظ إلا لذاك المعنى الذي وضعت فيه لا يدل على أن ذاك هو معناها الذاتي؛ لأننا نقول: ليس للكلمات معنىً ذاتي[1].

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ﴾.

١ ـ **يُستفاد منه:** أنه ينبغي، أو يجب أحيانًا تأكيد الأخبار المهمة؛ ليكون المُخاطَب على يقين منها، ولا تقل: أنا لست مهزومًا، ولا يهمني أن أُصدَّق، أو أُكذَّب، بل إن مُقتضى النصح أن تُؤكِّد ما ينبغي تأكيد للمُخاطَب.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** دليل على أن الرسل السابقين رسالتهم خاصة وليست عامة، لقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ﴾، ما قال: إلى الناس عامة، وهذا ثبت به الحديث عن النبي ﷺ بقوله: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[2].

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه يصح إطلاق الأُخُوَّة النَّسَبية بين المسلم، والكافر، فلا يُقال: إذا انتفت الأُخُوَّة الإيمانية انتفت الأُخُوَّة النَّسَبية، بل كل منهما إذا انتفى يبقى الآخر، لقوله: ﴿أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا﴾.

---

(١) بقية تفسير الآية غير واضح سماعًا.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٣/ ٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الذي أُرسِلَت به الرسل هو ما خُلِق له البشر، بل الجن والإنس، وهو عبادة الله؛ لقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** انقسام الناس إلى فريقين في مواجهة الرسل؛ مؤمن، وكافر، وهذا لتحقيق الحكمة الابتدائية، والغائية في خلق الله، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، هذه الحكمة الابتدائية بالخلق منذ خلق ـ أيضًا ـ لتتم الحكمة الغائية أن الله ـ تعالى ـ خلق الجنة، والنار، وخلق لكل منهما أهلًا، فلو كان كل الناس مؤمنين لم يكن لخلق النار فائدة، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هذا ابتداء ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] هذا الغاية؛ إذ لو لم يكن مؤمنٌ، وكافرٌ لم تتم غاية الله في نار جهنم، وذلك في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** وقوع الخِصام بين المؤمنين، والكافرين، وأنه أمرٌ لابد منه.



❁ قال الله تعالى:

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]

❁ التفسير ❁

لما حثَّهم على الاستغفار، وبيَّن لهم نتائجه، كان جوابهم: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾؛ يعني: أنت ما أتيت لنا بفائدة، بل صرتَ شُؤمًا علينا أنت، وأتباعك، وهذا حال الذين يتطيَّرون بأهل الخير، والله ـ تبارك وتعالى ـ قد يفتِن الناس، فقد يقع مثلًا مع مجيء الخير، بعض الآفات أو بعض الأشياء المكروهة لدى الناس ليكون ذلك فتنة، وابتلاء، فربما مثلًا يحلُّ رجلٌ من أهل العلم، والعبادة في بيت، ثم يحترق هذا البيت ابتلاءً من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وامتحانًا، فأهل الشر يفرحون، ويكرهون، يقولون: انظروا الأسباب، احترق البيت لما جاء هذا الرجل، والله ـ تعالى ـ قد يفتن الناس ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وهؤلاء يقولون: إنه بمجيء صالح، ومعصية قومه عاقبهم الله ـ تعالى ـ بالقحط، والجَدْب، وغور المياه، فقالوا: أنت يا صالح، ومن معك ما جئتنا بخير، ما جئتنا إلا بالقحط، والجدب، وغور المياه، فتطيَّروا به، وقالوا: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ [أصله: تطيَّرنا، وأُدغِمت التاء في الطاء]، وهذا

الإدغام على خلاف القاعدة؛ إذ إن الإدغام يقع بين ساكن، ومتحرك، ولكنه هنا وقع بين متحرِّكَيْن، ولما أُدغِمت التاء في الطاء صار الحرف الأول منهما ساكنًا، وبعد الإدغام قُلِبَت التاء طاءً، والساكن لا يمكن الابتداء به، فاجتُلِبت الهمزة لتسهيل النطق به، ولهذا قال المؤلف: : [واجتُلِبَت همزة الوصل] لتسهيل النطق بالساكن.

ومعنى: ﴿اطَّيَّرْنَا﴾ [أي: تشاءمنا]، من الشؤم، والشؤم معناه: توقُّع الشر من مُشاهَد، أو مسموع، أو زمن، أو مكان، أو حال، ولهذا قالوا: إن التطيُّر مأخوذ من الطير، وكانوا في الجاهلية يتشاءمون بالطيور حيث يبعثونها، وعندهم قواعد لهذا التشاؤم، إذا ذهبت يمينًا يتفاءلون، أو يسارًا يتشاءمون، أو أمامًا يُعيدون البعث مرة أخرى، وخلفًا يتشاءمون، فعندهم لذلك قواعد، فلذلك سُمِّي هذا التشاؤم تطيُّرًا فهو مأخوذ من الطير؛ لأن غالب تشاؤم العرب به.

فهم يقولون: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ أي: تشاءمنا، وكان مجيئك شؤمًا علينا أنت، وأتباعك.

إذن التطيُّر هو التشاؤم بمرئي أو مسموع، أو زمان، أو مكان، أو حال بمرئي يرى الإنسان شيئًا فيتشاءم، مثلًا أراد أن يسافر فقابله إنسان يكرهه، فقال: رجعني، هذا المرئي، أو همَّ أن يسافر فلما خرج سمع قائلًا يقول: مات فلان بن فلان قال: رجعني، هذا المسموع، أو زمان أي يتشاءم بيوم من الأيام، أو أسبوع أو شهر من الشهور، والعرب كانوا يتشائمون من شهر شوَّال في الزواجات، لكن عائشة أبطلت ذلك بالواقع وقالت: إن الرسول ﷺ تزوجها في شوَّال وبنى بها في شوال، فأيكم أو أيكن كان أحظى عند رسول الله ﷺ، إذن إذا أردنا أن نبطل التشاؤم ونعمل التفاؤل هو أن نتفاءل بشهر شوال، ولكن مع ذلك لا نتفاءل بشوال ولا نتطيَّرُ به، فالخير والشر بيد الله - سبحانه وتعالى -، ومنه التطيُّر بالمكان، مثلًا يأتي إنسان إلى هذا المكان فيتشاءم منه أو يتشاءم بالحال، حال الشخص مثلًا، وهذا أيضًا ما لا يجوز، قد يعمل الإنسان عملًا يعاكسه في أوَّل أمره، أو يهم أن يفعل شيئًا غدًا ولا يجد فيه رغبةً ويجد بعض التعب والعجز فيتشاءم ويعجز بسبب هذه الأحوال التي عرضت له، فكل هذا لا يجوز، وأنت إذا عزمت فتوكَّل على الله.

فنقول: كل التشاؤم لا يجوز، أنت إذا عزمت فتوكل على الله، اللهم لا قدر إلا قدرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك. الإنسان - مثلما قال القرطبي، وغيره من أهل العلم - إذا علَّق تصرُّفاته بهذه الأمور المتشاءم بها، فهو من أجهل الناس، حقيقة، ثم إنه لا يمكن أن ينصلح حاله إذا كان ينظر لهذه الأشياء، ولكن الفأل الذي يعين على فعل الخير لا يدخل في هذا الأمر، كان النبي ﷺ يُعجِبُه الفأل[1]، يكره الطِّيَرة؛ لأن الطِّيَرة فيها تعلُّق الإنسان بغير الله في مثل هذه الأمور، وفيها - أيضًا - منعٌ للإنسان عما يُريده من الخير، لكن التفاؤل فيه التشجيع على الخير، لما جاء سُهيل بن

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٥٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

عمرو في صلح الحديبية، قال النبي ﷺ: «هَذَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرو، وإِنَّهُ قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»[1]، إذا صحَّت هذه الكلمة في الحديث.

فالحاصل: أن التفاؤل غير التشاؤم، واعلم أن التشاؤم غير الشؤم، فإن الشؤم قد يكون في بعض الأشياء؛ مثلما أخبر النبي ﷺ أنه يكون في المرأة ويكون في الدار، ويكون في الدابة، وهذا شيءٌ مُشاهَد، أن الإنسان قد ينزل بعض الدور، وما يتشاءم لكن يكون فيها شؤم، تكون دائمًا خراب مثلًا، ودائمًا تحتاج إلى أعمال، فإذا ارتحل عنها ارتاح، ووجد ما يريد، كذلك بعض السيارات وكذلك القلم، كذلك - أيضًا - بعض النساء، يتزوج الإنسان امرأة، وتتعبه ليلًا ونهارًا في حياته العامة، والخاصة، ومع أهله، وأقاربه، ويتزوج أخرى فتكون راحة لنفسيته، وقرة عينه.

فالحاصل: أن هذه الأشياء أمرها واقع، ولكن الرسول ﷺ ما قال: التشاؤم، قال: الشُّؤْمُ، وفرق بين هذا، وهذا، ومعنى ذلك أن هذه الأشياء أحيانًا يجد الإنسان فيها راحة، وأحيانًا يجد فيها تعبًا وقلقًا، فالشؤم من فعل غيرك والتشاؤم من فعلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ هذا جواب الرسل، وهذا - أيضًا - أجاب به بنو إسرائيل لموسى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ﴾[الأعراف: ١٣١]، وكذلك أصحاب القرية الثلاثة تطيروا بالرسل التي أُرسِلت إليهم.

على كل حال: هذا جواب أهل الشر، أنهم يجعلون الأسباب التي هي من أفعالهم، ونتيجة لأفعالهم يجعلونها بأسباب هؤلاء المُصلحين، والحقيقة أنها وقعت جزاءً على أفعال الكفار.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ تشاءمنا قال المؤلف: [بالمؤمنين؛ حيث قُحِطوا المطر، وجاعوا] قُحِطوا بمعنى: مُنِعوا.

قوله: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ [شؤمكم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أتاكم به ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾] قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ يعني: وليس منا، و﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾ بمعنى: شؤمكم، والمراد: ما أصابكم مما تشاءمتم به - وهو القحط، والجدب - عند الله، وليس مني أنا، وإذا كان عند الله -- سبحانه وتعالى - فهذا أبلغ جواب، فإن الله - تعالى - حكيم، ما يُنزِّل هذا الشيء إلا في منزلته، وبأسبابه التي يستحق بها، فكأنه يقول: ما دام عند الله، فالله حكيم، ما أنزله إلا في موطنه، وموضعه، وهو الشؤم.

ثم قال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ هذا الإضراب ليس لإبطال الأول، ولكنه للانتقال، والإضراب، يكون على نوعين: إضراب إبطالي، يكون الحكم لما بعد بل، ويبطل ما قبلها.

والثاني: إضراب انتقالي؛ مثل هذه الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ انتقال من شيء إلى شيء، هنا الإضراب انتقالي؛ لأنه عند الله يفتنهم

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

- سبحانه وتعالى - بها حصل.

ووجه الفتنة: أولًا: أنهم نسبوا هذا إلى صالح، ومن معه، وهذه فتنة عظيمة ضلَّ بها هؤلاء.

ثانيًا: أنه أصابهم مع مجيء صالح إليهم، فظنوا أو ادَّعوا أن أسباب ذلك صالح، ومن معه، ففُتِنوا بذلك، وابتعدوا عن الحق، مثلما أشرت لكم بالرجل الصالح.

والله - سبحانه وتعالى - حكيم، يفتن الإنسان، ويختبره بأنواع الفتن تارةً بالمصائب، وتارةً بالنعم، وتارةً بالأمور التي تُوجِب الاشتباه ليمتحنه بذلك، ولهذا الدنيا كلها محنة، ما دام الإنسان دائرًا بين أمرين: إما شر، وإما خير، وكلاهما يقول الله فيه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] إذنْ معناه: انتبه أيها الإنسان، الفضل ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، المصائب ليبلوني أأصبر أم أجزع، الشبهات العلمية التي تَرِد على قلب الإنسان ليبلوه هل يثبت أو يزيغ، فالمسائل كلها في الحقيقة فتنة، واختبار من الله - سبحانه وتعالى - ولهذا يجب على العاقل أن يكون حذِرًا دائمًا، ولست أدعو بهذا إلى سوء الظن بالله - عَزَّ وَجَلَّ - ولكني أدعو إلى النظر في الأمور ليكون التصرُّف على وجه سليم، ولكن مع ذلك أقول: إنه إذا تجاوز الإنسان هذه الفتنة حصل له الثبات، والاستقرار؛ لأنه يطمئن قلبه، ويرسخ في هذه الأمور، ولا يزيغ بإذن الله بعد ذلك، لكن قد يُفتَن المرء فلينظر، ولهذا قال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [تختبرون بالخير والشر]، ووجه الفتنة في هؤلاء أن البلاء الذي أصابهم بسبب دعوة صالح إلى عبادة الله، فكفروا فأوذوا، فهذه من الفتن؛ لأنهم قالوا: أنت أسبابها، وفي الحقيقة أن أسبابها هم أنفسهم، ففُتِنوا بذلك.



قال الله تعالى:

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾
قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾
فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٨ - ٥٣]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [مدينة ثمود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: رجال]، والرهط صحيح أنهم رجال، لكنهم قالوا: إن الرهط ما بين الثلاثة إلى العشرة، وبعضهم قال: ما بين السبعة إلى العشرة، فعلى هذا ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾، وهل في التسعة تسعة؟ لا، ولهذا فسَّر المؤلف الرهط بالرجال، لا بمعناه الخاص، لأجل أن تستقيم الإضافة؛ إذ الشيء لا يُضاف لنفسه إلا على تأويل، وقال بعضهم: إنه لا حاجة إلى تأويل؛ لأن الإضافة هنا بيانية؛ أي: أن رهط تفسير لتسعة، كأنه قال: تسعةٌ رهطٌ، والمعنى على كل حال هو أن هذه المدينة - مدينة صالح أو مدينة ثمود - كان فيها رجال تسعة، وكانت التسعة هذه مجالًا للتفاؤل، والتشاؤم، واحد يتشاءم من العدد تسعة، ويقول: تسعة جاءت بالإفساد في الأرض ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وواحد يتفاءل بها، فالرافضة يتشاءمون بالعشرة، ويتفاءلون بالتسعة، العشرة المُبشَّرون بالجنة، لكن هم يُفرِدون علي بن أبي طالب منهم، لكنهم يتشاءمون بالعشرة، لأن عدوهم من العدد العشرة، وصديقهم التسعة.

فقال لهم شيخ الإسلام: يجب إذا كنتم تتفاءلون، وتتشاءمون بالعدد، فأنتم تتشاءمون بالتسعة؛ لأنه هو الذي قال فيها: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، أما العشرة، فإن الغالب أنها خير، عشر ذي الحجة، وعشر رمضان، والعشر المُبشَّرون بالجنة، وأمثلة كثيرة، وأنا أقول: إن كلام شيخ الإسلام هذا للتنزُّل مع الخصم، وإلا فهو رَحِمَهُ اللهُ لا يتشاءم لا بهذا، ولا بهذا، فالعدد عدد.

وقوله تعالى: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بأي شيء؟ بالمعاصي، وكلما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الفساد في الأرض فالمراد به المعصية وهي الشرك وذكر ما دونه؛ لأنه لا شك أن عمل المعاصي نفسه هو الفساد، ثم هو سبب للفساد ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فالمعاصي هي نفسها فساد، وهي سبب للفساد ـ أيضًا ـ.

[﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، منها: قرضهم الدنانير، والدراهم]، ينقصون الدراهم بالقطع منها والقص، لكن هذا القول ضعيف، ليس عليه دليل، ولا هو ـ أيضًا ـ أكبر المعاصي، هذا صحيح أنه غش، لكنه ليس أكبر المعاصي، على كل حال، المهم أنهم أنكروا الرسالة، وكفروا بالخالق، هذه من أعظم المعاصي التي يُفسِدون بها في الأرض.

وقوله: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ معناه: أن فسادهم هذا ـ والعياذ بالله ـ شامل، لا يوجد صلاحٌ أبدًا، وهذه هي الحكمة من قوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، وفيه فائدة عظيمة، وهو أنه

قد يجتمع الصلاح، والفساد في آنٍ واحد، كما أن الإنسان، يكون مؤمنًا، ويكون فاسقًا، يكون فيه إيمان، وفيه كفر، وفيه فسوق، وطاعة، وفيه فساد، وصلاح، فالأمور إما خيرٌ محضٌ وصلاحٌ محضٌ، وإما شرٌّ محض وفسادٌ محضٌ، وإما خليط من الأمرين، وهؤلاء القوم يُفسِدون، ولا يُصلِحون - والعياذ بالله - ما يُصلِحون بالطاعة أبدًا، وهذا دليل على أنهم ليس فيهم خيرٌ محضٌ أبدًا، لا قليل، ولا كثير، لكن فيهم أُناسٌ خيِّرون، الذين آمنوا بصالح واتبعوه، لكن هؤلاء الرهط التسعة يُفسِدون في الأرض، ولا يُصلِحون دائمًا، ما همهم إلا الفساد في الأرض بالمعاصي، وإلقاء الفتن بين الناس، ومحاولة قتل المُصلِحين، ولهذا قالوا: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ أي: هؤلاء التسعة ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ أي: احلفوا بالله؛ يعني: طلب بعضهم من بعض أن يتعاهدوا على هذا الأمر، يتحالفوا على أن يُبيِّتوا صالحًا، وأهلَه، ومعنى البَيات: إنذار العقوبة ليلًا، فهنا حلفوا هذا الحلف الكاذب على أن يُبيِّتوا صالحًا، وأهله، ولهذا قال: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ اللام واقعة في جواب القسم والنون للتوكيد، فهم أكَّدوا على الفعل باليمين، واللام، والنون، يقول: المؤلف: [بالنون، والتاء، وضم التاء الثانية]، وإذا جعلناها بالتاء لزم ضم التاء الثانية: ﴿لَتُبيِّتُنَّه﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [أي: من آمن به، أي: نقتلهم ليلًا]، والمراد بالأهل أتباعُه، كما قال المؤلف: ولكن قد يُنازَع في هذا، فيُقال: إن المراد به: أهله الخاصُّون؛ يعني: أهل بيته، وأنهم هم الذين يكونون في الغالب معه في الليل، فإن الغالب أن الإنسان لا يبيت معه في بيته إلا أهله الخاصُّون به.

ثم بعد ذلك بعد أن نُبيِّته ﴿لَنَقُولَنَّ﴾، قال المؤلف: [بالنون، والتاء، وضم اللام الثانية] ﴿لَتَقُولُنَّ﴾ بفتح اللام تكون أيضًا ﴿لنبيتنه﴾ يعني: ثم بعد أن نُبيِّته، ونقتله إذا قام وليُّه للأخذ بثأره نقول: ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ [وليِّ دمه]، وليُّ الدم عندنا في الشريعة الإسلامية هم الورثة بفرضٍ، أو تعصيبٍ، وقيل: لا، بل العَصَبة هم أولياء الدم؛ لأنهم الذين يُؤدُّون العقل عنه، وأما ذوي الفرض فليسوا من أولياء الدم، والصواب: أن أولياء الدم هم الورثة بفرضٍ، أو تعصيبٍ، مثل الزوجة والبنت فهما من الأولياء.

وقوله تعالى: ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ [حضرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ بضم الميم، وفتحها]، ولم يتعرَّض المؤلف للقراءة الثابتة، وهي ﴿مَهْلِكَ﴾، فالقراءات فيها ثلاث: فتح الميم وكسر اللام، وفتح الميم واللام، وضم الميم وفتح اللام، وهاتان الأخيرتان هما اللتان ذكرهما المؤلف.

﴿مُهلَكَ أهله﴾، أو ﴿مَهلَكَ أهله﴾ يقول: [أي: إهلاكهم، أو هلاكهم] على القراءتين، وأن

﴿مُهلَك﴾ أي الإهلاك؛ لأن ﴿مهلك﴾ من أهلَكَ الرباعي، وقوله تعالى: ﴿مَهلَك﴾ من هلَكَ الثلاثي، ولذلك نقول: إذا كان الفعل ثلاثيًا، فإن المصدر الميمي منه على وزن مَفعَل، وإذا كان رباعيًّا فإن المصدر الميمي منه على وزن اسم المفعول.

قال المؤلف: [فلا ندري من قتلهم]، وهذا الإنكار صحيح، أم كذب؟ ما داموا هم الذين قتلوه، فقولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ هذا كذب، لكن فيه تورية، وأنهم يقولون: ما شهدنا بل فعلنا، والشاهد أنهم لم يفعلوا، ولهذا قالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، وهذه الجملة هل هي من جملة قولهم الذي يُدافعون به عن أنفسهم، أو هو تقرير لقوله: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾؛ يعني: وأنهم لم يقولوه للدفاع عن أنفسهم؟ يحتمل الأمرين.

والحاصل: أن هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ فعلوا هذا الفعل المنكر، وهو مكرٌ؛ لأنه إتيان لصالح، وأهله من حيث لا يشعرون، فإن الليل موضع السكون، والهدوء، وإذا اعتدى أحدٌ على أحد صار ذلك غدرًا، ومكرًا، ولهذا حتى في حرب الكفار اختلف العلماء هل يجوز تغفيل الكفار، أو لا يجوز؟

الجواب: من منع التغفيل قال: لا يمكن أن نحارب الكفار، وهم غافلون نائمون، فمنهم من قال بهذا والمسألة تحتاج إلى تحرير وبحث.

والحاصل: أننا نقول: إن هذا من الغدر، والمكر أن يأتي هؤلاء إلى صالح، وأهله في الليل فيُبيِّتونه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

قوله: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ [في ذلك ﴿مَكْرًا﴾] مُنكَّر، وأحيانًا يقولون: من فائدة التنكير: التعظيم؛ أي: مكروا مكرًا عظيمًا، والمكر فسَّره بعضهم بأنه التوكُّل بالأسباب الخفيَّة إلى الإيقاع بالخصم؛ لأن الأسباب الظاهرة لا تُسمَّى مكرًا، وإنما بأسباب خفية.

قال الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في مُقابلة ذلك: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أي: أعظم من مكرهم، قال المؤلف: : [أي: جازيناهم بتعجيل عقوبتهم] ففسَّر مكرًا بالمُجازاة، والصحيح أن المكر أشدُّ من المُجازاة؛ لأنه مُجازاة من حيث مأمن المُجازاة، لكن أراد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن يدفع بذلك صفة المكر عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ففسَّره بالمُجازاة، والصواب عند أهل السنة والجماعة: أن المكر لا يجوز أن يُحرَّف إلى معنى المُجازاة مطلقًا، وأنه لا يمتنع وصف الله ـ تبارك وتعالى ـ في محله، فالمكر في محله يُعتبر مدحًا، وفي غير محلِّه يُعتبر ذمًّا، المكر بهؤلاء الماكرين مدحٌ عظيم، ولهذا الصحيح في هذه المسألة على مذهب أهل السنة، والجماعة: أن الله ـ تعالى ـ يُوصَف بالمكر لا على الإطلاق، فلا يُقال: إن الله ماكر؛ لأنه على الإطلاق يتضمَّن صفة الذم، وإنما يُقال: ماكرٌ بمن يمكُر به، أو بمن يستحق المكر، وحينئذٍ يكون صفة نفي، والصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: صفات حُسنى بكل حال، فهذه ثابتة لله على وجه الإطلاق؛ كالسمع، والبصر، والعلم، والحياة، وما أشبه ذلك.

والثاني: صفات نقصٍ على كل حال، فهذه يُنزَّه الله عنها على كل حال؛ مثل: الظلم، واللُّغوب، والجهل، والعمى، والموت، والمرض، والجوع، والعطش، وما أشبه ذلك، والولادة، والشريك، فهذه يُنزَّه الله عنها على كل حال.

والثالث: صفات ذات وجهين، تكون مدحًا في حال، وتكون ذمًّا في حال، فهذه لا يُوصَف الله بها على الإطلاق، ولا تُنفَى عنه على الإطلاق؛ مثل: المكر، والخداع، والاستهزاء، والسخرية، وأمثالها، بل يُوصَف بها حيث تكون كمالًا، وتُنفَى عنه حيث تكون نقصًا، قال الله - تعالى -: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾[التوبة: ٧٩]، وقال - تعالى -: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[البقرة:١٥]، وقال - تعالى -: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[النساء: ١٤٢]، وقال - تعالى -: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾[الأنفال: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: وهم لا يشعرون بعاقبة مكرهم، وهل يتم لهم ما أرادوا، أم لا؟ لا، ولا يشعرون كيف يمكر الله بهم، فهم لا يشعرون لا بهذا، ولا بهذا، لا بعاقبة مكرهم، ولا بمكر الله بهم؛ لأنهم - والعياذ بالله - مُتمادون في الضلالة، والغالب أن الذي يتمادى في الضلالة يعمى، فلا يُبصِر، فلهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، والجملة هذه في محل نصب حال من الواو في ﴿وَمَكَرُوا﴾، أو من الضمير المحذوف في قوله: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ يعني: بهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

قوله: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أولًا، أو لمن يصح خِطابه؛ يعني: فانظر أيها المُخاطَب، أو فانظر يا محمد، وهو رأس هذه الأمة، وقائدها، وإمامها، فيكون خِطابُه خِطابًا للأمة أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ كيف هذه للاستفهام مُعلَّقة لـ (انظر) عن العمل، ولهذا نقول: إن محلها النصب خبر كان مُقدَّمًا، وجملة كان، واسمها، وخبرها في محل نصب مفعول لـ (انظر)، والعاقبة ما يعقب الشيء؛ يعني: انظر ماذا يعقب مكرهم من الأمر ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾، قال المؤلف: [أهلكناهم] فيها قراءتان، فتح الهمزة ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾، وكسر الهمزة ﴿إِنَّا﴾، أما كسرها، فهو كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾[القمر: ٣٠، ٣١] فتكون مُستأنفة لبيان هذه العاقبة، وجيء بالجملة الاستئنافية بيانًا لها.

أما على قراءة الفتح فهي بيان للعاقبة؛ يعني: هو أنَّا دمَّرناهم، وقومهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿دَمَّرْنَاهُمْ﴾ يقول المؤلف: [أهلكناهم] من التدمير، وهو أبلغ من الإهلاك؛ لأن التدمير يُوحِي بعِظَم هذا الإهلاك، وعظمته، وهو كذلك، فإن قوم صالح أُخذوا ـ والعياذ بالله ـ بأمرين: بصيحةٍ، ورجفةٍ، صِيح بهم، وارتجفت بهم الأرض، حتى انهدم عليهم بناؤهم، وتقطَّعت قلوبهم في أجوائهم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]، فهذه العقوبة عليهم نتيجة لهذا العصيان، والتمرُّد، والمكر الذي أرادوه بنبيهم صالح عليه السلام.

وقوله: ﴿دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ﴾ مع أن القوم لم يُشاركوا في هذه الجريمة، ولكن هذا شُؤم المعاصي أن الله ـ تعالى ـ إذا عاقَبَ بها أحدًا شمل الجميع، مع أن قومه مُستحقُّون للعقوبة؛ لأنهم كانوا كفارًا مُكذِّبين، لكن تعجيل العقوبة مقرونٌ بهذا السبب، وهو مكرُ هؤلاء بصالح، هذا قد لا يكون هؤلاء القوم مُستحقِّين له، ولكنه شملهم ـ والعياذ بالله ـ عقوبة هؤلاء، وقد ذكر الله ـ تعالى ـ في آيات أخرى مُفصَّلة أن نبيَّهم صالحًا قال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، فتمتَّعوا، وبقوا ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك أتاهم الله بهذه البغتة.

وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير لقوله: ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾؛ يعني: ما بقي منهم أحد إلا من كان مؤمنًا بصالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقول المؤلف: [بصيحة جبريل، أو برمي الملائكة بحجارة وغيرها، ولا يرونهم].

أما قوله: [بصيحة جبريل] فهذا قد يكون مقبولًا؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [القمر: ٣١]، وهذه الصيحة إما من الله، أو من جبريل، أو من غيره من الملائكة، المهم أنهم أُهلِكوا بصيحة.

وأما قوله: (أو برمي الملائكة بحجارة) فهذا لا أعلم له وجهًا، ولكنهم لما جاءوا إلى صالح في الليل أمر الله ـ تعالى ـ الملائكة أن تحرسه فلما جاءوا، فإذا الملائكة تحرسه، وجعلت الملائكة ترميهم بالحجارة، وهذا لا أصل له، ولم يكن هذا المعصوم، فإنه غير مقبول، وهو ـ أيضًا ـ غير لائقٍ أن تكون الملائكة يرمون بالحجارة.

ولكننا نقول: الذي دمَّر الله به هؤلاء، وقومهم هو الصيحة، والرجفة، كما جاء ذلك في القرآن، ولا نتعدَّى القرآن في هذا الأمر؛ لأن الله يقول في سورة إبراهيم: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[إبراهيم: ٩]، فما دامت هذه الأمور من معلومات الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإننا لا نتجاوز ما قال الله فيها، إلا ما ورد عن النبي ﷺ بسندٍ مقبول.

قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، قال المؤلف: [أي: خالية، ونصبه على الحال، والعامل فيها معنى الإشارة].

قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ المُشار إليه معلوم محسوس؛ لأن بيوت ثمود موجودة الآن ومُشاهَدة، لكنها، كما قال الله ـ تعالى ـ خاوية؛ بمعنى: أنها خالية على رأي المؤلف، وقيل: خاوية مُتهدِّمة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[البقرة: ٢٥٩] أي: مُتهدِّمة، وهذا أبلغ؛ يعني: تقدير الخاوي بالمُتهدِّم الذي ليس بقائم أولَى؛ لأن البيوت قد تكون قائمة، ولكن إذا خوِيَت بمعنى: دُمرت، وانهدمت فهي خاوية، فإذنْ يلزم من دمارها خلوُّها، ولا يلزم من خلوِّها دمارها، والواقع أنها دمرت؛ لأن هذه الرجفة العظيمة لابد أن تُدمِّر.

وقول المؤلف: [نصبه على الحال] حال من البيوت، أي حال كونها خاوية، ولكن أين العامل في الحال؛ لأن العامل لابد أن يكون فعلًا، أو اسمًا بمعنى الفعل؟ قال المؤلف: [والعامل فيها معنى الإشارة]؛ لأن ﴿تلك﴾ بمعنى: أشير، فاسم الإشارة مُتضمِّن لحرف معنوي.

قال: [﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بظلمهم]الباء للسببية، و(ما) مصدرية، فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ حوَّل الفعل إلى مصدر، افترض أن ما مصدرية، أو تحوِّل ما بعدها إلى مصدر؛ أي: بسبب ظلمهم لا أننا ظالمون لهم، فهم الذين ظلموا أنفسهم، ثم فسَّر المؤلف حال الظلم بالكفر، فقال: [أي: كفرهم]، وأن كل كفرٍ ظلم، وليس كل ظلم كفرًا، ولهذا قال العلماء: إننا نحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة: ٢٥٤]، ولم يقل: والظالمون هم الكافرون، فلو قال الثانية صار كل ظالم كافرًا، ولكن قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فإن كل كافرٍ ظالم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وتفسير المؤلف للظلم هنا بالكفر؛ هل عليه دليل؟ نعم؛ لأن فعلهم، وتهديدهم لرسولهم كفرٌ، فهنا تفسير الظلم بما هو أشد دليل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال المؤلف:[﴿لَآيَةً﴾ لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قدرتنا فيتَّعِظون] تفسير الآية بالقدرة هذا مختلف، بل المراد ما هو أعم من علم قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، بل يعلمون صفات الله، وحكمته، وما جرى للأمم، كل هذا داخل؛ لأن الذي لا يدري بماذا يعتبر؟ لكن الذي يدري هو الذي يعتبر، وفي هذا من الحث على معرفة أخبار الأمم، والعلم بها ما هو ظاهر؛ لأن بها يتَّعِظ الناس، وكذلك ـ أيضًا ـ الأخبار الواقعة في زمن الإسلام، ينبغي أن يتخذ من حوادثها عظةً، وعبرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

قوله: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [بصالح، وهم أربعة آلاف ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك].

﴿أنجينا﴾ أي: عصمنا، والإنجاء بمعنى: العصمة، أنجيناهم من هذا التدمير الذي ذكره الله، والعقوبة.

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قول المؤلف: [بصالح] فيه نظر، فهم آمنوا بالله لأجل أن يُنجِّي صالحًا، ومن معه، كما قال الله ـ تعالى ـ في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ

ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾[هود: ٦٦]، فالصواب: أن الإيمان بالله، بل نقول: إن صالحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجب عليه أن يؤمن بنفسه أنه رسول، ولهذا كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يؤمن، ويصِف نفسه بالرسالة، ويقول: في صلاته: «**أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا الله، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ، ورَسُولُهُ**»(١)، وأحيانًا يقول: إذا وقع الأمر على وفق ما قال: «**أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا الله، وأَنِّي رَسُولُ الله**»(٢)، فالمهم أن الرسول نفسه مُلزَمٌ بأن يشهد لنفسه بالرسالة، بأنه رسول الله،يؤمن بما أُوحِي إليه.

وقول المؤلف: [أربعة آلاف] نقول: أين الدليل الذي حصرهم؟ لا دليل عليه، والغالب أن المؤمنين أقل من ذلك، فالنبي ﷺ يقول: «**رَأَيْتُ النَّبِيَّ، ومَعَهُ الرَّهْطُ، والنَّبِيَّ، ومَعَهُ الرَّجُلُ، والرَّجُلَانِ، والنَّبِيَّ، ولَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**»(٣)؛ إذ رُفِع له سواد، فظن أنهم أمته، فقالوا: هذا موسى، وقومه، فالمهم أن تقديرهم بأربعة آلاف، أو بأربعين رجلًا، أو بأربعة ملايين، أو بأقل، أو أكثر يحتاج إلى دليل، وهو ـ أيضًا ـ من فضول العلم التي لا ينبغي للإنسان أن يُتعِب نفسه في ذلك، ليس فيه فائدة، ولو كان فيها فائدة لحث الله عليها، ونظير هذا البحث مثلًا في كلب أصحاب الكهف، ما لونه، ما اسمه، ما فيه فائدة، كذا على الغار أين كان؟ وفي أي مكان؟ كل هذه المسائل جانبية.

المهم: أن كل من اتصف بالإيمان، فإن الله ـ تعالى ـ أنجاه من هذا العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ يقول: المؤلف: [الشرك]، ولو أنه قال: يتقون المعاصي، أو يتقون الله لكان هذا أولَى؛ لأن الإيمان، والتقوى بمعنى: الإيمان، والعمل الصالح؛ لأن العمل الصالح من التقوى، بخلاف ما إذا قُرِن بالتقوى البر، وما أشبه ذلك، فيكون التقوى للمعاصي، والبر للطاعات.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾:

١ ـ **في هذه الآية من الفوائد:** مبدأ العِصابة، ولا زال موجودًا إلى الآن فإن هؤلاء التسعة يُفسِدون في الأرض، ولا يُصلِحون، وما يزال الأمر إلى يومنا هذا، وإلى ما بعده والله أعلم أنه سيبقى؛ لأن أهل الشر لهم طرق يتفنَّنون بها في فرض شرِّهم على غيرهم.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه يمكن أن يجتمع الفساد، والصلاح، لقوله: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾، ولولا أنه يمكن اجتماعهما لم يكن لقوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ فائدة؛ لأنه يكون عدم الصلاح مفهومًا من الفساد، فيمكن اجتماعهما، فيُؤخذ منه أن الفساد، والصلاح قد يجتمعان

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣١) ومسلم (٥٥/ ٤٠٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٧٥٢) ومسلم (٣٧٤/ ٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

في شخص.

٣ ـ **ومن فوائد الآية**: أن الكفر، والإيمان قد يجتمعان في شخص؛ لأن الإيمان صلاح، والكفر فساد، وكذلك ـ أيضًا ـ الفُسوق، والطاعة، يمكن أن يجتمعا، وخالف في ذلك طائفتان من الناس: المُعتزلة، والمرجئة، المرجئة قالوا: الإنسان إذا كان مؤمنًا صارت كل أحواله صالحة، ولا يُعذَّب بذنب، ولا يُلامُ عليه، والخوارج، والمعتزلة بالعكس.

المهم: أنه قد يجتمع كفر، وإيمان، وفسوقٌ، وطاعة، بل من أتى ما يُوجِبُ الفسق صار كافرًا، ومن أتى ما يُوجِبُ الكفر صار كافرًا على رأي الخوارج، أو خارج من الإيمان بين منزلة الإيمان، والكفر، على رأي المُعتزلة، ولا شك أن النصوص، والواقع، والعقل يدل على خلاف ما قالوا؛ لأن اجتماع هذا، وهذا أمرٌ معلومٌ.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: أن المعاصي من أسباب الفساد في الأرض، لقوله: ﴿يُفْسِدُونَ﴾، وهؤلاء جماعة ليسوا يهدمون البيوت، ولا يُهلِكون الزروع، ولا يسرقون المتاجر، لكنهم يفعلون ما يكون سببًا للفساد، الحسي والمعنوي؛ وهو فساد الأخلاق، والسلوك، والفساد الحِسِّي؛ لأن الفساد الحِسِّي يتبع الفساد المعنوي.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

١ ـ **يُستفاد من هذه الآية الكريمة**: أنه من الحزم ـ والحزم قد يكون في الخير، أو الشر أن تتعاقد الطائفة، وتتعاهد على منهاجها الذي تسير عليه؛ لئلا تتفرَّق، وتختلف، وتُؤخذ من قوله: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾، ما ذهب كل واحد مذهبًا، اجتمعوا أولًا على تدبير الخطة، ثم على تنفيذها، يؤخذ منها أن من الجزم أن تجتمع الطائفة وتتفق على عهد يربط بعضها ببعض ليكون التنفيذ.

وهذا المسلك لا زال يُسلَك حتى الآن، والصحيفة التي اجتمعت قريش فيها على مقاطعة بني هاشم؛ هل نُقِلت برجل واحد؟ لا، بل ذهب هذا الرجل الذي أراد نقلها إلى فلان، وفلان، وصار يُجمِّع الناس حوله، حتى اجتمعوا على نقلها، وغلبوا في تنفيذ فكرته.

فالحاصل: أن هذه المسائل ينبغي للإنسان إذا أراد أن يَهِمَّ بأمرٍ، وينشأ منهاجًا أنه يجعل معه أقوامًا يُساعدونه، ويتعاقد معهم ويتعاهد، إن كان في خيرٍ فخير، وإن كان في شر فالله يتولاهم، هنا تقاسموا على شرٍّ من أعظم الشرور.

٢ ـ **ومن فوائد الآية**: أنها دليل على مبدأ الاغتيالات ـ أيضًا ـ؛ لقوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾؛ لأن التبييت اغتيال؛ إذ إن الاغتيال معناه: القتل على غِرَّة، ولهذا كان الصحيح من أقوال أهل العلم أن الغِيْلة ليس فيها خيار لأولياء الدم، وأنه يجب قتل المُغتال بكل حال، وهذا مذهب

مالك، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأنه لا يمكن التحرُّز منه، فهو فساد في الأرض، ولا يُعارِضُ هذا قول الرسول ﷺ: «مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ، فهو بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ»[(١)]؛ لأن قوله: «مَنْ قُتِلَ لَهُ» هذا من الحقوق الخاصة، وأما مبدأ الاغتيال فإنه من الحقوق العامة، يكون الإنسان في مأمن، ويقتله؛ لأنه لو جاء وهو في بيته نائم، فهذا يمكنه أن يتحرَّز منه بالفرار، أو يتحرَّز بالمُدافعة، أو بالصِّياح لمن حوله، وما أشبه ذلك.

فهؤلاء تقاسموا على هذه الفعلة القبيحة، ولكنهم لم يُنفِّذوا ما أرادوا، فلم يحصل لهم تنفيذ ما أرادوا؛ لأنهم مكروا، ومكر الله، والله خير الماكرين.

٣ - وفيها دليل على: الإنكار، وهذا الشيء واضح أن الفاعل للسيئة لا يهمه أن يُنكِر فعله؛ يعني: من قتل يهون عليه أن يُنكِر القتل؛ لأن القتل أعظم من إنكاره، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾.

٤ - وفيها: أن البيِّنة على المُدَّعي، واليمين على من أنكر؛ لأنه لولا أن هذا القول يُبرِئُهم ما صحَّ أن يتفقوا على اتخاذه حُجَّة، دلَّ هذا على أن الإنكار يبرأ به المُدَّعى عليه، ووجهه: لولا أن ذلك يُبرِّئُهم لم ينفعهم الاتفاق عليه؛ لأنهم لو قالوا: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ لقال: أنتم القاتلون، فإذا ادَّعى شخصٌ أن هذا الرجل قتل والده، نقول له: هات بيِّنة، فإذا لم يأت ببيِّنة، فإنه لا يثبُت له حق؛ لأن البيِّنة على المُدَّعي، واليمين على من أنكر، ولكن هل هذا على إطلاقه؟ المشهور من المذهب: أنه على إطلاقه، وأنه لو كان المُدَّعَى عليه القتل من أفجر الناس، والمقتول من أفضل الناس كذلك المُدَّعِي فإنه لا يُؤخذ بقوله، لعموم قول الرسول ﷺ: «البَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي، واليَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ»[(٢)].

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا يُؤخذ بقوله، ولكن تُجرى فيه القَسامة، إذا كان هذا الرجل معروفٌ بالفُسوق، والمقتول معروفٌ بالصدق، والاستقامة، وكذلك أولياؤه، قال (فإن هذا قرينة تُغلِّبُ على الظن صدق المُدَّعِي)، وعلى هذا فتُجرَى فيه القسامة، وما قاله الشيخ ليس ببعيد.

كذلك الأمر الثاني بالعكس، لو أن شخصًا قتل إنسانًا، وقال: نعم، أنا قتلته، ولكن الرجل صال عليَّ، ولم يندفع إلا بقتله، فماذا أصنع؟ في المذهب: لا يُقبل قوله، ويُقتل أي: ما قتلته إلَّا دفاعًا عن نفسي، نقول له: هاتِ بيِّنة أنه صال عليك، وإلا قتلناك.

قال: لا يمكن أن آتي ببيِّنة؛ لأنه ما صال عليَّ أمام الناس، ولو يدري أن حوله أحد ما صال.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٢) ومسلم (٤٤٧/ ١٣٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: أخرجه البيهقي (٨/ ١٢٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٨٤).

نقول: إذنْ نقتلك، ويوم القيامة اختصما عند الله. هذا هو المذهب.

واختار الشيخ هنا أنه يُقبَلَ قول معروف، فإذا كان هذا الرجل مستقيمًا، هذا القاتل يقول: أنا قتلته، والمقتول معروفٌ بالفجور، والاعتداء على الخلق، فإنه يُقبل قولُه، ولكن يحلف تأكيدًا لقوله.

وما قاله الشيخ هو الصحيح، ولا يمكن العمل إلا به، أما قولهم: نقتلك، وحسابك عند الله، هذا فيه نظر، حتى لو وجدت قرينة تدل على صدق الرجل غير مسألة حال هذا، وحال هذا؛ يعني: مثلًا: لو وجِد المقتول في بيت القاتل؛ جاء ودخل عليه، أو انتهك حُرمة أهله، فهذا لا يندفع إلا بالقتل.

الكلام على قوله: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ يدل على أن المُنكِر مقبول القول ما لم يكن مُدَّعي ببيِّنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾:

١ - **في هذه الآية دليل على:** عظمة الله - سبحانه وتعالى - وأنه أعظم مكرًا ممن يمكرون به، فهؤلاء أرادوا المكر برسوله، ولكن الله - تعالى - مكر بهم بما هو أعظم.

٢ - **وفيها دليل على:** وصف الله - تعالى - بالمكر، لكنه ليس صفة كمال على الإطلاق، بل على سبيل التقييد، فيُقال مثلًا: هو ماكرٌ بمن يستحق المكر، أو ما أشبه ذلك مما يجعل المكر صفة كمال؛ لأن المكر ليس صفة كمال على الإطلاق، ولا بصفة نقصٍ على الإطلاق.

٣ - **وفي هذا دليل على:** أن الله - سبحانه وتعالى - قد يمكر بالعبد، فلا يشعر بمكره، ومن ذلك: استدراجُه إياه بالنعم؛ حيث يُسدِي إليه النِّعَم، وهو يُبارِز الله - تعالى - بالعصيان، ومن مكره به تلبيسُه عليه في الحكم، يُلبِّس عليه في الحكم، حتى يظن الباطل حقًّا، فيتمادى فيه، ولهذا من الدعاء أن يقول: اللهم أرِني الحق حقًّا، وارزقني اتباعه، وأرِني الباطل باطلًا، وارزقني اجتنابه، فالإنسان قد يكون لديه شُبهة، أو شهوة، شُبهة فلا يعرف الحق، أو شهوة لا يُريد الحق، بل يريد غيره.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

١ - **في هذه الآية فوائد منها:** الحث على الاعتبار، لقوله: ﴿فَانظُرْ﴾، والنظر، يكون بالقلب، ويُسمَّى نظر البصيرة، ويكون بالعين، ويُسمَّى نظر البصر، وكلاهما أمرٌ مطلوب إذا أدَّى إلى مطلوب، وأما إذا لم يُؤدِّ إلى مطلوب، بل أدَّى إلى العكس؛ مثل: أن يعتبر ويتبصَّر، ثم يتخذ من هذا النظر وسيلة إلى الطعن في حكمة الله - سبحانه وتعالى -، أو إلى وصف الله - تعالى - بالظلم، أو ما أشبه ذلك مما يقع من بعض الجاهلين، فإن هذا ضرره كبير - والعياذ بالله - لكن يجب أن ينظر

الإنسان بعين العقل والعدل، فبانتفاء العقل لا يعرف الإنسان، وبانتفاء العدل يظلم.

٢ - **ومن فوائد الآية**: أنه ينبغي في مقام التحذير استعمال أغلظ الألفاظ، وأشدها تأثيرًا، لقوله: ﴿دَمَّرْنَٰهُمْ﴾، ولم يقل: أهلكناهم، فإن التدمير أعظم وقعًا في النفس، والنفس تنفر منه أكثر، ولهذا قال: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾.

٣ - **وفي هذا دليل على**: أن العقوبات إنما تأتي بأسباب المرء؛ حيث جعل هذا التدمير عاقبة مكرهم، وهذا يدل عليه - أيضًا - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦] وقال-تعالى -في خصوص أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٥-٦٦]، من فوقهم من الثمار الطويلة، ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ من الزروع التي تحت الأرض.

٤ - **وفي هذا دليل على**: أن العقوبة تعم، ولكن كما قال رسول الله ﷺ «**يُبعَثُ النَّاسُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ**»[(١)]، فالعقوبة قد تعم، ولكن يُبعث الناس على أعمالهم، وهذا مُشاهَد، سواءً كانت العقوبة من الله؛ يعني: من فعل الله، أم من فعل العباد، يُسلِّط الله - تعالى - بعض العباد على بعض فيُدمِّر هذا المُتسلِّط على الصالح، والطالح، ولكن يُبعث الناس يوم القيامة على نياتهم، وأعمالهم، أو يُنزل الله - تعالى - كارثة من عنده؛ كالفيضانات، والرياح، وغيرها، فتُدمِّر الصالح، والطالح، ويوم القيامة يُبعثون على نياتهم، وإنما كان كذلك لحكمة عند الله - سبحانه وتعالى - لأجل أن يستقيم الناس على أمر الله؛ لأني أنا إذا علِمتُ أن المصيبة ستعم سأسعى إلى إزالة السيئة المُوجِبة للعقوبة، لكن لو نعلم أن العقوبة تخُص فاعل المعصية فقط ما استقام الأمر بالمعروف، ولا النهي عن المنكر، ولذلك يجب أن يكون خوف الإنسان من معاصي غيره كخوفه من معاصي نفسه؛ لأن العقوبة واحدة، إذا نزلت عمَّت، بل إن المعاصي كالدخان يصرع من شمَّه، وإن لم يكن في بيته، ولذلك معاصي الناس اليوم أثَّرت حتى على أهل الخير البعيدين منهم؛ يعني: أهل الخير لو سألتهم، وقلت: هل تجِدون في قلوبكم ما كنتم تجدونه قبل سنوات من الإنابة إلى الله، والخشوع، والخضوع، ومحبة الخير، لو سألتهم، لأجابوا: لا، الناس الذين ماتوا قبل ثلاثين سنة، أو أكثر هذا ما نظنهم سلِموا من هذا الفِكر، والذي يُوجد من الناس منذ ثلاثين سنة أصلح بكثير من اليوم، مع أن حالهم هي هي، تجد الإنسان مثلًا في مسجده إمامًا، ولم يلتفت للدنيا، ولم يشتغل بها، تجد الإنسان مثلًا في أهله ما يلتفت إلى أحد غيرهم، ومع ذلك تأثَّروا بالذنوب؛ لأن للمعاصي مفاسد

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧١٠٨) ومسلم (٨٤/ ٢٨٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

مهما كانت، ولكن مع هذا قد يأتي الله ـ تعالى ـ ببركان عظيم يُبدِّل هذه الأشياء، يُقيِّض الله ـ تعالى ـ للأمة الإسلامية طائفة منصورة ظاهرة فتُبدِّل كل هذا الأمر، ولهذا لابد من عمل، فالركود لا ينفع، والركود ليس فيه السلامة أبدًا، ولابد من العمل، ولكن على هدى مستقيم، وبحكمة بالغة؛ لأن الذي يضر الدعاة اليوم واحد من أمرين: إما جهلٌ، أو سفَه؛ يعني: إما أنه ليس عندهم علم بَيِّن راسخ، مثل الذين يتشددون في الأمور فتجدهم يُحرِّمون ما أحلَّ الله، ويُوجِبون ما لم يُوجِبه الله، وهذه مفسدة عظيمة، أو يكون عندهم سَفَه؛ يعني: ما يكون عندهم حكمة في الدعوة إلى الله، فيكون عندهم تصرُّف بعنف، أو تباطؤ في غير موضعه، ففي الأول: يحصل ردّ فعل عنيف من المدعُوِّين، وفي الثاني يحصل تنازل من المدعُوِّين يُفوِّت الفرصة على الدَّاعين، فلابد من العلم، والحكمة قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل:١٢٥].

ثم قال تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾:

لما قال: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ هذا عام مبهم، نصَّ على شيء معيَّن أن بيوتهم خاوية، إما خالية، وإما مُتهدِّمة مُدمَّرة، وهذا قد نقول: إن فيه فائدة، وهي:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** التبيين بعد الإجمال؛ لأن التبيين بعد الإجمال أوقع في النفس، فالشيء إذا جاء مُجملًا تتشوَّف النفس إلى بيانه، ومعرفته، فإذا جاء إليها مُبيَّنًا بعد إجمال صادف أرضًا يابسة تشرب الماء، لكن إذا بُيِّن من الأول مرَّ مرور الكِرام، وهذا دائمًا تجده في القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ ما هو هذا الأمر؟ ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** أن التدمير والإهلاك من أسباب الظلم، لقوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾؛ لأن الباء هنا للسببية

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الجزاء من جنس العمل.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس بظالم، ما دام لا يُعاقِب إلا بسبب ، فمعنى ذلك أنه مُنتفٍ عنه الظلم ـ سبحانه وتعالى ـ.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** التحذير من الظلم؛ لأننا إذا تبيَّنَّا أن التدمير من أسباب الظلم، معناه: أننا ننفر منه، ونهرب منه، ففيه التحذير من ممارسة الظلم، سواءً كان مُتعدِّيًا، أم لازمًا، أم سواءً كنت تظلم نفسك وحدها بالتقصير بواجب الله، أو بالظلم لغيرك أيضًا.

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** أن هذه الحوادث التي يُحدِثها الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ آيات من آياته تدل على كمال قدرته، وسلطانه، وعلى كمال عدله ـ أيضًا ـ، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾؛ أي: علامة على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وسلطانه، وعلى حكمته، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يفعل إلا بمُقتضى الفعل.

٧ - **ومنها:** الردُّ على من يُنكِرون الحكمة؛ مثل: الجهمية، فإن الجهمية يقولون: إنه لا حكمة لله - سبحانه وتعالى - في أفعاله، وخالفتهم المعتزلة تمامًا، وقالت: أفعاله مقرونة بالحكمة، والحكمة مُوجِبة، ولهذا قالوا: يجب عليه فعل الصلاح، وبعضهم قال: يجب عليه فعل الأصلح، وأما الجهمية فبالعكس، وهذا من المواضع التي اختلفت فيها الجهمية، والمعتزلة، وإن كانوا يشتركون في كثير من الأشياء، لكنهم يختلفون - أيضًا - في أشياء أخرى، منها: هذه المسألة؛ هل فعل الله لحكمة، أو لمُجرَّد المشيئة؟ الجهمية يقولون: لمُجرَّد المشيئة، والمعتزلة يقولون: لحكمة، لكن غلوا في إثبات الحكمة؛ حيث أوجبوا على الله - سبحانه وتعالى - فعل الأصلح، والصواب: أنه يجب على الله - تعالى - فعل الأصلح، لكن لا بإيجابنا نحن، ولكن بما اقتضت حكمته؛ لأن الحكمة تقتضي هكذا، الأشاعرة مثل الجهمية.

٨ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا ينتفع بالآيات إلا أولو العلم، لقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، أما من ليس من ذوي العلم فإنه يفوتهم شيء كثير، لا يعتبرون به، ولا يتعظون به، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٣]، والأمثال تشمل الأمثال المعقولة، والأمثال المحسوسة المُشاهَدة، فالله - تعالى - يضرب الأمثال المعقولة، ويضرب الأمثال المحسوسة،قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]، هذه من الأمثال المُشاهَدة المحسوسة ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾[العنكبوت: ٤١]، هذه من الأمثال المعقولة.

والحاصل: أن أهل العلم هم الذين يعقلون هذه الآيات، ويعتبرون بها، وينتفعون بها.

٩ - **ومن فوائد الآية:** فضيلة العلم.

١٠ - **ومن فوائد الآية:** الحث على العلم؛ لأنه إذا ثبت فضله، فمعنى ذلك: أن الله ذكره لنا لنتعلَّم، ولا شك أن العلم من أفضل ما أنعم الله به على العبد؛ يعني: ما بعد الإسلام نعمة مثل العلم، وأفضل من نعمة المال، وأفضل من نعمة قوة البدن، وأفضل من نعمة البنين، ولذلك تجد أن العلماء، الذين مثَّلوا العلم كانوا دعاة إلى الله، وكانوا علماء مِلَّة لا علماء دولة؛ لأن العلماء منهم علماء مِلَّة، يدعون إلى المِلَّة، والشريعة، ويغدون في أمر الله، ومنهم علماء دولة يدعون إلى ما تريده الدولة.

ونعلم أنه عندما ظهرت الاشتراكية صار أناس من أهل العلم في البلاد التي ظهرت فيها هذه البدعة صاروا يدعون إليها ويزعمون أن القرآن والسنة دلَّا إليها، ويأتون بالآيات الدالة على ذلك مثل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ﴾ [الروم: ٢٨]، يقولوا: أنتم سواء في الرزق وأنتم شركاء في ثلاثة، وهكذا، وهذا مرّ علينا مثل المحدثين أي: محدثين الدولة مثلما فعل غياث بن إبراهيم عندما دخل

على المهديّ وهو يلعب بالحمام فروى له هذا الحديث: «لَا سَبَقَ إلا فِي خُفٍّ أَوْ نَصْلٍ أَوْ حَافِرٍ»، وزاد فيه: «أو جناح»؛ إرضاء للمهدي(١).

فالحاصل: أن المراد بالعلم الممدوح هو العلم المُؤكِّد للعمل، والدعوة، والحقيقة أن مقام طلبة العلم ما هو مقام علم فقط، ويكون العلم في الصدور، إذا لم يكن هناك دعوة، أنتم الآن، وارثون للأنبياء، فالعلماء ورثة الأنبياء، ادعُ مثلما دعا الأنبياء إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ تعلَّم وادعُ ولا تبالِ، واعلم أنك ما قلتَ كلمةً تبتغي بها وجهَ الله إلا كان لها تأثير لابد، ونحن نضرب لكم مثالًا بقول موسى أمام السحرة، وأمام فرعون، وجنوده، وعامة أتباعه، قال للسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[طه: ٦١]، ماذا عملوا له؟ قال تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [طه: ٦٢]، وأخيرًا آمنوا بالله، أعلنوا إعلانًا كاملًا، وتصميمًا، وعزمًا ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[الشعراء: ٤٧ ، ٤٨]، فتوعَّدهم فرعون ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾[الشعراء: ٤٩] ماذا قالوا: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[طه: ٧٢].

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾:

١ ـ **في هذه الآية دليل على:** أن الإيمان والتقوى من أسباب النجاة؛ لأن قوله: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حكم مُعلَّقٌ بوصف، والحكم إذا عُلِّق بوصف دلّ ذلك على عِلِّية هذا الوصف، وتأثيره في الحكم، فيكون فيه دليل على أن الإيمان، والتقوى، وهي مُتضمنة للعمل الصالح من أسباب النجاة.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** الحثُّ على الإيمان، والتقوى؛ لأن كل إنسان عاقل ينبغي له أن يسلك أسباب النجاة، فيكون في الإخبار عن نجاتهم الحث على السبب الذي به نَجَوْا.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** بيان عدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ حيث أهلك مَنْ يستحق الإهلاك، وأنجى من يستحق النجاة، قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن صالحًا ومن معه كانوا مؤمنين مُتصفين بهذا الوصف: (الإيمان، والتقوى)؛ لأنهم هم الذين أُنجوا من هذه العقوبة.



---

(١) انظر لسان الميزان (٤/ ٤٢٢).

❁ قال الله تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤- ٥٨]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَلُوطًا﴾ قال المؤلف: : [منصوبٌ بـ (اذكر) مُقدَّرًا قبله] يعني: اذكر يا محمد لوطًا، وإنها ذُكِر بعد صالح، ودائمًا يُذكَر بعد صالح؛ لأن مدائن صالح، وقرى قوم لوط ليس بعيدًا بعضها من بعض، وليست مبذولة للناس لعهد النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾؛ ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلٌ من لوط، قال: كأن التقدير: واذكر إذ قال لوطٌ لقومه.

وقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، قال: [أي: اللواط] الهمزة هنا للاستفهام وللتوبيخ، والإنكار، وإن شئت زِد على ذلك التعجُّب.

وقوله: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، (أل) لاستغراق الجنس من حيث المعنى، لا من حيث الأفراد، لكن المعني: أن هذه أعظم فاحشة من نوعها، وهي أعظم من الزنا؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وهنا قال: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وهي ـ أيضًا ـ أعظم من نكاح ذوات المحارم؛ لأن الله قال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢]، ونكاح ذوات المحارم أعظم من الزنا؛ لأن الله وصفه بثلاثة أوصاف: فاحشة، ومقت، وسوء سبيل، والزنا وصفه بوصفين: فاحشة، وسوء سبيل، ولهذا، الصحيح أن من زنا بمحارمه يُقتَل، وإن لم يكن مُحصنًا؛ لأن هذه ـ والعياذ بالله ـ أعظم من الزنا، كذلك ـ أيضًا ـ اللُّواط، الصحيح أن فاعله يُقتَل ما دام بالغًا عاقلًا، وإن لم يكن مُحصَنًا.

وقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [أي: اللواط ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: يُبصِرُ بعضكم بعضًا انهماكًا في المعصية] يعني: أقبح من الحمير، يرى بعضهم بعضًا، يفعل الواحد بالثاني، ولهذا قال: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩].

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ من الإبصار بالعين؛ يعني: وأنتم تُبصِرون ، وكل إنسان له فطرة سليمة يكره هذا الشيء؛ لأنه سوف يركب مثله، ونفس هذا المركوب يُركب، ثم إن المكان هذا - أيضًا - ليس محلًّا لهذه الشهوة؛ لأنه مكان مُتلوِّثٌ بالأنجاس، فليس محلًّا له، فهو خبيثٌ في الفطرة، وفي الحس - أيضًا - ، ولكننا نقول: لو أننا فسَّرنا الإبصار الحسِّي بالعيني، والإبصار المعنوي بالقلبي لكان ذلك جائزًا، ففي الحقيقة أن رداءة هذا الشيء في القلب أمرٌ معلومٌ بالفطرة، وكونهم يفعلونه، ولا يُنكِر بعضهم على بعض، هذا أشد وأعظم.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي إدراك الغرض الذي من أجله أُرسِل الرسول؛ لأن الرسل كلهم كافة أُرسِلوا لتوحيد الله، لكن بعضهم يُبيِّن مع الأمر بعبادة الله أنه أُرسل لهذا الغرض، (ولوطًا) هنا بيَّن الله - تعالى - أنه أرسله لغرض انتساب قومه من هذه الفاحشة العظيمة، مع أنه لابد أنه قال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، لكن لما كانت هذه الفاحشة ظاهرة فيهم بيَّنها الله - تبارك وتعالى -.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن الرسل يُرسَلون إلى قومهم، لقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، ولم يُبعث أحدٌ إلى عموم الناس إلا رسول الله ﷺ.

٣ - **ومن فوائد الآية:** بيان عِظَم اللواط، وقُبحه، وأنه في قمم الفواحش، لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية:** بيان وجوب الإنكار على مَنْ أتى هذه الفاحشة، لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ﴾؛ لأن الهمزة هنا للاستفهام، والتوبيخ، ولا شك أنه يُنكِر عليهم، لكن بماذا يُعاقَب؟ في شريعتنا يُعاقَب بالقتل مطلقًا، سواءً كان مُحصنًا أم غير مُحصَن، وهذا هو ما دلّ عليه الحديث الذي في السنن وصحَّحه الحاكم وغيره من قول الرسول ﷺ: «**مَنْ وجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَومِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ، والمَفْعُولَ بِهِ**» وهو الذي أجمع عليه الصحابة، كما حكاه عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ، لكنهم اختلفوا كيف يُقتل؟ هل يُقتل بالرجم، أو بإلقائه من شاهق، وإلقائه بالحجارة، أو يُقتل بالسيف، أو يُقتل بالإحراق بالنار؟ المهم: أنهم اتفقوا على قتله، وتكون الكيفية هنا راجعة إلى الإمام، إذا رأى أقوى كيفية تردع عن هذا العمل الخبيث فإنه يقوم بفعلها وتقريرها.

٥ - **وفي الآية دليل على:** أن الفواحش تقبح بحسب ما يقترن بها، لقوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، فإن هذه الفاحشة مُنكَرة، ولكنهم إذا كانوا يفعلونها علنًا وجهرًا يُبصِر الناس بعضهم بعضًا فيها، صارت أقبح، وأعظم، ولهذا أتى بالجملة الحالية في قوله: ﴿وَأَنتُمْ

تُبْصِرُونَ ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ [بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين] فالقراءة - أيضًا - من أربع.

قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ هذا تفسيرٌ لقوله: ﴿الْفَاحِشَةَ﴾، وهنا الاستفهام للتقرير، ولكن أُكِّد هذا في الجملة التي قُرِنت بالاستفهام بـ (إنَّ)، واللام ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾، وهذا كقول إخوة يوسف ليوسف: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أي: أتُقرِّر أنك يوسف، وتُؤكِّد ذلك فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]، وفي جوابه لهم إهانة لهم؛ لأنهم هم طلبوا أن يؤكِّد لهم أنه يوسف، ما قال: إني لأنا يوسف، قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ إذن الاستفهام إذا تلاه التأكيد لا يخلفه عن معنى الاستفهام، وكأن المستفهم يطلب من المستفهم منه تأكيد الجملة، ولهذا في هذه المسألة الاستفهام للتقرير يقرر مع التأكيد ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ شهوةً تحتمل أن تكون مصدرًا في موضع الحال، ويحتمل أن تكون مفعولًا لأجله؛ أي: لأجل الشهوة، وعلى كل حال ففيها إنكار من جهة أنهم يأتون الرجال شهوةً، وليسوا أهلًا لها، ومن جهة أخرى أنهم يدَعون النساء، ولهذا قال: ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾، وهن محل الشهوة، فيكونون قد أساءوا فيما فعلوا، وفيما تركوا، ولهذا قال لهم في آية أخرى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٦]، وهذا أبلغ؛ يعني: لو أن المسألة ضُيِّقت ما بقي إلا هذا الطريق لكان أهون، لكن هنا تركوا محلًا مباحًا موافقًا للفطرة، تدَعونها وتذهبون إلى هذا، كالذي يدَع المُذكَّاة، ويأكل الميتة، وكالذي يدَعُ البيع الصحيح، ويذهب إلى الربا، ويقول: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فالحاصل: أن القبائح تزداد قُبحًا إذا كان لها بدائل من الحسنات، لأجل هذا قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف: ٨١].

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** قُبح فعل هؤلاء، وهذا مع الوجه الأول ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ قد يكون له وجه آخر وهو أنهم يأتون الرجال الذين ليس لهم حق في إتيانهم، ويدَعون النساء التي خلقهن الله لذلك، قوله تعالى: ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أن هذه الشهوة، إنما تصدر عن جهل، لا بمُقتضى الطبيعة، لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، كأنه قال: إتيانكم إياهم شهوة ليس له محل، ولكن الذي أوجب ذلك لكم أنكم قوم ذوو جهل؛ أي: سَفَه.

٣ - **ومن فوائد الآية:** بيان ما عليه هؤلاء القوم من المظهر الاجتماعي الفاسق؛ لأنهم إذا كانوا يأتون الرجال ما بقي منهم رجل في الحقيقة، صاروا كلهم بمنزلة النساء، إلا أنه إذا كبِر الإنسان

ارتفع عن أن يُفعَل به، وصار فاعلًا، فهم في حال الشباب مفعولٌ بهم، وفي حال الكِبَر فاعلون، ولهذا يُعتبر الانحطاط الاجتماعي في البشر من أخسِّ الانحطاطات.

٤ـ ومن فوائد الآية: أن هذه الفعلة من السَّفَه العظيم، لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، فأتى بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت، والاستمرار.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ﴿جَوَابَ﴾ خبر كان مُقدَّم، و ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾ اسمها مُؤخَّر، وهذه الجملة للحصر؛ يعني: ما كان جواب قومه أن ينقادوا، ولا أن يقفوا موقفًا سلبيًّا من دعوته؛ بحيث يتوقفون عن القبول، وعن المعارضة، بل كان جواب قومه ـ والعياذ بالله ـ اللجوء إلى القوة، وإلى العنف، إلى أن قالوا؛ أي: قال بعضهم لبعض ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ الفاعل يعود إلى أهل الحلّ والعقد في القرية.

وقوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أتى بهذا التعبير إشارة إلى أن لوطًا ليس منهم، وإنما هو حكومة طارئة على محل، فيجب أن يُنزَّه منه؛ لأن لوطًا أُرسل إلى أهل سدوم، وليس منهم، ولهذا قال: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني: الذين جاءوا، ووفدوا إليكم، وليسوا منكم ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ لم يقولوا: من القرية، بل قالوا: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ للإغراء بإخراجهم؛ يعني: كأنهم يقولون: هذه قريتكم، وهذا الرجل جاء عليها، ويريد أن يُناقضكم، وأن يقف ضدَّكم، أخرجوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ جملة تعليل لما سبقها من حكم، وهو الأمر بالإخراج، لأنهم أناسٌ يتطهَّرون من أدبار الرجال، فجعلوا علّة العقوبة ما هو من أسباب رفع العقوبة، فإن التطهُّر عن هذا حسن يقتضي المدح، والثناء الجميل على من تطهَّر منه، وهؤلاء جعلوه بالعكس؛ لأنهم ـ والعياذ بالله ـ إما زائغون يعرفون الحق، وما يعملون به، وإما ضالون يضِلُّوا عن الحق ـ نسأل الله العافية ـ، والغالب أنهم زائغون؛ لأن هذا معروف لدى البشر أن الطبيعة تنفر منه، ولا أحد يقبله.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ هل هم أرادوا الحقيقة، وأن هذا الفعل خبيث وأن هؤلاء يريدون التطهر، أو أراد أنهم يتطهَّرون بزعمهم، وأن هذا الفعل ليس نجِسًا، لكن هؤلاء يريدون أن يتطهَّروا منه؟

الأقرب: الأخير؛ لأنه هو مُقتضى حالهم أنهم رأوا هذا المنكر معروفًا، وهذه الفاحشة يسيرة، فتمسكوا بها.

وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أناس نكرة، والمنكر غير معروف، وكل هذا لقصد التباعد منهم، والإغراء بإخراجهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

قوله: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ لما عزموا على إخراجه أمره الله ـ تعالى ـ أن يخرج بأمر الله، فإن الله أمرهم أن يسري بأهله إلا امرأته كانت من الغابرين، فسرى بأمر الله، ولما بعُد عن القرية أهلك الله أهل القرية صباحًا ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، فأرسل الله عليهم حجارة من سجيل، فجعل عالِيَها سافِلَها، ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ الاستثناء متصل، أو منقطع؟ متصل فيكون في هذا دليل على أن المرأة من الأهل؛ لأن الإنسان يأهلها، ويأوي إليها، وكذلك هي بالنسبة إليه، فالزوجة من أهل الإنسان، كما أن أقاربه من أولاده، وآبائه هم ـ أيضًا ـ من الأهل.

قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: قدَّرنا عليها، ولهذا قال: [﴿جعلناها﴾ بتقديرنا ﴿مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب]، الغابر بمعنى: الباقي، فالمعنى: أنها هي بقيت، ولم يأت بها، فكانت ـ والعياذ بالله ـ من الهالكين، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، فإن هذه الخيانة ليست خيانة فرْجٍ، وعِرْضٍ، وإنما هي خيانة كفر؛ لأنهما أظهرتا أنهما مؤمنتان، وهما ليستا كذلك، فبهذا صارتا خائنتَيْن.

قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، [وهو حجارة من سجيل فأهلكتهم ﴿فَسَآءَ﴾ بئس ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ بالعذاب مطرُهم] في هذا دليل على أن المطر ليس خاصًّا بالماء، بل كلما قُذِف به الإنسان من فوق يُسمَّى مطرًا، ولهذا قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، والمطر الذي أصابهم ما قاله المؤلف: حجارة من سجيل، كما قال الله ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، هذه الحجارة أهلكت، وجعلت عالي القرية سافلَها؛ بمعنى: أنها تهدَّمت عليهم، حتى صار عالِيَها سافِلَها، وانهدم البناء فصار أعلاه أسفله، هذا هو الظاهر، وأما ما رُوي من أن جبريل حملها من الأرض السفلى، وأنه صعد بهم، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ونهيق حميرهم ثم قلبها، فإن هذا لا دليل عليه، لا من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله ﷺ، فالأقرب أن هذه الحجارة لما أصابت قريتهم صار عاليها سافلها.

وقوله تعالى: ﴿فَسَآءَ﴾ [بئس]، إذنْ ساء فعل ماض، مجرد عن الزمن، وإنما هو يفيد الذم.

قوله تعالى: ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، قال: [بالعذاب مطرُهم] نقول في إعرابها: ساء فعل ماض، و﴿مَطَرُ﴾ فاعل، وهو مضاف إلى ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: مطرُهم، وهذا المخصوص أحيانًا يتقدَّم، وأحيانًا يأتي بدله اسم موصول يُجعَل بدلًا أو يُجعَل تمييزًا يكون بدل هذا المخصوص.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

يَتَطَهَّرُونَ ﴾.

١ - **يُستفاد من هذه الآية:** بيان عُتوِّ هؤلاء المُكذِّبين للوط عليه السلام، وأنهم لم يقتصروا على رد دعوته، بل اتفقوا على أن يُخرجوه من البلد.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي عند الدعوة إلى الشيء أن يقرِن الداعي دعوته بما يُغري المدعُوِّين، ويُؤلِّفهم، ويُقوِّيهم، يؤخذ من قوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾، ومن قوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، ولم يقولوا: من القرية.

٣ - **ومن فوائد الآية:** استعمال الداعي لما يُغرِي المدعو؛ لأن قوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ هذه تُوجِب الحمِيَّة، والعصبية، حتى يخرجوا، كأنهم قالوا: هذه القرية لكم أخرِجوا هذا الرجل، وكذلك في قوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني: هؤلاء ليسوا منكم.

٤ - **ومن فوائد الآية:** قَرْن الحكم بالسبب، لقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ وهذا سبب قولهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أن قول البعض إذا رضِيَه الباقون، فهو للجميع، لقوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾، ومن المعلوم أن هذا القول ليس للجميع؛ لأنهم يقولون: ﴿أَخْرِجُوٓا۟﴾، فهو يُخاطِب بعضهم بعضًا، ولكن الكلمة إذا جاءت من بعض القوم، ورضِيَ الآخرون، فإنها تُنسَبُ إليهم، ولهذا يُخاطِبُ الله اليهود في عهد النبي ﷺ بما فعل أسلافُهم، وفي سورة البقرة كثير من ذلك، كما قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٥٣]، وموسى الذي أوتي الكتاب والفرقان هل جاء لهؤلاء، أو لأسلافهم؟ لأسلافهم، وكذلك قال: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢]، والذين اتخذوا العجل ما هم هؤلاء، لكن هؤلاء راضون، وفعل بعض القوم، أو القبيلة إذا رضِيَ الآخرون، فهو للجميع، ولكن إذا أكره أحد على ذلك فالعبرة بالأشراف.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

١- **يُستفاد من هذه الآية:** بيان أن الله - تعالى - كامل العدل؛ حيث أنجى لوطًا، وأهله.

٢- **ومن فوائد الآية:** أنه مَنْ أتى بأسباب الهلاك هلك، وإن كان بين قوم صالحين، لقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية:** بيان سبق التقدير للحوادث، أي أن تقدير الله - تعالى - سابقٌ على أفعاله، لقوله: ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ أي: جعلناها بتقديرنا السابق.

٤ - **ومن فوائد الآية:** أن المرء يُعذَر بما لا يعلم، فإن لوطًا كان لا يعلم عن امرأته شيئًا أنها كافرة، والدليل على أنه لا يعلم قوله - تعالى - في سورة التحريم: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، وإلا لما كان لنبي أن يُبقي

تحته امرأة كافرة، إلا أنه إذا كان لا يعلم، فهو معذور.

٥ - ومن فوائد الآية: أنه لا يُنجِي من عذاب الله الاتصال بأهل الصلاح، فلا يقول مثلًا الإنسان: أنا أخي صالح، أو ولي، أو ما أشبه ذلك، فهو يعصمني من عذاب الله، فهذه امرأة لوط لم ينفعها أنها امرأة نبي، ولهذا قال الله - تعالى -: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، ونوح - عليه الصلاة والسلام - له ابن كافر، قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]، فقال الله - تعالى -: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، والنبي ﷺ قال لابنته فاطمة: «يا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ! لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١)، فالمهم أن هذه الفائدة هي: ألَّا يغترَّ الإنسان بقُربه من أهل الخير، والصلاح، فيقولَ: إنني سأنجو بهذا القُرب؛ لأن الله - تبارك وتعالى - لا يُحابي أحدًا، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾:

١ - يُستفاد من هذه الآية: أن الله - سبحانه وتعالى - يُعذِّب كل إنسان بذنبه، كما قال الله - تعالى -: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، فهنا يقول: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، ووجه المناسبة من العقوبة للجريمة: أن هذا المطر جعل عاليَ بلادهم سافِلَها، كما أن أولئك سفلوا بأخلاقهم، حتى كانوا يستعملون هذه الفاحشة، ويذرون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم، وهذا لا شك انقلابٌ في فِطَرِهم، ولذلك عوقِبوا بهذه الجريمة - والعياذ بالله -.

٢ - ومن فوائد الآية: الثناء على الفعل بما يستحقُّه من الثناء؛ حيث قال: فساء مطرُ المنذرين، وهنا نُورِد إشكالًا، وهو أن هذا المطر من الله - سبحانه وتعالى - والثناء عليه بالقُبح، والشر لا يُنافي قول الرسول ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(٢) وكيف الجمع؟

نقول: لا يُنافيه، والجمع: أن هذا السوء ليس في فعل الله، ولكنه في مفعوله، فهذا المطر هو الذي حُكِم عليه بالسوء ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، ولكن فعل الله فإنه ليس بشرٍّ، بل إنه من كمال العدل، والقوة، والسلطان؛ حيث عاقب المجرمين بما يستحقون، وعقوبة المُجرِم بما يستحق لا شك أنها ليست ظلمًا، وليست بسيئة، ولا يُحكَم على فاعلها بالسوء، فتبيَّن بهذا أنه لا يُنافي قول الرسول ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ».

٣ - ومن فوائد الآية: أن هؤلاء الذين أهلكهم الله قد قامت عليهم الحُجَّة، هذه تؤخذ من قوله: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾، أي أن هؤلاء أُنذِروا بالعذاب، فقامت عليهم الحُجَّة، والله - سبحانه وتعالى -

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٧٧١) ومسلم (٣٥١/ ٢٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠١/ ٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

يقول في القرآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، فما عذَّب الله أمة من الأمم إلا بعد قيام الحُجَّة عليهم، ولولا ذلك لكانت الحُجَّة على الله، قال الله - تعالى -: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، فلا أحد له حُجَّة على ربه؛ لأن الحُجَّة قد قامت بما ركَّب الله - تبارك وتعالى - في فِطَر الناس من محبة الخير، وعبادة الله - سبحانه وتعالى - وأيَّد ذلك بالأنبياء، والرسل الذين أتوا بالبينات الظاهرات، فلم يبق للإنسان حُجَّة؛ لأن الدليل الباطني، والدليل الظاهري موجود فيهم، فالدليل الباطني: الفطرة ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم: ٣٠]، والدليل الخارجي: الرسل الذين جاءوا بالكتاب، وبالآيات البيِّنات، فقد قال ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أُوتِيَ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ البَشَرُ»، فبهذا نقول: إن هؤلاء الذين أهلكهم الله - وهم قوم لوط - كانوا قد أُنذِروا بالعذاب، ولهذا قال: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

مسألة: ما الفرق بين المُنذِرين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]، وبين المنذَرين في هذه الآية؟

الجواب: المُنذِر: مَنْ أتى بالإنذار، أو مَنْ أنذَر، والمُنذَر: مَنْ أُقيمت عليه الحُجَّة.



قال الله تعالى:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ
٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠]

التفسير

قوله: ﴿قُلِ﴾ قال المؤلف: [يا محمد ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على هلاك الكفار من الأمم الخالية] الأمر للنبي ﷺ، أو لكل من يمكن أن يُوجَّه إليه من العُقلاء.

وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أطلق هنا ما يُحمَد عليه، فهو أعم مما قاله المؤلف، وإن كان السياق يقتضي ما قاله المؤلف، لكنه ينبغي أن يُؤخذ بالعموم، ويكون من جملة ما يُحمَد عليه إهلاك الكفار؛ لأنه دالٌّ على عدله بإهلاك هؤلاء، وعلى فضله بالأنبياء، والمؤمنين؛ حيث أخذ أعداءهم، ولكنه يقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ هذا عام، يُحمَد على كامل أوصافه، وعلى أحاسن أفعاله، فأفعاله كلها حُسنى، وصفاته كلها كاملة، فيُحمَد على هذا، وعلى هذا، فيكون إهلاك كفار الأمم من جملة ما يُحمَد عليه، وهذا هو السر في أن الله - تعالى - لم يقل: قل الحمد لله على هذا، ولكنه قال: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ ليكون الله - تبارك

وتعالى ـ محمودًا على كل حال، ومن جملة ما يُحمَد عليه إهلاك المُكذِّبين للرسل.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ قال: [هم]، هذا المفعول قدَّره المؤلف، هل هو داخل في ضمن المقول؛ يعني: قل: الحمد لله، وقل: سلام على عباده الذين اصطفى، فيكون الإنسان مأمورًا بحمد الله، وبالدعاء لعباد الله الذين اصطفاهم، لقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، أو هي جملة مستقلة خبر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأنه سلَّم من اصطفاه، وأنجاه؟

فيه احتمال للأمرين، لكن أيهما أقرب إلى السياق؟

الجواب: لا نُرجِّح أحد الاحتمالَين؛ لأن لكل منهما وجهًا، فالإنسان مأمور بأن يحمد الله، مأمور بأن يُسلِّم على عباد الله، وكذلك ـ أيضًا ـ الله ـ تبارك وتعالى ـ محمود على كمال صفاته، ثم إخباره بأنه سلَّم هؤلاء، هذا ـ أيضًا ـ مما يُحمَد عليه؛ لأن زوال النِّقَم كجلب النِّعَم، ويكون في هذا فائدة، وهي: أن العباد الذين اصطفاهم الله قد أحلَّ عليهم السلام، فلا ينالهم ما نال هؤلاء الكفار، ويكون الله محمودًا على الأمرين، على إهلاك الكفار، وعلى تسليم عباده الذين اصطفى.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ بمعنى: اختارهم، والله ـ تبارك وتعالى ـ يخلق ما يشاء، ويختار، يختار ما يخلق، ويصطفي، فمن جملة مَنِ اختار مِنْ بني آدم: اختار الأنبياء، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧]، واختار ـ أيضًا ـ المؤمنين، فإن المؤمنين بالنسبة للكفار مُصطفَون، والأنبياء صفوة الصفوة، والاصطفاء كغيره من الصفات التي تكون متفاوتة بحسب ما قام به العبد من أسباب الصفة، فكلما كان الإنسان أقوم بعبادة الله، وأشد تعظيمًا لله ـ سبحانه وتعالى ـ كان أشد اصطفاءً.

وقوله: ﴿آللهُ﴾ [بتحقيق الهمزتين ﴿أألله﴾، وإبدال الثانية ألفًا ﴿آلله﴾، وتسهيلها ﴿ألله﴾، وإدخال ألف بين المُسهَّلة، والأخرى]، التسهيل فيه صفتان يدخل بينهما ألف بين الهمزة والمسهلة، ويترك، فصارت القراءات أربع.

ثم قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾. [لمن يعبده ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالتاء، والياء؛ أي: أهل مكة به، الآلهة خير لعابديها]، خصَّه المؤلف بخيريته لمن يعبده، والصواب: أنها خيرية مطلقة لمن يعبده ـ وهذا يقتضي الإحسان ـ ولكماله ـ وهذا يقتضي العظمة ـ فهنا ما يعبده فقط، بل ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ في كل صفاته، وفي إحسانه، وعطائه؛ لأن الآية مطلقة، فيجب إطلاقها، وإطلاقها واضح حتمًا من تقييدها؛ لأنه مثلًا قد يكون هذا خيرًا لمن يتعامل معهم، لكنه ليس فيه الخيرية المطلقة، مثل هذا الرجل يتعامل مع شخص، فإذا عامله أعطاه فوق ما يستحق، لكنه في الصفات الأخرى رديء، ويأتي آخر جيد، وخيرٌ في صفاته الأخرى، لكن إذا تعامل معه ربما لا يُعطيه ما يستحق، فيكون الأول خيرًا من الثاني، ومع ذلك، فهو ناقص.

فقول المؤلف: [﴿خَيْرٌ﴾ لمن يعبده] هذا فيه نظر، أولًا: لتقييده لمطلق بلا دليل، الثاني: أن هذا التقييد لا يقتضي الأفضلية، ولذلك يجب أن يُقال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ في كل شيء، في صفاته، وفي ثوابه، وجزائه لمن يعبده.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: أم الذي يُشرِكونه مع الله من الأصنام، وغيرها؟ والجواب: بل الله خير، ولهذا ينبغي لك إذا قرأت هذه الآية أن تقول: بل الله، وهذه المعادلة لا تقتضي المقاربة، أو المُماثلة، فإنه قد يُفاضَل بين الشيئين مع خلو الطرف الثاني منهما، قال الله - تعالى - : ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، مع أنه ليس في مُستقر النار خير، وليس فيها حُسْنُ مَقِيل، بل إنهم يُفاضِلون بين أمرين مُتعاكِسَيْن، فيُقال مثلًا: الشتاء أشد من الصيف، أو يقول بعضهم: الشتاء أبرد من الصيف، مع أن الصيف ليس فيه برودة.

فالحاصل: أن هذا لا يقتضي المُماثلة، أو المُساواة، ولكن هل يقتضي النقص؟

نقول: نعم، يقتضي النقص؛ لأنه يُوهِم المشاركة إلا في مقام التنزُّل فلا يقتضي المُشاركة، يقول الشاعر:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الـسَّيْفَ يَـنْقُصُ قَـدْرُهُ ... إِذَا قِيلَ: إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ العَـصَا

لكن عند التنزُّل لا يدل على النقص، فهذه الأصنام التي يُشرَك بها مع الله يُريد منها عابدوها أن تنفعهم بجلب النفع، أو دفع الضرر، فنقول لهم: أيهما فيه خير؛ هذه أم الله؟ من باب التنزُّل مع الخصم؛ لأن هؤلاء يدَّعون أن في آلهتهم خيرًا، فيُقال لهم: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: على زعمكم، وإن كان ليس فيها خير إطلاقًا.

وقوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أم هذه متصلة، أو منقطعة؟ وما الفرق بين المتصل، والمنقطع؟

المتصل معناه: أن تكون بين متعادلَين، وأما المنقطع: أن تكون بين متباينَيْن؛ لأن الثاني منقطع عن الأول، وهذا متصل به، فإذا صارت بين متعادلَين فإنها تُسمَّى متصلة.

وأيضًا فرق آخر لفظي يفصل: أن المتصلة يسبقها همزة الاستفهام، أزيدٌ قائمٌ أم عمرو؟ فيُذكر فيها المُعادِل، وتسبقها الهمزة تحقيقًا، أو تقديرًا.

وأما المنقطعة فلا تُدخل بين المُتعادلَين، ولا يلزم منها أن يكون قبلها همزة، هذه الآن قبلها همزة ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾، وهي أيضًا بين مُتعادلَين.

قال المؤلف: [﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالتاء، والياء] يعني: ﴿أَمَّا تُشرِكون﴾، أو قوله تعالى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال المؤلف: [أي أهل مكة به، الآلهة خير لعابديها] ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾ قدرها المؤلف مرة ثانية، [فيه التفات من الغيبة إلى التكلُّم ﴿بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة وهو البستان المحوط ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حسن ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ لعدم قدرتكم عليه].

قول المؤلف: [الآلهة خير لعابديها]، واضح، وعلى هذا فتكون أم - أيضًا - متصلة، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ﴾ بمعنى: أوجد بتقدير؛ لأن الخلق لابد أن يسبقه تقدير، والإيجاد أعم منه، قد يُوجِد الإنسان الشيء بلا تقدير، ولكن الخلق لابد فيه من تقدير.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بعضهم يقول: السماوات ليست مفعولًا به، وإنما يُقال: مفعولًا مطلقًا، وليست مفعولًا به؛ لأن المفعول به يقتضي أن يكون ما وقع عليه الفعل سابقًا على الفعل، وهنا السماوات ليست سابقة على خلقها، وعلى هذا فقل: إنها مفعول مطلق.

لكن هذا في الحقيقة من الفلسفة التي ليس لها معنى؛ لأن ﴿خَلَقَ﴾ تعني أوجد السماوات، فالفعل واقع على الإيجاد، وإن كانت السماوات قبل الإيجاد ليست موجودة، هم يقولون: المفعول به لابد أن يكون سابقًا على الفعل، ضربتُ زيدًا، فزيد سابق على الضرب، أكلتُ الطعام، الطعام سابق على الأكل، صنعتُ الطعام، حوَّلته من حال إلى حال - أيضًا - سابق على الطعام، لكن خلق السماوات نقول: سابق على الخلق؟ لا، إذنْ ليس هي مفعولًا به؛ لأنه ما يقع عليها فعل الفاعل، إذ لم توجد إلا بفعل الفاعل، فخلق معناها يدل على الإيجاد، والإيجاد سابق على الموجود.

قال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والسماوات تُذكَر بلفظ الإفراد، والجمع وقع كثيرًا في القرآن، والأرض ما ذُكِرت إلا بلفظ الإفراد، إلا أن الله قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، وإلا فبقية الآيات، وحتى في هذه الآية ما ذُكِرت إلا مفردة، ولم يقل: والأراضين، لكنها، وردت في السنة مجموعة، ومُبيَّن أنها سبع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ماءً هذه مفعول مطلق، أو مفعول به؟ مفعولٌ به.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ اللام للتعليل، أو للإباحة، ولكنها للتعليل أبلغ؛ لأنها إذا كانت للتعليل شملت الإباحة، وشملت ما يكون به النفع من هذا الماء، وإن لم يلامسه.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ المراد بالسماء هنا: العلو، والدليل على ذلك: أن هذا الماء ينزل من السحاب، وقد قال الله - تعالى -: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فدلَّ هذا على أن المراد بالسماء هنا: العلو.

وقوله: ﴿مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾، قال: [فيه التفاتٌ من الغيبة إلى التكلُّم]، وما الغَيْبَةُ؟ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ﴾، وهنا قال: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾، والالتفات فيه فوائد منها:

أن الكلام إذا سار على وتيرة واحدة أدى إلى الملل، ففي الالتفات التنبيه.

قال المؤلف: [أآلهة خيرٌ لعابديها ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟]، والجواب: بل من خلق السماوات، والأرض، فهو خيرٌ.

وقوله: [أآلهة خيرٌ لعابديها] نقول فيها مثل ما قلنا في قوله: [خيرٌ لمن يعبدون]الخيرية هنا

مطلقة إذا صحَّ تقدير المؤلف؛ لأنه قد يقول قائل: إن قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ للإضراب، وليست للمُقارنة؛ يعني:، يكون السؤال استفهامًا مطلقًا؛ يعني يقول: من الذي خلق السماوات، والأرض؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، فيكون قوله: ﴿أَمَّنْ﴾ هذه للإضراب، وليست مُتعلِّقة بما سبق، فيصير تقدير الآية: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، فيكون استفهامنا ليس للمُعادلة، أما المؤلف فجعل الاستفهام للمُعادلة: [آلهة خير لعابديها ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾]، وقد تقدَّم الكلام عليها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ﴾.

قال: [حدائق جمع: حديقة، وهو البستان المُحوَّط] يعني: الذي عليه حائط، ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [حُسن] والبهجة بمعنى: الحُسن؛ لأنه يبتهج بها القلب، وينشرح بها الصدر، وهذا أمرٌ معلومٌ لاسيَّما لعُشَّاق الحدائق، وإلا فبعض الناس ما يهمُّه الحديقة سواءٌ كان فيها ما يبهج، أو لا، ولكن عُشَّاق الحدائق يجدون لذَّةً عظيمة في مثل هذه الحدائق التي فيها هذا النبات العظيم.

قال الله - تعالى -: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ ما كان بمعنى: ممتنع غاية الامتناع، وهي نظير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] أي: ممتنعٌ عليه، فـ ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾؛ أي ما صحَّ لكم، وما أمكن لكم أن تُنبِتوا شجرها، [لعدم قُدرتكم على ذلك]، ليس في مقدوركم أن تُنبِتوا هذا الشجر، فإذا قال مُجادِل: بل في مقدوري أن آتي بعدس، وآتي بحبٍّ، وأحرِث الأرض، وأضعه فيها، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤] أنت فعلتَ السبب، لكن هل خلقتَ هذا؟ هل خلقتَ الحبَّ، والنوى؟ أبدًا، وإذا جادل مُجادِلٌ بمثل ذلك، قلنا له مثل ما قال إبراهيم للذي قال: أنا أُحيِي، وأُميت، قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، نقول: إذا كنت تقدر أن تفعل هذا، فهذه الشمس تأتي من المشرق، فأْتِ بها من المغرب.

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ﴾، قال المؤلف: [بتحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية، وإدخال ألف بينهما على الوجهين في مواضعه السبعة] يعني: في الآيات الآتية.

﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [أعانه على ذلك]، أو انفرد بشيء منه، فالمعية هنا تقتضي المُعاوَنة إذا كان مُصاحِبًا له، أو الانفراد ببعض الخلق إذا كان غير مُصاحِبٍ له، فهذه الحديقة مثلًا فيها نخل، ورمان، وعنب؛ هل مع الله إلهٌ شارَكه في إيجاد النخل، والرمان، والعنب، أو أوجَدَ النخل، والله أوجد الرمان، والعنب، وما أشبه ذلك، إذنْ قول المؤلف: [أعانه] ينبغي أن يُقال: أو انفرد بشيء منها؛ لأن الله يقول: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا الانفراد، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ هذه المُشاركة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن

ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، هذه المُعاونة، وإن لم يكن شريكًا، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ هذا التوسُّل، فلا يمكن أن يتعلَّق به المُشركون بالنسبة لأصنامهم فنفاه في هذه الآية، انظر إلى الترابط في القرآن!

أولًا: الانفراد، في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ثانيًا: المُشاركة على وجه الشيوع، في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

ثالثًا: المعاونة بدون مُشاركة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ما عاونه أحد.

رابعًا: التوسُّط للعابدين إلى الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ فبأي شيء يتعلَّقون؟

فالحاصل: أن قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أعانه، نقول ـ أيضًا ـ: أو انفرد بشيء، أو شارك في مُلكه، ليس معه إله آخر.

وقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يقول: [أي: ليس معه إله] فالاستفهام إذنْ إنكاري للنفي؛ يعني: ليس مع الله إلهٌ فعل ذلك، فالمعبودات التي تعبدونها مع الله لم تفعل ذلك، إذنْ فالواجب إفراد الله ـ تعالى ـ بالألوهية، فعليه تكون الحُجَّة قد قامت على هؤلاء بما أقرُّوا به من الربوبية، وهذا كثيرًا ما يستدل الله ـ تبارك وتعالى ـ بتوحيد الربوبية على وجوب توحيد الألوهية،قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، فقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا﴾ توحيد ألوهية، وقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمُ﴾ هذا ربوبية.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، قال: [يُشركون بالله غيرَه]، ﴿بَلْ﴾ هذه للإضراب الانتقالي؛ يعني: بل هم مُقرُّون بذلك، وأنه لا إله مع الله، ولكنهم يعدِلون به غيرَه، فيُشرِكون، فصار فعلهم هذا ليس عن دليل، بل لمُجرَّد هوى، وإن كانوا مُقِرُّون بأن الله ـ تعالى ـ لا شريك له في خلق السماوات، والأرض، وإنزال المطر، وإنبات النبات به، وإنما يعدِلون بالله غيرَه فيُشرِكونه مع الله لمُجرَّد أهوائهم، أما أنه عن دليل عقلي، أو فِطري، أو نقلي فليس كذلك.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

١ ـ **يُستفاد من هذه الآية:** وجوب حمد الله، لقوله: ﴿قُلِ﴾، والأصل في الأمر الوجوب، والله ـ تعالى ـ يُحمَد على كمال صفاته، وأفعاله، وهنا: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على الأمرين جميعًا، ومن جملة ما يُحمَد عليه أنه أهلك هؤلاء المُنذَرين الذين كذَّبوا الرسول، ولهذا تخصيص المؤلف بقوله: [على هؤلاء الكفار]تقدَّم التنبيه عليه، وأن هذا تخصيصٌ للآية، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فيُحمَد الله ـ تعالى ـ على كمال صفاته، وأفعاله، وحمدُه واجب.

مسألة: الحمد هل هو الثناء أم غيره؟

الجواب: بعض الناس يقول: الحمد هو وصف الله بالجميل، وهذا غير صحيح، وإنما الحمد هو: وصف المحمود بالكمال، ثم إن كُرِّر صار ثناءً، ودليلنا على هذا: قوله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي، وبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فإذا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال الله: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»[1]، فدلَّ هذا على أن الحمد ليس الثناء.

وحمد الله واجب شرعًا وعقلًا؛ لأن العقل يقتضي أن يوصف الله بالكمال.

٢ ـ ومن فوائد الآية: أن إهلاك الله للأمم صفة كمال ينبغي أن يُحمَد عليه،وهذا الإهلاك للمستحقين - طبعًا - ولا يعذب الله إلا مستحقًا للعذاب، وعلى هذا إذا أُصيب هؤلاء الكفار بالكوارث، من الزلازل، والفيضانات، والأوبئة، فما موقفنا نحن من ذلك؟ هل نترحَّم لهم، ونأوي لهم؟ لا، لكن بعض الناس الجُهَّال في وقتنا هذا تَجِدهم يتأوَّهون لهم، ويتوجَّعون لهم، ويعطِفون عليهم، ويرحمونهم، وهذا خلاف العقل، وخلاف النقل، بل إننا إذا أوقع الله بهم ما يُوقِع من عقوباته فإننا نقول: الحمد لله، نحمدُ الله على ذلك؛ لأن إهلاكهم مصلحة للإسلام، والمسلمين، ما من فرد يزيد في الكفار إلا ويزدادون به قوة على المسلمين، فإذْنْ إهلاكُهم نعمة من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ علينا أن نحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليها، ولا يُنافي هذا أن نعطِف مثلًا على القُصَّار منهم؛ لأن هؤلاء لا ذنب لهم، مثلًا لو فرضنا أن قرية أُهلِكَت، وبقي أيتامُها، وهم كفار، فإنه لا مانع مثلًا من أن نتصدَّق عليهم؛ لأن هؤلاء لا ذنب لهم، ولا جريمة لهم، وربما يعيشون في الإسلام فيما بعد، ، إنما هؤلاء المُكذِّبون المُجرِمون إذا أهلكهم الله، فإن الواجب علينا أن نحمد الله، لا أن نترحَّم لهم، ونرِقَّ لهم، وهذا خلاف ما عليه بعض الناس اليوم الذين فقدوا الغيرة الدينية، ولم يكن في قلوبهم الولاء والبراء؛ لأن كثيرًا من الناس فقدوا الولاء والبراء، وبعض الناس فقد البراء فقط، ومعه الولاء، لكنه، وليٌّ لكل أحد، وبعض الناس برئ من كل أحد لا يحب المسلمين، ولا الكفار، ولكن هذا نادر، إنما الكثير في وقتنا هذا هو الولاء للجميع، وأنه لا يُبغِضُ أحدًا، فالمسألة إنسانية فقط ليست دينية، وهذا خطأ، وخطر ـ أيضًا ـ ، مع كونه خطأً، فهو خطر؛ لأن من أوثق عُرى الإيمان: الحبُّ في الله، والبُغض في الله[2].

٣ ـ ومن فوائد الآية: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ له أن يتمدَّح بنفسه، ويدعو الناس إلى ذلك، أما غيره فليس من اللائق أن الإنسان يقول للناس: احمدوني، واثنوا عليَّ، ومعلوم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ لأنه أهل لذلك، ولأن المصلحة لنا، والله ـ تعالى ـ لا ينتفع بطاعة الطائعين، ولا يتضرَّر

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٨/ ٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير (١١٥٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٣٩).

بمعصية العاصين.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الذين اصطفاهم الله قد برئوا مما يُلصَق بهم، لقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، فإن هذا السلام يتضمَّن سلامتهم مما وصِفوا به، وقُدِح فيهم به، ويتضمَّن ـ أيضًا ـ سلامتهم من عقوبة الله، فالسلامة هنا شاملة، السلامة مما يتعلَّق بفعل الله كالعقوبة، أو بفعل الخلق؛ كالقدح.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يصطفي من عباده من يشاء، فيختارهم لعبادته، لقوله: ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾؛ أي: اختار، لكن من الذين يختارهم؟ هم الذين قاموا بطاعته، فمن قام بطاعة الله اصطفاه الله، ومن عصا الله، فهو بعيدٌ من الاصطفاء.

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** قيام الأفعال الاختيارية بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، فإن الاصطفاء من الأفعال، والله ـ تبارك وتعالى ـ قائمٌ به الأفعال الاختيارية.

٧ ـ **ومن فوائد الآية:** حكمة الله ـ تعالى ـ لتعليق الأحكام بأسبابها، فإن السلامة هنا مُعلَّقة على الاصطفاء، وهكذا أحكام الله الكونية، والقدرية كلها مربوطة بأسبابها، وذلك لثبوت الحكمة في أحكام الله؛ إذ إن الله ـ تعالى ـ لا يفعل شيئًا إلا لحكمة.

٨ ـ **ومن فوائد الآية:** الثناء على المُصطفَيْن لسلامتهم.

٩ ـ **ومن فوائد الآية:** أن ما جاءت به الرسل فإنه ليس فيه نقص، سواءٌ كان ذلك في الأحكام الشرعية، أو في الأخبار، فما أخبرَت به الرسل، فهو حق، ليس فيه كذِب، وما أمرت به، أو نهت عنه، فهو عدلٌ ليس فيه جورٌ، ولا ظلمٌ؛ لأن قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أول من يدخل فيه: الرسل، ولهذا يقول الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في سورة الصافات: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]، فسلَّم على الرسل لسلامة ما قالوه من النقص، والعيب.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية:** أن من قام بما يجب عليه من الاجتهاد فأخطأ، فلا إثم عليه، لقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، فإذا اجتهد الإنسان في طلب الحق، وتحرَّى الحق، وأخطأ، فلا إثم عليه في هذا الخطأ؛ لأنه ما دام مُتحرِّيًا للحق، وطالبًا له، وفاعلًا لأسبابه، فهو من العباد المُصطفَين، فإذا حصل عليه خلل، فهو سالمٌ مما يكون بهذا الخطأ، وهذا يشهد له قول الرسول ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ، وإِذَا حَكَمَ فَأَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ»(١).

وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١١ ـ **وفيه دليل على:** جواز المُقارنة بين ما هو خيرٌ محض، وما لا خير فيه؛ مراعاةً للخصم،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري(٩٧) ومسلم (٢٤١/ ١٥٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وإقامة للحُجَّة عليه، فإن من المعلوم أن الله خيرٌ مما يُشرِكون، ولا مُقارنة بينه وبينهم، لكنه يُخاطِب قومًا مُشركين إن كانت القراءة بالتاء، أو يتحدَّث عن قوم مُشركين، فلهذا راعَى أحوالهم، فقال: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

١٢- ومن فوائد الآية: بيان إلزام الخصم بما لا يمكنه إنكاره، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

١٣ - وفيها - أيضًا -: جواز المُقارنة بين شيئين لا يتشابهان في المعنى من أجل إقامة الحُجَّة، لقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وذلك؛ لأن ما يُشرِكون به مع الله ليس فيه خيرٌ إطلاقًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ [غافر: ٢٠]، ما قال: لا يقضون بالحق، بل قال: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾؛ يعني: ما لهم أي سلطة إطلاقًا.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ يَعۡدِلُونَ﴾:

١ - من فوائد هذه الآية: أن من أساليب المناظرة إلزام الخصم بما يُقِرُّ به؛ لأن هؤلاء لا يمكن أن يقولوا: إن آلهتهم خير أبدًا، ولهذا عقَّبها بقوله: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾ إلى آخره مما هو من أفعال الربوبية التي لا يمكن لهم أن يدَّعوا أن آلهتهم تفعلها، فإذنْ تقرير الحكم، أو إلزام الخصم بما يُقِرُّ به هذا من أساليب المناظرة.

٢ - ومن فوائد الآية: عدل الله - سبحانه وتعالى - في إقامة الحُجَّة على المُعانِدين؛ لأنه إذا وصلت الحال إلى هذا الأمر إلى أن يقول لهم: آلله خيرٌ أم أصنامُكم؟ فهذا في غاية ما يكون من العدل، وإقامة الحُجَّة، وإلا فالله قادرٌ على أن يدَع هؤلاء، ويُبيِّن الحق، ولا حاجة إلى مُناظرة، ولكن لإقامة الحُجَّة على هؤلاء، ولكمال العدل فيما لو عُوقِبوا أن يكون عقوبتهم بعد إقامة الحُجَّة صار مثل هذا الكلام.

٣ - ومن فوائد الآية: أن لله - سبحانه وتعالى - الخيرية المُطلقة في كل شيء، خلافًا لما مشى عليه المؤلف؛ حيث قال: [لمن يعبده]، والصواب: آلله خيرٌ في كل شيء، في صفاته، وفي أفعاله المُتعلِّقة بعابديه.

٤ - ومن فوائد الآية: بيان انفراد الله - تعالى - بخلق السماوات والأرض، لقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، وخلق السماوات، والأرض يتضمَّن إيجادهما، وإيجاد ما فيهما من المنافع، فلا أحد يستطيع أن يُغيِّر شيئًا من خلق السماوات، والأرض، لا من الشمس، ولا من القمر، ولا من النجوم، ولا من غيرها.

٥ - ومن فوائد الآية: ما تضمَّنته هذه المخلوقات من منافع الخلق.

٦ـ **ومن فوائد الآية:** بيان حكمة الله ـ تعالى ـ من إنزال المطر من فوق، لقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لأن نزوله من السماء أعم، وأقل ضررًا؛ إذ لو كان يأتي من الأرض ما وصل إلى قمم الجبال إلا وقد أغرق ما تحتها، ولهذا ينزل من فوق ليكون أشمل، وأعم وأقل ضررًا.

٧ـ **ومن فوائد الآية:** بيان رحمة الله، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لأن اللام هنا للتعليل أي: لأجلكم، وهذا من رحمته ـ تعالى ـ؛ لأنه غنيٌّ عنا، ولكن نحن مُفتقِرون إليه.

٨ـ **ومن فوائد الآية:** أن الأشياء ينبغي أن تُضاف إلى المُسبِّب، لا إلى السبب، لقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾، فأضاف الإنبات إلى الله مع أن النبات يحصل بالمطر، ولكن المُنزِل هو الله، ولهذا ينبغي للإنسان أن يُضيف الشيء إلى المُسبِّب الخالق مُشيرًا إلى السبب، كما يقول العلماء عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: هدى الله به من الضلالة، وأنقذ به من الهلاك، وبصَّر به من العمى، وما أشبه ذلك، فأضاف الشيء إلى المُسبِّب بالإشارة إلى بيان السبب.

٩ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات الأسباب، لقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾؛ لأن الباء للسببية، وإثبات الأسباب يتضمَّن إثبات الحكمة؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ربط الأسباب بمُسبِّباتها، وهذا من الحكمة.

١٠ـ **ومن فوائد الآية:** التنزُّه في الحدائق، والابتهاج بها، لقوله: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾، وأن الإنسان لا يُلام لو أنه مثلًا نظر إلى ما أخرج الله من المطر في هذه الحدائق، والبساتين، فإنه لا يُلامُ على ذلك، بل هذا من فضول الكلام، فإن النفس إذا لم تُمرَّن على هذا، وهذا فإنها تملُّ، وتكِلُّ، ولا تأتي بالأمور على وجهها، والناس ـ أيضًا ـ يختلفون في هذا؛ منهم من يكون من ضروريات الحياة له أن يتنزَّه أحيانًا، ومنهم من لا يهتم بذلك، ومنهم من يجعل ديدنَه دائمًا التنزُّه، واللهو، واللعب، فيُعرِض عمَّا خُلِق له.

فالحاصل: أننا نقول: إن قوله تعالى: ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ في سياق الامتنان يدل على أنه لا مانع أن الإنسان يرتاد هذه الحدائق لأجل أن يبتهج بها، لكن بشرط ألَّا تشغله عن ذكر الله، وطاعته، وعما هو أهم من ذلك.

١١ـ **ومن فوائد الآية:** أن الخلق لا يُمكنهم أن يَخْلُقوا، ولا شجرة، لقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾؛ لأن ما كان؛ بمعنى: لا يمكن، ولا يصح، فهو من المستحيل، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖ﴾ [مريم: ٣٥]، فالخلق مع قدرتهم الصناعية لا يمكن أن يخلقوا شجرة، ولا شجيرة صغيرة، وإلى الآن، وإلى ما بعد الآن لا يمكنهم ذلك، كما أنهم لا يمكن أن يُبقُوا إنسانًا، ولا يمكن أن يمنعوا خروج نفسه عند خروجها.

فإذا قال قائل: يعالجون المرضى المزمنين ثم يشفون فما تفسير ذلك؟

الجواب: هذا لا يعدو أن يكون سببًا فإذا حان الأجل بطل السبب، ونحن لا ننكر الأسباب ولكن ننكر كون هذه الأسباب موجبة لمشيئة الله لكنها قد تفيد وقد يوجد مانع أقوى منها.

١٢- ومن فوائد الآية: تحدِّي هؤلاء المُتخذين آلهة مع الله أن يكون لآلهتهم شيءٌ من هذا، لقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن هذا تحدٍّ عظيم، ولا يستطيعون أن يُثبتوا ذلك.

١٣- ومن فوائد الآية: إقامة الحُجَّة على سفه هؤلاء المُشركين، لقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾؛ يعني: يعدِلون بالله غيرَه، وليس المراد العدل الذي هو ضد الظلم، إذا كان هذا هو المراد لكان هؤلاء ممدوحين مُثنًى عليهم، ولكن المراد: يعدِلون بالله غيرَه، فيجعلونه عديلًا لله - سبحانه وتعالى -.

١٤- ومن فوائد الآية: ما أشرنا إليه كثيرًا من أن الكلمات ليس لها معنى ذاتي، بل معناها يُحدِّده السياق، وأن كلمة ﴿يَعْدِلُونَ﴾ لو كان له معنى ذاتي، لكانت هنا بمعنى: لا يجورون؛ لأن مفهوم هذا الفعل أن العدل بمعنى: إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه، والأمر هنا ليس كذلك، بل هذا ظلم أن يعدِلوا بالله غيرَه، وبهذا التقرير الذي قرَّرناه يتبيَّن رُجحان كلام شيخ الإسلام ابن تيمية؛ حيث قال: (إنه ليس في اللغة مجاز)، والمسألة فيها ثلاثة أقوال:

إثبات المجاز في اللغة والقرآن، ونفيُه فيهما، وإثباتُه في اللغة دون القرآن، والصواب: أنه لا مجاز، لا في اللغة، ولا في القرآن، وأن كلَّ ما ادُّعِيَ أنه مجاز، فإنه حقيقة في موضعه(١).



قال الله تعالى:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]

التفسير

قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ على تقدير المؤلف نقول: آلهة خير ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾؟ جعل فعل ماضٍ ينصِب مفعولَين: الأول ﴿ٱلْأَرْضَ﴾، والثاني ﴿قَرَارًا﴾، قوله تعالى: ﴿قَرَارًا﴾ قال: [لا تميدُ بأهلها]، فهذا ما أحد يستطيع أن يجعل الأرض قرارًا لاسيًما، وأنها مُركَّبة على الماء، والماء مُحيطٌ بها من كل جانب، ولو أنك وضعتَ كرةً في ماءٍ؛ هل تستقرُّ، أم لا؟ تتقلَّب، وتتموَّج، ولكن الله - تبارك وتعالى - جعل هذه الأرض كرةً في وسط الماء؛ لأن البحار تُمثِّل تقريبًا ثلاثة أرباع اليابسة، ومع هذا فإنها مُنضبطة تمامًا، لا تميدُ ولا تتقدَّم إلى ناحية، ولا تتأخَّر عنها، ولا تتدحرج في هذا الماء، فجعلها الله - تعالى - قرارًا، والقرار موضع الاستقرار.

---

(١) هذا الرأي فيه نظر لعلماء العربية.

وقوله: ﴿قَرَارًا﴾ استدل به مَن يقول: إن الأرض تدور، ومن يقول: إن الأرض لا تدور.

الذي يقول: إن الأرض لا تدور، يقول: لأنها مع الدوران ليست في قرار، ولو كانت تدور لاستدارت، والذي يقول: إنها تدور يقول: لولا أن هناك حركة ما مادت المَيَدان، فنفي الأخص يقتضي وجود الأعم؛ مثلما أنكم استدللتم بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ على أن الله يُرى؛ لأنه لو كان لا يُرى، ما صحَّ أن يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ولقال: لا تراه، فهنا ألقى في الأرض رواسي أن تميد، لولا وجود الحركة ما صحَّ أن يكون هناك مَيَدان؛ لأن ما لا يتحرَّك لا يُتوقَّع منه المَيَدان، وإنما يُتوقَّع المَيَدان بما يتحرَّك، وعلى هذا فنقول: إن هذه الآيات دليل على أن الأرض تدور.

والذين يقولون: لا تدور يقولون: إن نفي المَيَدان صحيح يدل على حركة، لكن هل هو يدل على حركة موجودة بالفعل، أو يدل على حركة مُتوقَّعة؟ بمعنى: أنه لولا هذه الجبال لكانت تضطرب؛ حيث إنها في الماء، ولكن لما وجدت هذه الجبال أمسكته، وكانت لها رواسي بمنزلة أطناب الخيمة، في الحقيقة أن هذا الأخير ردٌّ واضح على الأول، وأنه لا يلزم من مجرد الحركة الدوران، نقول: نعم، هي يمكن أن تتحرَّك، ولولا هذه الجبال لمادت؛ لأن محلها في ماء، فَكُرةٌ في ماء لابد أن تتحرَّك، وهذا الماء العظيم التي تضربه الرياح لابد أن يكون فيه أمواج عظيمة مثل البحار ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ [النور: ٤٠]، هذه الأمواج العظيمة إذا ضربت الأرض لولا وجود الجبال المُرسِية لمادت على كلِّ حال؛ لأن هذه الأمواج ليست هيِّنة.

فالحاصل: أن الآية ليس فيها ما يُقرِّر أن الأرض تدور، بل فيها ما يقرر أن الأرض لا شك أنها تضطرب لولا وجود هذه الجبال.

ثم يبقى الأمر الآن، مسألة الدوران تبقى لا دليل عليها من القرآن، ولا دليل ينفيها، فإذا ثبت ذلك بالأدلة البيِّنة فإننا نؤمن به؛ لأن الإنسان المؤمن لا يمكن أن يُنكِر المحسوس، بل إذا أنكر المحسوس كان ذلك طعنًا في فهمه، وفي تصوُّره، وما دام أنه ليس في القرآن ما ينفي ذلك، وما لا يُثبته، فما موقفنا نحن؟ موقفنا الوقوف، حتى يتبيَّن لنا الأمر، فمن زعم أن الأمر قد تبيَّن له، وهو من المسلمين، وقال: أنا أعتقد ذلك؛ ليس عندنا دليل، نُنكِر عليه.

ومن قال: ما يتبيَّن لي، والحمد لله، حسبُنا أن نقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، وكونها تدور، أو لا تدور، هذا لا يعنينا، يعنينا الآن أن المصالح مُركَّبة على تعاقب الليل، والنهار، قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

أما أن هذا التعاقُب، يكون بدوران الأرض، أو بدوران الشمس، فهذا لا يعنينا.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾؛ أي: [لا تميدُ بأهلها]، والمَيَدان معناه: الاضطراب، فما

أحد جعل الأرض قرارًا إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا يستطيع أحد أن يقوم بذلك، ولهذا إذا جاءت الزلازل هل يمكن هؤلاء بجميع قواهم أن يمنعوا رجَّة الأرض؟ لا، ما يستطيعون؛ بل، ولا يعلمون متى تكون هذه، إلا إذا ظهرت توابعُها، ولو خفيَّة تُعلَم بالآلات الدقيقة علِموا بذلك، فإذنْ لا أحد يستطيع أن يجعل الأرض قرارًا بأهلها إلا خالق الأرض، وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ ما معنى خلالها؟ قال: [فيما بينها] ﴿أَنْهَٰرًا﴾ ظاهرة على ظهر الأرض، وأنهارًا باطنة في جوف الأرض، وأن الله ـ تعالى ـ أخبر بأن هذا المطر يسلُكُه الله ينابيع في الأرض، هذا شيء مشاهد، فالذين يحفرون الأرض يجدون أن فيها أنهارًا تجري يرونها عيونًا، تجري في داخل الأرض، وتصُبُّ حيث أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ فمن يُجْرِي خلال الأرض هذه الأنهار؟ ليس إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولو اجتمعت الأمة كلها بجميع قواها، وقُدَرها على أن تُجرِي نهرًا واحدًا من هذه الأنهار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، فالذي جعل هذه الأنهار رحمةً بالعباد هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾، قال المؤلف: [جِبالًا أثبت بها الأرض]، قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي: صيَّر لها ﴿رَوَٰسِىَ﴾ فواعل جمع فاعل، وكأن المؤلف هنا يُشير إلى أن راسي بمعنى: مُرسِي، وفرق بين الراسي، والمُرسِي، والراسي، يعني بنفسه، والمُرسِي بغيره، هذه الجبال يُعبِّر الله عنها في آيات عديدة أنها رواسي، وقال في سورة النازعات: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢]؛ هل: أرسى الأرض بها، أو أرسى الجبال أثبتها؟ كلا المعنيين، فإذا هي رواسٍ بنفسها، وهي ـ أيضًا ـ مُرسِية، ولهذا سمَّاها الله أوتادًا ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧] بمنزلة أوتاد الخيمة تُمسكها، وتربطها، هذه الجبال راسية بنفسها، ولذلك أمام العواصف، والقواصف تجدها ثابتة ما تتحرَّك، فهي راسية، وكذلك ـ أيضًا ـ مُرسية للأرض، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٦]، فهي راسيةٌ مُرسِية، إذنْ من الذي جعل هذه الرواسي؟ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولو اجتمعت الخلائق كلها على أن تُزلزل جبلًا من هذه الجبال الكبيرة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، دلَّ ذلك على أنه لا إله مع الله، كما يأتي في تفسيره في آخر الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾، قال المؤلف: [بين العذب، والمِلح، لا يختلط أحدهما بالآخر]، وقوله تعالى: ﴿حَاجِزًا﴾ أي: مانعًا، والمراد بالبحرين: العذب، والمِلْح، ثم كيف هذا الحاجز؟ بعضهم قال: إن الحاجز هو اليابس من الأرض الذي يحول بين البحر، وبين النهر؛ لأن البحر له منفذ خاص، والنهر له منفذ خاص، ولو شاء الله ـ تعالى ـ لمزَجَهما، ولكن جعل لهذا مجاريَه، ولهذا مجاريَه.

وبعضهم يقول: إنه حاجز غير مرئيٍّ، وأنه يوجد في نفس البحار أنهار عذبة حلوة، ومع ذلك

لا تختلط بالمِلْح؛ لأنها لو اختلطت بالمالح لفسد الهواء، وأوجد احمرارًا، كما يوجد الآن في المُستنقعات التي تأتي من السيول، إذا أتت يتعلَّق بها الجو، والهواء، ويتولَّد منها أشياء كثيرة مُؤذِية ضارة، بينما البحار العظيمة ما يؤثر فيها هذا، بما أودع الله ـ تعالى ـ فيها من هذا المِلْح الذي يقتل الجراثيم، ويمنع فساد الهواء، ولو اختلطت هذه بهذه أفسد كل منهما الآخر، لكنه جعل بينهما حاجزًا، المهم: هل هذا الحاجز أمرٌ محسوسٌ، وهو اليابس من الأرض الذي يكون بين هذا، وهذا، أو هو حاجز غير محسوس، كما نُشاهد الأنهار التي في وسط البحار؟

لنا أن نقول بالأمرين؛ حاجز محسوسٌ، وحاجزٌ غير محسوس.

وقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الجواب: لا إله مع الله، والاستفهام هنا للإنكار، والتوبيخ.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: الأمر واضح، وبيِّن، لكن أكثر هؤلاء لا يعلمون، وقول المؤلف: [توحيده] فيه قُصور، والصواب: أنه نفيٌ للعلم مطلقًا، لا بتوحيد الله، ولا بما تدل عليه هذه الآية العظيمة من الرحمة، والحكمة، والقدرة، والسلطان فتخصيص هذا بالتوحيد، فيه نظر.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يُفهم منه أن بعضهم يعلم، ولكنه مُهان، وجاحد، وأيهما أشد لومًا، وتوبيخًا؟ من علِمَ، وجحد، فهو أشد لومًا، وتوبيخًا، ثم اعلم أن نفي العلم قد يُراد به نفيُ حقيقة العلم؛ بحيث لا يكون الإنسان عالمًا، وقد يُراد به نفيُ الانتفاع به، فإن من لا ينتفع بعلمه، فهو كالجاهل بل أشد، وفي القرآن أمثلة كثيرة يُراد بنفي الشيء نفيُ فائدته، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، وقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، مع أن أعينهم صحيحة، وآذانهم قوية جدًّا، ولكنهم من أجل عدم إدراك هذه الأشياء صاروا كالفاقدين لها، فهنا نأتي للعلم، إن كان المراد به نفيُ وجود العلم فالأمر ظاهر، فإن بعض الناس لا يُفسِّر.

الفوائد:

١ ـ **يُستفاد منها:** نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على العباد بجعل الأرض قرارًا، مع أن الأصل أن تكون مائدةً، واستدل بها بعضهم على أن الأرض تدور؛ لأن كونها قرارًا مع عدم الدوران لا يتبيَّن فيه تمام القدرة، والنعمة، وإنما يتبيَّن ذلك بما إذا كانت دائرة، وهذه الفائدة غير مُسلَّمة؛ لأننا نقول: لا يلزم من المَيَدان الدوران، فحقيقة أنها لولا أن الله جعلها قرارًا لكانت تميد بأهلها، وأما أنه يلزم أن تدور، فليس بلازم، إذنْ ففيها الفائدة الأولى فقط.

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** ما أنعم الله به على العباد من هذه الأنهار المُتخلِّلة بالأرض ظاهرًا، وباطنًا، لقوله: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** ما أنعم الله به بهذه الرواسي التي هي الجبال، التي هي راسيةٌ بنفسها،

مُرسِيةٌ للأرض - أيضًا - ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾، وفي سورة فصلت قال: ﴿رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ [فصلت: ١٠]، قال أهل العلم البيولوجيون: إن كون هذه الرواسي من فوق لا من باطن الأرض فيه فوائد عظيمة: فوائد للطقس، وفوائد للنبات، وفوائد للمعادن، إلى غير ذلك مما هو معلوم عند أهل العلم بذلك؛ يعني: يقولون: أن تكون الجبال المُرسِية للأرض من فوقها دون أن تكون من أسفل فيه فوائد كثيرة، وأنت إذا نظرتَ إلى سلاسل الجبال التي على البحار عرفت بها قدر هذه النعمة العظيمة، لاسيَّما ما يأتي من الجهات الباردة؛ حيث هذه الرواسي تصُدُّ هبوب الرياح الباردة، المهم: أن فيها فوائد عظيمة لكونها من فوق الأرض، ولكن هذا لم يُذكَر هنا، وإنما ذُكِر في سورة فصلت.

٤ - **ومن فوائد الآية:** بيان قدرة الله عز وجل؛ حيث جعل بين البحرين حاجزًا، والبحران هما: العذب، والمالح، وهذا الحاجز هل هو مشهودٌ، أو مذكور؟

الجواب: فيه احتمال، بل إننا نقول: عام، يشمل المشهود، والمذكور، وإن لم يُشهَد، فإن هذه الأنهار جعل الله بينها وبين البحار حواجز طبيعية كالأرض، وحواجز غير معلومة، لكنها مذكورة، فإن في جوف البحار المالحة أنهارًا عذبة، وعيونًا عذبة.

٥ - **ومن فوائد الآية:** بيان قدرة الله، ومنَّته - أيضًا - ، لجعل الحاجز بين هذين البحرين؛ لأنه لو اختلط ماء بعضهما ببعض، لأفسد أحدهما الآخر، وضاعت منافعهما.

٦ - **ومن فوائد الآية:** أن أكثر الخلق لا يعلمون ما في هذه الآيات من العِبَر، ثم إن نفي العلم قد يكون نفيًا لأصله، وقد، يكون لثمرته، وفائدته، والأمر كله واقع، فإن من الناس من ليس عنده علم أصلًا، ولا يُفكِّر في هذه الآيات، ويرى أنها ظواهر طبيعية، وليس لله - تعالى - فيها أي شأن، ومنهم من يعلم، ولكن لا ينتفع.



قال الله تعالى:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٢ - ٦٣]

التفسير (١)

قوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع، الأكثر أن الجمع يكون في رياح الرحمة، والإفراد في ريح العذاب، إلا إذا وصِفت الريح المفردة بما يدل على أنها ريح خير، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]، ثم إن الرياح بالنسبة للفلك ليست من مصلحة أهلها؛ لأن الرياح إذا اختلفت على الفلك ما مشت، لاسيَّما الفلك الأول، فإن الفلك الأول يمشي على الهواء السفن الشراعية، فإذا اختلفت عليه الأهوية تعوَّق، ولكن إذا كانت ريحًا واحدة صار ذلك أحسن، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢]، المهم: أن الرياح، إنما تُقال في الغالب في رياح الرحمة، وفي الإفراد في ريح العذاب، هذا الغالب، وقال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦]، وأمثال ذلك.

وقال العلماء: ومن الحكمة في هذا أن الريح إذا كان مهبُّها واحدًا صارت أصلب؛ إذ لا يُقابلها شيءٌ من الرياح، حتى يشكر حِدَّتها، فلهذا كانت تأتي دائمًا في مقام العذاب.

وقوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الجواب: لا إله معه، وكل هذا تقريرٌ لألوهية الله ـ سبحانه وتعالى ـ التي يُنكِرُها المُشركون.

وقوله تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿تَعَٰلَى﴾ بمعنى: علا بتنزُّهٍ؛ لأن معنى ﴿تَعَٰلَى﴾ مُشتمل لمعنى: ترفَّع عن هذا الشيء، مع علوِّه، فهو عالٍ بتنزُّهٍ عما يُشركون، عن هذه الأصنام التي يجعلونها مع الله شريكًا في العبادة أم في الربوبية؟ في العبادة، أما في الربوبية فهم يُقرُّون أن هذه الأصنام ليس لها أبدًا شأنٌ في الربوبية، ولكنهم ـ والعياذ بالله ـ يعبدونها مع الله، ومنهم من يُصرِّح بأنه يعبدها لتُقرِّبه إلى الله، كما قال الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، فهم مُعترفون بأن عبادتها ليست عبادة مقصودة لذاتها، بل هي مقصودة لغيرها لتُوصِلهم إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [به غيره]، عام في كل شرك، وعام في كل مُشرَك به، فالله ـ تعالى ـ مُتعالٍ عن كل شرك، وعن كل مُشرَك مهما عظُم قدره.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ

---

(١) هذا ما توفر من تفسير لهاتين الآيتين.

مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾:

١ ـ **يستفاد من هذه الآية:** قدرة الله سبحانه وتعالى؛ لأن قوله تعالى: ﴿يُجِيبُ﴾ يشمل كل ما تتطلبه الضرورة من قليل أو كثير؛ فيكون في ذلك دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى وأنه تعالى يُجيب دعوة المضطرين.

٢ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** بيان سعة رحمة الله تعالى، وأن رحمته سبقت غضبه؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ يشمل الكافر والمؤمن؛ وأنه سبحانه وتعالى أطلق ولم يُقيد؛ وأنه لا فرق بين أن يكون المُضطرُّ مؤمنًا أو كافرًا، ويُؤخذ هذا من العموم وعدم التقييد؛ لأنه ما قُيِّد بالمسلم، بل أطلق وعمَّم. وأن المُضطر مُجاب الدعوة مُطلقًا.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** أن إجابة المُضطر المتحتمة مشروطة بما إذا دعاه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، وأما إذا لم يدعه فقد يجيب ضرورته، وقد لا يجيبها؛ لأن المضطر قد لا يدعو الله استغناءً بما عنده من الأمور المادية عن دعاء الله – سبحانه وتعالى – فيستكبر عن دعائه، وحينئذٍ لا تكشف ضرورته.

فالمهم: أن إجابة المضطر هنا، اشترط الله أن يكون داعيًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي إقامة الحجة على الخصم بما يعترف به؛ لأن إجابة المضطر يُقِرُّ بها هؤلاء المُكذِّبون؛ كيف ذلك؟ هم إذا ركِبوا في الفلك، وأصابتهم الضراء والأمواج، لا يدعون إلا الله، فهم عند الضرورة لا يدعون إلا الله، فإذا كنتم تعرفون أنكم لا تدعون إلا الله عند الضرورة؛ فكيف تعبدون غيره عند السعة والسراء.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** شمول رحمة الله ـ تعالى ـ بكشف السوء، سواءً دُعِي بذلك أم لم يُدعَ، لقوله: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، وكم من سوء كشفه الله ـ تعالى ـ عن خلقه بدعاء، وبغير دعاء، وضرورة، وغير ضرورة، وقد أوردنا فيما سبق أنه قد يقول قائل: هذا الطبيب يُعالِج المريض فيبرأ؛ فيكون كشفًا للسوء، وأجبنا عن هذا بأنه فعلٌ للسبب، وليس كشفًا للسوء؛ بدليل أنه قد يُعالِجه بما برأ به غيره من نفس المرض، ولا يبرأ، لأن الكاشف للسوء هو الله، وما للعباد إلا فعل الأسباب فقط.

٦ـ **ومن فوائد الآية:** منة الله – تعالى – على عباده بكشف السوء أي: إزالته عن الجميع؛ ولهذا ما قال: عن المضطر؛ بل قال: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فحذف متعلّقة، والظاهر عند أهل العلم: أن حذف متعلّقة يُفيد العموم فمعناه: يكشف السوء عن كل أحد.

٧ـ **ومن فوائد الآية:** أنه يجب على المرء ألّا يلتفت في كشف السوء إلا إلى الله؛ لأنه لا يكشف السوء إلا الله سبحانه وتعالى؛ فلهذا يجب عليك ألا تعلق هذا الأمر إلا بربك الذي

هو قادر على كشفه، وتعلقك بغيره خذلان لك، فمن تعلق بشيء وُكِلَ إليه، ولكن هل هذا الكلام يُنافي فعل الأسباب؟

الجواب: لا يُنافيها؛ لأنه إن كان يعتقد أن السبب وحده هو الفاعل لذاته فإنه يُنافي ما ذكرنا، وإن كان يعتقد أن السبب هو الفاعل ولكن بتقدير الله؛ فهذا من التعلق بالله - سبحانه وتعالى -؛ لأنه لا يُنافي إذا توكلت عليه واعتمدت عليه، أن تفعل من الأسباب ما جعله الله سببًا.

والإنسان يرجو من الله تعالى دخول الجنة، والنجاة من النار، ومع هذا يسعى في الأسباب، يرجو من الله تعالى الأولاد، ومع ذلك يفعل الأسباب، فالمهم أن فعل السبب، إن لم يعتقد أن السبب فاعل بذاته؛ فإنه لا يُنافي التوكل ولا التعلق بالله، ولا يُنافي كمال التوكل أيضًا.

٨ - ومن فوائد الآية: بيان قدرة الله، ونعمته؛ أن جعل الناس على أهل الأرض خلفاء، يخلُف بعضهم بعضًا؛ وإلا أنقطعت الخليقة، وانقطعت النفس؛ أو بقيت الخليقة أزمنةً مُتطاولة، وتعاقبت عليها الأحداث، وتوالت عليها الأمور، وحينئذٍ يكون فيها سأمٌ وملل؛ يعني: لولا هذه الخلافة للزِمَهم أحد أمرين:

الأول: انقطاع الخليقة؛ يعني: ما تستمر بأن يخلُف بعضها بعضًا.

الثاني: وإما أن تبقى الخليفة دائمًا، وحينئذٍ يكون التعب والسأم والملل، وقد جاء في ذلك قول الشاعر:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ، وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلاً لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمُ

وقال آخر:

إِنَّ الثَّمَانِينَ، وبُلِّغتَهَا قَدْ ... أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تُرْجُمَانِ

ففي الحقيقة أن طول الزمان بالإنسان يُضعِفه، ويُلحِقه السأم والملل، ثم هو لا يزال يتذكَّر الأحداث التي تتعاقب، وحينئذٍ يرجع ولا يكون عنده قرار نفسي ولا فِكري، لذلك كان من قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن رحمته ـ أيضًا ـ، أن جعلنا خلفاء يخلُف بعضنا بعضًا.

١٠ ـ ومن فوائدها: أنه مهما ظهرت القرائن والبراهين؛ فإن كثيرًا من الناس لا يتعظ بها، لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:٤٢] وأن كثيرًا من الناس لا يتذكر مع وجود ما به التذكر، وأن من المتعظين أيضًا ما يكون اتعاظه قليلًا، والتذكر بمعنى: الاتعاظ، لأن الإنسان يَذَّكر فينتفع بذكره.

١١ ـ ومن فوائدها أيضًا: أن الدعاء من أسباب إزالة الضرر، لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، وهذا أمرٌ مُجرَّبٌ، ومُشاهَد، لاسيَّما الأدعية التي جاءت بها السنة، فإنها خير وبركة ولها ثمرة ظاهرة.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ

رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾:

١ - **يُستفاد منها:** بيان نعمة الله - سبحانه وتعالى - على الخلق بالهداية في ظلمات البر والبحر، وهذه الهداية هل هي بعلامات أم بإلهام؟ بكلا الأمرين، قد تكون بعلامات وهو الأكثر، وقد تكون بالإلهام، قال تعالى حاكيًا عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢]؛ لأنه ما يعرف -عليه السلام- شيئًا؛ فهداه الله- سبحانه وتعالى -، ولهذا يستعمل بعض العلماء هذه الآية إذا ضاع بالبر أو حتى بالبلد، ولا يهتدي إلى أحدٍ يُرشده على الطريق فيتلو هذه الآية: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو دعاء مناسب.

٢ - **ويُستفاد من هذه الآية:** أنه يجب على الإنسان أن يعتمد على الله في الهداية إلى الطريق الحسي، كما يعتمد عليه في الطريق المعنوي، فكما أنك تقول: رب اغفر لي وارحمني واهدني، هذه هداية معنوية، كذلك أيضًا اعتمد على ربك في الهداية الحسية، ولا تعتمد على الأسباب.

٣ - **ويُستفاد من هذه الآية:** بيان آية الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الرياح وأنها مُسخرة مُدبرة، وليست هي التي تهُبُّ بطبيعتها، بل هي مُسخَّرة مُدبَّرة.

٤ - **ويُستفاد من هذه الآية:** أن الشيء الواحد قد يكون خيرًا، وقد يكون شرًّا بحسب آثاره ونتائجه، فالرياح هنا بُشرًا بين يدي رحمته، وعلى عاد ونحوهم عذاب، قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، والكل من فعله ـ تبارك وتعالى ـ، فحينئذٍ يرِد علينا إشكال: هل الله ـ تعالى ـ يفعل السوء؟

فالجواب: السوء بالمفعول، وأما بالنسبة لفعل الله فإنه ليس بسوء؛ لأنه صادر عن حكمة، وقد مرَّ علينا في أول الآيات أن انتقام الله من المُجرمين فهي نعمة وكمال يُحمَد عليه، لأنه لما ذكر عقوبة قوم لوط قال: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

٥ - **ويُستفاد من هذه الآية:** أن المطر من رحمة الله، لقوله: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾، وهو من باب إطلاق الصفة على آثارها، فالمطر ليس رحمة الله، ولكنه آثار من آثار الرحمة، والله ـ تعالى ـ يُطلق الرحمة على ما كان من آثارها، قال تعالى عن الجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»(١).

٦ - **ومما يُستفاد من الآية:** أن فيها دليلًا على أن الرياح سبب لنزول الأمطار، لقوله: ﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾، وقال ـ تعالى ـ في آية أخرى صريحة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨]، وهذا دليل، واضح على أن الرياح هي التي تُثير السحاب بإذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦/٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٧ - **ومما يُستفاد من الآية:** بيان تنزُّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل ما يُشرَك به، وأنه أعظم وأجلّ من كل ما يُشرَك به، لقوله: ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٨ - **ومما يُستفاد من الآية:** أنه لا أحد يستطيع أن يفعل هذه الأشياء، وهي: الهداية في البر والبحر، وإرسال الرياح بُشرًا بين يدي رحمته إلّا الله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟، فالجواب: لا إله إلا الله. وهل هذا يشمل الهداية التي في البر والبحر بالأسباب التي توصل إليها الناس اليوم؟ نعم.



❁ قال الله تعالى:

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٤، ٦٥]

❁ التَّفْسِير ❁

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ [في الأرحام من نطفة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت، وإن لم تعترفوا بالإعادة لقيام البراهين عليها]. قلنا من قبل: إن ﴿أَمَّن﴾ أصلها (أم ومن)، ولكنها قُرِنَتِ اتباعًا للرسم العثماني، ومن فوائد قرنها ألا تتصادم مع القراءة الأخرى وهي ﴿أَمَن﴾.

وقوله: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قصَّر في التفسير؛ حيث قال: [في الأرحام من نطفة]، والصواب: أنه أعمُّ من ذلك، يبدأ الخلق في الأرحام من نطفة هذا فردٌ من أفراده، وإلا فقد بدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ـ أيضًا ـ بعض الأشياء التي تتولَّد، ولا تتوالد ما لها أرحام تكون فيها، وإنَّما تتولَّد مما تتولَّد منه بدون أن يكون لها أرحام، فالصواب في هذا: أن يُقال بالعموم، فقوله تعالى: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: يُوجِدُه ابتداءً في الأرحام، وغير الأرحام، ولا أحد يستطيع أن يفعل ذلك ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾، لو يجتمعون كلهم ليخلقوا ذبابًا ما استطاعوا، وأبلغ من هذا: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، هذا الذباب الضعيف إذا سلبهم شيئًا ما يقدرون أن يردُّونه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، إذنْ الذي يبدأ الخلق هو الله، والذي يُعيده هو الله سبحانه وتعالى.

وقول المؤلف: [وإن لم تعترفوا بالإعادة لقيام البراهين عليها] لا حاجة لتقديره؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما ذكر بدء الخلق، فإن إعادة الخلق بالفطرة والعقل أهون من ابتدائه، فإنه إذا

تقرَّر أنه يبدأ الخلق؛ فإنه من المعلوم أنه يُعيده، بل إعادته أهون، فعلى هذا يكون الله ـ تعالى ـ قد قرَّر ألوهيته بهذا الفعل العظيم، وهو بدء الخلق، وإعادتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من جهة السماء [بالمطر]، والأرض [بالنبات]، فالرزق الذي ينزل من السماء هو المطر، والذي يأتي من الأرض هو النبات، هذا ما قاله المؤلف.

ويجوز أن نقول: إن قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من العلو، والأرض؛ أي: من النزول، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، ويكون المراد بالسماء ما كان من الأشجار الرفيعة العالية، وبالأرض مثل الزروع، والأشجار الممتدة على الأرض التي ليس لها ساق.

أو نقول: إن الآية أعم من هذا، فتشمل المطر؛ لأنه من السماء، وتشمل ما أشرنا إليه من الثمرات، من الأشجار العالية التي يتوصَّل إليها هؤلاء، فتكون في السماء، وتكون في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الجواب: [لا يفعل شيئًا مما ذُكِر إلا الله]، ولا إله معه، وهذه الآية جمع الله فيها بين بدء الخلق، والرزق؛ لأن المخلوقات تحتاج إلى إمداد، وتحتاج إلى إعداد، فالإعداد بابتداء الخلق؛ لأن الله إذا ابتدأ الخلق أعدَّ الإنسان لكل ما هو لازمٌ له، والإمداد بالرزق من السماء، والأرض.

قال: [﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حُجَّتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾].

قوله: ﴿هَاتُواْ﴾ هذه فعل أمر؛ لأن الذي تلحقه العلامة يكون فعل أمر، والذي يبقى على حالة واحدة يكون اسم أمر أنت تخاطب واحدًا فتقول له: صه، وكذا اثنين وكذا جماعة إذن هي اسم فعل أمر لكن تخاطب واحدًا وتقول: هاتِ وتخاطب أنثى فتقول: هاتي وتخاطب جماعة فتقول: هاتوا وتخاطب نساء: هاتين فهي فعل أمر، ومعناها: أحضِروا، والبرهان هو الدليل، وخصَّه بعضهم بالدليل القاطع، وقالوا: إن الدليل إن كان قطعيًّا في دلالته، فهو برهان، وإن كان ظنيًّا، فهو دليل، وليس ببرهان، ولكن الظاهر من الآيات الكريمة أن البرهان دليل، سواء كان قطعيًّا ـ، كما قال أهل المنطق ـ أم غير قطعيٍّ، فعلى هذا نقول: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ شامل للقطعي، والظني؛ لأن ما عندهم دليل قطعي، ولا ظني.

والأمر في قوله: ﴿هَاتُواْ﴾ المراد به التحدِّي.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، قال: [أن معي إلهًا فعل شيئًا مما ذُكر]، والجواب: أنهم لا يمكن أن يأتوا ببرهان، وجاء بإن الشرطية؛ لأنه محسوس دلَّ عليه ما قبله على رأي الكثير من النحويين.

والصحيح: أنه بهذا لا يحتاج إلى جواب.

قال المؤلف: [وسألوه عن وقت قيام الساعة، فنزل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾] ما ادَّعاه المؤلف بأن الآية لها سبب نزول لا صحة له، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ انتقل من ذكر الخلق إلى ذكر ما يلزم للخلق، وهو العلم، فإن الخلق لابد أن يتقدَّمه علم؛ إذ لا يتم خلق إلا بعلم، وقدرة، فمن لا علم له لا يقدر، ومن لا قدرة له لا يخلق، فالآية فيها انتقال من معنى إلى معنى، وليس فيها سبب، كما قال المؤلف.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [من الملائكة] الذين في السماوات، [والناس] الذين في الأرض، وكذلك الجن ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ مفعول يعلم، و﴿مَن﴾ فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾؛ أي: [ما غاب عنهم]، فيكون الغيب على تقدير المؤلف مصدرًا بمعنى: اسم الفاعل؛ لأنه قال: أي: ما غاب، وغاب فعل ماضٍ له فاعل.

ويجوز أن يأتي المصدر بمعنى اسم الفاعل، كما نقول: رجل عدل بمعنى عادل، وله أمثلة، كما أن المصدر يأتي بمعنى: اسم المفعول كثيرًا.

وقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، [لكن ﴿ٱللَّهُ﴾ يعلمه] جعل إلا بمعنى، لكن، فيكون الاستثناء منقطعًا على رأيه، ثم قدَّر المؤلف: يعلمه، ليكون إعراب الله مبتدأ، ويعلمه خبره، وهذه الآية تحتاج إلى مناقشة:

أولًا: لماذا عدل المؤلف عن الاستثناء المتصل إلى الاستثناء المنقطع؟

الجواب: لأنه يرى أن الله ـ تعالى ـ لا مكان له، وقوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهي مُتعلِّقة بمحذوف تقديره: استقر، فصلة الموصول تُقدَّر باستقر، أو كان، أو ما أشبه ذلك، فيقول: إذا قلت: من استقر في السماوات، أو من كان في السماوات، والأرض غير الله لزِم أن يكون الله ـ تعالى ـ في السماوات، فيكون له مكان، وهذا عندهم ممتنع عند المؤلف، ومن كان على عقيدته.

ثانيًا: نقول له: إذا كان الاستثناء منقطعًا، فالمعروف أن الاستثناء المنقطع إذا سُبِق بتامٍّ منفي، وجب فيه النصب، كما قال ابن مالك:

.........وَانْصِبْ مَا انْقَطَعْ وَعَنْ تَمِيمٍ فِيهِ إِبْدَالٌ وَقَعْ(١)

وهنا ليس منصوبًا.

فقال: نحن نجعل الجملة لا دخل لها بالاستثناء، ونجعل ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف، لأجل ألَّا نخالف المشهور من كلام العرب؛ لأن القرآن نزل بلسان قريش، وليس بلسان بني تميم.

وبعض العلماء يقول: نحن نتخلَّص مما فرَّ منه المؤلف، مع عدم إثبات المكان لله، بأن نقول: لا يَعْلَمُ مَنْ في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله، لا نقول من استقر؟ وحينئذٍ يزول الإشكال؛ لأن

(١) ألفية ابن مالك: (البيت رقم: ٣١٧).

الله ـ تعالى ـ موجود في السماوات، وفي الأرض، فيزول الإشكال الذي من أجله قطع المؤلف الاستثناء.

فعلى الرأي الذي نرى ـ وهو المُتعيِّن ـ أن الاستثناء هنا متصل، وأن الله ـ تعالى ـ له مكان، وأن مكانه في السماء، وقد سأل النبي الجارية فقال لها: «أَيْنَ اللهُ؟»، فقالت: في السماء، وأشار النبي ﷺ إلى السماء حينما أشهد ربَّه على إقرار أمته بإبلاغ رسالتَه، فقال، وهو يخطب بعرفة: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قالوا: نعم، قال مُشيرًا إلى السماء: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[1]، فهذا دليل على أن الله في السماء.

فقوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الاستثناء متصل، ويكون (الله) بدلًا مِنْ (مَن)، كما تقول: ما قام القوم إلا زيدٌ. لأن الاتباع هنا أولى، وإن كان يجوز النصب، ولكن ليس فيه إلا الاتباع حتى لا يرد إشكال على عقيدة أهل السنة والجماعة.

يبقى عندنا على رأي من يقول: إنه لا يجوز لمسلم أن يعتقد أن الله في السماء؛ لأنه ليس له مكان ـ على زعمهم ـ؛ كيف نُخرِّج الآية؟

نُخرِّجها على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: إما أن نجعل السماوات مُتعلِّق بفعل مناسب، ويكون التقدير: من يُذكَر في السماوات والأرض الغيبَ إلا الله، وعلى هذا، يكون الاستثناء متصلًا، وهو مقطوع على البدلية، ولا إشكال فيه من حيث الإعراب، لكن من حيث المعنى غير مُسلَّم.

الوجه الثاني: يقولون: نجعل الاستثناء منقطعًا، ويكون الرفع هنا على لغة بني تميم الذين يُجوِّزون الإبدال، ولو كان الاستثناء منقطعًا.

الوجه الثالث: أن نجعل الاستثناء منقطعًا، ولكنه ليس تابعًا لما سبق، بل هو مبتدأ، وخبره محذوف، وهو الذي مشى عليه المؤلف؛ حيث قال: [لكن الله يعلمه].

وهذه التفسيرات، والتقديرات مما حذَّر منه النبي ﷺ؛ حيث قال: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[2]، وفي رواية: «فَقَدْ أَخْطَأَ، وإِنْ أَصَابَ»[3]، فالذي يُفسِّر القرآن على حسب عقيدته، هذا في الحقيقة أنه جانٍ على الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومُتقوِّل على الله بلا علم؛ لأن الواجب أن تُفسِّر القرآن بما دلّ عليه، ثم تجعل عقيدتك تابعة له، ولهذا يقول العلماء: استدل ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل؛ لأن الإنسان الذي يعتقد أولًا، ثم يستدل، الغالب عليه أنه يُخضِع الأدلة إلى مُعتقده، كما هو معروف الآن فيما يتكلَّم الناس فيه في العقائد، وموجود ـ أيضًا ـ حتى

---

(١) صحيح: مسلم (١٤٧/ ١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٥٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٥٣) من حديث جندب بن عبد الله وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

فيما يتكلَّمون فيه في الأحكام، فإن من ينتمي إلى مذهب إذا جاءت النصوص الدالة على خلاف مذهبه تجده يسلك فيها أحد مسلكيْن:

إما إبطالها إن أمكنه، فيقول: هذا ضعيف، وهذا مردود.

وإن لم يمكن الإبطال فبالتحريف، لأجل أن تُطابق مذهبه.

وهذه علة قلَّ من يسلم منها إلا من شاء الله أن يجعل عقيدته وحكمه تابعًا للدليل، وهذا الواجب على كل مسلم، لأجل أن يكون تابعًا، والنصوص تكون متبوعة.

أما أن يعتقد أولًا، سواء كان هذا الاعتقاد مما يتعلَّق بالعقائد، والأمور الخبرية، أو مما يتعلَّق بالأحكام العملية، ثم بعد ذلك يحاول أن يُحرِّف النصوص إليها، فهذا غير مُسلَّم، ولا يجوز أيضًا.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، قال: [أي: كفار مكة]، وقوله تعالى: ﴿أَيَّانَ﴾ قال: [وقت]، وقوله تعالى: ﴿يُبْعَثُونَ﴾؛ يعني: ما يشعر أحد متى يُبعَث الناس؛ لأن علم الساعة إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فلا أحد يدري متى تقوم الساعة، حتى ولو جاءت علاماتها، وأشراطها، فإننا لا نستطيع أن نُحدِّدها بالتعيين، ونقول: بقي عليه كذا سنة كذا شهرًا، ولهذا قال: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

وقول المؤلف: [وقت يُبعثون] فيه التفات من جهة النحو، أيّان هذه ظرف، لكنها استفهامية، والوقت ظرف مجردة من الاستفهام، ولهذا تقدير أيّان بوقت قصور، ولو قال المؤلف: ما كانوا يُبعثون لكان هو المناسب؛ لأن ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ نقول: إنها ظرف، وهي مُتضمِّنة لاستفهام مُعلِّقة للفعل عن العمل، والفعل: ﴿يَشْعُرُونَ﴾، فالجملة: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ في محل نصب مفعول (يشعرون)، ولو كان التقدير: (وقت يُبعَثون) لم يكن في الجملة تعليق، فإذنْ المؤلف بتقديره (وقت) ضيَّع علينا مسألتين:

المسألة الأولى: ما تضمَّنته ﴿أَيَّانَ﴾ من الاستفهام.

والمسألة الثانية: كون الجملة هنا في محل نصب؛ لأنها مُعلَّقة بأيَّان، وعلى تقديره تكون أيان نفسها هي المفعول؛ لأنه ينبغي أن يكون التفسير اللفظي خاصة مطابقًا للمفسر في كل الأحوال.

مَنِ ادَّعى أنه يعلم متى يُبعث؟ فما الحكم فيه؟ هو كافر، أي: من ادَّعى أن القيامة في سنة كذا ـ وهذا شاهدناه وسمعناه مثلما ظهر في لبنان ـ فهو كافر.

الفوائد:

قال الله عز وجل: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾:

١ ـ من فوائدها: بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في بدء الخلق، وإعادته، ولا أحد يستطيع بدء الخلق وإعادتهم أبدًا إلا الله، والذي قال لإبراهيم: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، بماذا أجابه إبراهيم؟ قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٢ ـ **ومن فوائد الآية:** بيان أن الرزق من الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أليس الله يقول: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾؟

نقول: إن إضافة الرزق للمخلوق من باب إضافة الشيء إلى سببه، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحجر:٢٠]، فهذه المخلوقات من الذي يرزقها؟ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٦٠]، وأنت لا ترزق الطير، ولا الوحوش، ولا السباع، وأيضًا لا ترزق نفسك، ولهذا تجد أفضل الناس، وأجودهم في البيع، والشراء، وأشدهم مكرًا وحيلة تجده أحيانًا أفقر الناس، وتجد الإنسان الأبله الذي لا يُحسِن شيئًا، يكون عنده أموال عظيمة، والله ـ تبارك وتعالى ـ يُعطي فضله من شاء.

٣ـ **ومن فوائد الآية:** أن الرزق من السماء هو المطر، ومن الأرض هو النبات، أو من السماء ما علا من الأشجار، ومن الأرض ما نزل من الزروع، لقوله: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** بيان أنه لا يقدر على ذلك إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ لقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ **ومن فوائد الآية:** تحدِّي المُناظِر، لقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** أنه لا بأس للإنسان أن يتدرَّج مع خصمه، وأن يتحدَّاه بما يُقِرُّ به، وهذا غاية الإنصاف أن تقول لخصمك: هات الدليل؛ لأن هناك حالًا أخرى ليست إنصافًا، وهي أن تقول لخصمك: لا أقبل منك أبدًا، فأنت إذا قلت: هات الدليل إن كنت صادقًا، فقد أنصفته، وتحدَّيته ـ أيضًا ـ، وحينئذٍ يظهر عجزُه، لكن لو قلت: لو تأتي بأي دليل ما قبلت، معناه: أن العلو له، هو ينتصر عليك، وأنت تنخذل أمامه، وإذا كان المجادل لا يريد الحق كان لك أن تقول: لا أصدقك ولا أوافقك مهما تقول؛ لأنه معادل.

فالحاصل: أنه في مقام المناظرة يُطالب الخصم بالدليل؛ لأن في ذلك فائدتين:

الفائدة الأولى: إظهار العدل، والإنصاف.

الفائدة الثانية: منع استنصار الخصم.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

٧ ـ **من فوائدها:** أنه ليس عندهم برهان؛ لأنه لو كان ثمَّة برهان لم يكن للتحدِّي فائدة إطلاقًا.

ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الخطاب

للرسول ﷺ:

١ - **يُستفاد من هذا، ومما سبق:** أن توجيه الخطاب للرسول ﷺ أن يقول قولًا يدل على عناية الله - سبحانه وتعالى - بهذا القول؛ لأنه عبارة عن رسالة خاصة، القرآن كله مأمور أن يعتني به، لكن إذا خُصَّ بعض الآيات بكلمة: ﴿قُلْ﴾ يدل على عناية الله - تبارك وتعالى - بهذا الأمر؛ حيث أوصاه بتبليغه وصية خاصة.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا يعلم أحدٌ الغيبَ إلا الله، والذي في المستقبل لا يعلمه أحد إلا الله في كل حال، والحاضر، أو الماضي قد يُعلَم، ودعوى علمه ليست من علم الغيب، وعلى هذا فالذين يُحوِّرون، ويُخبِرون عما جرى على العبد، هؤلاء ليسوا ممن يدَّعون علم الغيب؛ لأنهم يذكرون الماضي، أو الحاضر، وهو ليس بغيب، لكن قد يكون غائبًا عن البشر شاهدًا للجن؛ لأن الجن يعلمون الشيء البعيد، ويُخبِرون من يصحبهم من الإنس، وعلى هذا فما نتحدَّث به عن بعض الناس أنه إذا جاءه المريض قال: أصابك كذا، وأصابك كذا، ويكون الأمر، كما أخبر، هذا ليس من دعوى الغيب، فتصديقه ليس كفرًا بالله، لكن يبقى النظر في حال هذا الرجل؛ فإذا كان مستقيمًا فإننا حينئذٍ نركن إليه، ولا حرج علينا إذا ذهبنا إليه، أما إذا كان غير مستقيم؛ بحيث إن الجِنّة لا تخدمه إلا بكفر فإنه لا يجوز لنا أن نذهب إليه لما في ذلك من الإعانة على الكفر.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن الله - تبارك وتعالى - في السماء، لقوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقد خرَّج العلماء على أن ﴿فِي﴾ بمعنى: على، أو أن المراد في السماوات: في الجهات العُليا، وأنه - تعالى - فوق العرش، وليس على نفس العرش.



❁ قال الله تعالى:

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾[النمل:٦٦]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ ذكر الزمخشري كلامًا جيدًا في هذه الآية، وهو أن قوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ ذكر أن المعنى: أنه بلغ علمهم في الآخرة غاية أن يؤمنوا بها ولم ينتفعوا، وذكر أن ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ من الدرَك وهو الهلاك، يعني: أنهم ضعف علمهم في الآخرة، ثم انتقل فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ ثم انتقل فقال: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ فيكون بالإضافة إلى قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ المراتب أربعة: أولًا: نفي الشعور، ثم ضعف العلم، ثم الشك، ثم العمى،

فتكون هذه الآية فيها إغرابات: انتقال من الأدنى إلى الأعلى، فإنه يقول: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، ثم قال: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ انتقالات، الأول: نفي الشعور، والثاني: ضعف العلم، والثالث: الشك، والرابع :العمى يعني: عمى القلب.

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية:** أن هؤلاء المكذبين بيوم القيامة، أنهم على هذه المراتب.

٢- **ويستفاد منها أيضًا:** أن الإنسان الذي لا يريد الحق يكون له باعتبار قبوله مراتب بعضها أشد من بعض، أي أنه ينتقل من الأدنى إلى الأعلى، ولهذا قال أهل العلم: إن المعاصي بريد الكفر، ومعنى بريد الكفر: أي أنه ينتقل بها الإنسان من مرحلة إلى مرحلة كما ينتقل البريد، والبريد هو الساعي الذي ينتقل من بلد إلى بلاد أخرى، وكانوا في الزمن الأول يجعلون الرسل بالكتب على مراتب، كل بريد فيه منطقة، إذا وصل إليها وقف وأعطاه الثاني ثم يسعى الثاني من هذا البريد رقم واحد إلى البريد رقم اثنين ثم يقف، ثم يأخذه من رقم اثنين إلى رقم ثلاثة حتى ينتهي إلى البلد، يفعلون ذلك لئلا يشق عليهم متابعة السير من البلد إلى البلد، وهذا يكون أسرع، ولذلك سمي البريد بريدًا لهذا السبب، يعني يجعلون في كل مساحة من الأرض بريداً، والبريد على مسافة أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال؛ إذنْ البريد اثنى عشر ميلًا، ولذلك كانوا في الزمن الأول يستعملون السرعة في إيصال الخطابات إما بالبريد كما ذكرنا، وإما في الحَمَام، يربى حمامًا يطير من محل إلى محل ويعلق في عنقها أو في أرجلها الرسائل، وطبعًا الرسائل ما هي كبيرة، لكن قد تكون مثلًا رموز و إشارات وما أشبه ذلك يعرفها المكتوب إليه.

الشاهد أننا نقول: إن الإنسان إذا فعل معصية سواء اعتقادية أو عملية، فإن الشيطان يتدرج به من الأدنى إلى الأعلى حتى يصل ـ والعياذ بالله ـ إلى الكفر.

٣- **ومن فوائد هذه الآية:** أن أهل الإيمان باليوم الآخر يزدادون بها بصيرة؛ لأنهم عندهم يقين وعلم وطمأنينة بما أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله، لكن هؤلاء بالعكس ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ و(من) هذه للابتداء، يعني من أجلها صاروا عمين أي: عميت بصائرهم، وسبب ذلك أنهم إذا كذَّبوا بها - والعياذ بالله - ازدادوا ضلالًا وظلمًا ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا﴾ ما قال: عنها عمون، ﴿مِنْهَا﴾ أي: من هذه الآخرة بسبب أنهم أنكروها ازدادوا عمًى وضلالًا - والعياذ بالله -.



❁ قال الله تعالى:(١)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل:٦٧-٦٨]

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية:** تلبيس أهل الضلال للحق بالباطل؛ لأنهم أنكروا البعث واحتجوا بشبهة لا تغني عنهم من الحق شيئًا، ما هي؟ يقولون: ﴿أَءِذَا﴾ كنا ترابًا نخرج؟ هذه الشبهة إنما تنطلي على الجهال، أما على أهل العلم والبصيرة فلا تنطلي، المهم أننا نأخذ من هذه الآية أو من هذا السلوك: بيان أن أهل الباطل يلبسون باطلهم بالشبهات التي يوردونها.

٢- **ومن هذه الفوائد:** إنكار هؤلاء للبعث؛ لأن الهمزة في قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ للإنكار.

٣- **ومن هذه الفوائد:** أنهم احتجوا على تشبيههم هذا بأنهم وُعدوا هم وآباءهم من قبل ولم يروا شيئًا، وهذا من التمويه، وإلَّا فهم لم يوعدوا أن يبعث الناس اليوم، لكن متى وعدوا أن يبعثوا؟ يوم القيامة، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية:٢٥]

فنقول لهم: نحن ما قلنا لكن تبعثون اليوم حتى تقولوا ائتوا بآباءنا قلنا: إنكم تبعثون يوم القيامة وستبعثون، لكن هكذا أهل الباطل يلبِّسون ويشبِّهونَ على الناس بالشبهات لإقرار باطلهم.

٤- **ومن هذه الفوائد:** تأكيد إنكارهم؛ لقولهم: ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ يعني: أتؤكدون لنا ذلك والأمر بعيد لا يمكن.

٥- **ومن هذه الفوائد:** أن من لا يريد الحق فإنه لا يتبين له، فالإنسان الذي لا يريد الحق يحرم منه فلا يتبين له، لقوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فجعلوا أبيَن الأمور وأصحَّ الأمور وأوكد الأمور جعلوه أساطير، والأساطير كما هو معروف هي: عبارة عن كلام لا أصل له، غالبه أكاذيب، فهذا القول تقدم لنا في التفسير أنه إن كان عن عقيدة فقد لُبِّس عليهم الحق، وإن كان عن إنكار فقد جمعوا بين التكذيب بالحق وبين عيب الحق، يعني جمعوا بين أمرين: أنهم كذبوه وعابوه، وأما إن كان هذا عن عقيدة بمعنى أنهم لا يرون أن هذا حقيقة وأنه أساطير فيكون هنا قد لُبِّس عليهم الحق بسبب أنهم لا يريدونه، ولا شك أن من لا يريد الحق فإنه لا يُوَفَّق له ولا يُيسر له، وبهذا نعرف أنه ينبغي لطالب العلم عندما يبحث عن مسألة أن يبحث عنها – ونسأل

(١) تفسير الآيات من (٦٧ – ٧٥) غير واضح.

الله العافية - لأجل أن يصل إلى الحق، لا لأجل أن ينكر قوله، بمعنى أنك عندما نفرض أنك اختلفت أنت وزميلك في مسألة، وأردت أن تحقق ما قلت فأنت عندما تراجع وتبحث لا تجعل رائدك أن تنتصر لنفسك، فإنك ربما تحرم الوصول إلى الحق، لكن اجعل رائدك الوصول إلى الحق عسى أن يكون معك فتحمد الله تعالى أن يَسَّر لك الوصول إليه، وأن جعل بيان الحق على يدك، أو يكون مع خصمك فتحمد الله تعالى أن الله تعالى يسر لك الرجوع عن الباطل، وهيَّأ لك الوصول إلى الحق، فأنت على كل تقدير في نعمة، ولكن ليكن رائدك الحق، وهذه مسألة صعبة جدًّا على النفوس، أن يكون الإنسان يراجع في مثل هذه الأمور لأجل الوصول إلى الحق، فإن كثيرًا من الناس يراجع لأجل أن ينصر قوله، ولكن افرض أنك تعتقد أن قولك هو الصواب مائة في المائة، وأنت تراجع لتنصر قولك، فهل هذا ينافي النيَّة الصحيحة، نقول: إن كنت تريد أن تراجع من أجل أن تنصر قولك لأنه الحق فهذا لا ينافي؛ لأنك إنما تقصد تقوية الحق وإلزام الخصم به، وإن كنت تراجع بنية أن تنصر قولك ولو كان هو الحق فالنية فيها دَخَن مدخولة.

فالحاصل من هذه المسألة: ينبغي للإنسان أن يلاحظه وهو أن من لا يريد الحق لا يُوَفَّق له بل يلتبس عليه الأمر؛ لأن هؤلاء يقولون في أبين الأمور وأحقها: إنها أساطير الأولين، وانظر إلى بيان السبب في هذا في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٤] كلا ليس القرآن أساطير الأولين ، لكن السبب أنهم جعلوه أساطير الأولين هو أنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فعَموا عن الحق أو تَعَامَوْا عنه.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:٦٩]

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية:** بيان أهمية السير في الأرض، وهذا يؤخذ من أمر الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغه إلى الناس، وقد قلنا إن كل حكم أو خبر يُصَدَّرُ بقُل هو دليل على الاهتمام به؛ لأن الله تعالى جعل له عناية خاصة بالوصيَّة بإبلاغه، وإلا فجميع الكتاب قال الله فيه: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، لكن كون هذا الأمر يُصَدَّر بقُل إذن ففيه عناية خاصة بتبليغه.

٢- **ومن فوائدها:** فائدة السير في الأرض وأن السير في الأرض له فائدة عظيمة، ولهذا أُمِر بإبلاغه على سبيل الخصوص.

٣- **ومن فوائدها:** أن السائر في الأرض يجب عليه أن يكون سيره على سبيل التفكر والاتعاظ، لقوله: ﴿فَانظُرُوا﴾ والأمر للوجوب لا سيما إذا كان هذا المخاطَب معانِدًا، يعني: الآية هنا تخاطب المعاندين الجاحدين، فإنه يجب عليه أن يسير وينظر؛ لأن هذا طريق إلى هدايته.

٤- **ومن هذه الفوائد:** أن عاقبة المجرمين وخيمة، لقوله: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ﴾ وكيف هذه للتعظيم، أي: أن عاقبتهم عظيمة الوخَامة.

٥- **ومن هذه الفوائد:** أن العبرة بالعاقبة لا بالمبتدأ، لقوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ فإذا رأيت هذا المجرم قد نُعِّم فلا تظن أنه على حق، بل المعتبر العاقبة وستكون عاقبته وخيمة.

٦- **ومن هذه الفوائد:** أنه - أيضًا - لا يُعتبر الفرد فقط فإن من المجرمين من يبقى في تنعيمه حتى يموت، لكن العبرة بالكل، ولهذا قال: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، فإن المجرمين مهما كانوا لا يمكن أن يستقر لهم قرار.

فإذا قال قائل: في الوقت الحاضر الآن ما نرى أن المجرمين عوقبوا، بل إنهم منعمون غاية التنعُّم.

فيقال: إن هذه الأمة قد عهد الله إلى نبيها ﷺ أن لا يعذبهم بسنة عامة، ولكننا نرى في هؤلاء المجرمين من جَعْل البأس بينهم وتفرقهم، وكذلك أيضًا عدم استقرارهم ما هو عقوبة، فإن الذي يخرج إلى تلك الأمم يجد أنهم ليسوا مستقرين، حتى إننا نسمع أن الإنسان ما يأمن أن يجعل في جيبه دراهم، وأنه لو وجد في جيبه دراهم قُتل، ولذلك لا يتعاملون هناك إلا بالأوراق، وهذه يسمونها، باسم خاص وهي كروت الائتمان وهذه تمثل كذا دولار؛ لأنهم ما يمكن أن يتعاملوا بالدراهم كذا، يقتل الإنسان، وحدثني إنسان ذهب إلى أمريكا يقول ما تأمن تضع ثلاث مائة ريال في جيبك وهذا أبلى ما يكون من العذاب؛ لأن الله يقول في عقوبة القرية الآمنة المطمئنة: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ فهب أن هؤلاء ما عندهم جوع لكن عندهم خوف.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠] [1]

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية:** أن الداعية إلى الله إذا بذل ما يجب عليه فلا ينبغي أن يحزن لمخالفة الناس، لقوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ والحكمة من ذلك أن حزن الإنسان على مخالفة الناس يُعيقه عن الدعوة إلى الله ويستحسر من أجْله؛ لأنه ما يمكن للنفس أن تمتد وتسير وهي حزينة، ولكن أن تسير على حسب ما أُمِرْتَ إن اهتدى الناس فلك ولهم، وإن لم يهتدوا فلك وعليهم، ولهذا إذا حزن الإنسان في هذه الأمور فإنه ييأس ويتحسر ولا ينشرح صدره ولا تنبسط نفسه.

٢- **ومن هذه الفوائد:** عناية الله - سبحانه وتعالى - بالرسول ﷺ بالتسلية والتفريج عنه،

---

(١) تفسير هذه الآية والتي تليها غير موجود، والآيات من [٧١ - ٧٣] غير موجود.

لقوله: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، وجه ذلك أن نهيه عن أن يكون في ضيق معناه: أن مكرهم يؤثر عليه أم لا؟ ما يضره، وإن ضاقت به نفسه فإن ذلك لا يضره؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ أي: لا يهمك أمرهم ولا تضق منه فإن لدينا ما هو أعظم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[الأنفال:٣٠]

٣- **ومن هذه الفوائد:** هل هذا الأمر يكون للرسول ﷺ ولغيره؟ نعم يكون له ولغيره، كل من يدعو إلى شريعة الرسول ﷺ فإننا نوجِّه إليه هذا الخطاب، ونقول: إذا رأيت الناس لم يقبلوا فلا تحزن ولا تكن في ضيق مما يمكرون، وإلا فإن أعداء الرسل سوف يمكرون بالدعاة في دينهم، وسوف يوجهون ضدهم الدعايات وسوف يؤذونهم بالقول فيُسمعونهم ما يكرهون وربما يؤذونهم بالفعل، والإنسان عليه أن يصبر كما صبر النبي ﷺ وأوذي في بيته وفي بدنه حاضرًا ومسافرًا، إذا حسَّ بأنهم يأتون بِسَلا الجذور ويضعونه عليه في المسجد الحرام[1]، ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ يضعونه عليه وهو ساجدٌ لله، ويأتون بالقاذورات والعذرات ويلقونها على عتبة بابه مع أنهم يكرمون الناس - أفسق الناس وأفجر الناس - إذا جاءوا إلى مكة، ولا يكرمون النبي ﷺ، وذهب إلى الطائف ليدعوهم إلى الله فامتنعوا وآذوه.

٤- **ومن هذه الفوائد:** الثناء على الكافرين يؤخذ منها بالتضمن، وقد سبق لنا مرارًا معنى الشكر وأنه ليس مجرد قول الإنسان: أشكر الله.



قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[النمل:٧٤-٧٥]

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** بيان سعة علم الله، لقوله: ﴿لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ وهذا دليل على سعة علم الله - سبحانه وتعالى - وأنه لا يخفى عليه شيء.

٢- **ومن هذه الفوائد:** تحذير هؤلاء وغيرهم أيضًا من أن يُكِنُّوا في صدروهم ما لا يرضاه الله؛ لأن إخبار الله بأنه يعلم ذلك معناه: التحذير من أن نكنَّ في صدرونا ما لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ.

٣- **من هذه الفوائد:** أن علم الله - تعالى - بما بطن كعلمه بما ظهر، لقوله: ﴿مَا تُكِنُّ﴾﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فلا فرق بين هذا، وهذا عند الله، وإن كان المخلوق يختلف عنده حكم الغائب والظاهر، الغائب ما لا يعلمه المخلوق، والظاهر يعلمه، وحتى لو علم الغائب بطريق من الطرق فإنه لا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٧/ ١٧٩٤) من حديث ابن مسعود ﷺ.

يستوي مع علم الظاهر، أما علم الله - سبحانه وتعالى - فإنها عنده سواء.

٤- **ومن هذه الفوائد:** كتابة الله تعالى في اللوح المحفوظ كل شيء، لقوله: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ويلزم من الكتابة العلم أو ما يلزم؟ يلزم من الكتابة العلم؛ لأنه لا يكتب المجهول، فإذن نقول: زيادة على أن الله يعلم ذلك قد كتبه في اللوح المحفوظ.

٥- **ومن هذه الفوائد:** ذكر مرتبتين من مراتب القضاء والقدر وهما العلم والكتابة.

٦- **ومن هذه الفوائد:** الرد على القدرية الذين ينكرون القدر، والقدرية ينقسمون إلى قسمْين: غلاة ومقتصدين، فالغلاة أنكروا حتى العلم والتقدير، وقالوا: إن الله لا يعلم ما يعمله العباد إلا بعد وقوعه منهم، والثانية: المقتصدون منهم قالوا: لا؛ إن الله علم ما الخلق عاملين وكتبه لكنه ليس بمشيئته وخلقه بل المرء مستقلّ به.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[النمل:٧٦]

التفسير

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾ هذا القرآن: يعني المنزَّل على النبي ﷺ، والقرآن إما مصدر بمعنى اسم المفعول، وإما اسم فاعل، أما على الأول قرآن مصدر بمعنى المفعول؛ فلأنه مفعول أي: يُقرأ، وهو - أيضًا - مقروء من القَرْء بمعنى الجمع، فهو مجموع وهو متلوّ، بمعنى: الجمع والتلاوة، وأما على أنه مصدر فإن فعله يأتي مصدرًا مثل الغفران والشكران، فهو في الحقيقة مصدر بمعنى اسم المفعول، وإما مصدر يطلق كالغفران والشكران، وإما مصدر بمعنى اسم الفاعل، بمعنى: أنه جامع لأحكام الكتب السابقة فعله يأتي بمعنى ثالث أن يكون القرآن بمعنى جامع، وقد ذكر الله تعالى أن القرآن مهيمن على الكتب السابقة، وقوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ القص بمعنى: التشبث بالشيء، فهذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بني إسرائيل الذكور منهم أم الإناث؟ الذكور والإناث؛ لأن الابن إذا كان المراد به القبيلة فهو شامل للذكر والأنثى، وإذا لم يرد به القبيلة فهو خاص بالذكور.

فإذا قال قائل مثلًا: هذا وقْف على بني محمد، محمد شخص وهذا وقف على بني محمد، مَنْ يُختصّ به؟ الذكور، فإذا كانت القبيلة كلها تسمى بني محمد، فهي للذكور والإناث، فبنو تميم إذا كان الإنسان يقسم على بني تميم قبل أن يكونوا قبيلة حين وجود الجد أبو تميم فهي خاص

بالذكور، وبعد أن كانوا قبيلة يكون عامًا للذكور والإناث، إذنْ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هنا المراد بهم: القبيلة فيعم الذكر والأنثى، و إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فهم أبناء عمٍّ للعرب؛ لأن العرب أبوهم إسماعيل بن إبراهيم وهؤلاء أبوهم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، يعني: جدهم إسحاق الذي هو أخو إسماعيل، وهؤلاء القوم ينسبون إلى أبيهم، وإسرائيل بمعنى: عبد الله، بعض الناس اليوم يقولون كيف نسمي الدولة اليهودية إسرائيل وهو جدهم؟ ما الجواب؟ نقول: إن هذا نسبة إلى أبيهم، ألسنا نُسمي العرب قرشيين، نسبوا إلى من؟ إلى جدهم قريش، ما نقول: بني قريش، نقول: قريش، إذن تُسمى باسم أبيها بالقرشيين وهم بنو إسرائيل على أننا أيضًا نشك على أن هؤلاء اليهود الموجودين من بني إسرائيل ما ندري لعلهم من أوروبا أو غيرها من البلاد التي ليست من بني إسرائيل، لكن على كل حال فإن العرب يعتبرون العروبة بالعربيَّة، فيقولون: من نطق بالعربية فهو عربي، وإن كان أصله أعجميًا، أولئك أيضًا يقولون: من نطق بالعبرية فهو إسرائيلي، وإن لم يكن من بني إسرائيل، ولهذا نقول: نجزم أن الطائفة الآن التي تسمى اليهود ليست كلها من بني إسرائيل بل إنما ينتمون إلى هؤلاء القوم باعتبار نطقهم ولغتهم.

وقوله: ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي﴾: ما قال: (كل الذي) بل قال: ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ وذلك أن القرآن إنما قصّ عليهم ما فيه مصلحة، أما ما لا مصلحة فيه فإنه لا يقصه؛ لأن القرآن هدى وكل ما فيه فإنه له معنى في نفسه، فكل ما فيه فائدة يقصه عليه، الذي اختلفوا فيه، مثلًا اختلفوا في لون الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف هل في هذا فائدة؟ ليس فيه فائدة، كذلك اختُلف في البقرة التي أُمروا بذبحها اختلفوا ما هي؟ فقيل إنها لإنسان بار بأمه، وقيل: إنها لشيخ كبير، وقيل أشياء كثيرة، لكن هذا هل فيه فائدة؟ لا ليس فيه فائدة، قوله: ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فما فيه فائدة يقصه هذا القرآن ويحكيه بينهم.

وقوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ لأي شيء يقص ذلك؟ لأجل أن يصدقوا بالقرآن؛ لأنهم إذا جاء هذا القرآن قاصًا عليهم ما سبق مما فعلوه، والنبي ﷺ قد علم بأنه ما دَرَس التوراة ولا دَرَس على اليهود، علم أن ما جاء به فهو حق، وهذه هي الحكمة من كونه يقول: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ مع أن هذا القصص لبني إسرائيل ولغيرهم، لكن بني إسرائيل عندهم من علم الكتاب ما ليس عند العرب، فلهذا بين لهم لإقامة الحجة عليهم.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى الْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٧٧-٨١].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: [﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾ هذه الجملة مؤكدة بإن واللام، والهدى معناه: الدلالة فإن القرآن هدى يعنى دلالة، ولكنه لا ينتفع به إلا المؤمنون كما قيَّده به في قوله: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: سبب لها، سبب للرحمة؛ لأن الإنسان إذا اهتدى به نال رحمة الله - سبحانه وتعالى -، فيكون رحمة، لكن للمؤمنين، والتقييد بالمؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به، وقد ذكر الله في القرآن أنه هدى للعالمين وأنه هدى للمؤمنين وللمتقين، والجمع بينهما أنه في حالة العموم معناه دالٌّ وموضع دلالة، وفي حالة التقييد أنه ما انتفع به ووفقَّ للاهتداء به إلا من قيد، هذه الآية من المطلق أم من المقيد؟ من المقيد للمؤمنين، إذنْ هدىً: هذا العلم، والرحمة: العمل والتوفيق؛ لأنه سبب الرحمة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، قال: [﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ كغيرهم يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: عدله ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يحكم به، فلا يمكن أحدًا مخالفته، كما خالف الكفار في الدنيا أنبيائهم]، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ أي: بين بني إسرائيل؛ لأن السياق فيهم، ولهذا قال: ﴿أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، والمختلفون يحتاجون إلى من يحكم بينهم، أيهم على الصواب، فحكم الله بينهم في الدنيا ويحكم بينهم يوم القيامة، بماذا حكم بينهم في الدنيا؟ بما أنزله في القرآن المستفاد من قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ويحكم بينهم يوم القيامة بالحكم العدل كما في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ وقول المؤلف: [يقضي بينهم كغيرهم يوم القيامة] لا يتعين أن يكون هذا القضاء يوم القيامة، بل قد يكون في الدنيا أيضًا فإن القضاء كما يكون يوم القيامة يكون أيضًا في الدنيا، وقد قضى بينهم في الدنيا بما أنزله في كتابه، وبيَّن الذين على حق والذين على باطل من بني إسرائيل، يوم القيامة يقضي بينهم قضاءً يترتب عليه الثواب، الثواب إما بالعقوبة وإما بالإحسان.

فالحاصل أن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ لا يتعين أن يكون يوم القيامة كما

قيَّده المؤلف؛ لأن القضاء كما يكون في الآخرة يكون في الدنيا، وقول المؤلف: [كغيرهم] يفيد أن القضاء يوم القيامة ليس بين بني إسرائيل فقط بل بينهم وبين غيرهم، وهذا أمر لا شك فيه، ولا حاجة إلى تقديره؛ لأنه ما دام السياق في بني إسرائيل فإن غيرهم لا ينبغي أن تقحم في هذه الآية؛ لأنك إذا أقحمت غيرهم يكون كالاعتراض على القرآن؛ لأن معناه أن المقام يقتضيه، ولكنه لم يُبيِّن، فنقول هنا: لا حاجة إلى تقدير (كغيرهم) بل هو يقضي بينهم، والآية هنا لم تتعرض للقضاء العام، وأما القضاء العام فيستفاد من آيات أخرى.

قوله: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: بعدله، وهنا أضاف الحكم إلى الله سبحانه وتعالى لأمرين: الأمر الأول: أنه حكم متضمن للعدل، والأمر الثاني: أنه حكم لا يُعقَّب بخلاف حكم غيره فإنه عرضة للخلل من ناحيتين: من ناحية أنه قد يكون غير عدل، ومن ناحية أنه قد يكون غير منفذ، أما حكم الله فإنه متضمن للأمرين: العدل، وأنه لا يعقب بل لابد أن ينفذ.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ [أي: عدله]، وهذا طرف أو جزء مما يدل عليه قوله ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾إذ إنه يدل على الأمرين الذي ذكرنا.

قوله:﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ العزيز يقول المؤلف: [الغالب]، وقد مر علينا في شرح الأسماء الحسنى أن العزيز لها ثلاثة معانٍ: عزة قدر وعزة قهر وعزة امتناع، وأما العزيز معناه الممتنع عن كل نقص، الذي لا يلحقه نقص، وأنه غالب وأنه ذو قدر عظيم، وغالبًا ما يفسر المؤلف وغيره العزيز بالغالب؛ لأنه أظهر معانيه ولأنه يكون أحيانًا في سياقٍ يقتضي يكون تفسيره بالغلبة أخص به من غيره.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [بما يحكم به]، وهذان الأمران من شروط الحكم؛ لأن من حكم بغير علم أصاب حكمه الخلل، ومن حكم بغير عزة أصاب حكمه الخلل أيضًا، فالأول: الذي هو فوات العلم يحصل به خلل الحكم في إصابة الصواب؛ لأن من حكم بغير علم فَإصابته للصواب من باب المصادفة، الثاني: الغلبة إذا فاتت العِزَّة حصل الخلل بالحكم لا من ناحية الصواب، ولكن من ناحية التنفيذ، فإنه إذا كان ليس له عزة وحَكَم بأمرٍ فقد يخالف في هذا الأمر، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ليتبين الأمران.

فإذا قال قائل: كيف يقدِّم العزيز على العليم، والعلم سابق من حيث الترتيب الحكمي إذ إنه يعلم ثم يحكم ثم ينفذ؟

قلنا: لأن المقام هنا يقتضي بيان قوة حكم الله - سبحانه وتعالى -، وأن هذا الحكم لابد أن يَنْفُذ لكونه صادرًا عن عزيز.

مسألة: ما الحكمة في ختم الآية، بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾؟ لأن خلل الحكم راجع إلى فوات العلم، وفوات العزة، ففي فوات العلم يحصل الخلل من جهة الإصابة؛ لأن الجاهل إذا

حكم توفيقه للصواب من باب المصادفة، وفي فوات العزة خلل في التنفيذ؛ لأن الضعيف الذي ما عنده عزة لا ينفذ، ولهذا كان الحكم يفتقر إلى الوصفين جميعًا وهما العزة والعلم، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قال المؤلف: [فلا يمكن أحدًا مخالفته كما خالف الكفار في الدنيا أنبياءهم] الحكم في الدنيا كما قال المؤلف يخالف والمراد الحكم الشرعي، أما الحكم الكوني فلا يمكن أن يخالف لا في الدنيا ولا في الآخرة، ما أحد يقدر أن يخالف الله، والحكم الشرعي يمكن مخالفته في الدنيا كما هو كثير، بل أكثر الناس يخالفون الحكم الشرعي في الدنيا؛ لأن بني آدم منهم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف كلهم مخالفون للحكم الشرعي وواحد في الألف موافق للحكم الشرعي، وهذا دليله: حديث آدم أن الله يناديه يوم القيامة فيقول: «**يا آدم**» فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: «**أخرج من ذريتك بعثًا إلى النار**»، فيقول: وما بعث النار؟ قال: «**من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون، واحد في الجنة وهؤلاء في النار**»، وابن القيم يقول في النونية :

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَيْسَ يَنَالُهَا فِي الأَلْفِ إِلَّا وَاحِدٌ لَا اثْنَانِ

[قال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثق به ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الدين البيِّن والعاقبة بالنصر على الكُفَّار]، الخطاب للنبي ﷺ، والأمر هنا للوجوب، والتوكل نصف الدين قال الله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولا استعانة إلا باعتماد؛ ولهذا يقولون: إن الدين عبادة وتوكل، عبادة يفعل بها الإنسان، وتوكل يعتمد به على الله سبحانه وتعالى، وهنا قال المؤلف [﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثق به] وفسره غيره بأن التوكل هو الاعتماد على الله مع الثقة، فلابد من اعتماد وثقة وبه يكون التوكل. إذنْ قد تعتمد على غير الله ولكن لا تثق به، تعتمد على إنسان في أن يشتري لك شيئًا ولكنه مع هذا لا تثق به، قد تثق بالإنسان في أمانته ولكنك لا تعتمد عليه لضعفه، والأول إما لضعفه أو خيانته، أما الله - عزَّ وجلَّ - فيجب عليك أن تعتمد عليه واثقًا به، ولا يمكن تحقيق التوكُّل إلا بهذا، إذنْ التوكل على الله: الاعتماد عليه مع الثقة به، فلابد من الأمرين: اعتماد وثقة، والأمر بالتوكل لا ينافي فعل الأسباب الصحيحة التي تؤثر في المسببات فإن الرسول ﷺ كان سيد المتوكلين، ومع ذلك فكان يفعل الأسباب التي تحصل بها المنافع وتندفع بها المضار، كان يأكل ويشرب ويلبس وكان - أيضًا - يتخذ ما يقي من الضرر حتى إنه في أُحُد لبس درعين، كل ذلك تقوية للأسباب التي تندفع بها الأضرار، فإذن التوكل على الله لا يعني ألَّا تأخذ بأسباب النجاح، بل خذ بالأسباب مع الاعتماد على الله تعالى والثقة به، أن ينفع بهذا السبب، ولما حجَّ قوم من أهل اليمن وليس معهم زاد قالوا: نحن نحج ونحن المتوكلون، قيل لهم: أنتم المتواكلون، ففرق بين التواكل والتوكُّل.

الإنسان الذي يريد أن تأتيه الأمور بدون فعل أسبابها هذا متواكل، وليس عنده عقل، فالبهائم والحشرات وغيرها تفعل الأسباب أم لا تفعل الأسباب؟ تفعل الأسباب مع أن الذي

قام برزقها وتكفل به هو الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ ومع ذلك تجدها تفعل الأسباب بل قال الرسول ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُوْنَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوْحُ بِطَانًا»[(١)] ما قال تبقى في أوكارها ويأتيها رزقها، قال تغدو: تذهب في الصباح في الغدو، خماصا يعني: جائعة، وتروح في آخر النهار بطانًا ملآنة بطونها، فالإنسان المتوكل هو الذي يأخذ بالأسباب النافعة، أما الأسباب التي لا تنفع فإن الأخذ بها نوع من الشرك، كل من أخذ بسبب ليس بنافع يعني: ما دل على نفعه الحس ولا الشرع فإنه مشرك، فلهذا التمائم والتعوذات والتِّوَلة وما أشبه ذلك من الأمور التي يزعمون أنها تفعل وهي لا تفعل جعلها النبي ﷺ من الشرك؛ لأننا نقول في تقرير هذا: كل من اتخذ سببًا غير نافع يعني: لا يدل على نفعه شرع ولا حس وإن شئت قلت شرع ولا قدر فإنه مشرك، كيف يكون مشركًا ما وجه كونه مشركًا؟ أنه أثبت سببًا لم يجعله الله سببًا فكان مشاركًا لله تعالى هنا في تقديره؛ لأن مقدر الأسباب وجاعل الأسباب سببًا هو الله، فهذا إلى الله فأنت إذا قلت هذا سبب وليس بسبب فقد أشركت مع الله وجعلت نفسك شريكًا مع الله؛ لأن هذا السبب حِسِّي ومع كونه سبب حِسِّي للرزق لكن محرم شرعًا، الآن مثلًا الذي يرابي هل اتخذ وسيلة تحقق له الربح قدرًا؟ معروف الواحد الذي جعل هذا سببًا للرزق، لكنه هل هو سبب شرعي أم قدري؟ قدري، الله ما أذن فيه شرعًا لكن إذا وقع علمنا أن الله أذن فيه قدرًا، هذا ما يكون من الشرك؛ لأنه سبب قدري إنما هو محرم؛ لأنه منهي عنه شرعًا.

وقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [أي: الدين البيِّن] فسَّر المؤلف ﴿ٱلۡحَقِّ﴾بالدين، و﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ بالبين، وليس هذا بجيد؛ لأن الدين منه حق وباطل، أليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ وهذا هو الدين الباطل، الدين الحق يظهر على الدين كله أي: على الدين الباطل، فتفسير المؤلف الحق بالدين قصور بلا شك، بل الحق هنا الثابت بصدق أخباره وعدل أحكامه، هذا معنى الحق أنه ثابت وذلك بالصدق في أخباره والعدل في أحكامه، وأما قوله: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ ففسره بالبيِّن وعلى هذا جعل أبان من اللازم؛ لأن بان يبين فهو بيِّن، وأبان يُبِيْن فهو مبين، هنا هل تصلح أن تكون بمعنى مظهر؟

الجواب: لا، لأن بَيِّن هنا أنسب من مظهر، فهذا الحق بيِّن ظاهر، وفي قوله: ﴿عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ تثبيت للرسول ﷺ أن يبقى على ما هو عليه، معتمدًا على الله تبارك وتعالى؛ لأن الإنسان إذا علم أنه على حق يثبت وترسخ قدماه، وإذا كان شاكًا أو مترددًا فإنه لا يثبت، فأمره أن يعتمد عليه وبيِّن له أن ما كان عليه من هذا الدين فهو حق بين ظاهر، إذنْ إعراض هؤلاء المعرضين عنه

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

هل يقدح في كونه بيِّنًا؟ لا يقدح لأن البلاء ليس من القرآن، بل البلاء منهم، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

الحاصل الآن: أمر الله نبيه أن يعتمد على الله، وبيَّن له الحال التي كان عليها، وأن هذا الدين حق بيِّن، ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾، ثم بيَّن - سبحانه وتعالى - أن إعراض من أعرض عنه ليس لقصور في بيان هذا الدين وظهوره، ولكن لقصور في هؤلاء المعرضين؛ لأن الدين هنا بالنسبة إليهم لم يصادف محلًا، ومعلوم أن الأمر إذا لم يصادف محلًا قابلًا فإنه لن يثبت، حتى إن الإنسان ليقرأ آية على مريض فيشفى، ويقرأها على مريض آخر بنفس المرض فلا يشفى؛ لأن المريض الأول: قابل مؤمن بتأثيرها، والثاني: ليس مؤمنًا بتأثيرها فلا تنفعه، فلابد في الأمور من قابلية: يعني محل يقبل هذا الشيء، وإذا لم يقبل فلا يمكن أن يلائمه، وهذا كما أنه في الأمور الشرعية كذلك أيضًا في الأمور القدرية، فلو أننا زرعنا قلبًا في إنسان ونفر منه الجسم هل يبقى؟ لا يبقى ويموت، أو زرعنا كُلْيَةً في إنسان ونفر منها الجسم فإنها لا تبقى ويعفن ويموت، فكل شيء لابد أن يكون المحل قابلًا له فإن لم يقبله فلا مكان له، هؤلاء الذين أعرضوا عن القرآن ليس معناه النقص في القرآن، فالقرآن حق بيِّن واضح، لكن البلاء منهم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّكَ﴾ أي: بالبيِّن فالعاقبة لك بالنصر على الكفار، [ثم ضرب أمثالًا لهم بالموتى وبالصُّمِّ وبالعَمَي] فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إذنْ يقول: ضرب لهم أمثالًا بالموتى وبالصم وبالعمي، وقال ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وهذا مثل كما قال المؤلف؛ لأن الرسول ﷺ ما خرج إلى المقابر يدعو على القبور حتى يقال له إنك لا تسمع الموتى، وإنما دعا الأحياء، ودعاء الأحياء، انقسم الناس فيه إلى قسمين: قسم قبلها واطمأن إليها فهو حي، ولهذا قال الله تعالى في القرآن: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ على من؟ ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠] ليتبين أن المراد بالحياة هنا حياة القلب، حياة الإيمان لا الحياة الجسدية؛ لأن مقابلة الشيء بالشيء تفيد معناه، ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ حياة جسم؟ لا، لو كانت حياة جسم لقال: ويحق القول على الموتى، ولكن قال: ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ وبهذا عرفنا أن كل حياة في مثل هذا السياق فالمراد بها حياة القلب لا حياة الجسم.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الموتى جمع ميت والمراد به هنا ميت القلب، أو نقول: إن المراد به ميت الجسد ويكون هنا تشبيهًا أي: أن هؤلاء الذين تدعوهم ولا يؤمنون كالموتى، لو أتيت إلى ميت قلت يا فلان اعبد الله وآمن بالرسول ﷺ واتق الله هل ينتفع؟ ما ينتفع، كالحجر، ولا شك أن الرسول ﷺ قرر الحق على الذين أُلقوا في قليب بدر وقال لهم: «هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا»، وقال للصحابة: «لَسْتُم بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ»(١)، لكن هذا على

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري(٣٩٧٦) ومسلم (٧٧/ ٢٨٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

سبيل التوبيخ لا على سبيل الدعوة؛ لأن هؤلاء مهما كان ما يمكن أن يجيبوا في هذه الحال إجابة دعوة، ولهذا الكافر لا ينتفع انتفاع جواب بما يسمع عند قبره من تلاوة أو ذكر، ما ينتفع به، وبه نعرف بدعة هؤلاء الذين ابتدعوا قراءة على أو عند القبور يظنون أن الميت ينتفع، فنقول: لا يمكن أن ينتفع انتفاع الثواب، أما انتفاع تخفيف عقاب فهذا ربما ينفع، لكن لما لم يرد صار من البدع، وإلا فهم يزعمون أن ذلك يخفف العذاب؛ لأن الرسول قال في الجريدتين: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا»[1]، وقالوا: إن العِلَّة في ذلك أنها قبل اليبس تُسَبِّح الله، فيخفف عنه بكونه يسبح عند قبره، ولكن هذا ليس بصحيح.

إذن ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يحتمل أن يراد بالموتى هنا: موتى القلوب وحينئذٍ فالآية ليس فيها تفسير، أو أنه موت الأبدان فيكون هؤلاء مشبهين بالموتى، قال ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ولا تسمع الصمَّ أم الصمُّ؟ أين الفاعل؟ ضمير مستتر محذوف وجوبًا تقديره أنت؛ قوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ إذن الصم: مفعول أول، والدعاء: مفعول ثانٍ، ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يعني: ما تخلي الصم الذين ما يسمعون ما تخليهم يسمعون دعائك، والمراد بالدعاء: الصلاة، يعني: لو دعوت أصم وقلت يا فلان يا فلان، هل يسمع أو لا يسمع؟ لا يسمع، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ يعني: دعوتكم إياه ودعوته إيَّاكم، فيحمل الأمرين على القول الصحيح، فالمعنى أن هذا لا تسمع الصم الدعاء، أيضًا إذا كانوا صمًا وولوا مدبرين يكون هذا أبلغ؛ لأن الأصم إذا كان مقابلًا لك، ربما يفهم الخطاب بحركات الشفتين، لكن إذا ولى مدبرًا ما عاد أبدًا لو ترمي مسافة خلفه ما يفيد، ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ وهذا غاية ما يكون من البعد من بعد السمع، والله تبارك وتعالى يبين لهؤلاء، الحقيقة أن هؤلاء حالهم كحال هؤلاء الصم المدبرين؛ لأن هؤلاء معرضين عن الحق غير قابلين له، فلذلك صار هذا التشبيه بهم من أبلغ ما يكون، فهم صم غير سامعين، ومع ذلك غير مقبلين؛ لأن الأصم إذا أقبل عليك كما قلت ربما يفهم منك بعض الشيء، لكن إذا كان مدبرًا ما فيه رجاء ولا أمل، وقول المؤلف: ﴿ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾ يقول: [بتحقيق الهمزتين] كيف نقرأها؟ الدُّعَاءَ إِذَا، [أو تسهيل الثانية بينها وبين الياء] يعني: تسهل الهمزة الثانية حتى تكون بين الهمزة والياء: ﴿الدعاءَ يِذا﴾، فتجعلها لا هي بياء خالصة ولا همزة خالصة.

وقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ ولوا: والتولي هو الإدبار وعلى هذا فتكون مدبرين حالًا مؤكِّدَة للعامل أم لصاحب الحال؟ للعامل؛ لأن التولي نفس التولي إدبار مثلها كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠] فمفسدين حال من الواو وهي مؤكدة للعامل؛ لأن العتو هو الفساد، وهنا ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ ﴿مُدْبِرِينَ﴾: حال من الفاعل لكن ليست مؤكدة للفاعل؛ لأن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٦) ومسلم (١١١/ ٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تأكيد الفاعل لو جاء به السياق فأجمعين، فإن الواو دالة على الجمع، لو جاء بلفظ أجمعين صارت مؤكدة لها، لكن جاءت بلفظ مدبرين، فهي مؤكدة للعامل ولوا، فيكون هذا في الحقيقة تأكيدين: التولي والإدبار، نعم التولي هو الإدبار لكن قد يكون من المتولي فيه رجاء وأمل، يتولى وهو ملتفت بقلبه إليك، لكن إذا كان مُدبرًا الإدبار جسدي وقلبي، وهو أصم يكون هنا ثلاثة موانع للقبول أو للسماع، وهي الصمم والتولي والإدبار.

قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ شبههم برجل أصم ولى مدبرًا على كل حال هل كونها تشبيهًا أقرب، أم يجوز أن نقول إنهم صم وأنهم انتفى السماع عنهم لانتفاء فائدته؟ يكون نفي السمع عنهم لانتفاء فائدته، والشيء قد ينفى لانتفاء فائدته ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

(هادي) فيها إشكال من الناحية النحوية: قال ﴿بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ﴾ هل (بهادي) اسم فاعل؟ نعم اسم الفاعل يعمل عمل الفعل، وهنا ما نسب العموم بالإضافة إذن هو مضاف إلى مفعوله معنىً وليست مضافة إلى فاعلها، وهنا مضافة إلى مفعولها، الإشكال الثاني: قوله: ﴿ٱلْعُمْيِ﴾ بالكسر، ونحن قلنا: إن الاسم إذا كان منقوصًا فإنه لا يظهر عليه إلا الفتحة، وهنا ظهرت الكسرة على الياء؛ إذن تكون جمعًا ولو كان جمعًا لا فرق بين الجمع وغير الجمع، إذن ليس منقوصًا لأن المنقوص كل اسم معرب آخره ياء لازمة مكسور ما قبلها، وهذه ساكن ما قبلها إذن ليس منقوصًا، ﴿بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ﴾ جمع أعمى، ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ متعلقة بـ ﴿ٱلْعُمْيِ﴾ أو ﴿بِهَٰدِي﴾؟ ﴿بِهَٰدِي﴾ بلا شك، وقال بعضهم متعلقة بالعمي وتكون ﴿عَن﴾ هذه للمجاوزة، كقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: أنهم عمي بسبب ضلالتهم، ولكنه ليس بصحيح بل ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ متعلق ﴿بِهَٰدِي﴾ يصير ﴿هادي﴾ بمعنى صارف؛ لأن الهداية تتضمن أمرين: الصرف عن الضلال، والدلالة على الحق، فيصير: ما أنت بصارف هؤلاء عن ضلالتهم إلى الحق، لماذا؟ [﴿إِن﴾ ما ﴿تُسْمِعُ﴾ سماع إفهام وقبول ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون لله تعالى بتوحيده].

قوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾، (إن): أي بمعنى ما، ونحن ذكرنا لكم قبل أن (إنْ) تأتي لعدة أمور: فتأتي شرطية، وتأتي نافية إذا وقع بعدها إلا، وتأتي للتوكيد وهي المخففة من الثقيلة، وتكون زائدة، الزائدة كقوله:

بَنِي غُدَانَةَ مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبٌ وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ[1]

(١) أورده ابن هشام الأنصاري في «أوضح المسالك» الشاهد رقم (١٠١)، وفي «قطر الندى» رقم (٥٠)، وفي

قوله: (ما إن أنتم) أي: ما أنتم، ولهذا قال ابن مالك:

إِعْـمَالُ لَـيْسَ أُعْمِلَـتْ مَـا دُوْنَ إِنْ   مَـعَ بَقَـا النَّفْـي وَتَرْتِيـبٍ ذُكِـرْ[1]

ما دون إن يقصد به الزائدة ومثل لها بهذا البيت:

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمُ ذَهَـبٌ   وَلَا صَرِيْـفٌ وَلَكِـنْ أَنْـتُمُ الخَـزَفُ

هذه مخففة.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

١- **من هذه الفوائد:** أن القرآن كلام، لقوله: ﴿يَقُصُّ﴾ والقصص قول فالقرآن إذن قول، ومعلوم أن القرآن نزل من الله فيكون قولًا لله - سبحانه وتعالى - كما يدل على ذلك سياق الآيات ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ بهذا القول الذي قص عليك.

٢- **الفائدة الثانية:** أنه يجوز أن يخص طائفة ممن يخاطبون من أجل إقامة الحجة عليهم، فإن القرآن يقص على بني إسرائيل وغيرهم لكن بني إسرائيل اعتنى بهم هنا؛ لأن الموضوع فيما يتعلق بهم.

٣- **الفائدة الثالثة:** أنه ينبغي أن يُعتنى بما هو أهم أو بما هو مهم، ويترك ما لا فائدة منه؛ لقوله: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ولم يقص عليهم جميع ما يختلفون فيه؛ لأن مما اختلفوا فيه ما لا فائدة من ذكره أو ما لا داعي لذكره، وهذه المسألة ينبغي للإنسان أن يعتني بها، يعني يقتصر على المهم أو الأهم وأن يدع ما لا فائدة منه؛ لأنه إضاعةٌ للوقت وتطويلٌ للخلاف بلا فائدة، ومن ذلك ما يوجد في كثير من التفاسير يذكرون الخلاف في أمور هي في الحقيقة واحدة، تجده مثلًا يذكر الخلاف عن مجاهد ومقاتل وعَلقمة وابن مسعود وابن عباس، والاختلاف بينهم إنما هو في التعبير فقط، فمثلًا قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قال بعض العلماء: قضى بمعنى وصَّى، وبعضهم يقول: بمعنى عهد، وبعضهم يقول: بمعنى أوجب، وبعضهم يقول: بمعنى ألزم، هذه لا داعي لها؛ لأن كل هذه الكلمات الأربع مثلًا تدل على معنى واحد، كذلك أيضًا يذكرون الخلاف فيما لا طائل تحته كما ذكروا الاختلاف في كلب أصحاب الكهف هو أسود أم أحمر أم أبيض وما أشبه ذلك، وكذلك أيضًا اختلافهم في عدة أصحاب الكهف فإن الله - تعالى - ذكر الخلاف وأبطل قولين وأقر الثالث، المهم أن الله يقول بعد هذا بعدما ذكر القولين ووصل الثالث: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ يعني: لا تتعمق، إذا جاء أحد

«الشذور» رقم (٩٠).

(١) البيت رقم (١٥٨) من ألفية ابن مالك.

يجادلك في هذا الأمر؛ لأنه لا فائدة منه فالشيء الذي لا فائدة منه أو فائدته قليلة ويضيع عليك ما هو أهم ينبغي لك تجنبه، وهذا لو نسير عليه في حياتنا كلها لَكُنَّا نستوعب الوقت بما فيه الفائدة، لكن ما أكثر الأوقات التي تضيع وما أكثر الأقوال التي تقال ويضيع الوقت فيها، المهم أنه يؤخذ من هذه الآية: أنه ينبغي الاعتناء بما هو أهم وترك ما لا فائدة منه، لقوله: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

٤- الفائدة الرابعة: الإشارة إلى الخلاف بين بني إسرائيل، ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والاختلاف رحمة أم شر؟ شر، وأما «اختلاف أمتي رحمة» فموضوع لا يصح[1]؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ لكن لو صح هذا الحديث مثلًا أو قاله بعض أهل العلم فالمعنى أن هذا الاختلاف داخل في رحمة الله وفي سعته بالنسبة للمختلفين، أو أنهم لا يعذبون، وليس المعنى أن إيقاع الخلاف بينهم من رحمة الله، بل ومن حكمة الله ولكن رحمة الله واسعة، فلا يقال مثلًا إنهم معذبون بهذا الخلاف، أو إن الواحد المصيب منهم له أجر والباقون محرومون أو ما أشبه ذلك.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:٧٧].

١- يستفاد من هذه الآية: بيان مرتبة القرآن وفضله وأنه هدى ورحمة، رحمة للعمل به.

٢- الفائدة الثانية: أنه لا ينال هذا الهدى وتلك الرحمة إلا المؤمنون؛ لقوله: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣- الفائدة الثالثة: أنه لا معارضة بين هذه الآية وبين قوله تعالى في وصف القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ والجمع بينهما أن الإثبات هنا والإثبات هناك مختلف الجهة، فهناك هدى للناس بمعنى دليل لهم فهو دليل لكل الناس، لكن هل من استدل به انتفع به؟ لا، قد يهتدي به وقد لا يهتدي به، إنما هو نفسه صارف الهداية لجميع البشر.

٤- الفائدة الرابعة: فائدة الإيمان، لو لم يكن في القرآن فوائد إلا هذا لكفى وهو الاهتداء بالقرآن ونيل الرحمة به.

٥- الفائدة الخامسة: أنه كلَّما كان الإنسان أقوى إيمانًا كان أقوى اهتداءً بالقرآن، وهذا مأخوذ من قاعدة مرت علينا وهو (أن الحكم إذا عُلِّقَ بوصف قويَ ذلك الحكم بقوة ذلك الوصف وضعف بضعف ذلك الوصف)، فما دامت الهداية معلقة والرحمة كذلك بوصف الإيمان فكلما ازداد ذلك الوصف ازداد الهدى وازدادت الرحمة، فإن القاعدة: (أن الحكم إذا علق بوصف فإنه يزيد بزيادته وينقص بنقصانه).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾:

---

(١) إشارة إلى حديث: «اختلاف أمتي رحمة» قال الألباني في الضعيفة رقم (٥٧): لا أصل له.

١- **يستفاد من هذه الآية:** أن القضاء موكول إلى الله وحده؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾.

٢- **ثانيًا:** أن كل قضاء لا يستند إلى قضاء الله فهو باطل.

٣- **الفائدة الثالثة:** إثبات العدل لله سبحانه وتعالى، ويؤخذ من قوله: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ فإن إضافة الحكم إلى الله دليل على أنه مشتمل على العدل.

٤- **الفائدة الرابعة:** وهي مستفادة من التفسير أيضًا أن الحكم هنا يتضمن الحكم الشرعي والحكم الجزائي، فيقضي بينهم بحكمه شرعًا في الدنيا وبجزائه عدلًا في الآخرة، إذنْ ذكرنا أنَّ للإضافة إلى حكم الله فائدتين: أحدهما: العدل، والثاني: الإصلاح، يعني: ما دام الحكم مضافًا إلى الله تعالى وقد علم أنه سبحانه وتعالى حكيم فإن هذا الحكم لابد أن يكون مناسبًا وموافقًا لمحلِّه، وكل حكم وافق محله فهو إصلاح، فإن هذا يتضمن العدل والإصلاح.

٥- **الفائدة الخامسة:** وصف الله - تعالى - بالعِزَّة والعلم، لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

٦- **الفائدة السادسة:** قرن العزة مع العلم في هذا الموضع يستفاد منه فائدة مستقلة غير فائدة العزة على حدة والعلم على حدة، يعني: يستفاد من جمعهما فائدة مكونة منهما وهي أن حكم الله - سبحانه وتعالى - لابد أن ينفذ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ ولابد أن يكون مطابقًا وصحيحًا من قوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ لأننا قلنا فيما سبق أن من كمال الحكم العلم والعِزَّة، العلم ليحكم بالصواب، والعزة لينفذ ما حكم؛ لأن خلل الحكم يأتي إما من الجهل وإما من الضَّعف، إما لجهله أي: الحاكم فيحكم بغير الصواب، وإما لضعفه فلا يستطيع أن ينفذ، إذنْ يؤخذ من جمع هذين الوصفين لله - سبحانه وتعالى - عقب ذكر الحكم تمام الحكم حيث كان مبنيًا على العزة والعلم، فبالعزة يكون التنفيذ وبالعلم يكون الصواب.

٧- **الفائدة السابعة:** تقديم الأخص من الأوصاف على الأعم، الأخص معناه: الأنسب للقضية، فهنا قدم العِزَّة على العلم مع أن العلم سابق عليها في الترتيب الحُكْمي، في الترتيب الحكمي أيهما أسبق؟ العلم أسبق؛ لأن الإنسان يعلم ثم يحكم ثم ينفذ، ففي الترتيب الحكمي العلم مقدم، لكن هنا قدم العزة على العلم في الذكر؛ لأن المقصود الأهم في الحكم هو تنفيذه فكان من المناسب تقديم العزة على العلم، نظير هذا قوله تعالى عن الملائكة لما قالت امرأة إبراهيم حينما صكَّت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٣٠] فقدم الحكمة على العلم مع أن العلم سابق إذ لا حكمة إلا بعلم، لكنه لما كان هذا أمرًا خارجًا عن العادة ومستغربًا قدم الحكمة ليتبين لها أنه ما خرج ذلك عن العادة إلا لحكمة.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية:** وجوب التوكل على الله، لقوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ والأصل في

الأمر الوجوب، ومعنى التوكل سبق تفسيره.

٢- **الفائدة الثانية:** أن في التوكل على الله - سبحانه وتعالى - تتيسر الأمور؛ لأن الرسول ﷺ يكابد من عناد بني إسرائيل وغيرهم، فأمره الله بالتوكل عليه؛ لأن الله ذكر فائدة التوكل في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ فبالاعتماد على الله تتيسر الأمور، وباعتماد الإنسان على نفسه يحصل الخذلان قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة:٢٥] مع أن الرسول معهم ﷺ، ومع أنهم خير القرون وأفضل أهل الأرض لما قالوا لن نغلب اليوم من قِلَّة، حصل هذا الأمر فيتبين بهذا أن من اعتمد على نفسه في حصول مقصوده أو دفع مضروره فإنه يخذل، ولهذا أمر الله رسوله بالتوكل على الله في هذا المقام، مقام النزاع وبيان الحق لبني إسرائيل وهو يكابد من ذلك.

٣- **الفائدة الثالثة:** تسلية الرسول ﷺ؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

٤- **الفائدة الرابعة:** شهادة الله - تعالى - بما جاء به الرسول بأنه حق؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ وفي هذه الفائدة نستفيد فائدة أخرى وهي: الترغيب في سلوك طريق النبي ﷺ، ما دام حقًّا؛ لأن كل إنسان عاقل يختار الحق على الباطل.

٥- **الفائدة الخامسة:** فضيلة النبي ﷺ حيث كان مسلكه الحق المبين، ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ هذا فيه شهادة من الله وتزكية للرسول ﷺ، وهو يتضمن فضيلة الرسول ﷺ يعني: الشهادة من الله أنه على الحق المبين.

٦- **الفائدة السادسة:** أن كل ما خالف ما كان عليه الرسول ﷺ فهو باطل؛ لأننا لو قلنا: إنه حق للزم الجمع بين النقيضين، نقول ما جاء به الرسول حق، وهذا حق، ما يمكن وهو يخالفه، إذ هذا جمع بين النقيضين، إذ لا يمكن أن يكون الشيئان متناقضين كل منهما حق، فلابد أن أحدهما هو الحق، ولهذا يقول الله عزَّ وجلَّ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ ويقول: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ:٢٤] وبهذا نعرف أن جميع ما خُولِف فيه ما كان عليه الرسول ﷺ فهو باطل وهو في النار كما قال الرسول ﷺ: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**» فإن كانت المخالفة تامة فهو باطل كله، وإن كانت المخالفة جزئية كان فيه من الباطل بقدر ما خالف ما كان عليه الرسول ﷺ.

٧- **الفائدة السابعة:** ظهور أحقية ما كان عليه الرسول ﷺ أنه حق ليس فيه خفاء، لقوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

٨- **الفائدة الثامنة:** أن بيان الحق لا يلزم منه أن يكون بيِّنًا لكل أحد، فإن الخفافيش تعمَى في ضياء النهار، فلا يلزم من كون الرسول ﷺ على الحق المبين ألا يُعرض عنه أحد، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: لا تظن أن هؤلاء الذين أعرضوا، أعرضوا لأنك على باطل

بل لعدم قابلية المحل، ومعلوم أن الشيء وإن كان تامًا إذا لم يجد محلًا قابلًا لم يكن له تأثير، رجل معه سيف مسلت وحاد للغاية وأمامه عمود من حديد صلب وهو يُضرب به الحديد الصلب ويقول: أنا ابن جلا وطلَّاعُ الثنايا، ويضرب هذا الصلب الحديد بالسيف يريد أن يقطعه هل ينقطع هذا؟ لا، لعدم قابلية المحل، الآن السبب موجود سيف صارم ورجل شجاع ورجل يعزز نفسه ويتشجع ويصيح بهذا العمود من الحديد، وطبعًا إذا كان بهذه الحال يضرب بقوة أم لا؟ يضرب بقوة ومع ذلك لم يؤثر؛ لأن المحل غير قابل، فما كان عليه الرسول ﷺ من الحق المبين هو حق مبين بلا شك بين ظاهر، وعدم سماع هؤلاء له ليس لخلل فيه، السبب تام لكن الخلل في المحل غير قابل لهذا الحق، ولهذا ما أحسن هذه العبارة أو هذه الآية بعد الآية التي قبلها ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فلا تظن أنك لست على الحق، لكن هؤلاء موتى.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

١- **في هذه من الفوائد:** أن الميت والمراد بالميت هنا ميت القلب أو الموتى موتى الأجسام على سبيل التمثيل لا يسمع، فإذا كان ميت القلب فالأمر ظاهر أنه لا يسمع سماعًا ينتفع به، وإلا فهو يسمع مع الإدراك لكنه لا ينتفع به.

٢- **الفائدة الثانية:** استدل بالآية هذه مَنْ قال: إن الموتى في قبورهم لا يسمعون، وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم منهم من قال: إن الموتى يسمعون ولكن لا يجيبون، ومنهم من قال: إنهم لا يسمعون، ويقبل ما وردت به السنة من سماعهم ولكنه يقصره على ذلك ويقول: فيما عدا ذلك لا يسمع الميت، والسنة وردت بأن الميت إذا دفن وتولى عنه أصحابه فإنه يسمع قَرْع نعالهم، والسنة وردت بما ثبت عن النبي ﷺ، أنه وقف على أصحاب قليب بدر من المشركين وجعل يؤنبهم يا فلان بن فلان بأسمائهم وأسماء آباءهم: «**هَلْ وَجَدتُم مَا وَعَدَ رَبُّكم حقًّا فَإِني وَجَدتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**»، فيقال للرسول ﷺ، ما تُكلِّم من قوم قد جَيَّفُوا، فيقول: «**لَسْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»[(١)]، فهذا الكلام الآن والمناداة كانت عند الدفن أو عند إلقاء الميِّت أو تسليمه للآخرة فلا يقتضي أن يسمع كل وقت، ومن العلماء من قال: (إنه يسمع كل وقت)، كشيخ الإسلام ابن تيمية ويستدلون بالحديث الذي رواه ابن عبد البر وصححه وهو: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرٍ يَعْرِفُه فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّم عَلَيْهِ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوْحَهُ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ**»[(٢)] فيصححون هذا الحديث، وبعضهم يضعفه ويقول: إنه لا يصح، ولكن هذا الحديث لا ينبغي أن يكون هو ركيزة مَنْ يقول: إن الموتى يسمعون، بل إننا نقول: إن الموتى يسمعون وقد نستدل بحديث أصح

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٩/ ٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من هذا، وهو ما ثبت عن النبي ﷺ أنه يزور المقبرة ويقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنْ الْمُؤْمِنِيْن»(١) وتوجيه السلام عليهم بالخطاب يدل على أنهم يسمعون، وإلا لكان يقول: السلام على أهل الديار من المؤمنين، ولا يقول عليكم ولو قال قائل: إن هذا من باب قوة الاستحضار، قلنا: قوة الاستحضار لا تحتاج إلى الدنوِّ، ولهذا نحن نقول: السلام عليك أيها النبي وإن كنا بعيدين ولا يُسن أن نقول الآن: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، حتى نحضر إليهم، فدل هذا على أنهم يسمعون، يبقى عندنا إذا كانوا يسمعون فما هو الجواب عن هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟

نقول المراد: السماع سماع القبول إذا كان المقصود بالموتى موتى القلوب، أو السماع الذي تحصل به الإجابة، هو سماع الإدراك الدنيوي، هذا ما يمكن يعني ليس سماع الميت بما يتكلم به الإنسان كإدراك الحي، بل هو سماع لا نعرف كيفيته، إنما هو سماع لا يمكن أن يجيب إلا إذا أراد الله تعالى إحياءه، وتكلم ونطق فهذا يمكن مثل صاحب البقرة، فإن صاحب البقرة ضربوه ببعضها فأحياه الله وتكلم ومات، ولكنه لم يتكلم ولم يجب إلا بعد أن حيي حياة دنيوية ثم أماته الله.

على كل حال هم لا يسمعون كل الكلام، يعني مثلًا لو ذهبنا نحن وإياك عند قبر وصرنا نتكلم ما يلزم من هذا أنهم يسمعون، هم لا يسمعون إلا الخطاب الموجه إليهم، وليس معنى ذلك أنهم يسمعون وإن كان ظاهر كلام الفقهاء أنهم يسمعون حتى ما لا يخاطبون به، نحن وإن كلمناهم هل يسمعون مطلقًا؟ نعم، يسمعون مطلقًا؛ لأنه إذا كان السبب في هذا السماع، الخطاب، خطابنا لهم، لكن ما دام الخطاب إذا سمعوه مرة سمعوه مرة أخرى ما المانع؟ البعض ما قال مفهوم بأنها تنزع الروح بعد السلام؛ لأنها إذا ردت بعد السَّلام هذا هو الظاهر، أما إذا انتهى السلام لم تسمع، كُلَّما خوطبوا رد الله عليهم أرواحهم فسلموا، بقي أن يقال: هل يسمعون بدون مخاطبة؟

ظاهر كلام الفقهاء أيضًا أنهم يسمعون، ولهذا قالوا: إن الميت يتأذَّى بفعل المنكر عنده من قول أو فعل، هذا رأي الفقهاء ولا أدري ما مستندهم، على رأي الفقهاء يكون يسمعون حتى ما لم يخاطبوا، وعليه أيضًا يكون الإنسان إذا شرَّف القبر بالأحجار التي تلقى عليه أو بالكتابات أو بغير ذلك فإن الميت يتأذى به؛ لأن هذا من المنكر، تشريف القبر وتمييزه على غيره من القبور هذا منكر ولا يجوز، وعلى كلام الفقهاء يكون الميت يتأذى بذلك، ويكون هذا الذي أراد تشريف ميِّته هو في الحقيقة آذاه.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «الاستذكار» (١/ ١٨٥) وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٤٩٣).

٣- **الفائدة الثالثة:** أن من لم يقبل الحق فهو بمنزلة الأصم الذي لا يسمعه؛ لقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾.

٤- **الفائدة الرابعة:** أن الجوارح والحواس التي لا ينتفع بها كالمعدومة وجه ذلك أن هؤلاء لهم آذان ولهم سمع، ولكن لما لم ينتفعوا به، صاروا صمًّا.

٥- **الفائدة الخامسة:** بيان شدة إعراض هؤلاء عن الحق؛ لأنهم صم مولُّون مُدْبرون، وهذا أبعد ما يكون عن السماع، فالأصم إذا كان مقبلًا إليك قد يفهم منك ما يفهمه من الإشارات والحركات فينتفع بذلك ولو كان أصم، لكن إذا ولَّى مع الإدبار ولَّى ببدنه وأدبر بقلبه أو بالعكس، فإن ذلك يكون أشد استحالة في سماعهم مما إذا كان أصم مع الإقبال، وأيضًا في هذا دليل على أن الإنسان إذا ولَّى مدبرًا عن الشرع فإنه قد يعاقب بالصمم عن سماع الحق، بحيث إنه ما ينفع له موعظة ولا نصيحة وهذا هو الغالب، أن الإنسان إذا كان ليس عنده إقبال على الحق أن يحرم الحق حتى لو تكلَّم الناس وفعلوا وأقاموا الأدلة ما انتفع بذلك، ونضرب مثلًا الآن بالمرابين والمتحيِّلِينْ على الرِّبا هم يسمعون المواعظ لكنهم يولُّون، يرون أن ما هم عليه لابد أن يفعلوه ولذلك ما وفِّقوا للانتفاع به، بل بقوا على ضلالهم والسبب في هذا أنهم ما عندهم أي إقبال من الإقبال الذي ينبغي ولهذا نقول: إن الإنسان إذا ولَّى مدبرًا عن الحق فإنه لا يوفق لسماعه.

٦- **الفائدة السادسة:** أن المُعرِض عن الحق بمنزلة الأعمى فهنا قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

٧- **الفائدة السابعة:** أن الرسول ﷺ لا يملك هِداية الخلق؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾، ولا يعارض هذا قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢]؛ لأن الهداية المثبتة غير الهداية المنفيَّة، وما هي الهداية المثبتة؟ هداية الدلالة والعلم والبيان، والرسول ﷺ معلم مبيِّن ودالُّ الخلق على الحق، وأما التوفيق لذلك فهو بيد الله، فالجمع بين الهداية المثبتة للرسول ﷺ والمنفية عنه أن نقول: ما أُثبت للرسول فهو هداية العلم والبيان، وما نفي عنه فهو هداية التوفيق والعمل ولا يستطيع هذا أبدًا.

٨- **الفائدة الثامنة:** أن هؤلاء الجماعة الذين أعرضوا عن الحق قد أقفلت عليهم طرق الخير فهم موتى القلوب لم ينتفعوا بقلوبهم، صم الآذان لم ينتفعوا بآذانهم، عمي العيون لم ينتفعوا بعيونهم، والآيات إما عقلية أو مسموعة أو مرئية، فالعقلية محلها القلب وقد انتفى عنهم الانتفاع بها في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ والمشهودة بها العين وقد انتفى عنهم الانتفاع بها في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ والمسموعة بالأذن انتفى عنهم الانتفاع بها في قوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ فجميع الطرق التي تحصل بها الهداية في هؤلاء، كلها - والعياذ بالله - مسدودة مغلقة.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ في هذه القطعة من الآية من الفوائد الكثيرة:

٩- **الفائدة التاسعة:** أن الذي ينتفع بالآيات التي جاء بها الرسول هم المؤمنون بها ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

١٠- **الفائدة العاشرة:** أنه كُلَّما قوي إيمان الإنسان بآيات الله قوي انتفاعه بها؛ لأنه عُلِّق على وصف الإيمان به في هذه الآيات، فكُلَّما قوي هذا الوصف قوي الانتفاع.

١١- **الفائدة الحادية عشرة:** أن الإيمان يستلزم الإسلام وهل الإسلام يستلزم الإيمان؟ ما يستلزمه، قد يكون الإنسان مسلمًا وليس بمؤمن ولهذا قيل عند الرسول ﷺ عن رجل أنه مؤمن فقال: «أَوْ مُسْلِمٌ»(١)، فدلَّ ذلك على الفرق بين الإيمان وبين الإسلام، وكثير من الناس الآن مسلمون، ولكن ليسوا بمؤمنين، وكثير من المسلمين مستسلمين وليسوا بمسلمين، فالمسلمين اليوم إما مستسلم، أو مسلم أو مؤمن، أقلهم وجودًا المؤمن بلا شك، والمسلم المستسلم كثير، في البلاد غير بلادنا، أكثرهم مسلم بمعنى مستسلم، هوية فقط، ولهذا يأتي أناس من بلادٍ أخرى يقولون: لا نعرف نتوضأ ولا نعرف نصلّي، ولا نعرف نقف في الصلاة، ومع ذلك نقول في الهوية مسلم، القسم الثالث: المسلم غير المؤمن، وهذا كثير في بلادنا مسلمون لكن ليسوا بمؤمنين، والدليل على هذا أن الأعمال أو الأخلاق التي عُلِّقت بالإيمان تجدها مفقودة في كثير من هؤلاء «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(٢) هل هذا موجود بكثرة؟ بقلة، «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا»(٣) فانتفاء الغش موجود بقلة، «لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»(٤) بقلة، وامشِ على هذا، المهم أن الإيمان بالنسبة للمسلمين اليوم قليل، والإسلام كثير والاستسلام أكثر.

١٢- **الفائدة الثانية عشرة:** قوله ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يفيد بأن الآيات كثيرة ليست واحدة، وهي تنقسم إلى قسمين: آيات كونية وآيات شرعية، فما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب فهو آيات شرعية، وما دلت عليه الحوادث أو ما كان من الحوادث فهو من الآيات الكونية، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ من أي شيء؟ كونية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الأحقاف:٧]. هذه الآيات الشرعية، وما وجه كون الآيات آيات؟ لأنها دالة على الله، والآيات الكونية دالة على الله من حيث الفطرة والحكمة والسلطان إلى غير ذلك من معاني الربوبية، والآيات الشرعية دالة على منزلها من حيث

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٧) ومسلم (٢٣٦/ ١٥٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٧١/ ٤٥) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٤/ ١٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٦) ومسلم (٧٣/ ٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

العدل والإحسان، لأن جميع الشرائع - وليس شريعة الإسلام فقط التي جاء بها سيدنا محمد - كلها تحارب الفساد، وكلها تقرر الصلاة، لكن شريعتنا تمتاز على غيرها، بأنها تراعي المصالح العامة.



قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ
﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾
وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟
فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النمل:٨٢-٨٦].

التفسير

قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يقول المفسر: [حق العذاب أن ينزل بهم في جملة الكفار] وهذا تفسير منه على أن الضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود إلى كفار مكة، ولهذا احتاج أن يقول: [في جملة الكفار] لأجل التوطئة لما بعدها ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ويجوز أن يكون الضمير عائدًا إلى جميع الناس أي: إذا وقع القول على الناس، ولا يكون المراد بالقول هنا القول بالعذاب بل يجوز أن يكون المراد به: القول بانتهاء الدنيا فتحمل الآية على الدابة التي تخرج في آخر الزمان وهي من أشراط الساعة.

وقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ نكرها بأنها غير معروفة فكأنها دابة منفردة في نوعها، وقوله: ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هل هي متعلقة بدابة أو بأخرجنا؟ الظاهر أنها متعلقة بدابة، أي: أخرجنا لهم دابة من الأرض لا من السماء، وقوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ يعني: تكلم الناس، فالكلام هنا بمعنى الحديث، قال: [أي تكلم الموجودين حين خروجها بالعربية] يجوز أن تكون بالعربية أو بغيرها.

على كل حال أنها تكلم الناس بكلام يعرفونه، هذا هو المتبادر من الكلام.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالكلام هنا الجرح، ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي تجرحهم بأظفارها، قالوا: لأن الكلم يأتي بمعنى الجرح؛ لقوله ﷺ: **«مَا مِنْ مَكْلُوم يُكْلَمُ فِيْ سَبِيْلِ الله إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَكَلْمُهُ يَسْعُبُ دَمًا»** ولكن هذا القول ليس بصحيح؛ لأن الأصل في الكلام هو النطق ولا

معنى لكونها تجرح الناس، لكن تكلمهم بماذا؟ قال: [من جملة كلامها عنَّا أن الناس كانوا بآياتنا...] إلى آخره، قوله: [من جملة كلامها عنا] أي: أنها تقول على لسان الله؛ لأن قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ لا يستقيم أن يكون من كلام الدابة عن نفسها، إذ إنها أي: الدابة ليس لها آيات يجب الإيقان بها، وإنما الآيات التي يجب الإيقان بها لله، ولهذا يقول المؤلف هنا: [عنا ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي: كفار مكة، وعلى قراءة فتح همزة أن تقدر الباء بعد تكلمهم]، أي: تكلمهم بهذا الكلام، ويستفاد من كلام المؤلف [وعلى قراءة الفتح]: أن الأصل الذي فسَّره بالكسر «إِن الناس»، تكلمهم إِن الناس، يكون هذا مبتدأ الكلام، وعلى قراءة الفتح يكون على تقدير حرف الجر، أي: بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، وقول المؤلف: إن المراد بالناس كفار مكة هذا فيه نظر ظاهر بل إن المراد بالناس الموجودين في ذلك الوقت الذين وقع عليهم القول فأخرجت لهم الدابة، وأما كونها يقال: كفار مكة لا يوقنون فلا حاجة إلى إخبارها عنهم إخبار القرآن عنهم أوكد من إخبار هذه الدابة عنهم، فكلام المؤلف هنا فيه نظر ظاهر، وليس بصواب أبدًا بل هو خطأ فهي تُكلِّم الناس الذين وقع عليهم القول حين خروجها تحذرهم أن الناس كانوا بآيات الله لا يوقنون، هذا ما مشى عليه المؤلف وأكثر المفسرين على أن كلام هذه الدابة أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، ولهذا احتاج إلى تقدير (عنا)، لكن ابن كثير استبعد هذا القول وقال: إنها تكلمهم أي: تحدثهم بحديث مستقل ما بُيِّن في القرآن، فيكون قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أو (إن الناس)هذا تعليل لقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ يعني: فليست الدابة هي التي تقول للناس ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾؛ لأن هذا القول لا يمكن أن تنطق به الدابة إذ إنه لا يصح أن يكون إلا من الله، لهذا أنكر هذا القول مع أن ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختاره، لكنه هو على أنه مختصر لابن جرير أنكر هذا وقال: إنها تكلمهم بكلام لم يُبيَّن.

وقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أو ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بالفتح أو بالكسر والجملة تعليل لقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ يقول: [أي لا يؤمنون بالقرآن المشتمل على البعث والحساب والعقاب] وتفسير الإيقان بالإيمان فيه قصور لكنه تقريب؛ لأن الإيقان أبلغ من الإيمان وأخص منه، فهو درجة عالية أعلى من الإيمان، ولهذا يقال أيقنت بكذا أبلغ من قولك آمنت به، وهذه الدابة أولًا نبحث فيها هل هي الدابة التي تخرج في آخر الزمان والتي ذكرها النبي ﷺ من علامات الساعة أو دابة أخرى؟

الجواب: يرى بعض العلماء أنها هي الدابة التي تكون في آخر الزمان، ويرى آخرون أنها دابة أخرى، ولهذا جاءت في الحديث معرَّفة وجاءت هنا منكرة، فيقال: دابة والله أعلم بها، هل هي التي تكون من أشراط الساعة أو أنها دابة مستقلة؛ لأننا لو نعلم أن الحديث بعد هذه الآية لقلنا: إن الدابة في الحديث للعهد الذهني، يعني: الدابة التي عرفتموها يتحدث الله عنها، وحينئذٍ تكون

الدابة هنا هي الدابة هناك، ولكننا لا نعلم، ولهذا التوقف أولى هل هي هي أو غيرها؟ ثانيًا: هذه الدابة مبهمة من حيث المكان، ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لكن من أي مكان تخرج؟ وردت أحاديث لكنها ضعيفة أنها تخرج من مكة، من أبياد أو من الصفا أم من مكان آخر، المهم أنها تخرج من مكة ولكنها أحاديث ضعيفة لا يعتمد عليها في العقيدة، ثم هل هي تخرج حقيقة من الأرض تنشق عنها الأرض، تخرج سواء من مكة أو غيرها، أو أن المراد بالإخراج هنا إبرازها وإظهارها وأنها دابة كغيرها من الدواب؟ ثم تتبين بما يحصل لها من النطق فيكون هذا كقول الرسول ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَى تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الإِنْسَ**»؛ لأن السباع في آخر الزمان تكلم الإنس، هذه - أيضًا - محل توقف ولذلك هذه الدابة نكرة لفظًا ومعنىً لا نعرفها تمامًا؛ لأنها ما وصفت بالقرآن أو بالسنة أوصافًا بحيث يجزم الإنسان بها.

البحث الرابع: هذه الدابة هل هي من جنس الدواب أو أنها دابة معينة على شكل معين؟ تكلموا فيها كلامًا طويلًا في هذا، وكل ما ذكروا إنما هو مأخوذ من بني إسرائيل ولا يمكن أن يصدق، وغاية ما هنالك أنه يذكر فيحدث به ولا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليه في العقيدة وذكروا عن آذانها وذكروا عن عينها وعن رجلها أشياء غريبة جدًا.

المهم أننا نقول: نبهم ما أبهمه الله، ولا نعين ما لم يعينه الله ورسوله، وحسبنا أن نؤمن بأنه إذا وقع القول على الناس فسوف يخرج الله لهم دابة من الأرض تحدثهم وتكون هذه الدابة آية على أن العذاب قد قَرُب وقوعه، هذا غاية ما يستدل به من هذه الآية أو ما يستدل عليه من هذه الآية، إذن يكون قوله: (إِن الناس) أو (أَن الناس) ليس من قول الدابة على هذا التقدير، بل هو من قول الله تعليلًا من قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ يعني: نخرجها؛ لأن الناس كانوا، وعليه فيكون مطابقة هذا التعليل للشَّرْك في قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يكون مطابقته مطابقة السبب بالمسبب، إذا كانوا لا يوقنون حينئذٍ وقع عليهم القول، وحينئذٍ أخرجت الدابة.

وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾: المراد بالآيات هنا الكونية والشرعية، لكن الكونية ألم يوقن بها الكفار؟ نعم لكنه إيقان لم ينفعهم، والشيء الذي لا ينفع يصح أن ينفى لعدم الانتفاع به، قال: [وبخروجها] أي: بخروج الدابة [ينقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يؤمن كافر] لماذا؟ لأنه قد وقع عليهم القول، وإذا صحَّ هذا التفسير فإن معنى ذلك أن هذه الدابة من أشراط الساعة؛ لأنه لا يكون الأمر كذلك إلا في آخر الزمان بعد أن ينزل عيسى ويبقى في الأرض سبع سنين ولا يحصل بين اثنين عداوة ولا شحناء، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قبل الشام فتقبض نفس كل مؤمن ويبقى شرار الناس، ويبقى الطير وأحلام السباع، فهذا إذا كان هو الذي فهمه المؤلف من هذه الآية في هذا الأمر فإن هذه الدابة يكون خروجها بعد عيسى بن مريم؛ لأن بعد ذلك يقول المؤلف: إنه لا يؤمن كافر ولا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن المنكر، ولكن موقفي في هذا أن

أقول: الله أعلم، يعني هذه المسألة من مسائل الغيب التي يتوقف الإنسان فيها إلا على ما يفيده ظاهر القرآن فنقول: إيماننا بهذا أن نقول: إنه إذا وقع القول على الناس باستحقاق العذاب أخرج الله لهم هذه الدابة التي تكلمهم، ولا نزيد على هذا ولا نقول ينقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا نقول: إنه لا يؤمن كافر؛ لأن ذلك أمر يحتاج إلى توثيق.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾. [(و) اذكر ﴿يوم نحشر من كل أمة فوجًا﴾ جماعة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ وهم رؤساؤهم المتَّبعون ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يجمعون برد آخرهم إلى أولهم ثم يساقون]، قال: [واذكر يوم] يستفاد من هذا التفسير أن (يوم) ظرف وأن عامله محذوف، والتقدير: اذكر يوم، وهذا الترتيب له نظائر في القرآن فيكون تقديره على هذا كما قدَّره المؤلف هنا، وقوله: ﴿نَحْشُرُ﴾ بمعنى: نجمع، وقوله: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ الأمة هي القبيلة أو الطائفة الكبيرة من الناس، والفوج أقل منه، ولهذا يقول المؤلف: وهم رؤساؤهم المتبعون، وقوله: ﴿فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ﴾ مِنْ هذه لبيان الجنس، أي: فوجًا من المكذبين بآيات الله الشرعية أو الكونية أو إحداهما، ﴿فَهُمْ﴾ أي: الفوج [رؤساؤهم المتَّبعون]، فهم يحشرون فيجمعون ثم بعد ذلك يوزعون، والوزع بمعنى المنع، أي: يحبس أولهم حتى يجتمع به آخرهم، ولهذا قال: [برد آخرهم إلى أولهم] فيكونون جملة واحدة [ثم يساقون إلى الله تبارك وتعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو﴾ مكان الحساب ﴿قَالَ﴾ تعالى لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ أنبيائي]، المؤلف قال: [أنبيائي] يشير بذلك أن مفعول كذبتم محذوف، وأن ﴿بِآيَاتِي﴾ حال من أنبيائي، ولكن هذا التقدير لا معنى له ولا داعي له؛ لأن التكذيب دائمًا يقع معموله معدًّى بالباء، كذب بآيات الله، وهو لم يقل كذب آيات الله بأنبياء الله، بل كذب بآياتي، والتكذيب هنا مضمن معنى الجحد فعليه نقول: لا حاجة إلى تقدير المؤلف أنبيائي، بل نقول بآياتي جار ومجرور متعلق بكذبتم، قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ يعني: أنكرتموها وجحدتموها، [﴿وَلَمْ تُحِيطُوا﴾ من جهة تكذيبكم ﴿بِهَا عِلْمًا﴾ إلى آخره]، والإحاطة بالشيء بمعنى: إدراكه من جميع الجوانب وأصله مشتق من الحائط لأنه يحيط بالمكان فمعنى أحاط بالشيء أدركه من جميع جوانبه، المؤلف فسر هنا الإدراك من جهة تكذيبكم، أي: أنكم كذبتم من غير أن يكون لديكم علم بالتكذيب، كذبتم بلا علم، ولكن يحتمل معنى آخر وهو: أنكم كذبتم بالآيات قبل أن تدركوها، فيكون هذا من البدار بالشيء قبل أن يدركه:

إِنَّ البِدَارَ بِرَدِّ شَيءٍ لَمْ تُحِطْ عِلْمًا بِهِ سَبَبٌ إِلَى الحِرْمَانِ

كما قال ابن القيم.

الآن لدينا تفسيران: أحدهما أن قوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ أي من جهة تكذيبكم، والمعنى على هذا: أنكم كذبتم بدون علم، وهو الذي مشى عليه المؤلف قال: [﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا﴾ من جهة تكذيبكم]، الآن إذا أتاك رجل بخبر فقلت كذبت؛ لأن فلانًا الذي أخبرت به هو موجود عندي

في تلك الساعة، الآن كذبت بعلم أم بغير علم؟ بعلم، مثلًا إذا قال لك: إن فلانًا رأيته في بُريدة أمس، فقلت له كذبت فلان أمس عندي فهنا كذبت بعلم، فإذا قال رأيت فلانا في بريدة أمس فقلت له كذبت وأنا ما أدري، فقد كذَّبت بلا علم، الآن المؤلف يقول: [من جهة تكذيبكم بها] يعني: أنكم كذبتم بغير علم، وهناك رأي آخر يقول: لا، قوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ يعني: أنكم كذبتم بها من غير رويَّة ومن غير تأمُّل، يعني: أنكم رددتموهما من أول وهلة، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والفرق بين المعنيين ظاهر الآن، والأقرب المعنى الثاني؛ لأن قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ والحال أنكم لم تحيطوا بها علمًا أبلغ من كونهم كذبوا بعد أن تَرَوَّوْا ولكن لم يجدوا لتكذيبهم دليلًا، فهم كذبوا من غير تروٍ بل إنهم في الحقيقة وخصوصًا الرؤساء منهم يعلمون أن ما جاءت به الرسل فهو الحق، ولكن كذَّبوا بشيء، مثل ما قال الله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ كذبوا بشيء لم يحيطوا بعلمه، بل من أول وهلة وهذا أشد في اللوم عليهم، فعليه الاستفهام في قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ للتوبيخ واللوم؛ لأن من كذب بالشيء بعد دراسته والإحاطة به، ثم يتبين له الكذب هذا لا يلام عليه، لكن من كذب لأول مرة بدون أن يحيط بالشيء علمًا فهو دليل على أنه ليس بقابل إطلاقًا للحق.

قال: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول: [أم ما فيه إدغام ما الاستفهامية]، أين الإدغام؟ في (أم) التي للإضراب وأصله أم بمعنى بل، ثم إحداهما في الأخرى و(ذا) موصول، أي: ما الذي كنتم، ويجوز أن نجعل (ذا) مركبة مع (ما)، وتكون مع ماذا كلها اسم استفهام ولكن ليس هذا في كل مكان يجوز هذا وهذا، إنما في مثل هذا الترتيب يجوز أن نجعل ماذا اسم استفهام جميعًا، وأن نجعل (ما) اسم استفهام و(ذا) اسمًا موصولًا، أي: ما الذي كنتم تعملون؟ وعلى هذا التقدير الأخير يجب أن نقدر ضميرًا في قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ليكون عائدًا إلى اسم الموصول، وعلى الأول لا حاجة لذلك، ونجعل (ماذا) مفعولًا مقدمًا لـ ﴿تَعْمَلُونَ﴾، لكن هل تقدر (ما) اسم استفهام و(ذا) اسمًا موصولًا، وتحتاج إلى عائد يعود على الموصول في ﴿تَعْمَلُونَ﴾، أو نقدر ماذا جميعًا على أنها اسم استفهام، أم هذه حرف عطف بمعنى بل وهمزة الاستفهام، نظيرها في القرآن ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ فيها قراءتان: (قل العفوُ)، و(قل العفوَ)، كيف نعرب ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ على قراءة الرفع؟ نعربُ ماذا: ما اسم استفهام وذا اسم موصول؛ لأنه إذا قلت ما اسم استفهام وذا اسم موصول ما: مبتدأ والذي: خبره بل كل منهما مرفوع، ثم يأتي (قل العفوُ) لأن الجواب مطابق للسؤال، أي: العفوُ الذي ينفقون.

أما على قراءة النصب (قل العفوَ) فيتعين أن تجعل (ماذا) اسم استفهام كلها وهي مفعول مقدم لـ (ينفقون) لأجل أن تكون مطابقة للجواب، يعني: ذا منصوب فيكون السؤال كذلك منصوبًا، وهذا هو الذي يبين لك الفرق بين الإعرابين، قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ

﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾ نقول على هذه القراءة: يجب أن نعرب ماذا اسم استفهام مفعولًا مقدمًا لينفقون، لأجل ماذا؛ لأني ما أعرف أن الجواب يكون مطابقًا للسؤال، فإذا كان السؤال منصوبًا كان الجواب منصوبًا، على قراءة الرفع قل العفوُ، نجعل ما مبتدأً وذا اسم موصول خبره، يعني ما الذي ينفقون فيكون التقدير: الذي ينفقونه العفو، فتكون مرفوعة، متى تحتاج إلى ضمير؟ إذا جعلناها اسمًا موصولًا، والتقدير: ماذا كنتم تعملونه.

قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ماذا تعملون؟ يعني في الدنيا، فيكون الله تعالى وبَّخهم على أمرين: أمر يتعلق بالعقيدة وهو قوله: ﴿أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ وأمر يتعلق بالعمل وهو قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأن ماذا كنتم تعملون هذه استفهام لإنكار ما يعملونه، فيكون في هذا توبيخًا على العقيدة والعمل، وقوله: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [حق العذاب ﴿عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أي: أشركوا ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ إذ لا حجة لهم]، وقع القول: أي: قول الله بالعذاب فإن الله تبارك وتعالى يأمر بتعذيبهم إذا لم يجيبوا، وهذا السؤال ليس سؤال استخبار واستعلام، ولكنه سؤال توبيخ وتقريع، حينئذٍ يقع عليهم القول، وهذا القول الذي وقع عليهم لم يظلموا به، ولكن هم الذين ظلموا، ولهذا قال: ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أي: بسبب، و(ما) هنا مصدرية يعني: أن الفعل بعدها يحول إلى مصدر، فيكون التقدير: وقع القول عليهم بظلمهم، وقول المؤلف: [أي أشركوا] ينبغي أن يفسر الظلم بما هو أعم من الشرك؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - وبَّخهم على التكذيب وعلى العمل المنحرف، فيكون الظلم الذي حصل منهم التكذيب والجحد الذي يتضمن الإشراك، وكذلك الفسوق والعصيان الذي حصل منهم بإيذاء الرسل وغير ذلك، فالأصح أن نجعل ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أي: بسبب ظلمهم ومنه الشرك، ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ الفاء مفرعة على قوله: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم﴾ أي: بعد أن وقع عليهم القول استحقوا العذاب لا يستطيعون النطق، يقول المؤلف: [إذ لا حجة لهم] وهذا في آخر الأمر؛ لأنهم كانوا بالأول ينطقون، ويدافعون، ولكنهم إذا رأوا أن جوارحهم شهدت عليهم حينئذٍ أنكروا ما يستطيعون الآن، وإلا يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] نحن كنا ما أشركنا، ويقولون أيضًا: ﴿أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣] ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧ - ٢٨] فهم يتكلمون ويدافعون عن أنفسهم ولكن ذلك لا ينفعهم، ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢] المهم: أنهم يتكلمون.

وقوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ هذا يكون الجمع بينه وبين الآيات الدالة على أن النطق أن للقيامة أحوالًا؛ لأن يوم القيامة مقداره خمسين ألف سنة، فالأحوال تتغير يكون الناطق فيه ساكتًا ويكون

الساكت فيه ناطقًا وتتقلب الأحوال، ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لما ترى ﴿فَهُمْ﴾ في حال ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ وفي حال ينطقون ويدافعون، ولكنهم مهما قالوا ومهما فعلوا فإن لديهم شهودًا من أنفسهم، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤] اللسان ينطق بما قال، واليد تنطق بما فعلت، والرِّجل تنطق بما فعلت، والأعجب من ذلك الجلود، تشهد بما لمست، وجميع الذي فيه الإدراك والحاسة يشهد على هؤلاء بما فعلوه، وحينئذٍ ما يستطيعون أن يدافعوا، ما دام أن هذه الأشياء تشهد عليهم؛ إذن من يشهد له، ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ يحشرون يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا، تتغير الأحوال، المتكبرون يحشرون يوم القيامة كأمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم، ولكنهم إذا دخلوا النار يصير ضرس الواحد منهم مثل أُحد[1].

قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾: الرؤية هنا بصرية أم علمية؟ علمية وبصرية أيضًا لكن كونها علمية أعم؛ لأن من أبصر الشيء علمه، وليس كل من علم الشيء أبصره، فالأعمى يرى الليل، يعني: يعلمه، والمبصر يراه بعينه وبصيرته، والهمزة هنا ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ تقرير هذه الرؤية التي لا ينكرها أحد، ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ فسر المؤلف الجعل هنا بالخلق فيكون متعديًا بمفعول واحد، ويجوز أن يكون الجعل هنا بمعنى التصيير، يعني: أنَّا جعلنا الليل مظلمًا ليسكنوا فيه، ويدل على هذا قوله تعالى الذي بعده ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [ليتصرفوا فيه]، ويكون حذف من كل جملة ما دل عليه المذكور في الجملة الأخرى فيسمى هذا في علم البديع بالاقتباس، والاقتباس: أن يذكر في كل جملة ما حذف من الأخرى مع التقابل، هنا نقول: (ألم يروا أنا جعلنا الليل مظلمًا ليسكنوا فيه)، ماذا حذف من هذا؟ مظلمًا، ذكر مقابله مبصرًا وحذف من قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ ليتصرفوا فيه، وذكر مقابله ﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، فيكون في الجملة اقتباس وبهذا نكون استفدنا المعنى مع الاختصار، على هذا التقدير الذي ذكرنا يكون (جعلنا) ليست بمعنى: خلقنا، بل بمعنى صيَّرنا، تنصب مفعولين: المفعول الأول الليل، والمفعول الثاني محذوف تقديره: مظلمًا، ﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ اللام هنا للتعليل، السكون معناه: القرار وعدم الحركة، ولذلك كان الليل محل السكون للخلق، ولكنه بإذن الله محل عمل لخلق آخرين، فالهوام والسباع ما تعمل إلا في الليل؛ لأنها تختفي في النهار إما خوفًا من الناس وإما رحمة من الله بالخلق؛ لأنه لو كانت هذه السباع وهذه الهوام تختص بالنهار أتعبت الناس، ولكنها والحمد لله لا تظهر إلا بالليل، إذا سكن الناس بدأ عملها بالتناوب.

وهذا من رحمة الله - تبارك وتعالى - بالخلق أن يكون هذا التبادل ليعيش الناس بسلام، حتى هي أيضًا لا تأمن على نفسها إلا بالليل، آمن لها، ما تعارض، فهنا المراد بالسكون: يحوي الآدميين

---

(١) هذا حديث صحيح من حديث أبي هريرة ﵁ أخرجه مسلم (٤٤/ ٢٨٥١).

ومن أشبههم ممن سكونهم الليل، ولهذا كان الإنسان إذا أراد الصحة فليكن الليل سكنًا له ولكن ينام أول الليل، فإن النبي ﷺ كان يكره الحديث بعد العشاء[1]، وقد ذكروا أن نوم الليل الساعة منه تقابل ساعات من النهار، هذه الثروة السكونية التي أضعناها الآن بما لا نفع فيه، بل بما فيه ضرر الآن، الآن الناس يعكفون على مشاهدة التلفزيون إلى نصف الليل تقريبًا بينما في الدول الغربية - مع الأسف الشديد - الكافرة الملحدة لا يتجاوز الساعة التاسعة من الليل؛ لأنهم حريصون على أنفسهم وعلى عمالهم وعلى مثقفيهم، فهم لا يريدون الضرر بالأمة يقولون: إذا أبقيناه إلى ما بعد التاسعة سهر الناس عليه وكان في ذلك إنهاك للعمال، وكان في ذلك إهمال للطلبة، فلذلك نحن نغلقه من الساعة التاسعة حتى ينام الناس وحتى لا نكون نحن تسببنا في إرهاق الناس، وحدثني بذلك عدة أناس من الذين جاءوا من أوروبا، يقولون أبدًا ما يمكن يتجاوز الساعة التاسعة، اللهم ما أدري في الأشياء النادرة، لكن هذا هو برنامجهم، نحن الآن مع الأسف الشديد يقولون: إنه يبقى إلى فوق الثانية عشرة، يعني: الثانية عشرة نصف الليل، هذا مع ما يتطلب من الناحية الاقتصادية، كم يستهلك الناس من الكهرباء في هذه الساعات، تلفزيوناتهم وكذلك أيضًا في أنوارهم؛ لأن المكان لابد له من نور، يستهلك نور ويستهلك كهرباء في التلفزيون، كم يكلف العالم وكم يرهق المعدَّات أيضًا، هذا بقطع النظر عن المفاسد الأخرى البدنية، ولكن العبرة بمن بصَّره الله - تبارك وتعالى -.

فمثل هذا المسئول الآن راعي البيت، إذا كانت الساعة التاسعة يأمر أهله بالنوم ويغلقه، والنبي ﷺ كره الحديث بعد العشاء، فكوننا نسهر إلى نصف الليل أحيانًا أو إلى أكثر وليس ليلة طارئة حتى نقول العوارض عوارض، بل هي دائمًا في الغالب، هؤلاء الذين يسهرون إلى ما بعد نصف الليل أولًا ربما ما يقومون لصلاة الفجر، وإذا قاموا يؤدونها بكل كلفة ومشقة، أو ينامون يمكن في نفس المسجد أو في نفس الصلاة، ثم إذا رجعوا إلى بيوتهم ينامون إلى الظهر، يعني: أول النهار الذي محل البركة ومحل العمل يضيع، والليل الذي هو محل السكون يُضَيَّع السكون فيه، وهذا من نقص الوعي في المسلمين، هذا في الحقيقة يعتبر نقص وعي في المسلمين، يقولون عن الكفار: إن هناك عندهم عطلة فترة السبت لأجل اليهود والأحد لأجل النصارى، لكن يقولون النصارى ليلة الإثنين من غروب الشمس وكلهم في محلهم، ما يمكن لأجل مرور الصباح وإذا هو مباشر لعمله، ما يمكن أن يتأخروا، كل إنسان في محله يكون متهيئًا للعمل، وإذا قارنت حال هؤلاء بحال المسلمين اليوم مع أن أحوالهم هذه هي التي يجب أن تكون للمسلمين، وجدت هذا السبب الذي جعلنا في تأخر وجعلنا في هذا الذل وجعل كثيرًا من شبابنا ما هم مقتنعين بأحوالهم، يعني: بعض الشباب الآن المنحرف قد يكون له عذر، يقول: أنتم تقولون الإسلام والإسلام

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٤٧) ومسلم (٢٣٧/ ٦٤٧) من حديث أبي برزة رضي الله عنه.

والإسلام أين الإسلام؟ ليس هناك إسلام، ولكن نقول الذنب ذنب من ينتسبون إلى الإسلام ليس ذنب الإسلام نفسه، ذنب من يقولون: نحن أهل الإسلام، وفي أهل الإسلام من لا يعرف أركان الإسلام، وقد يكون أن بعض الناس المسلمين الآن الذين يقولون نحن مسلمون مكتوب على هويتهم مسلم لا يعرف أن يتوضأ أو أن يصلي فأين الإسلام من قوم لا يتوضأون ولا يصلون؟ هذا هو الذي أَخَّرَنَا.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** خروج هذه الدابة إذا وقع القول على الناس وذلك بأنهم إذا كفروا وأعرضوا عن دين الله - سبحانه وتعالى - أخرج الله لهم هذه الدابة.

٢- **الفائدة الثانية:** أن هذه الدابة التي ذكرها الله مبهمة فلا تعلم صفتها ولا كيف تخرج ولا من أين تخرج، وما ذكر من الآثار في ذلك فكلها ضعيفة لا يُعول عليها، وحسبنا أن نؤمن بما ذكر الله تبارك وتعالى مطلقاً.

٣- **الفائدة الثالثة:** بيان قدرة الله - عزَّ وجلَّ -، حيث كانت هذه الدابة تُكلِّمُ الناس بكلام يفهمونه مع أن الحيوانات تتكلم بكلام لا يفهمه الإنس إلا من علَّمه الله - تعالى - منطقها كما في قصة سليمان عليه السلام.

٤- **الفائدة الرابعة:** بيان حكمة الله - تبارك وتعالى - في الإنذار، وأنه - سبحانه وتعالى - ينذر عباده بالآيات الكونية إذا لم تفدهم الآيات الشرعية، وهذا كثير كالكسوف والزلازل والفيضانات والصواعق والحاصب من السماء بالبرد أو غيره، كل هذا إنذار بالآيات الكونية إذا لم تفد الآيات الشرعية، وقد قيل: (العبد يضرب بالعصا والحر تكفيه الإشارة)، فالمؤمن الواعي الحي يكفيه ما في القرآن من الآيات العظيمة، ولكن المعرض اللئيم لا ينفع فيه إلا العصا، إلا الآيات الكونية التي تُقطِّعه غصباً عنه، هذا إذا لم يكن أيضاً قلبه ميِّتًا للغاية فإن كان قلبه ميتاً للغاية لم تنفع فيه حتى الآيات الكونية ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ ماذا يقولون؟ قطع من العذاب تنزل من السماء ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤] وعاد لما رأوا عارضاً مستقبل أوديتهم ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ وفي الوقت الحاضر إذا رأوا هذه العقوبات يقولوا هذا أمر طبيعي، فيضانات طبيعية، براكين وما أشبه ذلك من الكلام الذي يدل على موت القلوب، فإذن نستفيد من هذه الآية أخيرًا إنذار الله تعالى بالآيات الكونية، كما هو عادته سبحانه وتعالى.

٥- **الفائدة الخامسة:** أنه يعطي - سبحانه وتعالى - العلم حتى البهائم، فهذه الدابة تقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ على أحد القولين فيها، والقول الثاني: أن هذا الكلام من

كلام الله وأنها ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وتكلمهم يعني: كأنها منهم، ثم يعلل الله هذا الإخراج بقوله: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

٦- **الفائدة السادسة:** أن عدم اليقين بآيات الله - تعالى - سبب للهلاك، وأنه لا يكفي التردد أو الإيمان الضعيف بل لابد من إيقان، فالمتردد بما يجب الإيمان به مؤمن أم لا؟ لا؛ لأنه لم يوقن فلابد من الإيقان، وأما التردد والشك حتى مع ترجح ما ذكر الله، فإنه لا يفيد الإنسان، يعني: لو إنسان آمن لكن عنده بعض الشك، فإن ذلك ليس بمؤمن؛ لأنه لابد من اليقين بما يجب الإيمان به.

فائدة: قوله تعالى عن الأعراب: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، هؤلاء ليس عندهم نوع من الشك، لكن عندهم نوع من الانقياد، يعني: ضعف في الانقياد وعدم العلم بما أنزل الله، وأما لو كان عندهم شك ما صاروا مؤمنين إطلاقاً ولا مسلمين أيضاً، فهذا نفي كمال الإيمان لا أصل الإيمان، وأما مع الشك فإن أصل الإيمان لم يوجد، فالإيمان الإعتقادي إذا لم يوجد كاملاً فهو لا ينفع الإنسان، فالإيمان يكون مفقوداً عند الشك فيه، ولابد من الإيمان الجازم ولهذا من شك فيما وعد الله به ومن شك في أركان الإيمان الستة أو في واحد منها فهو كافر، لابد أن يؤمن.

وخبر الله إذا شك أحد فيه فهو كافر أيضاً؛ لأن خبر الله يجب التصديق به.

الفوائد:

وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:٨٣].

١- **من فوائد هذه الآية:** أن فيها دليلًا على إثبات الحشر، لقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾؛ لأن هذا على تقدير محذوف، ما هو المحذوف؟ اذكر يوم، لكن اذكره لمجرد العلم أم لمجرد العلم والعقيدة؟ للعلم والعقيدة، كل شيء في القرآن ليس يذكر لمجرد النظر أو لمجرد أن نعلم به، بل هو يذكر للاعتقاد إن كان عقيدة وللعمل إن كان عملاً.

٢- **الفائدة الثانية:** أن الله - سبحانه وتعالى - يحشر من الأمم أفواجاً معينة يكونون أمة لباقيهم، لقوله: ﴿نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ من كل الأمم فوجًا، ومنهم هؤلاء الفوج: أشدهم على الرحمن عتيًا ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩] لأجل والعياذ بالله يخزون خزيًا أعظم؛ لأنهم قادة في الدنيا فيكونون قادة إلى النار في الآخرة قال الله عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾.

٣- **الفائدة الثالثة:** يستفاد مما قررنا الآن: عِظَم الإمامة في السوء كما أنها أيضاً عظيمة في الخير، فالإمام في الخير له أجر من اتبعه، والإمام في الشر عليه وزر من اتبعه، فالإمامة في الخير أو في الشر هي أمر عظيم، وخير الناس من دلّهم إلى الخير وشر الناس من دلّهم على الشر.

٤- **الفائدة الرابعة:** قوله: ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ فيه دليل على: أن التكذيب بالآيات كفر؛ لأنه يحشر هؤلاء الفوج إلى النار؛ لأنهم مكذبون بآيات الله، والتكذيب بآيات الله سبق أنه ينقسم إلى قسمين: تكذيب بالآيات الشرعية وتكذيب بالآيات الكونية، وأن التكذيب بالآيات الكونية أقل من التكذيب بالآيات الشرعية.

٥- **الفائدة الخامسة:** ما يفيده قوله ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ يجمع أولهم إلى آخرهم وآخرهم إلى أولهم؛ لأن ذلك زيادة في خزيهم وعارهم - والعياذ بالله -، حيث يعرفون أنفسهم ويُعرفون عند الخلق.

الفوائد:

ثم قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية:** إثبات الكلام لله - عزَّ وجلَّ -، لقوله: ﴿قَالَ أَكَذَّبۡتُم﴾ وأنه بحرف وصوت؛ لأن الجمل التي هي مقول القول حروف، وأنه بصوت، ما وجهه بصوت؟ لأنه لولا أنهم يسمعون ما كان لهذا فائدة ولا سماع إلا بصوت.

٢- **الفائدة الثانية:** توبيخ هؤلاء على تكذيبهم بآيات الله، ومعلوم أن التوبيخ لاسيما في هذا المقام أشد من وقع السهام؛ لأنه توبيخ في مكان يقع فيه الندم والحسرة، لأنه لا يمكن التخلص ولا التكذيب ولا الرجوع عما كان، فهو من أعظم ما يكون من العذاب والعياذ بالله، مثل هذا التوبيخ الذي في قوله ﴿أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي﴾

٣- **الفائدة الثالثة:** أنه يزداد التكذيب إذا لم يُحط الإنسان علماً بما كذب به؛ لقوله: ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾ وهذه الجملة محلها من الإعراب: جملة حالية، يعني: والحال أنكم لم تحيطوا بها علماً، الجملة إذا صار يصح قبلها والحال كذا، فهي جملة حالية، ففيها زيادة توبيخ في كونهم يكذبون من غير أن يحيطوا علماً بما كذبوا به، ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ المؤلف فسر ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾ على وجه آخر، ما هو الوجه الآخر؟ يعني: كذبتم بلا علم عن وجه هذا التكذيب.

٤- **الفائدة الرابعة:** توبيخ هؤلاء على عملهم، كما وُبِّخُوا على التكذيب وُبِّخوا أيضاً على العمل في قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وتقدم إعراب ﴿أَمَّاذَا﴾ وما يجوز فيها من الوجهين.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥].

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن العذاب قد حق على هؤلاء، أو أن المعنى ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أنه صدق القول عليهم فلم يستطيعوا الجواب، يعني: أنهم وبِّخوا بالتكذيب وبالعمل فقال: وقع القول عليهم أي: ما قيل لهم من هذا التوبيخ صدق عليهم، فلم يستطيعوا الدفاع، في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ لأن من وُبِّخ على أمر لم يقع عليه يستطيع أن ينطق

فيدافع، لكن هؤلاء ما استطاعوا.

٢ - من فوائدها: قوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ إثبات السبب؛ لأن الباء هنا للسببية، وإثبات الأسباب هو مذهب أهل السنة والجماعة، وأن الأمور مقرونة بأسبابها، يقول العوام: وقد قال الله تعالى: (وجعلنا لكل شيء سبباً)، هل هذا صحيح؟ لا، هذا ليس في القرآن، ولكنه كقراءة بعضهم لما ذكر له الأعراب، قال ألم تسمع قول الله في الأعراب: (سود الوجوه إذا لم يُظلموا ظلموا)، وهذا ليس من قول الله، لكن أحياناً العامة يحملون أشياء يعتقدونها من القرآن، فنحن نثبت الأسباب ولكن ما نقول: إن الله في القرآن ذكر أن لكل شيء سبباً إنما القرآن مملوء بإثبات الأسباب، والظاهر أنها آية الكهف حرفوها، فهمنا من هذا أن إثبات الأسباب هو مذهب أهل السنة والجماعة، فهل أحد من أهل البدع يخالفهم في ذلك نعم الجبرية والأشاعرة ما يثبتون الأسباب، ويقولون: إن فعل الله سبحانه وتعالى لمجرد المشيئة، والمعتزلة على عكس هؤلاء يرون أن الأسباب موجبة ولهذا يقولون: (إن الله يجب عليه فعل الأصلح والصلاح)، والصواب أن نقول: إن المعقول والمنقول يدل على أن الأسباب مؤثرة ولكن بأمر الله، وكم من سبب كان مؤثراً ثم لم ينفع إذا لم يرد الله تعالى أن ينفذ هذا الشيء.

٣ - الفائدة الثالثة: أن الله - تعالى - لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، لقوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ يعني: فهذا الأمر الذي نزل بهم بسبب ظلمهم ولم يظلمهم الله سبحانه وتعالى.

٤- الفائدة الرابعة: أن للناس في يوم القيامة أحوالاً، لهم أحوال مختلفة، تؤخذ من قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ لأن الله ذكر في بعض الآيات أنهم ينطقون ويدافعون، يقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] فأنت الآن ما يمكن أن تجمع بين الآيات هذه إلا إذا قلت: إن الناس لهم أحوال، حال يمكنهم الكلام، وحال لا يمكنهم فيها الكلام، وبهذا يتآلف القرآن وهو مؤتلف.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل:٨٦].

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾: في هذا تقرير هذه القدرة الإلهية وهي جعل الليل مظلماً للسكن والنهار مبصراً للمعيشة، وهذه النعمة كلهم يقر بها ولهذا قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾.

٢- الفائدة الثانية: الاستدلال بالشاهد على الغائب، فإن هذا الليل والنهار ما أحد من

الخلق يستطيع أن يغير فيهما أقل تغيير، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾، فالقادر على هذا التغيير قادر على البعث، والإنسان في الليل يتوفى ثم يبعث في النهار لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ فالقادر على هذا قادر على إعادة الناس بعد موتهم.

٣- **الفائدة الثالثة:** بيان فضل الله - سبحانه وتعالى - بجعل الليل والنهار على هذا الوصف، ظلام للسكنى وإبصار للعمل، ولو كان الدهر كله ظلاماً ما عمل الناس، ولو قُدِّرَ أنهم رتبوا أعمالهم لاختلفوا، وكذلك لو كان نهاراً ما سكن الناس، ولو قُدِّرَ أنهم رتبوا أوقاتهم وجعلوا مثلاً نصف الوقت عملًا ونصف الوقت سكنًا لم يتفقوا فيه، ولكن من رحمة الله - سبحانه وتعالى - أنه جعل الليل والنهار ليسكن الناس جميعاً ويبتغوا من فضله جميعاً.

٤- **الفائدة الرابعة:** أنه ينبغي للعاقل أن يعتبر بهذه الآيات؛ لأن الاعتبار بها من الإيمان، لقوله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

٥- **الفائدة الخامسة:** أن الانتفاع بالآيات بقدر ما مع الإنسان من الإيمان؛ لأنها رتبت على وصف، والمرتب على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه.



قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ (٨٩) وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٧ - ٩٠]

التفسير

قال: [﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ القرن]، هذه معطوفة على قوله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ فيكون من جملة المأمور بذكره، يعني واذكر يوم ينفخ في الصور، والصور يقول المؤلف: [القرن] وقيل: إنه البوق، ولا تنافي بين القولين؛ لأن القرن المعوج يكون مثل البوق، ولكن هذا القرن يوافق القرن المعروف في الاسم دون الحقيقة، وقد ورد في بعض الآثار أن سعته كما بين السماء والأرض، وهو لابد أن يكون بهذه السعة والعظمة، لأن النفخ فيه يستلزم الفزع والموت، ومثل

هذا لو كان صغيراً هل يفزع الناس ويموتون منه كلهم؟ الجواب: لا، وأيضاً ينفخ فيه فتخرج منه الأرواح كلها وتعود إلى أجسامها، إذن فهو قرن عظيم ما يعلم قدره إلا الله سبحانه وتعالى ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ قال: [النفخة الأولى من إسرافيل] وفيه نفخة ثانية أم لا؟ فيه نفخة ثانية ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزُّمَر:٦٨]وقوله: [من إسرافيل] بيان للنافخ، يعني: الذي ينفخ هو إسرافيل، ولكنه لا ينفخ بإرادته هو بل بإرادة الله، وإسرافيل هو أحد حملة العرش وهو أحد الملائكة الثلاثة الذين يستفتح بهم النبي صلى الله عليهم وسلم صلاة الليل، والثاني: جبرائيل، والثالث: ميكائيل، والحكمة من ذلك أن هؤلاء الثلاثة كل منهم موكَّل بحياة، فجبرائيل: موكل بالوحي الذي به حياة القلوب، وميكائيل بالقطر والنبات الذي به حياة الأرض، وإسرافيل: بالصُّور الذي به حياة الأجساد، ومناسبة الافتتاح بصلاة الليل ظاهرة جدًّا؛ لأنه بعث الإنسان بعد موته أو بعد وفاته بالنوم، فهذه حياة فناسب أن يبتدئ هذه الصلاة التي هي باب الحياة بمن وكلوا بالحياة، وطبعاً هذا من باب التوسل؛ لأنك تقول: اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل... إلى آخره.

قال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من العقلاء أم وغيرهم؟ وغيرهم، وجاءت من تغليباً ولأن العاقل أشد فزعاً من غير العاقل؛ لأن العاقل يفزع للحاضر والمستقبل، وغير العاقل للحاضر فقط ولا يهمه المستقبل، ولهذا لو سمعت صدمة لص بالباب قوية وعندك صبي كلكم يفزع من هذه الصدمة القوية لكن الصبي إذا انتهت الصدمة وقف، ما صار عنده شيء نبت في قلبه، وأنت تفكر في المستقبل وتخاف، فلهذا غُلِّب من هنا في جانب الفزع؛ لأن فزعهم أعظم يكون للحاضر والمستقبل، وهنا قال: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وفي آية الزمر ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فهل هما نفختان فإذا جمعت إلى الثالثة ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ صارت ثلاث نفخات، أو أن نفخة الفزع والصعق واحدة وأن الناس يفزعون أولاً ثم يموتون، فزعًا يليه الموت؟

الظاهر والله أعلم: أنه إذا نفخ يكون صوت عظيم ممتد فيفزعون ثم يموتون مثل الصيحات التي يصاح بالمجرمين، كالتي أخذت ثمود، هذه المسألة اختلف فيها أهل العلم فمنهم من يرى أن النَّفَخَات ثلاثة: نفخة يفزع الناس ويتأهبون ويكونون على حذر، ثم أخرى للصعق فيموتون، ثم ثالثة للبعث، وقيل: إن نفخة الفزع بعد نفخة الصعق والبعث، وأنهم يصعقون ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ ثم ينفخ ثالثة فيفزعون إلى الداعي، لكن هذا القول ضعيف، والمشهور القولان السابقان: هل هو ثلاث: فزع ثم نفخة أخرى فيها الصعق ثم نفخة أخرى فيها البعث، أو هما نفختان نفخة فيها فزع وصعق، ونفخة فيها بعث، وهذا هو الأقرب؛ لأن حديث أبو هريرة رضي الله عنه يدل على هذا، فإنه ذكر النفختين وذكر أن بينهما أربعين، قيل له: يوم أو شهر أو سنة؟ قال:

أَبَيْت[(١)]، ولم يبين؛ لأنه ما يعلم، سمع من الرسول ﷺ أربعين ولا يعلم هل أربعين يوم أو سنة أو شهر، وبعد النفخة هذه التي هي الفزع والصعق يرسل الله تبارك وتعالى مطراً كأنه الطل[(٢)]، والطل معروف أنه الندى الذي ينزل من السماء عند الصحو في الليل، أو أنه الرذاذ الخفيف جداً ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ ثم تنبت الأجسام بإذن الله من هذا الماء وهي في القبور، فإذا تكامل نباتها نفخ في الصور النفخة الثانية وحينئذٍ تخرج الأرواح وتعود إلى أجسامها، فيخرج الناس من القبور، وليس كما يتوهم بعض الناس أنهم ينبتون على قبورهم بل هم ينبتون في القبور؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ فمعنى ذلك أنهم يخرجون من القبور وهم مسرعون فهم أحياء، وهذا بعد تكامل أجسامهم في القبور، ثم إن هذا أيضاً مقتضى القياس في بدأ الخلق؛ لأن الإنسان يتكامل خلقه في بطن أمه ويخرج حياً والأرض للإنسان مثل بطن الأم له، والله سبحانه وتعالى حكيم، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، أفعاله دائماً تكون متناسبة، ليس فيها تناقض ولا تنافر، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ حتى الملائكة يفزعون وكذلك يصعقون، ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ يقول المؤلف: [أي خافوا الخوف المفضي إلى الموت كما في آية أخرى ﴿فَصَعِقَ﴾].

فعلى هذا يكون رأي المؤلف أنهما نفختان الأولى تتضمن الفزع والصعق، [كما في آية آخرى فصعق والتعبير فيه بالماضي لتحقق وقوعه]، أين الماضي؟ ﴿فَفَزِعَ﴾ وينفخ مضارع، وليس الكلام في ينفخ؛ لأنه للمضارع والمستقبل، لكن قوله: ﴿فَفَزِعَ﴾ ولم يقل: فيفزع، يقول المؤلف: [لتحقق وقوعه] والشيء المتحقق الوقوع كالماضي، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ كيف أتى فلا تستعجلوه؟! إذن ما أتى، ما دام فلا تستعجلوه معناه ما جاء بعد، فعبر بأتى لتحقق الوقوع ولقربه أيضاً كأنه لقربه حصل، فهنا ذكر (يوم ينفخ) بلفظ المضارع؛ لأنه لم يكن، وذكر الفزع الذي يتصف به الناس بلفظ الماضي كأنه شيء قد وقع بهم، ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾.

ثم عين المؤلف هذا المبهم فقال: [أي جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وعن ابن عباس هم الشهداء إذ هم أحياء عند ربهم يرزقون] فيكون المستثنى خمسة، هكذا قال المؤلف، وهذا يحتاج إلى توقيف ونص، إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدري فمن الذي يدري، أخبر النبي ﷺ أنه أول من يفيق فيجد موسى - عليه الصلاة والسلام - آخذاً بقوائم العرش أو بقائمة من قوائمه، يقول: «فَلَا أَدْرِي أَجُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّوْرِ أَمْ هُوَ أَفَاقَ قَبْلِي»[(٣)] إذن الرسول ﷺ ما يدري من المستثنى؛ لأنه جهل أن يكون ممن استثنى الله، ولو كان عنده علم بهم لعلم مثلاً أن

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٨١٤) ومسلم (١٤١/ ٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١١٦/ ٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٩٨) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

موسى ليس منهم، أو أنه منهم، فإذا كان النبي ﷺ لم يعلم فغيره من باب أولى، ولهذا: الصواب أنه يجب علينا أن نبهم ما أبهمه الله، إلا إذا جاءنا عن الرسول ﷺ فإن الله يقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ وأما إذا ما جاءنا عن المعصوم شيء في هذا فالواجب علينا أن نبهم ما أبهمه الله، والأمر في هذه المسائل من الخطورة بمكان، حتى آدم فلا نستثني أحداً أبداً، إلا من شاء الله.

فإذا قال قائل: من الذي شاء الله؟ قلنا: الله أعلم، نفهم أن الله - سبحانه وتعالى - استثنى أحداً قد يكون واحدًا وقد يكون ألفاً وقد يكون ألفين وقد يكون عشرة آلاف ما ندري، إلا من شاء الله، ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [وكلٌ تنوينه عوض عن المضاف إليه وكلهم بعد إحيائهم يوم القيامة أتوه] أي: أتوا الله عزَّ وجلَّ داخرين، كلٌ يقول: [تنوينه عوض عن المضاف إليه] وما المضاف إليه، وما معنى التقدير؟ وكلهم إذن تنوين تعويض عن كلمة، والتنوين تنوين العوض يقولون: إنه ثلاثة أقسام: عوض عن جملة، وعوض عن كلمة، وعوض عن حرف، مثل حينئذٍ ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة:٨٤]يكون هنا التنوين عن جملة، يعني: حين إذ بلغت، ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الروم:٤]ويومئذٍ عوضاً عن جملة وهي (ويوم إذ يغلب الروم)، عوض عن اسم، مثل قوله ﴿وَكُلٌّ﴾ أي: وكلهم، ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢]أي وإن كلهم، ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي وإن كلاً، والعوض عن حرف هو الذي يلحق مثل جوارٍ وغواشٍ، يقول: أصلها جواري وغواشي، فحذفت الياء وعوض عنها التنوين، وهذا في الحقيقة - مسألة التعويض عن الحرف - ما له قيمة.

المهم الذي يمكن يترتب عليه المعنى أو فهم المعنى هو العوض عن جملة أو اسم، قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ أتوا من؟ أتوا الله، بصيغة الفعل واسم الفاعل، وما إعراب اسم الفاعل؟ اسم الفاعل على وزن فاعل: آتي وإذا جمعت تقول آتوهم، وكلٌ آتوه: هذا الفعل، واسم الفاعل: كل آتوه، ﴿دَٰخِرِينَ﴾ [صاغرين] ما إعرابها؟ حال من مفعول أتوا من الهاء، إذا كان فعلاً واضحاً إنه حال، لكن كلاً آتوه داخرين، كيف تكون حال، وأين العامل فيها؟ اسم الفاعل؛ لأن اسم الفاعل يعمل عمل فعله.

وقوله: ﴿دَٰخِرِينَ﴾ أي: صاغرين، في ذلك الوقت حتى الرؤساء وحتى الملوك وحتى الأمراء وحتى الأسياد كلهم واحد، كلهم يأتون في حال الصغار، فأعظم ملك في الدنيا وأعظم رئيس في الدنيا الذي كان لا يمشي إلا وعن خلفه وعن يمينه وعن شماله خلائق البشر يأتي يوم القيامة صاغراً ولكن هذا الصغار بالنسبة لعظمة الخالق، لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار، ثم قد يكون بالنسبة للشخص أيضاً، وقد يكون بالنسبة لعظمة الخلق.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

الخطاب ليس خاصاً بالنبي ﷺ؛ لأن هذه الرؤية له ولغيره، والجبال معروفة، والرؤية هنا بصرية، قال المؤلف: [تبصرها وقت النفخة] فيه نظر؛ لأن وقت النفخة لم يكن الناس قد قاموا من قبورهم، ولكنها تراها يوم القيامة بعد أن يأتي الناس إلى الله داخرين، قوله: ﴿تَحْسَبُهَا﴾ [تظنها]، والجملة في قوله: ﴿تَحْسَبُهَا﴾ في موضع نصب على الحال؛ لأننا قلنا: إن الرؤية هنا بصرية، والرؤية البصرية لا تنصب إلا مفعولاً واحداً، وقال: [﴿تَحْسَبُهَا﴾ تظنها، ﴿جَامِدَةً﴾ واقفة مكانها لعظمها]، وقوله: ﴿جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ﴾ استعمل الجمود للوقوف بجمع الثبوت في كل منهما، لأن الجامد ثابت والواقف كذلك ثابت، ولكن قول المؤلف: [واقفة مكانها] فيه نظر، إنما ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي واقفة وإن كانت هي تدور، ولهذا قال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ فتبيَّن بهذا أنها ليست واقفة في مكانها، ولكنها تُحسب واقفة وهي في الحقيقة سائرة، ولهذا قال [﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ المطر إذا ضربته الريح، أي تسير سيره حتى تقع على الأرض فتستوي بها مبثوثة ثم تصير كالعهن ثم تصير هباءً منثوراً].

قوله: ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يقول: [المطر] وفيه نظر أيضاً، والصواب أن المراد بالسحاب: هذا السحاب المعروف، والمعنى أنها تسير كما يسير السحاب في السرعة، وهي أبلغ من المطر الذي فسر به المؤلف حيث قال: [المطر إذا ضربته الريح]، المطر إذا ضربته الريح تجده يزول عن مكانه، ولكنه في الحقيقة ليس كما يتصوره الإنسان من الآية، بل إن الآية على ظاهرها والمراد بالسحاب هو السحاب المعروف، فإنه يمر بسرعة، ثم إن مشابهة الجبال بالسحاب أقرب من مشابهة الجبال بالمطر، قال الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فالصواب إبقاء الآية على ظاهرها بدون تأويل، وقوله: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ السحاب معروف أنه يمر بسرعة، فهي إذن تقتلع من مكانها، وتكون مثل السحاب هباءً يطير.

ثم يقول المؤلف: [حتى تقع على الأرض فتستوي بها مبثوثة] هذا محتمل ما قاله المؤلف: أنها بعد صعودها ومرورها مر السحاب تقع على الأرض ثم تستوي بالأرض، ويحتمل أنها تبقى طائرة ثم تكون هباءً منثوراً بمعنى: أنها أولًا: تضعف حتى تكون كالعهن المنفوش، ثم بعد ذلك تطير من الأرض حتى تمر مر السحاب مشاهدة لها جسم متماسك، ثم بعد ذلك تكون هباءً منثوراً تتبدد وتتفرق، وذلك من عظم الأهوال يومئذٍ فتبقى الأرض بدل ما كانت مرتفعة وماثلة تبقى قاعاً صفصفاً كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٧].

قال الله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ يقول: [مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله أضيف إلى فاعله بعد حذف عامله أي: صنع الله ذلك صنعاً]، قال المؤلف:

﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ [مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله] أين الجملة؟ ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ هذا فعل من الله، هو الذي جعلها تكون على هذه الحال، ولهذا قال: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ فأكد هذه الجملة بهذا المصدر، إذن إذا كان المصدر مؤكداً لجملة قبله فإنه عند النحويين يجب حذف عامله، يقول ابن مالك:

وَحَذْفُ عَامِلِ الْمُؤَكِّدِ امْتَنَع (١)

يعني: أن المصدر إذا كان مؤكداً لجملة قبله فإنه يجب حذف عامله؛ وذلك لأن الجملة التي قبله ما دام هو مؤكداً لها صارت كأنها فعله، فلا يجمع بين البدل والمبدل، وقوله: [أضيف إلى فاعله] يعني: مصدر صُنع أُضيف إلى الله، والله هو الفاعل، والمصدر يضاف تارة إلى فاعله ويضاف تارة إلى مفعوله، تقول مثلاً: عجبت من أكلِكَ الطعامَ، أكل مصدر؛ لأن الفعل أكَلَ، يأكل أكلاً، فأكل مصدر مضاف إلى الكاف، والكاف فاعل، فهو مضاف إلى فاعله، والطعامَ مفعول به، إضافته إلى المفعول: تقول مثلاً عجبت من أكل الطعام من زيد، عجبت من طحن الدقيق من زيد، إلى المفعول، لأن الدقيق مطحون والطعام مأكول، فهو مضاف إلى مفعوله، هنا ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ الله - تعالى - صانع فيكون هنا مضافاً إلى فاعله، وقوله: [بعد حذف عامله] وجوباً أم جوازاً؟ وجوباً يجب حذف العامل وجوباً وإنما وجب حذفه؛ لأنه مؤكد للجملة قبله، فتكون هذه الجملة بمنزلة العامل، أي: بمنزلة الفعل، ولا يجمع بين البدل والمبدل منه، أي صنع الله ذلك صنعاً، وفي إضافة الصنع إلى الله هنا تعظيم لهذا الأمر وأنه من الأمور العظيمة التي هي من صنع الله - تبارك وتعالى -.

وقوله: ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أتقن: أحسن كل شيء صنعه، فالله - سبحانه وتعالى - أتقن كل شيء صنعه، ومن جملة إتقانه أنه حينما كانت الأرض محتاجة إلى هذه الجبال صارت الجبال راسية ورواسي ترسي بها الأرض وهي أيضاً في نفسها ثابتة، ويوم القيامة تزول الحاجة إليها بل تقتضي الضرورة زوالها، فتزال هذه الجبال العظيمة، وبهذا نعلم أن الله - تبارك وتعالى - صنع الجبال حين احتاج الناس إليها باقية، ولما زالت الضرورة إليها أزالها الله تبارك وتعالى، وبهذا نعرف الفائدة أو الحكمة في قوله: ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فصار وجود الجبال إتقان وزوالها يوم القيامة إتقان أيضاً وقوله: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال المؤلف: [صنعه] وينبغي أن لا يقيد بقولنا: صنعه؛ لأن الله أتقن كل شيء صنعه وشرعه، والذي أوجب للمؤلف أن يقيد ذلك بقوله: ﴿صنع﴾؛ لأن السياق في مقام الصنع، فلهذا قال: [أتقن كل شيء صنعه] ولكننا نقول: إن الله تعالى لم يقل: الذي أتقن صنعه، ولو كان الله تعالى والله أعلم يريد أن يقيد الصانع بما صنع لقال كما قال صنع الله لقال الذي أتقن كل شيء صنعه، ولكنه - سبحانه وتعالى - يبين أنه أتقن كل شيء صنعه أو شرعه، فما

---

(١) البيت رقم (٢٩١) من الألفية.

صنعه الله من المخلوقات فهو متقن، وما شرعه الله تعالى من الأحكام فهو أيضاً متقن، ليس فيه خلل، قال الله تبارك وتعالى في سورة تبارك: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣ - ٤] وقال تعالى في الآيات الشرعية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

فبين الله- سبحانه وتعالى - في آية تبارك وفي آية النساء أنه متقن لكل ما شرع ومتقن لكل ما صنع.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [بالياء والتاء]، ﴿بما يفعلون﴾ و﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، أما على قراءة الياء فيقول المؤلف: ﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [أي أعداؤه من المعصية وأولياؤه من الطاعة] فالخطاب لجميع الناس، والخبير بمعنى ذو الخبرة، والخبرة هي العلم ببواطن الأمور، وعلى هذا هي أخص من العلم المُطْلق، وإذا كان عالماً بالبواطن فهو عالم بالظواهر أيضاً، فالله تبارك وتعالى عليم بالظواهر وبالبواطن لقوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ما مناسبة قوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ لما تحدث الله به أو لما تحدث الله عنه من صنعه هو، يعني: كان مقتضى السياق ألَّا تختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ وتختم بقوله: إنه عليم حكيم، أو إنه على كل شيء قدير، وما أشبه ذلك، لقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وهذا يقتضي أن تختم الآية بما يدل على القدرة والحكمة، ولكنها ختمت بما يدل على العلم والخبرة.

الجواب: والله أعلم أن الحكمة من ذلك أن قوله ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أنها جملة معترضة بالنسبة للمعنى لا بالنسبة للإعراب، وأن المقام يقتضي الإخبار بأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يفعلون؛ لأن يوم القيامة هو يوم الجزاء، والجزاء مرتب على العلم، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ نظيره قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

ثم قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ من: شرطية، وجاء: فعل الشرط، وجملة فله خير منها: جواب الشرط، وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ ما قال: من فعل الحسنة، بل قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾؛ لأن الإنسان قد يفعل الحسنة في الدنيا ولكنه لا يأتي بها، لوجود ما يتلفها فتزول، ولكن الشأن كل الشأن في أن يأتي بها يوم القيامة.

وقوله: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الظاهر أن المراد بها الجنس وليس المراد بها العهد، ولكن المؤلف فسرها على أن المراد بها العهد، فقال: [أي لا إله إلا الله] فجعل الحسنة حسنة معينة معهودة وهي لا إله إلا الله، ولكن الصواب بلا شك خلاف كلام المؤلف وأن المراد بالحسنة الجنس يعني: أي حسنة

يأتي بها الإنسان فله خير منها، ولهذا جاء في الحديث الصحيح «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا»[1]، بحسنة نكرة يشمل جميع الحسنات، ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ وقول المؤلف: [يوم القيامة] متعلق بجاء يعني: من جاء يوم القيامة بالحسنة ﴿خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ ثواب ﴿مِّنۡهَا﴾ [بسببها، وليس للتفضيل إذ لا فعل خير منها]، هذه ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ يقول المؤلف: [المراد بالخير هنا الثواب] يعني: ما يقابل الشر، و﴿مِّنۡهَا﴾ ليست منها المتعلقة باسم التفضيل، ولكنها بالسببية أي: فله ثواب بسببها، وهذا تحريف ظاهر للقرآن، تحريف ما أفاد معناه، بل ﴿خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ يعني: أفضل منها، وذلك بأي شيء؟ بالمضاعفة، أنت إذا أعطيتني ريالًا وقلت سأعطيك خيراً منه وأعطيتك ريالين، ريالَيْن صار خيراً منه أم لا؟ خيراً منه، إذن ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ أي أفضل منها، فهو يأتي بواحدة ويعطى عشراً إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأما تعليل المؤلف لمنع أن يكون المراد بالآية التفضيل بقوله: [إذ لا فعل خير منها] فنقول: نعم الحسنة حسنة بلا شك وهي خير لكن ليس المراد هنا فله فعل خير منها، ولكن المراد الثواب والجزاء، والجزاء ليس بفعل للعبد ولكنه من الله عزَّ وجل يجزي به العبد، فتعليل المؤلف إذنْ عليل بل ميت ليس فيه روح إطلاقاً؛ لأنه ليس المقام هنا مقام مقابلة حسنة بحسنة من العبد، وإنما المقام مقام جزاء من الله، والله تعالى يجزي العبد بخير من فعله وأفضل، وفي آية أخرى ﴿عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ إذن هذا يرد عليه، ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ يطرح فله عشر أمثالها عشر بسببها؟ هذا يرد عليه في الحقيقة، فالآية التي أشار إليها تفسر هذه الآية التي ذكر الله، ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ إذن عشر أمثالها، وفي الحديث «**إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة**».

والغريب أن التفسير الذي نحا إليه المؤلِّف لا يكاد أحد يفهمه أبداً، كل من قرأ القرآن وله علم، ماذا يفهم من قوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾؟ يفهم جزاء أفضل منه وأكبر، وليس يفهم أن المعنى: له ثواب بسبب هذه الحسنة أبداً ما يفهم هذا، وإنما يفهم أن الثواب أكثر وأعظم وأفضل من العمل، ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ [﴿وَهُم﴾ أي اللاجئون بها ﴿مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ﴾ بالإضافة وكسر الميم]، ﴿مِّن فَزَعِ يَوۡمِئِذٍ﴾ فزع: مضاف، ويوم: مضاف إليه، ويوم: مضاف، وإذ: مضاف إليه، وإذ مضاف والجملة المحذوفة مضاف إليها، فيكونون هنا ثلاثة إضافات، فزع مضاف ليوم، ويوم مضاف لـ (إذ)، وإذ مضافة لجملة محذوفة.

قوله: ﴿مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ﴾ الفزع بمعنى الخوف، ولكنه ليس مجرد خوف، بل خوف بقلق وحركة واضطراب، ولهذا يقال فزع الرجل، ليس مجرد أنه خاف بل تجده قلقاً ثم يحاول كما نقول نحن في اللغة العامية: لُكِز من الفزع، فهم من هذا الفزع وكلمة فزع مفرد مضاف فيعم كل ما يحصل به الفزع؛ لأن الحقيقة يوم القيامة فيه أسباب عدة أسباب للفزع كأخذ الكتب بالشمال أو باليمين

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (٢٠٧/ ١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وكذلك أيضاً بميل الشمس وكذلك الميزان وكذلك الحوض المورود، وغير ذلك.

كذلك أيضاً ينادي على الظالمين ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ وما أشبه ذلك، كل هذه تثير المرء وتوجب الفزع لكن هؤلاء الذين يأتون بالحسنة ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ وأضاف الفزع إلى يوم القيامة؛ لأنه فزع لا نظير له في الدنيا، وعلى قراءة أخرى يقول: [بفتحها وفَزَعٍ منوناً وفتح الميم] إذن بالإضافة فيها قراءتان: (من فزع يومَئِذٍ)، و(من فزع يومِئِذٍ)، هاتان القراءتان على الإضافة، والثالثة: [وفزعٍ منوناً وفتح الميم]: ﴿من فَزَعٍ يومَئِذٍ﴾، القراءات كم صارت؟ ﴿فزعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ ولا إشكال فيها، ﴿فَزَعِ يومِئِذٍ﴾، ولا إشكال فيها أيضاً، ﴿فزعِ يَوْمَئِذْ﴾ بالإضافة فيها إشكال، حيث كانت يومَ بالفتح مع أنها مضافة، فيقتضي على هذا أن تكون مجرورة، نخرج هذا على واحد من أمرين: إما أن نجعلها مبنية على الفتح، يعني فزع مضاف ويوم مضاف إليه مبني على الفتح في محل جر، أو نقول: ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ في الأصل منونة حذف التنوين تخفيفاً وعلى هذا فتكون يوماً مفعول يعني ظرف زمان كما هي على قراءة التنوين: فزعٍ يومَئِذٍ، بالنسبة للمعنى أيهما أبلغ؟ من فزعٍ يومَئِذٍ آمنون، أو من فزعِ يومِئِذٍ آمنون؟ الأخير يدل على العموم، كل الفزع في ذلك اليوم هم آمنون منه، وعلى قراءة فزعٍ يومئذٍ، يعني هم آمنون من فزعٍ في ذلك اليوم، وهو يقتضي أن يكون فزعاً واحداً إلا إذا قلنا: إنه على تقدير من كل فزعٍ، من فزعٍ أي من كل فزعٍ آمنون، فتوافق القراءة الأولى التي هي بالإضافة ولكن القراءة بالإضافة أحسن؛ لأنها لا تحتاج إلى تأويل، وقوله: ﴿ءَامِنُونَ﴾ آمنين من الفزع.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية:** إثبات النفخ في الصور ولم يعين الله تعالى النافخ ولكنه جاءت به السنة وأنه إسرافيل أحد حملة العرش.

٢- **ومن فوائدها أيضاً:** أن هذا النفخ عظيم، عظيم؛ لأنه ينتج الفزع، ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لو أن قنابل فجرت في مكان مهما بلغت قوتها تُفزع من حولها ولكنها لا تُفزع أهل الأرض كلهم ولا أهل الأرض وأهل السماوات، وهذا النفخ يُفزع أهل السماوات وأهل الأرض ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيدل ذلك على عظمة هذه النفخة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة:١٣].

أكدها بواحدة ليتبين أنها عظيمة لا تحتاج إلى إعادة وتكرار.

٣- **الفائدة الثالثة:** أنه لا يفزع جميع من في السماوات ومن في الأرض بل يبقى من لا يفزع

بمشيئة الله، لقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهل هذا المبهم في الآية معلوم لنا؟ لا، الصحيح أنه ليس بمعلوم، ولذلك أشكل على رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كان موسى ممن صعق أو ممن استثنى الله[(١)]، فدل هذا على أنه ليس معلوماً للناس من هم المستثنَوْن وهذا يرجع إلى كمال ربوبية الله سبحانه وتعالى.

٤- **الفائدة الرابعة:** كمال الربوبية والسلطان لله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ووجه ذلك: أن العظيم إذا أبهم ما يتصرف به دل هذا على أنه لا معارض له وأن سلطانه تام، يعني: كأنه لا أحد يسأل من هذا الذي لا يفزع ومن هذا الذي يفزع، وذلك دليل على كمال السلطان والعظمة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[الأنبياء:٢٣].

٥- **الفائدة الخامسة:** أن كل أحد يأتي يوم القيامة صاغراً ذليلاً لله سبحانه وتعالى لا فرق بين الملك والمملوك والرئيس والمرءوس لقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ كلٌّ؛ لأن هذا التنوين عوض عن كلمة التقدير: وكلهم: أي من في السماوات ومن في الأرض أتوا الله سبحانه وتعالى داخرين.

٦ - **ويستفاد منها:** إثبات البعث، لقوله: ﴿أَتَوْهُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

١ – **من فوائد هذه الآية:** كيف يراها واقفة وهي تمر مر السحاب؟ نقول: من أجل عِظَم هذه الأهوال وارتفاعها، فالشيء إذا كان مرتفعًا ولو كان يجري بسرعة فإنه يُظن أنه واقف.

٢- **الفائدة الثانية من هذه الآية:** أن هذا الأمر الذي حصل لهذه الجبال هو من صنع الله عز وجلَّ، لقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فالذي جعلها جامدة في الدنيا راسية عظيمة ثقيلة كانت في الآخرة تمر مر السحاب وذلك من صنع الله الذي لا يستطيع البشر أن يفعلوه.

٣- **الفائدة الثالثة:** جواز إضافة الصنع إلى الله ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

لكن هل يؤخذ منه إثبات اسم الصانع لله، أو لا؟ لا يؤخذ منه، ولكنه يخبر به عن الله، فيقال: إن الله تعالى صانع كل شيء، على سبيل الخبرية، وأما إثبات اسم الصانع فلا، على أنه يوجد في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رَحِمَهُمَا اللَّهُ دائمًا كلمة الصانع، والظاهر: أنهم أرادوا بهذا مخاطبة أهل الكلام بمثل ما يتكلمون به، ولذلك يقول مثلًا إثبات الصانع يدل عليه كذا وكذا، مع أننا نرى أن الأولى والأفضل أن لا يُثبت حتى بهذا اللفظ، بل يقال: إثبات الخالق دل عليه كذا وكذا، والخالق جاءت في القرآن وهو أبلغ من الصانع، إنما على كل حال الإخبار عن الله بأنه

---

(١) تقدم تخريجه.

صانع مضافًا إلى التعميم نقول: صانع لكل شيء، هذا جائز لا بأس به، والناس يقولون في عباراتهم العامية: صانع كل مصنوع، هذا خبر صحيح أما أن تجعله اسمًا من أسماء الله فلا؛ لأنه يُفرق بين الاسم وبين الخبر، كيف يوصف بأنه صانع ؟ يعني: يقال صنعة الله، يقال هو صانع).

ما هو الفرق بين الخبر والاسم؟.

الخبر ضد الاسم، يعني: الشيء إما يخبر به عن الله أو يسمى به الله، فالخبر عن الله يجوز أنك تخبر عن الله تعالى بكل ما ثبت له من فعل مقيَّدًا إن كان مقيَّدًا ومطلَقًا إن كان مطلقًا، وأما الاسم فلا تسمي الله إلا بما سمى به نفسه، ولهذا يصح أن نقول عن الله سبحانه وتعالى: إنه مدبر الأمور، مسخر السماوات والأرض، مذلل الإبل لراكبيها وما أشبه ذلك، لكن كونك تسميه بهذا الاسم،فالأسماء توقيفية لكن هل الصفة مثل الخبر؟ نعم الصفة التي يصح إضافتها إلى الله تخبر بها عن الله لا مانع؛ لأن كل مشتق فهو دال على صفته، ولا يمكن أن تقول عن شيء: إنه مشتق ثم تنفي الصفة التي اشتق منه.

٤- **الفائدة الرابعة:** أن هذا الأمر الذي يقع للجبال يوم القيامة أمر عظيم، وجه عظمته إضافته إلى الله؛ حيث قال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ وما أضيف إلى العظيم فهو عظيم، كما أن ما أضيف إلى الحقير فهو حقير.

٥- **الفائدة الخامسة:** أن الله تعالى متقن لكل شيء من الأفعال والأحكام، لقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ مما صنع أم مما صنع وشرع؟ مما صنع وشرع، وأما تقييد المؤلف له بقوله: [صنعه] ففيه نظر ولا يقال: إن السياق في الكلام على الصنع؛ لأننا نقول الكلام على الصنع لكنه جاء بعد ذلك تعميم، ما قال: أتقن كل ما صنع، قال: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ إذن فالله تعالى متقن لكل ما صنع ولكل ما شرع بستنتج من هذه الفائدة:

٦- **الفائدة السادسة:** إثبات الحكمة لله عز وجلَّ؛ لأنه لا إتقان إلا بحكمة، فلا يمكن أن يتقن الشيء إلا بعلم من المتقن كيف يتقنه، والثاني بحكمة بحيث ينزل كل شيء منزلته، وإلا لفات الإتقان، كيف يتقن الشيء من لا يعرف كيف يتقنه، ممكن هذا؟ ليس بممكن، وكيف يتقنه وهو يعلم كيف يتقنه لكنه سفيه لا يحسن أن يتصرف؟ أيضًا لا يصح الإتقان، لا إتقان إلا بعلم وحكمة، فمن إتقان الله نستنتج هذه الفائدة وهي إثبات الحكمة والعلم له سبحانه وتعالى وضرورة أنه لا إتقان إلا بعلم وحكمة.

٧- **الفائدة السابعة:** عدم الاعتراض على هذه الآية؛ وجه ذلك أن الله أتقن كل شيء، والله تعالى أعلم وأحكم من عباده، فأنت متى علمت هذا الشيء انقطع عنك كل اعتراض، سواء سمعته من غيرك، أو أوردته على نفسك، والإنسان يعرض له أحيانًا شبهات تعرض له يلقيها الشيطان في قلبه، كيف كان كذا؟ لما كان كذا؟ وما أشبه ذلك، نقول: متى آمنت بأن الله تعالى قد

أتقن كل شيء انقطع عنك هذا الاعتراض، وأمكنك أن تقطع به اعتراض غيرك أيضًا، لو فرضنا أن المطر جاء في غير وقته وأفسد الثمار، إذا علمنا أن الله أتقن كل شيء وأن هذا المطر من فعله ومن صنعه لا يمكن لنا أن نعترض؛ لأننا نعلم أنه نتيجة إتقانه، ومبني على علم وحكمة، تتقاصر علومنا وحكماتنا عن إدراكها، وهذا أمر يفيد الإنسان في أشياء كثيرة، ففي الشرع أحيانًا تأتي أحكام يخفى على المرء وجه التفريق بينها، وهي ثابتة عن الشرع، ولكنك تقول الله تعالى أتقن كل شيء، ومن ثم أحدث العلماء والفقهاء مسائل سموها بالتعبديَّات، يعني: هم ما أحدثوها في الحقيقة هي مسائل ثابتة، لكنهم وضعوا لها هذا الاسم: التعبُّدي، ومعنى التعبدي ليس الذي ليس له حكمة؛ لأنه ما من شيء وإلا وله حكمة ولكن معناه الذي تخفى حكمته علينا وليس لنا فيه إلا التعبد كعدد الركعات في الصلوات وكونها خمسًا وكذلك أشياء كثيرة في الطهارة يخفى على المرء حكمتها، وكذلك في الحج، فالمهم أنه متى بَنَيْنَا اعتقادنا على هذه المسألة وهي أن الله أتقن كل شيء زالت عنا شبهات كثيرة.

٨- **الفائدة الثامنة:** كمال علم الله سبحانه وتعالى وذلك بالخبرة التي هي أخص من مطلق العلم؛ لأن الخبرة كما سبق لنا هي العلم ببواطن الأمور، وهي مأخوذة من الخبير وهو المزارع الذي يدفن الحب في الأرض فتخفى فهي العلم ببواطن الأمور.

٩- **الفائدة التاسعة:** تحذير المرء من أن يعمل ما يخالف حكم الله، يؤخذ من قوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ لو أن أباك قال لك اذهب افعل ما تريد أنا أعلم بما تفعل، ماذا يقتضي هذا؟ يقتضي التحذير، وأن تحذر من مخالفة أبيك، فكيف بالله عزَّ وجلَّ، الذي هو خبير بكل ما نفعل، إذن فالجملة تفيد تحذير المرء من المخالفة وأنك عندما تسول لك نفسك معصية لله عز وجل فإنك تعرض عليها مثل هذه الآية ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وأشبه ذلك من الأشياء التي يجب على المرء إذا هم بسيئة أن يستعرض هذه الآيات حتى تمنعه.

١٠- **الفائدة العاشرة:** أن ما يتعلق بالهم المجرد فإنه لا يؤاخذ به العبد؛ لأن المقصود من قوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ التحذير من هذا الفعل المخالف، فإذا قدر أنه همَّ مجرد هَمٍّ فإنه ليس بفعل فلا يؤاخذ عليه العبد، وهذه الفائدة بعيدة التصور ولكنها دلت عليها السنة وأن مجرد الهمّ لا يؤاخذ به العبد حتى يفعل، إلا الهم بالحسنة فإنه يُكتَب للمرء ولكنه لا يدخل في الآية هنا؛ لأن الآية سيقت للتحذير، والهم بالحسنة يرغب فيه، فالهم بالسيئة لا يعاقب عليه العبد، والهم بالحسنة يثاب عليه العبد، ما مقتضى العدل؟ مقتضى العدل أن يعاقب على السيئة وأن يثاب على الحسنة، أو ألا يعاقب على السيئة ولا يثاب على الحسنة، ولكن رحمة الله تعالى اقتضت الفضل دون العدل، فصار الهم بالسيئة ليس فيه شيء، والهم بالحسنة فيه ثواب.

ثم قال تعالى ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾:

يستفاد من هذه الآية فوائد:

١- **أولًا:** أن الحسنات يؤتى بها يوم القيامة؛ لقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ فإذا قال قائل: كيف يؤتى بالحسنات وهي أعمال مضت والأعمال معاني ليست أجسامًا؟ فيقال: إن الله تعالى على كل شيء قدير، يقلب هذه المعاني إلى أجسام، مثل قلب الموت وهو معنى إلى جسم وهو الكبش فالله تعالى على كل شيء قدير، قال النبي ﷺ لأصحابه: «**مَنْ تَعِدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُم؟ قَالُوا: مَنْ لَا دِرْهَمَ عِنْدَهُ وَلَا مَتَاعٌ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ**»[1]، وأخبر ﷺ أن الله يقبل الصدقة من الكسب الطيب بعدل التمرة أي: ما يعادلها فيربيها كما يربِّي الإنسان فُلُوَّه حتى تكون مثل الجبل[2]، وهذا أيضًا عمل، فالمهم أننا نقول: إن المجيء بالأعمال يوم القيامة ليس بممتنع؛ لأن الله تعالى على كل شيء قدير.

٢- **الفائدة الثانية:** أن العبرة بالمجيء بالحسنة لا بعملها، لقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ وذلك؛ لأن عامل الحسنة في الدنيا قد لا يأتي بها يوم القيامة، ماذا يحصل لها؟ يحصل ما يبطلها مثلًا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾، فقد يعمل الإنسان الحسنة لكن يأتي شيء يبطلها فلا يأتي بها يوم القيامة، والمدار على الإتيان بها يوم القيامة.

٣- **الفائدة الثالثة:** أن الجزاء أفضل من العمل وأعظم؛ لقوله: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ وكيفية المقابلة؟ بماذا يكون؟ بالخيرية؛ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة هذه الخيرية.

٤- **الفائدة الرابعة:** إثبات الفزع في يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

٥- **الفائدة الخامسة:** أَمْن من جاء بالحسنة من هذا الفزع.

٦- **الفائدة السادسة:** أن من جاء بالسيئة فإنه لا يأمن منها، وهو مأخوذ من المفهوم في قوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾ يعني: وأما من جاء بالسيئة فإنه لا يأمن، ولهذا تكب وجوههم في النار.

٧- **يستفاد من هذا أيضًا:** أن يوم القيامة لا يقاس بأمر الدنيا، فهذه الأفزاع العظيمة لا تفزع المؤمنين الذين جاءوا بالحسنات وإن كانت عظيمة في ذاتها؛ لأن الله سبحانه وتعالى في يوم القيامة يخلق أشياء يستبعدها العقل في الدنيا، فالشمس تدنو من الخلائق قدر ميل، ومن الناس من يكون في ظل منها، والعرق يصل من بعض الناس إلى كعبيه وإلى ركبتيه وإلى حِقْوَيْه ومنهم من يلجمه وهم في مكان واحد، مما يتبين به قدرة الله سبحانه وتعالى وأن في هذا المكان الواحد وفي الزمان

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٨١/٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤/٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الواحد يختلفون هذا الاختلاف المتباين، وفي إضافة الفزع في ذلك اليوم دليل على شدته ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

قوله: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [الشرك] مثلها ﴿مَن جَاءَ﴾ نقول فيها كما قلنا في قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾؛ لأن الإنسان قد يعمل سيئة ولكنه لا يأتي بها، وكون يعملها ولا يأتي بها يتوب منها أو تكون له أعمال صالحة تكفرها أو ما أشبه ذلك، الغالب أنه تغفر يوم القيامة، وقوله: [الشرك] فيه نظر، وإنما حمله على ذلك تفسيره للحسنة بأنها لا إله إلا الله، وهو توحيد فقال: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [الشرك].

ولكن الصواب أن المراد بالسيئة هنا الجنس فيشمل كل سيئة، ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [بأن وليتها وذكرت الوجوه لأنها موضع الشرف من الحواس فغيرها من باب أولى]، الذي أوجب للمؤلف أن يحمل السيئة على الشرك جواب الشرط ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ يقول: إن هذا لا يكون إلا للكافرين، وهذا فيه نظر أيضًا؛ لأن من جاء بالسيئة ولو دون الشرك فإنه إن لم يغفر له يكب في النار، لكنه يعاقب على حسب ذنوبه ثم بعد ذلك يخرج منه إما بشفاعة وإما بانتهاء جزائه إذا لم يشفع له.

فالحاصل أننا نقول: إن قوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ لا يلزم منه الخلود، هل يلزم لذلك الخلود؟ لا، لا يلزم منه الخلود، بل قد تكب وجوههم في النار ثم ينجون.

فإذا قال قائل: كبت وجوههم في النار إذا كانوا عصاة فإن موضع السجود لا تأكله النار، قلنا إذا كُبَّ على وجهه أصابته النار إلا موضع السجود، وهذا لا يمنع أن يكب على وجهه وتحمى مواضع السجود من النار، وقوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ كان مقتضى الأمر أن يقول: ومن جاء بالسيئة كبت؛ لأن فعل الشرط إذا كان ماضياً وجوابه إذا كان ماضياً لا يحتاج إلى الفاء، يقولون: إن الفاء تدل على تقدير قد، يعني: فقد كبت، وتكون دالة على التحقيق في هذا الأمر؛ لأن قد للتحقيق ولكنها حذفت لفظاً؛ وأشير إليها معنىً، فالفاء تشير إلى قد وحذفت لفظاً؛ لأن قد للتحقيق والمسألة لم تقع فكان في تحقيقها بقد وهي لم تقع نوع من التناقض فلذلك حذفت باللفظي وأشير إليها بالمعنى بالفاء، ومعلوم أن جواب الشرط إذا اقترن بقد يجب أن يكون مقرونًا بالفاء:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

سبعة مواضع إذا كانت جواباً للشرط وجب اقتران الفاء بها.

قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ قال: [ما تجزون]، يعني: أن الاستفهام هنا بمعنى النفي، والاستفهام بمعنى النفي أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يدل على النفي وزيادة، فهو مثلًا ما تجزون إلا ما كنتم تعملون يدل على أنهم لا يجزون إلا ما كانوا يعملون، لكن هل تجزون يدل على تقرير هذا الأمر وأنه لا يمكن للإنسان أن يجازى إلا بما كان يعمل، ويكون فيه تقرير وتقريع في نفس الوقت، قال المؤلف: [ويقال لهم تبكيتًا ﴿هل﴾ ما ﴿تجزون إلا﴾ جزاء ﴿ما كنتم تعملون﴾ من الشرك والمعاصي] قوله: [ما تجزون] تقدم الكلام عليها، وقوله: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقتضي أن يكون العمل هو الجزاء نفسه ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ﴾ ومن المعلوم أن العمل ليس الجزاء، بل الجزاء شيء والعمل شيء آخر، عندما تستأجر إنسانًا يعمل لك ثم تعطيه الأجرة، فعمله غير أجرته، والعامل لله سبحانه وتعالى عمله غير جزائه، فظاهر الآية ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أن الإنسان يُجزى بعمله، لذلك احتاج المؤلف أن يقدر هذا المحذوف، [إلا جزاء ما كنتم تعملون] لكن ما في الآية أبلغ؛ لأنه من باب المبالغة في العدل أن يجعل الجزاء هو العمل، كأن الجزاء نفسه عملك مبالغة في العدل، فأنت إذا كنت تريد ثوابًا كثيرًا تعمل كثيرًا؛ لأن ثوابك عملك.

وأما قوله: [هل تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون] ففيه أيضًا ركاك، ما تجزون إلا جزاء العمل، معلوم أن كلمة ﴿تجزون﴾ يستفاد منها الجزاء، فلا حاجة إلى تقدير، فالصواب إبقاء الآية على ظاهرها، ويفهم أن الذي يعطونه هو الجزاء من قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ والتعبير عن الجزاء بالعمل نفسه مبالغة في العدل بحيث يكون جزاؤك عملك.

وقوله: [من الشرك والمعاصي] هذا ما ذهب إليه جمهور أهل العلم وهو الصواب أن الكافر يعاقب على أصل الكفر وعلى المعاصي أيضًا التي عملها، فالمشرك إذا زنى وسرق وشرب الخمر يعاقب على ذلك، فيعاقب على الأصل وعلى الفرع، وهذا هو الذي عليه جمهور أهل العلم، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦)﴾ [المدثر: ٤١ - ٤٦] فالصلاة والصدقة ليست من الأصول وإن كان الصواب أن الصلاة من الأصول وأن تاركها يَكْفُر، لكن الصدقة ليست من الأصول حتى الزكاة على القول الصحيح لا يكفر تاركها، ومع ذلك ذكروا أنها من أسباب دخولهم النار، ولولا أن لها تأثيرًا في الجزاء ما صارت من الأسباب، وهذا دليل على أنهم يعاقبون على فروع الإسلام كما يعاقبون على أصوله، وعلى هذا فيعاقبون على معاصيهم التي دون الشرك، وهذا بلا شك كمال العدل؛ لأنه إذا كان المسلم يعاقب عليها فكيف بالكافر، هل تكون للمسلم نقمة وللكافر نعمة؟ لا، بل أبلغ من ذلك: أن الكافر يعاقب حتى على المباح للمسلم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ففُهِم من قوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ﴾ أنها لغير المؤمنين ليست

خالصة وأنهم سيجازون عليها، وهذا أيضًا مقتضى النظر إذ كيف يتنعم الإنسان بنعم الخالق وهو يعصي الخالق، لابد أن يعاقبه، يقول له أنا أحسنت إليك أطعمتك سقيتك كسوتك أسكنتك زوَّجْتُك، وما أشبه ذلك فيعاقب على هذه النعمة؛ لأنها تحتاج إلى شكر.

الفوائد:

١- **يستفاد منها:** أن المدار في العقاب على السيئات هو المجيء بها يوم القيامة لا مجرد العمل، قد يعمل الإنسان السيئة وتكفر أو يتوب منها، ولكن العبرة بالمجيء.

٢- **الفائدة الثانية:** إثبات عذاب النار، لقوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ - والعياذ بالله -.

٣- **والفائدة الثالثة:** بيان شدة العقوبة - والعياذ بالله - بهؤلاء حيث يكبون على وجوههم في النار، والوجه أشرف الأعضاء وإهانته أعظم من إهانة غيره، لو أن أحدًا صفعك على خدك أو ضربك برجلك أيهما أشد إهانة؟ الوجه أشد، ولهذا كان إكبابهم على وجوههم في النار أشد وأبلغ في الإهانة وفي العذاب.

٤- **الفائدة الرابعة:** كمال عدل الله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: ما ظلمناكم، أنتم الذين ظلمتم أنفسكم فعملتم ما استحققتم به هذا العذاب.

٥- **الفائدة الخامسة:** أن عذاب أهل النار عذاب نفسي وبدني، بدني حيث تُكَبّ وجوههم في النار، نفسي حيث يوبَّخون ويقرعون، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ما ظنك بمن يقال له مثل هذا، تجده مثلًا يمتلئ خجلًا ويمتلئ أيضًا ندمًا يقول: ليتني ما عملت ليت وليت، لكن ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢]، فإذن يجمع لهم والعياذ بالله بين العذاب البدني والعذاب النفسي وقد ذكر الله تعالى في سورة المؤمنون أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧] وهم لو أخرجوا منها لعادوا ما فيها إشكال، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ لكن يقولون هذا من شدة ما يجدون فكان الجواب أعظم والعياذ بالله جواب في الإهانة ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] والعياذ بالله هذا جواب في غاية الإهانة والصغار والذل، وقد ذُكِر أن الله لا يكلمهم إلا بعد مدة طويلة يكلمهم بهذا الكلام الذي لا خير فيه لهم، بل هو تيئيس من كل خير ومن كل فرج نسأل الله العافية، ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ يعني: اندحِروا وذلوا وتلحقكم المهانة والإهانة ومع ذلك لا تكلمون، لستم أهلًا لأن تكلموني - نسأل الله العافية -، فإذن يجمع لأهل النار بين العذابين: البدني والنفسي، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.



❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:٩١-٩٢].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال: [قل لهم] ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ [أي مكة] ﴿الَّذِي﴾ ما قال التي لماذا؟ لأنها صفة لمذكر ﴿رَبَّ هَٰذِهِ﴾ ﴿رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي﴾، ولهذا تعرب الذي على أنها اسم موصول مبني على السكون في محل نصب، صفة لأي شيء؟ لرب، ﴿رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها حرمًا آمنًا، جعلها كونًا أم شرعًا؟ جعلها شرعًا، ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾.

وقوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ إضافة الربوبية إليها تفيد الفضل، وأن الله سبحانه وتعالى قد اعتنى بها وشرفها، قال [لا يسفك فيها دم إنسان] والحديث: «لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ»[1]، وأيهما أعم: دم إنسان أو دم؟ دم أعم، ولهذا لا يسفك فيها دم إنسان ولا دم صيد، وأما المواشي من الإبل والبقر والغنم وما أشبهها فإن هذا دلت السنة على جوازه، وقوله: [ولا يظلم فيها أحد] هذا ليس خاصًا بمكة، حتى غير مكة لا يجوز أن يظلم فيه أحد، ولذلك ما جاء في الحديث لا يظلم فيها أحد، بل قال الرسول: «لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ»، فليس من خصائص مكة أن لا يظلم أحد، صحيح أن الظلم في مكة أعظم من غيره، ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥] أما أن الظلم في غيره مباح فلا، كذلك لا يصاد صيدها ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ الباء تدل على أن الفعل مضمن معنى العزيمة الصادقة، قال: [ولا يصاد صيدها] صحيح وغيرها يصاد، [ولا يختلى خلاها]، صحيح وغيرها يختلى، المدينة يختلى خلاها، يجوز، إنما يحرم الشيء الذي بدون حاجة في المدينة، وأما الذي بحاجة فيجوز، هذا الفرق بينها وبين مكة، [وذلك من النعم على قريش أهلها في رفع الله تعالى عن بلادهم العذاب والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب] إذنْ قوله: ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها حرمًا وجعلها حرامًا، وما قلناه أعم مما قال المؤلف؛ لأن المؤلف يقول: [جعلها حرمًا آمنًا].

ثم ذكر الأشياء، فهي حرم وحرام أيضًا، حرَم: بمعنى أنها محترمة، وحرام: بمعنى أنها محرمة، لهذا من قصدها فإنه يشرع له بإجماع أهل العلم ألّا يدخلها إلا مُحْرِمًا، وفي وجوبه خلاف معروف،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٧٤/ ٤٧٥) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

أيضًا من جملة احترامها أن المشركين لا يقربونها، أو لا؟ لا يقربون المسجد الحرام، فيكون الحرم كله محرم عليهم؛ لأن دخولهم الحرم من قربان المسجد الحرام، فلهذا كان ذلك احترامًا لهذا البلدة ومع ذلك يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُۥ﴾ [تعالى] ﴿كُلُّ شَيۡءٖ﴾ [فهو ربه وخالقه ومالكه] الجملة الأخيرة فيها فائدة عظيمة؛ لأنه لما قال: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ قد يتوهم متوهم أنه سبحانه وتعالى تختص ربوبيته في هذه البلدة فأتى بعد ذلك بالتعميم قال: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ نظير هذا قوله تعالى ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ قال بعدها: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ حتى لا يتوهم متوهم أن ذلك الفضل خاص بأولئك فبيَّن أن الجزاء للجميع وهو الجنة وإن كانوا لا يستوون، هنا ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ ربوبية الله عامة لكل شيء، لكن ربوبيته لهذه البلدة أخص من ربوبيته العامة.

قال: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ من أمر؟ الله ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ﴾ ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أليست العبادة هي الإسلام؟ الجواب: بلى العبادة هي الإسلام، لكن هناك قال: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ والعبادة هي التذلل له بالطاعة.

ثم قال: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي أن أحقق هذه العبادة بالاستسلام التام لأوامر الله تبارك وتعالى، فالإنسان قد يكون عابدًا في الأصل لكن الانقياد التام بجميع مشروعات الإسلام يستفاد من قوله: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي من المنقادين لله سبحانه وتعالى انقيادًا تامًا لا معارضة عندهم ولا استكبار.

وفي قوله: ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ دليل على أن اليهود والنصارى كانوا مسلمين حين كانت شرائعهم قائمة، لكن بعد أن نُسِخَت فإنهم إذا لم يلتزموا بالشريعة الناسخة لم يكونوا مسلمين، لأن الإسلام هو الدين عند الله في كل زمان ومكان، وبعد بعثة الرسول ﷺ فلا إسلام إلا باتباع شريعته، وإلا فأصل الإسلام من الاستسلام والانقياد وهذا يشمل كل انقياد لله سبحانه وتعالى سواء في عصر هذه الأمة أو قبلها، فنوح عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ مثل ما قيل للرسول ﷺ، وقال عن يعقوب أنه قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢] وقالت بلقيس: ﴿إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

وقوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ وهنا قد علم المكان الذي قاله النبي ﷺ فيه فهو مكة؛ لقوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ والإشارة هنا للقريب.

ثم إن قوله: ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ فيه إظهار لفضل الله تبارك وتعالى على ساكني هذه القرية حيث جعل الله تعالى هذه القرية حرامًا.

قال: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المنقادين إلى حكم الله، ولا منافاة بينه وبين العبادة فيما سبق ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾؛ لأنه أصل العبادة شيء والإسلام في جميع الشريعة شيء آخر، ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [عليكم تلاوة الدعوة إلى الإيمان، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ له ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: لأجلها، فإن ثواب اهتداءه له، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى ﴿فَقُلْ﴾ له ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾]، قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ التلاوة تنقسم إلى قسمين: تلاوة لفظية، وتلاوة معنوية، فالتلاوة الأولى: قراءة القرآن، والتلاوة الثانية: العمل بما جاء به القرآن، مأخوذة من تلا الشيء يتلوه إذا تبعه وصار تلوًا له، فقول الرسول: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ يشمل هذا وهذا، أن أتلوَه قراءة وأن أتلوَه اتباعًا، فهو مأمور بذلك، يعني: فكأنه يقول: سأتلو القرآن عليكم تلاوة قراءة، وأيضًا سأتلو القرآن تلاوة اتِّباع، ولا أبالي مخالفتكم وإعراضكم، وهذا ليس للرسول ﷺ فحسب بل لكل من اتبع الرسول يجب عليه أن يتلو القرآن تلاوة لفظية، وقد عُلم أن قراءة الفاتحة ركن من أركان الصلاة التي هي من أركان الإسلام.

ثانيًا: يجب على المسلم أن يتلو القرآن تلاوة اتباعيَّة ولا يبالي بمن خالفه، ولو أننا راعينا شعور الناس وراعينا عصور الناس بقي الدين ليس دينًا بل صار الدين عادةً إن تقبله الناس حسب عاداتهم صار دينًا وإن لم يقبلوه لم يكن دينًا، والواجب أن يكون الدين بعيدًا عن عادات الناس بمعنى أن يكون الحَكَم هو القرآن والسنة، لا ما يعتاده الناس فيما يفعلونه من عبادات أو غيرها، خلافًا لبعض الناس الآن الذين يريدون أن يتابعوا الناس فيما هم عليه ولو كان باطلًا، وهذا ليس بصحيح؛ لأننا لو مشينا على هذا الأمر أو على هذا المنهاج ما بقي حياة للإسلام، فالإسلام يبقى ميتًا ويموت منه جزء في هذا العصر ثم يأتي عصر آخر فيموت منه جزء آخر وهكذا حتى ينقضي، ولكننا إذا كنا نعمل بالإسلام ونجدد حسب ما يقتضيه الكتاب والسنة لا حسب آرائنا صار ذلك هو القيادة، وأما أن نسكت وندس رؤوسنا في التراب ونقول: هؤلاء الناس لا يمكن تخالفهم أو نتهيب قول بعض الناس: طلعتم علينا بدين جديد، هذا الدين ما عرفناه من قبل، وما أشبه ذلك فإن هذا لا ينبغي أن يمنع الإنسان عن قول الحق، ولهذا قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ تلاوة لفظية تقوم بها الحجة عليكم، وتلاوة عملية تطبيقية يتبين بها أنني لست بمبالٍ بمن يخالفني في هذا الأمر.

وقوله: ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ هو هذا الذي نزل عليه ﷺ، وبعد تلاوة القرآن ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ له، ولكن على تفسير المؤلف يقول: اهتدى بمعنى انقاد؛ لأن اهتدى لا تتعدى باللام بل تتعدى بالباء اهتدى به، لكنه ضمنه بمعنى: انقاد، وتضمينه معنى الانقياد ليشمل هداية العلم وهداية التوفيق، فالذي يهتدي وينقاد له ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ [أي: لأجلها فإن ثواب اهتدائه له] صحيح من اهتدى بهذا القرآن وانقاد له فالمصلحة لمن؟ ليست لله عزَّ وجلَّ؛ لأن الله غني عنها، وليست لفلان

ولا لفلان؛ لأن كل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، إذن فهو لنفسه، وإن كان ينتفع الداعي بذلك أيضًا انتفاع الدالِّ فإن الدال على الخير كفاعله، لكن أصل الثواب للفاعل، فلا يقال مثلًا: إن الرسول ﷺ يدعو الناس ليهتدوا فيكون له أجر، بل قصده ﷺ الأول هو نفع الخلق، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ وإن كان النبي ﷺ ينتفع باهتدائه فهو كذا ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ﴾ [عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى] ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ المؤلف قدر [له] فيمن اهتدى، وقدر هنا فقل له والسبب أنه يقدر هنا: لأجل أن يرتبط الجواب بالشرط؛ لأن قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى﴾ اهتدى لأي شيء؟ للقرآن الذي أتلوه، أو بالقرآن الذي أتلوه، وهنا ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ من: شرطية، ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ما يمكن أن يكون قل: إنما أنا من المنذرين، جوابًا لقوله: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ إلا إذا كان فيه ضمير يعود عليه، ولهذا قدره بقوله فقل له: ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

فإذا قال قائل: ما الحكمة في حذفه؟

قلنا: الحكمة في حذفه العموم، يعني: فقل له ولغيره ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ يعني: معناه أن هذه الجملة التي وصف ثابت للرسول ﷺ، ليست خاصة بمن يضل، بل من يضل ومن لا يضل، يقال له: إن الرسول ﷺ من المنذرين، ومعنى المنذِر: المخوِّف، قال: [المخوفين فليس عليَّ إلا التبليغ]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا﴾ إنما: أداة حصر.

فإذا قال قائل: هذا يفيد اختصاص الرسول ﷺ بالإنذار، مع أن الله يقول: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩].

قلنا: لكن لكل سياق ما يناسبه من اللفظ، فهنا المخاطب قوم منكرون فكان ذكر جانب التخويف في حقهم أَوْلى من الجمع بينه وبين التبشير، قال: [وهذا قبل الأمر بالقتال] والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يسلك هذا المسلك كثيرًا في مثل هذه الآية، ويقول: [إنه قبل الأمر بالقتال] وهذا يتضمن أن تكون الآية منسوخة لا يعمل بها ولكن هذا قول في غاية الضعف.

والصواب: أن هذا يقال حتى بعد الأمر بالقتال، النبي ﷺ عليه الإنذار والتبليغ وليس عليه الهداية، والرسول ﷺ يقرأ في كل جمعة غالبًا أو كثيرًا يقرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١ - ٢٢] ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥ - ٢٦] وكيف تكون مثل هذه الآيات التي تُرتَّل على المسلمين في جمعاتهم منسوخة، ثم إن النسخ ليس بالأمر الهين دعواه، لأن معناه إبطال دلالة الآية أو الحديث، وهذا يتضمن الاعتداء على الله تعالى وعلى رسوله، ولهذا يجب على الإنسان أن يحترز غاية الاحتراز من دعوى النسخ، وإذا عجز عن الجمع يقول: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، لكن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ وغيره كثير من أهل العلم إذا عجزوا عن الجمع قالوا: هذا منسوخ، وهذا مسلك ليس بجيد وليس بسديد وليس

بصواب بل هو خطير، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (أن المنسوخ في الشريعة لا يتجاوز عشرة أحكام)، ولو سلكنا ما سلكه المؤلف لكان المنسوخ عشرات الأحكام أو ربما يبلغ المائة وفي هذا خطأ عظيم.

فالصواب أن هذا القول: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ يقال حتى الآن وحتى بعد الأمر بالقتال فهو منذر، لكن هذا الإنذار لا يقتضي ألَّا يقوم بما يجب عليه من الجهاد، يقول: أنا منذر فليس عليَّ هداكم، وهداكم على الله سبحانه وتعالى، وأما مسألة الأمر بالقتال فهذا شيء يمكن حتى مع هذا القول، فالصواب في هذه المسألة: أن الآية محكمة، هذه وغيرها من أمثالها محكم ولا يجوز دعوى النسخ فيها؛ لأن أهم شروط النسخ أو من أهمها: تعذر إمكان الجمع وإذا أمكن الجمع فلا نسخ؛ لأن النسخ هو عبارة عن إبطال مدلول الآية أو الحديث، وهذا أمر ليس بالهين، يأتي حديث وتمسح عليه فمعنى النسخ كأننا ضربنا عليه، المهم: إذا تعذر الجمع وعُلِمَ التاريخ فالمتأخِّر ناسخ، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ بالكسر؛ لأنها اسم فاعل فهو منذر، والناس مُنْذَرُون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

في هذه الآية من الفوائد:

١- من هذه الفوائد: وجوب إعلام الرسول ﷺ بما ذكر؛ لأنه على تفسير ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ وواجب عليه أن يعلن ذلك من أجل أن يكون قدوة فيه.

٢- من هذه الفوائد: قوله: ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ وجوب العبادة على النبي ﷺ، ما يقال إن التكاليف تسقط عن الأنبياء والأولياء، بل تجب على النبي ﷺ، كما تجب على غيره، ويجب عليه هو - عليه الصلاة والسلام - أن يشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله هذا مقتضى الإسلام.

٣- من هذه الفوائد: بهذا نعرف بطلان ما ادعاه أهل من يزعم أنهم أولياء أو أصحاب من يزعم أنهم أولياء حيث قالوا إن الولي يصل إلى درجة يسقط بها عنه التكليف، وهذا موجود عند الصوفية وغيرهم، يقولون: هذه العبادات التي نكلف بها وسائل إلى غاية، الغاية: اليقين ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] فإذا وصل الإنسان إلى اليقين سقطت عنه العبادة وصار لا يجب عليه صلاة ولا زكاة ولا صوم ولا حج ولا يحرم عليه نكاح أحد يتزوج من شاء من ذكور وإناث والعياذ بالله ومن عدد صغير وكبير حتى نسمع الآن في أفريقيا الواحد منهم له خمسين امرأة وأيضًا ما يتزوج بعقد، إذا اشتهى امرأة أرسل إلى أبيها وقال خلي بنتك زوجة لي أريدها زوجة لي ولا أحد يتمكن من أن يعارض لأنهم يزعمون أنهم وصلوا إلى غاية لا يحتاجون معها إلى تكليف، وإذا كان النبي ﷺ أُمر أن يعبد الله فغيره من باب أولى.

٤- **من فوائد الآية:** فضيلة مكة من وجهين: من إضافة الربوبية إليها ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ ومن كونه تعالى حرمها ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ ففيه فضيلة مكة على سائر البلاد، نعم ولها فضائل كثيرة لو لم يكن منها إلا أن خصَّها من أركان الإسلام، خصَّها للعبادة من أركان الإسلام، الحج ركن من أركان الإسلام ما في أي بلد في العالم يكون القصد إليه فرضًا أبدًا ولا سنة إلا مكة.

٥- **ومن فوائدها:** أن الذي حرم مكة هو الله؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ فإذا قال قائل: ألا يعارض ذلك ما ثبت عن رسول الله ﷺ من قوله: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ**»[1]؟ قلنا: لا؛ لأن معنى قوله: حرم مكة، أي: أظهر تحريمها وأبانه، وإلا فالذي حرمها هو الله، ولهذا نقول مثلًا: إن الرسول ﷺ حرم الميتة والخمر والخنزير يعني: أظهر تحريمه وأبانه وإن كان الذي حرمه هو الله، المهم أن هنا لا منافاة بين قوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وقول الرسول ﷺ: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ**»، والجمع واضح.

٦- **ومن هذه الفوائد:** أن كل شيء فهو ملك لله، مكة وغيرها؛ لقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

٧- **ومن هذه الفوائد:** الرد على المعتزلة، القدرية الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله، فإنه على قولهم يخرج بعض الأشياء عن ملك الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

٨- **ومن هذه الفوائد:** بلاغة القرآن؛ لأنه لما قال: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ فإن أحدًا يفهم أن ربوبية الله تعالى خاصة في هذا المكان، فاحترازًا من هذا الفهم الخاطئ أعقبه بقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ وهذا من بلاغة القرآن، هل تدخل مكة في قوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ أم لا تدخل؟ هذه المسألة مختلف فيها عند الأصوليين يعني: إذا ذكر الخاص مع العام فهل التنصيص عليه مخرج له من العموم، فيكون ذكر مرة لكن نص عليه لشرفه مثلًا والعناية به، أو أنه لا يخرجه من العموم فيكون ذكر مرتين: مرة بصيغة التفصيل ومرة بصيغة التعميم، فما هو المتبادر للذهن؟ ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ ماذا يتبادر للأذهان؟ الملائكة وجبريل، لكن يتبادر إلى الذهن أنه إذا ذكر الخاص بعد العام أو قبله إنه ما أريد به دخوله في العام، عندما تقول جاء الطلبة وعلي، وهو من الطلبة، معروف أنه من الطلبة، أنت تفهم أنه خرج عنهم لما نص عليه، وكفى بذلك فخرًا أن يخرج من بين العموم وينص عليه بالحكم، لكن أولئك يقولون إنه ذكر مرتين: مرة بطريق العموم ومرة بطريق الخصوص، ولكنه فيما أظن ويتبادر إليَّ أنه ليس كذلك، نعم لو ذكر العموم في موضع آخر ولم يذكر الخصوص فلا شك أنه داخل في العموم.

٩- **ومن هذه الفوائد:** أنه لا يجوز لأحد أن يحكم بغير ما أنزل الله لقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾؛ لأن من جملة الأشياء الحكم بين العباد بل هو من أعظم الأشياء، فإذا كان ذلك لله فلا يجوز لأحد أن يستقل به، ومن أراد أن يستقل به فقد حاول أن يكون شريكًا لله تعالى في ذلك،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٢٩) ومسلم (٤٥٤/ ١٣٦٠) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم ﷺ.

ونزل نفسه منزلة لا يستحقها، إذْنْ أمر التحليل والتحريم والإيجاب إلى الله؛ لأن له كل شيء، أما التحسين والتقبيح إلى الله؛ لأن بعض الأشياء لا نعرف حسنها أو قبحها إلا من الله، لكن أيضًا للعقل مجال في هذا، ولذلك ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤] دل هذا على أن العقل يحسِّن ويقبِّح، فإن هذا من القبيح

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

فالعقل يحسِّن ويقبِّح لكنه لا يوجب ويحرم، الإيجاب والتحريم من الله، وأما التحسين والتقبيح فيحسن ويقبح؛ ولهذا يُحِيلُ الله أشياء كثيرة إلى العقل فدل ذلك على أن للعقل أن يحسن ويقبح، ولكن من الأشياء ما لا يعلم حسنه وقبحه إلا بطريق الشرع، وهذا هو الصحيح في هذه المسألة مسألة التقبيح والتحسين العقلي صار فيها نزاع طويل بين أهل السنة والجماعة وبين أهل البدع منهم من قال: (لا يحسن ولا يقبح) والغريب أن هذا هو المشهور من مذهب الحنابلة، قال الفتوحي في كتاب مختصر التحرير في أصول الفقه: (العقل لا يحسن ولا يقبح) ولا يوجب ولا يحرم، نقول وأما قوله: (لا يوجب ولا يحرم) فهذا صحيح، وأما (لا يحسن ولا يقبح) فهذا ليس بصحيح، يروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحًا فهو عند الله قبيح) [1]، وربما يشهد لهذا قول الرسول ﷺ: «**الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**»، فإن هذا دليل على أن الإنسان الذي صفت سريرته وخلصت نيته هذا لا يطمئن للإثم أبدًا، أما الإنسان الفاسق ومعلوم أن الزبال لا تهمه الزبالة، لكن العطار الذي عند الزبالة لا يمكن أن يقعد، فالإنسان الذي صفت سريرته وخلصت نيته وعلم الله منه حسن القصد موفق، وتجده إذا عمل سيئة ما تطيب نفسه ولا تستقر، ولهذا قال: «**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ واطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ**» [2]، لكن هذا مَنْ نخاطب به؟ هل كل الناس؟ لا، بل صاحب القلب الصافي والإيمان الخالص، أما أن يكون في هذا فلا يخاطبون به.

١٠- **ومن هذه الفوائد**: أن الرسول ﷺ مأمور بأن يكون من المسلمين، قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

١١- **من هذه الفوائد**: أن الإسلام والإيمان شيء واحد؛ لأن قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لا شك أن ما أمر به هو أعلى الحالات، وهو الإيمان ولكن هذه المسألة وهي هل الإسلام الإيمان أو لا؟ فيها أيضًا عراك بين أهل السنة والجماعة أنفسهم وبينهم وبين الأشاعرة.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩) وحسنه الألباني في تخريج الطحاوية ص (٥٣٠).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٤/ ٢٥٥٣) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

والصواب أن يقال: إن الإسلام عند الإطلاق يشمل الإيمان، والإيمان عند الإطلاق يشمل الإسلام، وأما عند التقييد وأن يقرن بينهما فإنه يكون الإيمان ما وقر في القلب والإسلام ما قامت به الجوارح؛ لأن الإسلام من الاستسلام وهي عدم المعارضة بل الموافقة، فالمنافقون الذين لا يؤمنون عرضًا نسميهم مسلمين، لكن ما نسميهم مؤمنين لعدم وجود الإيمان في قلوبهم، ومن الناس من يكون وسطًا ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (لما يدخل) ما قال لم يدخل، ليفيد أن الإيمان قريب الدخول في قلوبهم، لكنه لم يدخل إنما هو قريب، والإيمان من المنافقين بعيد لا يمكن هم ينفرون منه، لو قرب إليهم هم نفروا منه، لكن هؤلاء الأعراب ما دخل الإيمان في قلوبهم بعد إلا أنه قريب، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

إذن الصواب في هذه المسألة: أن الإيمان والإسلام إذا اقترنا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

الفوائد:

وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾:

١- **يستفاد من هذه الآية:** وجوب تلاوة القرآن بنوعيها: اللفظية والعملية، فواجب على المرء أن يتلو القرآن تلاوة لفظية وعملية، عن ظهر قلب أو وإن كان نظرًا؟ وإن كان نظرًا.

٢- **ومن هذه الفوائد:** فضيلة القرآن وشرفه حيث كان مأمورًا بتلاوته.

٣- **ومن هذه الفوائد:** وجوب تحسين القرآن لقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

٤- **ومن هذه الفوائد:** وجوب تبليغ القرآن على النبي ﷺ لقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣].

التفسير

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ فإنها على تقدير قل، يعني: وقل الحمد لله، وهذه الجملة للثناء على الله تبارك وتعالى وقد أثنى الله على نفسه في ابتداء الخلق وانتهاءه، وفي ابتداء إنزال القرآن وفي مقام التعظيم للرسول ﷺ، في إنزال القرآن وما أشبهها، فهنا قال: الحمد لله، على كمال صفاته وبيان آياته، ومنها ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ فيريكم: والإراءة أبلغ من

البيان؛ لأنه قد يكون الشيء بيِّنًا وتعمى عنه الأبصار، ولكن الإراءة أبلغ إذ كل مرئيٍّ فهو بيِّن، وليس كل بين مرئيًا، والسين في قوله: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ تفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: قرب هذا الأمر.

والفائدة الثانية: تحققه، فهي تفيد التحقيق والتقريب، ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ والإراءة هنا بصرية، وهي لما كانت معداة بالهمزة تنصب مفعولين: المفعول الأول: الكاف، والمفعول الثاني: آياته، وقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هل المراد بآيات الله هنا الآيات الدالة على صدق ما أخبر به في القرآن فتكون الآيات الكونية؟ أو هي أشمل من ذلك؟ الظاهر أنها أشمل من ذلك، أنها تشمل الآيات الدالة على صدق ما وعد به رسوله وتوعد به أولئك، وكذلك أيضًا الآيات الشرعية الدالة على كمال شريعته، وقوله: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أيضًا أبلغ من الإراءة؛ لأنني قد أُري الإنسان شيئًا ولكن لا يعرفه، وهنا قال: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ فعندنا بيان وإراءة ومعرفة، أعلاها المعرفة ثم الإراءة ثم البيان، قوله: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ نتيجة هذا أن تقوم عليكم الحجة؛ لأنهم إذا أُروا الآيات حتى عرفوها قامت عليهم الحجة.

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: [فأراهم الله يوم بدر القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وعجلهم الله إلى النار] نعوذ بالله - هذه من جملة الآيات التي أراهم إيَّاها، وإلا فقد أراهم الله انشقاق القمر قبل بدر، فإنهم طلبوا آية من الرسول ﷺ، فأشار إلى القمر فانفلق فلقتين حتى شاهدوه بأعينهم فقالوا: سحرنا محمد فاسألوا الرهبان الذين يقدمون إلى مكة هل شاهدوا ذلك أم لا؟ فسألوهم فأخبروهم بأنهم شاهدوا ذلك(١)، وقد أنكر قوم هذه الآية - انشقاق القمر - ومنهم محمد رشيد رضا وأظن شيخه كذلك محمد عبده، وهذا خطأ فادح والعياذ بالله؛ لأن الأحاديث فيه متواترة، وإشارة القرآن إليه ظاهرة، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١] هم حرفوا القرآن فقالوا: انشق القمر أي: بان ضياء الحق والنور بما جاء به الرسول ﷺ، وهذا بلا شك تحريف للقرآن وتكذيب لما تواترت به السنة.

الصواب الذي لا شك فيه وهو من معتقدات أهل السنة والجماعة أن القمر انشق، وقولهم: إنه لو انشق لكان أمرًا عالميًا وكان له ذكر في التاريخ؛ لأنه أمر عالمي حيث إنه القمر آية أفقية كل يشاهدها، وحيث إن هذه الحالة للقمر حالة غريبة خارجة عن العالم، فتوافرت الهمم على نقله، ولابد أن تذكر في التواريخ، تاريخ الهند والروم والفرس وما أشبه ذلك، فنقول: تبًا لكم أن تجعلوا ما أخبر الله به موضعًا للشك؛ لأن هؤلاء لم يذكروا، بل لو ذكروا أنه لم يقع لقلنا: كذبتم وصدق الله، وأيضًا الجواب على هذا أن نقول: لا يلزم إذا انشق القمر حتى رآه أهل مكة ومن بقربهم أن يراه الناس جميعًا؛ لأن نصف الكرة الأرضية لا يمكن أن يروه، لماذا؟ لأنه غائب عنه

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٤/ ٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

هذه واحدة، الكرة المقابلة التي هي سطح الأرض لأهل مكة ومن حولهم قد يكون أتاهم في منتصف الليل أو في آخر الليل أو عندهم غيوم مانعة أو ما أشبه ذلك، الموانع كثيرة، موانع رؤيتهم له كثيرة ولكنه ما يهمنا أن يروه أو لا يروه أو يدونوه في تواريخهم أو لا يدونوه.

وتكذيب القرآن بمثل هذه الأمور أو السنة المتواترة بمثل هذه الأمور هذا في الحقيقة إيغال في العقل أو في العقليات على ما يقولون، فالإنسان ما ينبغي أن يكون عقلانيًا محضًا ولا ينبغي أن يكون ظاهريًا محضًا بل يجب أن يكون عنده عقل يزن به الأمور، وإذا بانت الأمور الشرعية فإنه لا مجال للعقل، إذنْ أراهم الله تعالى آيات منها انشقاق القمر ومنها أيضًا أن النبي ﷺ شهد الناس كلهم أن الحجر يُسلِّم عليه والشجر يسلم عليه حتى إنه يقول« **كَانَ حَجَرٌ يُسِلِّمُ عَلَيَّ فِي مَكَّةَ أَعْرِفُهُ**»[1]، وكذلك أيضًا من الآيات ما حصل يوم بدر، يوم بدر حصل فيه من الآيات قتل وسبي، قتل لرؤساء الكفار ما هو لأطرافهم لصناديد قريش، وقتل صناديد أعداء النبي ﷺ آية له؛ لأن ذلك نصر له، ولو كان ما قاله باطلًا ما كان الله تبارك وتعالى لينصره أبدًا؛ لأن الله ما ينصر الباطل على الحق نصرًا مستمرًا ولكن قد يكون للباطل طولة ليمحص الله المؤمنين فينتصر أهل الباطل لكنه انتصار مؤقت، كذلك أيضًا السبي سُبيَ منهم أحد أم لا؟ نعم سبي سبعون رجلًا منهم وذهب بهم إلى المدينة وهم أيضًا من المسلمين من أشرافهم، المهم أن هذه الواقعة واقعة بدر أثْخنَتْهُم تمامًا، وأذلتهم إذلالًا بالغًا، ولهذا سمّاه الله تعالى يوم الفرقان؛ لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل، وتعلمون أن الناس ينتظرون ماذا يحدث، العرب لما رأوا أن النبي ﷺ وأصحابه وهم قلة ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلًا غلبوا حوالي ألف من قريش كاملي العدة والعدد كثير، عرفوا أن أمر الرسول ﷺ سيظهر.

كذلك أيضًا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم هل هذا ورد في بدر أم ورد في الكفار مطلقًا؟ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠] لكن في بدر هل ذكر أن الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم؟ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢] ما فيه أنها تضرب الوجوه والأدبار، فيه أنه يضرب فوق الأعناق، يعني: فوق أعناقهم، ويضرب منهم كل بنان يعني: الأيدي، فهذا هو الظاهر وأما ما ذهب إليه المؤلف فلا أعرف في ذلك سنة أيضًا بيِّنة كهذا، وإن كان المؤلف له وجهة نظر بأن الملائكة تضرب وجوههم إذا أقبلوا على المسلمين وتضرب أدبارهم إذا أدبروا عن المسلمين لكن ما دام أن هذا لم يرد فالأولى الاقتصار على ما ورد، وهو أن الله قال لهم: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ما قال اضربوا وجوههم وأدبارهم إلا أن يقول قائل:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢/ ٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة ﷺ.

إن قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ يشمل هؤلاء فإنهم من الكفار، فهم عند الوفاة يضربون وجوههم وأدبارهم، فإن أراد المؤلف في هذا ما تشير إليه عموم الآية فهو مقبول، قال: [وعجلهم الله إلى النار] كيف عجلهم إلى النار؟ يعني معناه: عجلهم الله قبل موت الرسول ﷺ، قبل موت الرسول ﷺ حصل لهم هذا الأمر وتعجَّلوا إلى النار، قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [بالياء والتاء]، أي: عما يعملون وعما تعلمون قراءتان سبعيتان [وإنما يمهلهم لوقتهم]، قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ هذه الجملة المقصود بها التحذير والتسلية، تحذير هؤلاء المكذبين وتسلية الرسول ﷺ، وفيها من صفات الله أنها صفة من الصفات السلبية، وقد مر علينا أن الصفات السلبية تتضمن أمرين: نفي الصفة المذكورة وإثبات كمال ضدها، فالله تعالى لا يغفل لماذا؟ لكمال علمه ومراقبته، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب:٥٢].



تم بحمد الله تفسير سورة النمل

تَفْسِيرُ سُورَةِ القَصَصِ

تفسير سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى:

﴿طسٓمٓ ١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ
وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ
كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ
وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ١-٦]

التَّفْسِيرُ (١)

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: يستبقي حياتهم، وجملة يُذبِّح، ويَستحيِي محلُّها من الإعراب: حال من الفعل.

وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الإرادة مرادفة للمشيئة، وأيضًا مُتعلَّق الإرادة الكونية، الحكم القدري، وهذه متعلقة بالحكم القدري، إذن الفرق من ناحيتين:

الناحية الأولى: من ناحية المعنى.

---

(١) هذا ما بدأ به الشيخ رحمه الله تفسير سورة القصص - وذلك فيما تحت أيدينا من مصادر - سورة القصص.

والثانية: من ناحية المتعلق.

فالإرادة الكونية مرادفة للمشيئة، والإرادة الشرعية مرادفة للمحبة، والثاني من جهة المتعلق: الإرادة الكونية تتعلق بالأمور الكونية، والإرادة الشرعية تتعلق بالأمور الشرعية، والله يريد منا أن نصلي مع الجماعة شرعًا أم كونًا؟ شرعًا.

وقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ المراد: أئمة في الخير؛ لأن الإمام كل من يُقتدَى به.

وقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ الوارثين لمن؟ فرعون وجنوده، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

الفوائد:

١- بيان عِظَم القرآن وعلوه، وذلك عن طريق الإشارة إليه بالبعد في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾.

٢- أن هذا القرآن مكتوب، لقوله: ﴿الْكِتَابِ﴾ والذي نعلم من كتابته ثلاثة أمور: في اللوح المحفوظ، والمصاحف، والصحف التي بأيدي الملائكة.

٣- أن هذا القرآن مظهر مبين للأمور، لقوله: ﴿الْمُبِينِ﴾ فهو مظهر مبين للأمور، هل حذف المتعلَّق ﴿الْمُبِينِ﴾ يستفاد منه عموم إبانة القرآن لكل شيء؟ نعم، هذا من القواعد التفسيرية أن حذف المتعلَّق يفيد العموم، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ ما قال: فأغناك؛ لأن الله أغناه وأغنى به، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ما قال: هداك؛ لأن الله هداه وهدى به، إذن حذف المتعلق بقوله: ﴿الْمُبِينِ﴾ يدل على أنه مبيِّن لكل شيء، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ إذن أي مشكلة علينا في الدين من أين نحلُّها؟ من القرآن، والقرآن يرشدنا إلى الأخذ بالسنة، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وحينئذٍ لا يبقى في الدنيا مشكلة إلا وجد حلُّها في الكتاب وفي السنة، لكن القصور عن فهمها يكون له سبب إما هوى مُتَّبَع، وإما جهل، لذلك يبحث في الكتاب والسنة لعله يجد ما يُبرِّرُ ما ذهب إليه، مثلًا إنسان يريد أن يبرر الاشتراكية، فيذهب يبحث في الكتاب والسنة عما يؤيد هذا الرأي، وليس قصده الحق، ويدل لذلك أنه لو وجد في القرآن والسنة ما يخالفه تركه وطلب غيره».

وهكذا أيضًا كل هؤلاء الذين يريدون أن يشرِّعوا قوانين، أو أمورًا فقهية أو أي شيء، إنما كانوا يرجعون إلى الكتاب والسنة من أجل أن يبرروا مواقفهم، فإذا رأوا ما يخالفها أغمضوا أعينهم، وإن رأوا ما يشير إليها ولو إلى إبطالها فتحوا أعينهم إلى رءوسهم، هؤلاء في الغالب أنهم ما يتقون، لكن كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «**العقيدة الواسطية**» قال كلمة عظيمة وهي: (من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق)، هذه الكلمة في الحقيقة وزنها ثقيل، من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه، أمران: تدبر، وطلب الهدى، التدبر: الفعل، طلب الهدى: النية الصالحة، طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق، هذا جواب الشرط، والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ جزم به؛

لأنه في القرآن لا شك في هذا.

إذن القرآن مُبيِّن لكل الأمور، إما من القرآن نفسه، أو مما يرشد إليه، وذلك بالتحويل على السنة، أحيانًا تعترضنا مسائل نبحث عنها في كتب الفقهاء، كفقهاء الحنابلة، وفقهاء الشافعية، وغيرهم لا نجدها، نرجع إلى القرآن والسنة نجدها موجودة، والكتاب والسنة الرجوع إليهما يفيد الإنسان في الحقيقة فائدتين عظيمتين: أولًا: الطمأنينة والاستقرار؛ لأن اتباع كلام أهل العلم وإن كان الإنسان يطمئن إليه بعض الشيء لكن ما يكون طمأنينته إليه كطمأنينته إلى ما دل عليه الكتاب والسنة، الشيء الثاني: أنه يستطيع أن يُقنِع غيره ويُطَمئِن غيره؛ لأنه إذا قال إنسان: من قال: إن هذا حرام؟ قيل: لأن الله يقول: حرام، أو لأن الرسول ﷺ يقول: حرام، حينئذٍ يطمئن، لكن لو تقول له: لأنه في الكتاب الفلاني حرام، الكتاب الفلاني هل صدر عن وحي، إذن الفائدة هذه: الطمأنينة وإقناع الغير.

ولهذا أنا أحب أن يكون دائمًا رجوعنا إلى الكتاب والسنة، وليس معنى ذلك أنني أقول: نطرح كلام أهل العلم؛ لأن كلام أهل العلم مفاتيح لهذه الخزائن، وكم من إنسان لا يهتدي بالكتاب والسنة إلا حيث يدخل ما دخله هؤلاء العلماء، ففرق بين من يقول: اتبع الكتاب والسنة واقتدِ بكلام أهل العلم بالنسبة لفتح هذه الخزائن من الكتاب والسنة، ومن يقول: اقتدِ بالكتاب والسنة واطرح كلام أهل العلم، ولا تلتفت لهم، ولا تعدَّهم شيئًا، هذا ليس صحيحًا، هذا يعني: أن بعض الناس الآن لا يرى كلام أهل العلم شيئًا إطلاقًا ولا يرجع إليه أبدًا فهذا ليس بصحيح، فدائمًا الحق يكون بين طرفين متطرفين، إذن في الكتاب تبيين لكل شيء.

٤- **وفيها أيضًا دليل على:** أن القصص يسمى تلاوة، قص الإنسان للقصة يقال: تلاها علينا، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ﴾.

٥- **ومن الفوائد أيضًا:** أهمية قصة موسى مع فرعون، ولهذا تكفل الله تعالى بتلاوتها على النبي ﷺ لأهميتها وبيان فوائدها، فعلى كل حال قصة موسى وفرعون من أهم القصص، ولهذا يكررها الله تعالى في القرآن بأساليب مختلفة، وهنا يقول: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن ما أخبر الله به فهو حق، جميع ما أخبر الله به من هذه القصص فهو حق، وقد سبق أن قلنا إن الحق إذا وصف به الخبر: فهو بمعنى الصدق، وإذا وصف به الحكم: فهو بمعنى العدل.

٧- **ومن الفوائد:** أن هذه القصص سبب للإيمان.

٨- **ومن فوائدها:** أنها زيادة في الإيمان، سبب لمن لم يؤمن أن يؤمن، ولمن آمن أن يزداد إيمانه ثباتًا وكمية، وما الدليل أنه ينتفع بها غير المؤمن؟ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كل إنسان ذو لب وعقل لابد أن يعتبر وينتفع.

٩- **ومن فوائدها:** بيان ما كان عليه فرعون من العلو والجبروت، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** أن من علا في الأرض، وطلب العلو على الخلق فهو شبيه بفرعون، وبئس الرجل يكون إمامه فرعون.

١١- **ومن فوائدها:** أن تفريق الأمة سبب لفشلها وذلها، يؤخذ من قوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾.

١٢- **ومن فوائدها:** أن حكمة الإنجليز المشهورة: فَرِّق تَسُدْ فرعونية؛ لأنه هو الذي جعل أهلها شيعًا لأجل أن يسودهم.

١٣- **ومن فوائدها:** أن بني إسرائيل من أهل مصر مع أنهم في الأصل من أهل الشام، فيتفرع على هذه الفائدة أن من سكن أرضًا وأقام فيها وإن لم يكن من أهلها في الأصل نسب إليها وصار من أهلها.

١٤- **ومنها:** بيان شدة استضعاف فرعون لبني إسرائيل، حيث كان يذبح أبناءهم، ويستحيي نسائهم؛ لماذا؟ قيل: لأنه أُخبِر بأنه سيولد من بني إسرائيل ولد يكون هلاكك على يده، وقيل: لأن ذلك هو الطريق لإذلال الأمة؛ لأنه إذا ذهب الرجال وبقي النساء صِرن إماءً للمستعبِد بلا شك، ليس عندهم قيِّم ولا مدافع.

١٥- **ومن فوائدها:** أن هذا العمل: العلو في الأرض، والعتو على الخلق، والسعي بينهم بالتفريق، أنه من الإفساد، يؤخذ من قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ عكس ذلك إذن الذي يتواضع للحق وللخلق ويجمع الأمة ويقصر عدوانه يكون من المصلحين؛ لأن بضدها تتبين الأشياء، فإذا كانت هذه الأمور من الفساد فضدها من الصلاح.

١٦- **ومن فوائدها:** إثبات إرادة الله في قوله: ﴿وَنُرِيدُ﴾ وجه إثبات الإرادة من قوله: ﴿وَنُرِيدُ﴾ مع أن (نريد) فعل وليس اسمًا، نقول لأن الفعل يدل على الحدث وزمانه، فنريد مشتق من الإرادة، وعليه فنقول إنه يدل على إثبات الإرادة لله، المعتزلة نفوا الإرادة، والأشاعرة أثبتوا الإرادة، قالوا إن الله تعالى له إرادة لأن التخصيص بكون الليل ليل، والنهار نهار، والحر حر، والبرد برد، يدل على إثبات الإرادة؛ لأنه لا يقع هذا التخصيص إلا بإرادة، وهم كما عرفنا من قبل إنما يستدلون على إثبات الصفات بالعقل، وما خالف عقولهم وجب تأويله وصرفه إلى ما يوافق العقل، وقد مضى لنا هذا ولكن لا بأس من إعادته، مضى أن هذه طريقة فاسدة مخالفة للقرآن ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ : (ليت شعري بأي شيء يوزن الكتاب والسنة أفكلما جاءنا رجل أجدل من رجل اتبعناه وتركنا قول الآخر). يستقيم هذا أم لا يستقيم؟ لا يستقيم.

إذن نقول: إثبات صفات الله بالطرق العقلية ونفي ما لم يدل عليه العقل هذا في الحقيقة عدوان وطريق فاسد، على أننا نقول إنه يمكننا أن نثبت ما نفيتم بطريق العقل كما أثبتم أنتم ما أثبتم بطريق العقل، بل أبلغ عقلًا، ظهور صفة الرحمة في المخلوقات أبلغ من ظهور صفة الإرادة، الإحسان إلى الخلق بالرزق والإمداد والإعداد وبجميع ما يتمتعون به هذا ظاهر لكل أحد، لكن كون هذا حر وهذا برد يدل على الإرادة؟ دلالة هذا على الإرادة أخفى من دلالة النعم على الرحمة بلا شك، أيضًا نصره للطائعين وخذلانه للعاصين يدل على الحب والبغض أم لا؟ لولا أنه يحب هؤلاء ما نصرهم، ولولا أنه يبغض هؤلاء لنصرهم، وهذا معروف حتى الإنسان إذا صار يبغض واحدًا ما ينصره، وإذا صار يحبه ينصره، إذن نصره لهؤلاء وإذلاله لهؤلاء دل على إثبات المحبة والبغض وهم ينكرون ذلك يقولون العقل لا يدل عليه، المهم والحمد لله أن الحق واضح، ما من شيء يزعم هؤلاء أن العقل ينكره أو لا يثبته، إلا وجدنا أن العقل يثبته كما أثبته الشرع.

١٧- **ومن فوائد الآية:** تمام قدرة الله عز وجل، وجهه أن هؤلاء المستضعفين جعلهم أئمة ووارثين لهؤلاء الطغاة، جعلهم وارثين بقدرتهم، أم بقدرة الله فقط؟ في الحقيقة ليس لبني إسرائيل أي قدرة؛ لأن المسلمين من هذه الأمة ورثوا ديار الروم وديار الفرس بفعلهم وجهادهم، لكن إرث بني إسرائيل لديار فرعون بلا سبب منهم، بل هو من الله عز وجل محض، ولهذا قال: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ فهو بجعل الله سبحانه وتعالى المحض، يستفاد منه كمال قدرة الله عز وجل، وأن الله ييسر لعباده من النصر ما لم يكن في مقدورهم ولا في الحساب.

١٨- **ومن فوائدها:** أن من استُضعِف بقيامه بالحق فلابد أن تكون العاقبة له، كل من استُضعِف بقيامه بالحق لابد أن تكون العاقبة له؛ لأن قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وإن كانت في سياق بني إسرائيل فغيرهم داخلٌ في العموم، العموم اللفظي إذا قلنا: على الذين استضعفوا في أي مكان وزمان؟ أو العموم المعنوي وذلك بقياس غيرهم عليهم؛ لأن دلالات العموم إما لفظية أو معنوية فالقياس الصحيح دلالة اللفظ على المقيس دلالة معنوية، فحينئذٍ نقول على الذين استضعفوا في الأرض إذا جعلناهم هم بني إسرائيل فقط، المستضعفون بقيامهم بالحق من غيرهم مثلهم؛ لأن الله يقول: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ سنة الله في الخلق واحدة؛ لأنه سبحانه وتعالى ليس بينه وبين أحد نسب حتى يراعيه، أو حَسَبٌ حتى يراعيه، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

فإذن نقول: في هذه الآية دليل على أن من استُضعِف في طريق الحق - يعني: لقيامه بالحق - فإن العاقبة له، هنا قد يقال: إن أناسًا استُضعِفوا في الحق وقتلوا أو طردوا أو ما أشبه ذلك، فأين العاقبة التي تزعمون؟ نقول: إن العاقبة لا تكون للشخص الجسدي فقط؛ بل للشخص المعنوي، مقالة هذا لابد أن تُنصَر، وانظروا الآن إلى من سبقنا من أهل العلم، كل عالم أُوذِيَ في الحق سواء

قتل أو لم يُقتَل، فإنك تجد مقالاته تبقى وتنتشر أكثر من غيره، وهذا واضح لمن تأمل.

إذن فالنصر للقائل في حياته أو بمقالته بعد وفاته، والإنسان المجاهد لله هو لا يريد أن يبقى بنفسه، همه أن يبقى هذا الحق الذي قام به، لا يهمه أن يبقى هو أو لا يبقى، إذا كان يدعو إلى الله، أما من يدعو إلى نفسه ـ ونسأل الله أن يعيذنا من ذلك جميعًا ـ فهذا نعم هو الذي يقول إذا قتل أو أوذي ما انتصر، لكن من يدعو لله لا يهمه إلا أن تنتصر هذه الدعوة، ولهذا هو يقاتل لها ومن أجلها.

مسألة: بعض الناس قد يتهوَّر، ضعيف ليس لعدوِّه بمُقابل، يقرأ هذه القصة يقول: لابد من النصر.

الجواب: نعم؛ لكن لابد من نصر الحق بأسبابه، إذا أعيتك الأمور جاء النصر من عند الله بدون سبب، لكن ما دام أنك أنت مأمور بطريق معين قد لا تنصر من أجل مخالفتك إياه وتقصيرك؛ لأنه ليس كل من حسنت نيته حسن فعله ونصر، لا، يختلف الأمر، ولذلك مسائل هذه الأمور من أدق المسائل التي نحن نتكلم عنها كثيرًا؛ لأن هذه المسائل دقيقة جدًّا والإنسان يمشي كأنه كرة في اليم تقلبها الرياح، أحيانًا يأتيها ريح عاصف تبعدها أميالًا، لذلك يجب أن يكون الإنسان مُتَّزنًا ولا يكون مُتهوِّرًا، إذا تهوَّر ثم خالفه النصر فالبلاء من عند نفسه.

١٩- ومن فوائد الآية: مناقب بني إسرائيل لقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً﴾ وهنا قد يشكل على الإنسان أن الله تعالى يقول هنا: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً﴾ وفي آيات كثيرة يذم بني إسرائيل، والله سبحانه وتعالى بيَّن السبب في جعل هؤلاء أئمة، فقال تعالى في سورة «الم» السجدة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فهم حين كانوا متصفين بهاتين الصفتين الصبر واليقين، كانوا أئمة، وقد أخذ شيخ الإسلام من هذه الآية جملة، فقال: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، لكن لما تخلف الصبر وتخلف اليقين منهم صاروا قردة خاسئين، وجاءت الآيات بذمهم، الآيات لا يُكذِّبُ بعضها بعضًا لكن هناك أشياء توجب تقلب أحكام بعض الآيات لتخلف السبب.

٢٠- ومن فوائد الآية: أن المسلمين إذا استولوا على بلاد الكفار ملكوها، لقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ والوارث يملك ما ورث، فهم يجعلهم الله الوارثين، ولهذا قال أهل العلم: إن الأراضي تملك.

٢١- ومن فوائد الآية: أن الأراضي ليست من الغنائم المحضة، هنا قال: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ مع أن الرسول ﷺ يقول: «أُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»[1] انظروا الآن إلى هذا التقرير الذي أقرر انظروا هل هو صحيح أو ليس بصحيح، أعتقد أنه صحيح؛ لأن الله أورث

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٣/ ٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

بني إسرائيل أرضهم وأموالهم، أرض بني فرعون وأموالهم، قال الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فالكنوز لا شك أنها مغانم، ويقول: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فكيف نُجيب عن الحديث؟ الجواب: أن نقول: إن هؤلاء لم يرثوها بالقتال، والغنيمة معروفة أنها تُؤخَذ عن طريق قتال الأعداء، هؤلاء لم يرِثُوها بالقتال، ولكن بقوة الله عز وجل التي ليس لهم إليها سبيل، وعلى هذا فلا تخالِف قول الرسول ﷺ: «أُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي» فيما سبق توجد غنائم لكنها لا تحل للمقاتلين، شأنها أنها تُجمَع ثم تنزل عليها نار من السماء فتحرقها، ثم إنه إذا كان فيها شيء من الغلول لا تنزل النار سبحان الله العظيم، لا تنزل حتى يُفقَد شيء، إذا فُقِد شيء نزلت النار فأحرقتها، والحكمة من إحراقها من أجل قطع التعلق بها نهائيًا؛ لأنها لو بقِيَت تداولها الناس بالبيع والشراء والانتفاع ومَلَكُوها.

مسألة: هذه الأمة أفضل الأمم، فلو مثلًا مُنِعَت من الغنائم لكان أولى؛ لأنها أقوى إيمانًا؟

الجواب: لا؛ ليس صحيحًا، لكن هذه الأمة الله سبحانه وتعالى أمدَّها بأشياء لتستعين بها، ولا مانع أن الإنسان الذي يكون أفضل يمد بأشياء ليصل إلى الفضيلة، أليس النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ ومع ذلك هو يستغفر الله تعالى، ونحن أيضًا مأمورون بأن نصلي عليه مع أن الله يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ فلا يلزم من الوصول إلى الكمال أن لا يسأل الإنسان بأسبابه.

٢٢- من فوائد الآية: أن تمكين الإنسان في الأرض من نعمة الله عليه، لقوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأن هذا من جملة ما أنعم الله به على بني إسرائيل أَنْ مكنهم في الأرض، فكون الإنسان يُمكَّن له في الأرض سواء كان هذا التمكين عن طريق سلطة السلطان أو عن طريق سلطة القرآن، لاحظوا أن التمكين في الأرض ليس معناه: أن الإنسان يحكم الناس ويكون سلطانًا عليهم، لا بل من التمكين في الأرض أن الله يُمكِّن له حتى يكون لقوله سلطان على المؤمنين، فمثلًا شيخ الإسلام ابن تيمية مُكِّن له في الأرض أم لا؟ مُكِّن له في الأرض أعظم من تمكين الولاة في وقته، تمكين الولاة في وقته انقضى بموتهم، لكن تمكين الله لهذا الرجل حتى كان قوله معتبرًا بين الناس، باقيًا إلى الآن، إذن التمكين في الأرض وإن كان يتبادر إلى الذهن أنه تمكين السلطان فينبغي أن نقول وتمكين القرآن، بمعنى أن من قام بالحق فإنه يكون لقوله سلطان وقوة، وهذا أيضًا جاء بالحديث شاهدًا له بأن الله تعالى إذا أحب عبدًا وضع له القبول في الأرض، بمعنى: أنه يكون له قبول، ولقوله نفاذ، فهذا من تمكين الله تعالى في الأرض.

٢٣- ومن فوائد الآية أيضًا: أن فرعون وقومه كانوا يحذرون من بني إسرائيل، فأراهم الله تعالى ما كانوا يحذرون، وهنا إشكال: كيف أراهم الله تعالى ما كانوا يحذرون مع أنهم هلكوا؟

قال بعضهم في قوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾: ليس المراد: الهلاك، المراد بما كانوا يحذرون: منازعة آل فرعون، فإن بني إسرائيل لما بعث موسى استقووا، وقصة السحرة واضحة فيها، لما اجتمعوا واجتمع الناس في يوم عيدهم وفي الضحى في رابعة النهار وصارت الهزيمة على آل فرعون هُزموا حسًّا ومعنىً، هُزموا حسًّا بأن عصى موسى ﷺ جعلت تلقف ما يأفكون، وهزموا معنى بأَن السحرة أنفسهم آمنوا وصرحوا للملأ بأن فرعون هو الذي أكرههم على السحر وبينوا أن الرب الحقيقي هو رب موسى وهارون، هذه هزيمة معنوية بالإضافة إلى الهزيمة الحسية، أليست هذه تغيظ آل فرعون؟ تغيظ فرعون وهامان وجنودهما غيظًا عظيمًا، إذن يمكن أن نجيب عن هذا بجوابين: أحدهما: ما ذكرت أن كل واحد في آخر لحظة من حياته يتبين له أنه خاسر وأن بني إسرائيل هم الغالبون، والثاني أن نقول: إن الله أراهم منازعة بني إسرائيل لهم وظهور بني إسرائيل عليهم في ذلك المجمع العظيم ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ يوم الزينة هو يوم العيد يتزين الناس به، وأن ﴿يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ يجمعون ﴿ضُحًى﴾ في رابعة النهار، هذا الموعد الذي من موسى هو الذي اقترحه لأنه واثق عليه ـ الصلاة والسلام ـ بأن الله سينصره، حصل هذا الاجتماع في هذا اليوم، وصار في الحقيقة يوم عيد لبني إسرائيل ويوم شر وسوء لفرعون نظير ما قال أبو جهل إننا لا نرجع إلى بدر حتى ننحر الجزور، ونسقي الخمور، وتعزف علينا القِيَان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، سمعت العرب والعجم أيضًا بهذه الغزوة لكن كانت تُغنِّي القِيان لهم أم عليهم؟ عليهم في الحقيقة، صاروا قد فعلوا ما به ظهور عورهم، وظهور - والعياذ بالله - جبروتهم حتى أعز الله تعالى الإسلام والمسلمين بهذه الغزوة.



قال الله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٧-١٠].

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ويطلق على معانٍ متعددة، منها: الوحي الشرعي: وهو وحي النبوة أو الرسالة، ووحي الإلهام: وهو ما يلقيه الله سبحانه وتعالى في نفس الموحى إليه، ووحي النوم، فإن النوم الرؤية الصالحة فيه جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، ننظر إلى هذه الآية ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ فإذن وحي النبوة أو الرسالة؟ بل النوم؛ لأن الذي أوحي إليها ليس بشرع، ترضعه إلى آخره، ثم إن الصحيح أنه لم يُبعث أحد من النساء نبيًّا، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾.

إذن يكون الوحي إما إلهامًا أو منامًا، فالإلهام ليس بالشيء الغريب، أن تُلهَم امرأة ما يكون في مصلحتها، فالله تبارك وتعالى ألهم النحل، وهو يلهم من بني آدم ما فيه مصلحتهم، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا...﴾ إلى آخره، ولهذا قال المؤلف: [وأوحينا وحي إلهام أو منام] [أو] هنا للتنويع تنويع الخلاف في هذه المسألة، فإن بعض العلماء يقول: إن الوحي وحي إلهام وبعضهم يقول إن الوحي وحي منام، والمهم أنه ليس وحي رسالة أو نبوة.

وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ يعني التي ولدته وهذا هو الأصل في الأم ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ وأما الأم من الرضاعة فلا تذكر مطلقة إنما تذكر مقيدة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ الأم من الرضاعة لا تدخل في مطلق الأم بل لابد أن تكون مقيدة.

وإنما قررت هذا ليتبين أن قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ المراد بها: الأم التي ولدت دون أم الرضاعة، قال: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [وهو المولود المذكور ولم يَشعر بولادته غير أخته].

[وهو المولود المذكور]؛ لأنه ما من أم إلا ولها ولد، وقوله: [ولم يشعر بولادته غير أخته] هذا من الأقوال الإسرائيلية، التي لا تصدق ولا تكذب؛ لأنه ما الذي أدرانا أنه لم يشعر به إلا أخته؟ ليس عندنا أحد يدلنا على هذا.

وقوله: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أن: هذه تفسيرية وضابط التفسيرية: التي تقع بعد ما فيه معنى القول دون حروفه فهي تفسيرية، ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ كمثل قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ وأمثاله كثير.

وقوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ وهذا دليل أن هناك خوفًا من آل فرعون وأنهم يلتقطون الأولاد، ولهذا قال: ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فسره بقوله: [البحر]، ثم فسر البحر بقوله: [أي النيل]، فاليم هو البحر كما قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ يعني: البحر، والمراد

بالبحر هنا: النيل، وسمي بحرًا وإن كان نهرًا لكثرته واتساعه، قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ﴾ هذا فعل الشرط وجواب الشرط ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ وهو من الغرائب أن من يُخاف عليه يلقى فيما فيه هلاكه؛ لأن إلقاءه في البحر معناه: استعجال الهلاك له، إذ أن المعروف أنه يموت إذا أُلقي في البحر، وهذا من آيات الله - عز وجل - أن يكون موسى ملقى في مكان الخوف فلا يموت ثم يعيش بين أحضان فرعون الذي كان يتتبع أولاد بني إسرائيل فيقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم.

هذا من الآيات الدالة على كمال قدرة الله عز وجل وأن الله إذا حمى أحدًا فإن الأسباب المؤدية إلى الهلاك لا تؤثر ولا يكون لها تأثير وأن قدرة الله فوق الأسباب، ولهذا النار محرقة بلا شك وصارت على إبراهيم بردًا وسلامًا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾ قال المؤلف: [غَرَقَه]، فمفعول تخافي محذوف قدَّره بقوله: [غَرَقَه] وهو واضح، ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ [لفراقه]، قال: [لفراقه]؛ لأن الحزن يكون في الماضي، والخوف في المستقبل، فما أهمَّ الإنسان إن كان مستقبلًا فهو خوف، وإن كان ماضيًا فهو حزن، هنا قال الله لها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ فإن الأمر سيكون على خلاف ما تتوقَّعين، ولهذا قال: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إنا رادوه ما قال نرده، لتكون الجملة اسمية، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والاستقرار، وقوله: ﴿إِنَّا﴾ بضمير الجمع للتعظيم، وقوله: ﴿رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ أي مرجعوه ولم يبين الله تبارك وتعالى المدة التي قد حجبوا فيها، ولكن الظاهر أنها ليست ببعيدة كما سيأتي في آخر القصة، وقوله: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذه بشارة فوق البشارة الأولى، وهو أن يكون هذا المولود من المرسلين أو ممن أرسلهم الله تبارك وتعالى وأكرمهم بالرسالة.

هذه الآية فيها أمران، ونهيان، وبشارتان، الأمران: قوله: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ و﴿فَأَلْقِيهِ﴾ والنهيان: قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ والبشارتان: قوله: ﴿رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فأرضعته ثلاثة أشهر لا يبكي وخافت عليه فوضعته في تابوت مقلم بالقار من داخل ممهد له فيه ثم أغلقته وألقته في بحر النيل ليلًا، قوله: [أرضعته ثلاثة أشهر] ليس في الآية ما يدل عليه، إنما لا شك أنها امتثلت أمر الله أرضعته ولما خافت عليه ألقته، وقول المؤلف: [فوضعته في تابوت] من أين أخذه؟ من آية أخرى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ وهذا من إرشاد الله تبارك وتعالى لها؛ لأنه ما أمرها أن تُلقيه سهلًا في البحر، وإنما أمرها أن تلقيه في تابوت ليكون حفظًا له، والتابوت يكون من الخشب، والخشب عادة يطفوا على الماء، فإذا جعل فيه القار فإنه أيضًا يمنع من دخول الماء إليه؛ لأنه ربما إذا دخل الماء إليه وتسلل في الخشب يثقل ثم يغوص، وأما قوله: [وألقته في بحر النيل ليلًا] من أين أخذ قوله: [ليلًا]؟ ربما يؤخذ من قوله فيما بعد: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أنها ألقته في الليل، ثم جعلت توسوس فيه، وتهتم له حتى كانت

لا تفكر في غيره، ثم يؤيد ذلك أن المرأة قد خافت عليه، وإذا خافت عليه فإنه من المستبعد عادة أن تخرج به نهارًا وتلقيه أمام الناس فلابد أن يكون ليلًا، فيكون هذا الحكم بأنه ليلًا مأخوذ من الآية، ومن العادة أن هذا لا يكون إلا في الليل، قال في قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾: [بالتابوت صبيحة الليل] ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾، التقطه ولم يقل أخذه لأنه أخذ أخي حكم اللقيط المنبوذ وأهل العلم يقولون: إن اللقيط هو الطفل المنبوذ، الذي طرح ثم لقيته، ولهذا قال: التقطه، ولم يقل: أخذه لماذا؟ لأن اللقيط هو الطفل المنبوذ، هؤلاء أخذوا هذا التابوت.

وقوله: ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ قال المؤلف: [أعوانه] آله أي: أعوانه، ويحتمل أن آله أي: قرابته، على كل حال المهم أنه أَخَذه من ينتسب إلى فرعون وهو الملك.

وقال: ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ [فوضعوه بين يديه] أي: بين يدي فرعون، وكانوا لا يشعرون بالذي فيه، وربما يظنون الذي فيه مالًا من الأموال، [وفُتِح وأُخرِج موسى منه وهو يمص من إبهامه لبنًا] والعادة بأن الشيء المغلق، الإنسان لابد أن يفتحه وينظر ما فيه، وأما كونه يمص من إبهامه لبنًا فهذا من الأمور الإسرائيلية التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، إن لم نقُل بأنها تُكذَّب؛ لأن هذا بعيد من العادة.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ [في عاقبة الأمر]، ﴿لِيَكُونَ﴾ الضمير يعود على موسى، و﴿لَهُمْ﴾ الضمير يعود على آل فرعون ويدخل في آل فرعون فرعونُ نفسه، وقوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ قال المؤلف: [في عاقبة الأمر] إشارة إلى أن اللام هنا للعاقبة وليست للتعليل؛ لأنهم لو شعروا بأنه يكون لهم عدوًّا وحزنًا قتلوه، ولكن العاقبة أنه كان كذلك، وما ذهب إليه ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ من أن اللام للتعليل باعتبار علم الله، له وجه ويقال: التقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا وحزنًا في علم الله، وليست تعليلًا للالتقاط هذا له وجه، لكن الأقرب ما ذهب إليه المؤلف وغيره من أن اللام هنا للعاقبة وليست للتعليل.

إذن اللام التي تدخل على الفعل المضارع تنقسم إلى قسمين: زائدة وغير زائدة، وغير الزائدة تكون للتعليل، وتكون للعاقبة، وتكون لتأكيد النفي، وأما الزائدة: فهي التي تقع في الغالب بعد فعل الإرادة مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ فإن اللام هنا زائدة؛ لأنك لو حذفتها وقدرت أن، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ﴾ إنما يريد الله أن يُذهب تم الكلام أم لا؟ تم، واللام غير الزائدة تكون للتعليل مثل: حضرت لأتعلم، أي: من أجل أن أتعلم، وتكون لتأكيد النفي مثل قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ولهذا يسميها النحويون لام الجحود؛ يعني: النفي، فهي لتأكيد النفي، والثالثة: تكون للعاقبة مثل هذه الآية ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ [يقتل رجالهم] ﴿وَحَزَنًا﴾ [يستعبِد نساءهم]، هذا فيه نظر؛

بل الظاهر أنه عدو لما يحصل على يديه من الأضرار البالغة لآل فرعون، وحزنًا؛ لأنه سوف يحزنهم حين يظهر له من الانتصارات العظيمة، وأبلغها متى؟ حين انتصر يوم الزينة يوم انتصر عليهم انتصارًا بالغًا باهرًا وحصل لهم بهذا من الحزن ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ولم نعلم أن موسى ﷺ قتل رجال آل فرعون ولا أنه استعبد نساءهم، إنما المعروف أن الله سبحانه وتعالى أغرقهم بفعله، [وفي قراءةٍ بضم الحاء وسكون الزاي، لغتان في المصدر، وهو هنا بمعنى اسم الفاعل من حَزَنَه كأَحْزَنَه]، يقول: [وفي قراءة]، سبعية أم شاذة؟ سبعية؛ لأن قاعدة المؤلف أنه إذا قال: [في قراءة] يعني: سبعية، وإذا قال: [قُرِئ] فهي شاذة، قال: [بضم الحاء وسكون الزاي] ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ حُزْنًا وحَزَنًا معناهما واحد، وهما لغتان في المصدر، من أين يؤخذ؟ يقول: [من حَزَنَه كأَحْزَنَه]، يعني: أن الحَزَن الذي ليس مزيدًا بالهمزة مثل أَحْزَنَه المزيد بالهمزة من حيث التعدي، وقوله: [وهو هنا بمعنى اسم الفاعل]، وما معنى بمعنى: اسم الفاعل؟ يعني: بمعنى حَازِن أي: مُحْزِن، لماذا أَوَّلَه المؤلف إلى هذا؟ لأن الحزن شعور بالنقص، وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هل يكون شعورًا في أنفسهم؟ لا، لكنه مدخل لهذا الشعور وهو الحزن في أنفسهم، وعلى هذا فيكون حزنًا بمعنى حازنًا، ويأتي المصدر غالبًا بمعنى اسم الفاعل وغالبًا بمعنى اسم المفعول، فيقال فلان عدل رضا، ويقال أيضًا فلان ثقة، وعدل ورضا وثقة مصادر بمعنى اسم الفاعل، عادل ورضا بمعنى: المرضي، وثقة بمعنى: موثوق بمعنى اسم الفاعل واسم المفعول، وقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] هذا مصدر بمعنى: اسم المفعول؛ أي: مردود.

وقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ما هو العدو؟ العدو عند الفقهاء قالوا: إن العدو من سرَّه مساءة شخص، أو غمه فرحه هو عدوه، كل إنسان يَسُره أن تُساء ويحزنه أن تُسَرَّ فهو عدو وكل إنسان يَسُره أن تُسَر ويحزنه أن تَحْزَن فهو وليك؛ لأن العدو ضده العدل وضده الولي.

قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ الجملة هذه تعليل لقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ كأنه قيل: لماذا يصير لهم عدوًا وحزنًا؟ فبين أن السبب في ذلك هو خطأ هؤلاء، فرعون: الملك، هامان: وزيره، جنودهما: أتباعهما الذين يمتثلون بأمرهما وأصل الجنود جمع جند والجند: هم أنصار الإنسان، ويقول: ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [من الخطيئة؛ أي: عاصين فعوقبوا على يديه]، الخاطئ والمخطئ ما الفرق بينهما؟ الخاطئ: يعني من أتى الخطأ متعمدًا فهو خاطئ، ومن أتاه غير متعمد فهو مخطئ، ولذلك الخاطئ مُعَذَّب والمخطئ غير مُعَذَّب، قال الله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ والمخطئ ليس عليه إثم ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧/ ١٧١٨) من حديث عائشة ﵂.

﴿أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ والفعل من خاطِئ خَطِئ، ومن أخطأ مُخْطِئ هذا هو الفرق إذن هذا قوله سبحانه وتعالى خاطئين أي: واقعين في الخطأ عن عمدٍ وقصد، ولهذا قال المؤلف: [أي: عاصين فعوقبوا على يديه].

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ﴾ [وقد همَّ مع أعوانه بقتله] أي: بقتل موسى، [هو] ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ﴾ عندي مكتوبة قرة بالتاء المفتوحة، والقاعدة بالمربوطة، وهي كذلك فيما بقي من الآيات بالمربوطة، ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ مربوطة ولم تأت مفتوحة إلا في هذا الموضع في القرآن، وذكرت في القرآن في موضعين سوى هذا، وكلها بالمربوطة، وإذا قيل: ما الفرق؟ نقول: إن هذا يدفع فيه الرسم العثماني هكذا رسمه الصحابة ﷺ، وقوله: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ﴾ أولًا: قالت توجه الخطاب إلى فرعون، وقُرَّت قدَّر المؤلف: [هو] ليبين أنه خبر مبتدأ محذوف، وقوله: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ﴾ مأخوذ من القر أو القرار، يعني: قصده من هذا أو من هذا ويصح منهما جميعًا من القر وهو البرد؛ لأن العين إذا بردت فإنها تكون علامة على السرور، ولهذا يقال: دمع السرور بارد ودمع الحزن حارٌ، ويقال: يبكي عليه بدمع حار يعني: من الحزن، إذن قرت العين كناية عن برودتها، وبرودة العين دليل على السرور، وقيل: إنها مقرة بالمكان وهو القرار وعدم الاضطراب؛ لأن الإنسان إذا كان خائفًا بدأت عينه تجول من هنا ومن هنا تشخص وتجول وتتلفت ولكن قرارها دليل على أنها لم تخف.

وقوله تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ قولها ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ يدل على أنهم هموا بقتله، وإلا لما كان لقولها لا تقتلوه فائدة، وقولها ﴿لِّي وَلَكَۖ﴾ وقع كما توقعت بالنسبة لها نعم لا شك أنه وقع الأمر كما توقعت وصار هذا الولد قرت عين لها ورفعة لها في الدنيا والآخرة، وأما لفرعون فلا، ما صار قرة عين له بل كان له عدوًا وحزنًا، ومن غرائب التفسير أن بعضهم قال: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي﴾ ووقف ﴿وَلَكَۖ لَا﴾ ووقف أيضًا، و﴿تَقۡتُلُوهُ﴾ جملة مستأنفة، وهذا في الحقيقة كالتلاعب بالقرآن؛ لأنه لو كان كما يقولون لقال الله تعالى: تقتلونه؛ إذ أن حذف النون هنا لا نعلم له سببًا سوى النهي فكيف يفسر كلام الله بمثل هذه التفاسير الباردة، ولكنا ذكرناه؛ لأنه قد قيل: إنه عن ابن عباس ﷺ، ولكن هذا من أبعد ما يكون عن ابن عباس، لما فيه من تفكيك الكلام وتناثره وعدم التئام بعضه ببعض، ولأن النون في الفعل تقتلوه محذوفة، مما يدل على أن لا: مسلطة عليهم، ولكنها هي ﷺ إما أنها قالت ذلك من باب التهدئة له ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ لتهدئه وتفرحه، وإما أنها قالت ذلك معتقدة له، ولكن ليس من اعتقد شيئًا يكون الأمر على وفاق ما اعتقد، بل قد يخلف الله تعالى اعتقاد الإنسان لحكمة يريدها وهذا لا مانع منه أن تقول ذلك معتقدة أنه سيكون قرة عين له ولها أيضًا، ويدل لهذا قولها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ عسى: للترجي، وقولها: ينفعنا: بالخدمة ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ نتبناه، وقد

قيل إنه ليس لفرعون من امرأته ولد، فقالت أو نتخذه ولدًا، ومعلوم أن بين الأمرين فرقًا فإن انتفاعهم به لا يجعلهم يحنون عليه كما يحنون على الولد، فالخادم عند الإنسان يأمره وينهاه ولا تجد في قلبه له من الرحمة والرأفة والعطف ما يكون للولد، ولهذا قالت ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وهذا انتقال من الأدنى إلى الأعلى، إذن نحن لسنا محرومين من هذا الولد، فإما أن نتخذه خادمًا ننتفع به، وإما أن نتخذه ولدًا نفخر به ويكون لنا بمنزلة الولد، هناك احتمال ثالث أنه لا ينفعهم ولا يتخذوه ولكنه لا يمكن أن يقال في هذا السياق لأنها تريد ترغيبهم في إبقائه، والترغيب في الإبقاء لا يبقى فيه إلا الصفات المرغوبة، وهي أن ينفع أو يتخذ ولدًا.

وقال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذه جملة من كلام الله أم من كلامها هي؟ الظاهر أنها من كلام الله يعني: هم أي: آل فرعون ومنهم المرأة لا يشعرون بعاقبة أمر هذا الولد؛ لأنهم لو شعروا بعاقبة أمره قبلوا منها مشورتها أم لا؟ لم يقبلوا، ولكن الله سبحانه وتعالى أخفى ذلك عنهم.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [لما علمت بالتقاطه ﴿فَٰرِغًا﴾ مما سواه]، أصبح هذا بناءً على أنها ألقته ليلًا، وتأتي كلمة أصبح بمعنى: صار بقطع النظر عن الزمن، بخلاف العربية تأتي أصبح بمعنى: صار، وتأتي أصبح بمعنى: صار بإصباحه يقال مثلًا: صار الماء ثلجًا أصبح الماء ثلجًا بمعنى: صار، في اللغة العامية الآن دائمًا يعبر الناس بقولهم: أصبح كذا وأصبح كذا ويريدون بذلك: أنه انتقل إلى كذا، كما أن الإصباح انتقال من الليل إلى النهار، لكن هنا ليس ببعيد أنه في صباح تلك الليلة استولت عليها الوساوس والهواجس حتى صار قلبها فارغًا من كل شيء، لا تفكر بأي شيء إلا بهذا الولد، وهذا ـ أعني أن المراد بالإصباح هنا الدخول في الصباح ـ أولى من أن نجعله بمعنى صار؛ لأنكم كما تعلمون الشيء يحزن عليه عند فقده لكن إذا طال الزمن فإنه قد ينسى، الظاهر أن أصبح أي: في تلك الليلة، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ﴾ ما الفؤاد؟ القلب، ﴿أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ يقول: [مما سواه] أما قول المؤلف: [لما علمت بالتقاطه] فهذا لا يتعين منه علمًا؛ لأنه بمجرد أن ألقته سوف توسوس به،﴿إِن كَادَتْ﴾ إنْ: مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي: أنها كادت لتبدي به أي بأنه ابنها لولا أن ربطنا على قلبها إلى آخره، يقول: المؤلف أعرب (إنْ) مخففة من الثقيلة، وابن مالك يقول:

خُفِّفَتْ إنْ فَقَلَّ العَمَلُ ... وتَلْزَمُ اللامُ إذا ما تُهْمَلُ

فالآية إذن جارية على اللغة الفصحى؛ لأن كاد: ناسخ أم غير ناسخ؟ ناسخ، وهنا اللام ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ لازمة أم جائزة؟ هي جائزة؛ لأن السياق يدل على المعنى وهو قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فإن هذه الجملة لا تناسب أن تكون إنْ نافية يعني: ما كادت تبدي به لولا أن ربطنا على قلبها؛ لأن الربط على القلب يقتضي الكتمان أم البيان؟ الكتمان، ولا يصح أن نقول: ما كادت تظهره لولا أن ربطنا؛ لأن لولا أن ربطنا يستلزم أن لا تظهره، فعلى هذا تكون اللام هنا

جائزة وهي جائزة من حيث الصناعة النحوية، أما من حيث التلاوة القرآنية فهي غير جائز حذفها، والسبب أن كلام الله لا يمكن أن يبدل لا بنقص ولا بزيادة، ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ تبدي أي: تظهر، ﴿بِهِۦ﴾ أي: بموسى، وأما قول المؤلف: [أي: بأنه ابنها] فهو بناءً منه على أنها وصلت إلى آل فرعون، ولولا أن الله ربط على قلبها لقالت: هذا ابني، ولا شك أن هذا بعيد من القصة، وبعيد من المعنى، ولكنه ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ أي: لتظهر بما فعلته به وهي تحدث الناس وتقول: والله أنا فعلت كذا، وفعلت كذا، وألقيت ابني في اليم إلى آخره، وإنما قال: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ لأنه معروف أن الإنسان إذا حزن بشيء فإنه يخفف من آلام الحزن على نفسه أن يتحدث به إلى أحد من الناس ممن يتصل به.

ولذلك تجد الإنسان يضيق صدره بالشيء حتى يحدث به، هذا شيء معلوم، فهي لولا أن الله ربط على قلبها لأبدت ذلك الأمر، وقالت: إن هذا ابني، أبدت الأمر الذي وقع منها وهي أنها ألقته في تابوت وألقته في اليم، لو فعلت هذا لكانت كما يقول الناس يطير الخبر؛ لأن الخبر مكتوم ما لم يظهر، فإذا ظهر لواحد يتشعَّب فلو أبدته ولو إلى أقرب الناس إليها لظهر أمر الطفل وعلموا به، ولكن الله سبحانه وتعالى ربط على قلبها، ولهذا قال: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [بالصبر أي: سكنَّاه] الربط على الشيء معناه: شد الرباط عليه، ربطنا على قلبها أبلغ من أسكنا قلبها؛ لأن الربط عليه معناه: لا يمكن أن يتحرك، فهذا أبلغ، فالله تعالى ربط على قلبها؛ بحيث أنها صبرت ولم تحدث أحدًا بما جرى، ولكن الذي وقع قالت لأخته: قصيه، وقد سبق أن المؤلف قال: [ما اطلع على ولادته سوى أخته] ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المصدقين بوعد الله، وجواب لولا دل عليه ما قبله]، فقوله: ﴿رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي: شددناه بالربط، والمراد به: التسكين، وقوله: ﴿لِتَكُونَ﴾ اللام للتعظيم، أو للمعلل؟ ربط الخلق، يعني: ربط الله على قلبها لهذه الغاية ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليس المراد به: إيمانًا جديدًا؛ لأنها هي مؤمنة بلا شك، وأدلُّ دليل على أنها مؤمنة أنها امرأة ألقت ابنها في اليم ثقة بوعد الله عز وجل، ولكن المراد هنا بالإيمان: الإيمان الزائد على أصله، يعني: التثبيت واليقين ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا الذي وقع.

الفوائد:

أولًا: ما يستفاد من الآية الأولى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

١- قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ فيه: دليل على كرامة الله سبحانه وتعالى لأم موسى في هذا الإلهام.

٢ ـ ومن فوائدها أيضًا: عناية الله تعالى بموسى.

٣ ـ **وفيها أيضًا دليل على:** أن الأنبياء كغيرهم من البشر يحتاجون إلى الغذاء لقوله: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

٤ ـ **وقد يستفاد منها:** وجوب الإرضاع إذا جعلنا الأمر للوجوب لا للإرشاد، والقواعد الشرعية تقتضي وجوب الإرضاع.

٥ ـ **وفيها أيضًا:** قوة إيمان أم موسى ويكون هذا من مناقبها، كيف ذلك؟ لإلقائها إيَّاه في اليم مع أنه ابنها، وهذا شيء لا يقع إلا من مؤمن حقًّا.

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** إكرام الله لأم موسى من عدة أوجه: الحقيقية من هذا الوحي والإلهام، ومن تأمينها في قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ ومن بشارتها وأنه سيرده إليها ويجعله من المرسلين.

٧ ـ **ومن فوائد الآية:** بيان قدرة الله ـ عز وجل ـ أن هذا الولد الذي ألقي في اليم - واليم مهلك إلا من حفظه الله عز وجل - بقي وصار أخر أمره من الرسل.

٨ ـ **ومن فوائدها:** أنه ينبغي طمأنة المحزون ببشارته بمستقبله، فالله يقول: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

٩ ـ **وفيها:** إثبات الرسالة ـ أيضًا ـ لموسى لقوله: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾

من فوائد هذه الآية:

١ ـ أولًا: أن أتباع الرجل وحاشيته من آله لقوله: ﴿آلُ فِرْعَوْنَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن الإنسان مهما بلغ في العتو والاستكبار فإنه لا يعلم المستقبل، تُؤخذ من أن آل فرعون لم يعلموا أن هذا الطفل سيكون عدوًّا لهم وحزنًا.

٣ ـ **ومن فوائدها:** أن المؤمنين أعداء للكفار؛ لقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾، وأنهم أيضا حزنٌ لهم، وهذا أمر ظاهر، أن المسلمين أعداء للكفار وهم أيضًا حزن لهم، ولا شك أنهم يساءون بما يسرنا وبالعكس.

٤ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا:** أن الإنسان قد يسعى لما فيه حتفه؛ لأن هؤلاء سعوا لما فيه حتفهم فالتقطوا هذا الطفل الذي سيكون عدوًّا لهم وحزنًا.

٥ ـ **ومن فوائدها:** بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن هذا الصبي أو الطفل الذي كانت بنو إسرائيل تقتل أبناءها بسببه أن يتربى في حجر فرعون في بيته؛ مع أنه كان يبحث عن أولاد بني إسرائيل ويقتلهم، فقال الله عز وجل - يعني: بلسان الحال -: ها أنت تقتل بني إسرائيل وهذا من سليلهم سوف يعيش في حجرك، ومن أكبر الأدلة على قدرة الله عز وجل: أنه لا ينبغي للإنسان

أن يعتمد على الأسباب المادية، فإن الله تعالى يخلف.

٦ - **ومن فوائدها**: بيان أن فرعون وهامان وجنودهما كانوا على باطل؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِـِٔينَ﴾.

٧ - وفي هذه الآية: دليل على أن لهامان - وهو وزير فرعون - سلطة كبيرة على مملكة آل فرعون؛ لقوله: ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِـِٔينَ﴾.

وفي عدة آيات يضيف الله الجنود إلى فرعون وحده، فباعتبار أن فرعون هو المرجع لهؤلاء الجنود يضاف إليه وحده، وباعتبار أن هامان له تأثير لأنه وزير- وزير داخلي أم خارجي؟ - وزير في كل شئونه ! فهو وزير عارف أن يتصرف فيم جعله وزيرًا فيه.

ثالثًا: ومن فوائد الآية التي بعدها: قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

١ - بيان فضيلة امرأة فرعون، لقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾.

٢ - **وفيها**: دليل على فراستها؛ لأنها توقَّعت أن ينفعهم، ولكنها لم تحصل على ما توقَّعت من كل الوجوه، نَفَعَ من؟ نفعها هي ولكنه ضرَّ فرعون.

٣ - **وفيها أيضًا**: دليل على ما قيل: إن البلاء موكل بالمنطق، والتفاؤل كذلك؛ لأنها - بالنسبة لامرأة فرعون - قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فتفاءلت به خيرًا فحصل لها ذلك وصار قرة عين.

٤ - **وفيه أيضًا**: دليل على أنه ينبغي أن تُستعمل الأساليب التي تحقق المقصود لقوله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإن هذا القول منها - سواء كانت تتوقع ذلك أو لا تتوقعه - لابد أن يكون سببًا في موافقة فرعون لما طلبت.

٥ - **ومن فوائدها**: أنها تدل على أن فرعون همَّ بقتل موسى، تؤخذ من قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فالظاهر أنه همَّ به.

٦ - **ومن فوائدها أيضًا**: قصور علم الإنسان مهما بلغ في علوه واستكباره؛ لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

هل يؤخذ منها: جواز التبنِّي؟ ومعنى ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾: أنه مثل الولد في البيت عندنا في الإكرام، أو ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ مثل الخادم - على كل حال - إن كانت الآية المقصود بها نتخذه ولدًا نتبناه فإن هذا العمل نسخ، وكان في أول الإسلام ثم نسخ، وإن كان المراد نتخذه ولدًا أي بمنزلة الولد في الإكرام بدون أن نستخدمه، ولا يؤخذ منها التبني، ومقصود من الآية أن التبني عندهم معروف.

رابعًا: ثم قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ...﴾.

من فوائد هذه الآية:

١ ـ أن الإنسان يكون له حال عند نزول البلاء غيرها قبل نزوله، وأن الإنسان إذا نزل به البلاء يتغير حاله، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ قد كان في أول أمرها الطمأنينة، ولهذا جعلته في التابوت وألقته في اليم، وهذا غاية من الطمأنينة، لكن الآن صار قلبها فارغًا قلقة، كأن ما في الدنيا سوى ابنها، وهذا هو الواقع أن الإنسان له حال قبل نزول البلاء وله حال بعد نزوله؛ ولهذا لا ينبغي للإنسان أن يعرض نفسه للبلاء.

يُذكَر أن سحنون أحد أصحاب مالك رَحِمَهُ اللهُ كان على غاية من الرضا بقضاء الله، والعبادة إلى آخره، وأنه قال في يوم من الأيام بيتًا ما معناه: إنني صابر فكيف ما شئت فامتحنِّي، فأُصيبَ بعسر البول - صار لا يبول إلا بتعب شديد - فكان يمُرُّ على الصبيان في الكُتَّاب في مجالسهم ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب؛ لأن الأطفال يرجى استجابة دعوتهم.

فالمهم: أن الإنسان قبل البلاء له حال وبعد البلاء تتغير حاله، وهكذا أيضًا في الأمور الشرعية فالنبي ﷺ قال: «**مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَأْتِي إِلَيهِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ أَو يَرَى أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، ثُمَّ لَا يَزَالُ بِهِ حَتَّى يُهْلِكَهُ**»(١) والواقع أن الإنسان يجب أن يتحرز من البلاء، الحاصل: أن الإنسان له حال قبل وقوع البلاء وله حال بعده.

٢ ـ **وفيها أيضًا:** دليل على أن الطبيعة البشرية لا يُآخذ بها المرءُ، وجه ذلك أن فؤاد أم موسى كان ينبغي أن لا يكون فارغًا من ذكر الله عز وجل، ومن الدار الآخرة، لكن هو أصبح فارغا ما فيه شيء أبدًا للذكر سوى ذكر موسى، وهذا مقتضى الطبيعة البشرية، والأمور العظيمة التي تنزل بالمرء تنسيه كل شيء.

٣ ـ **وفيها أيضًا دليل على:** فضيلة أم موسى عليها السلام لكونها لم تُبْدِ ما في قلبها لأحد؛ لقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾.

٤ ـ **وفيها أيضًا دليل على:** أن المرء مفتقر إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كل أحواله، لاسيما عند نزول الحوادث؛ لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، فالإنسان مفتقر إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولولا معونة الله ما فعل الإنسان شيئًا: لا صبر على بلاء ولا شكر عند الرخاء.

٥ ـ **وفيها أيضًا:** دليل على إثبات العلل والأسباب؛ لقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من الذين ينكرون الأسباب والعلل: الجهمية والأشاعرة، حتى الأسباب الظاهرة الحسية ينكرونها ويقولون: إن الشيء يحدث عنده لا به، حتى لو أخذتَ حجرًا وضربتَ به الزجاج وانكسر؛ لا يقولون: إن الزجاج انكسر بالحجر لكن انكسر عنده، مع أنك لو تضع الحجر على الزجاج - وهو

(١) أخرجه أبو داود (٤٣١٩) من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

عنده فوقه - ينكسر أم لا؟ لا ينكسر، لكن تضربه به ينكسر.

وفي قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن الإيمان والكمال في الرجال أكثر؛ لأنه لم يقل: لتكون من المؤمنات، ثم يدل على ذلك أيضًا قوله تعالى في مريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، ولذا جاء في الحديث: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَرْبَعٌ: آسِيَا امْرَأَةُ فِرْعَونَ، . . »(١)، ولا ريب أن الإيمان في الرجال أكثر وأثبت وأزيد، وفي الحديث عن النبي - عليه الصلاة والسلام -: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»(٢)، وإنما قررنا هذا من أجل أنه يجب على المرء مراعاة المرأة، وأنها محتاجة إلى الرعاية، وأيضًا محتاجة إلى أن لا تجاب على كل ما تطلب؛ لأنها ناقصة عقل وناقصة دين، كما وصفها النبي ﷺ بذلك.

٦ - **وفيها أيضًا**: دليل على إثبات القضاء والقدر، من أين نأخذه ؟ من قوله :﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فإن هذا من قضاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقدره، هل يشتق من هذا الفعل اسم لله بحيث يسمى الله الرابط ؟ لا يشتق؛ لأن الأفعال وكل شيء في الكون فهو من فعل الله وتقديره فهل نشتق من كل ما في الكون اسمًا لله ؟ لا؛ ولأن أفعال الله سبحانه وتعالى متنوعة، وأنواعها كثيرة، والفعل غير الاسم، ولهذا لا نشتق من: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ أن الله يسمى ماكرًا، ولا نشتق من قوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ أن الله يسمى خادعًا، ولا نشتق من: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أنه مستهزئ؛ لأن هذه كلها أفعال مقيدة بأنواعها، فيصح أن نقول أن الله مستهزئ بالمنافقين، إن الله خادع للمنافقين، إن الله ماكر بالماكرين وما أشبه ذلك، وقيل: إن مكر الله هو تدبيره.

قال في قول الله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المصدقين بوعد الله]، وينبغي أن لا نفسر الإيمان بالتصديق بل نجعله أعم من ذلك؛ يعني: المصدقة ثابتة على ما طلب منها.

[وجواب لولا دل عليه ما قبلها]، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ وتقديره: لأبدت به، ولهذا قال المؤلف: إنه دل عليه ما قبلها، ولم يقل: إنه ما قبلها، وقد سبق أن سألنا: هذا التعبير هل يحتاج إلى جواب أو لا يحتاج ؟ وذكرنا أن بعض العلماء يقول: إنه لا يحتاج إلى جواب؛ لأنك لو جئت بالجواب لكان الكلام ركيكًا، إذن لا يحتاج إلى جواب قولك: أكرم الطالب إن كان مجتهدًا، هذا لا يحتاج إلى جواب؛ لأنك لو أجبت: أكرم الطالب إذا كان مجتهدًا فأكرمه، يكون هذا كلام ليس بسليم، هذا كلام ركيك، وهذا المعنى الذي ذكرناه أشار إليه ابن القيم في كتابه: «**التبيان في أقسام القرآن**».



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣١١) ومسلم (٧٠/ ٢٤٣١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ يقول المؤلف: [مريم]، ونقول للمؤلف: من أين لك أن اسمها مريم، ومن هذه ؟ إن التي ذكرت مريم أم عيسى، وبينها وبين موسى أزمان طويلة ـ على كل حال ـ هذه من الأخبار الإسرائيلية، وتعيين اسمها لو كانت الفائدة تترتب عليه لكان الله تبارك وتعالى يبينه، فلا يهمنا تحديد الاسم، المهم أن نعرف صلة هذه المرأة بأم موسى وبموسى ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ أخت موسى إذا صارت هذه المرأة أختًا لموسى، فما صلتها بأم موسى ؟ لو كانت من أب أو كانت من أم لقيدها، وعند الإطلاق تكون الأخوية مطلقة، فهي من الأم والأب، والظاهر أنها مطلقة فتحمل على الأكمل من الأخوة؛ وهي الشقيقة.

وقوله: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [أي: اتبعي أثره حتى تعلمي خبره، القص معناه: تتبع الأثر، اتبعي أثره وابحثي عنه.

قال الله عز وجل: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: [أبصرته] وما ذهبت إليه، وظاهر الآية الكريمة ﴿فَبَصُرَتْ﴾ ـ الفاء للترتيب والتعقيب ـ، أنها ما ذهبت بعيدًا حتى رأته.

وقوله: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ [من مكان بعيد] ﴿جُنُبٍ﴾ بمعنى: بعيد وعلى هذا فالمظروف محذوف والتقدير: عن مكان بعيد منها، لكنها عرفت أن هذا أخوها.

[يقول: بصرته من مكان بعيد اختلاسًا]، وما معنى اختلاس ؟ أي: مسارقة، يعني: ما جعلت تحد النظر فيه؛ لأنها لو جعلت تحد النظر فيه، وأقبلت إليه بسرعة، وظهر منها علامات على أنه مطلوبها، لكانوا يحسون بذلك، ولكنها ما جعلت تنظر إليه نظرًا يشعرون به، بل تختلس النظر تختلسه اختلاسًا، وهذا واضح وإن لم يكن في الآية ما يدل عليه، لكنه واضح أنه لابد منه؛ لأنها لو كانت لمَّا رأته ذهبت إليه، وجعلت تنظر وما أشبه ذلك، لكانوا يشكون في هذا الأمر ويمسكونها ولكنها بصرت به عن جُنُبٍ تختلس النظر.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [أنها أخته، وأنها ترقبه]، ومن الذين لا يشعرون؟ آل فرعون لم يعلموا؛ لأن المرأة فيها ذكاء جعلت تنظر من بعيد حتى وصلت إليه، وهم لا يشعرون بأنها أخته وتراقبه؛ لأنها لم تبدِ حركات تدل على ذلك.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الجملة موضعها من الإعراب حال لفاعل بصرت، فهي بصرت والحال أنهم لا يشعرون، والجملة الحالية لا يشترط أن تكون وصفًا لصاحب الحال، ولهذا تقول: جاء زيد والشمس طالعة، والجملة هذه حالية مع أنها ليست في مواصفات زيد، وهنا بصرت به وهم لا يشعرون، لو قال قائل: كيف تجعلونها حالًا من فاعل بصرت مع أنها ليست من صفاته؟ قلنا لأن الجملة الحالية يكتفي فيها بأدنى ملابسة.



❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].

❁ التفسير ❁

قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل رده إلى أمه أي: منعناه، والتحريم معناه المنع.

السؤال: التحريم ينقسم إلى قسمين ما هما ؟

الجواب: تحريم شرعي، وتحريم قدري، التحريم الشرعي متعلق بالأحكام الشرعية مثل قوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾، والقدري متعلق بالأحكام الكونية، مثل قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقوله: ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ ولم تقل على أهله طبعًا، لو قالت على أهله لاتضح الأمر وأمسكوها هي وهو وأهله، بل قالت: ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ منكّر، فإنهم لا يعرفونها وهي من أهل البيت وأخت موسى.

قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ [لما رأت حنوهم عليه]، أي: حنو آل فرعون على هذا الطفل، وأنهم يحبون أن يجدوا من يقوم بكفالته وإرضاعه لهم.

قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ [بالإرضاع وغيره].

والكفل معناه: القيام بحضانة الطفل، ويسمى: كِفْل، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وفي قراءة ثانية: وكَفَلَها زكريا.

المعنى في قوله: ﴿أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ...﴾ يقومون بحضانته على أتم قيام بدليل قولها: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ الفعل جاء بالفعلية، والنية جاءت بالجملة الاسمية، ﴿يَكْفُلُونَهُۥ﴾: الكفالة هنا فعل، ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾: النصيحة مبنية على النية في القلب، ومعنى ناصحون أي: مخلصون وأصل النصح إخلاص الشيء من الشوائب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: خالصة من الشوائب لله وحده. إذن ﴿نَٰصِحُونَ﴾ النصح يعني: الخلوص من الشوائب أي: أنهم مخلصون لكم إخلاصًا كاملًا، وهي صادقة في قوله بلا شك.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ يعود إلى هذا الطفل، وإذا كان يعود إلى هذا الطفل فإذا قال قائل: ما فائدة آل فرعون بنصح أهل هذا البيت له ؟ نقول: فائدة آل فرعون في ذلك أنهم أحبوا هذا الطفل، وودوا من يقوم بكفايتهم وبكفالته على الوجه الأتم.

يقول المؤلف: [وفَسَّرَت ضمير ﴿لَهُۥ﴾ بالمَلِكِ جوابًا لهم فأجيبت]، وهذا مبني على قصة إسرائيلية أنها لما قالت: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ كأنهم استشكوا ما الذي أدراكي أنهم ناصحون له، فقالت: أقصد أنهم ينصحون للملك، يعني: وهم للملك ناصحون، وهذه القصة لا شك أنها إسرائيلية ضئيلة من الصواب فليست بصواب، وإنما المراد بـ ﴿لَهُۥ﴾ أي: للطفل وليس هناك ما يمنع أن يكون الضمير عائدًا إليه، فلا حاجة - أيضًا - إلى تفسيره بالملك؛ لأنهم هم - أي آل فرعون - يحبون من ينصح لهم فهم ليسوا بسائلين عن هذا الشيء، فتأويل المؤلف هذا لا داعي له.

يقول: [فجاءت بأمّه فقبل ثديها وأجابتهم عن قبوله بأنها طيبة الريح طيبة اللبن فأذن لها في إرضاعه في بيتها، فرجعت به كما قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾].

هذا التأويل الذي فسره المؤلف أيضًا لا دلالة في الآية عليه، ولا أمه هي التي جاءت وقبل ثديها أمام الناس واتهمت به ودافعت عن التهمة بأن ثديها طيب الريح ولبنها طيب، كل هذا لا أصل له، والصواب أنها لما قالت هذا الكلام: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ قالوا: نعم دلينا - القصة واضحة جدًّا - دلينا فدلتهم ! فجاءوا به إلى أمه، وهذا أبلغ في المعجزة والآية، أن أمه في بيتها، أمرت أخته أن تخرج في طلبه، فما رجعت أخته إلا به إلى أمه، أما أن الأم راحت، وأنها ألقمته الثدي وأنها اتهمت به، ودافعت بأنها طيبة الريح وطيبة اللبن؛ فهذا ليس بصحيح، ومثل هذه الأمور لا يلزم أن يكون لها أسباب حسية معلومة؛ لأنها من خوارق العادات، وخوارق العادات ما نحتاج أن نوجه لها أشياء تناسب العادة، بل هي فوق العادة، فعلى هذا نقول: إن المسألة سائرة على حسب ما جاء في القرآن الكريم، ولم تأتِ الأم، والله لم يذكر أن الأم هي التي أتت بل قال: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾.



❁ قال الله تعالى:

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:١٣].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾ أي: موسى ﴿إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [بلقائه].

﴿تَقَرَّ﴾ ثبت أنها مأخوذة إما من القر وهي البرودة، وإما من القرار وهو السكون، ولعله يشمل المعنيين، تسكن العين وتبرد.

وقوله: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾: وكي هنا حرف تعليل وهي مصدرية تنصب الفعل المضارع، فلهذا﴿تَقَرَّ﴾ منصوبة وعلامة نصبها فتحة ظاهرة على الراء؛ لأنها من قَرَّ يقِرُ وليس من قَرَّ يقُرُّ.

قال: [﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائه ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ حينئذٍ]، يعني: لا تحزن على ما مضى، بل يزول عنها الحزن وتقر العين، [﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ برده إليها ﴿حَقٌّ﴾].

الفوائد:

١- وفي هذا ثلاث فوائد: تقر عينها، ولا تحزن، والثالث: ولتعلم أن وعد الله حق، أما الأول فظاهر أنها ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ برجوعه، وأنها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ يزول عنها الحزن، لكن قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فإن هذه العلة قد سقطت؛ لأنها منذ أن ألقته في اليم قد علمت بأن وعد الله حقاً ولولا علمها ويقينها بأن وعد الله حق ما ألقته، فيكون هنا المراد بالعلم عين اليقين أو حق اليقين، علمها بالأول علم عن الشيء خبرًا، وعلمها الثاني علم عن الشيء وقوعًا، وفرق بين علم الإنسان بالشيء خبرًا وعلمه بالشيء وقوعًا، ولهذا قال إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»(١).

فالحاصل أن قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ﴾ يعني علم الشيء بعد وقوعه، وأما علمها به خبرًا فقد تقدم، ولولا أنها واثقة في الأول ما فعلت.

٢- وقوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، ذكروا أن الوعد هو الوعد بما يسر والوعيد بما يحزن، يعني الوعد بالخير والوعيد بالشر، وأن الشر من أوعد، والخير من وعد، وقالوا: أوعده أي

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٤).

بالشر، ووعده أي بالخير.

فهل الوعد هو الحق دون الوعيد أو كلاهما ؟ الوعيد والوعد حق؛ لأننا لو قلنا أن الوعيد ليس بحق لزم أن يكون في خبر الله كذب، وهذا غير ممكن، لكن الوعيد قد لا ينفذ تفضلا من الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه حق الله والله تبارك وتعالى قد يتجاوز عنه، أما الوعد فإنه حق للموعود ولهذا لا يمكن أن يتخلف، قال الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمُخلِفُ إيعادي ومُنجِزٌ موعدي

لأن الوعد حق للموعود والوعيد حق للواعد، أضرب مثالًا: إذا قلت لرجل إن فعلت كذا أعطيتك مائة دينار؛ هذا وعد؛ فإذا فَعَلَ ما قلت وجب عليَّ أن أوفيه؛ لأن الحق له، لكن إن قلت لولدي مثلًا: إن فعلت كذا حبستك، ثم فعله، ولكني عفوت عنه، أهذا جائز أم غير جائز؟ هذا جائز، ويكون فضلًا، لاسيما إذا عفا عنه مع القدرة؛ قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، أما العفو مع العجز فما هو بمدح.

الحاصل: أن وعد الله ووعيده كلاهما حق، لكن وعده لما كان حقًا للموعود صار لابد منه ومن وقوعه، ووعيده لَّما كان حقًا له إن شاء عفا عنه تكرمًا وتفضلًا حسب ما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالى.

٣ـ قال: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ حق هنا بمعنى: ثابت، وأظن أننا قلنا: إن الحق في الأخبار له معنى والحق في الأحكام له معنى، أي: الحق إذا تعلق بالأخبار فمعناها الصدق، وفي الأحكام فمعناه العدل، وعلى هذا فيكون هنا بمعنى الصدق، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صدق ولا يمكن أن يتخلف؛ لأن تخلف الوعد إما أن يكون عن كذب الواعد أو عن عجزه عن تنفيذه، وكلا الأمرين في حق الله مستحيل، فلا كذب في قوله، ولا عجز في فعله، ولهذا إن عباد الله ـ سبحانه وتعالى ـ يختمون الدعاء بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ [أي: الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بهذا الوعد، ولا بأن هذه أخته].

المؤلف خص الآية، والحقيقة أن الآية عامة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس عندهم علم ينفعهم في وعد الله، فنفي العلم هنا إما لإثبات الجهل أو لنفي العلم النافع، فأكثر الناس لا يعلمون بأن وعد الله حق؛ إما لجهلهم وإما لعدم انتفاعهم بهذا العلم، ونفي الشيء لنفي الانتفاع به ثابت في القرآن ﴿وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، ودائمًا ينفي الله سبحانه وتعالى العقل عن أناس أو السمع عن أناس لعدم انتفاعهم بذلك.

فقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، المؤلف خص هذه بقصة موسى، والآية عامة: أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله حق، أقول: إما لجهل بذلك - بكونهم لا يعرفون من أسماء الله وصفاته ما هو اللائق به -، وإما لكونهم لا ينتفعون بهذا العلم.

الذين لا يحرصون على فعل الخير أو على تجنب الشر في الحقيقية هم الجاهلون بأن وعد الله حق، إذ أن الطبيعة البشرية والعقل يقتضيان أنك ما دمت مؤمنًا بهذا الشيء سواء كان وعدًا أو وعيدًا، فلابد أن تسعى له بمقتضى إيمانك إذا كنت تعلم أن الإنسان سيموت، وأن المؤمن إذا مات سيجد الخير، ويدخل الجنة وينجو من النار حق، لكن الذي لا يسعى للجنة وينهمك بسعيه للدنيا الفانية هل هذا في الحقيقية عالم أن وعد الله حق أو منتفع بعلمه ؟ لم ينتفع به، وإن انتفع به ما فوَّت هذه الفرصة العظيمة.

فالإنسان يعرف أن المعصية هي السبب في دخوله النار، ويعرف أن وعد الله حق لكن مع ذلك يتجرأ على المعاصي، نقول: إن علمه هنا ناقص، إذ لو آمن بذلك حقًا لكان يتجنب هذا الشيء، فصدق معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

حلل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هذه الآية يقول: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بهذا الوعد - يعني بها وعد الله أمه من رده إليها - [ولا بأن هذه أخته وهذه أمه] وعلى هذا فيقول بأن الضمير في أكثرهم يعود على آل فرعون، [فمكث عندها إلى أن فطمته وأجرى عليها أجرتها لكل يوم دينار].

أما كونه بقي عندها حتى فطمته هذا واضح؛ لأنه مادام محتاج إلى الرضاعة فسوف يبقى عندها، وأما أجرى عليها أجرتها فهذا أيضًا صحيح؛ لأنه جُعل لها أجرة، وصاروا يرسلون إليها بالهدايا والتحف ويكرمونها؛ لأنها كافلة هذا الطفل الذي قالوا إنه :﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ و﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، ولهذا روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أن قال في الذي يحسن الصنعة ويتخذ عليها أجرًا: إنه «... **كَأُمِّ مُوسَى تُرْضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ عَلَيْهِ أَجْرًا**»[1] وهذا من آيات الله أن يجيئها الولد وترضعه، وتكرم عليه، ما ظنكم لو لم تفعل هكذا، ولم تُلقِه في اليم، ولم تأخذه امرأة فرعون، تبقى خائفة وجلة، ولا يحصل لها أجرة ولا إكرام ولا إعزاز من هؤلاء الطغاة.

وأما قوله: [لكل يوم دينار] فهذا غير مسلَّم به؛ لأن طريقنا في مثل هذه الأمور: أن ما ثبت عن الرسول ﷺ فهو مقبول، وما لم يثبت من أخبار بني إسرائيل فإننا نتوقف به، ولا ينبغي أن نجزم به هذا الجزم، نعم نحدث به ولكننا لا نجزم به.

يقول :[لكل يوم دينار]، - وجاء بإشكال فقال :-[وأخذتها لأنها مال حربي].

سبحان الله هل أخذتها بأنها مال حربي أو أخذتها لأنها أجرة على إرضاعها ؟! أجرة ما فيها إشكال، أما كونها تأخذه بأنه مال حربي فهذا لا وجه له.

لا يقال مثلًا: إن أم موسى لما لم يقبل ثدي غيرها كان إرضاعها إياه فرضًا عليها، والفرض لا يجوز أخذ العِوَض عليه، مثَّل بأخذ العِوَض هنا على أنه مال حربي نقول: حتى المال الحربي إذا جاء

---

(١) ضعيف: أخرجه البيهقي في السنن (٩/ ٢٧) وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٥٠٠).

بصيغة عقد لا يجوز أخذه، إنها تأخذه بمقتضى العقد والمعاقدة بينك وبين الحربين مثل الاستئمان بل هي استئمان في الواقع، فالصواب أنها أخذتها لأنها أُجْرِيَت عليها على كفالته وإرضاعه، وهي لو لم تأخذ لكان في ذلك بلاء ولعلم أنها قريبة له أو ما أشبه ذلك، فهي أخذت؛ لأنهم هم يعتقدون أنها ليست أمه ويعتقدون أن هذا الطفل سوف يكون لهم.

يقول المؤلف: [فأتت به فرعون فتربى عنده] كما قال الله تعالى حكاية عنه في سورة الشعراء: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾].

تربى عند فرعون في بيت الملك، وكان يركب كمراكب الملوك ويلبس لباس الملوك، فلو كان عند أمه ما حصل له شيء من هذا بلا شك، أما الآن فأصبح معززًا مكرمًا وذلك من تسخير الله سبحانه وتعالى له.



قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٤،١٥]

التفسير

[قال: ولما بلغ أشده وهو ثلاثون سنة أو وثلاث].

الأشد قيل إنه: ثلاث وثلاثون سنة وقيل: ثلاثون سنة وقيل: قريب من أربعين وذلك أن الله يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فدل هذا على أن بلوغ الأشد غير الأربعين؛ لأنه قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ على أنه يحتمل أن بلوغ الأشد معناه كمال العقل ولا ينافي أن يكون كمال العقل عند تمام الأربعين.

ويقول في قوله: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾: [أي بلغ أربعين سنة].

استوي بمعنى كمل، والاستواء في اللغة العربية بمعنى الكمال، ومنه قولهم استوت الثمرة أي كملت، وهي في كل موضع بحسبه، ولكنه إذا عدي بإلى فهو بمعنى الفصل، فإذا عدي بعلى فهو بمعنى العلو والاستقرار؛ لأن ذلك هو الكمال والاستواء.

قال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ [حكمة] ﴿وَعِلْمًا﴾ [فقها في الدين قبل أن يبعث نبيًا].

آتيناه بمعنى أعطيناه، وهذا الإيتاء كوني أو شرعي ؟ الإتيان يكون كونيًا ويكون شرعيًا، فإن كان متعلقا بالقضاء والقدر فهو كوني، وإن كان متعلقًا بالشرع فهو شرعي؛ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ هذا الإتيان شرعي؛ لأنه متعلق بالشرع والقصد، وهنا ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ هذا كوني؛ لأنه يتعلق بالقضاء والقدر، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ آتوهم شرعي، ولكن الذي أتاكم قدرًا، الذي قدره لكم فالإتيان إذن يكون شرعيًا ويكون كونيًا بحسب متعلقه.

وقول المؤلف في: ﴿حُكْمًا﴾ فسره بالحكمة، وقال في: ﴿وَعِلْمًا﴾ [فقهًا]، لماذا فسر الحكم بالحكمة ؟ لأن العلم هو علم الأحكام، فإذا فسرنا الحكم بأنه الحكم الذي هو مقتضاه الشرع صار فيه نوع من التكرار؛ لأنه العلم، لكنه يجوز أن نقول: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي: علمًا بالأحكام الشرعية وعلمًا بالأخبار والأسرار. وحينئذٍ لا يكون في الآية تكرار، ولا نلجأ إلى تفسير الحكم بالحكمة؛ لأنه معروف أن الحكم غير الحكمة، فالحكم هو مقتضى خطاب الشرع المتعلق بأفعال المكلفين، والحكمة هي علة ذلك الحكم.

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ﴾، ﴿لما﴾ إعرابها شرطية، بدليل أنه جاء لها فعل وجواب، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ﴾ فهي إذن شرطية، وهي ترد في اللغة العربية شرطية - كما هي هنا - وترد بمعنى (إلا) مثل قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي: إلا عليها حافظ، وترد ظرفًا: جئتك لما عرفت أنك مستيقظ مثلًا؛ أي: حين عرفت، والذي يعين هذه المعاني هو السياق.

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ [كما جازيناه] ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [لأنفسهم].

قوله: [كما جازيناه]، يفيد أن الإشارة هنا إلى هذا الإعطاء الذي أعطاه الله، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يعني: ومثل ذلك، والكاف هنا ـ وهي كثيرة في القرآن ـ نعربها هنا بأنها مفعول مطلق بمعنى مثل، أي مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين، إذا كانت مفعولا مطلقا بمعنى مثل فهي اسم، قال ابن مالك:

شبه بكاف، وبها التعليل قد يعنى، وزائدًا لتوكيد ورد

واستعمل اسمًا وكذا «عن» «وعلى» من أجل ذا عليهما من دخلا[1]

فالكاف تأتي بمعنى مثل وتعرب على أنها اسم لا حرف جر.

وقوله تعالى: ﴿نَجْزِى﴾ أي نكافئ، وقوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: [لأنفسهم].

---

(١) انظر: «الألفية» أبيات رقم: ٣٧٧، ٣٧٨.

يشمل ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله، الدليل على هذا أن جبريل قال للنبي ﷺ: أخبرني عن الإحسان فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]، هذا هو الإحسان في عبادة الله، تعبد الله كأنك تراه وهذه عبادة الطلب، فإن لم تكن تراه فإنه يراك وهذه عبادة الهرب والخوف، ولا شك أن العابد بالمعنى الأول أكمل من العابد بالمعنى الثاني؛ لأن العابد الأول مرتبته عليا، يعبد الله كأنه يراه فهو يقصد الله ـ عز وجل ـ وله شوق كبير إلى ربه ـ سبحانه وتعالى ـ، أما الثاني فإنه يعبد الله كأن الله يراه هو خائف من ربه فإذن عبادته هي عبادة الهرب والأول عبادة طلب.

الإحسان بالنسبة إلى الخلق نُفسِّره ببذل الندى، وكفِّ الأذى، الندي بمعنى العطاء وكف الأذى واضح، فالإحسان إذن له شقان بذل الندى سواء كان ذلك يتعلق بالمال أو بالجاه أو بالبدن، وكف الأذى القولي والفعلي، وقد يتخلف أحدهم ويكون الإنسان محسنًا من وجه غير محسن من وجه آخر، ويكون مسيئًا إذا تخلف كف الأذى، على كل حال إذن الإحسان هو عبارة من أحسن ما يكون هي بذل الندي وكف الأذى، أنك ما تؤذي الناس؛ فتكون مسيئا، ولا تحرمهم خيرك؛ فلا يكون فيك إحسان، ليس هناك إحسان إذا لم تبذل الندى.

قوله: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ المحسنين في عبادة الله وإلى عباد الله يشمل هذا وهذا، فأما الإحسان في عبادة الله فقد فسره النبي ﷺ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، وأما الإحسان إلى عباد الله فهو بذل الندي وكف الأذى.

﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ﴾ بعد بلوغ أشده؛ لأن الأصل أن ما تقدم ذكرا فهو متقدم وقوعًا وعملًا، هذا الأصل المتقدم وقوعًا إن كان في الأخبار، وعملًا إن كان في الأحكام، ولهذا أقبل النبي عليه الصلاة والسلام الصفا فقال: «﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ» وقال العلماء: إن الفقراء أشدُّ حاجة من المساكين؛ لأن الله بدأ بهم في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾، فهنا نقول: لما ذكر الله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ﴾ علمنا أن دخوله المدينة بعد أن بلغ أشده.

وقوله: ﴿ٱلۡمَدِينَةَ﴾ [مدينة فرعون وهي (منف) بعد أن غاب عنها مدة].

تعين المدينة بأنها مدينة فرعون في نفسي من هذا شيء؛ لأن الرجل قد تربى عند فرعون في مدينته نفسها أوفي مكانه نفسه، اللهم إلا أن يقال: إن فرعون كان في مصر وأن (منف) هذه بلد خارجة عن القاعدة أو قصبة البلد، وأنه خرج في يوم من الأيام فدخلها، والأحسن في مثل هذا المقام - إذ لم ترد عن النبي عليه الصلاة والسلام - أن نقول أنها مدينة من مدن مصر ويسكنها

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٧/ ١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أقباط وإسرائيليون.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [وقت القيلولة].

قوله: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ بعض العلماء يقول: المراد على حين غفلة زمنًا، يعني أنهم في زمن يغفل الناس فيه، بعضهم يقول: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: أنهم نسوا فرعون وأنهم نسوا موسى وقصته، وطال الزمن فدخل على حين غفلة من التحدث في هذا الأمر، ولكن المعنى الأول أظهر أنه دخلها في وقت أهلها غافلون، هل يتعين أن يكون وقت القيلولة؟ لا يتعين، قد يكون وقت القيلولة مثلًا أو بليل أو يكون في المغرب الله أعلم، إنما في وقت أهل البلد فيه غافلون.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ [أي: إسرائيلي] ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [أي: قبطي].

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ الاقتتال بمعنى المنازعة، والمخاصمة، والمضاربة أيضًا، وليس المراد في ما يبدو أنهما يريدان أن يقتل بعضهما بعضًا.

﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾: شيعة الرجل معناه أتباعه قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾، وقيل: إن الشيعة من يناصرك، فكل من يناصرك هو شيعة لك، سواء كان متبعًا لك أو غير متبع، وعلى كل حال فهنا المراد بالشيعة أنه من قبيلته ولهذا قال المؤلف: [أي: إسرائيلي] ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ من عدو موسى من آل فرعون وهم الأقباط، قال: [أي: قبطي يسخِّر إسرائيليًّا ليحمل حطبًا إلى مطبخ فرعون].

من يقبل هذا؟ على كل حال؛ يقتتلان كعادة الناس الأعداء، فالأعداء يخاصم بعضهم بعضًا دائمًا ويقاتل بعضهم بعضًا، وقد ذكر شيخنا عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: بأن هذا يدل على قوة شعب بني إسرائيل بعد أن كانوا أذلة يقتَّل أبناؤهم وتُستَحْيَى نساؤهم أصبحوا الآن يجعلون أنفسهم أندادا لآل فرعون الأقباط؛ لأنهم يعرفون أن موسى منهم، وأن موسى في منزلة عظيمة عند فرعون، فهم استقوت قلوبهم بهذا الشيء، أما أنه يريد أن يسخره ليحمل الحطب إلى المطبخ فهذا لا يتاح ويحتاج إلى دليل بيِّن، ولا دليل على هذا.

أصل القصة: دخول موسى للمدينة ووجود الرجلين وقتل النفس، وكل هذا كان سببًا لخروج موسى، ثم نبوته.

الفوائد:

١ - **يستفاد منها:** أن الله - سبحانه وتعالى - يجري الأمور بأسبابها؛ أي: إثبات الأسباب.

ويستفاد من قوله: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾: جواز الاستغاثة بالمخلوق، لكنه مشروط بما يفيد فيه، أما ما لا يفيد فيه فلا يجوز، فعلى هذا إذا استغاث بالميت فلا يجوز؛ لأنه لا يفيده، وإذا استغاث بحي فيما لا يقدر عليه فلا يجوز؛ لأنه لا يفيده، وإذا استغاث بحي فيما يقدر عليه فهو جائز؛ إذن الاستغاثة جائزة بشرط أن تكون فيما يفيد، وذلك في حي قادر على دفع الشدة.

٢ - **وفيها أيضًا:** إثبات العداوة والولاية؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ وهي أصل في الدين، فإن ولاية المؤمنين من واجب المؤمن، والبراءة من الكفار من واجب المؤمن، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا أمر لابد به أن يتبرأ الإنسان من كل كافر.

٣ - **وفي الآية:** دليل على قوة موسى لقوله: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

٤ - **وفيها:** إثبات غيرته وسرعة استجابته؛ لأنه ما تلكع في الأمر، بل بادر به.

٥- **فائدة:** هل يستفاد منها جواز الدفع - دفع الصائل - بما يصل إلى القتل؟

ما دلت على هذا ولا أقرَّته، ولكنه في الشريعة الإسلامية معروف أن الإنسان إذا صال عليه أحد ودفعه بالتي هي أحسن ولم يندفع فله أن يقاتله.

٦ - **وفيها:** أن المعاصي من أوامر الشيطان وأعماله؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

٧ - **وفيها أيضًا:** إثبات السبب؛ لقوله: ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ لأن ﴿مِنْ﴾ سببيه.

٨ - **وفيها أيضًا:** ثبوت عداوة الشيطان لبني آدم ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾ وأكد بـ﴿إن﴾ لشدة التنفير منها؛ لأن عداوته ليس فيها التباس.



قال الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]

التفسير (١)

الفوائد:

١ - **في هذه الآية:** إثبات أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - قد يخطئون قبل الرسالة، فقبل الرسالة ممكن أن يقع منهم هذا الشيء؛ لكن لا يقع منهم فساد الأخلاق، وشرب الخمور وما أشبه ذلك، أما الغيرة والحمية فهذا قد يقع منهم.

٢ - **وفيها أيضًا:** جواز التوسل إلى الله - سبحانه وتعالى - في حال الداعي، تؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ فالظالم لنفسه محتاج إلى من يخرجه، إذ هو يسكن إلى الله - سبحانه وتعالى - في حال الداعي، ومنه قوله تعالى عن موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، والتوسل إلى الله - سبحانه وتعالى - يكون بحال الداعي، ويكون بالثناء على الله بأسمائه وصفاته، وكذلك بأفعاله التي ينعم بها، وقد اجتمع الجميع في تعليم النبي ﷺ لأبي بكر: قال له علمني دعاء أدع به في صلاتي، قال: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»(٢).

٣ - **وفيها أيضًا:** إثبات هذين الاسمين من أسماء الله ﴿الْغَفُورُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾، وإثبات الاسم يتضمن ثلاثة أمور إذا كان الاسم متعديًا، وأمرين إذا كان لازمًا، يتضمن إثبات هذا الاسم من أسماء الله، وإثبات ما دل عليه من صفة، وإثبات الأثر وهو تعديه إلى المخلوق، فالغفور الرحيم تتضمن ثلاثة أشياء: إثبات الغفور الرحيم على أنهما من أسماء الله، وإثبات صفتي المغفرة والرحمة لله - سبحانه وتعالى -، وإثبات الأثر المترتب على ذلك بأنه يغفر ويرحم.

٤ - **وفيها أيضًا في قوله:** ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ دليل على إثبات الأسباب؛ لأن الفاء هنا للسببيه، يعني فبسبب ظلمي نفسي فإني أسألك أن تغفر لي.

---

(١) تعذر سماع التفسير، ولكن تم إثبات الفوائد.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣٤) ومسلم (٤٨/ ٢٧٠٥) من حديث ابن عمرو بن العاص ﷺ.

٥ ـ **يستفاد من قوله:** ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ استجابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وما تتضمنه هذه الاستجابة من صفات؛ لأن الاستجابة تتضمن السمع والعلم والقدرة والغنى هذا معنى الوجوب إذا استجاب الله لإنسان هذا معناه أنه كان قد سمعه وعلم بحاله وقدر على إعطائه سؤاله، كل هذا يستفاد منها.

٦ ـ **وفيها أيضًا:** إثبات كرم الله لقوله: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾.

٧ ـ **وفيها:** إثبات أن الدعاء سبب، خلافا لمن أنكر سببيته وقال: إن الشيء إن كان قد كتب لي لم يحتج إلى دعاء، ولو كان لم يكتب لي فلا فائدة من الدعاء، والجواب على ذلك أن يقال: هو مكتوب لك بالدعاء، يقول مثلًا: أنا لا أدعو؛ لأن المكتوب لابد أن يحصل؛ وما لا يكتب لا يمكن أن يحصل، أهذا صحيح ؟ نقول: هذا ليس بصحيح؛ لأنه مكتوب لك بهذا السبب كما لو قال قائل: أنا لن أتزوج؛ وإن كان مقدر لي ولد يأتني الولد، وإن كان لم يُقدَّر لي ولد؛ ليس هناك فائدة للزواج، نقول: ولكنه مقدر لك الولد بالزواج، فهذه الأمور الغيبية مثل الأمور المشاهدة كما أن الأمور المشاهدة لا تصلح إلا بفعل الأسباب التي توصل إليها، فكذلك الأمور الغائبة لا تصلح؛ إذن نقول: لا تعمل صالحًا لأنك إن كنت من أهل الجنة فإنك ستكون من أهل الجنة، وإن كنت من أهل النار فلن تكون إلا من أهل النار، فيقال: أنت تكون من أهل الجنة بعملك؛ ولهذا لما قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأصحابه: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ إِمَّا فِي الجَنَّةِ، أَو فِي النَّارِ**»، قالوا: يا رسول الله ! أفلا نَدَع العمل ونتَّكِل على الكتاب؟ قال: «**لَا، اِعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أو فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ**»[1] ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ فإن في هذه الآية وغيرها من الآيات الكثيرة دليل على تأثير الدعاء في حصول المطلوب، وأن من أنكر ذلك فهو في الحقيقة مكابر أو جاهل.



❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

هذه الآية من العلماء من يقول: إنها دعاء، ومنهم من يقول: إنها خبر بمعنى الالتزام، إن قلنا:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٤٥) ومسلم (٦/ ٢٦٤٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

إنها دعاء، فإنه يستفاد منها جواز التوسل بنعم الله ـ عز وجل ـ؛ لأن قوله: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ أي: بسبب إنعامك علي، وإن قلنا: إنها التزام، فإنها تدل على شكر النعم، وأن الإنسان إذا أنعم الله عليه فإنه يجب ألَّا يكون عونًا بهذه النعمة للمجرمين، والمعنى الثاني أقرب وأرجح؛ لأنه ظاهر الآية ولا ينبغي العدول عن ظاهرها، وإن كانت تحتمل المعنى الثاني فيستفاد منها:

الفوائد:

١ ـ كمال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ حيث التزم لله تعالى شكرًا لنعمته ألَّا يكون ظهيرًا للمجرمين.

٢ ـ وفيها دليل على: أن مظاهرة المجرم تنافي الشكر، فهي محرمة، ومظاهرته يعني مساعدته، ومساعدة المجرمين محرمة لأنها إجرام في الحقيقة، والمجرم مساعدته بمنع إجرامه؛ ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**»، قالوا: يا رسول الله ! هذا المظلوم، فكيف ننصر الظالم؟ قال: «**تَمْنَعُهُ مِنْ ظُلْمِهِ**»[1].



قال الله تعالى:

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]

التفسير

﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: موسى، و أصبح أي: دخل في الصباح، يعني: بات ليلته ولكن في صباحها أصبح خائفا يترقب، وقوله: ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ البناء للعهد الذكري؛ لأنها سبق ذكرها، وقوله: ﴿خَآئِفًا﴾، أصبح من أخوات كان ترفع الاسم و تنصب الخبر فـ ﴿خَآئِفًا﴾ خبر أصبح، وقوله: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ هذا خبر ثانٍ، أو حال من الضمير في ﴿خَآئِفًا﴾ حال كونه يترقب أو أصبح خائفًا أصبح يترقب، صار الإعراب الثاني أنها خبر يكون هذا من باب تعدد الخبر مع الاختلاف؛ لأنه يجوز تعدد الخبر سواء تعدد بلفظ المفرد أو تعدد بلفظ الجملة أو تعدد بلفظ المفرد والجملة.

وقوله: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يقول المؤلف: [ينتظر ما يناله من جهة القتيل].

نعم؛ لأن هذا القتل إجرام، وكل إنسان يقتل شخصًا في بلد - يعتبر هؤلاء الشيعة ـ شيعة

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

موسى - عليه السلام - يعتبرون مستضعفين - لابد أن يخاف، وهذا الخوف من طبيعة البشر، وليس خوف عبادة، فالخوف نوعان: خوف عبادة يقتضي التقرب إلى المخوف والتزام طاعته وما أشبه ذلك. وخوف طبيعي مما يخاف منه، فهذا لا بأس به لأنه من طبيعة البشر، لكنه يكون مذمومًا إذا أدى إلى ترك واجب أو فعل محرم ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾، قوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي﴾ إذا فجائية، يعني: فاجئه في الصباح - وهو خائف يترقب - أن صاحبه الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس اليوم يستصرخه، والاستصراخ معناه: طلب الإنقاذ من الشدة، فهنا عندنا (استغاث واستنصر واستصرخ) أيهم أبلغ ؟ أبلغهم الاستصراخ في كلمة ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾، والاستنصار ظاهر الآية الكريمة أنه بمعنى الاستغاثة؛ لأنه قال: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ﴾ فظاهره أن الاستغاثة والاستنصار بمعنى واحد ولكن في الحقيقة الاستنصار أعم؛ لأنك قد تستنصر إنسانًا ينصرك وإن لم تكن في شدة، والاستغاثة أخف، إلا أنها في الآية الكريمة تدل على أن استغاثته من باب الاستنصار.

﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ قال: [يستغيث به على قبطي آخر].

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، ﴿قَالَ لَهُ﴾ للإسرائيلي الذي استنصره، وزعم بعض المفسرين أن الضمير في قوله: ﴿لَهُ﴾ يعود إلى القبطي، وأن موسى عليه الصلاة والسلام عاتب القبطي، وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، ولكن هذا بعيد من السياق؛ والصواب أن الضمير في ﴿لَهُ﴾ يعود إلى الإسرائيلي الذي استنصره.

﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ بين الغواية لما فعلته بالأمس واليوم.

﴿لَغَوِيٌّ﴾ على وزن فعيل بمعنى: فاعل، أو على أنها صفة مشبهه، والغوي ضد المرشد؛ وهو الذي يتصرف على وجه الإساءة، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ والرشد معناه معروف أنه: إحسان التصرف؛ وعلى هذا فيكون الغي سوء التصرف، فمعنى ذاك ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ﴾ أي: ذو غواية وهي سوء التصرف، وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّنها، ووجه سوء تصرفه أن أمسه القريب كان يتخاصم مع قبطي، واليوم التالي الذي يليه كان يتخاصم أيضًا مع قبطي آخر، فلهذا قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.



❁ قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]

❁ التفسير ❁

﴿فَلَمَّآ أَنۡ﴾ [زائدة]، يعني: أن كلمة ﴿أَنۡ﴾ زائدة، وهي زيادة لفظية إعرابية وليست زيادة معنوية؛ لأنها تفيد التوكيد، وجميع الحروف الزائدة في القرآن أصلا هي أصلية معنى؛ لأنها تفيد معنى التوكيد، وتقترن زيادة أن بعد لما وكذلك قبل لو، كما يقول الشاعر:

وأقـــــسم أن لـــــو التقينـــــا ....

وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم﴾ على (أن) ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ تكون مخففة من الثقيلة، يعني وأنهم لو استقاموا.

﴿أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾ [لموسى والمستغيث به] ﴿قَالَ﴾ [المستغيث]، ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي﴾ كيف عرف أنه يريد والإرادة عمل قلبي؟ هو تهيأ وأراد أن يفعل، فهو لابد أنه استند في هذا العلم إلى أمر ظاهر، وإلا فالإرادة محلها القلب وقوله: ﴿أَرَادَ﴾ أي: موسى ﴿أَن يَبۡطِشَ﴾، ومعنى البطش هو الأخذ بقوة.

﴿قَالَ﴾ [المستغيث ظنًا أنه يبطش به] ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾.

جعل الفاعل في ﴿قَالَ﴾ المستغيث، وهذا يبعده أمران: أمر معنوي وأمر لفظي؛ أما الأمر اللفظي: فإن (قال) ضميرها يعود إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور القبطي الذي هو عدو لهما، والثاني: أنه قال: يا موسى أتريد أن تقتلني؛ والله يقول: ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا﴾ فنحن نفسر الإرادة الثانية بالإرادة الأولى، وأن القبطي هو الذي قال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾. فإذا قال قائل: هذا يبعده أن القبطي لا علم له بذلك، من أين علم ؟ قيل: إنه استنتج ذلك من قوله للإسرائيلي إنك لغوي مبين، فقصَّة القتل اشتهرت في المدينة وبانت، وصار الناس يتحدثون عنها، فهذا القبطي عرف أن الإسرائيلي عدوٌّ له ولهذا لامه - موسى - قال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾؛ فاستنتج من ذلك أن الذي قتل القبطي بالأمس هو موسى؛ فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ﴾، وهذا القول هو الراجح من قول المفسرين، فالمفسرون لهم في ذلك قولان:

أحدهما: أن الذي قال ذلك الإسرائيلي مع أن موسى تهيأ بالبطش بالخصم لكن هو ظن أنه سيبطش به لما قال: :﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

والقول الثاني: الذي أثبتناه، أن القائل هو القبطي، ويرجح ذلك أنه لما قال:﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾-لقد عُلِم أن الإسرائيليين أعداءٌ للأقباط -عَلِم بأن موسى عليه الصلاة والسلام -أو استنتج من هذه القصة- أنه هو الذي قتل القبطي بالأمس؛ فلهذا قال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾؛ لأنك تقتلني مثل ما قتلت القبطي بالأمس.

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾

﴿إِن﴾ بمعنى ما، فهي نافية.

وقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ الجبار معناه: المتعاظم المترفع على غيره، وهو من أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويوصف به غيره ولكنه من أسماء الله، له ثلاثة معانٍ:

أحدهم: المتعاظم وذو القوة والبطش.

والثاني بالعكس: الجبار الذي يجبر الكسير ويرحمه ويعطف عليه.

والثالث: يقول ابن القيم في النونية :

وله مسمى ثالث وهو العلوْ   فليس يدنو منه من إنسان

من قولهم جبارةٌ للنخلة الـ   عليا التي فاتت لكل بنان

فجبار بمعنى: ارتفاع، ومنها قولهم :نخلة جبارة يعني طويلة ومرتفعة. لكن إذا جاءت بالخلاف عن الله فإنها للذم قال الله تعالى: ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾

هذه التهمة - ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ - من أين استند إليها؟ من قتلٍ بالأمس ويهدده بالقتل اليوم، ثانيا: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أخذها أيضًا من قتله بالأمس وسيقتل اليوم، والمصلح عادة لا يعتدي على أحد المتخاصمَين، إنما يحاول الإصلاح بينهما، فهو يقول إنك بإرادتك القتل - وقد قتلت بالأمس - إنك تريد أن تكون جبارًا ولا تريد الإصلاح؛ إذ أن من يريد الإصلاح يسعى بالإصلاح بين الناس ولا يستعدي على أحدهم دون الآخر، وهذا الذي قاله هل ينطبق حقًا على موسى ؟ لا ينطبق عليه؛ لأن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما أراد إلا الإصلاح، ولكن هذا الرجل ظن أنه لا يريد إلا الجبروت والاعتداء على من كان من غير شيعته.

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [فسمع القبطي ذلك فعلم أن القاتل موسى فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، فأمر فرعون الذبَّاحين بقتل موسى، فأخذوا في الطريق إليه].

هذا الذي فسره بناءً على ما اختاره من أن الذي قال: ﴿تُرِيدُ﴾ هو الإسرائيلي، أما على القول

الثاني: فإن القبطي لما رأى موسى يريد أن يقتله - واستنتج أنه قاتل بالأمس - ذهب وترك المخاصمة، وذهب إلى آل فرعون وأخبرهم، وإذا أخبرهم فسوف ينتقمون لأنفسهم، جعلوا يتشاورون كما هو ظاهر في كلام الرجل، وعليه لا نجزم بأنهم أرسلوا إلى موسى من يذبحه؛ لأن الرجل الذي جاء - وهو الناصح - لم يقل: إن الملأ قد أرسلوا من يذبحوه ولكن قال: إنهم يأتمرون به ليقتلوه، يعني: يتشاوروا فيما بينهم ماذا يصنعون.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

وهنا يقول في قوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾: [هو مؤمن آل فرعون].

وهذا التأويل الذي قاله المؤلف لا يُجزم به؛ لأن الله - تعالى - نكَّره ولم يقل: إنه مؤمن، بينما هو في قصته مع آل فرعون قال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ولكن هذا الرجل لا شك أن عنده عطف على موسى ورحمة به، فلهذا جاء ينصحه.

وقوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ - وفي سورة يس، هي قصة أخرى، ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ - فما هي الحكمة في أنه قُدِّم في هذه الآية (الرجل) وأُخِّر في قصة المرسلين ؟ لأن قصة المرسلين الاهتمام بكون هذا الرجل بعيدا عن الرسل ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ ليؤكد صحة ما جاءوا به أبلغ، أما هنا فالذي جاء به هذا الرجل خبر من الأخبار فاعتماده على رجل أبلغ من كون الرجل جاء من الأقصى أو من الأدنى، فلهذا قُدِّم وصف الرجولة على وصف المكان فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ [آخرها] يعني: أبعدها من مكان موسى.

قال في ﴿يَسْعَىٰ﴾: [يسرع في مشيه من طريق أقرب من طريقهم] هذا بناءً على أن الذباحين خرجوا ليذبحوا موسى، ولكن ليس بلازم.

وقوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ ما محلُّها من الإعراب ؟ يجوز أن تكون صفة أو تكون حالًا، أما جواز أن تكون صفة فلأن رجل منكر، وأما جواز أن تكون حالًا؛ لأن المكان وصفت لقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾.

ومعنى يسعى أي: يسرع في مشيه - كما قال المؤلف -، وهذا الإسراع هل هو كما زعم أنه جاء من طريق قريب لئلا يدركوا موسى فيقتلوه ؟ أو أنه يخاف أن ينفذوا ما ائتمروا عليه ؟ وهذا هو الأفضل.

قال يا موسى إن الملأ من قوم فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾، يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ﴾: نداؤه بهذا يدل على أن هذا الرجل كان له معرفة بموسى ولهذا ناداه باسمه، في قصة مؤمن آل فرعون ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ما قال أتقتلون موسى؛ لأن المقام يقتضي أن لا يبين أن له اتصالًا به ومعرفة، ولو قال: أتقتلون موسى؛ لقالوا: هذا الرجل يعرف موسى فأخذوه، ولكنه قال أتقتلون رجلًا كأنه لا يعرفه، ولكن يعرف ما جاء به من الدعوة الصحيحة السليمة، وأما هنا فإن الرجل يعرف موسى فلهذا قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك، وأكد له الخبر في قوله: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ﴾ مع أن موسى كان خاليَ الذهن من ذلك؛ لأن الأمر مهم، وقد ذكرنا فيما سبق أن الأسباب التي تقتضي تأكيد الجملة الخبرية ليست هي حال المخاطب فقط ولكنها حال المخاطب وحال مصدر الأمر؛ لأنه إذا كان مهمًا فإنه يؤكد.

وقوله: ﴿فَاخْرُجْ﴾ أي: من المدينة، وقوله: ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ في الأمر بالخروج، بل وفي مجيئه إليه أيضا وإخباره بذلك، وأن الذين يأتمرون بشأنه ليسوا عامة الناس بل الذين يأتمرون هم الملأ والكُبراء الذين ينفذون ما ائتمروا به؛ لأنه لو كان عامة الناس يتشاورون في هذا ما كان لهم أهمية.



قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ۝٢٦﴾ [القصص:٢٣-٢٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: لهما أو من أجلهما، وليس المعنى أنه سقى المرأتين، ولكن سقى غنمهما من أجلهما، واللام هنا للتعليل وليست للتعدية.

قوله: ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ما المراد بالظل هنا ؟ أظل جبل أم شجرة أم أكمة ؟ الراجح أنه ظل شجرة.

وقوله: ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لماذا لم تتعدَّ بـ (إلى) والله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ لأنه لما أضيف الفقر إلى الله عدِّيَ بإلى، وإذا أضيف للشيء المحتاج إليه عُدِّي باللام، فأنا فقير للمال ولست مفتقر إليه؛ لأن المال ليس مبلغ غاية المفتقرين وإنما به زوال فقرهم، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المنفق على المفتقرين.

قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لماذا خير بالجر؟ لأنها جرت بمن والجر والمجرور في محل خبر إن.

قوله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ ما موضع تمشي من الإعراب ؟ تمشي في محل نصب حال لإحداهما، وعلى استحياء في محل نصب حال للضمير المستتر في تمشي، فهي تمشي حال كونها على استحياء.

قوله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ من التي جاءت الكبيرة أم الصغيرة؟ نقول: القرآن لم يبيِّن إحداهما الكبيرة أو الصغيرة فالله أعلم.

قال: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [أي: واضعة كم درعها على وجهها حياءً منه].

هذا ما ذكره ابن كثير عن عمر رضي الله عنه وقال: إن إسناده صحيح، ويروى هذا عن عمر قد يكون على سبيل التوقع، أي: أنه توقع منها رضي الله عنه أنها واضعة كم درعها على وجهها، لكن في الآية ليس ذلك بواضح.

كم الدرع على الوجه: الدرع الذي يسميه الناس: المِسْبَح في يومنا هذا كان يسمى درعًا؛ لأنه مثل الدرع الذي يلبس في الحلقة، ولكن كيف وضعت كمها على وجهها ؟ لا يكون هذا إلا إذا كان كمها واسعًا.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ هنا عندي إشكال في أبي، المعروف أن الأسماء الخمسة لا تنصب بالياء، فهل هنا نصبت بالياء لقوله: ﴿إِنَّ أَبِى﴾ ؟

الصواب: أنها نصبت بالفتحة – وهي أصلها –؛ لأنها أضيفت لياء المتكلم، والدليل من كلام ابن مالك – أنها يشترط ألا تضاف لياء المتكلم –

وشرط ذا الإعــراب أن يــضفن لا   لليــا كجــا أخــو أبيــك ذا اعــتلا

وهنا مضاف إلى الياء ولهذا نقول: أبي اسم إن منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة.

﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾: اللام للتعليل؛ يعني يدعوك لهذا الغرض، ومعنى يجزيك يكافئك، وهي من جزى يجزي.

وقوله: ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ مفعول الفعل ليجزيك، ومعنى أَجرَهُ أي عِوَضَهُ، والأجر هو العوض المأخوذ في مقابلة عمل.

وقوله: ﴿مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي لأجلنا، وما في قوله: ﴿مَا سَقَيْتَ﴾ ليست شرطية ولا موصولة أيضا هي مصدرية، يعني ليجزيك أجر سقيك ولا يريد أجر الذي سقيت؛ لأنه إما يريد أجر الذي سقى أو أجر السقي، فما مصدرية؛ لو قال أجر الذي سقيت لصار أجر العمل، وهي لا تريد أن يعطيه أجر العمل وإنما تريد أن والدها يجزيه أجر سقيه للغنم، فيتعين أن تكون هنا مصدرية.

واللام في قوله: ﴿لَنَا﴾ هي مثلها في قوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أي أنها لتعليل وليست لتعدية.

[فأجابها - موسى، يعني أجاب دعوة أبيها - منكرًا في نفسه أخذ الأجرة].

يعني: أجاب ولم يظهر أنه يريد أخذ الأجرة، ومن أين علمنا هذا ؟ قالوا: نعلم بأن موسى فعل ذلك لله، ومن فعل شيئًا لله لا يمكن أن يأخذ عليه أجرا في الدنيا، ولكن هذا لا يُعَيِّن أن يكون موسى يأخذ أجرًا، فإنما لو قيل لهم: هل تشهدون بأن موسى في تلك الحال - عندما أجاب الدعوة - قد أضمر في نفسه أنه يأخذ أجرة ؟ لا ندري؛ قد يكون موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يأخذ الأجرة؛ لأنه محتاج؛ فيأخذها لسد حاجته، وقد لا يأخذها تكرمًا منه، ثم إن المدفوع من الله يأخذ أجرًا مقدمًا لما يفعله لله، ثم لو كوفئ به مكافأة فإنه لا مانع أن يأخذ، بل إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما بعث عمر عاملًا على الصدقة وأعطاه؛ وقال: أعطني أكثر منه ومعلوم أن عمر لم يكن يتطلع إلى أخذ عمالة بدليل أنه قال: أعطني أكثر منه، ومع ذلك قال الرسول له: «خذ»، فالإنسان الذي يعمل عملا لله إذا كُوفئ عليه لا يعد أجرا ما دامت نيته في الأصل خالصة لله. إذن فدعوى أن موسى كان منكرا في نفسه أخذ الأجرة ليس عليها دليل، وليس لنا من حق أن نتكلم في هذا وليس لدينا دليل.

[كأنها قصدت المكافأة إن كان ممن يريدها] كأنها: المؤلف في دلالتها كأنه يعلم الغيب، وقولها: ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ معروف أن الأجر لا يكون إلا بعقد - عقد إيجار- وهل وقع بين موسى وبينهما عقد إيجار على أن يسقي لهما ؟ لا، لكن يقول: [كأنها قصدت المكافأة إن كان ممن يريدها] فسمَّت هذه المكافأة أجرًا.

[فمشت بين يديه، فجعلت الريح تضرب ثوبها وتكشف ساقيها، فقال لها: امشي خلفي

ودليني على الطريق] إن كانت هذه القصة ليس لها أصل - كونها مشت بين يديه - لكنهم يأتون بها توطئة لقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ فقد سبق أنه نزع الصخرة العظيمة التي لا ينزعها إلا عشرة ـ مَثَل القوة ـ وهو الرجل الأمين.

[ففعلت إلى أن جاء أباها وهو شعيب ـ عليه السلام ـ وعنده عشاء فقال: اجلس فتعش قال: أخاف أن يكون عوضا مما سقيت لهما وإنا أهل بيت لا نطلب على عمل خير عوضًا قال: لا، عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام، فأكل وأخبره بحاله.]

كل هذا لا دليل عليه، والذي عليه الدليل أن موسى ﷺ أجاب الداعي ومشى حتى وصل إلى الأب، وهذا يكفينا أن نعتقد ما دل عليه الكتاب والسنة وما دل عليه القرآن من هذه القصة، أما أن نأت بشيء لا ذكر له في الآية فلا.

يقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ الفاعل في ﴿جَآءَهُۥ﴾ موسى، ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ﴾ أي: موسى.

﴿ٱلْقَصَصَ﴾ [مصدر بمعنى المقصوص]؛ لأن القصص قصة كما يقال، قال الله تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي: يقُصَّان الأثر قصًّا، والقصص غير القص؛ لأنه يُقَصُّ المَقْصُوص، وعلى هذا فهو مصدر بمعنى اسم المفعول، والمصدر بمعنى اسم المفعول يأت كثيرًا كقوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ أولَات حمل أي محمول، كذلك كقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] أي: فهو مردود، - على كل حال - هنا نقول:القصص مصدر بمعنى المقصوص، لماذا لا نجعله مصدرًا بمعناه الحقيقي؟ لأن القصص فعل القاص وليس هو شيئًا مخبر عنه، وإنما الذي يُخْبَر عنه بالقص هو الشيء المقصوص يعني القضية والقصة وما أشبه ذلك - هذا الذي يقص.

ما الذي قص عليه ؟ قال: [مِنْ قَتْله القبطي وقَصْدِهم قتْلَه وخوفِه من فرعون] قصَّ عليه قضيته كلها، بأنه كان في مصر مثلًا، وما كان من قتل القبطي، وأن رجلًا جاءه ونصحه فقال له اخرج فخرج، ولهذا قال: ﴿ٱلْقَصَصَ﴾.

﴿قَالَ لَا تَخَفْ﴾ ﴿قَالَ﴾ جواب لما ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ قال أي صاحب مدين: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿لَا تَخَفْ﴾ اللام هنا ناهية والمراد بها طمأنة هذا الرجل، وعلى هذا فيكون قوله: نجوت من القوم الظالمين تأكيدًا للجملة بكل معنى، أي لا خوف عليك؛ لأنك نجوت من القوم الظالمين- سبحان الله العظيم - جاء كلام هذا الرجل مطابقًا لسؤال موسى، موسى خرج منها خائفًا يترقب ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ؟ فجاء الجواب هنا من هذا الرجل :﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿لَا تَخَفْ﴾ إزالة لقوله: ﴿خَآئِفًا

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

يَتَرَقَّبُ﴾، ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إجابة لقوله: ﴿نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فكان جواب هذا الرجل مطابقًا لسؤال موسى، وهكذا تكون إجابة الله تعالى للنفر مطابقة تمامًا لسؤاله.

﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إذ لا سلطان لفرعون على مدين]، وهذا هو الظاهر أنه طمأنه بأنه نجا من القوم الظالمين؛ لأن سلطان فرعون إنما في مصر وما حولها أما مدين فإنه لا سلطان لفرعون عليها، إذ لو كان له سلطان عليها ما نجا منه وما نجا من القوم الظالمين ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [وهي المُرْسَلَة الكبرى أو الصغرى] لأننا لا ندري الكبرى أو الصغرى التي قالت، والذي ندريه أنه ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾.

أما كونها المرسلة فهو بناءٌ على ما سبق من أنها جعلت تمشي أمامه وجعلت الريح تكشف عن ساقيها فقال كوني خلفي، فعرفت بذلك أن هذا الرجل أمين؛ هذا السبب في قوله: [وهي المرسلة] ولكن السؤال الآن: هل يتعين أن تكون القائلة هي المُرْسَلَة أو الباقية ؟ لا يتعين هذا ولا هذا؛ قد تكون المرسلة وقد تكون الباقية، المهم أننا نحسّ أنه يظهر ما أبهمه الله.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ لما لم تقل يا أبي ؟ وهل تاء التأنيث تحل محل الياء ؟ يجوز إبدال الياء بالتاء فيقال أبتِ بدل أبي.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي: اجعله أجيرًا عندك، وهذا الأمر ليس بمعناه الحقيقي، وأن ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ ليس لطلب الفعل على وجهه الحقيقي، وأن البنت لا يمكن أن تأمر أباها أمرا، ولكن لا يصلح هذا الطلب على سبيل الدعاء ولا الالتماس؛ لأن الالتماس يكون من مغيب لمغيب والدعاء لا يكون إلا في جانب الله سبحانه وتعالى، وربما للترجي والاستمالة.

﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [اتخذه أجيرا يرعى غنمنا بدلنا]

تلك استفادتين: أولًا فيه تقطع والثاني أن الرجل قوي وأمين.

﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [أي: استأجره لقوته وأمانته]

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ هذا تعليل؛ يعني استأجره لأنه قوي أمين، لكنها أتت بالتعليل على سبيل القاعدة العامة، لو قالت: استأجره إنه قوي أمين صار هذا تعليلًا لمسألة خاصة وهو استئجار موسى، لكنها أتت بهذه العلة منطوية تحت قاعدة عامة وهي :﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ وهذان النصان هما ركنان في كل عمل، فكل عمل لابد فيه من هذين الأمرين لا يقوم إلا بهما وهما القوة والأمانة؛ فبالقوة يكون الفعل وبالأمانة يكون تمام الفعل؛ لأنه من ليس قويًا لا يفعل ومن ليس أمينًا لا يتمم الفعل وقد لا يفعل أصلًا، فلذلك إذا كان الإنسان قويًا أمينًا حصل به تمام الفعل، وهل ﴿خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ الحالة خاصة بالإجارة أننا نتطلب القوي الأمين أم في جميع الأعمال ؟ في جميع الأعمال، لو وكلنا شخصًا على بيع فخير من نوكل القوي الأمين، أو

أمرنا شخصًا على قرية فخير من نُأَمِّر القوي الأمين، ولو ولَّينا شخصًا على قضاء بلد فخير من نولي على القضاء القوي الأمين؛ ولهذا قال الجن - لما قال لسليمان أنا آتيك بعرش ملكة سبأ قبل أن تقوم من مقامك - قال :﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ فقوله هنا: الأجير نقول: ليس بأجير؛ فالقوة والأمانة شرطان أساسيان في كل عمل، من ليس قويًّا لا يجدي نفعًا، ومن ليس أمينًا لا يؤتمن ولا يكمل الفعل ولا يتممه.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ - أي موسى - [فسألها عنهما فأخبرته بما تقدم من رفعه حجر البئر، ومن قوله لها: امشي خلفي وزيادة أنها لما جاءته وعلم بها صوب رأسه فلم يرفعه؛ فرغب في إنكاحه].

قوله: [فسألها] أي: أبوها، [عنهما] أي: عن القوة والأمانة؛ من أين عرفتِ أن الرجل قوي وأمين ؟ فذكرت له [أخبرته بما تقدم من رفعه حجر البئر] رفع حجر البئر وعادة لا يرفعه إلا عشرة أنفس؛ وهذا دليل على قوته، وكانت تمشي أمامه والريح تكشف ساقيها؛ فقال: كوني ورائي؛ وهذا دليلٌ على أمانته، وكذلك أيضًا زيادة من الأمانة أنه [لما علم بها صوب رأسه] أي: نزله فلم يرفعه. وهذا من الأمانة، لكن نحن لا نحتاج إلى هذه القضايا الثلاث، بل هما عرفا من سقيه: أنه قوي من نزعه للدلو وسقيه لهما، وأنه أمين بحيث أنه سقى سقيًا تامًا ولم يحصل شيئًا من العنف، وهذا يدل على أمانته، فالأمانة والقوة أخذتا من سقيه، ولا يلزم أن نصطنع شيئًا لأجل أن نمهد لكونه قويًّا أمينًا.

قوله :﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ القصص ما هو من حيث الإعراب ؟ من حيث الإعراب محله مفعول به لقص.

قوله :﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ما معنى نجوت؟ النجاة من الشيء الانفلات منه.

ثم إن هذه الجملة مطابقة لسؤال موسى ولحاله أيضًا، كيف ذلك ؟ بأنه خرج من المدينة خائفا يترقب، ودعا الله: رب نجني من القوم الظالمين، فأبدل الله الخوف بالأمن لقوله: لا تخف.

لماذا قال له: نجوت من القوم الظالمين ؟ لأن مدين ليست تحت ملك فرعون.

قوله :﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ما محلها لما قبلها في المعنى؟ تعليلية كأنها تقول استأجره فإنه قوي أمين.

هذان الوصفان هما الوصفان الأساسيان في الأعمال؛ لأن ضد القوة الضعف والضعيف لا يستطيع، وضد الأمانة الخيانة والخائن لا يتمم العمل.

وهذان الوصفان أساسيان في كل ولاية (في الخلافة والإمارة والإدارة والوكالة والوصية وغير ذلك) كل ولاية لابد فيها من الأمرين القوة والأمانة.

القوة في العمل أنواع، فالعمل الذي يقتضي طاقة جسمية لابد أن يكون قوي الجسم، والعمل

الذي يقتضي طاقة فكرية كالأعمال الحسابية وما أشبهها لابد من أن يكون قوي القياس، فالقوة في العمل حسب طبيعة العمل.

الفوائد:

١ ـ **يستفاد منها:** أنه لا ينتظم أن يحكم على الأمور إلا بعد معرفة الأسباب، من أين نأخذها؟ أنه ما حكم على المرأتين بأي حكم إلا بعد أن قال: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ يعني: تزودان غنمكم عند السقي، ولم يحكم بأي حكم على هذا الأمر حتى سألهم.

٢ ـ **ويستفاد منها:** أنه قد سقى لهما ثم تولى إلى الظل وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

٣ ـ **ويستفاد من الآية الكريمة:** بيان رأفة نبي الله موسى بهاتين القاصرتين لقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

٤ ـ **وفيها:** جواز الاقتصار في الدعاء على ذكر حال الداعي وبدون طلب؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

٥ ـ وفيها أيضًا – من فوائدها –: أنه ينبغي تصدير الدعاء بذكر الرب؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ وقد ذكرنا أن هذا هو أفضل الذكر في الدعاء بوصف الربوبية – وأما بغير الربوبية يكون للخلق والتفويض للناس.

٦ ـ **ويستفاد من هذه الآية:** حاجة الإنسان إلى ربه تبارك وتعالى؛ لأنه في غاية ما يكون من الضرورة إلى الخير النازل إليه من الله.

٧ ـ **ويستفاد منها:** علو الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لقوله: ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾؛ لأنه لا يكون إنزال الشيء إلا إذا كان عاليًا، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ عالٍ بذاته وصفاته.

والعلو نوعان: علو ذات وعلو صفة ولا يلزمنا إثبات علو الذات ـ التمثيل ـ كما يقوله المُعطِّلون، ولا أن المكان يحيط به – كما قالوه أيضًا – متوصلين بذلك إلى إنكار علوه؛ لأن هؤلاء المعطلة يتوصلون إلى تعطيلها بمثل هذه الطريقة: بأن إثبات هذا يستلزم كذا من الأمور التي ليست بلازمة، ولكنهم يرونها بعقولهم لازمة؛ فيلزمون بها غيرهم، ثم يتلفظون بها إلى إنكار الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

الفوائد:

١ ـ **يستفاد من هذا:** أولًا بيان الوقار الذي جعله الله لموسى، فهذه جاءت إليه على استحياء تعليل له؛ لأنه كلما كان الإنسان أشد وقارًا كان الحياء منه أكثر؛ ولذلك الرجل الذي ليس بوقور

تجد الناس لا يستحيون منه ولا يبالون به، ويتكلمون عنده بالكلام الذي لا يليق ويفعلون عنده ما لا يليق؛ لأنه ليس وقورًا ولهذا يقال: احتشِم تُحتَشم.

٢ - **ومنها أيضًا:** بيان كمال خُلُق هاتين الأختين؛ حيث جاءت تمشي وليست تسرع وتهرول بل تمشي بهدوء، وهذا دليل على كمال أدبها، وكذلك كونها على استحياء هو أيضًا من كمال الأدب.

وفي قولها: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ﴾ أيضًا كمال أدب؛ حيث نسبت الدعوة إلى الأب دون نفسها، وهو أيضًا من كمال الذكاء؛ لأن نسبة الدعوة إلى الأب أقرب إلى إجابة موسى للدعوة؛ حيث يكون الداعي له رجلا، وقد وصفت تعريفه من قبل بأنه شيخ كبير، فتكون الدعوة منه إلى موسى أقرب للإجابة.

٣ - **وفيها أيضًا:** دليل على ذكائها من وجه ثانٍ لقولها: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ليطمئن وليكن هَدِئًا إلى إجابة الدعوة.

٤ - **ويستفاد من الآية أيضًا:** أنه ينبغي على الإنسان استعمال الأدب في الأساليب وإزالة الوحشة لقوله: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فيكون في هذا ذهاب الوحشة؛ لأنه ينبغي على الإنسان أن يزيل الوحشة عن المخاطب لاسيما في المقام الذي تحتويه الوحشة، وكما ينبغي أن يكون ذلك في الوصف ينبغي أن يكون ذلك في الحال - حال المرء - حيث يقابل غيره بوجه بشر، والسماحة بانطلاق الوجه؛ ولهذا كان من أوصاف النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه كان دائم البشر كثير التبسم، وضد ذلك العُبُوس والتَّقطِيب وعدم الانشراح فإن هذا يوجب لغيرك أن ينفر منك، وكذلك أيضًا يوجب أن لا يأنس بك أحد، حتى لو جلس عندك ما آنسك، لكن إذا رآك منشرحًا أقبل إليك ،هذا الأمر قد يكون بالتكسب؛ وقد يكون غريزة، فإن من الناس من يهبه الله - سبحانه وتعالى - مثل هذه الخصلة الطيبة، ومن الناس من يحرم منها، ومن الناس من يحاول أن يتخلق بها؛ ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - للأحنف بن قيس: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ، وَالأَنَاةُ**» أن الحليم من يتأنى، قال: أخصلتين تخلقتُ بهما أم جبلني الله عليهما، فقال: «**بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا**»[1] فهذا يؤخذ منه: أن مثل هذه الأخلاق تكون بالتخلق، وتكون بالجبلة، وأيهما أفضل ؟ الجبلة أفضل ولهذا قال الرسول له: «**بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا**» لأن التخلق قد ييأس الإنسان أحيانًا منه فلا يتخلق فيكون على جبلته عبوسًا جهولًا، لكن الجبلة لا شك أنها أكمل، وإنما ينبغي للإنسان التعود والتخلق على الشيء، ويكون ذلك خلقا له.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآيات:** ذكرنا أدب هاتين المرأتين وذلك بالحياء ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥/ ١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾.

٢ ـ **وكذلك**: ذكرنا كمال ذكائهما أيضا من وجوه ثلاثة.

ويستفاد من قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

١ ـ أن قص الأخبار لا يعتبر شكاية، لو قصصت على إنسان ما جرى عليك من المصائب فإنه لا يعتبر ذلك من الشكاية إليه؛ ولهذا يقول المريض إذا سئل عن حاله: إخبارٌ لا شكوى، والفرق بينهما أن الشكوى تتضمن طلب إزالة الشيء والتضجر منه، وأما الخبر فإنه مجرد عن ذلك؛ مجرد إخبار عن أمر واقع.

٢ ـ **وفيها أيضًا**: دليل على فقه صاحب مدين حيث طمأنه مع ذكر السبب فقال: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأن قوله لا تخف يفيد طمأنينة الرد.

٣ ـ ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: تفيد العلة في ذلك؛ لو قال لا تخف ولم يكن نجى فقد يظن الظان أنه أراد أن يهون عليه الأمر وإن كان فيه احتمال ألا ينجو، لذا قال: ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وصار هذا بيان للحكم مع العلة.

٤ ـ **وفيها**: دليل على أن آل فرعون معروفون بالظلم عند الناس في ذلك الوقت لقوله: ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٥ ـ **وفيها أيضًا**: دليل على أن جنود الظالم ظلمة؛ لأنه لم يقل نجوت من الظالم بل قال: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو كذلك؛ فإن جنود الظالم ظلمة، ولهذا لو أمرك الأمير أو من فوق الأمير بأمر تعرف أنه ظالم فيه فإن طاعتك له محرمة؛ لأن ذلك من باب طاعة المخلوق في معصية الخالق.

أصلها وجوب طاعة ولي الأمر ولم يوجد ما يمنع هذا الأصل إذ أنك لا تريد فعل ذلك ولأنهم لمشاقة أن الجندي مثلًا إذا أمره من فوقه أن يضرب أو يُحدِّث أنه لماذا يضرب؟ ولأن هذا يؤدي إلى الفوضى وتفكك الحكومة والدولة فلهذا يقول: وجب عليك التنفيذ ما لم تعلم أنه ظلم، وقال بعض أهل العلم بالتقسيم وهو أنه إذا كان الأمر معروفًا بالظلم فإنه لا يجوز لإنسان على موافقته إلا إذا علمت انتفاء الظلم في هذه القضية المعينة تقسيمًا للظاهر على الأصل، ما هو الظاهر؟ ظاهر حال هذا الأمير مثلًا أنه ظالم فيقدم على الأصل وهو عدم الظلم ووجوب الطاعة، وهذا التأصيل لا بأس به مع أن فيه ثقلًا؛ لأنه إن كان ظالمًا فقد لا يظلم في كل شيء ومعلوم ألَّا يبتلينا ولا إياكم أن جنديًا يصعب عليه جدا أن يقول لآمره: ما وجه حبسه ولهذا من قواعد الدراسة عندهم في الجندية وفي الجيش أن الصغير يطيع من فوقه طاعة عمياء حتى أن بعضهم يرى أنه يجب طاعته ولو في معصية الله ولكن هذا غير مسلم إنما أقصد أنهم يطيعون طاعة عمياء كأن الإنسان أصم

أعمي وعلى كل حال فمن أخذ بالقول بوجوب الطاعة فقد أخذ بالأصل وكان معه سعة، فمن أمكنه أن يستفهم عند أمر الأمير عن هذا الأمر الذي ظاهره الظلم بالعدل ولا يحتاج إلى تفكير، وهذا لا بأس به، المهم أن نأخذ من هذه الآية أن جنود الظالم ظلمة طبعا إذا وافقوه على ظلمه، بل قد يجد أحيانًا إذا كان موجدًا فهذا يخفف على الأشياء.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾

١ - يستفاد من الآية الكريمة: بيان أن مشورة الإنسان على أبيه لا تعد من التنقص له، لقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾.

٢ - ويستفاد منها: تلطُّف هذه المرأة في مخاطبة أبيها، لقولها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ ولهذا قالوا: ما ينبغي ألّا ينادي الإنسانُ والده باسمه فيقول مثلًا: يا عبد الرحمن، يا عبد العزيز، وما أشبه ذلك حتى أن بعضهم يقول: إذا نادي أباه باسمه يُعذَّب؛ لأنه نوع من الاحتقار له وأما الخبر عنه باسمه فلا بأس مثل أن يقول: قال فلان، فلا حرج ولهذا كثيرًا ما نسمع في الأحاديث ابن عمر يقول: قال عمر، وما أشبه ذلك هذا لا بأس به بخلاف النداء فالنداء له حال والخبر له حال أخرى.

٣ - ويستفاد من الآية الكريمة: أنه ينبغي للقائم على الشيء سواء كان متبرعًا أو بأجرة المهم كل قائم على عمل ينبغي أن يُراعِيَ فيه هذين الوصفين، وهما: القوة والأمانة؛ لأن في القوة القدرة على التنفيذ وبالأمانة الإتمام والإكمال.

٤ - ويستفاد منها: أن موسى ﷺ كان متصفًا بهذين الوصفين القوة والأمانة؛ لأنه بها أن الجملة هذه تعليل لقوله: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾.

٥- من فوائد هذه الآية أنه يستدل منها جواز تكلم المرأة بحضور الأجنبي، انظر إلى هذه الفائدة هل نوافق على هذا؟ لا محادثة حدثت لكن موسى الآن لم يكن نبيًّا، والشريعة لم تكن قائمة، هذا خبر وحين ذكر المفسرون وغيرهم كلامهم أنه هو الظاهر يعني: أن هناك محادثة لموسى ولا نُسلِّم أن هذا دليل على الجواز؛ لأن شريعة موسى في ذلك الوقت لم تكن قائمة نعم؛ إن كان شعيب على دين ونقول: هذا لأننا لا نوافق من قال: إن المراد به شعيب النبي وأقول: إن كان صاحب مدين على دين فيمكن أن يستفاد من هذا جواز مخاطبة المرأة في حضرة الأجنبي مع أن المسألة لا إشكال فيها من الناحية الشرعية في شريعتنا أن المرأة يجوز أن تتكلم في حضور الرجال، النساء كلهن كلمن الرسول ﷺ بحضور الرجال ما لم يخش الفتنة، إن خشية الفتنة ممنوعة حتى في الأمور المباحة.

٦- وكذلك أيضًا يستفاد من هذه الآية أن مشورة الأبناء للأعلى لقوله: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ لأن الأمر هنا ليس للالتزام ولكن للمشورة أو العرض فقد يكون الأدنى أعلى من الأعلى في بعض الأمور كما أن المفضول قد يكون أفضل من الفاضل.

٧ - **ويستفاد من الآية الكريمة** الرجوع في الأعمال إلى هذين الوصفين وهما القوة والأمانة.

٨- **ويستفاد منها أيضًا** أنه ينبغي أن يتحرى الإنسان في جميع أحواله من كان قويًا أمينًا مثل قولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ والقوة في العمل بحسبه فالقوة على الأعمال البدنية معناه قوة البدن والقوة في الأمور الفقهية قوة الفكر في هذا الشيء والقوة في الأمور الحربية قوة تنسيق الحرب فكل شيء قوته بحسبه وباختلال أحد الوصفين يختل العمل وإذا اختلت القوة وصار الإنسان ضعيفًا لا يمكنه أن يقوم بالعمل، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لأبي ذر: «**إِنَّكَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ فَلَا تَوَلَّيَنَّ إِمَارَةً، وَلَا عَلَى مَالِ يَتِيمٍ**»[1]، فقوله: «**إِنَّكَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ**» هنا الضعف هو يريد به الأمانة أم يريد بها القوة؟ يريد بها القُوة، الرجل أمين لكنه ضعيف في تولي الأعمال فعليه نقول إن الإنسان قد تختلف فيه القوة أو الأمانة، والكمال بوجود القوة ووجود الأمانة.



❁ قال الله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٧، ٢٨]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

وقال: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ قال: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ﴾ الآن ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾هل هذا عقد نكاح أم وعد بعقد نكاح؟ أريد أن أنكحك وليس عقدًا وعلى هذا فلا يكون دليل على جواز العقد على المبهمة؛ لأنه يقول: أريد أن أنكحك ومعنى أنكحك: أزوجك؛ لأن النكاح أصله الضم والجمع ومعنى أنكحك يعني: أزوجك؛ لأن الرجل يضم زوجته إليه ويجتمع إليها.

وقوله: ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ قوله: ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ﴾ هذا مبهم ما ندري أهي الكبرى أم

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧/ ١٨٢٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الصغرى؛ ولهذا يقول: وهي الكبرى أم الصغرى؟ وقوله: ﴿ٱبۡنَتَيَّ﴾ أصلها ابنتين لي وحذفت النون من أجل الإضافة ولهذا نقول: إن ﴿ٱبۡنَتَيَّ﴾ مجرور بالياء؛ لأنه مثنى ولكن حذفت النون من أجل الإضافة إلى ياء المتكلم وقوله: ﴿هَٰتَيۡنِ﴾ اسم إشارة لتعيين البنتين فهمنا من ذلك أن المعنى أن موسى قد لا يعلم أن هاتين البنتين له قد يقول: إني أنكحك إحدى ابنتي وهذا هو الأقرب وأما تعينه مع اسم الإشارة لئلا يتوهم المخاطب أن له بنات أخرى وليس المعنى أنه يعين هاتين ليخيرك بقية البنات الغريب أن بعض المفسرين قالوا: هذا لإخراج بقية البنات، وأن بناته سبع وهاتين أخرجهما بالتعيين فيقال ليس كذلك فليس في الآية ما يدل عليها ولكن لو قلت لشخص أنا أريد أن أنكحك إحدى ابنتي وعندي امرأتان هل يكفي أن أقول: ابنتي؟

ما يكفي حتى أقول هاتين، هو يفهم أن هذه بناته فهو يقول هاتين على هذا المهر ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ تأجرني يعني: تأجرني نفسك ثماني حجج تكون أجيرًا لي في رعي غنمي ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ أي سنين وهو جمع حجة ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾ أي راعي عشر سنين ﴿فَمِنۡ عِندِكَ﴾ فمن عندك التمام وليس بوعد، أخبره بأنه يريد أن يزوجه إحدى ابنتيه ويكون المهر على أن يرعى الغنم ثماني سنين فمن أين يعرف أن المراد رعي الغنم قد يكون مستأجرًا لأجل أن تكون بنَّاءً عندي أو حراثًا أو ما أشبه ذلك؟ هي جاءت في القصة ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ فقولها: إن العمل الذي أمامه الآن هو رعي الغنم ويعلم بذلك أنه أراد - يعني: صاحب مدين - أن يستأجر موسى ﷺ لرعي الغنم ثماني سنوات فإن أتم عشرًا فمن عنده يعني: السنتين يكونان تبرعًا والعطف على ثمان سنوات قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ باشتراط العشرة قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ باشتراط العشرة هذا كلام ظاهر؛ لأن اشتراط العشرة لو قدره ـ موسى ـ في مشقة ونحن نقول: إن اشتراط الثمانية بدل الستة فيه مشقة ولكن لا أريد أن أشق عليك في حال معاملتك لتنفيذ العقد يعني معناه أني سأتساهل لو فات يوم أو أيام وما رعيت ما أشبه ذلك أو حصل عليك أثر من مرض أو غيره فإني لا أشق عليك.

قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ الآية هنا للمستقبل لأن السين هذه تحول المضارع إلى المستقبل وهذا مر علينا كثيرًا التحريض والتقريب.

ففيها ثلاث فوائد: سين تفعل في المضارع تحويله إلى مستقبل وتحقيقه وتقريبه، وقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من وجد يجد إذا أدرك الشيء ولكنه قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهذا يدل على أن صاحب مدين مؤمن؛ لأن كلامه هذا يدل على إيمانه وأنه على ملة وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق فهل هو تعليق يراد به حقيقته يقول المؤلف: [إنه للتبرك] والذي حمل المؤلف على ذلك هو أن قوله: ستجدني وعد منه والوعد إذا علق لم يكن مجزومًا به ولهذا قال: [إنه للتبرك]؛ لأنه لا ينافي الوعد ولكنه في الحقيقة لا ينبغي أن نقول: إن هذا تبرك بل نحمله على

التعليق الحقيقي بالمشيئة لأن عزم الإنسان على الشيء مجزوم به لكن تنفيذ الشيء لا يستطيع أن يجزم به الإنسان أبدا مهما كان الأمر ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] فالذي نرى أن هذا التعليق على حقيقته وليس للتبرك لماذا؟ لأن تنفيذ هذا الشيء ليس بيد صاحب مدين فإن الأمور قد تختلف.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذه جملة لا محل لها من الإعراب يسميها النحاة جملة معترضة بين الفعل ومفعوله؛ لأن ستجدني تنصِبُ مفعولين: المفعول الأول ياء المتكلم والمفعول الثاني ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الجار والمجرور وهنا وقعت الجملة المعترضة بين الفعل ومفعوله وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يعني الوفيين بالعهد؛ لأن صلاح كل شيء بحسبه فهنا المصلحة تجارة والصلاح فيها يكون بالوفاء وفي كل موضع بحسبه الصلاح في الدين هو القيام بطاعة الله وصلاح الطعام ألَّا يكون متغيرًا برائحة كريهة أو مثل ذلك والصلاح في موضع بحسبه.

قوله: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ قال: موسى ذلك الذي قلته بيني وبينك ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ الحقيقة هذا القبول وعندنا كل عقد يحتاج إلى إيجاب وقبول إيجاب من الباذل وقبول من الآخِذ إيجاب من الباذل سواء بائع أو مؤجر أو مزوج أو ما أشبه ذلك وقبول من الآخذ، الإيجاب من صاحب مدين قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾ والقبول من موسى ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ معناه أني موافق وقابل مع أنه في الأول صاحب مدين يقول: أريد أن أنكحك على ولم يقل: أنكحتك على أن تأجرني مما يدل على أن العقود تنعقد بما دل عليها؛ لأن الإرادة عن الشيء ليست هي الشيء ولذلك لو قال الرجل لامرأته: أريد أن أطلقك هل صار طلاقًا؟ لا؛ لأن الإرادة غير منعقدة لكن هذا يدل على القول الراجح وفي هذه المسألة نتعرض لها إن شاء الله في ذكر الفوائد وهو أن العقود تنعقد بما دل عليها ما لها صيغة معينة حتى أنها ربما تنعقد بالفعل كمثل أراد البيع قال: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ الثمانية أو العشر وما زائدة للتوكيد وعليه فأي مفعول مقدم لقضيت، وهي لا تصح من باب الاشتغال لأن باب الاشتغال لابد أن يكون في العامل ضمير إذا لم يكن بضمير فالسابق مفعول تقول مثلًا: زيد أكرمته هذا من باب الاشتغال؛ لأن فيه ضمير لكن زيد أكرمت بدون ضمير هذا من باب المفعول المقدم وليس من باب الاشتغال؛ إذ ينافي زيد أكرمته؛ لأنه قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ ولم يقل: أيها الأجلين قضيته فليس المسألة من باب الاشتغال لكنها من باب المفعول المقدم.

وقوله: ﴿ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ يقول المؤلف: [أي: رعيه] الحقيقة ليس هناك حاجة إلى تفسيره؛ لأنه معروف من السياق فموسى سيقضي الأجلين أو سيقضي الرعي؟ سيقضي الرعي في الأجلين، ولهذا قال المؤلف: [أي: رعيه] لكن هذا سائر في اللغة العربية يقولون: أنه يطلق الأجل على

العمل المعين ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ يعني: المدتين قضيت بالرعي، فالصواب أن يطلق المعنى على ظاهره ويقال: إنه ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ بالرعي ويكون بالرعي، لأنه معلوم، أم أن نقدر المحمول رعيًا؛ لأن هذا على سبيل التوسع والمجاز يكون مرعى وقوله: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ الأجلين هما عنده الآن ثمان سنين وهي مؤكدة وعشرة وهي نافذة من موسى ولهذا قال: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾، ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أيما الأجلين فلا عدوان قضيت به أي: فرغت منهم ﴿فَلَا﴾ القضاء بمعنى: الفراغ من الشيء ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] أي أتمهن وانتهى منهم وهذا معناه في اللغة العربية وأما في الاصطلاح فإن القضاء ما فعل بعد فواته عند الفقهاء، ولهذا يقولون: الرجل إذا صلى الصلاة بعد الوقت تسمى قضاءً والرجل إذا فاته بعض الصلاة مع الإمام وقام يكمل يسمونه قضاءً؛ لأن هذا يقولون: أنه يقرأ فيه سواء مع الفاتحة ويستفتح ويتعوذ كأنه الآن دخل في صلاة ولكن الصواب أن القضاء هو الإتمام والانتهاء من الشيء وكلمة ﴿قَضَيْتُ﴾ الصلاة يفسره قول الرسول ﷺ في رواية أخرى: «مَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(١).

قوله: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ لا نافية، نافية للجنس ولهذا ضم اسمها معان فقال: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ وما هو العدوان معناه: الذل والاعتداء يعني: فإذا قضيت هذه الأشياء فإنه لا عدوان عليَّ بذلك؛ لأنني أتممت العقد ومن أتم العقد فإنه لا اعتداء عليه لكن ما الذي تتصورون من العدوان في مثل هذا العقد؟ المؤلف يقول: [بطلب الزيادة عليه] وهذا صحيح أن يقول له المستأجر: هذا عدوان كذلك ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ في إلزامي بما يقتضي العقد كما لو طلب منه مثلًا أن يرعى الغنم ليلًا ونهارًا وكذلك لا عدوان عليه مما تركه بالأجرة فهو قال في الأجل: يتم العقد أما أن العدوان لا يختص بطلب الزيادة فقط؛ بل يتم لما يتصور مما ينفي العقد ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أنا وأنت ﴿وَكِيلٌ﴾ حفيظ أي: شهيد فتم العقد بذلك ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ الله مبتدأ، ووكيل خبره.

والوكالة معناها: الحفظ والشهادة، وقوله هنا: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ تقديمها على عاملها وهو وكيل المعروف أنها يفيد الحصر ومعلوم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ على كل شيء وكيل ما نقول فقط ولكنه حصر في هذا لزيادة الاهتمام به وإلا فلا شك أن الله وكيل على كل شيء ولكن كأنه يقول: لو لم يكن الله شهيدا على شيء لكان شاهدًا على ما نقول من العقد الذي جرى بيننا وفي هذا دليل على أن موسى ﷺ كان عارفًا بالله وعنده الفطرة وإلا ما كان وجه الآية؛ لأن قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٥) ومسلم (١٥٥/ ٦٠٣) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هذا إقرار بإيمانه بالله - سبحانه وتعالى - وبما له من صفات لكونه سبحانه وتعالى وكيلًا على كل شيء، ظاهر الحال هنا أنه ليس هناك شهود، ولذا فالله على ما نقول وكيل، ليس هناك شهود يثبتون هذا العقد فهل مثلًا يكفي ذلك في شرعنا بأن لو اتفق هو وشخص لنكتب: والله على ما نقول وكيل أو شهيد يكفي، ولهذا بعض الناس يحتج عليك ويقول :الله شاهد على هذا نقول: نعم الله شاهد ونِعْمَ الشاهد لكن يكون مع شهادته ما يدل على صدق ما قلته، نقول: نِعْمَ الشاهد؛ لأن شهادته فوق كل شيء ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ ولكننا نقول: أين الآية من الله - سبحانه وتعالى - التي تشهد بأنه حصل كذا وكذا يعني: إذا حصل مثلًا أن يؤتين بعض الزكوات يقولون للفقير: أنا والله ما عندي شيء، والله شاهد على ذلك، يقول: ألا تقبل الله؟ ما الجواب؟ أقبل الله، لكن هات آية تدل على أن الله شاهد بذلك، وإنما مجرد كلام فكل واحد يجعله شاهدًا.

قال: [فتم العقد بذلك وأمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصى يدفع بها السباع عن غنمه، وكانت عصى الأنبياء عنده فوقع في يدها عصى آدم] هذا من الإسرائيليات هل نأخذ من الآية أن موسى - عليه الصلاة والسلام - أخذ عصى؟ ما في الآية دليل على أنه أخذ عصى.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾.

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** نصح هذا الوالد لبناته؛ لأنها لما وصفته بالأمانة والقوة اختاره وهكذا ينبغي للإنسان أن يختار لبناته من يتصف بالقوة والأمانة ويستفاد من هذا جواز خطبة الزوج يعني أنك أنت تخطب زوجًا لابنتك مع أن العادة العكس لكن هذا جائز.

٢- **ويستفاد منها أيضًا:** جواز خطبة الإنسان الرجل لابنته.

٣- **ويستفاد من هذا أيضًا:** كرم هذا الرجل ووجهه أنه خير موسى بالبنتين قال اختر إحداهما وهذا من الكرم لأن في الحقيقة أن التخيير أوسع للإنسان وأطيب لنفسه حيث يختار ما يراه أنسب ولكن لو قال: إني أريد أن أنكحك هذه البنت فقد يكون الرجل لا رغبة له فيها أما إحدى ابنتي التخيير يدل على الكرم.

٤- **ويستفاد من ذلك:** جواز العقد على المبهمة إيجابًا لا قبولا يعني معناه أن يقول: زوجتك إحدى ابنتي ويقول: الزوج قبلت نكاح فلانة وهذه المسألة لها ثلاث صور: إما أن يحصل التعيين بالإيجاب والقبول يحصل التعيين في الإيجاب والقبول فيقول: زوجتك ابنتي فلانة فيقول: قبلت هذا تعين في الإيجاب وفي القبول فالإيجاب مثل أن يقول: زوجتك ابنتي عائشة والزوج قال: قبلت زواج هذه المرأة وإما أن يكون الإبهام في الإيجاب والقبول فلا يصح مثل أن يقول: زوجتك

إحدى ابنتي فيقول: قبلت نكاح إحداهما فهذا لا يجوز ولا ينعقد النكاح؛ لأننا لا ندري أيتهما التي انعقد نكاحها وإما أن يكون التعيين في الإيجاب دون القبول فيقول مثلًا: زوجتُك ابنتي عائشة، فيقول: الزوج قبلت نكاح إحدى بناتك، فما الحكم؟ لا يجوز، لا ينعقد، وقيل: الصورة الرابعة أن يقول: زوجتك إحدى بناتي، فيقول الزوج: قبِلتُ نكاح فلانة يسميها، وهنا الإبهام في الإيجاب والتعيين في القبول فهل هذا يصح أم لا يصح؟ المذهب لا يصح؛ يعني: لابد أن يكون التعين في الإيجاب والقبول ولكن الذي يظهر أنه يصح؛ لأنه لما قال: زوجتك إحدى بناتي وهو قال: قبلت عائشة هنا حصل التعيين أم لا؟ حصل لكن الموجب وهو الولي أراد أن يفتح له المجال في الاختيار فهذا الظاهر صحة العقد لاسيما إذا قال: زوجتك إحدى بناتي هؤلاء وعينهن إذا قبلت عائشة وهي من المعينات فهذا أيضًا أقرب إلى الصحة؛ لأنه هنا حصل التعيين بالإشارة ثم عين واحدة منهن بالقبول هل نقول: في القصة هذه دليل على هذه المسألة ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾ وموسى على كل حال يأخذ إحداهن مقابل؛ فهل في القصة دليل؟ لا لماذا؛ لأنه لم يعين قال: أريد أن أنكحك يعني: تتخير فربما يكون العقد قائمًا بعد ذلك عقد جديد وقد تقدم قبل قليل أن الإرادة لشيء غير فعل الشيء.

هل يستفاد من هذه الآية الكريمة: أن الأب يملك العقد على ابنته بدون رضاها؟ الآية ليس فيها دليل؛ إذ من الممكن أن يكون الأب قد استأذن منها قبل ذلك أو أنه فهم الرضي لكونها عرضت عليه ووصفته بالقوة والأمانة وعلى كل تقدير حتى لو فرضنا احتمال أنه لم يستأذن فإن شريعتنا وردت بخلاف ذلك أنه لا يجوز للإنسان أن يزوج ابنته بدون رضاها وأن العقد إذا زوَّج الرجل ابنتَه بدون رضاها يعتبر باطلا ليس بصحيح.

٥ - **ويستفاد من الآية الكريمة أيضًا:** جواز اشتراط الأب شيئًا من الصداق له، الأمر للأب ورأيها له وهنا يزوِّجه على أن يأجره ثماني حجج فيكون فيه دليل على أنه يجوز أن يشترط الأب مهر ابنته له وهذا فيه إشكال بالنسبة لشريعتنا؛ لأن الله يقول: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ﴾ [النساء: ٤] وقال: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وهاتان الآيتان تدلان على أن المهر للزوجة وهي التي تملك التصرف فيه والإعطاء وليس للأب حق في ذلك وهو الذي دلت عليه السنة أيضًا أن ما كان من شرط أو حباء قبل العقد فهو للزوجة وما كان بعده فأحق ما يكرم عليه المرء ابنته وأخته فالمهر الذي قبل العقد كله يجب أن يكون للزوجة وهذا القول هو الصحيح أن المهر للزوجة لا يشاركها فيه أحد؛ لأنه في مقابلة بضعها فيكون وليس للأب أن يشترط منه شيئًا لنفسه، نعم للأب إذا ملَّكته الزوجة أن يتملَّك منه؛ لأن الأب له أن يتملك من مال ولده ما لا يحتاجه و لا يضره؛ لقول

النبي ﷺ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»[(١)] فأما أن يشترط فيه شيئًا لنفسه فكلًا، فإن الشرع لا يجيزه، وهو أيضًا سبب للفساد وملاحقة الأب للمهر ويزوج من يشترط له أكثر، وإن لم يكن كُفئًا ويمنع من لا يشترط له، وإن كان كُفئًا فالمصلحة والشرع كلاهما يقتضي أنه لا يجوز للأب أن يشترط لنفسه شيئًا من المهر والأم والأخ، الآن في البادية - والعياذ بالله - على خلاف هذا؛ يشترط الأب شيئًا، والأم شيئًا، والأخ شيئًا، والمرضعة شيئًا، والكلب شيئًا، والحمار شيئًا، وهكذا ويبقى للمرأة مال من المهر مثل ما يكون للحمار والكلب، وهذا لا يجوز، هذاحرام، يجب أن يكون المهر كله للزوجة، وليس لأحد عليه سلطة إلا الأب وله سلطة عليه بعد ما تملكه، ويدخل في ملكها، فللأب أن يتملَّك من مال ولده ما لا يضره ولا يحتاجه.

هذه الآية استدل بها بعض العلماء على أنه يجوز للإنسان أن يشترط من مهر ابنته شيئًا: المهر كله أو بعضه نقول لهم: لا يصح؛ هذا لأن شرعنا ورد بخلافه استدل به بعض العلماء أيضًا على أنه يجوز أن يكون المهر منفعة تستحلها الزوجة من زوجها يعني: أن يكون يعمل بها بناء يبني لها بيتًا يأتي لها بشيء غائب والاستدلال واضح؛ لأن رعي الغنم منفعة عنه؛ إذ لو لم يرعها موسى لم يقم برعيها لاستمر في الرعي هاتان البنتان فهو في الحقيقة منفعة لها ثم إن شرعها ورد بوافقه قال النبي - عليه الصلاة والسلام للرجل الذي لم يجد عنده شيئًا: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»[(٢)].

وهذا منفعة ولكن لو اشترطت عليه أن يخدمها أن يكون مهرها خدمتها مثل: امرأة عجوز كبيرة خطبها رجلٌ ليس عنده مال أو عنده مال وقالت: المهر أنك تخدمني تحملني مثلًا أتوضأ وكذلك أيضًا تقدم حذائي وتغسل ثوبي وما أشبه ذلك يجوز أم لا يجوز؟ فيه خلاف بين أهل العلم منهم من يقول: إنه لا يجوز؛ لأن مقام الزوج أن يكون أعلى من مقام الزوجة فإن الزوج سيد كما قال الله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ والزوج رجل فهو قوام على المرأة ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ والمرأة أسيرة عند الزوج «اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ»[(٣)] وإذا قلنا: إنه يجوز أن يكون المهر خدمتها انعكست القضية صار الأعلى هو الأسفل فلا يجوز ولكن مذهب جواز ذلك؛ لأنها منفعة وكما يجوز أن تتزوجه على أن يبني بيتها ويرعى غنمها فكذلك أن يقوم بخدمتها والتأويل هذا لا يمنع أن يكون زوجها يخدمها بما يجب عليه وتخدمه بما يجب عليها فتكون خادمة مخدومة كحرف الجر يعمل فيه الفعل وهو يجر الاسم هو عامل معمول المهم - الحمد لله - أن الشرع يخالف هذا.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٢٩١) من حديث جابر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣١٠) ومسلم (٧٦/ ١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (١١٦٣) من حديث عمرو بن الأحوص رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

٦- **ويستفاد من هذه الآية:** أنه يجوز أن يجعل الإنسان العمل عملين عملًا واجبًا وعملًا تبرعًا يجوز يعني يقول: أنا استأذن منك هذه السيارة عشر سنوات واثني عشر سنة من عندي يجوز من بعض الوجوه أن يقول القائل لشخص: خذ هذا الشيء فبعه بمائة فما زاد فلك فإن هذا جائز الشرط أن يكون عند كل من الطرفين معرفة بالسعر لئلَّا ينخدع أحدهما احتمال أن يكون واحد عنده حاجة يبيعها وجاء إلى الدلال وقال: خذ هذه الحاجة بعها بمائة وما زاد فهو لك يجوز؟ نقول: نعم جائز يبيعها بمائة، وعشرون يأخذ العشرين بمائة، وخمسة يأخذ الخمسة، بمائة وعشرة يأخذ العشرة، ولكن يشترط في هذا أن يكون لدى كل من الوكيل والموكل علم بالسعر لئلَّا ينخدع أحدهما ـ سعر هذه السلعة ـ تعرف أنها تساوي المائة قد تزيد قليلًا وقد تنقص قليلًا أما هي ما تساوي يقول: بِعْه بمائة ثم يبيعها بأربع مئة مثلًا تساوي أربع مئة يقول: ما أدري أو يكون مثلًا يعرف أن سعرها ما تساوي خمسين والوكيل ما يدري من الذي يغتر هنا؟ الوكيل، وفي المسألة الأولى الموكل، المهم أن صار السعر معروفًا إما قيمتها من المائة إما أن تزيد قليلًا أو تنقص قليلًا يعرفون هذا لكن إذا قُدِّر أن الوكيل ما يدري عن السعر والموكل يدري أن هذه السلعة لا يمكن أن تصل إلى المائة، فأعطاه أكثر من المائة فأخذها في الحرج عليها وباعها ما بيعت إلا بثمن تسعين مثلًا يكون في هذا الوكيل وبالعكس إذا كان الموكل لا يعرف ما هي القيمة وقالها البائع: أنت تبيع لي هذه وما يزيد عن المائة لك، فوافق على هذا فنقول: لا يجوز؛ لأن فيه تغريرًا بالموكل.

٧- **ويستفاد من هذه الآية:** حسن معاملة صاحب مدين من وجهين أولًا: أنه فتح له في الأجل حيث قال: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ وثانيًا: أنه وعده بالتيسير في المعاملة حيث قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ فهذان دليلان على أنه سَمْحًا في معاملته.

٨- **ويستفاد من قوله:** ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنه لا ينبغي للمرء أن يعزم على فعل الشيء إلا مقرونًا بالمشيئة لقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نهى نبيه أن يعزم على فعل الشيء بدون قرنه بالمشيئة فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] والقرن بالمشيئة فيه فائدتان: الفائدة الأولى: تفويض المرء الأمر إلى الله وهذا هو تحقيق التوكل، والثانية: تيسير الأمر له، ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في قصة سليمان: «لَو قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ»[1] هذا إذا كان الإنسان يريد أن يخبر عن الفعل، أما إذا كان يريد التعبير عن عزيمته على الفعل فلا يلزم قوله: إن شاء الله لكن يخبر عن العزيمة يقول: سأفعل غدًا يعني: هذه نية العزيمة فإنه لا يلزمه القرن بالمشيئة؛ لأن العزيمة حاصلة فقد شاءها الله وإذا كانت حاصلة وقد شاءها الله ما حاجة أن يقول: إن شاء الله؛ لأن الله شاءها ففرق بين أن يقول الإنسان سأزورك غدًا وهو يريد

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٣٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

وقوع الفعل وبين أن يقول سأزورك غدا وهو يريد أن يخبر عن ما في قلبه من النية والعزيمة ما هو الفرق؟ الفرق في الأولى لابد أن يقول: إن شاء الله وفي الثانية لا يحتاج أن يقول إن شاء الله والفرق بينهما أن العزيمة أمر واقع وأما الفعل فأمر مستقبل قد يقع وقد لا يقع.

٩ـ ويستفاد من قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أن صاحب مدين مؤمن؛ لأن مثل هذه الصيغة لا تأتي إلا من مؤمن ملتزم بالشريعة ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١٠ـ ويستفاد منها: أن الصلاح في كل موضع بِحَسَبِه ففي العبادة القيام بما يجب من الإخلاص والمتابعة لله وترك المنهيات وإتيان المأمورات والصلاح في المعاملة والوفاء بما يقتضيه العقد هذا الصلاح في المعاملة هنا ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي الأمرين أليق؛ صلاح العبادة أم صلاح المعاملة؟ المعاملة؛ لأن المسألة جاءت تعقيبًا على عقد قال الله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

١١ـ يستفاد من هذه الآية: أن العقود ليس لها صيغ معينة فتنعقد بما دل عليها وكذلك الفسوخ وكذلك الولايات كل التصرفات من عقود وفسوخ وولايات فإنها تنعقد بما دل عليها فإنها تصح بما دل عليها ولا يشترط لها لفظ معين بل تجرى على ما يتعرفه الناس بينهم حتى عقد النكاح على القول الراجح ما يشترط له صيغة معينة يقول: زوجتك، لو قال زوجتك أو أنكحتك ملكتك زوجتك عقد لك على ابنتي كل هذا ينعقد به النكاح ما دام الأمر معروف في عرف الناس إن هذه الكلمة تدل على هذا العقد.

وما أشبه ذلك مثله ينعقد بما دل عليه فإذا كان الأمر محتملًا لأن يدل على العقد أو لا يدل حينئذٍ نرجع إلى اللفظ اللغوي؛ لأنه إذا لم يكن هناك عرف رجعنا إلى الحقيقة اللغوية كما ذكره في الأيمان وغيره فإذا كان هذا اللفظ قال الناس أحد يريد بهذا وأحد لا يريد نرجع إلى مقتضاه في اللغة العربية ما لم يكن بين المتعاقدين نية مسبقة؛ لأنهما يريدان هذا العقد إذا كان بينهم نية معروفة واتفقا عليها عمل بها، الفقهاء رحمهم الله استثنوا بعض العقود وجعلوا لها صيغًا معينة للنكاح قالوا: ما ينعقد إلا بلفظ زوجتك أو أنكحتك فلما قيل لهم: إن النبي ﷺ تزوج صفية وجعل عتقها صداقها قال: «**أَعْتَقْتُكِ وَجَعَلْتُ عِتْقَكِ صَدَاقِكِ**»[1] قالوا: هذه المسألة تستثنى فيقال لهم: ما الدليل على الاستثناء؟ قالوا: هذه المسألة تدل على أن النكاح ينعقد بما دل عليه.

وتؤخذ من هذه الآية: أن العقود تنعقد بما دل عليها من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ ما قال: قبلت النكاح وما قال: قبلت الإجارة ولا شيء ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٨٦) ومسلم (٨٥/ ١٣٦٥) من حديث أنس ﷺ بلفظ: أن النبي أعتق صفية وجعل عتقها صداقها.

١٢- ويستفاد من الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أن العقود عهود في الحقيقة وهو كذلك لأن كل إنسان يعقد مع شخص فقد التزم أن لا يخونه والتزم أن يفي له بمقتضى هذا العقد فيكون بذلك عهدًا، في سورة الإسراء يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الأنعام: ١٥٢] الولاية على وكيل نوع من العقد وجعله الله تعالى عهدًا فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

١٣- ويستفاد من الآية الكريمة: أن موسى ﷺ وجد ما جعله هو صاحب مدين من اختيار أحد الأجلين حينما قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ فبقي العقد مفتوحًا يعني: إن أتممت العشر لا تلُمْني تقول: اذهب عني ما تعتدي علي بإخراجي من بيتك وترجع عن عملك إن أردت العشرة وإن أتممت الثمانية لا تلُمْني وتقول: هذا الرجل ما وفَّى لي وهذا معنى قوله: ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ يعني لا اعتداء علي إن أتممت وإن اقتصرت على الثماني لا تقُل: هذا الرجل لم يفِ لي، تتكلم بين الناس فلا تعتدِ علي وهذا في الحقيقة يتوجه؛ لأنه ربما يسأل سائل يقول: كيف يقول: أيما الأجلين فلا عدوان عليَّ؟ هو يسأل أعليه عدوان والرجل يفي بما عهد عليه؟ نقول: ربما يكون عدوان بمعنى أنه إذا أراد إتمام العشر يقول له ويمنعه أو أنه اقتصر على الثماني يبدأ يتكلم به في المجالس والمؤلف يقول: فلا عدوان علي بطلب الزيادة علي وهذا يتقدم أنه غير صحيح؛ لأن أصل طلب الزيادة غير واضح.

١٤- ويستفاد من الآية الكريمة: أن الله - سبحانه وتعالى - حفيظ على كل أحد لقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ويستفاد منه جواز تخصيص العموم لغرض يعني جواز تعليق الشيء العام لأمر خاص لغرض تؤخذ من قوله: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فإن هذا يقتضي التخصيص في وكالة الله - سبحانه وتعالى - بما قاله فقط ولكن الأمر ليس كذلك إنما خصص هذا لغرض العناية به هل يستفاد منه جواز إشهاد الله على العقد والاقتصار عليه؟ هو في الحقيقة شرعًا ما يكتفي به لكن باطن فيما بينهم وبين الله يكتفى به وفائدة ذلك إذا أشهد الله وجعله الوكيل الحفيظ المراقب فائدته كأنه يقول: ينتقم الله تعالى ممن انتقض العهد ويكون هذا فيه قربة عظيمة للعقوبة عند نقض هذا العقد، إنك إذا جعلت الله شاهدًا ثم خونت فهذه استهانة بالله مثل ما جعلت واحدًا من المخلوقين شاهدًا ثم خونت فهذا استهانة بشهادته وبحد الله، لكن استشهاده أعظم والتزام الإنسان بمقتضى هذه الشهادة يكون أعظم ويكون فيه توكيد للعقد يقول: الله شاهد علينا لم يشهد أحد لكن الآن إذا قال أحد أن الله هو الشاهد إذا وافق هذا يكون أبلغ بالتأكيد؛ لأن مخالفته عرضة للعقوبة ولهذا قيل: ما من أحدٍ يحلف بالله كاذبًا إلا أصيب، كل إنسان يحلف بالله كاذبًا في الخصومة فإنه يصاب في الدنيا قبل الآخرة، في الآخرة إصابته واضحة، وهو أن يلقى الله وهو عليه غضبان لكن الغالب أنه - سبحانه - يعجل له العقوبة في الدنيا والقصص على هذا كثيرة،

حدثني إنسان أنه كان بينه وبين شخص خصومة تخاصما عند القاضي وأنكر حقه وحلف المدعى عليه لكنه في اليوم التالي خرج هو وعائلته إلى الرياض فحصل لهم حادث وماتت العائلة كلها ما بقي لهم أحد، وهذا واضح عقوبة معجلة - والعياذ بالله.



❁ قال الله تعالى:

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ [القصص: ٢٩-٣١]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ (ال) هذه للعهد يعني: الأجل الذي بينه وبين صاحب مدين فقد علمنا أن بينهما أجلين أجلًا واجبًا، وهو ثمان سنوات وأجلًا تبرعًا من موسى وهو عشر سنوات فأيما الأجلين قضى هل هو الواجب أو التبرع؟ يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ وهو ثمان أو عشر سنين وهو المظنون به] الضمير في قوله: [وهو المظنون به] يعود على العشرة يعني: الذي يظن بموسى أنه أتم عشرًا ولكن الآية محتملة فترجيح العشرة بناءً على المعلوم من حال موسى ﷺ من الكرم والوفاء وترجيح أنه ثماني؛ لأنه هو الواجب عليه وموسى كان في اشتياق إلى بلده مصر وهو قد قال في ما سبق معتذرًا: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ وهذه الجملة قد تشير إلى أنه يريد أن يقتصر على الأجل الواجب وإلا فمن المعلوم أنه إذا قضى الأجل التطوع فإنه لا أحد يلومه أو يعتب عليه فلكل منهم وجه وموقفنا نحن من هذه القصة أن نبهم ما أبهمه الله - سبحانه وتعالى - فنقول: قضى الأجل والله أعلم أي الأجلين قُضِي.

وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ السير معناه المشي سار بأهله من عند صاحب مدين وأهله يقول زوجته بإذن أبيها نحو مصر ثم يقول: [زوجته] فهذا صحيح أن المراد أن الزوجة تسمى أهل وأما

قوله: بإذن أبيها فهذا لا دليل عليه ولا يحتاج إلى الزوج إذا أراد أن يسافر بزوجته إلى إذن أبيها؛ لأنه إذا تزوج المرأة صارت ملكًا له يسير بها حيث شاء اللهم إلا إذا سار بها إلى أمر لا يجوز شرعًا فلها أن تمتنع ولأبيها أيضًا أن يمنعه وإلا فالحق له، لو شرط عليه أن لا يسافر بها يلزمه الوفاء؟ إذ يلزمه الوفاء ولكن لو أذنت وأبى أبوها وقد شرط عليه فهل الحق لها فتسافر أو لأبيها الحق؟ الحق لها ؛لأن هذا يتعلق بها شخصيا وقد ترى أن من الأفضل لها أن تسافر مع زوجها.

وقوله: ﴿ءَانَسَ﴾ أبصر من بعيد أصل آنس مشتقة من الأنس وهو زوال الوحشة ولكنها تأتي بمعنى الإبصار بالشيء؛ لأنك إذا أبصرت الشيء وعرفته زال عنك ما تخشاه فمعنى أنس أبصر ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ بالضم جبل وجانب ما معناه: جهة. يعني من جهة الطور آنس ﴿نَارًا﴾ وهذه النار ليست نارًا حقيقية ولكنها نور تشبه النار لما أبصر هذه النار وكان الزمن زمن شتاء والظاهر والله أعلم أن الليلة كانت في غيمة وأن موسى - عليه الصلاة والسلام - عنده نوع من الاشتباه في الطريق كما تدل عليه القصة ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ قال: لأهله امكثوا أقر المؤلف قبل قليل أن المراد بأهله الزوجة وهنا قال لأهله امكثوا وامكثوا خطاب لجماعة؛ لأنه لو قال لواحد لقال: أُمكُثي فهو لجماعة فما هو المخرج من هذا الإشكال إذا قلنا: أن الأهل هي الزوجة فقط قال بعض المفسرين: إنه اصطحب معه خادمًا وقال بعضهم أيضًا: إنه ولد له منها بناءً على أنها سلمت له من أول العقد وبقت معه ثماني أو عشر سنين فولدت فعلى هذا يكون الخطاب امكثوا الجماعة مطابقًا للواقع؛ لأن معه زوجة وخادمًا وولدًا؛ لأنهم جماعة، وهذا ليس ببعيد؛ لأنه قد جاء في العادة أن الإنسان إذا سافر لاسيما في هذا الحال أن يصطحب معه من يخدمه.

وقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ لعل هنا للترجّي؛ لأنه يتمنى أن يحصل له هذا الأمر ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ آتي هنا فعل ماض أم فعل مضارع؟ فعل مضارع آتيكم وأصلها أأتيكم بمعنى: أجِئكم، آتي اسم فاعل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ﴾ فهنا أتي لا تصلح اسم فاعل؛ لأنه هنا يريد الفعل لا أن يبين أن المتصل بالإتيان يريد الفعل، والدليل أنك لو حولتها إلى معناها لقلت: لعلي أجِئكم، فأجِئكم واضح أنها فعل مضارع فليس هنا اسم فاعل.

وقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي: من هذه النار ومعلوم أن النار نفسها لا تعطي خبرًا ولكن المراد من عندها؛ لأن النار عادةً لا تشتعل إلا وعندها أُناس، وقوله: ﴿بِخَبَرٍ﴾ المؤلف يقول: [عن الطريق وكان قد أخطأها] وهذا ممكن أن يكون وممكن أن يكون أعم من الطريق وعمّا بقي من مسافة وعن كل شيء خبر نكرة وقوله: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يقول: بتثليث الجيم «بجِذوة، وبجَذوة، وبجُذوة» وإذا قالوا: مثلث أو بتثليث فمعناه: أنها تجوز فيها الحركات الثلاث أما إذا

قالوا: بها مثلثة هذه غير المثلث ولماذا المثلثة؟ الثاء يعني: عليها ثلاث نقاط، فإذا جاء بالمثلثة يعني: بالثاء يعني: لا بالتاء، وإذا قيل: بتثليث كذا، فالمعنى: يجوز فيه الحركات الثلاثة ما هي الجذوة؟ قال: هي قطعة أو شعلة يعني معناه يأتي بعود في طرفه نار مشتعلة هذه جذوة.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ لعل هذه للتعليل أو لأجل أن تصطلوا؟ مر علينا أن لعل لها عدة معاني: الترجي والإشفاق والتوقع والتعليل، هذه معاني لعلَّ، قال: [﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون]؛ لأن الصَّلْي معناه: الاحتماء بالنار فالاصطلاء إذن معناه الاحتماء بها وهو الاستدفاء وهذا دليل على أنهم كانوا في برد، والطاء بدل من تاء الافتعال هذه علة تصريفية وما هي تاء الافتعال؟ التي تدل على فعل الشيء اصطلى أصلها ا صتلى وتصطلون أصلها تصتلون مثل تبتغون ولكن القاعدة التصريفية في اللغة العربية أنه إذا وقعت تاء الافتعال بعد الصاد تقلب طاء ويقال اصطلى بدل اصتلى ويقال: تصطلون بدل تصتلون وهي مأخوذة من صلي النار بكسر اللام وفتحها صلى النار إذن من صلي كرضي أو من صلى كرمى ففيها لغتان في القرآن الكريم ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥] من أي البابين من رضي يرضى، أو رمى يرمي من رضي، لو كانت من رمى لكان لا يصلِها كما يقال: لا يرمِها إذن فالقرآن يدل على ما قدَّره المؤلف من أنها بكسر اللام أفصح ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢] يصلى ولم يصلِ.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ﴾ لما أتاها يعني: جاء إلى النار ووصل إليها] ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، ﴿نُودِىَ﴾ النداء هو دعاء الشخص بصوت مرتفع، والمناجاة: المسامرة بصوت منخفض وقد قال الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] فموسى نودي من بعد ثم قرب فنُوجي، وقوله: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ كلمة نودي مبنية للفاعل أم للمفعول فمن الذي ناداه؟ الله كما في آية أخرى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦] فهنا حذف الفاعل للعلم به؛ لأنه معلوم أن الذي ناداه هو الله بدليل ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقوله: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ﴾ شاطئ الشيء: جانبه ومنه شاطئ النهر، شاطئ النهر يعني: جانب النهر، وقوله: ﴿ٱلْوَادِ﴾ مجرى الماء يعني مجري الشيء يسمى واديًا؛ لأنه فيه جمع والودي الجمع فعليه يكون مجري الشيء واديًا وقوله: ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ كلمة الأيمن صفة للشاطئ؟ الدليل أن الوادي له شاطئان لكن ما عندنا واديان أحدهم أيمن والثاني أيسر ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ فإن كلمة الأيمن صفة لشاطئ أو من الشاطئ الأيمن يقول المؤلف: لموسى معلوم؛ لأنه المنادى هو أمام الوادي أو هو في نفس الوادي الأيمن منه هو الذي على يمين موسى ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ لموسى في البقعة، وما في البقعة؟ أرض، أصل البقعة: الشيء المتميز عن غيره،

ومنها: بقع الماء في الثوب، فالبقع معناه: الجانب من الأرض الذي له مَيزةٌ عن غيره من أشجار، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ أي التي باركها الله ـ سبحانه وتعالى ـ والبركة كما مر علينا هي الخير الكثير الثابت؛ لأنه مشتق من بركة الماء وبركة الماء تكون مجمع له مع ثبوته فيها، والبركة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وليس شيء مبارك لشخصه بل لما أنزل الله فيه من البركة وقد مر علينا بحث في كون الإنسان يتبرك به يعني: مثلًا زرنا نتبرك بفلان؛ فهل هذا صحيح أم لا؟ إن كان المراد البركة الشخصية فهذا ليس بصحيح إلا للنبي ﷺ وإن كان المراد بالبركة ما يحصل منه من منافع علمية أو مالية فإن هذا صحيح فإن بعض الناس قد يكون مجلسه مبارك ينفع الحاضرين إما في الذكر وإما في العلم وإما بالمال وإما بالآداب والأخلاق هذه بركة لا شك وبعض الناس يكون مشئوم على جليسه كما أن من الناس أيضًا من يكون مفتاحًا للخير ومغلاقًا للشر ومنهم من يكون العكس.

وقوله: ﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ قيدها المؤلف قيدًا حسنًا مباركة لموسى فهي مباركة في ذلك الوقت بالنسبة لموسى أما بعد ذلك فليس لها صبغة دينية وليست مقدسة بعد ذلك؛ لأن هذا خاص في وقت تكليم موسى ومنه أيضًا غار حراء بالنسبة لرسول ﷺ مبارك لرسول الله حين نزول الوحي عليه فيه أما بعد ذلك فليس له صبغة دينية، ولهذا من البدعة أن الإنسان يذهب إلى غار حراء ليزوره متعبدًا وكذلك غار ثور أما إذا كان يزوره إطلاعًا فقط فإن هذا لا بأس به ولا حرج؛ لأنه لا يريد التعبد ومنه أن هذه الأماكن التي لا يثبت لها قدسية عامة تكون قدسيتها خاصة متى؟ في حينها فقط، ولمن هي؟ له أيضًا وأما لغيره فلا يكون لها هذا الحكم.

ومن أحسن ما مشى عليه المؤلف تقريره هنا لموسى لسماعه كلام الله فيها ولا شك أن الاستماع إلى كلام الله ـ عز وجل ـ لا يشبهه أي استماع؛ لأن الإنسان يجد فيه من لذة المناجاة ما لا يجده في مناجاة أي أحد لأنه أحبُّ شيء إلى الإنسان، ومعلوم أن الإنسان إذا خاطب محبوبه صار أشد تلذذًا بكلامه معه مع أن كلام الله لا يشبه كلامًا لسماعه كلام الله فيها وكلام الله سميعه من الله أم من الشجرة؟ سميعه من الله حين تكلم به وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة وخالف في ذلك الأشاعرة فقالوا: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس وأن ما يسمع مخلوق خلقه الله ـ عز وجل ـ ليعبر به عن ما في نفسه وعلى هذا فيكون موسى ما سمع كلام الله إنما سمع عبارة عن كلام الله، وخالف في ذلك أيضًا المعتزلة والجهمية وقالوا: إن كلام الله مخلوق يخلق سبحانه وتعالى فيما أراد إما في جبريل وإما في الشجرة وإما في الأرض فتسمع هذه الأصوات فيُنسَب إلى كلام الله فينسب الكلام إلى الله من باب التشهير والخلق والتكوين وعندما نمحص الأمر نجد أنه لا فرق بين الأشاعرة والمعتزلة في هذا الباب والسبب أن الكل متفقون على أن ما يسمع فهو مخلوق فليس هو

كلام الله وفي الحقيقة لا فرق بينهما لكن الأشاعرة تلطفوا في الأمر وقالوا: إن الكلام معنى قائم في النفس يعبر عنه بالأصوات وهذا أكبر المتكلم يطلق ما يدل عليه ولا ريب أن مذهب أهل السنة والجماعة هو المذهب الصحيح الموافق للعقل والنقل يقولون: إن كلام الله يسمع من الله وأنه أي كلام الله بحرف وصوت أما الحرف فهو ما يتكلم - تبارك وتعالى - من ما يستعمله الناس في نطقهم وأما الصوت لا يشبه أصوات المخلوقين وهو - سبحانه وتعالى - إذا تكلم بالوحي صرخت الملائكة وارتجفت السماوات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

قال: [﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل من شاطئ لإعادة الجر لنباتها فيه] ﴿مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هنا تخصيص بعد تعميم أو بعد تخصيص هنا عندنا الآن تخصيص بالنسبة لجانب الشاطئ وما التخصيص فيه؟ أنه الأيمن وفيه أيضًا تخصيص آخر بالنسبة للشاطئ وهو أنه من الشجرة وهو من الشجرة أو من ناحيتها وليس أن النداء من الشجرة المعتزلة يقولون: أن النداء من الشجرة وأن الشجرة خُلِقَ فيها صوتٌ سمعه موسى على أنه كلام الله ولكن المراد من الشجرة أنه من ناحيتها وجهتها بدليل: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ هل يمكن أن تقوله الشجرة؟ لا يمكن أن تقوله، ولو قالت الشجرة: إني أنا الله رب العالمين لقال لها موسى: كذبتي ولكن الذي يقول ذلك هو الله سبحانه وتعالى، وقوله: [لنباتها فيه] وهي شجرة رمان أو عوسج أو هذا لتنويع الخلاف ولكن لا يهمنا نحن أن تكون هذا أو هذا، المهم أنها شجرة نودي منها - عليه الصلاة والسلام - والنداء أن مفسرة لا مخففة ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أن مفسرة والمفسرة هي التي بمعنى أي، وهي التي تأتي مفسرة لما فيه معنى القول دون حروفه ولماذا بما فيها دون حرفيه؟ يعني: الكلمة فيها معنى القول لا حروف القول، النداء فيه معنى القول أم حروفه؟ معناه ما فيه قيل له بل فيها نون فتكون مفسرة ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ أن هذه مفسرة أم مخففة؟ مفسرة؛ لأنها أتت بما فيه معنى القول وهو الإيحاء دون حروف القول يعني مثلًا لو قال له: قيل له أن يا موسى ما تكون في معنى المفسرة؛ لأن فيها حروف القول لكن نودي تكون الآن مفسرة؛ لأن فيها معنى القول ولهذا سميناها مفسرة؛ لأنها فسرة النداء بالقول؛ لأن مكتوبها أن يا موسى أني أنا الله مفهومها قول يا موسى إني أنا الله هذا قول ولهذا يقول: أن هذه مفسرة؛ لأنها فسره معنى الفعل المتضمن القول دون حروف القول وقوله: لا مخففة، مخففة من الثقيلة فلا تصح أن تكون مخففة لأنه ينطبق عليها معنى التفسيرية وأيضًا المخففة تحتاج إلى تقدير الذي يقدر الاسم والأصل عدم التقدير وقول المؤلف: [إنها مُخَفَّفة] أشار إلى نفيه؛ لأن بعض المعربين يقولون: إنها مخففة.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ يعني: الذي يخاطبك

﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ فبدأ بالألوهية؛ لأنها هي المقصود وقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثنَّى بالربوبية؛ لأن الربوبية في الحقيقة وسيلة إلى الألوهية، ولهذا من أقرَّ بالربوبية لازمه أن يُقِرَّ بالألوهية وإلا كان متناقضًا، والله تعالى يحتج على المشركين بالألوهية يحتج عليهم دائمًا بإقرارهم بالربوبية؛ لأن من أقر أن الله ربه فإنه يقال: له إذن يجب أن تعبد هذا الرب إذا عبدت معه غيره فإنك لم تصدق في إقرارك بربوبيته فهما متلازمان، فلهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فجل الخلق الذي هو من مقتضى الربوبية جعله دليلًا ملزمًا لعبادته ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ أنا ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة وهذا ما يعني لو قال: إني الله ما اشتبه الأمر فالظاهر لي أنها مبتدأ إني أي المتكلم أنا الله كما قال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ فهي مبتدأ والله خبره وجملة المبتدأ والخبر في محل رفع خبر إن وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبر ثانٍ لأنا و﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ما معنى الرب؟ الرب هو الخالق المالك المدبر لجميع الأشياء وقوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المراد به: من سوى الله وجمعهم باعتبار أصنافهم والذي في العالم كله من سوى الله فهو عالم لكن جمعوا عالمين؛ لأن هناك مثلًا عالم الإنس، عالم الجن، عالم البهائم، عالم الملائكة؛ أي: جُمِعوا باعتبار أجناسهم وهذه الربوبية عامة، وقد مر علينا أن الربوبية تنقسم إلى عامة وخاصة كما أن العبودية تنقسم إلى عامة وخاصة وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧ - ٤٨]، قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه العامة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ هذه الخاصة.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ هذه معطوفة على قوله: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ نودي أن يا موسى يعني ونودي أيضًا أن ألقي عصاك على الأرض هي عصاك لماذا استصحبها؟ ماذا قال: ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ مأرب أخري ما ذكرها ما هي المأرب؟ إذا يدافع بها عن نفسه لكن جانب المصالح قال أتوكئ عليها وأهش بها على غنمي وأما جانب دفع المفاسد فأجمله في قوله: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ وهذا في الحقيقة من الأدب في النطق وتجدون أن صفات الله - سبحانه وتعالى - في مقام الإثبات يؤتي بها بالتفصيل وفي مقام النفي يؤتي بها بالإجمال غالبًا قال: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك كأنها جان [وهي الحية الصغيرة] من سرعة حركتها على وجه التشبيه ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هاربًا منها قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾ أبصرها وعلى هذا فيقينه في جملة ﴿تَهْتَزُّ﴾ في موضع نصب حال الحال وليست مفعولًا ثانيًا؛ يعني: رؤية البصرية ما تنصب إلا مفعول واحد ولجواب لما فلما رآها تهتزُّ ولَّى مُدبِرًا، وقوله: تهتز يقول: [تتحرك] لكن الاهتزاز نوع من الاضطراب وتعرفون الحية تتحرك يمينًا ويسارًا.

وقوله: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ هذا للتشبيه يعني كأنها في هيئتها وفي حركتها يعني: في ذاتها وفي حركتها

جان قال: [وهي الحية الصغيرة] هذا هو الجان ووجه المشابهة الحركة وسرعة الحركة ولكن المؤلف فسر الجان بأنها الحية الصغيرة والله تعالى يقول في آية أخرى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[الأعراف:١٠٧] ثعبان الذكر من الحية الكبيرة فما الجمع بينهما؟ قال: إن الجمع بينهما أن أول ما ألقاها صارت كالجان ثم بعد ذلك تضخمت حتى كانت ثعبانًا مبينًا.

﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هاربًا منها ومدبرًا هذه حال ويسمونها حالًا مؤكدة؛ لأن التولي معناه الإدبار فهي حال مؤكدة لعاملها؛ إذ أن معنى الإدبار مفهوم من قوله: ﴿وَلَّىٰ﴾ ولكنها جاءت لتأكيد وقوله: ﴿مُدْبِرًا﴾ يعني: ولَّاها دُبُرَهُ، ولهذا قال المؤلف: [هاربًا] لأن الهارب ما يمشي إلى جنب وإنما يمشي على العكس عندما تهرب أولًا عندما تنصرف عن الشيء لكن إذا كنت هاربًا حيث تولي جنبك وتمشي باتجاه جانب، أو باتجاه مُعاكِس، ولهذا قال: [ولم يعقب أن يرجع؛ لأنه انصرف] ولكن الله يقول: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ فنودي: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ ولهذا ينبغي أن نقِف على قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ لأننا لو وصلنا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ﴾ لظنَّ الظانُّ أن الكلام واحد، ولكن الكلام انفصل ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أقبل في مقابل التولي ولا تخف مقابل الهرب؛ لأن الهارب يكون خائف ثم طمئنه بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ تأكيدًا لقوله: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾؛ لأن الآمِن لا يخاف، وإنما يخاف من ليس عنده أمن، وهنا قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ولم يقل: إنك آمِن؛ بل قال: من الآمنين فما وجه البلاغة في هذا؟ مراعاة الفواصل لكن هذا مناسبة لفظية، ليتذكر أن هناك آمِنِيْن فإنه لا غرابة أن تأمن؛ لأن الإنسان إذا ذكر بما حدث لغيره صار أشد طمأنينة في حصول ذلك الشيء ونظيره بالعكس قول فرعون: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] ولم يقل: لأسجننك لأجل أن يرهبه بأن عنده من هو مسجون وأنه ليس يعجزنا أن نسجنك والحاصل أن مثل هذا يقال لأجل أن يتذكر موسى -عليه الصلاة والسلام- أن هناك أناسًا آمنين فيأمن أكثر منها[1].



قال الله تعالى:

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا

(١) الآياتان (٣٢، ٣٣) تعذر سماعهما.

جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٤-٣٦]

التفسير

قوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ هل ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل، أو ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، و﴿أَفْصَحُ﴾ خبر؟ الأخير هو الأوجه؛ لأن ضمير الفصل لا يكون إلا إذا كان المبتدأ والخبر معرفتين؛ لأنه في هذه الحال يلتبس الخبر بالاسم، أما إذا كان الخبر نكرة - كما هنا -، فإنه يُجعَل مبتدأ.

قال: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ﴾ أخوه من أمه وأبيه، وأما قوله تعالى: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ [طه: ٩٤]، فإنهم ذكروا أنه نسبةً إلى أمه؛ لأنها أشفق من الأب، فذكَّره بأمه لكونها أشفق ليُشفِق عليه.

قال: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ أفصح بمعنى: أبْيَن مني، وقوله: ﴿لِسَانًا﴾ أي: كلامًا، وعبَّر باللسان عن الكلام؛ لأنه آلة الكلام، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] أي: بنطقهم ولغتهم.

وقوله: ﴿أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ لماذا؟ قيل في الإسرائيليات: إن موسى عليه الصلاة والسلام كان في لسانه لثغةٌ من جمرة أخذها وأكلها، فرعون أراد أن يقتله، فقالت امرأته: إنه طفل لا يدري ولا يعرف، فإذا أردت أن تختبره فأعطِه تمرة وجمرة، فقدَّم إليه التمرة والجمرة، الجمرة رؤيتها أجمل من التمرة، فأخذ الجمرة ووضعها في فمه، فانعقد لسانه، وهذه إسرائيلية إسرائيلية؛ لأن هذا غير ممكن؛ لأنه إذا أراد أن يأكلها وأخذها ما يستطيع أن يضعها في فمه، ولكن هذا من الخِلقة التي خلق الله موسى عليها، ولهذا طلب موسى من الله أن يحُلَّ هذه العُقدة، قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧- ٢٨]، وبعض الناس يكون في لسانه فأفأة، وبعضهم يكون في لسانه تأتأة، وبعضهم ما يكون فيه هذا ولا هذا ولكن ما يستطيع أن ينطق؛ تراه قد عُقِد لسانه في صفة الحروف أو في النطق بالحرف، كل هذه من العُقَد، وصفة الحروف أنه ما يستطيع أن يُخرِجه على الوجه الأكمل.

فالصواب: أن هذه العُقْدة التي بموسى عليه الصلاة والسلام أنها من أصل الخِلْقة، وليس هناك جمرة ولا شيء.

قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ [مُعينًا، وفي قراءة بفتح الدال بلا همزة] كيف نقول: رِدَى.

﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ فهم موسى عليه الصلاة والسلام أن الله أرسله إلى فرعون من قوله:

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾، ولهذا قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ لما عرف أنه رسول.

وقوله: ﴿مَعِيَ﴾ المعية بمعنى: المصاحبة والمقارنة، وهي في كل موضع بحسبه؛ أي: بحسب ما تُضاف إليه، وتقتضي في كل موضع غير ما تقتضيه في الموضع الآخر، فالرجل إذا قيل: معه زوجته ليس مثل ما إذا قيل: القائد معه جنوده، بينهما فرق، وكذلك إذا قيل: اللبن مع الماء؛ يعني: امتزج مختلطًا به.

وهنا ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ غير معية الزوج لزوجته، ومعية اللبن للماء، ولكنها مصاحبة يُراد بها: التأييد، وهو: النصر، ولهذا قال: ﴿رِدْءًا﴾ والرِدْء هو: المعين.

﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ ما معنى يُصدِّقني؟ أي: يكون مُصدِّقًا لي أمامهم حتى يقوى قولي لهم ويكون صدقًا، وليس المعنى أنه يقول: أنت صادق، ولكن إذا قوَّى كلامُه كلامي صار ذلك مُوجِبًا لتصديقي.

قال: [بالجزم جواب الدعاء، وفي قراءة بالرفع، وجملته صفة رِدْءًا] بالجزم نقول: يُصدِّقْني تكون جوابًا للدعاء، وأين الدعاء؟ أرسِله معي، وهو واضح؛ يعني: إن أرسلتَه صدَّقني، وفي قراءة أخرى سبعية؛ لأن قاعدة المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: في قراءة فهي سبعية، وإذا قال: وقُرِئ فهي شاذة.

قال: [وجملته صفة رِدْءًا] يعني: رِدْءًا مُصدِقًا لي؛ يعني: هذا هو تصديقه.

الفائدة من القراءتين؛ لأنه تترتب من القراءتين فائدة، وهي: أن قوله: يُصدِّقْني إذا كانت جوابًا فإن معناه: أنه يحصل به التصديق، وإذا كانت صفة فالمعنى: أنه يحاول أن يُبيِّن للناس أنه صادق، فتكون قراءة الرفع على سبيل السبب، وقراءة الجزم على سبيل النتيجة، فيكون هارون فاعلًا مُؤثِّرًا.

قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ الضمير في ﴿يُكَذِّبُونِ﴾ ضمير الواو يعود على فرعون وملئه، و﴿أَخَافُ﴾ بمعنى: أتوقَّع وأخشى، وليس خوف الرُّعب؛ لأنه ما في رُعب، ولكنه يتوقَّع ذلك ويخشاه.

وقوله: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾ فيها إشكال من حيث الإعراب؛ لأن المعروف أنَّ (أنْ) إذا دخلت على الأفعال الخمسة حُذِفَت النون، وهنا فيها نون، والجواب: أن هذه النون نون الوقاية، وليست من الإعراب، ولهذا تُشاهدونها الآن مكسورة، إذن أصله: أن يُكذِّبونني، فحُذِفت نون الرفع لأجل النصب، وحُذِفَت الياء تخفيفًا، ونظيرها: قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩] إذا وقفت عليها فبالسكون، فيفهم الطالب المُبتدئ الذي ما عنده معرفة كبيرة أنه هنا بقيت النون مع وجود لا الناهية، ويجب حذفها، ولكن

نقول: هذه النون في الآية نون الوقاية بدليل أنك لو وصلتَ لكسرتَها، فقلتَ: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ﴾.

قال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ [نُقوِّيك] الشد بمعنى: التقوية، والعضُد هو: العظم ما بين الكتف والمرفق في عظم الذراع، وشد العضُد كناية عن التقوية؛ لأن اليد هي آلة العمل، فإذا شُدَّ عضُدُه صار قويًّا، والمعنى: أننا سنُقوِّيك ونُؤيِّدك بأخيك هارون، أجاب الله طلبَه أم لا؟ أجاب طلبَه، وقال: ﴿سَنَشُدُّ﴾ والسين للتنفيذ، وتفيد التأكيد والتقرير، تأكيد الشيء وتقريره أنه سيكون عن قُرب.

قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ ولا شك أنه إذا قال الله له ذلك معناه أنه سيتقوَّى الآن؛ لأن الله وعده لا أن يُرسِل هارون معه فقط؛ بل سيكون مُعينًا له على هذا الأمر.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [غلبةً] وهذه بُشرى ثانية لهما جميعًا، نجعل: نُصيِّر لكما سلطانًا، والمراد بالسلطان هنا يقول المؤلف: [غلبةً]، والسلطان في القرآن يأتي بمعنى: الغلبة والقدرة، ويأتي بمعنى: الدليل؛ لأن الدليل يتقوَّى به الإنسان ويكون له به قوة، قال الله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨] ما معنى سلطان؟ يعني: ما عندكم دليل بهذا، وقوله: ﴿فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي: بقوة وغلبة، وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠] أي: سيطرته وغلبته.

هنا يقول: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ يقول: [غلبةً] فهو من القسم الثاني ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ قال: [بسوءٍ] والمعنى: لا يصِلون إليكما بسوء، فما خِفتَ منه فإنه سوف ينتفي بما جعل الله لكما من تأييد، وهذه بُشرى لهما وتقوية، وهي نظير قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

قال المؤلف: [اذهبا ﴿بِآيَاتِنَا﴾] كأن المؤلف يرى أن قوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ منفصل عن قوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ ولهذا قدَّر لها فعلًا تتعلَّق به، فيكون على هذا التعليل الوقوف على قوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ ونبدأ فنقول: ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا﴾.

المؤلف قدَّر [اذهبا ﴿بِآيَاتِنَا﴾] ثم قال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾، والآية على حسب تقدير المؤلف: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بسوء اذهبا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ لأنه قدَّر [اذهبا ﴿بِآيَاتِنَا﴾] ولا يصح أن نقول: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ تابعة لها؛ لأن من اتبعهما لم يذهب بالآيات، هذا وجه.

وجه آخر: يقولون: إن قوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يتعلق بـ (نجعل) ونجعل لكما سلطانًا بآياتنا؛ أي: بسبب آياتنا نجعل لكما السلطان فلا يستطيعوا الوصول إليكما ولا إبطال دعوتكما، وعلى هذا يحتاج إلى تقدير الآية أم لا؟ ما يحتاج، وهل نقف على قوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أو نصِل؟

نصِل، فيكون القراءة: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بسبب ما معكما من الآيات، وهذا المعنى هو الصحيح:

أولًا: لأنه لا يحتاج إلى تقدير؛ لأن التقدير لابد أن يسبقه مرتبتان: المرتبة الأولى: إثبات أن في الكلام حذفًا، والمرتبة الثانية: إثبات أن تقدير المحذوف هو ذا؛ يعني: تعيين المُقدَّر؛ لأنه على فرض أن الآية تحتاج إلى تقدير فإنه قد يُنازَع ويقال له: لا نُسلِّم أن تقدير المحذوف هو هذا، كل ما يُدَّعى حذفًا في آية فإنه يحتاج إلى شيئين أو مرتبتين: المرتبة الأولى: إثبات أن في الكلام حذفًا، وبأي طريق نعرف هذا؟ إذا كان الكلام لا يستقيم بحذفه علِمنا أن هناك حذف، هذه واحدة.

المرتبة الثانية: إثبات أن المحذوف هو هذا الشيء الذي قدَّرته؛ إذ جائز أن يكون المُقدَّر غيره، وهذا الأخير يُعيِّنه السياق، هو الذي يُعيِّن نوع المحذوف.

إذا كان الكلام لا يحتاج إلى هذا التقدير فالأصل: عدم التقدير.

هذه الآية معناها واضح جدًّا على القول بعدم التقدير، وأن المعنى: نجعل لكما سلطانًا بسبب آياتنا التي معكما فلا يصِلون إليكما، وهذا المعنى أيضًا أوضح مما قدَّره المؤلف وغيره؛ لأنه في الحقيقة هو يقول: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ جمع، وفي الأول يقول: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ فلم يُعطِها الله سبحانه وتعالى حين أرسلهما إلا آيتين أو آية واحدة؟ آيتين، فالصواب إذن: أن الآية موصولٌ بعضها ببعض، وأننا نقرأ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ويكون متعلِّقًا بقوله: ونجعل لكما سلطانًا بآياتنا فلا يصلون إليكما.

وزعم بعض المُعرِبين أن قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلق بـ ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وهذا في المعنى قريب مما ذكرنا؛ يعني: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، والغالب بالآيات هو الذي جُعِل له بها سلطانًا، وقيل على هذا: فلا يصلون إليكما أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، وهذا لا شك أنه أحسن من تقدير المؤلف؛ لأنه ما يحتاج إلى حذف، ولأنه يُوجِب أن يكون الكلام بعضه متصلًا ببعض.

لكن هناك محذوف من حيث القواعد، وهي: أن ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ اسم فاعل، و(ال) المتصلة باسم الفاعل اسم موصول، والمعروف أن اسم الموصول لا يعمل ما بعده في ما قبله، فحينئذٍ نحتاج إلى جواب عن هذه القاعدة.

الجواب: قالوا: إن (ال) هنا ليست اسمًا موصولًا، وأنها كأل الداخلة على الاسم الجامد، إذن في هذا التقرير فيه قاعدة من المعروف من القواعد النحوية، نرجع الآن إلى أن الصواب: أن نجعل قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ ونسلم من كل ذلك؛ من المخالفات، ومن التقديرات، ومن تعيين المُقدَّر.

وقوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ فيه دليل على أن الله سبحانه وتعالى أعطى موسى وهارون آيات، وقد ذكر في سورة أخرى أنه أعطاه تسع آيات ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ

بَيِّنَٰتٍۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وقوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾ ممن؟ من بني إسرائيل ومن آل فرعون؛ لأن من آل فرعون من اتبعهما، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [غافر: ٢٨].

وقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾ فيه دليل على أن الإنسان يُنصَر ويغلب باتباع الرسل، وأنه لا طريق إلى النصر والغلبة إلا الدخول في طريق الرسل واتباعهم، وعليه فيكون هذا قاعدة: كل من كان للرسول أتبع كان إلى النصر أقرب، وكل من كان عن اتباع الرسول أبعد كان عن النصر أبعد؛ لأنه من المعلوم في القواعد المُقرَّرة: أن الحكم إذا عُلِّق بوصف كان ثُبوته قوةً وضعفًا، ووجودًا وعدمًا بحسب ذلك الوصف؛ مثلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] معيته للصابرين قوتها وضعفها بحسب ما معه من الصبر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النحل: ١٢٨] فتكون المعية للمتقين قوةً وضعفًا بحسب تقواهم، وهكذا.

وقوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ الغالبون لمن؟ يقول المؤلف: [لهم] والحقيقة نعم الغالبون لهم؛ لأن المقام يقتضيه، لكنا إذا أردنا أن نأخذ ذلك على سبيل العموم نقول: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ للمخالفين، فأتباع الرسل غالبون لمن خالفهم دائمًا وأبدًا؛ بل إن هذه الأمة لها مزيَّة على غيرها، قال النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيْرَةَ شَهْرٍ» لو كنا متبعين لهذا النبي ﷺ على وجه الحقيقة لكان عدونا مرعوبًا منَّا مسيرة شهر، لكننا لم نكن متبعين للرسول ﷺ على وجه الحقيقة، ولذلك صار بأسنا بيننا.

قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ [واضحات حال] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي: آل فرعون ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ولم يقل: وهارون؛ لأن الرسالة في الأصل لموسى، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الباء للمصاحبة؛ يعني: مصحوبًا بالآيات، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جمع آية، وهي العلامات، وأُضِيفت إلى الله إضافة العطية إلى مُعطيها؛ لأن هذه الآيات ليست آيات على الله، لكنها آيات منه على رسالة موسى، وموسى يريد منها: إثبات أن الله وحده هو إله الحق.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ قال المؤلف: [واضحات] وقال في إعرابها: [حال] من آيات، ولا يصح أن تكون صفة؛ لأن آيات معرفة، وبينات نكرة، ولا تُنعَت المعرفة بنكرة؛ بل إذا جاءت النكرة بعد المعرفة وهي وصف لها أُعرِبَت حالًا.

وفي قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ إقامة للحجة؛ لأن الآية هي علامة، وكلما كانت أظهر كانت الحجة أقوى، فموسى ـ عليه السلام ـ جاءهم بالآيات البينات، فأي جواب كان منهم؟ ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ [مُختلَق]، ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي: الذي جئتَ به يا موسى ﴿إِلَّا سِحۡرٞ﴾.

وقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ ما هو هذا السحر؟ العصا واليد، هذا إذا قلنا: إنه يعود على

الآيات الحسية، فإن قلنا: إنه يعود على الآيات المعنوية، وهي: البيان، فإن النبي ﷺ يقول: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا».

وقوله: ﴿مُّفۡتَرًى﴾ [مُختلَق] وصف الافتراء للقول واضح، لكن وصف الافتراء للعصا والسحر؛ لأن السحر لا يقلب الأشياء حقيقة، ولكنه يقلبها تخيُّلًا بحسب ما يتخيله المرء، فيكون هذا التخييل مطابقًا للواقع أو مخالفًا للواقع؟ مخالفٌ للواقع، وكل ما يخالف الواقع فهو مُفترى، فالافتراء هنا إن وُصِف به ما قالاه من الرسالة فهو واضح؛ لأن نسبة الافتراء إلى القول أمر معروف، لكن إذا وُصِف به ما جاء به من الآيات الحسية؛ كقلب العصا، وإخراج اليد بيضاء، فكيف نقول: إنه مُفترى؟ لأن السحر لا يقلب الأمر عن حقيقته، فيكون ظهوره بغير الحال التي عليها من باب الكذب، ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرًى﴾.

[﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ كائنًا ﴿فِيٓ﴾ أيام ﴿ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾]، ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ المُشار إليه: ما جاءا به من الرسالة؛ لأنها هي المسموعة؛ لأن آية اليد والعصا فهي مُشاهَدة مرئية.

وقوله: ﴿بِهَٰذَا﴾ قال المؤلف: [كائنًا] أشار به إلى أن مُتعلَّق الجار والمجرور ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ محذوف تقديره: كائنًا، وكائنًا هنا على تقدير المؤلف مفعول ثانٍ أو حال؟ حال من اسم الإشارة، وقوله: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: في زمانهم، ولهذا قال: [﴿فِيٓ﴾ أيام ﴿ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾] أي: السابقين، وكلامهم هذا صحيح أو لا؟ لا، إذن قولهم: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ خبر كذب، فهم كاذبون في هذه الدعوى، ثم على فرض أن الدعوى صحيحة وأنهم ما كذبوا هل كون هذا لم يوجد في الأولين يقتضي أن يكون باطلًا في الآخرين؟ لا؛ لأن الحق إذا جاء وجب قبوله، سواء كان موجودًا في الأولين أم غير موجود، فهذه الجملة إذن مُركَّبة من كذب وباطل، أما الكذب: فإن قولهم: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ كذب؛ لأن مؤمنهم أقام عليهم الحُجَّة، لقوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤].

وأما كون الحجة باطلة على تقدير أنها صحيحة قولًا، إلا أن عدم وجود ذلك في الأولين لا يقتضي بطلان وجوده في الآخرين، فإن الله تعالى فعَّال لما يُريد، وما دامت الآيات بينات فقد قامت الحجة.

وقوله: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ كيف يكونون أولين وهم آباؤهم؟ لأن الأب يُطلَق على الأب المباشر، وعلى الجد وإن علا، قال الله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال يوسف: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ يعقوب هو المباشر، وإسحاق جدُّه، وإبراهيم جدُّ أبيه سماهم آباءه، وهذا وإن كان فيه ترتيب لكن ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ما فيها ترتيب؛ يعني: ما فيه أب مباشر.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾:

الفوائد:

١- **يستفاد من الآية:** جواز تقديم العذر عند الأمر بشيء يظن الإنسان فيه أنه غير مستطيع أن يفعله حتى في طاعة ولي الأمر؛ لأن طاعته واجبة لازمة، فإنه لا بأس من تقديم العذر لأجل أن يتخلص الإنسان من هذا الأمر، كما كان الصحابة يقدمون للنبي العذر إذا تعذر عليهم أمر.

٢- **ويستفاد منها أيضًا:** أن الخوف الطبيعي لا ينافي مقام الرسالة؛ لقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

٣- **ويستفاد منها أيضًا:** أن القصاص موجود في الأمم السابقة؛ لقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾؛ لأن قولهم هذا على سبيل القصاص، أو على سبيل العدوان، ولو أننا طبقنا الآية على النظام الإسلامي لكان لا قصاص؛ لأنه لايقتل مسلم بكافر، فنقول: هذا إما أن يكون من أجل أن القصاص كان مشهورًا بينهم، أو أنه كان يخشى أن يعتدوا عليه بالقتل، وإن لم يكن ذلك فبالحبس.

قال: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾.

١- **يُستفاد من هذا:** بيان المنة الكبرى من موسى لأخيه؛ حيث سأل الله تعالى أن يُرسله معه، ولهذا يقال: أعظم هدية أهداها قريبٌ لقريبه من موسى لهارون؛ لأنه سأل الله أن يُرسله معه ومقام الرسالة مقام عظيم لا يناله إلا من اصطفاهم الله لهذا المقام.

٢- **ومن فوائد الآية أيضًا:** أنه يجوز للإنسان أن يستعين بغيره في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾.

٣- **ومنها أيضًا:** أن هذا الأعوان من أسباب النجاة، وهذا أمر معلوم من قديم الزمان وحديثه أن كل ما كان الإنسان معه من يُعينه ويساعده كان ذلك أقرب إلى نجاحه من انفراده.

٤- **ومنها:** أن الفصاحة لها تأثير قوي في القبول أو الرفض، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»، لقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾.

٥- **ومنها:** فضيلة موسى عليه الصلاة والسلام بإقراره الفضل لأخيه ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾؛ لأن من الناس من يكون ناطقًا ولكن لا يستطيع أن يُعبِّر.

٦- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعي أن يذكر مبررات دعوته؛ لأن قوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ هذا من مُبرِّرات دعوته وسؤاله ربه تعالى أن يرسله معه، وهو: أنه أفصح منه لسانًا، وهذا معروف في مثل هذه الأمور أن الإنسان يذكر مُبرِّرات دعواه.

٧- **ويُستفاد من الآية الكريمة أيضًا:** أن موسى عليه الصلاة والسلام خاف أن يُكذِّبوه

إذا كان وحده، فطلب مزيدًا من العون؛ لأنه كما قلنا: إن الواحد مع الواحد يكون أقوى في الحجة.

٨ـ ومنها أيضًا: أن الخبر يزداد ثبوتًا بتعدُّد المُخبرين.

وقوله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

١ـ من فوائد الآية الكريمة أن فيها دليلًا على: فضل الله سبحانه وتعالى على عبده؛ حيث إن الله أجاب دعوة موسى قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾.

٢ـ ومن فوائدها أن فيها دليل على: أن الله أعطى موسى أكثر مما سأل؛ لأنه قال: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، فأعطاه الله أكثر من ذلك بأن يُقوِّيه به؛ لأن التصديق معناه: الخبر بأنه صادق، لكن التقوية أبلغ، ولهذا قال: سنشد عضدك بأخيك.

٣ـ ومن فوائدها أيضًا: أن الله سبحانه قد يمُنُّ على العبد فيجعل له سلطانًا بما آتاه من العلم، لقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾، ﴿بِآيَاتِنَا﴾.

٤ـ ومنها: أن العلم سلاح؛ لأن السلطان معناه: القوة والغلبة، فإذا كان سببه العلم كان ذلك دليلًا على أن العلم سلاح من أعظم ما يدافع به الإنسان ويهاجم أيضًا.

٥ـ ومنها أيضًا: حماية الله سبحانه وتعالى لموسى وهارون، لقوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، وهذا نظير قوله: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

٦ـ ومنها أيضًا: أن التمسُّك بشريعة الله سببٌ للغلبة، قال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ كل من اتبعهما.

٧ـ ومنها أيضًا: أنه إذا كان هذا في بني إسرائيل أن من اتبع الرسل فهو الغالب، فمن اتبع النبي عليه الصلاة والسلام من باب أولى، فمن اتبع النبي ﷺ فإنه غالب، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: ٢٨] ما معنى ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾؟ يُعلّيه؛ لأن الظهر والظهور كلها تدل على الغلبة.

ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

١ـ يُستفاد منه: أن موسى ﷺ نفَّذ ما أرسله الله به.

٢ـ ومن فوائدها أيضًا: أن الآيات التي يرسل الله بها الأنبياء تكون مُبيِّنة واضحة لئلا يكون للمدعوِّين حُجَّة، فإن الله تعالى أرسل بآيات بينة واضحة، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «مَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ»، فلابد أن تكون الآيات مُبيِّنة واضحة لئلا يبقى للناس حُجَّة.

٣ـ **ومنها أيضًا:** أن الآيات التي أرسل الله بها موسى ليست واحدة ولا اثنتين؛ بل هي آيات متعددة يؤمن على مثلها البشر.

٤ـ **ومن فوائدها:** أن دعوى المكذبين للرسل ما تكون إلا من نوع المخاطرة، فإن قولهم: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هل يقتضي رد الحق أو لا؟ لا، ما يقتضي رد الحق، ما سمعتموه أخبروه، فليس للإنسان حجة إذا قال لله تعالى: ما سمعنا بهذا.

٥ـ **ومنها أيضًا:** أن أعداء الرسل يُلقِّبون الرسل بألقاب السوء والعيب، لقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ ما عند أعداء الرسل إلا أنهم يُلقِّبونهم بألقاب: هذا ساحر، هذا كذاب، هذا مجنون، هذا شاعر، وما أشبه ذلك.

إذن نأخذ منه أيضًا فائدة متفرِّعة: أن أعداء الرسل يُلقِّبون من يدعون بدعوة الرسل بمثل هذه الألقاب، فيقولون: رجعيِّين، متأخرين، متذمِّتين، متشددين، متعصبين، وما أشبه ذلك، أو ربما يقولون أكثر من ذلك؛ مثل: ضالين ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢].

المهم: أنه يجب أن نعرف أن هذه الدعوة دعوة الحق لها أعداء، هؤلاء الأعداء الذين قابلوا الرسل بما قابلوهم به سيقابلون من بعدهم بمثل ما قابلوا به الرسل أو أكثر، إذن فالمهم: نُصمِّم أنفسنا على أننا إذا دعونا إلى الله تعالى على حق وعلى بصيرة فسيكون أمامنا من يقول لنا مثل ما قيل للرسل.

المهم: أنه ما دامت الدعوة واحدة فعدوها واحد، وما قيل في الأول يُقال في الثاني.

٦ـ **ومن فوائد الآية:** أنه لا ينبغي للمرء أن يُثْنِيه عن قول الحق وصفه بعدم الصواب أو وصفه هو بعدم الصواب؛ لأن موسى هل توقف لما قالوا له هذا الكلام؟ لا؛ بل استمر في الدعوة وفي إقامة الحجة مع أنه هُدِّد بالسجن، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يُبال بذلك، وكذلك ينبغي للداعي إلى الله أن يصبر ما دام يعلم أنه على حق.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٧، ٣٨]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ [بواو وبدونها] يعني: أنه يجوز أن تقول: قال موسى ربي أعلم، ويجوز أن تقول: وقال، هذه من القراءات النادرة؛ لأن المعروف من القراءات المتواترة ما يكون فيها تغيير كلمة بزيادة حرف.

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾، قال: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ أعلم هذه اسم تفضيل، واسم التفضيل يدل على الاشتراك في أصل الصفة ثم الزيادة عليها، فإذا قلت: فلان أفضل من فلان، فقد اشترك الاثنان في الفضل وزاد المُفضَّل على المُفضَّل عليه في ذلك.

هنا يقول: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ قال المؤلف: [عالم] فحوَّل اسم التفضيل إلى اسم الفاعل، وهذه جناية عظيمة؛ لأن عالم أدنى بكثير من أعلم، والصواب: أن أعلم على ما هي عليه أنها اسم تفضيل، وأن من علِم بمن جاء بالهدى من عند الله فالله أعلم منه، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن حذا حذوه على ذلك إنما فرُّوا من أن يكون الإنسان مشتركًا مع الله في العلم، قالوا: عالم؛ لأننا لو قلنا: أعلم صار مشاركًا للإنسان في العلم لكن الله أعلم، ولكن عالم ما فيه دليل على المشاركة.

وهذا خطأ؛ لأنكم إذا قلتم: أعلم الآن نفيتم المشاركة؛ لأن الأعلم في درجة لا يصل إليها لا واحد فقط، لكن إذا قلتم: عالم هذا هو الذي فيه التشبيه؛ لأن الله عالم والإنسان عالم ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]، فالشاهد: أن كلمة أعلم هي التي تمنع المشاركة بخلاف عالم.

ثم إن فيها دليل واضح على أن كل صفة كمال من الممكن أن يتصف بها الإنسان، فالله تعالى أعلاها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] فكل صفة كمال مطلق فلله تعالى منها أكملها.

قال: ﴿أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ الضمير يعود للرب، من عنده؛ أي: من عند الله، فإنما أشار المؤلف إلى هذا لئلا يُظنَّ أن الضمير يعود على من جاء بالهدى؛ لقوله: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾، ولا يمكن أن يعود إلى (مَنْ).

وقوله: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ ولم يقل: أعلم أني قد جئت بالهدى من عنده؛ بل قال: ﴿بِمَن جَآءَ﴾ لئلا يكون مُدَّعيًا؛ بل يبقى الأمر موكولًا إلى الله منزلًا عليه من جهة العمل.

قال: [﴿وَمَن﴾ عطف على مَنْ قبلها] يعني: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ وبمن تكون له عاقبة الدار، فهو أعلم بمن جاء بالهدى من عنده، وأعلم كذلك بمن تكون له عاقبة الدار، فهو

يعلم سبحانه وتعالى المبتدأ والمنتهى.

وقوله: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ سمَّى الوحي هدى؛ لأنه يهدي، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فالهدى هو العلم.

وقوله: ﴿مِنْ عِندِهِۦ﴾ أضافه إلى الله؛ لأن الوحي من الله سبحانه وتعالى وليس من غيره، ولا أحد يأتي بهدى إلا من عند الله.

وقوله: ﴿وَمَن تَكُونُ﴾ [بالفوقانية والتحتانية] الفوقانية: تكون، والتحتانية: يكون، فهما قراءتان، أما قراءة الفوقانية تكون فالأمر فيها ظاهر؛ لأن ﴿عَٰقِبَةُ﴾ مؤنث، والفاعل إذا كان مُؤنَّثًا يُؤنَّث له الفعل، وأما التحتانية: ومن يكون له عاقبة الدار، وإنما جاز تأنيث الفعل؛ لأن الفاعل مؤنث مجازًا.

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ هذه تكون ناقصة أو تامة؟ هي ناقصة، وخبرها مُقدَّم، وهو قوله: ﴿لَهُۥ﴾، واسمها مؤخَّر، وهو: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ قال المؤلف: [أي: العاقبة المحمودة في الدار الآخرة] ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: من يعقُب غيره في الدار، والمؤلف حملها على أن المراد بالدار هنا: الدار الآخرة، ولكن ينبغي أن يقول: إنها عامة؛ الدار الآخرة والدار الدنيا، فإن عباد الله الصالحين هم الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، وقد كانت العاقبة لموسى وقومه حتى في الدار الدنيا، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٨]، وفي سورة الشعراء: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]، فالأولى إذن أن نجعل العاقبة عامة في الدار الدنيا والدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: العُقبى فيه بأن يعقب غيره، فالعُقبى في الدنيا واضحة، إذا فتح المسلمون البلاد صاروا هم الذين يرِثونها، لكن في الآخرة كيف يكون ذلك؟ بالجنة؛ لأنه يكون المؤمن في الجنة وارثًا لمكان الكافر منها، فإن الكافر يرى مقعده في الجنة لو آمن، ولكنه يدخله المؤمنون، المؤمنون يرِثون مقاعد الكافرين كلها، فتكون العُقبى لهم أيضًا في الدار الآخرة.

قال المؤلف: [أي: هو أنا في الشِّقَّين] ما هما الشِّقَّان؟ ﴿أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾، الشق الثاني: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، وقول المؤلف: [أي: هو أنا] أي أن موسى له عاقبة الدار، ولكن موسى خاطب فرعون بهذا الخطاب المترتب بين قوم هدى عنده أو عند فرعون وأخبر فرعون على سبيل التنزُّل، كما في قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وكما في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، والآن يقول: [أي: هو أنا] لكنه ما صرَّح بأن قال: أنا قد جئت بالهدى؛ لأن هذا هو الدعوة التي جاء بها وأقامها؛ لأنه ساق

الكلام مساق الخطاب المترتب بينه وبين فرعون من باب التنزُّل معه.

قال: [فأنا محقٌّ فيما جئت به] هذا مُفرَّع على قوله: [هو أنا].

قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الكافرون] ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير هنا ضمير الشأن، أي: إن الشأن والحال أنه لا يُفلِح الظالمون.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هل هو يصير إلى فرعون وأنه ظالم فلن يُفلِح، أو هو أمر عام؛ يعني: إن كنتُ أنا ظالمًا في دعوتي فأنا لا أُفلِح، وإن كنتَ ظالمًا بردك الحق فأنت لا تُفلِح؟ نقول: هو هذا؛ لأنه مُفرَّع على ما قبله ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ عاقبة الدار تكون لمن؛ للظالم أو لغير الظالم؟ لغير الظالم؛ لأن الظالم لا يُفلِح، ونحن على علم اليقين أن الظالم في هذا الحال فرعون؛ لأنه رد الحق.

وقوله: ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ الفلاح هو: حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب، وسُمِّي فلاحًا؛ لأنه من البقاء، فأصله في اللغة: البقاء، كما قال الشاعر:

لكــل هــمٍّ مــن الهمــوم سـعَه والمسي والـصبح لا فـلاح معــه

يعني: لا بقاء معه، ولهذا يتعدَّى الأمر إلى أن يقولوا: إن الفلاح هو حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

وقول المؤلف: [الكافرون] مع أن الله يقول: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وعدم فلاح الظالمين بحسب ظلمهم، إن كان ظلمًا أكبر فهم لا يُوصفون عبثًا، وهم الكافرون، وإن كان ظلمًا دون ذلك نقص من الفلاح بحسب ما نقص من العدل، فالصواب في هذا أيضًا: إبقاء الآية على ظاهرها، وأن الظالم لا يُفلِح، لكن انتفاء الفلاح عنه بحسب وجود الظلم فيه، فالظلم الأكبر يفوته الفلاح كله، وما دون ذلك يفوت فيه من الفلاح بقدر ما عمل من الظلم.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ﴾ تكلم فرعون بالنداء تعميمًا للأمر، وتعليمًا لهم.

ثم قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ ولم يقل: ما وجدت لكم؛ لأنه لو قال: ما وجدت لكم كذَّبوه؛ إذ أنهم يقولون: أنت لم تذهب للبحث عنه، ما طلبتَ الله ولم تجده؛ بل نفى أن يكون عالمًا بذلك ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ لأجل أن يُكرِّر عليه ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أوقد لي يا هامان على الطين اجعل لي صرحًا قويًا لأجل أن أطلع إلى إله موسى، وهذا أبلغ من قوله: «ما وجدت»؛ لأنه لو قال: «ما وجدت» فمن الممكن أن يكذبه قومه، كيف؟ لأنه لو قال: «ما وجدت» كان من الممكن أن يقول له قومه: أنت لم تحفظ كل شيء.

ثانيًا: لو قال: ما وجدت لقالوا: كيف ما وجدت وأنت لم تذهب أصلًا للبحث عنه، فعبَّر

بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ﴾ لأجل أن تتم له اللعبة.

وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ المراد: من ربٍّ غيري؛ لأنه قال في سورة النازعات: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣- ٢٤]، أو يجوز أن تكون على ظاهرها فيكون الإله؛ أي: المعبود، ولا يُعبَد إلا الله.

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ الفاء للسببية، وهي عاطفة، و﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ﴾ هامان من هو؟ وزيره.

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ [فاطبخ لي الآجُرّ] الطين هو: التراب المبلول، وإذا أُوقِد عليه انعقد يتحجَّر وصار آجُرًّا، وإنما اختار ذلك؛ لأن الآجُرّ أقوى، ولأنه إذا أُوقِد عليه صار حجرًا صلبًا، فيصبح أساسًا يستطيع أن يتحمل أي بناء عليه.

﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ يقول المؤلف: [قصرًا عاليًا] لو قال المؤلف: بناءً عاليًا لكان أَولى.

﴿صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ لعلي هذه للتعليل؛ يعني: اجعله لي لأطَّلِع إلى إله موسى [أنظر إليه، وأقف عليه] وقوله: ﴿إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ - والعياذ بالله – جاء بها على سبيل التعجيز؛ لأن موسى عنده حقير، فإلهه يكون مثله؛ لأنه يكون حقيرًا لحقارة عبده.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [في ادعائه إلهًا آخر، وأنه رسوله] ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ أكَّدها بـ (إنَّ، واللام)، ثم قال: ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ لأنه ليس هذا أول من كذب، فليس بغريب أن يكذب؛ لأنه سبقه من كذب، فيكون هذا قبولًا لقوله عندهم، يُذكِّرهم بأنه من الكاذبين، وليس أول من كذب.

هل قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ يعني أنه قادر على أن يطلع إلى إله موسى؟ ليس قادرًا؛ لأن موسى قال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، لكنه يُموِّه به على قومه، ولهذا أمر بهذه اللعبة.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية:** التنزُّل مع الخصم على وجهٍ لا يكون فيه تقرير لدعوى المُدَّعي.

٢- **ومن فوائد قوله:** ﴿أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ﴾: أن الهدى من الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يأتي بما يحصل الاشتياق به، ويُوفِّق من شاء من عباده له، فالهدى من عند الله.

٣- **ويُستفاد من هذه الآية:** أن العاقبة لمن اتبع هدى الله، لقوله: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾.

٤- **ومنها أيضًا:** أن الظالم لا يُفلِح، ومفهومه: أن صاحب العدل يُفلِح؛ لأنه إذا انتفى الفلاح

عن الظالم وجب ثبوته لصاحب العدل.

٥ـ ومنها: التحذير من الظلم، لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، والترغيب بالعدل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ إلخ.

١ـ يُستفاد من هذه الآية: أن فرعون قد سيطر على قومه، وجه ذلك: أن مثل هذا الكلام لا يُقبَل إلا من شخص قد غلب عتوّه.

٢ـ ومنها أيضًا: استعلاء فرعون على قومه، وأنه من أشد الناس كذبًا وكفرًا، لقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

٣ـ ومنها: إثبات علو الله، من قوله: ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، في هذا دليل على أن موسى قال له: إن الله في السماء.

٤ـ ومنها أيضًا: أن فرعون كان عظيم الملك في مملكته.

٥ـ ومنها: إسناد الفعل إلى الآمِر به إذا كان له سلطان على الناس، لقوله: ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ ومعلوم أن هامان لن يُباشر البناء، من يُباشره؟ العمال، ولكنه أسند الأمر إليه؛ لأنه الآمِر به، والفقهاء رحمهم الله اعتبروا هذا، فقالوا: لو أمر بالقتل غيرَ مُكلَّف فقتل فالقَوَد على الآمِر؛ يعني: لو قال الإنسان مثلًا: اقتل فلانًا فذهب فقتله، فإن الذي يُقتَل الآمِر؛ لأنه هو السبب.

٦ـ ومن فوائد الآية: أن الفخّار أقوى من الطين غير المُوقَد عليه، يؤخذ من قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾، ويقال: إن أول من سنَّ الآجُرّ إنه فرعون، والله أعلم.

٧ـ ومنها أيضًا: طغيان فرعون واستكباره؛ حيث ذكر الرب سبحانه وتعالى بصيغة الإذلال، لقوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، فأشار إليه احتقارًا له؛ لأنه يحتقر موسى.

٨ـ ومنها أيضًا: أن فرعون من أكذب الناس، لقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، ولقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٣٩-٤٢]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

قوله: ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ من الكبرياء وهي: العظمة، والمعنى: أنه تجبَّر وتعاظَم هو وجنوده، وزيادة الهمزة والسين والتاء للمبالغة، وليست للاستدعاء؛ لأن الغالب أن الهمزة للاستدعاء؛ مثل: استغفر؛ يعني: طلب المغفرة، استرحمه طلب رحمته، لكن تأتي أحيانًا للمبالغة؛ مثل: استكبر؛ يعني: بالغ في الكبرياء والعظمة.

وقوله: ﴿هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ من جنوده؟ الجند في الأصل: هم خاصة الإنسان وأنصاره، ويُطلَق على كل من اتبعه فهو من جنده.

وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بـ (استكبر)، و(ال) في ﴿الْأَرْضِ﴾ للعهد الذهني، قال المؤلف: [أرض مصر] ليس الأرض كلها؛ لأنه لا سلطان له على بقية الأراضي، ولكن المراد: أرض مصر، فعلى هذا تكون (ال) هنا للعهد الذهني لا للعموم.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بيان للواقع؛ لأن الاستكبار كله مخالف للحق، ولكنه بيان للواقع، وزيادة في تقبيحه، فالاستكبار قبيح، فإذا وُصِف بأنه بغير الحق صار أقبح، ونظير هذا: قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ هل يمكن أن يكون قتل النبيين بالحق؟ لا، كل قتل النبيين بغير حق، لكن ذكر ذلك للمبالغة في تقبيحه، وإلا فالواقع أنه ليس بالحق.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ والحق في الأصل: هو الشيء الثابت، فإذا أُضيف إلى الأخبار فالمراد به: الصدق، وإذا أُضيف إلى الأحكام فالمراد به: العدل، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، إذن انتفى عن هؤلاء باستكبارهم الحق من وجهين:

الوجه الأول: استكبارهم في الأرض بغير الحق.

والوجه الثاني: هو كذبهم وظنهم أنهم لا يرجعون إلى الله، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ ظنُّوا، المراد بالظن هنا: اليقين أي: تيقنوا أنهم لا يرجعون إلى الله.

وقوله: ﴿إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فيها قراءتان: لا يَرجعون بالبناء للفاعل وللمفعول، بالبناء للفاعل: لا يَرْجِعُون، وبالبناء للمفعول: لا يُرجَعون.

ومعنى ﴿يُرْجَعُونَ﴾ أي: يعودون ويُردُّون إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ إن الكل سوف

يرجع إلى الله، والإنسان راجع إلى الله في محياه وفي مماته، فهو بعد الموت يرجع إلى الله، وكذلك في الدنيا أمره راجع إلى الله فهو الذي يدبره.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ الفاء عاطفة، والمراد بها أيضًا: السببية؛ أي: بسبب استكباره هو وجنوده ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ مقابل الاستكبار ذكر الله تعالى عقوبتهم على وجه النسيان والتحقير ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ إذ إن النبذ هو: الطرح بقوة، والمطروح بقوة هل هو عظيم أو حقير؟ بل هو حقير؛ لأن العظيم لا يمكن أن تستطيع أن تنبذه نبذًا، فهو ثقيلٌ عظيمٌ لا يُقدر على طرحه، إنما يُنبَذ نبذًا من كان هيِّنًا حقيرًا، ولهذا قال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ فنبذناهم (هم) يعود على فرعون والجنود.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ ولم يُغنِ عن هؤلاء الجنود شيئًا؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - لا شيء يقابله في القوة ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ [فطرحناهم] ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ اليم قال: [البحر المالح] فنهر النيل من الأنهار، والأنهار بحار ولكنها غير مالحة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩] فسمى الله تعالى أنهارًا، والبحار المالحة سماها بحارًا.

وقوله: [البحر المالح] هذا بيان للواقع الذي نُبِذَ فيه فرعون وجنوده؛ لأنهم نبذوا في بحر القلزم، وهو البحر الأحمر الذي بين جدة ومصر هذا الذي غرق فيه فرعون، لقوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وانظر إلى الحكمة في أن الله سبحانه وتعالى أغرقهم إغراقًا في اليم؛ لأن فرعون كان يفتخر بأنهاره ويقول لقومه: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢] فافتخر بالماء فأُغرِق به، قال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١] فأخرجه الله من ملكه وأهلكه بما كان يفخر به من الأنهار.

قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [فانظر] الخطاب لمن هل للنبي أو لأي قارئ أو سامع؟ الجواب: الأخير؛ أي: فانظر يا من تسمع هذا الخطاب فيوجَّه إليه، والمراد بالنظر هنا: نظر الاعتبار، فقد ينظر بعينه وبقلبه.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كيف هنا للاستفهام، والمراد به: التعظيم؛ يعني: عِظَم العاقبة، وليس تعظيم الرفعة، ولكن تعظيم العقوبة - والعياذ بالله -، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو تفخيم لها لتعظيم أن العاقبة وخيمة سيئة للغاية.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ كيف هنا اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب خبر مقدم لـ«كان»، وتقديم الخبر هنا واجب ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عاقبة بمعنى: عقبى، فهي على صيغة اسم الفاعل، والمراد: العقبى، والظالمون هم الذين نقصوا الحقوق -

حقوق رسول الله -؛ لأن الظلم في الأصل: النقص، قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم تنقص منه شيئًا.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ المراد بالظالمين هنا: الكافرون؛ لأنه يشير لما جرى لفرعون وقومه، وهم ظالمون ظلم كفر؛ لأن الظلم ينقسم إلى قسمين: ظلم كفر، وظلم معصية لله، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ ما الظلم المراد في الآية؟ المراد: ظلم المعصية، وفي قوله: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ المراد: ظلم الكفر، وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ شامل للأمرين: الكفر وما دونه ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ حين صاروا إلى الهلاك بأتفه الأمور وهو الماء، وهذه من حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يأخذ كل إنسان بذنبه، كما قال الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: بما يقتضيه ذنبه من العقوبة، عاد استكبروا في الأرض وتحدَّوا، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ لأن الخالق بلا ريب أقوى من المخلوق، لكن بماذا أُخِذوا؟ أُخِذوا بأبسط الأشياء، وهي الريح أرسل الله عليهم الريح ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، لو شاء الله لأرسلها عليهم في ليلة واحدة ودمَّرتهم تدميرًا، لكن لحكمةٍ أرادها متعدِّدٌ أمرها ما أخذتهم جميعًا، أخذت بعضهم فتتبَّعَت الأمراض، وجعلَت البعض يصعد إلى أعلى السماء ثم يرجع إلى رأسه؛ لأن عذابهم كان بالخوف، وهذا أشد في العقوبة؛ لأن لو جعلتهم مرة واحدة ودمرتهم وانتهى الأمر، لكنَّ هذا أشد.

وقال: [﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَئِمَّةً﴾ بتحقيق الهمزتين - أئمةً -، وإبدال الثانية ياء] فتقال: أيِمَّةً، والقراءتان هنا سبعيَّتان، قال: [رؤساء في الشرك]؛ لأن الإمام هو: القائد الذي يُتبَع، فهو لابد له أثر في الكفر وليسوا رؤساء فقط، رؤساء متبوعين، رؤساء في الشرك؛ يعني: متبوعين، الإمام هو المتبوع، المعنى: أنهم كانوا قادة لهؤلاء الجنود في الشرك، لكن هنا يقول المؤلف: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ [في الدنيا] ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يعني: حقيقة الأمر أن إمامتهم في الكفر متى؟ الجواب: في الدنيا، فهم جُعِلُوا في هذه الدنيا أئمة؛ يعني: متبوعين يُقتَدى بهم في الكفر، فكل من أتى بعدهم وكان كفرُه استكبارًا فإنه مُقتدٍ بهم، وقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يدعون إلى النار بالقول أو بالفعل؟ الجواب: بهما جميعًا، فهم قبل أن يُهلكوا كانوا يدعون بالقول وبالفعل، وبعد أن هلكوا يدعون بالفعل؛ لأن من أفسد الناس بفعله فهو في الحقيقة قد دعاهم إليه، وقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ قطعًا ما يدعونهم يقولون: أيها الناس ادخلوا إلى النار، لو كانوا يقولون: يأيها الناس ادخلوا النار، ما أطاعوهم، لكن يدعون إلى النار يدعون إلى العمل المُوصِل إليها، وهو الشرك والإثم، وبئس ما كانوا أئمة إذن، وهو الدعوة إلى الكفر بالله تبارك

وتعالى.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ يوم هذا ظرف متعلق بـ ﴿يُنصَرُونَ﴾ يعني: وهم لا ينصرون يوم القيامة، في الدنيا أئمة متبوعين، لكن في الآخرة لا ينصرون، هم لا يستطيعون أن ينتصروا لأنفسهم فلا يمكن أن يكونوا أئمةً يُقتَدى بهم، وقوله: ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يجدون من ينصرهم لدفع العذاب عنهم، لا هم ولا غيرهم، حتى غيرهم لا يمكن أن يدفع عنهم العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [المُبعَدين] ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ﴾ الضمير يعود على فرعون وجنوده، ﴿أتبعناهم﴾ يعني: جعلنا اللعنة تبعهم بعد إهلاكهم، واللعنة في الأصل: الطرد والإبعاد، وفسَّرها المؤلف بلازمها، وهو: الخزي؛ أي: أنه كل من ذَكَرهم يلعنهم ويطردهم ويبتعد عنهم، ولكن لا منافاة بين اللعنة هنا وبين قوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأن الذي يأتم بهم هو الموافق لهم على كفرهم، أما من لم يأتم بهم فإنه يلعنهم، وقوله: ﴿لَعْنَةً﴾ من الله أو من غيره؟ منه ومن غيره، قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ فمن لعنه الله لعنه المؤمنون بالله، قال ابن مسعود ﷺ عن لعن النامصة والمتنمِّصة، قال: وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ يوم القيامة أيضًا ظرف متعلق بمفهوم الحال منهم؛ يعني: وهم حال كونهم يوم القيامة من المقبوحين، أو متعلق بالمقبوحين.

وقوله: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ هذه جملة اسمية دالة على أنهم هم في ذلك الوقت لا يمكن أبدًا أن يُقرَّبوا؛ بل إنهم في ذلك الوقت من المقبوحين المُبعَدين الذين يُقَبِّحُهُم كلُّ من ذكرهم، فلا يمكن لأحدٍ أن يُقرِّبهم، إذن عوُقِب هؤلاء - والعياذ بالله - الذين كانوا يدعون إلى النار عوقبوا بأمرين؛ بل بثلاثة أمور: الأمر الأول: أنهم إذا حل بهم العذاب يوم القيامة لن يجدوا من ينصرهم؛ لأنه قال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ الأمر الثاني: العار الذي لحقهم واللعنة التي لحقتهم إلى يوم القيامة، لقوله: ﴿فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ والأمر الثالث: أنهم يوم القيامة لا يمكن أبدًا أن يكونوا من المقبولين المُقرَّبين؛ بل هم من المقبوحين المطرودين المُبعَدين.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان حال فرعون وجنوده؛ لأنهم قومٌ مُستكبِرون عن الحق، ومُتعالون عليه.

٢ - **يستفاد منها أيضًا:** أن من استكبر عن الحق ففيه شبهٌ من فرعون وجنوده.

٣- **ومن فوائد الآية أيضًا:** وجوب الرجوع إلى الحق؛ يعني: أن الإنسان يجب عليه أن

يرجع للحق، سواء وافق هواه أم خالفه.

٤- **ومنها**: أن المُستكبِر ليس له حقٌ في الاستكبار، لقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

٥ ـ **ومنها أيضًا**: أن هؤلاء المُستكبِرين يعملون عمل من لا يظن أنه يرجع إلى الله؛ لأن من ظن أنه يرجع إلى الله فلن يستكبر عنه؛ إذ أنه يخاف منه، لكن الذي يستكبر فهو من ظنَّ أنه لا يرجع إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

٦- **ومنها**: إثبات البعث؛ لأن قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فيقتضي أن الرجوع إلى الله أمرٌ ثابتٌ.

وقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١ ـ **يستفاد منه**: أن الذنوب سببٌ للعقوبة؛ لأن الفاء تُفيد السببية.

٢- **ومنها**: بيان عظمة الله سبحانه وتعالى؛ حيث أخذ هؤلاء الطغاة بما هم من القوة، ونبَذَهم ولم يُبال بهم.

٣ ـ **ومنها**: حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ حيث كان إهلاك فرعون وقومه بالذي كان يفتخر به، في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فإن هذا الذي كان يفتخر به كان محل هلاكه.

٤ ـ **ومنها**: أن فرعون قد هلك فيمن هلك؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ ليس معناه: أنه حيٌّ باقٍ، وإنما الذي أُنجِيَ وظهر للناس هو بدنه فقط ليكون لمن خلفه آية؛ لأن بني إسرائيل لما صاروا مؤمنين قد أرعبهم فرعون، فلولا أنه خرج حتى شاهدوه ببدنه لكان عندهم نوعٌ من القلق، إن كان هلك أو لم يهلك؟ فإذا شاهدوه وتيقَّنوا فزال عنهم القلق، فإذن هو هالكٌ فيمن هلك، لقوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾.

٥ ـ **ومنها** - **أي: من فوائد الآية** -: أنه يُطلب من المرء إما وجوبًا أو استحبابًا أن يتأمل في عاقبة الظالمين ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فيتفرع على هذه الآية: أنه ينبغي لنا أن نتَّعِظ بعاقبة هؤلاء فلا نظلم مثلهم؛ لأن من عاقبة الظالم الهلاك.

٦- **ومنها**: أن الظلم محرم؛ لأنه سببٌ في العقوبة، فما كان سببًا في العقوبة فإنه محرم، وسواء كان الظلم للنفس، أو للغير فإنه محرم بجميع أنواعه، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٥/ ٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

١ ـ **يُستفاد من هذه الآية**: حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في مثل فرعون وقومه من الإجابة للفتنة، فإن الله قادر على أن يجعل الناس على هدى، لكنه ـ سبحانه وتعالى ـ له حكمة في أن يكون مثل هؤلاء القوم الذين يدعون إلى النار.

٢ ـ **ويستفاد منها أيضًا**: حكمة الله تعالى فيمن خلق من أهل الشر، وأنهم بلاءٌ وفتنة.

٣ ـ **ومنها**: إثبات الإمامة للشر كما هي ثابتة للخير، انظر إلى هذه في آل فرعون وانظر إلى هذه في بني إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فالفرق بينهم أن يدعون الناس إلى الخير أو يأخذونهم بشريعتهم، وبين من يدعون إلى النار.

٤ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: أن الدعاء إلى النار وإلى الخير أيضًا، كما يكون بالقول يكون بالفعل، وأيهما أقوى؟ قد يكون الدعاء بالقول أقوى، وقد يكون الدعاء بالفعل أقوى، إنما على كل حال الدعاء بهذا وبهذا ثابت، فإن الإنسان يدعو بمقاله وبحاله.

٥ ـ **ومنها**: إثبات يوم القيامة، في قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ وسُمِّي يوم القيامة لأمور ثلاثة: أنه يقوم الناس كلهم من قبورهم لرب العالمين، وأنه يُقام فيه العدل، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وأنه يقوم فيه الأشهاد ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ولهذا سُمِّيَ يوم القيامة.

٦ ـ **ومنها أيضًا**: بيان أن آل فرعون لا ناصر لهم في الآخرة، ومثلهم مَن كان على شاكلتهم من المُعرِضين عن الحق، فإنهم لا يجدون من ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

١ ـ **يستفاد من هذه الآية**: أن عقوبة آل فرعون قائمة حين تبدأ إلى يوم القيامة، للذكرى السيئة لهم ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فإن كل من دخل على فرعون يذكرهم بالسوء، والبغض، والكراهية.

٢ ـ ومنها أيضًا – من فوائد الآية -: تحقير الدنيا؛ لأن قوله: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ إشارة للقريب لدنوِّ مرتبتها، وأنها دنيا، والدنيا مؤنث أدنى، وهي من الدُّنُوِّ الحسي والمعنوي، أما الدُّنُوُّ الحسي فهي أدنى إلى المخلوقين من الآخرة، وأما الدُّنُوُّ المعنوي فلما تتضمَّنه من النقص من جميع الكمالات، فما من كمال في الدنيا إلا وهو ناقص، والآن لو تأملت في الأشياء الدنيوية لوجدتَّها مشوبةً بالضرر والخطأ، حتى الجهاد، كما قال الشاعر:

وَيَـوْمٌ علينا ويَـوْمٌ لنا ... وَيَـوْمٌ نُسَاءُ وَيَـوْمٌ نُسَرُّ

لو تأمَّلت هذا لوجدته ثابتًا، فعلى هذا تُطلَق الدنيا بأمرين: الدُّنُو الحسي والمعنوي، الدنو الحسي أنها أدنى إلى الخلق من الآخرة، والدنو المعنوي أن ما فيها من شيءٍ إلا وهو مفقود الكمال.

٣ـ **ومن فوائد الآية:** أن اللعنة - والعياذ بالله - التي لُعِن بها آل فرعون تكون عليهم في الآخرة، لقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ وأن المُقبَح معناه: المُبعَد المطرود، واللعن: هو الطرد.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ
لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا
إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَن
تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا
لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا
سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ
أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٣-٤٩].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة، وهي الكتاب بمعنى: مكتوب، والجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، وهي: القَسَم، واللام الواقعة بجوابه وقد؛ وهنا قد يقول قائل: لماذا تؤكَّد هذه المؤكدات الثلاثة مع أنها ليست مقابلة بمُنكِرٍ لها؟ فالجواب: أننا سبق أن قلنا: إن التوكيد ليس سببه إنكار المُخاطَب فقط؛ بل قد يكون سببه: أهمية المُخبَر عنه، فيؤكَّد القسم وباللام وقد، وغيرها من المؤكدات.

آتينا بمعنى: أعطينا، واعلم أن إيتاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينقسم إلى قسمين: إيتاءٌ شرعي، وإيتاءٌ قدري، فما تعلق بالكون والأرض فهو إيتاءٌ قدري، وما تعلق بالشرع فهو إيتاءٌ شرعي ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ هذا إيتاءٌ شرعيٌّ، والمراد به: دفع الصدقات، ومثل ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ هذا إيتاءٌ قدري؛ لأن الإنزال - إنزال القرآن - قدري، فالعمل بالكتاب شرعي؛ لأن أصل الإنزال قدري يتعلق بقضاء الله وقدره، لكن العمل به شرعي.

قوله: ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ موسى مفعول أول لآتينا، والكتاب مفعولٌ ثانٍ، وهي من باب كفى؛ لأنه إذا لم يكن الأول مبتدأ والثاني خبر، فهو من باب لو قلت: موسى الكتاب لا يصلح، فكل مفعولين لا يصلح أن يكون أحدهما مبتدًا والثاني خبرًا فهما من باب فتح، وما صحَّ أن يكون المبتدأ خبرًا فهما من باب ضم، وقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾ يقول: [التوراة] وهو فعال بمعنى: مفعول؛ لأنه التوراة مكتوبة، فالله تعالى كتبها في ألواح وأعطاها موسى.

وقال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ متعلِّق بآتينا يعني: أعطيناه إياه من بعد ما أهلكنا القرون الأولى، القرون جمع قرن، والمراد بهم: الأمم، وقد يراد به: الحقبة من الزمن، ومقدارُها: مائة سنة، فالقرون تارة يراد بها: الأمم، وتارةً يُراد بها: أحقاب الزمن، وهنا المراد أحقاب الزمن أو الأمم؟ الأمم؛ لأن أحقاب الزمن ما تُهلَك، الذي يُهلَك الأمم.

﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم] هؤلاء هم القرون الأولى، وإنما قال الله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ إشارة إلى أن الناس كانوا في حاجة إلى مثل هذا الكتاب الذي نزل على موسى؛ لأن القرون أُهلِكَت فتطاول الزمن فاحتاج الناس إلى إرسال، فأرسل الله تعالى موسى بهذا الكتاب الذي هو التوراة، وقيل: إن القرون الأولى تشمل حتى آل فرعون؛ لأن التوراة ما نزلت على موسى إلا بعد أن أهلَكَ الله فرعون وقومه، فإنه يشمل حتى هؤلاء، حتى إن بعض العلماء استنبط منها: أنه لم تُهلَك أمةٌ بعد نزول التوراة؛ لأن هذا من فوائد قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ كأن إهلاك الأمم السابقة مضى وانقضي ولا إهلاك بعد نزول التوراة، والحقيقة أن من تأمل التاريخ وجد أنه لم تهلك أمة بعد نزول التوراة، لكن هل قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ يشير إلى هذا؟ هذا هو محل البحث والنظر.

قال: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [حال من الكتاب] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ﴾ البصائر [جمع بصيرة، وهي: نور القلب] كما أن بصر وأبصار نور العين، ونور القلب يسمى: بصيرة وبصائر، ونور العين يسمى: بصر وأبصار ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ (ال) هنا للعهد الذهني، وليست للعموم؛ لأن التوراة لم تنزل

لجميع الناس، وإنما نزلت لمن؟ لقوم موسى فقط، كما قال النبي ﷺ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ هل يُخرِج الجن؟ نعم؛ من حيث التكليف والإرسال يُخرِج الجن، فإنه لم يُكلَّف أحدٌ برسالة أحدٍ من الرسل إلى الجن، لكن من حيث العمل يمكن أن يستبصر بها الجن، كما قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فإن الظاهر أنهم انتفعوا بما أنزل على موسى كما انتفعوا بالقرآن.

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ كما تقدم هي للعهد الذهني، قال: [جمع بصيرة، وهي: نور القلب؛ أي: أنوارًا للقلوب] وهكذا جميع الكتب التي يُرسِلها الله عز وجل تكون أنوارًا للقلوب؛ لأنه يكون بها الاتباع، ولهذا قال: [﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة لمن عمل به] تقييد المؤلف: [لمن عمل به] غيرُ وجيهٍ، والأَولى إبقاء الآية على ظاهرها أن التوراة هدى، لكن هذا الهدى ما ينتفع به إلا من وُفِّق، فهي هدى من الضلالة إلى النور، لكن هل ينتفع بها واقعيًا كل أحد؟ لا، كما قال الله تعالى في القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ وقال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ففي الأول: هدى دلالة، وفي الثاني: هدى توفيق، التوراة إذا قلنا: هدى لمن عمل بها قيَّدنا الآية بهدى التوفيق مع أنها مطلقة، ولهذا الأَولى أن نقول: هدى من الضلالة لكل أحد، كما قال: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ وهدًى أيضًا للناس، ولكن الهدى الذي بمعنى الدلالة عام، والهدى الذي بمعنى الاقتداء؛ يعني: يقتدي بها الإنسان هذا خاصٌّ بمن وُفِّق له ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [لمن آمن به] هذه نعم ليس بمفهوم أن المقام يصلح أن يكون رحمة لكن ليس لكل أحد، فيكون هدى باعتبار العلم، ورحمة باعتبار العمل؛ لأن من عمل به فهو مرحوم؛ وأما الهدى فهو باعتبار العلم، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ فالهدي هو: العلم النافع، ودين الحق هو: العمل الصالح.

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعل هنا معناها: التعليل، أما عملها فيستنبط من المبتدأ والخبر، وخبرُها جملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ [يتعظون بما فيه من المواعظ] أي: بما في الكتاب التوراة من المواعظ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كلمة يتذكرون الضمير يعود على من أنزلت عليهم التوراة، وهم: بنو إسرائيل.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: [﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل أو الوادي أو المكان ﴿ٱلْغَرْبِىِّ﴾ من موسى حين المناجاة] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ جانب بمعنى: جهة أو طرف، وقوله: ﴿ٱلْغَرْبِىِّ﴾ صفة لموصوف محذوف، ما هذا الموصوف؟ قال المؤلف: [الجبل، أو الوادي، أو المكان] وأو هنا ليست للتخيير، ولكن الشك؛ لأن بعض علماء النحو يقول: المراد به: الجبل،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٣/ ٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.

وبعضهم يقول: المراد به: الوادي، وبعضهم يقول: المراد به: المكان، كلمة المكان أعم؛ لأنها تشمل أن يكون واديًا أو جبلًا، وموسى - كما تعلمون - نودي من جانب الطور وهو في الوادي المقدس، فالآية الصادقة، والذي يصدق في الوادي، أو المكان، أو الجبل هو كلمة: المكان.

الجانب الغربي منه؛ أي: الجانب الغربي من الجبل، فيكون من باب ردِّ الموصوف إلى صفته، كما يقال: مسجد الجامع؛ أي: المسجد الجامع، على هذا التقدير الأخير يكون المراد الغربي: من نفس الجانب ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أي: بالجانب الغربي للمكان، أما على رأي المؤلف فهو يقول: [﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ بجانب المكان الغربي] أي: بجانب الغربي من موسى وهو يكلم الله، وحينئذٍ نقول: موسى إذا كان وجهه إلى السماء، فالجانب الغربي منه: الغرب، فإذا كان وجهه إلى الشرق فالجانب الغربي منه يكون وراءه؛ لأن المتجه إلى الشرق يكون الجانب الغربي من خلفه، وعلى كل حال فالغربي نسبةً قد تقول: مثلًا القصيم غربًا بالنسبة لمكة، وشرقًا بالنسبة لمكان آخر، بالنسبة مثلًا للمدينة تكون شرقًا، أو جنوبًا، وبالنسبة للكويت تكون غربًا، المهم أن ما كنت بذلك الجانب حين المناجاة [﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أوحينا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ بالرسالة إلى فرعون وقومه] ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ يقول المؤلف: [أوحينا] وعلى هذا فالقضاء يتعلق بالقدر، لكن المؤلف جعله شرعيًا؛ لأنه قضينا الأمر بالرسالة؛ يعني: أمَرناه به، جعل الأمر هنا واحد الأوامر، وليس واحد الأمور، فإذا جعلناه واحد الأوامر، صار هنا المراد بالقضاء: القضاء الشرعي، ويحتمل أن المراد بالأمر هنا: واحد الأمور؛ أي: قضينا إليه ذلك الشأن العظيم، وهو: الرسالة، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهذا واحد الأمور وليس واحد الأوامر، وعلى هذا فيكون القضاء كونيًا.

والقضاء - كما هو معرف - ينقسم إلى قسمين: قضاء كوني، وقضاء شرعي، فالقضاء الكوني لابد من وجود المقضيِّ، والقضاء الشرعي قد يوجد، وقد لا يوجد، والقضاء الكوني يكون محبوبًا إلى الله ويكون مكروهًا إليه، والقضاء الشرعي لا يكون إلا محبوبًا إليه؛ لأنه من هذا الأمر؛ فمثلًا قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ هذا قضاء كوني يحبه الله أو يكرهه؟ يكرهه.

قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ هذا قضاء شرعي؛ لأنه لو كان قضاءً كونيًا للَزِمَ أن الناس كلهم يعبدون الله، وليس الأمر كذلك.

وقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ على رأي المؤلف واحد الأوامر، ولهذا قال: [الأمر بالرسالة إلى فرعون وقومه] أو نقول: إن الأمر واحد الأمور.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [لذلك فتعلمه فتخبر به] وما كنت بجانب الطور، وما كنت من الشاهدين؛ لأن من كان بالجانب قد يرى وقد لا يرى، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

فإذا قال قائل: لماذا لم يقتصر على قوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّٰهِدِينَ﴾؟ قلنا أيضًا: نفس الكلام؛ لأن الإنسان قد لا يشاهد من بُعد ولا من قريب، فهنا تضمَّن أنه قريب وأنه مشاهد، ففرق بين أن نقول: ما كنت شاهدًا؛ يعني: ما كنت قارئًا، أو مشاهدًا بعينك، ولو كنت بعيدًا، ولهذا ليس في الآية الكريمة ضعف ولكن فيها شيء من التبيين؛ يعني: لا حضر و لا نظر، كما يقولون للنبي - عليه الصلاة والسلام -: ما كان حاضرًا حتى يسمع، ولا كان قريبًا حتى يشاهد، إذن فيكون ما أخبر به عن ذلك من باب الوحي لا من باب المشاهدة، ولا من باب السماع، ولكنه وحيٌ أوحي إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ [أممًا من بعد موسى] أنشأنا أي: أوجدنا وخلقنا أممًا ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي: زاد في الطول، والتاء والألف للمبالغة، وقوله: ﴿ٱلْعُمُرُ﴾ المعنى: الزمن؛ لأن الأعمار هي الأزمان، قال: [أي: طالت أعمارهم، فنسوا العهود، واندرست العلوم، وانقطع الوحي، فجئنا بك رسولًا، وأوحينا إليك خبر موسى وغيره].

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾ الاستدراك هنا ما يقتضي إبطال المُشاهَدة، ليس المعنى: فما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونًا، ولكن هذا الاستدراك لتقرير المعنى: والمعنى: أن الدهور طالت وأنت لست بشاهد ولا بحاضر، ولما طالت الدهور صار الناس محتاجين إلى الرسالة، فأوحينا إليك بما جرى، وأرسلناك إلى الناس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾.

قوله: ﴿ثَاوِيًا﴾ [مقيمًا في أهل مدين] والمراد بأهل مدين: القوم الذين أتى إليهم موسى - عليهم الصلاة السلام -، وجرى معه ما ذكر من استئجاره وتزويجه وسيره بأهله، فهل الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان مقيمًا في أهل مدين حتى يخبر عما حصل منه؟ الجواب: لا، إذن فما جاء به من أخبار أهل مدين فإنه عن طريق الوحي، وقوله: ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [في أهل مدين ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ خبر ثان] وأين الخبر الثاني؟ جملة ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: وما كنت تتلوا عليهم آياتنا [فتعرف قصتهم فتخبر بها]، وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ الضمير ظاهرُ كلام المؤلف، وهو أيضًا ظاهر سياق الآية أنه يعود إلى أهل مدين ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [فتعرف قصتهم وتخبر بها].

وقال بعض العلماء - بعض المفسرين -: إن الضمير يعود على قريش؛ يعني: ما كنت ثاويًا في أهل مدين فتتلوا عليهم القصة التي قصصتَها بآياتنا، وهذا أقرب إلى المعنى، وإن كان الأول أقرب إلى اللفظ؛ لأن الضمير يعود على أقرب مذكور، لكنه لا يعود على أهل مدين إلا بتعسُّفٍ شديدٍ، فالصواب: أنه يعود على قريش؛ يعني: ما كنت ثاويًا في أهل مدين فتتلوا عليهم القصة التي جاءت بآياتنا، إذن فأنت رسول؛ لأنك أتيت بها لم تكن شاهدًا فيه ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [لك وإليك بأخبار المتقدمين] مرسلين لك إلى الناس،

وإليك الوحي، فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرسلٌ للناس، ومرسَلٌ إليه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ كان فعل ماض، وهي مسلوبة الزمن، والمقصود بها: اتصاف اسمها بخبرها، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا﴾ (نا) هذه للجماعة، و(كنا) للجماعة، و(مُرسِلين) جمع، مع أن الله تعالى واحد أحد، ولكن ذلك للتعظيم؛ لأن المتكلم المُعظِّم نفسه، أو للمتكلم ومعه غيره؟ وهي بجانب الله بلا شك للمتكلم المعظم نفسه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ولم يقل: ولكنا أرسلناك، كما قال في الآية التي قبلها: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾؛ لأن الرسالة مازالت في الخلق منذ اختلفوا إلى آخر الرسل محمد ﷺ ومتى اختلفوا؟ اختلفوا بعد آدم، بعد أن مضت قرون إما عشر، أو أقل، أو أكثر اختلف الناس، قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ فتقرير الآية: كان الناس أمة واحدة، فاختلفوا، فأنزل الله.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [لك وإليك بأخبار المتقدمين] والفائدة من ذكر أخبار المتقدمين على الرسول ﷺ ليتلوها على الناس لتقرير أنه نبيٌّ؛ لأنه ما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يخُطُّه بيمينه، فإذن يكون ما أخبر به عن موسى يكون من باب الوحي المجرد.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [الجبل ﴿إِذْ﴾ حين ﴿نَادَيْنَا﴾ موسى أن خُذ الكتاب بقوة] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ هذا خبر آخر غير الخبر الأول الذي فيه ابتداء الوحي؛ لأن الله تعالى بعد ما أهلك القرون الأولى واعَدَ موسى ثلاثين ليلة، وأتَمَّها بعشر، واختار من قومه، ثم ذهب إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ لمناجاته وإنزال التوراة عليه.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ جانب أي: جهة الطور، أو قُرب الطور، والطور هو: الجبل المعروف في سيناء، ﴿إِذْ﴾ [حين ﴿نَادَيْنَا﴾] أفادنا المؤلف بأن ﴿إِذْ﴾ هنا ليست تعليلية، ولكنها ظرفية، وهي ظرف لما مضى من الزمان، وإذا ظرف لما يُستقبل، وإذن ظرف للحاضر، وبها وبهذا استكملت الظروف الثلاثة؛ إذا للمستقبل، وإذ للماضي، وإذن للحاضر، قال: [﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ أن خذ الكتاب بقوة] هل الله قال له: خذ الكتاب بقوة يا موسى؟ حين رفع فوقهم الطور قال: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ الظاهر أن المؤلف توهَّم هذا، في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ فهي تفسير لكل شيء ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ إذن قال المؤلف: [أن خُذ الكتاب بقوة] بمعنى أتى به، وإلا فالله يقول: فخذها؛ أي: الألواح التي فيها التوراة بقوة، إذن أُمِر موسى أن يأخذها بقوة، أن يأخذ الألواح بقوة، فعلى كل حال؛ كان المؤلف إذن صواب، ولكنه أتى به بالمعنى لا باللفظ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: خذ هذه الألواح بقوة ﴿وَأْمُرْ

﴿قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾، يقول الله عز وجل: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قوله: ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول لأجله، عاملها محذوف، والتقدير: أرسلناك رحمة، وقوله: ﴿رَحْمَةً﴾ ليس المعنى: أنه هو الرحمة، ولكن معناه: أنه أُرسِل للرحمة، ليرحَمَ به، فالرحمة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأرسله الله رحمةً، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ ليس المعنى: وما أرسلناك إلا حال كونك رحمة، ولكن إلا من أجل الرحمة، فبين المعنيين فرقٌ ﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أضاف الربوبية إلى الرسول ﷺ على سبيل التخصيص والتشريف، وهذه هي الرحمة الخاصة، وهناك رحمة عامة، وفيها دليل – أي: في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ – على أن إرسال النبي ﷺ إلى الخلق ليُرحَموا به أنه من الربوبية الخاصة؛ لأن من نعمة الله على العبد أن يُمهِلَه هُدى ليهدي الناس به، فإن هذا في الحقيقة من أكبر النعم، فالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أُوحِي إليه ليُرحَم الخلق بما أُوحِيَ إليه، وهذا من مُقتضَى الربوبية الخاصة، ولهذا قال: ﴿وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ولم يقل: من ربهم؛ بل ﴿من ربك﴾ الذي رباك تربية خاصة ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام هنا حرف جر؛ لأنها داخلة على (أن) المُقدَّرة؛ أي: لأن تُنذِر، ثم تُحوَّل إلى مصدر فيكون: لإنذارك قومًا، ولهذا على مذهب البصريين تكون اللام حرف جر، وتنذر فعل مضارع منصوب بأن مُضمرة جوازًا بعد اللام، أم على رأي الكوفيين يقولون: إن اللام هي الناصبة، فيقولون: اللام كيف، وهي ناصبة، لكن البصريين أدق منهم في هذه الناحية.

فالحقيقة: أن اللام حرف جر، وأن (أَنْ) هي الناصبة مقدرة، أين المتعلق بـ﴿لِتُنذِرَ﴾؟ متعلقها هذا المحذوف الذي قدَّره المؤلف: [أرسلناك] ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ الإنذارُ هو: الإعلام بما يُخاف، والإعلام بما يُرغَبُ ماذا يُسمَّى؟ بشارة، أو تبشير، وقوله: ﴿قَوْمًا﴾ المراد بهم: قريش، ولا يعني ذلك: أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ مبعوثٌ إليهم خاصة؛ ولكن لأن أول من أنذرهم كانت قريش، وإلا فقد بُعِث لهم ولغيرهم، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ من قريشٍ وغيرهم ﴿نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (ما) نافية و(أتاهم) بمعنى: جاءهم، و(من) حرف جر زائد إعرابًا لا معنى، ونذير فاعل أتى؛ يعني: ما جاءهم نذير، وفائدة زيادة (من): أن التنصيص على العموم في كل الأزمان الماضية ما أتاهم أحدٌ يُنذِرهم قبل الرسول ﷺ، وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ جملة ﴿مَّآ أَتَىٰهُم﴾ في محل نصب صفة لـ ﴿قَوْمًا﴾، وقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ قال المؤلف: [وهم أهل مكة] تفسير لقوم، إذا قال قائل: أليس إسماعيل رسولًا؟ بلى؛ إذن هو قد أتاهم قبل النبي ﷺ، أو يقال: لما طال العهد حتى انمحَت صاروا محتاجين إلى نذير، ولم يأتهم نذير، فما أتاهم من نذير بعد أن انقرضت معالم رسالة إسماعيل، وإلا فلا ريب أن إسماعيل مُرسَلٌ إليهم؛ لأنه نبي، ولكنها انقرضت، ولهذا كان من دعاء إسماعيل

وإبراهيم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وأجمع المفسرون على أن المراد به: محمد ﷺ، فمنذ إسماعيل إلى أن بُعِث الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما جاءهم نبي، وانقرضت معالم النبوة، وكان أول من غيَّرها عمرو بن لحي الخزاعي، فإنه هو الذي أدخل عبادة الأصنام، وأدخل السوائب على العرب حتى انمحى الدين في الحقيقة.

وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعل هذه للتعليل، وهي متعلقة بـ (تنذر) تنذرهم لأجل أن يتذكَّروا؛ أي: يتَّعِظوا بما جئتَ به.

قوله تعالى: [﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر وغيره ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ المرسل بها ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾] لولا هنا تكرَّرت مرتين، وفي كل موضع لها معنى غيره في الموضع الآخر، الأول قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾ الضمير يعود على قريش أهل مكة، وإصابة الشيء بمعنى: نزوله؛ يعني: تنزل بهم مصيبة، والمراد بالمصيبة هنا: العقوبة بسبب كفرهم، وهي – أعني: لولا -: حرف امتناع لوجود، و(أن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ، وجواب (أن) محذوف، كما يُقدِّره المؤلف، وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ أي: بسبب، (بما) اسم موصول؛ أي: بسبب الذي قدمت أيديهم، والمراد بأيديهم: أنفسهم؛ أي: بما قدَّموه، وعبَّر باليد عن النفس؛ لأن اليد في الغالب هي آلة العمل، واعلم أن هناك فرقًا بين إضافة الفعل إلى اليد، وبين إضافة الفعل إلى النفس بواسطة اليد، فمثلًا قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ أي: مما عمِلناه، أو مما خلقناه، وليس المراد: أن الله خلق الأنعام بيد؛ وأما قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فهنا أضاف الفعل إلى نفسه، ثم جعل اليد واسطة، فيدل على أن آدم خُلِق بيد الله.

كذلك مثلًا لو قلت: بما عملت بيدك، فهنا يكون الإنسان عمِلَ الشيء بيده، فهو عمِلَه بنفسه لكن بيده، أما إذا قلت: بما عمِلَت يداك، أو بما قدمت يداك، فالمراد: بما عمِلتَ، سواء عملته بواسطة اليد، أو بالعين، أو بالرجل، أو باللسان، المهم: أنه يُضافُ إليك يُضاف العمل إلى اليد لا إلى العامل بواسطة اليد، فإذا أُضِيف إلى العامل بواسطة اليد صار العمل له لكن من باب أن يُضاف العمل لليد، وإذا أُضِيف العمل إلى اليد صار المراد به: عمل الإنسان، سواء بيده أو بغير يده، فقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ليس كقوله: (بما قدموا بأيديهم)؛ لأن الأول المراد: بما قدَّموا، سواء كان باليد، أو بالرجل، أو بالعين، أو بالأذن، أو باللسان، وقوله: [﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر وغيره] صحيحٌ أن المصائب لا تكون إلا بالمعاصي ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، وهنا قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ بسبب كفرهم ﴿فَيَقُولُواْ﴾ الفاء حرف عطف، ويقولوا معطوف على تصيبهم؛ يعني: فأن يقولوا، متى بعد المصيبة أم قبلها؟ بعد المصيبة، فيقولوا مُحتجِّين على الله: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ﴾ يعني: هلَّا

أرسلتَ إلينا رسولًا قبل أن تصيبنا بالعقوبة ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والحُجَّة لهم أو لا؟ لو أُصِيبوا بغير أن يُرسَل إليهم رسول لكان ذلك حجة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فلولا هذا الأمر أن يُصابوا بكفرهم وذنوبهم، ثم يحتجُّوا على ربهم بأنه لم يُرسِل إليهم رسولًا، فما هو الجواب؛ هل الجواب: لعاقبناهم، أم الجواب: لما أرسلناك إليهم؟ قال المؤلف: [وجواب لولا محذوف، وما بعدها مبتدأ]؛ يعني: والخبر محذوف [والمعنى: لولا إصابة المُسبَّب عنها قولهم، أو لولا قولهم المُسبَّب عنها؛ أي: لعاجلناهم بالعقوبة، ولما أرسلناك إليهم رسولًا] كأن المؤلف جعل الجواب مركبًا من إثبات ونفي، الإثبات قوله: [لعاجلناهم بالعقوبة]، والنفي: [ولما أرسلناك إليهم]؛ لماذا؟ لأنه ذكر أمرين: الإصابة، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، فكان الجواب مركبًا من أمرين، ويجوز أن يكون الجواب مركبًا من أحد الأمرين؛ أي: لعاقبناهم، أو لما أرسلناك إليهم؛ لأن المعنى يتم بدون تقديم الأمرين جميعًا، وعلى هذا فتكون الواو هنا في كلام المؤلف بمعنى: (أو)، وأظن الآية معناها واضح من حيث الإجمال: أنه لولا أن هؤلاء الكفار المستحقِّين للعقوبة بسبب كفرهم، لولا أن يحتجُّوا بأنه لم يُرسَل إليهم رسول لعاقبناهم بدون أن نرسلك، أو لما أرسلناك إليهم، فيكون إرسال النبي - عليه الصلاة والسلام - إقامةً للحجة عليهم، ودفعًا لحجتهم، ودحضًا لها، فكان النبي - عليه الصلاة والسلام - أُرسِل إليهم قبل أن يؤخذوا بالعقوبة، وهذا يقتضي أنهم إذا كذَّبوه كانوا مستحقين للعقوبة؛ لأن الحجة التي يحتجون بها قد زالت.

عندنا الإعراب أظننا فهمناه من كلام المؤلف، لولا الأولى شرطية، وهو حرف امتناع لوجود، ولولا الثانية تحضيضية بمعنى: هلَّا، وقوله: ﴿فيقولوا﴾ معطوف على قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُم﴾، وقوله: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية الواقعة في جواب لولا التحضيضية، وإذا وقعت الفاء بجوابها نُصِبَ الفعل بأن مضمرة، ابن مالك يقول:

وبعد فا جواب نفي أو طلب محضين أن وسطرها حتمٌ نصب

يعني: أن (أن) تنصِب بعد فاء الواقعة في جواب طلب أو نفي محضين، وسطرها أي: حذفها وجوبًا حتمًا، وأظنه موجود بيت يقرأه الطلاب منذ صغرهم لما تنصب فيه أن مُضمرة في جواب، وهو:

مُرْ وادعُ وانهَ وسَلْ واعرِض وحضِّهم تمنَّ وارجُ كذاك النفي قد كَمَل

هذه تسعة إذا وقعت الفاء جوابًا لواحد منها فإنه ينصب الفعل بعدها بأن مضمرة.

أما (مُر) فهو الإشارة إلى الأمر، كما تقول: انزل عندنا فنُكرِمك، (وادعُ) هذا دعاء الله، قال

الشاعر:

ربِّ وفِّقني فلا أعدِل عن سَنَن الساعين في خير سَنَن

وتقول: رب وفقني فأعمل صالحًا، (وانهَ) ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾، (وسَل)؛ يعني: اسأل استفهام ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ موصولة فعل بأن، (واعرِض) العرض، كما في قول القائل: (ألا تنزل عندي فتصيب خيرًا) عرض، (لحضِّهم) هذا التحضيض، منه هذه الآية: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾، (تمنَّ) المراد به: التمني، تقول: ليت لي مالًا فأتصدَّق منه، (وارجُ) الرجاء الترجِّي يعني ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ (كذاك النفي) غير النهي، فتقول: ما تعلَّم زيدٌ فيُعلِّمني، هذه تسعة مواضع إذا وقعت الفعل بعدها فإنه ينصب الفعل بأن مُضمرة.

قال المؤلف: [﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ المُرسَل بها ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجواب لولا محذوف] المعنى: إنا أرسلناك يا محمد إقامةً للحُجَّة عليهم، ورحمةً بهم أن يصيبهم العذاب بدون أن يرسل إليهم رسولًا، ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الحق ذكرنا فيما سبق أنه الشيء الثابت، وأنه فيما يقابل الأوامر هو العدل، وفي مقابلة الأخبار هو: الصدق، والمراد بالحق هنا قال المؤلف: [إنه محمد ﷺ]، وكأنه عدل به عن المعنى الظاهر منه من أجل قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: لولا أوتي هذا الحق مثل ما أوتي موسى، فكأن المؤلف عدل عن معنى الحق الظاهر إلى أن يكون محمد ﷺ في هذا، ولكن الصواب: أن المراد بالحق: الوحي الذي نزل على محمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ والعِندية تقتضي القُرب، وأن يكون ذلك من الله، وهذا لا يُتصوَّر أنه محمد ﷺ؛ بل هو الحق الذي جاء به، كما أن مثل هذه الآية: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ في جميع مواضع القرآن هي مُطَّردة أن المراد به: الوحي الذي نزل على محمد ﷺ، ويكون قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ أي: محمدٌ الذي جاء بهذا الحق، فمعنى الآية هنا ظاهر جدًا ولا فيه تكلُّف، ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ يؤيِّد أن يقول: الحق محمد؟ نقول: لا حاجة إلى ذلك، ما دام جاء الحق والذي جاء به محمدٌ، فيكون معلومًا أن قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ يعني: محمدًا ﷺ الذي جاء بالحق، وليس محمدًا هو الحق، ولهذا ليس من أسماء الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الحق، نعم هو ﷺ صادق فيما جاء به من نبوة، ولكنه جاء بالحق.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ﴾ الضمير يعود على من؟ يعود على من جاءهم الرسول - عليه الصلاة والسلام -، ﴿قالوا لولا﴾ [هلَّا] تحضيضية، وليست شرطية، [هلَّا] ﴿أوتي﴾ أي: أُعطِيَ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ يعني: من الآيات، وهذا الجواب فيه إشكال إذا جعلناه عائدًا إلى قريش؛ لأن قريشًا - كما هو معلوم - قومٌ أميون لا يعلمون عن الرسل شيئًا،

فكيف يعارضون في قصة موسى؟ أجاب المفسرون عن ذلك: بأن قريشًا كانت عندما بُعِث الرسول - عليه الصلاة والسلام - تراسل اليهود وتقول: جاءنا رجلٌ يقول: إنه نبي، فما هي علامات الأنبياء عندكم؟ فتخبرهم اليهود بعلامات الأنبياء، ولهذا عارضت قريشٌ النبي ﷺ في الآيات التي جاءت لموسى، ويحتمل أن قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾ عائدٌ إلى اليهود؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - مبعوث إليهم، ويؤيد هذا الاحتمال قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فهو أحد الكتب الثلاثة الباقي أثرها، وهو الإنجيل والقرآن والتوراة.

١ - **يستفاد منه:** أن إتيان التوراة كان بعد إهلاك الأمم السابقة، ومنهم: فرعون، واستنبط منها بعض العلماء من قوله: ﴿أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أنه لم تهلك أمة على العموم بعد نزول التوراة ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ﴾ وكأنه بعد ما أنزل التوراة ما أهلك أحد من القرون، وهذا الاستنباط ليس ببعيد؛ لأن الواقع يُصدِّقُه.

٢ - **ويستفاد من هذه الآية:** أن الكتب النازلة من السماء أنها أنوار للناس يهتدون بها، لقوله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** أن التمسك بشرائع الله تكون به الرحمة، لقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحۡمَةً﴾.

٤ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الكتب النازلة من السماء هي التي بها الهدى من الضلال، لقوله: ﴿وَهُدًى﴾.

٥ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الحكمة من إنزال هذه الكتب تذكُّر الناس بما فيها من المواعظ، لقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٦ - **ومن فوائدها أيضًا:** إثبات الحكمة في أفعال الله - سبحانه وتعالى -، وكذلك في شرائعه؛ لأن لعل معناها: التعليل، فيُستفاد منها إثبات الحكمة في أفعال الله وشرائعه، ولكن من الذي أنكر الحكمة؟ هم الجهمية يقولون: إن الله تعالى ليس له حكمة فيما يفعل وفيما يشرع، وإنما هو بمجرد مشيئة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** تقرير رسالة النبي ﷺ، وذلك لما أخبر به عن هذه الوقائع التي ليس حاضرًا فيها ولا شاهدًا.

٢ ـ **ومنها أيضًا**: أن الوحي يسمى قضاء، لقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾.

٣ ـ **ومن فوائدها أيضًا**: أن الوحي ذو شأن عظيم؛ لأن الله سماه الأمر، وهذه الكلمة محلاة بـ (أل) الدالة على العظمة والكمال، ولا ريب أن أعظم الأمور ما جاءت به الرسل من وحي الله ـ سبحانه وتعالى ـ لما فيه من مصلحة البلاد والعباد.

٤ ـ **ومنها أيضًا**: أن الإنسان لا يُقبَل خبره إلا إذا كان حاضرًا يسمع، أو شاهدًا يرى، لقوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فإن الذي يمكن أن يخبر هو من حضر فسمع، أو من قرُبَ فشاهَد، أما الإنسان الذي يخبر بدون شهادة، أو بدون شهود ولا حضور فإنه لا يُقبَل خبره، وهٰذا أمر معلوم من الشرع من جهة أخرى، ومن آيات أخرى أن الإنسان لا يشهد إلا بما علم من رؤية، أو سماع، أو غيرهما من أسباب العلم.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ هذه الآية معلوم تفسيرها على ما سبق، ﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

١ـ **من فوائد الآية الكريمة**: تكذيب دعوى هؤلاء بقولهم: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ فإنه قد جاءهم الحق مع الرسول ومع ذلك كذَّبوا، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ ففي الآية: تكذيب هؤلاء الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائدها**: أن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق، والحق بمعنى: الشيء الثابت، وهو بالنسبة للأخبار: الصدق، وبالنسبة للأحكام: العدل.

٣ ـ **ومن فوائدها**: أن ما خالف ما جاء به النبي ﷺ فهو باطل، لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾، فكل خبر يتضمن تكذيب خبر الله ورسوله فهو الكذب؛ فمثلًا: إذا قال قائل: أصل الإنسان قرد ثم تطوَّر فصار إنسانًا، ماذا نقول له؟ كذب؛ لأنه مخالف ما جاء به النبي ﷺ، وإذا شرَّع الإنسان قوانين مخالفة للشرع، فإن هذا باطل وضلال؛ لأن الحق في ما جاء به الشرع فقط.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: بيان عُتوِّ هؤلاء المكذِّبين للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عُتوِّهم وعنادهم، وهو أنهم كذَّبوا بالحق بعد أن قالوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائد الآية**: أن قريشًا عندهم بعض المعلومات عن الرسل السابقين؛ حيث قالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ وبأي وسيلة حصلوا على هذا العلم؟ عن طريق اليهود؛ لأنه لما جاء الرسول ﷺ، أرسلوا إلى اليهود يفتون عن أخبار هذا الرجل، فكتبوا لهم بما يعرفون من أخباره، وبما جاء به موسى.

٦ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات رسالة موسى ﷺ، لقوله: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها**: أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعطاه الله تعالى آيات يؤمن على مثلها

البشر، وهذا ليس خاصًا به؛ بل هو لكل رسول بعثه الله، لابد أن يؤتيه من الآيات ما يؤمن على مثلها للبشر؛ لأن البشر لا تصدق رجلًا قال: أنا رسول الله إليكم، آمركم بكذا وأنهاكم عن كذا، واتركوا ما كان عليه آباؤكم من عبادة الأصنام، واتركوا ما كان عليه آباؤكم من تحريم الحلال، وما أشبه ذلك، ما يقبلوه إلا بآيات تدل على صدقه وتؤيده.

٨ـ **ومنها أيضًا:** إبطال حجة هؤلاء المكذبين ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

٩ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أنه ينبغي في مقام المناظرة والمجادلة أن يُفحَم الخصم بإبطال قوله بقوله، أي: أن يُبطل قوله بما جرى منه هو؛ لأن ما جرى منه لا يمكن أن يُنكِره، ولو أنكره ما قُبِل، فكلما أُقيم الحجة على الخصم من فعله وقوله هذا أبلغ في إفحامه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

١٠ـ **ومنها:** أن طبيعة البشر واحدة بناءً على أن قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ أن الضمير يعود على جنس الإنسان، فإن طبيعة البشرية واحدة.

١١ـ **ومنها أيضًا:** أنه ينبغي أيضًا عند المخاصمة أو عند المناظرة إبطال قول الخصم بالواقع، أن تُبطِل قول الخصم بالأمر الواقع، فإن الآيات التي جاء بها موسى لهؤلاء كُذِّبت، ما آمن بها البشر، إذن فالمدار ليس على جنس الآيات، ولكن المدار على حال المخاطب، الآيات قائمة مُبيِّنة، لكن ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

١٢ـ **ومنها:** أن أهل الباطل يُلقِّبون أهل الحق بألقاب السوء تنفيرًا للناس عن قبولهم، يؤخذ من قوله تعالى: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ﴾ أو (قالوا ساحران تظاهرا) فسواء وصفوا ما جاءت به الرسل بالسحر، أو وصفوا الرسل أنفسهم بالسحر، فإن المقصود من ذلك: تنفير الناس عن قبول ما جاءت به الرسل، هل نقول: إن هذه القاعدة ثابتة لأتباع الرسل؟ ثابتة، بدليل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٢].

والله تبارك وتعالى قد جعل لكل نبي عدوًا من المجرمين، والعدو من المجرمين عدوٌّ للنبي بشخصه، أو عدوٌّ له بوصفه؟ بوصفه، بدليل: أن محمدًا ﷺ قبل أن تأتيه الرسالة وهو عند العرب: الصادق الأمين، ويرَونه أنه من أفضل بني هاشم، وأفضلهم بالعرب، فلما جاءهم بالحق صار الخائن الكذوب، إذا كان هؤلاء المجرمون يعادون الرسل بوصفهم فمعنى ذلك: أن المعاداة ستنتقل إلى من تابع هؤلاء الرسل؛ لأن المعنى الذي حصلت به العداوة موجود أيضًا في أتباع الرسل، وعلى هذا فيمكن أن نأخذ منه فائدة، وهي: طمأنة أتباع الرسل وتثبيتهم على أنهم سينالون من ألقاب السوء، ومن المعاداة مثل ما نال الرسل، فعليهم أن يُقابِلوا ذلك بالصبر،

والثبات، والقوة، لا أن ينخذلوا؛ بل يكونوا كما كان متبوعوهم ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾.

١٣ ـ **ومنها أيضًا:** أن التعاون حتى على الباطل له تأثير وتقوية، من أين تؤخذ؟ من قوله: ﴿تَظَاهَرَا﴾ فإذا كان التعاون في الباطل له تأثير، فما بالك بالتعاون في الحق، وعلى هذا فينبغي لنا ـ وهي الفائدة التي تترتَّب على ذلك ـ ينبغي لنا أن نكون متعاونين فيما نحن عليه من دعوة الحق، وألَّا يخذل بعضُنا بعضًا، خلافًا لما كان عليه الناس اليوم فإنهم في هذا الباب ليسوا بمتعاونين، حتى أهل الحق وأهل الدعوة تجدهم غير متعاونين؛ لأنهم أولًا: كل واحد همه إلا نفسه، وثانيًا: أنهم ربما يختلفون في أمرٍ بسيط جدًّا من أمور الدين ويتعادون على ذلك، يمكن يخالفوا في كيفية رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام، هذا يقول: أنت على ضلال، وهذا يقول: أنت على ضلال، ماذا تُثمِر هذه الكلمة؟ تُثمِر الحقد والبغضاء والعداوة، فنقول: إن التعاون له تأثيرٌ بالغ، وأظنكم تعرفون قصة الصحيفة التي كتبت قريش في مقاطعة بني هاشم، كيف نقضوا هذه الصحيفة؟ ما جاء واحد من الناس ينقضها، ما يستطيع، لكنه ذهب إلى فلان، وقال ووبَّخ: بنو هاشم قوم منكم، كيف ترضون أن تقاطعوهم حتى يموتون، وذهب إلى آخر، وإلى ثالث، ورابع، حتى كوَّنوا جماعة، وذهبوا إلى هذه الصحيفة ومزَّقوها، فإذن التعاون أساس النجاح في المجال العام، وانظر إلى كلمة المجرمين قالوا: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾، فيه بيان عُتوِّ هؤلاء أيضًا؛ من جهة أنهم لم يؤمنوا بالأمرين ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾.

١٣ـ **ومنها أيضًا:** أن تقديم المعمول في قوله: ﴿بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ يفيد الحصر مع أنهم كفروا بما أنزل عليهم، لكنه سبق أن قلنا: إن هذا الحصر المقصود به: إغاظة الخصم، كأنهم يقولون: لو آمنا بكل شيء ما كفرنا إلا بهما، والمعلوم أنهم يكفرون بغيرهم، وهذه فائدة قليلٌ من ينتبه لها، وهو: أنه إذا كان الشيء غير محصور في هذا الشيء، ولكنه قصر فيه فلابد أن يكون هناك غرض، فالغرض هنا: الإغاظة، كأنهم يقولون نحن وإن آمنا بكل شيء، فنحن كافرون بما جئتم به ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه من العدل التنزُّل مع الخصم إلى حال يُقِرُّ بها، فإنه من المعلوم أن الله - سبحانه وتعالى - يعلم أنه لا يمكن أن يأتوا بما طلب منهم، فقد طلب منهم أن يأتوا بكتابٍ أهدى من التوراة والقرآن، والله يعلم أنهم لن يأتوا بذلك، كيف يقول للرسول ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ مع أنه يعلم أنه لا يمكن؟ هذا من باب التنزُّل مع الخصم إلى غاية ما يكون العدل، كأنه جعله مع الخصم شيئًا واحدًا، فيقول: أنتم هاتوا كتاب أهدى من التوراة والقرآن أتبعه أنا ألتزم باتباعه، فإذا لم يأتوا يلزمهم أن يتبعوا التوراة والقرآن؛ لأنهم ما داموا أني ألتزم لهم بأنكم إذا

أتيتم بكتاب أهدى منهما فأنا أتبعه، فأنتم واجب عليكم أن تتبعوه، ما دام لم تجدوا، إذن فيه التنزُّل مع الخصم؛ لأن ذلك من تمام العدل في المناظرة.

٢ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا:** إفحام الخصم بالتحدي، ولو أنكم قرأتم آخر سورة الطور لوجدتم فيها شيئًا غريبًا من المناظرة من قوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ تجدون آداب كثيرة من المناظرة ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾، إن كان الأمر ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ إن كان الأمر كذلك ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ فالمناظرة يعني: الله سبحانه وتعالى في المناظرة يجعل الخصم يُفْحَم بتحدِّيه بما لا يستطيع، فهنا لا يستطيعون أن يأتوا بمثله فتقوم بذلك عليهم الحجة.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** أن التوراة والقرآن من عند الله، فيكون القرآن والتوراة كلام الله، لكن القرآن نزل وحيًا، والتوراة نزلت كتابة، كتبها الله بألواح ألقاها إلى موسى.

٤ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا:** أنه لا يلزم الإنسان الانتقال عمَّا كان عليه إلى غيره إلا إذا كان أهدى منه، أنه ما يلزم من انتقالي من مذهب الحنابلة إلى مذهب الشافعية حتى أرى أنه أصوب، ما يجب الاتباع إلا إذا كان ما جاءوا به أهدى منه، أما إذا كان مُساويًا فأنتم لا تُلزِموني وأنا لا ألزمكم إذا كان مساويًا، إنما الإلزام حينما يكون ما جاء به الخصم أهدى مما أنا عليه، وهذه فائدة مهمة جدًّا، وهي: لا يلزم الإنسانُ الإنسانَ الانتقال مما هو عليه من طريقة أو مذهب إلا إلى ما هو أصوب وأهدى منها، أما عند التساوي فإنه لا يُلزَم ولا يُلام أيضًا إذا ما انتقل، وأما أيضًا إذا كان الرجوع إليه أدنى فإنه من باب أولى لا يلزم، فالمراتب الآن ثلاث: إما أن يكون ما تُدعَى إليه أدنى مما أنت عليه، أو أهدى، أو مساويًا، إن كان أهدى يلزم الاتباع، وإن كان أدنى حرُمَ الاتباع، بقينا إذا كان مساويًا هل يلزم الاتباع، أو يحرُم، أو يُخيَّر فيه الإنسان؟ العلماء يقولون في مثل هذه الحال: يُخيَّر الإنسان، قالوا: وإذا أفتاه عالمان ولم يكن عنده أحدهما أرجح، فإنه يُخيَّر في اتباع أي القولين شاء، وأي قول شاء، وربما يُفهَم حكم هذه المسألة من هذه الآية؛ لأنه ما أوجب الله الاتباع إلا إذا كان أهدى، ومعلوم أنه إذا كان أدنى كان الاتباع محرمًا، فيبقى المساوي ليس إلى جانب التحريم وليس إلى جانب الوجوب، وهذه مرتبة أخرى.

٥ ـ **ومنها أيضًا:** أن التحدِّي أيضًا يكون بالوصف كما يكون بالفعل ﴿فَأْتُواْ﴾ تحدِّي بالفعل ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تحدِّي بالوصف، إن كنتم من الصادقين أن ما أنتم عليه حق فأتوا بهذا، وإلا فأنتم من الكاذبين، ولهذا قال: ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

التفسير

قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ أي: فإن انتفى استجابتهم لك، ففيه جواز التعليق بالشرط فيما هو مُحقَّق الوقوع؛ يعني: معناه: إن لم يستجيبوا لك هذا مُحقَّق، فهل يظن الظان أن فيه احتمالًا أن يستجيبوا؟ لا يظن، إذن فنقول: جواز تعليق الشيء المحقق بالشرط، ولو كان مُحقَّقًا أنه لا يكون، وكذلك ولو كان محقَّقًا أنه كائن، فهنا الانتفاء كائن لا محالة، ومع ذلك عُلِّق بالشرط، وفي الحديث عن النبي - عليه الصلاة والسلام - قال: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»[1] يقول لأهل المقابر، ومعلوم أن هذا الأمر محقق.

إن هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ ليس عندهم حجة سوى اتباع أهوائهم، لقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وهل معنى ذلك: أي: فلا تجادلهم؛ لأن المتبع هواه مُكابِرٌ، الذي يتبع هواه مكابر ما دام لم يُرِد الحق، وإنما يريد أن ينتصر لنفسه فقط ويتبع هواه؟ فأعتقد أن مثل هذا الرجل ما يمكن أن يُجادَل، لا يُجادَل ما دام صاحب هوى ، فهل نقول: إنه إذا عُلِم بأن المُجادل يريد اتباع هواه، فإنه لا فائدة من جِدَاله؛ لأنه إضاعة وقت، ولهذا قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ يعني: ولا فائدة من جدالهم، فإذا كنت بيَّنتَ للإنسان الحق ووضحته بأدلته النقلية، والعقلية، والحسية حسب ما هو موجود من الأدلة، ولكنه أصرَّ إلا أن يبقى على ما كان عليه، فاعلم أنه متبع لهواه، والمُتبِّع لهواه مشكل، ما يمكن أن الإنسان يتطلَّب الهدى، ما يمكن أن يتبع، ولهذا نقول في هذه الحال: لا يجب على المرء مجادلته، وإنما يُنتقل إلى شيء آخر، وهو: معاقبته ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ فالمعاند غير من يريد اتباع الحق ولم يظهر له، المعاند له حال، وقد قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يعني: وإن لم تنفع فلا تُذكِّر، وهذه تقدَّم الكلام عليها.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية:** اختلاف الناس في الضلال، فليسوا على حد سواء في الضلال، كما أنهم ليسوا على حد سواء في الهدى، وليسوا على حد سواء في الغيِّ، وليسوا على حد سواء في الرشد،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٩/ ٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ففي هذا دليل: على أن الناس يتفاوتون في الضلال، ولكن ما أحد أضل من هذا الذي اتبع هواه بغير هدًى من الله.

٢ ـ **ومنها أيضًا:** أن الهوى قد يكون موافقًا للهدى ﴿ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أما من اتبع هواه بناءً على هدًى من الله، فهذا طيب أن يكون هواه تَبَعًا لما جاء به الحق، وقد ذكرنا لكم الحديث المروي عن النبي - عليه الصلاة والسلام -: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»، فالحاصل: أن الهوى المذموم هو الذي ليس على هدى.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** أن الظالم قد عرَّض نفسه لحرمانه من الهدى، أو إن شئت فقل: إن الظلم سببٌ لحرمان الظالم من الهدى، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالظالم هو الذي حَرَمَ نفسه من الهدى؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والقدريون يرون أن الإنسان يمكن أن يهتدي بنفسه، وليس لله تبارك وتعالى عليه أي سلطة؛ لأنهم - والعياذ بالله - ماذا يقولون بالنسبة لقدر الله؟ أن الأمر أُنُف؛ بمعنى: أن الله ما قدَّر أفعال العباد، وإنما أنا أفعل وأترك باختياري المجرد المحض، وليس لله في تقديره أي مشيئة، ولا خلق، ولا شيء، لكن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يرد عليهم، كما أنه أيضًا يرد على الجهمية الجبرية الذين يقولون بالجبر؛ لأن الله نسَب هؤلاء بفعلهم إلى الظلم، ولو كانوا مُجبَرين عليه لكان نسبة الظلم إليهم ظلمًا، والله ـ تبارك وتعالى ـ لا يظلم أحدًا، ففي الآية إذن ردٌّ على القدرية وردٌّ على الجبرية، والجبرية جهمية؛ يعني: الجهمية من مذهبهم الجبر، ففيهم ثلاث جيمات - كما قال ابن القيم في «النونية» - كلهم جيمات ذم:

جـــبرٌ، وإرجـــاءٌ وجـــيمُ تجهُّـــمٍ ....

فهم جبرية مُرجئة جهمية، الله يكفينا شر هؤلاء الثلاث، على كل حال؛ في الآية الكريمة ردٌّ على الطائفتين الضالتين، وهما: القدرية والجبرية والقدرية، والقدرية يُنكرون قدر الله في فعل العبد، والجبرية بالعكس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن من تحرَّى العدل فإنه قد تعرَّض للهداية؛ لأن الظلم ضد العدل، وانتفاء الهداية بوصف الظلم، يقتضي ثبوت الهداية بوصف العدل، فمن تحرَّى العدل فإنه يُوفَّق للهداية فالعدل سببٌ للهداية، وهكذا كل من تحرَّى الخير ـ نسأل الله أن يُوفِّقنا لتحرِّيه ـ كل من تحرى الخير فإنه يوفق له، إذا كانت النية صادقة والعزم أكيدًا.



❁ قال الله تعالى:

﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥١-٥٤].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَصَّلْنَا﴾ من التوصيل، وحروفها الأصلية: وصل، والوصول إلى الشيء: بلوغ غايته، والمعنى: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يُؤكِّد في هذه الجملة بطرق ثلاثة، وهي: القسم، واللام، وقد، أنه وصَّل لهم القول.

وقوله: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ المعروف أن وصل تتعدَّى بـ (إلى) فيقال: وَصَل إليه، ويقال: وصَّل إليه، وأوصَل إليه، هذا معروف، وهنا عُدِّيَت باللام، تعديتها باللام؛ لأنها تضمَّنَت معنى البيان، معنى الوصول والبيان، ولهذا قال المؤلف في تفسيرها: [بيَّنَّا لهم]، وقد مرَّ علينا أن اللغة العربية قد تُعدِّي العامل بغير ما يتعدَّى به؛ لماذا؟ ذكرنا أن لعلماء النحو في ذلك طريقين: الطريق الأول: التجوُّز في الحرف، والطريق الثاني: التجوُّز في الفعل؛ فمثلًا: هنا أوضح مثالًا: قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ العين يُشرَب بها، أم منها؟ يُشرَب منها، والذي يُشرَب به الإناء، لكن العين يُشرَب منها، فالآية الكريمة قال الله فيها: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، فمعلوم أن الفعل هنا عُدِّيَ بغير ما يتعدَّى به، فقال بعض النحويين: إن التجوُّز بالحرف وأن الباء بمعنى: (مِن)، وقال بعض النحويين: بل التجوُّز بالفعل يشرب؛ لأنه يتضمَّن معنى يروى، فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يروى بها إذا شرِبَ منها، وهذا في الحقيقة أصح، وهو مذهب البصريين، يرون أن هذا التجوز وأن مذهب التجوز موافقة له في التعبير.

فهنا نقول: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ المعروف أن وَصَل أو وَصَّل يتعدَّى بـ (إلى)، وهنا عُدِّي باللام، فنقول: إما أن تكون اللام بمعنى: إلى، وإما أن نجعل وصَّل بمعنى مُشربًا معنى البيان، فمعنى وصلنا إليهم ببيان ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ القول يقول المؤلف: [القرآن]، ولعله أعم مما قال المؤلف، المراد بالقول: أي: قولنا، فالله تعالى ما زال يُنزِّل لعباده سبحانه وتعالى من قوله ووحيه ما تصلح

به أمورهم حتى يصل في الغاية إلى ما زال - سبحانه وتعالى - يوصل القول إلى عباده وهو: الوحي إلى أن وصل إلى محمد ﷺ، وهو القرآن.

وقوله: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: ما أغفلناهم؛ بل ما زالت أقوالنا تصل إلى الخلق وتبين لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعل هنا للتعليل؛ أي: لأجل أن يتذكروا، فالتذكُّر بمعنى: ذكر الشيء لكن لا لمطلق الذكر ولكن للاتعاظ به، المؤلف رَحِمَهُ اللهُ دائمًا يُفسِّر يتذكرون بلازمه، وهو: الاتعاظ، والأصل: التذكُّر، تذكَّرتُ الشيء؛ أي: كنت منه على ذُكْر، لكن المراد: لازمه، وهو: الاتعاظ، أما مجرد الذكر بدون اتعاظ فهذا لا ينفع، والمؤلف يقول: [يتعظون] أي: تؤثر فيهم الموعظة والقول [فيؤمنون].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ آتيناهم بمعنى: أعطيناهم، والإيتاء هنا شرعي أو قدري؟ إيتاءٌ شرعي، ويحتمل أن يكون آتيناهم إيتاءً قدريًا، قدَّرنا أن يأتيهم الكتاب - وهو الوحي – فأتاهم، وقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾ بمعنى: المكتوب، والمراد به: التوراة والإنجيل، كلها تسمى كتابًا، وقوله: ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ الضمير يعود على القرآن ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل القرآن ﴿هُم﴾ أي: الذين آتيناهم ﴿بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصدِّقون له وينقادون له.

الإعراب: «الذين» مبتدأ في قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، وجملة ﴿آتَيْنَاهُمُ﴾ صلة الموصول، و﴿هُم﴾ مبتدأ ثان، و﴿بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبرُ المبتدأ الأول، والفائدة من تكرار المبتدأ لأجل أن يكون إسناد الإيمان إليهم مرتين؛ مرة بالضمير هم، ومرة بالمبتدأ الأول (الذين).

وقوله: ﴿هُم بِهِ﴾ وأتى بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في الفعل المضارع الدال على الاستمرار إشارة إلى أنهم تلقَّوه عن قبول وإذعان، وأنهم ما زالوا على هذا الأمر، فهذه الجملة بالنسبة لما قبلها في المعنى كأنها إقامة دليلٍ على الذين كذَّبوا بالقرآن؛ يعني: كأنه يقول: الذين أُوتُوا الكتاب من قبلكم آمنوا بالقرآن، مما يدلّ على أنه حق؛ لأنهم هم مع أنهم أهل كتاب تركوا كتابهم وآمنوا بالقرآن، وأنتم أهل جهل وليس لديكم كتابٌ فكان حقًّا عليكم أن تقولوا: هذا لغو في الإيمان؛ لأنه من الصعب أن الإنسان ينتقل من كتابه أو من دينه إلى دين آخر، لكن ليس من الصعب أن الإنسان ينتقل من جهل إلى حق وعلم، كما أن فيه أيضًا تأييدًا لهؤلاء، وفيه أيضًا دليل على أنه حق؛ لأن الذين أُوتوا الكتاب ما آمنوا به إلا عن علم، وهو كذلك، وإنه ما من شك أن النبي ﷺ كان مكتوبًا عند بني إسرائيل في التوراة والإنجيل يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، حتى أوصافه الخِلْقية موجودة عندهم، بقطع النظر عن منهاجه وسيرته؛ يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، هذا كله موجود في التوراة والإنجيل ومعروف، ولهذا تجمَّع اليهود في المدينة من أجل أن يستقبلوا هذا النبي الذي

وجدوا صفته عندهم فيؤمنون، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: يستنصرون عليهم بهذا النبي ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ فالحاصل: أن في هذه الآية أقول: إنها متعلقة بما قبلها من وجهين:

الوجه الأول: تأنيب هؤلاء الجاهليِّين على الكفر بمحمد ﷺ مع أن أهل الكتاب - وهم على دين - انتقلوا من دينهم إلى دينه، فكنتم أولَى باتباعه.

الوجه الثاني: أنه إقامة دليل على صحة ما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام -؛ لأن هؤلاء الذين عندهم علم من الكتاب ما انتقلوا إلا عن علم في أنه حق، وهذه المناسبة واضحة جدًّا بين هذه المسألة والتي قبلها.

ولا ريب أيضًا أن في هذه الآية ثناء على الذين آمنوا بالرسول - عليه الصلاة والسلام - من الذين أوتوا الكتاب ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ فلم يستكبروا عنه مع أن لديهم كتابًا.

قال: ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [أيضًا] ما معنى أيضًا؟ يعني: كما آمنوا بكتبهم.

وأيضًا يقولون: إنها من الأسماء الملازمة للنصب على المصدرية؛ لأن فعلها آضَ يئيضُ، أيضا مثل: باع يبيع بيعًا، وأن معناها: رجع، فالمعنى: أنهم هم أيضًا يؤمنون بالقرآن، قال المؤلف: [نزلت في جماعة أسلموا من اليهود؛ كعبد الله بن سلام وغيره، ومن النصارى قدموا من الحبشة ومن الشام] وكذلك من غير الشام، [أسلموا من اليهود] مثل: عبد الله بن سلام، واشتهر عبد الله بن سلام بالإسلام، وهو من اليهود؛ لأنه كان حَبْرًا من أحبار اليهود، وكان كما قال اليهود عنه في حضرة النبي - عليه الصلاة والسلام -: إنه خيرهم وابنُ خيرهم، وسيدهم وابنُ سيدهم[1]، يعترفون له بالفضل، والعلم، والسيادة، فلهذا كانوا يضربون به المثل؛ لأن مثل هذا الذي يكون سيدًا في قومه قد تحمله السيادة على العناد، وقد يحمله أيضًا حب الرئاسة على عدم الاتباع لغيره؛ لأنه إذا تَبعَ غيره صار مرؤوسًا لا رئيسًا، لكنه رضي الله عنه أبَى تواضعًا للحق، فكان مؤمنًا بالرسول - عليه الصلاة والسلام -، وقصة إيمانه معروفة، فإن الرسول خبأه ودعا اليهود وسألهم عنه، فأثنوا عليه، وسألهم عن رسالة الرسول ﷺ، فكذَّبوا الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فقال لهم: ما رأيكم لو أسلم عبد الله بن سلام؟ فقالوا: حاشاه من ذلك؛ لأنه خيرهم، فخرج وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فما خرجوا إلا وهم يُثْنُون عليه شرًّا؛ لأنه أسلم، كذلك نزلت في جماعة من النصارى قدِموا من الحبشة، قدمَ نصارى من نجران وأسلموا، وفيهم نزلت: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾، ولكن الحبشة المعروف أنه أسلم فيها نصارى؛ مثل: النجاشي، فإنه أسلم ودخل دين الإسلام، وهو على دين النصرانية، ووصفه النبي

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٩١١) من حديث أنس رضي الله عنه.

- عليه الصلاة والسلام - أنه أخٌ للصحابة[1]، وأنه رجلٌ صالح، وهو كذلك؛ لأنه قال لهم: رجلٌ صالح، فالمهم: على كل حال؛ لا يهمنا أعيان الذين أسلموا، المهم: أن من الذين أُوتوا الكتاب من اليهود والنصارى قومٌ آمنوا بالقرآن أيضًا.

وقوله: [﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾] إذا يُتلَى قالوا، إذا - كما نعرف - شرطية، وجواب الشرط متصلٌ بفعله مباشرة؛ بمعنى: أنه متى وُجِد فعل الشرط وجد جوابه، هنا الاقتصار اللفظي الاقتصار الوقوعي إذا وُجِد الشرط وُجِد المشروط، وطبعًا على حسب الحاجة، قد يكون حاضرًا، قد تكون حتى في المستقبل، فهنا يقول: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ إذا يُتلى، لم يقل: إذا تُلِيَ، فمعنى ذلك: أنه أي آية تتلى عليهم يقولون: آمنا بها، ما آمنوا بالقرآن جملة، آمنوا بالقرآن تفصيلًا؛ لأن الفعل المضارع يدل على الاستمرار، فكلما تُلِيَت عليهم آية آمنوا بها فزادَتهم إيمانًا ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يُقرأ عليهم ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ مع تردُّد ونظر وتفكير، أو بلا تردُّد يؤمنون؟ بلا تردُّد يؤمنون، قلنا: إن جواب الشرط يلي فعل الشرط مباشرة، إذا يتلى ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي: بالذي تُلِيَ عليهم من القرآن قليلًا كان أو كثيرًا، ثم بيَّنوا أن إيمانهم هذا عن اقتناع، وعلى أساس ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ إنه؛ أي: ما تُلِيَ عليهم من القرآن، الحق بمعنى: الشيء الثابت الواقع، الصادق خبرًا، العادل حكمًا، وقولهم: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ ولم يقولوا: من الله؛ لأن الرب هو الذي له التصرف المطلق، فهو يتصرَّف بعباده شرعًا وقدرًا، فكأنهم يقولون: إن ربنا لن يخذينا من أن ينزل القرآن، وله الحكم والتصرُّف المطلق كونًا وشرعًا، وقولهم: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ هذا إشارة إلى أنهم - رضي الله عنهم - يفتخرون بانتسابهم إلى الله، وقوله: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ الجملة من حيث المعنى محلها مما قبلها تعليلية؛ يعني: آمنا به لا لأنه أعجبنا حُسنُه وبيانه وبلاغته، ولكنا آمنا به؛ لأنه الحق من ربنا، فإذا قال قائل: إنه إذا كانت تعليلية فلماذا لا تُفتح الهمزة (أَنَّه الحق من ربنا)؟ لأن الجملة التعليلية على تقدير اللام، واللام إذا اتصلت بـ (إنَّ) وجب فتحه، فتقول: لأن ذلك كذا، ولا تقول: لإنَّ ذلك كذا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ ولم يقل: إنهم إلى ربهم، فهنا لماذا لم تكن تعليلية؟

قلنا: الجملة التعليلية قد تكون تعليلية من حيث المعنى فقط؛ يعني: يُلاحَظ فيها المعنى فقط، وقد تكون تعليلية يُلاحَظ فيها اللفظ مع المعنى، فإن لُوحِظَ معها اللفظ مع المعنى فإنها تُفتَح الهمزة؛ لأنها على تقدير اللام، وإن لُوحِظ المعنى فقط فإنها تُكسَر الهمزة، وهنا لُوحِظَ المعنى فقط، ومُلاحظة المعنى وملاحظة اللفظ أيهما أولى؟ نقول: لكل مقام مقال؛ فملاحظة المعنى فائدتها: أن

(١) قال النبي ﷺ: «مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة» يعني النجاشي والحديث متفق عليه أخرجه البخاري (٣٨٧٧) ومسلم (٦٥/ ٩٥٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

الجملة تكون من حيث اللفظ منقطعة عما قبلها، فكأنها جملة خبرية مستقلة، وكأنها منقطعة عن اللفظ، لكن إثارة التعليل من السياق، وأما التعليلية اللفظية فإنها تكون مرتبطة بما قبلها، وإذا شئتم ذلك فاقرأوا قول ابن مالك:

فَاكْسَرْ فِي الابْتِدَاء.

فهذا هو الفرق بين الجملة التعليلية التي قُصِد بها اللفظ والمعنى، أو التي قُصِد بها المعنى فقط.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ من قبل القرآن ﴿مُسْلِمِينَ﴾ قال المؤلف: [موحِّدين] ولو أنه فسَّر الإسلام بظاهره لكان أولى؛ لأن الإسلام معناه: الاستسلام والانقياد، وأصله من عدم المعارضة والمحاربة، ولهذا يقال: السِّلْم والإسلام؛ يعني: معناه: عدم المعارضة والمحاربة، فكلمة ﴿مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُنقَادين مُذعِنين للحق، وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ ليس المراد بذلك: الفخر والإعجاب بالعمل قطعًا، ولكن المراد بذلك: الثناء على الله بما كانوا عليه في الحالَين؛ في الحال السابقة، وفي الحال الثانية، ففي الحال الثانية ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾، في الحال الأولى ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ مُنقادين مُتَّبعين للرسول الذي جاء إليهم، وما إعراب ﴿مُسْلِمِينَ﴾؟ خبر كان، أم ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ هي الخبر؟ ﴿مُسْلِمِينَ﴾ هي الخبر، ولو تقدَّم عليه الخبر؛ لأن الخبر ما تحصل به الفائدة، سواء تقدم أو تأخر.

وقال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أولئك المشار إليهم: الذين أوتوا الكتاب، ثم آمنوا بالرسول ﷺ ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ فآمنوا به، ثم آمنوا بالرسول ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم﴾ أي: يُعطَون أجرَهُم، وأما قوله: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ فإنه مفعول مطلق؛ يعني: أنه دالٌ على المصدر لكنه بغير لفظه، فهو مفعول مطلق ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ [بإيمانهم بالكتابين]، فهم يؤتَون أجرهم مرتين(1)؛ المرة الأولى: على الإيمان بالكتاب السابق، والمرة الثانية: على الإيمان بالقرآن، وأما أهل الجاهلية الذين آمنوا بالقرآن فيؤتون أجرهم مرة واحدة؛ لأنهم ما آمنوا مرتين، وقد ثبت في هذا الحديث عن النبي - عليه الصلاة والسلام - موافقًا لهذه الآية، فإن النبي - عليه الصلاة والسلام - ذكر الذين يؤتون أجرهم مرتين: الرجل الذي آمن بالكتاب الذي نزل إليه، ثم آمن بما أُنزِل على محمد، والرجل يُعتِق المرأة ويتزوجها، والثالث: العبد الذي أحسن في عبادة الله، وفي معاملة مواليه.

قال: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الباء للسببية، وما مصدرية، ومعنى المصدرية أو علامتها: أن تحول ما بعدها إلى مصدر، فهنا نقول في التحويل - كما قال المؤلف -: [بصبرهم]، هل تصح أن تكون ما اسمًا موصولًا؛ أي: بالذي صبروا؟ لا يصح، ما هو بالذي صبروا؟ ثم لو كانت موصولة لكانت تحتاج إلى الضمير: بالذي صبروه، وهذا لا يستقيم، فإذن هنا تكون مصدرية؛ أي: بصبرهم، وهو أحد محامل ما العشرة.

---

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠١١) ومسلم (٢٤١/ ١٥٤) من حديث أبي موسى ﵁.

قوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: [بصبرهم على العمل بهما]، وهذا الصبر على العمل بهما هل هو من باب الصبر على طاعة الله، أو من باب الصبر عن معصية الله، أو من باب الصبر على أقدار الله؟ الثلاثة تجتمع؛ بما صبروا على طاعة الله، فإن الشرع فيه أوامر شاقة على النفوس تحتاج إلى معالجة، فهذا صبر على طاعة الله، في الشرائع نواهٍ يُنهَى عنها قد يشق على النفس تركها، ففيها صبرٌ عن معصية الله، كذلك أيضًا في الشرائع إيذاء، فإن المجرمين يؤذون المؤمنين، وربما يضربونهم، وربما يقتلونهم، وهذا صبر على أقدار الله المؤلمة، فعلى هذا يكون الصبر على الشرائع يتضمن الصبر بأنواعه الثلاث: الصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

وأصل الصبر في اللغة: الحبس، ومنه قولهم: قُتِل فلان صبرًا؛ أي: محبوسًا على القتل، أُمسِك وقُتِل، فمعنى الصبر: حبس النفس، والنفس تحتاج إلى حبس على طاعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ لأنه كم من إنسان يقول له ضميره: افعل كذا من الطاعة، وربما يفعل البعض ثم يعجز فلا تصبر نفسه، وكذلك بالنسبة للمعاصي، فإن النفس المطمئنة تزجر المرء عن المعصية، ولكن تأتيه النفس الأمارة بالسوء فتأمره بالمعصية، وحينئذٍ تتصارع النفسان، والتوفيق بيد الله ـ عز وجل ـ، كذلك بالنسبة للأقدار، من الناس من لا يصبر على الأقدار؛ بل إذا نزل به القدر يمكن - والعياذ بالله - أن يكفر، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾، فإن بعض الناس قد لا يصبر على الأقدار المؤلمة وتجده يقنط، ومن الناس يقال: إنهم إذا أُصِيبوا بالمصائب انتحروا، هؤلاء ما صبروا على الأقدار، فقتلوا أنفسهم ليُعذَّبوا بما قتلوا به أنفسهم في نار جهنم - والعياذ بالله -، فيُخلَّدون فيها، لكن الصبر على الأقدار المؤلمة هذا أمر يمكن للإنسان أن يصبر عليه ويحاسب نفسه حتى يستقيم، فالمهم: أن الصبر إذن ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، والأعلى والأكمل الصبر على طاعة الله؛ لأن فيه الجهادين: جهاد على العمل، وجهاد على تحمل العمل، ثم الصبر عن المعصية؛ لأنه جهادٌ واحد، وهو: جهاد على تحمل تركه، ما في عمل، يقال: لا تزني، لا تزني، ما كُلِّفتَ بشيء، الصبر على الأقدار المؤلمة هو أدناه؛ لأنه صبرٌ على ما لا اختيار للمرء فيه، كما قال بعض السلف: إما أن تصبر صبر الكرام، وإما أن تصلُوَ صُلُوَّ البهائم، وصلو البهائم، البهيمة مثلًا: تجدها ترغل ولدها ولكن إذا وُضِعَ لها علف جيد وماء جيد نسيت، فإما أن تصبر صبر الكرام، وإما أن تصلو صلو البهائم، ولهذا كان صبر يوسف على ترك الزنا بامرأة العزيز أكمل من صبره على ما حصل من أذية إخوانه له بلا ريب، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ولم يذكر مثل هذا حين ألقوه في غيابات الجب.

وقوله: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ والباء في قوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ للسببية؛ أي: بسبب

صبرهم.

وقوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بالحسنة السيئةَ، السيئةَ مفعول به، والباء في قوله: ﴿بالحسنة﴾ هذه باء الآلة؛ مثل ما تقول: ذبحت بالسكين، وضربتُ بالعصا، فعندنا دارئ، ومدروء، ومدروء به، من الدارئ؟ المؤمنون، والمدروء؟ السيئة، والمدروء به؟ الحسنة، كما تقول: ذبحت بالسكين، فعندنا ذابح، ومذبوح، ومذبوح به، فالحسنة لهم بمنزلة الآلة التي يتوصلون بها إلى غرضهم ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ السيئةَ يقول المؤلف: [منهم] فإذا فعلوا سيئة أتوا بعدها بحسنة فاندفعت السيئة، هذه الحسنة المدروء بها السيئة تنقسم إلى قسمين: قسم يزيل السيئة من باب المقابلة، وقسم آخر يزيل السيئة من باب المحو والإزالة، فإن كانت الحسنة المدفوع بها السيئة إن كانت توبةً، فالتوبة من الحسنات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من باب المحو والإزالة، وإن كانت حسنة أخرى، كما لو دفع السيئات بالصلاة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ فهذا الدرء من باب المقابلة؛ يعني: أن ثواب الحسنة يُقابَل بعقوبة السيئة من باب الموازنة، فإذا رجح ثواب الحسنة انمَحَت السيئة، وإلا فلا، أيهما أكمل؛ أي الدرئين أكمل: الأول أو الثاني؟ الأول أكمل؛ لأنه إذا حصل الأول صارت الحسنة الثانية زيادة رفعة في الدرجات، المهم مقابلة السيئة، ثم إنه إذا كان الدرء من باب المقابلة فقد تضعُف الحسنة الثانية عن مقابلة السيئة، فصار الدرء بالتوبة أكمل من الدرء بفعل حسنة أخرى تُقابِل السيئة، وكلا الأمرين يحصل بهما الدرء، وقول المؤلف: [منهم] في الحقيقة هذا الكلام وجيه، لكن لو قلنا: إنها أعم؛ لأنهم يدرءون بالحسنة السيئة منهم ومن غيرهم، كيف منهم ومن غيرهم؟ يعني: إذا أُسِيءَ إليهم دفعوا الإساءة بالإحسان، فيكون هنا ثناءً عليهم من حيث معاملتهم مع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ وعلى هذا فنحمل الآية على المعنيين ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بالنسبة لما يقع منهم في عبادة الله، ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بالنسبة لما وقع من غيرهم في المعاملة، إذا عومِلوا أساء إليهم أحد قابلوه بالإحسان.

لكنَّ قومي وإن كانوا ذوي عددٍ ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا

فليت لي بهم قومًا إذا ركبوا ... شنُّوا الإغارة فرسانًا ورُكبانًا

الآن ذمَّهم أم مدَحَهم؟ مدحهم، يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً، فهنا درءُ السيئة بالحسنة ممدوح إذا كان على سبيل العزة، أما إذا كان على سبيل الضعف فهذا ليس بممدوح، ولهذا الرسول ﷺ لما سأله الرجل عن إنسان يأتي ليأخذ ماله قال: «لَا تُعْطِهِ»، قال: أرأيت إن قاتلني،

قال: «قَاتِلُهُ»[١]، المهم: أنه يقول: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [منهم] الصواب أن نجعلها أعم، فيدرءون بالحسنة السيئة منهم في معاملتهم مع الله، ومن غيرهم في معاملتهم مع الخلق.

قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [يتصدقون] ويُهدُون أيضًا، هناك أناس لا يتصدَّقون؛ لأن الهدية قد تكون محمودة إذا كان الغرض منها جلب المودة «تَهَادَوْا تَحَابُّوا»[٢] تهادَوا أو تهادُوا؟ تهادَى الرجلان يتهاديان؟ فإذن «تَهَادَوْا تَحَابُّوا»، الشاهد: أن قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ رزقناهم بمعنى: أعطيناهم، فالرزق بمعنى: العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: ٨] أي: أعطوهم، الرزق: العطاء، وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من هنا هل لبيان الجنس أو للتبعيض؟ الأَولى أن نجعلها لبيان الجنس؛ لأن في بعض الأحيان يكون إنفاق المال كله من الأمور المحمودة، فقد حثَّ النبي ﷺ ذات يوم على الصدقة، فقال عمر: الآن أسبق أبا بكر، فأتى بنصف ماله، ولكن أبا بكر أتى بماله كله[٣]، فالإنفاق إذا جعلنا (من) لبيان الجنس فهو أَولى، لأجل أن يشمل بذل المال كله أو بعضه؛ لأنه قد يكون من الخير بذله كله، وقد يكون من الخير بذل بعضه حسب الحال التي أُنفِق فيها، فـ (من) الأَولى أن نجعلها لبيان الجنس، وقوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاق بمعنى: البذل لا بمعنى: الصدقة، لكن الذي أوجب للمؤلف أن يخصَّه بالصدقة؛ لأن المقام مقام ثناء، ولكن الأَولى أن نجعله على عمومه، ونجعل ينفقون أي: يبذلون ويعطون؛ لأنه قد يكون البذل تصدُّقًا خيرًا، وقد يكون البذل تودُّدًا خيرًا أيضًا، قد يكون أكرم من الصدقة في بعض الأحيان، وعلى هذا فنقول: الأَولى أن نجعل الإنفاق بمعنى: الإعطاء والبذل، سواء كان صدقة، أو كان هدية، أو كان هبة، وتعرفون الفرق بين الأمور الثلاثة، ما الفرق بين الهبة والهدية والصدقة؟ الصدقة: ما أُريدَ بها وجه الله، يُتقرَّب بها إلى الله، ما يهمه تقرَّب إليه هذا المعطى أم لا، والهدية: ما قُصِدَ به: التودُّد للمُعطَى؛ يعني: يريد أن يتقرب إلى المعطَى، والهبة: ما قُصِد به: نفع الموهوب فقط، ما قصد به: أن يتقرب إلى هذا الموهوب، ولا أن يتقرَّب إلى الله بذلك، قُصِد به: نفعه، فهذه تسمى: هبة، وكلها محمودة في الواقع، لكنها هل بعضها أفضل من بعض؟ هذا على حسب الحال.

الفوائد:

١- **يُستفاد من قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أن الله سبحانه وتعالى لم يُخلِ الأرض من وحي؛ لأن التوصيل معناه: وصل الآخر بالثاني.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٥/ ١٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٠٤).

(٣) حسن: أخرجه أبو داود (١٦٧٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

٢- **ويستفاد منه:** أن الوحي مشتمل على غاية البيان؛ لأننا قلنا: إن وَصَّل مضمن معنى: بيَّن.

٣ـ **يُستفاد منه كذلك:** بيان نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة بإيصال القول إليهم ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ﴾ [القصص: ٥١].

٤- **ويستفاد من الآية أيضًا:** أن الحكمة من الوحي هو: التذكُّر والاتعاظ، لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

٥- **ويستفاد منها:** إثبات العلة في أحكام الله الكونية والشرعية وأنه ما يفعل شيئًا ولا يشرعه إلا لحكمة، والذي خالف في ذلك: الجهمية هم الأصل، قالوا: أفعال الله ما تُعلَّل، وأحكامه لا تُعلَّل.

ثم قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية:** أن اليهود والنصارى فيهم من آمن بالقرآن، لقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾.

٢- **ويستفاد منها أيضًا:** أن حكم الفرد قد يتناول جنسه، ما معنى هذا؟ معناه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ ﴾ لو نظرنا إليها وجدنا أنها عامة تشمل كل الذين أوتوا الكتاب، وهل هي عامة؟ هل كل الذين أوتوا الكتاب من قبل آمنوا بالقرآن؟ أبدًا، النصارى بقُوا على نصرانيتهم، واليهود بقُوا على يهوديتهم، ولكن مِنْ هؤلاء من آمن، يكون معنى ذلك: أننا أعطينا الجنس حكم الفرد؛ يعني: كأنه يقال: إيمان عبد الله بن سلام وإيمان النجاشي مثلًا، من يدري أن هذا اسمه: عبد الله بن سلام، وهذا اسمه: النجاشي؟ لكن لأنهم أوتوا الكتاب، فهم آمنوا لا لأسمائهم، ولكن لما علموا من كتبهم بأن الرسول ﷺ سيُبعَث، وهذا يقتضي أن يكون كل هذا الجنس يجب أن يكون مؤمنًا، وإن لم يؤمنوا كلهم، والمهم: أنه يستفاد من هذه الآية: إعطاء الجنس حكم الفرد، مادام أن هذا الحكم سببه يشمل جميع الجنس، مثلًا: ما سبب إيمان عبد الله بن سلام؟ علمه بما في التوراة من صفات الرسول ﷺ، هذا العلم يختص به أم يشمل جميع اليهود؟ يشمل جميع اليهود.

إذن فهنا أعطينا الجنس حكم الفرد للعلة التي تشمله وغيره، وإلا قد يقول قائل: ما نرى أن الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، ما كلهم آمنوا، لكن نقول: نعم، هو ما آمن إلا بعضهم، لكن هذا الإيمان من بعضهم حمله عليه العلة الشاملة لجميع الجنس، فنستفيد من هذا: أننا نعطي الجنس حكم الفرد إذا كان علة هذا الحكم شاملة للجميع، فإنه يُعطَى الجنسُ حكمَ الفرد.

٣- **يستفاد من هذه الآية أيضًا:** الثناء البالغ على الذين آمنوا بالقرآن وبالكتب السابقة، لقوله: ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾.

٤- **ويستفاد منه:** أن صفة النبي ﷺ موجودة فيما سبق من الكتب؛ في التوراة والإنجيل، وهذا صريح في آية الأعراف، لقوله: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ...﴾[الأعراف: ١٥٧] إلى آخره.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

١- **يستفاد من هذا:** زيادة الثناء على هؤلاء بأنهم يؤمنون بكل ما يُتلى عليهم، هم ما آمنوا بالقرآن جملة فقط،ولكن جملة وتفصيلًا، وأخذنا ذلك من قوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ ويُتلى فعل مضارع يدل على التجدُّد والحدوث، وأن هذا شأنهم كلما تُلِيَ عليهم.

٢- **ويستفاد منها أيضًا:** أنهم آمنوا لا لمجرد الفعل، ولكن آمنوا إيمانًا مبنيًّا على اقتناع، من أين يؤخذ؟ من قولهم: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ ما آمنوا هكذا تبعًا للناس، ولكن آمنوا عن اقتناع أنه الحق من ربهم.

٣- **ويستفاد منها أيضًا:** أن القرآن من عند الله، لقوله: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾.

٤- **ويستفاد منها:** كمال عقل هؤلاء الذين آمنوا؛ حيث عبَّروا هنا بالربوبية: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ دون الألوهية؛ لأن المقام يقتضي ذلك، فإن الرب له الحكم يحكم بما شاء كونًا وشرعًا.

٥- ويستفاد من هذا أيضًا: أن هؤلاء كانوا مؤمنين مسلمين مُنقادين للكتب السابقة، لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

٦- **ويستفاد منها:** جواز ثناء المرء على نفسه بالصفات المحمودة، بشرط أن يكون في ذلك مصلحة، وأن لا يكون فيه افتخار، وعلوٌّ على الغير، لقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾، وهذا أمرٌ واقعٌ من الرسول ﷺ، ومن الصحابة، ومن أهل العلم، قال النبي ﷺ: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**»(١)، وقال ابن مسعود: لو أعلم أنَّ أحدًا تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله منِّي لذهبتُ إليه(٢)، وهذا ثناء على نفسه ولكن لمصلحة، والعلماء دائمًا إذا كتبوا في كتاب يثنون عليه بما يحتوي هذا الكتاب، ومعلوم أن الثناء على الكتاب ثناءٌ على مصنِّفه، لو أنك أثنيت على هذا البناء مثلًا قلت: هذا البناء جيد مُحكَم وجميل، من أثنيت عليه في الواقع؟ أثنيت على الباني، فهذه المسألة يجوز للإنسان أن يثني على نفسه بصفات الحمد بشرط ألَّا يُوجِبُ ذلك: الافتخارَ على غيره، والشرط الثاني أيضًا: أن يكون في ذلك مصلحة، أما الشرط الأول فوجهه ظاهر؛ لأنه إذا قُصِد الافتخار والعلو على الناس فهذا قَصْدٌ مُحَرَّمٌ، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا**

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٨٦٤) ومسلم (٧٨/ ١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٠٢) ومسلم (١١٥/ ٢٤٦٣).

فَخْرَ»(١)، وكذلك أيضًا اشتراط أن يكون فيه مصلحة؛ لأنه إذا لم يكن فيه مصلحة كان لغوًا من القول على أقل ما نقول فيه؛ لأنه لماذا الإنسان يمدح نفسه بدون مصلحة؟ لولا أنه يريد أن يُبرِز صفاته ليفتخر بها على غيره ما فعل ذلك حتى لو قال: أنا ما أريد الفخر.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن المؤمنين من أهل الكتاب لهم أجران: الأجر الأول: الإيمان بكتابهم، والثاني: الإيمان بالقرآن.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات عدل الله سبحانه وتعالى؛ حيث لم يُضيِّع أجرهم الأول بالأجر الثاني، ولا الأجر الثاني بالأجر الأول.

٣- **يستفاد من ذلك أيضًا:** أن الثواب على قدر العمل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨]، هؤلاء يُؤتَون أجرهم مرتين؛ لأنهم عملوا مرتين.

٤- **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب والعلل، لقوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** فضيلة الصبر، ما دام أن الصبر سبب للأجر فلا شك أنه صفة حميدة وفاضلة، وأظن أننا في التفسير ذكرنا أن الصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، وأن أفضلها أولها، ثم الثاني، ثم الثالث.

٦- **ويستفاد منها أيضًا:** أن الحسنات يُذهِبن السيئات، لقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

٧- **ومن فوائدها أيضًا:** أنه ينبغي مقابلة المسيء بالإحسان؛ لأن الآية - كما قلنا عامة - لدرئهم سيئاتهم بحسناتهم ، ودرئهم سيئات غيرهم بالإحسان إليهم، وأتينا لذلك بشاهد من القرآن، ولكن هذا الدرء ثقيل على المرء، درء سيئات الغير بالإحسان إليه هذا ثقيل على المرء جدًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] أكثر الناس يقولون: والله لأكيلنَّ له الصاع بالصاعين، والصفعة بالصفعتين، لكن الأمر ليس كذلك، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ما النتيجة؟ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وأتى بـ (إذا) الفجائية للدلالة على أن هذا الأمر يتحول بسرعة، هذا العدو يتحول بسرعة يكون كأنه ولي حميم؛ يعني: صديق قريب لك، إذن نقول: إنه يستفاد منه: أن الحسنات يذهبن السيئات، وأنه ينبغي مقابلة الإساءة بالإحسان، إلا أنا ذكرنا أن هذا ينبغي أن لا يكون مظهر عجزٍ للمرء، فإن كان مظهر عجز للمرء فلا ينبغي؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣/ ٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سَبِيلٍ﴾[الشورى: ٤١].

٨- **ويستفاد من الآية أيضًا:** فضيلة الإنفاق من رزق الله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.

٩- **ويستفاد منها أيضًا:** أن المُنفِق لم يُنفِق مما صنعه، أو اكتسبه بنفسه، ولكنه يُنفِق من رزق الله، فالله هو الذي رزقك، وهو الذي أمرك، فأنت في الحقيقة خادمٌ عبدٌ مُتصرِّفٌ حسب أمر سيدك، قال لك: اكتسب فاكتسبت، قال لك: أنفق فأنفقت، قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ كيف نجمع بين ما هنا، وبين قوله في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]؟

نقول: نجمع بينهما بأن غالب أحوال الناس ألَّا ينفقوا جميع أموالهم؛ لأن إنفاق جميع المال قد يكون مُضِرًّا به، لكن في بعض الأحيان يكون إنفاق جميع المال محمودًا، فلهذا قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ فلا تُنفِق ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فتُنفِق كل ما عندك، لكن النصوص الأخرى تدل على أن المسألة مبنيَّة على تغيُّر الحكم بتغيُّر الأحوال، فقد يكون مثلًا من الأفضل إنفاق جميع المال، وقد يكون من الأفضل إبقاء بعضه.

١٠- **ويُستفاد من الآية الكريمة أيضًا قوله:** ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: أن الإنفاق من رزق الله تبارك وتعالى محمود، والرزق: ما ينفع من حلال، وضده وهو: الحرام، فهل يُحمَد الإنسان إذا أَنفَقَ من حرام؟ لا؛ لأنه ما يُثابُ عليه، والواجب عليه أن يرد الشيء ويتخلَّص منه، هذا الواجب عليه، لكن المراد هنا بالرزق الذي يُحمَد على الإنفاق منه: إذا كان رزقًا حلالًا، أما من اكتسب رزقًا حرامًا فإن النبي ﷺ أخبر بأنه إن أنفقه لم يبارَك له فيه، وإن تصدَّق به لم يُقبل منه، وإن خلَّفه كان زاده إلى النار[1]، وهذا يدل على أن الإنفاق من المحرَّم لا ينفع المرء، لكن ينفعه متى؟ إذا أنفقه يريد التخلص منه، فإنه ينفعه بمعنى: أنه لا يلحقه شيءٌ من جرَّائه، وينفعه لأن إنفاقه للتخلُّص منه توبة، والتوبة تنفع العبد، فمثلًا: إذا كان إنسان عنده مائة ألف درهم اكتسبها من الحرام، وأنفقها للتخلُّص منها، هل يُعطَى أجر المتصدق بها؟ لا، لكن يعطى أجرًا على التوبة من هذا الذنب الذي فعله، لكن لو أنه اكتسبها من حلال وأنفقها أُعطِيَ الأجر بقدرها، وعلى حسب المضاعفة التي جاء بها النص.



(١) ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) من حديث ابن مسعود ﷺ وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٦٢٥).

❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

❁ التفسير ❁

قال الله وتعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ (إذا سمعوا): يجب أن نعرف الفرق بين سمِع واستمع، فالسامع هو: الذي أدرك الصوت بدون قصد، والمستمع هو: الذي أدركه بقصد، أدرك الصوت بقصد، ولهذا نقول: يُسنُّ سجود التلاوة للمستمع دون السامع، فهنا قال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ دلَّ على أن هؤلاء القوم ليسوا يستمعون إليه، ولكن يسمعونه، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] مرُّوا به ما يدخلون عنده، لكن إذا مرُّوا به، هؤلاء أيضًا إذا سمعوا اللغو يقول المؤلف: [الشتم والأذى من الكفار] أيضًا هذا تخصيصٌ لما هو أعم، فإن اللغو يشمل ما قاله المؤلف: [الشتم والأذى]، ويشمل أيضًا كل كلام لا خير فيه، كل كلام لا خير فيه سواء كان فيه شر، أو لم يكن فإنه من اللغو، فهؤلاء في غاية ما يكون من الجِدِّ وحفظ الوقت لا يستمعون إلى كلام اللغو، والله تبارك وتعالى مدح الذين لا يستمعون اللغو، والنبي ﷺ يقول: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمِتْ»(١)، والمقابل للخير: الشر، وما لا خير فيه ولا شر، فالأصح أنه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ يشمل كل كلام لا خير فيه، سواء كان فيه أذية وشر أو لم يكن ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ بأبدانهم، أو بأبدانهم وقلوبهم، أو بقلوبهم فقط؟ الأصل: القلوب، لكن قد تشمل الأبدان أيضًا؛ بحيث إذا سمعوا كلامًا لا خير فيه قاموا وتركوا المكان، فالكلام هنا حرام، ولو كان غير حرام، أما إعراض البدن مع إقبال القلب، فهذا ينفع؟ لا ينفع، فالمقام هنا أربعة أنواع: تارة يُقبِل عليه بجسمه وقلبه، وحينئذٍ يكون مشاركًا لأهله، وتارة يُعرِض عنه بجسمه وقلبه؛ بحيث ما يستمع إليه ولا يُقبِل عليه، وتارة يُعرِض بقلبه دون جسمه، وتارة يُعرِض بجسمه دون قلبه، والتركيز هنا على أي شيء؟ الإعراض بالقلب.

﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ كأنه يقول: إذا قيل لهم: لماذا لا تردون؟ لماذا لا تنصاعون لأذاهم؟ يقولون: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، فنحن لا نُسأل عما تعملون، وأنتم لا تُسألون عما نعمل، ولا نوافقكم على هذا العمل، وليس يعني ذلك: أنهم لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر؛ لأن الكلام هنا عن اللغو، وهو: الكلام الذي ليس فيه خير، أما المنكر فإنهم

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠١٨) ومسلم (٤٧/ ٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لا شك أنهم ينهون عنه، ويأمرون بالمعروف.

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ يسلمون عليهم سلام تحية، أم سلام غير تحية؟ المؤلف يقول: [سلام متاركة؛ أي: سلمتم منا من الشتم وغيره]، وليس يسلمون سلام تحية، فهم إذا سمعوا اللغو أعرضوا وقاموا وقالوا لهؤلاء: سلامٌ عليكم؛ يعني: سلام عليكم منا أو من الله؟ سلامٌ عليكم منا، فأنتم سالمون لا نُقابلكم بما تفعلون بنا، وهذا من المؤلف بناءً على أن المراد بقوله: ﴿ٱللَّغۡوَ﴾ يعني: الأذى والشتم من الكفار، أما إذا قلنا بالعموم، فإنه يحتمل أن يكون المراد بالسلام هنا: سلام من الله؛ أي: سلام تحية؛ لأنه يُشرَع لمن قام من المجلس أن يُسلِّم، ويحتمل أن يكون سلام متاركة، وإن شئنا جعلناه موزَّعًا، فقلنا: إن قلنا باللغو: إنه الشتم والأذى فالسلام هنا: سلام متاركة، وإذا قلنا: إن المراد باللغو: الكلام الذي لا خير فيه، وإن لم يكن سبًّا ولا شتمًا، فهو سلام تحية؛ لأن هؤلاء لم يُسيئوا للمعرضين حتى يقولوا لهم: سلام عليكم منا، وهذا أيضًا جائز، أن نحمل السلام؛ أي: معنى السلام، هل هو متاركة أو سلام تحية على معنى اللغو.

وقوله: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [لا نصحبهم] وهذا التفسير من المؤلف قاصر، يقول: [لا نصحبهم]، ولو كان الأمر كذلك لقال: لا نصحب الجاهلين، لكن ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ الابتغاء بمعنى: الطلب، ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ [الفتح: ٢٩] أي: يطلبون، فمعنى لا نبتغي: أي: لا نطلب، وإذا انتفى طلب الجاهلين فانتفاء صحبتهم من باب أَولى، إذا انتفى طلب الجاهلين انتفت الصحبة من باب أَولى؛ لأنهم هم ما يطلبون الجاهلين، فضلًا عن كونهم إذا وجدوهم صحِبوهم، فأيهما أبلغ تفسير المؤلف أو ظاهر الآية؟ ظاهر الآية أَولى وأبلغ؛ يعني: نحن لا نطلب الجاهلين فضلًا عن صحبتهم؛ وذلك لأنهم ذوو علم وبصيرة، والإنسان ذو العلم والبصيرة لا يطلب الجاهلين فيكون معهم؛ بل لا يصحبون إلا الأخيار ذوي العلم والمروءة والشرف والدين، أما الجاهلين فإنهم لا يتبعونهم ولا يطلبونهم ولا يريدونهم أيضًا، والجاهل هنا المراد به: السفيه، أو من ليس بعالم؟ المراد به: السفيه، حتى لو كان عالمًا؛ لأنه إذا أساء التصرف ولو كان عالمًا فهو بمنزلة الجاهل؛ بل أشد من الجاهل؛ لأن من خالف عن علم أشد ممن خالَفَ عن جهل، ويسمى من خالف عن علم: سفيهًا، ويسمى: جاهلًا مركبًا إذا ادعى أنه يعلم، بخلاف الإنسان الجاهل الذي لم يأته العلم أصلًا، فإن هذا قد يستقيم إذا علِمَ، إذن الجاهلين هنا ليسوا من لا يعلمون؛ بل السفهاء، وإذا قال قائل: ما الذي يدل على أن الجهل يأتي بمعنى: السفه؟ قلنا: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء: ١٧] فإن قوله: ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ لا شك أن المراد: بسَفَه؛ لأن من يعمل السوء جاهلًا بغير علم فهذا لا ذنب عليه حتى نقول: إنه يتوب، فالجهل هنا بمعنى: السَّفَه ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: السفهاء الذين يعملون بجهالة، الجاهل غير العالم هل يبتغيه المرء؟ ربما يبتغيه يطلبه لأجل أن يُعَلِّمَه ما دام جاهلًا، ولهذا

كان الرسول ﷺ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج[١]، يأتي للقبيلة ويقف عليهم يدعوهم إلى الله، فهو يطلب هؤلاء الجُهَّال ليعلمهم، لكن المراد بالجهل هنا هو: السفه؛ لأن السفيه في الحقيقة فعله كفعل الجاهل تمامًا؛ إذ أنه يخالف الحق ولا يعمل به، لكنه أشد من الجاهل؛ لأنه غير معذور.

نحن الآن وإياكم نقرأ هذه الصفات، فهل المراد أن نقرأها للعلم أو للعمل؟ للعلم والعمل؛ لأن بعض الصحابة ﭫ كانوا إذا تعلَّموا عشر آيات تعلَّموها وما فيها من العلم والعمل، وأكثر الناس إذا قرأ مثل هذه الآيات قال: ما أحسن الصفات، وما أجمل أفعاله، وهذا غاية ما يستفيد من الآية، ولكن هذا لا يكفي، المقصود من ذكر هذه الألفاظ الحميدة سواء كانت عن سبيل الإخبار عن الحال، أو عن سبيل القصص الغرض منها هو: الاعتبار؛ أن الإنسان يعتبر بما حصل ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] ونسأل الله أن يعيننا جميعًا على فهم كتابه والعمل به.

وثانيًا: أنه ينبغي الإعراض عن اللغو، وهو: الكلام الذي لا فائدة فيه ولا خير فيه، والفعل يقاس عليه أم لا؟ يقاس عليه، فلا ينبغي للإنسان أن يمضي وقته في أفعال لا خير فيها، واعلم أن الخيرية ذاتية وعَرَضية؛ بمعنى: أنه قد يكون الشيء خيرًا في ذاته، وقد يكون خيرًا لغيره لعارض يعرض له، فمثلًا: الصلاة خيرها ذاتي، والسعي إليها خيره عَرَضي؛ لأن مجرد المشي ليس بقربة حتى يكون وسيلة إلى قربة أخرى، فعلى هذا لو أن الإنسان تحدَّث بحديث ليس من الذكر، ولا من العلم، ولا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنه حديث يُقصَد به إدخال السرور على الجالسين، يكون خير هذا أم لا؟ نعم، يكون خيرًا، لكنه ليس خيرًا ذاتيًا في هذا الكلام؛ بل هو خير عرضي، أو عَرَضَ له بسبب القصد الحسن فيه، وهذا في الحقيقة على هذا التقدير.

ولاحظوا أيضًا أن هناك فرقًا بين الخير العَرَضي والخير الذاتي؛ لأن الخير العرضي يفقد خيره إذا زال السبب، والخير الذاتي خيره ثابت، ما دمنا قلنا: إنه خير عرضي، فهذا إذا انتهى وزال السبب الذي من أجله تحدث يكون الباقي ما فيه فائدة، يكون من الأحسن تركه «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِالله وَاليَوم الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَو لِيَصْمِتْ»[٢]، إذا زال السبب الذي من أجلها يتحدث إليهم ذهبَت الخيَرية، فيمكن أن ينتقل إلى حديث آخر مفيد أو نحو ذلك، والإنسان في الحقيقة البصير يستطيع أن يعمل، ومن أحسن ما يكون أن بعض الإخوان إذا صحب أحدًا ربما يوجه له أسئلة مفيدة في الدين مثلًا من أجل أنه يشغل الناس عن كلام اللغو الذي لا فائدة منه، ويشدهم أيضًا

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٣٤) من حديث جابر بن عبد الله ﭬ وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

إلى البحث؛ لأنه قد يكون عند الإنسان سؤال ناسيه وإذا انفتح الباب تذكَّره، هذا من أحسن ما يكون، لاسيَّما طلبة العلم الذي ينبغي أن يكونوا مفيدين للناس في جلساتهم؛ يعني: فلا ينبغي لطالب العلم أن تكون جلسته كجلسة العامي؛ بل يحرص على الفائدة ما أمكن.

الفوائد:

١- **يستفاد من الآية الكريمة:** أنه ينبغي التبرؤ من أصحاب اللغو وعدم مجالستهم، لقوله: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾.

٢- **ويستفاد منه:** مشروعية السلام عند الانصراف، لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهذا يتوجَّه على تفسير المؤلف لها أم لا؟ لا؛ لأن معنى كلام المؤلف ما يستقيم هذه الفائدة على تفسير المؤلف؛ إذ أنه يرى أن السلام هنا سلام متاركة لا سلام تحية، وعلى هذا فلا تؤخذ هذه الفائدة، وهو: إنما حمله على سلام المتاركة بناءًا على تفسير اللغو بأنه الشتم والسب، والحقيقة أن هذا تفسير ناقص؛ لأن الشتم والسب قد لا يقال: إنه لغو فقط؛ بل لغو وعدوان، فهو أخص من كونه لغوًا.

٣- **ومن فوائد الآية:** أنه لا ينبغي للعاقل طلب السفهاء، فضلًا عن الجلوس معهم، لقوله: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ لأن طلبهم في الحقيقة لأجل الجلوس معهم، والجلوس مع الجاهلين منهيٌّ عنه، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨]، فلا ينبغي للإنسان أن يتطلب أهل السفه ويجلس إليهم، أو على الأقل يأنس بما يفعلون، فإن هذا من الصفات التي ليس عليها أهل الخير والإيمان.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص:٥٦،٥٧].

التفسير

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ قال المؤلف: [ونزل في حرصه ﷺ على إيمان عمه أبي طالب] أبو طالب هو أبو علي رضي الله عنه، وهذا العم آوى رسول الله ﷺ، ودافع عنه، وناصره، ولكن - والعياذ بالله - حيل بينه وبين الإيمان، بسبب ما كتب الله له من الشقاوة، وفيه

حكمة عظيمة عدم إيمانه؛ لأنه لو آمن ما تمكّن من الدفاع الذي حصل منه للرسول ﷺ؛ إذ لو آمن لكان هو محل إيذاء للمشركين، لكن لما بقي على ملتهم كانوا يحترمونه بعض الاحترام فكان في بقائه على الكفر من حكمة الله ما هو ظاهر، وإلا ما استطاع أن يحمي الرسول ﷺ تلك الحماية، وهذا الرجل له فضلٌ على الإسلام بسبب دفاعه عنه، ولهذا أذِنَ الله لنبيه ﷺ أن يشفع له، مع أن غيره من الكفار لا يمكن أن يشفع لأحد، ما شُفِع ولم يُشفَع لأحد من الكفار إلا هذا الرجل لما له من الفضل على الإسلام من حماية الرسول ﷺ والدفاع عنه، ولكن الشفاعة هذه ما نفعَتْه نفعًا كاملًا؛ لأنه لا يمكن أن تنفعه وهو غير مؤمن، إنما نفعَته أنه كان في ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلي منهما دماغه[1]، وهو يرى أنه أشد الناس عذابًا وهو أهونهم - والعياذ بالله -، قال النبي ﷺ: «وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[2]، لولا أنا - يعني: أني شفعت له -، أو أنه أيضًا عمل ما عمل من حماية الرسول ﷺ، هذا العم حرص النبي ﷺ غاية الحرص على أن يؤمن حتى إنه في سياق الموت يقول له: «يَا عَمِّ ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»[3]، فكان يقول آخر ما قال: إنه على ملة عبد المطلب، وأنه لم يَدَع طريقة الأشياخ، الأشياخ الكبار أهل الجاهلية، فكان - والعياذ بالله - خُتِم له بخاتمة الشقاء، فلم تنفعه هذه المحاولة من الرسول ﷺ، ندم الرسول على هذا الأمر، وقال: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فنُهِي عنه، وقيل له: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، أما بالنسبة لندمه على عدم إيمانه فسلّاه الله تعالى بهذا الأمر: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايته، إنك يا محمد، وغيره من باب أولى، إذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أشرف الخلق عند الله وأعظمهم جاهًا ما يستطيع أن يهدي أحدًا فكيف يستطيع غيره؟

وقوله ﴿لَا تَهْدِي﴾ المراد بالهداية هنا: هداية التوفيق؛ بمعنى: لا تضع الهداية في قلوب الناس، وليست هي هداية الدلالة والإرشاد، فإن هداية الدلالة والإرشاد ثابتة للرسول ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ولكن هداية التوفيق وهي إلقاء الهدى في القلوب هذا لله سبحانه وتعالى وحده، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ المؤلف قدره بقوله: [هدايته] من أحببت هدايته، والصواب: من أحببته، لماذا عدل المؤلف إلى أحببت هدايته؟ لأن الرسول ﷺ لا يمكن أن يحب أبا طالب وهو كافر، فإنه لا يحب الكافرين، ولكننا نقول: الحب الطبيعي هذا لا ينافي الإيمان، فالإنسان يحب مثلًا قريبه ولو كان كافرًا، لكنها محبة طبيعية، كما

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٥) ومسلم (٣٦٠/ ٢١٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٣٥٧/ ٢٠٩) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٨٨٤) ومسلم (٣٩/ ٢٤) من حديث المسيب رضي الله عنه.

تحب الأم ولدها، نعم، المحبة الدينية هذه لا تجوز بين المؤمن والكافر ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أيضًا المؤلف يقول: [من أحببت هدايته]، في الحقيقة لو أننا حملناه على ما قال المؤلف لكانت هذه تعم كل الناس؛ لأن الرسول يحب أن يهدي كل الناس، ليس فقط عمه أبو طالب، لكن من أحببته هذا يختص بأبي طالب مثلًا أو غيره من أقاربه، أيضًا لو أننا قلنا كما قال المؤلف لكان في الآية إضمار الهداية؛ لأن الأصل في ضمير الصلة أن يعود إلى نفس الصلة ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ﴾ (من) هذا اسم موصول يعود على من؟ عَلَى أبي طالب، وعائد الصلة يعود على نفس الصلة، وبهذا تبيَّن أن الراجح من أحببته من وجوه ثلاثة: وجه معنوي، ووجهان لفظيان، الوجه المعنوي: أن الآية نزلت في أبي طالب، ولو قلنا: من أحببت هدايته لكانت عامة، الوجهان اللفظيان: أننا إذا قدرنا هدايته لزِمَ أن يكون في الآية شيء محذوف، والأصل عدم الحذف، الوجه الثاني من الوجهين اللفظين: أن عائد الصلة يعود إلى الموصول، فإذا عاد إلى (من) في قوله: ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ صار المراد: من أحببته هو، وأما ما لاحظ المؤلف، بما يظهر لي أن المؤلف لاحظ أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يحب أبا طالب، فالجواب عليه: أن المحبة نوعان: محبة طبيعية، ومحبة شرعية، فالمحبة الطبيعية لا تنافي المحبة الشرعية، الشرعية قد تجتمع معها وقد تنفرد، فإذا كان المؤمن قريبًا لك اجتمع فيه المحبَّتان، وإذا كان بعيدًا منك وُجِد فيه محبة واحدة، وهي: الشرعية، وإذا كان قريبًا وهو غير مؤمن ففيه محبة واحدة وهي المحبة الطبيعية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لمن الهداية إذن؟ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يهدي هداية التوفيق، ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يهديه، وقوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ علَّق الفعل بالمشيئة، وكل فعل يُعلِّقه الله بالمشيئة من أفعاله فإنه مقرونٌ بالحكمة؛ إذ أن أفعال الله كلها مبنية على الحكمة، إذن من يشاء هدايته ليس الأمر اعتباطيًا، ولكن الأمر على حكمة ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] ما يهدي من يهدي إلا وهو أهل للهداية، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وكذلك هو أعلم حيث تكون هذه الرسالة، فمن كان أهلًا للرسالة أُرسِل، ومن كان أهلًا للقيام بواجب الرسالة أتِي بذلك، فإذن الإطلاق في قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ لا يصح.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ قال المؤلف: [أي: عالم بالمهتدين] نحن ذكرنا أننا ننتقد المؤلف من وجهين: الوجه الأول: أن هذا تحريف للقرآن؛ حيث حوَّل ﴿أعلم﴾ الدالة على الكمال في العلم والأفضلية فيه إلى عالم الذي لا يمنع مشاركة غيره له في هذه الصفة، فأنا أقول: محمد عالم، وزيد عالم ...إلى آخره، لكن لو قلت مثلًا: زيد أعلم معناه أنه ما ساواه أحد في علمه، المؤلف الآن حرَّف القرآن؛ حيث فسَّر ﴿أعلم﴾ بعالم، وفسَّر ما يدل على الكمال بما يدل على

المشاركة، الوجه الثاني: أننا نقول: إن وصف الله بأنه أعلم أكمل من وصفه بأنه عالم، أكمل بلا ريب، فما الذي يمنع أن يقول: أكمل، هو كأنه يريد أن يقول: ما يمكن أن نقول: الله أعلم، فنجعل لله مشاركًا في العلم، نحن نقول: ما جعلت لله مشاركًا مساويًا، جعلت لله مشاركًا نازلًا عن علم الله، فالله أعلم، لكن إذا قلت: إن الله عالم، قيل: لك جعلت لله علمًا قد يساويه غيره فيه، فالصواب: أن أعلم اسم تفضيل وأنها على بابها.

وقوله: ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بالمهتدين فعلًا، أو بمن يستحق أن يكون من المهتدين؟ إذا قلنا: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: بمن هو قابل للهداية؛ لأن الكلام الآن على إنشاء الهداية في قلب المرء، فيكون ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ما معناها الذين اهتدوا؛ بل أعلم بمن يستحق أن يقبل الهدى، ولهذا فسره بعضهم بالمهتدين في علم الله؛ أي: من علم الله أنه سيكون مهتديًا، فعلى كل حال؛ المهتدي معناه: من كان قابلًا للهداية، ومعناه: من اهتدى بالفعل، والمراد بالآية: الأول، أم الثاني؟ الأول؛ يعني: أعلم بمن يقبل الهداية فيهديه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ المهتدين هنا الذين اهتدوا بمعنى: قبلوا الهدى وتمسّكوا به، الجمع بين هذه الآية وبين الآية التي أشرنا إليه قبل قليل ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أن المُثبَت غير المنفي، ﴿لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فنقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المراد بها: هداية الدلالة، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] هديناهم معناه: دللناهم على الهدى، ولكنهم - والعياذ بالله - استحبوا العمى عليه، وأما الهداية هنا فهي: هداية التوفيق، وهذه ليست لأحد، ما هي إلا لله سبحانه وتعالى، هذه الآية في الحقيقة نستفيد منها: أن الإنسان إذا جدَّ واجتهد في دعوة الناس إلى الهدى فلم يهتدوا فإن عليه أن يتسلَّى بهذه الآية، وهي: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

كثير من الناس الآن عندهم أقارب، إما معهم في البيوت، أو خارج البيوت يدعونهم إلى الهدى فلا يهتدوا، فنقول: الحمد لله إن الله سبحانه وتعالى بيَّن أن هذا الأمر ليس إلينا إنما هو إليه، إن اهتدوا فلهم ولنا ثواب دلالتهم وإن لم يهتدوا فلنا ثواب الدلالة والدعوة وعليهم وزر الغيِّ.

ثم قال تعالى: [﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي: قومه] قوم من؟ قوم الرسول ﷺ، ﴿وقالوا﴾ يعني: قريش، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ سواء قالوا ذلك عن عقيدة أو عن غير عقيدة، هذا القول كذب، قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ المعية هنا للمصاحبة والتبعية؛ يعني: إن نتبع الهدى ونكون معك فيما تدعوا إليه، والمراد بالهدى: ما جاء به الرسول ﷺ، وفي قولهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ إقرار بأن ما مع الرسول هدى، وهذا غريب منهم أنهم يقولون: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ فيعترفون بأنه هدى، ثم بعد ذلك يكفرون، ماذا يحصل؟ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ يقول المؤلف: [نُنتزَعُ منها بسرعة] الخطف: نزع الشيء بسرعة؛ يعني:

يتخطفنا الناس، يتخطفونا ويقومون علينا؛ لأننا خالفنا ما كانوا عليه من الشرك والأوثان، فهم يقضون علينا بسرعة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فالشيطان يخوف المؤمنين الكفار، يقول: ترى إن آمنتم حصل كذا وكذا، إن تمسكتم بدينكم حصل كذا وكذا، أي: كأنكم ألزمتم الناس باتباع الإسلام ظاهرًا وباطنًا صار الناس عليه، الناس ثلاثة أرباعهم يريدون الفسوق، فأنتم إذا ألزمتموهم بالدين فإنهم يفوزون عليكم، هذا لا ريب أن الشيطان يلقيه في قلوب الناس ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ ولكن ما الواجب علينا نحو هذا المقام؟ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الواجب: ألَّا نخاف، ما دمنا نرى أننا نسير على حق فإننا لا نخاف أحدًا؛ بل إننا نعلم علم اليقين أننا لو كنا على الحق لخافنا الناس ولم نخف منهم، أم لا؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢] الأمن من أي شيء؟ الأمن من الخوف، ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] لهم الأمن من الخوف لا من الله؛ يعني: ما يخافون عقاب الله؛ لأنهم آمنوا إيمانًا صريحًا ما لبس بظلم، وكذلك أيضًا يؤمِّنهم الله مما يخافون، وهو أحد التفسيرين في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ إن المؤمن الذي يُؤْمِن يُؤَمِّن عباده الطائعين له مما يخافون، ولكن هذا بإيمان في الواقع، وبإيمان حقيقي، فإذا وُجِد الإيمان الحقيقي، ثم نُفِّذَت الشريعة، فأنا ضامن أن يحصل الأمن التام أكثر مما يحصل بالدبابات والرشاشات وغيرها، هذه الأحوال التي نصنعها الآن ولاسيما في هذا العام؛ من الاغتيالات والانفجارات وغيرها، هذه هل إن الدول التي حصل فيها هذا الأمر ليس عندها سلاح تردع الناس؟ عندها سلاح قوي أقوى من سلاح هؤلاء المخربين، ولكن ما عندهم إيمان يحصل به الأمن، فمهما قوِيَ السلاح المادي فإنه لا يحصل به الأمان، الأمان حقيقة بالإيمان، الأمان والإيمان مقترنان، هنا يقول هؤلاء الكفار: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ هذا قول غير صحيح، وسواء قالوه لدفع ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ من غير عقيدة، أو قالوه عن عقيدة، فالأمر غير واقعيٍّ، والدليل: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نُمكِّن لهم حرمًا؛ يعني: معناه: نجعل لهم مكانًا؛ مثل: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٤١] أي: جعلنا لهم مكانًا يتمكنون فيه، وهنا نمكن لهم حرمًا آمنًا يعني: نجعل لهم مكانًا هو ذلك الحرم الآمن.

وقوله: ﴿حَرَمًا﴾ على وزن فعل، فهو صفة مشبهة أي: من الحرمة؛ يعني: مكانًا حرمًا؛ أي: ذا حرمةٍ، ولا ريب أن مكة المكرمة لها حرمة عظيمة في نفوس الناس حتى في الجاهلية.

وقوله: ﴿ءَامِنًا﴾ هنا كلمة (آمِن) اسم فاعل، وهل الحرم هو الآمِن، أو من فيه هو الآمِن؟ المؤلف يقول: [يأمنون فيه من الإغارة والقتل الواقعين من بعض العرب على بعض] فجعل آمِن؛ أي: آمنًا أهله؛ يعني: فسَّر آمِن بقوله: يأمنون، فيكون المعنى آمنًا أهله، وعندي أن الوصف هنا

للحرم، لأن المؤلف يقول: الآمِن وصف سببي، وأنا أرى أنه وصف حقيقي، عند النحاة نعت يسمونه نعت سببي، ونعت حقيقي، فالنعت الحقيقي ما كان صفة للمنعوت، والسببي ما كان صفة لغيره مما يتصل به، فإذا قلت: عندي رجل قائم، النعت هنا حقيقي، قائم يعود على رجل، عندي رجل قائم أبوه، هذا النعت سببي؛ لأن الوصف قائم هو ما له به صلة، المؤلف يقول من باب النعت السببي؛ يعني: الآمِن أهلُه، وعندي أنه نعت حقيقي، وأن الحرم هو الآمن، وإذا أُمِنَ المكان بلا ريب من فيه سوف يأمن، فهذا المكان آمِن، وطالما كان آمِنًا لا أَحَدَ يعتدي عليه حتى من أراده بسوءٍ أتلفه الله ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] هذا الحرم الآمن نفس العرب مع كفرهم مهما فعلت قريش لا يمكن أن يغزوا هذا البيت أبدًا، ثم إن أهل هذا البيت هم سادة العرب حتى في الجاهلية، فكيف يقولون: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ هذا غير ممكن؛ لأن الحرم آمن فهم آمنون فيه، ما يمكن أن يتخطفوا فيه، ثم مع ذلك هذا البلد مع كونه آمنًا هو أيضًا عيشٌ رغد ما يلحق أهله ضيق.

ولهذا قال: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يجبى يقول المؤلف: [بالفوقانية والتحتانية] يُجبى وتُجبى قراءتان سبعيتان، ومعنى يُجبى: أي: يجمع من الجباية وهي الجمع، وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ معناه: يؤتى ضمن يجبى بمعنى يُؤْتَى أيضًا، يُجمَع الثمرات من كل أوب وتأتي إلى هذا البلد، وهذا هو الواقع، قال إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فكانت الثمرات تأتي إلى هذا البلد من كل أوب، من المكان القريب كالطائف وغيره، ومن المكان البعيد، وقوله: [من كل أوب] يعني: من كل صوب، أوب: أي: صوب، والصوب والأوب بمعنى: الناحية؛ أي: من كل ناحية.

﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ رزقًا معناها: العطاء وهو منصوب على أنه مفعول من أجله، أو مفعول مطلق لقوله: ﴿يجبى﴾، يجبى عطاءً، وقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا، وليس لهم به حول ولا قدرة؛ بل الأمر من الله عز وجل هو الذي جعل هذه الثمرات تُجبَى إليهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما تقوله حق، قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المعلوم هنا محذوف في الآية ما قال: لا يعلمون كذا وكذا، لكن المؤلف خصه بقوله: [لا يعلمون أن ما تقوله حق] وعندي بأن الأمر أعم وأشمل؛ لأن حذف المفعول يدل على العموم، فعليه نقول: لا يعلمون أن ما تقوله حق، ولا يعلمون العاقبة أيضًا، فإن العاقبة أنه إذا كان هذا الحرم آمنًا في حال الكفر وتجبى إليه الثمرات في حال الكفر فما بالك في حال الإيمان؟ كيف وقد قال إبراهيم: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] فإذا كان أهل هذا البلد مؤمنين فإن أمنه يكون أشد من جهة أن نفس المكان آمن، ومن جهة أن المؤمن الذي في هذا المكان آمن أيضًا، فإذا

كان هذا الأمن مع كون هؤلاء من المشركين فإنهم إذا كانوا مؤمنين يكون أكثر، ولهذا لما حصل من المسلمين ما حصل من انتهاك هذا البلد العظيم فإنه سُلِّط عليهم من سلط من الظلمة؛ مثل: قضية البرامكة، ومثل: ما سيكون في آخر الزمان؛ حيث يسلط على هذا البيت رجل من الحبشة فيأتي إليه فينقضه حجرًا حجرًا، ولهذا نحن في الحقيقة نخاف خوفًا عظيمًا مما نراه في مكة من الفسوق والمعاصي، نخاف أن يكون هذا بداية لانتهاك الحرم انتهاكًا بالغًا حتى يسلط عليه هذا الخبيث، ولكننا لا نعلم ماذا يكون في المستقبل، فالمعاصي في الحرم لها أثر عظيم إما على نفس الحرم، أو على من حوله، يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذن نقول: لا يعلمون ليس خاصًا بأن ما جاء به الرسول حق؛ بل هو عام حتى في النهاية وفي الغاية مما لو آمنوا.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ هذه فائدة ذكر إهلاك القرى السابقة لأجل أن يقال لقريش: الكفر لا يمنع الخوف، ولا يمنع العقوبة؛ بل إنه سبب العقوبة، فأنتم تقولون: إننا إذا آمنا تخطَّفَنا الناس هذا ليس بالحقيقة؛ بل العكس هو الحقيقة ، ولهذا قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ فكأن الله يدلل لتكذيب هؤلاء بأن الكفر لا ينجي بما أهلك به الأمم السابقة التي بطرت معيشتها، كلام هؤلاء الكفار للرسول ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أبطله الله تعالى بالسلب والإيجاب، أما الإيجاب فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ ما يمكن أن يكون هذا البلد خائفًا، فإذا كان آمنًا في حال الكفر ففي حال الإيمان من باب أولى، أما السلب فقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ فالكفر لا يؤمِّن صاحبه؛ بل هو السبب في إهلاكهم، فأنتم بقاؤكم على الكفر ليس هو الذي ينجيكم من أن يتخطفكم الناس؛ بل هو سبب هلاككم وهو الواقع، ولذلك خرج صناديد قريش وزعماؤهم إلى بدرٍ ليهلكوا، الحرم آمِن ما فيه شيء، لكنهم هم الذين خرجوا لهلاكهم، فقتلوا ببدر، فالحاصل: أن الله يقول: نحن نُكذِّب ما قلتم بأمرين: أحدهما أمر إيجابي، وهو: أن هذا الحرم آمِن والناس هم الذين يتخطفون من حوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وثانيًا: أن الكفر ليس سببًا للبقاء، والدليل ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ فأنتم آمنوا لتكونوا في أمن وفي مكان آمن، وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن﴾ الهمزة هنا معناها: التقرير؛ يعني: قد مكنَّا، كما هي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] أي: قد شرحنا لك، وقوله: ﴿أَوَلَمْ﴾ أظن أنه مر علينا من مثل هذا التعبير وقلنا: إن لعلماء النحو في ذلك مذهبين: المذهب الأول: أن الهمزة داخلة على شيء مقدر، والواو أو الفاء حرف عطف على ذلك المقدر، والمذهب الثاني: أن الهمزة بعد الواو محلها لكن قدمت؛ لأنها للاستفهام، وأصلها: وألم يروا، ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أتُخُطِّفُوا؛ يعني: هل هم تُخُطِّفوا ولم نمكن لهم حرمًا آمنًا؟!!

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾.

١- **يُستفاد من هذه الآية**: بيان أن المشركين لا يستفيدون من شركائهم شيئًا في أحوج ما يكونون إليهم، وذلك يوم القيامة.

٢- ويستفاد منها أيضًا: التوبيخ لهؤلاء الذين يدعون مع الله غيره، فإن في هذا لا شك توبيخًا وتقريعًا لهم يوم القيامة.

٣- ويستفاد منها أيضًا: ثواب التكليف في الآخرة، هو لازم العبادة، وقد يكون الشرك عبادة، ويكفر به المخالف، فإبليس أُمِر أن يسجد لآدم فلم يسجد فكفر بذلك، مع أن السجود لغير الله شرك، فالطاعة: ما أمر الله به على أي حال تكون، هنا أُمِروا أن يدعوا هؤلاء، فهل نقول: إن هذا الأمر تكليف وإلزام لهم، أو نقول: إن هذا ليس تكليفًا؛ لأنه ليس الغرض الفعل، وإنما الغرض التحدي وإظهار عجز هذه الأصنام؟ هذا هو الظاهر.

٤ ـ **ومن فوائد الآية**: إثبات العذاب في الآخرة، لقوله: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾.

٥ ـ **ومن فوائدها**: أن الاهتداء هو السبب المانع من العذاب، لقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾، فإذا أردت سببًا ينجيك من عذاب الله فعليك بالاهتداء بهدي الله؛ لأنه هو السبب الذي ينجي من عذاب الله.



قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٥، ٦٦].

التفسير [1]

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ذكرنا أنه في السؤال الأول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ سأل عن التوحيد، وهذا سأل عن الرسالة، فيكون المسئول عنه الآن: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، أو أن عيسى أو موسى حسب الأمم التي تُسأل.

وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ ما معنى عميت عليهم الأنباء؟ انطمست عليهم فلم يجدوا جوابًا.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن هذه الأخبار وعن الجواب؛ إما لعجزهم وعدم تمكُّنهم،

(١) تفسير الآيات (٥٨ ـ ٦٤) غير واضح سماعًا.

أو لأنهم لو سألوا ما وجدوا خبرًا، وقال بعضهم: إن معنى ﴿لا يتساءلون﴾ يعني: معناه: لا يتنادون في القرابة كما كانوا يفعلونه في الدنيا، إذا ضاقت على الإنسان الحيل صار إلى قرابته، وما أشبه ذلك، وهذا في الآخرة لا يكون.

الفوائد:

١- **يُستفاد من قوله:** ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ في هذه الجملة ما سبق في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ﴾ من إثبات كلام الله، وأنه بصوت، وأنه يسمع، وأنه بحرف.

٢- **ويستفاد من قوله:** ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: أن الناس يُسألون عن إيمانهم بالرسل كما يُسألون عن تركهم ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، فيستفاد منه: أن السؤال في الآخرة عام لجميع الخلق؛ المرسلين وغيرهم، أما السؤال في القبر فإنه قد ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه خاص بهذه الأمة، لقوله: «إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»(١)، وقوله: «أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُبْتَلُونَ فِي قُبُورِكُم»(٢) إنما يوم القيامة السؤال عام بنص القرآن.

٣- **ومن فوائد الآية:** إظهار فضل الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ حيث أثبت الله تعالى أحقِّيَّة رسالتهم في هذا الموطن العظيم.

٤- **ومن فوائد الآية:** أن غير المؤمنين تعمى عليهم الأنباء في ذلك اليوم ولو كانوا عالمين، وهذا كما أن الميت يُسأل في قبره: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ولو كان عالمًا؛ لأنه إذا كان غير مؤمن لا يجيب بالصواب.

٥- **ومنها:** أنه لا يغني أحد عن أحد يوم القيامة، لقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص:٦٧ - ٦٩].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٧/ ٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٨٦) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

التفسير

قال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أما شرطية وجوابها: قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾، قوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ التوبة تقدم لنا أنها: الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى عن معصيته إلى طاعته، وأن لها شروطًا خمسة: الندم، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود، وأن تكون قبل الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

وقوله: [من الشرك] لعل المؤلف أوجب له أن يقيد التوبة هنا بالتوبة [من الشرك] في قوله: ﴿وَءَامَنَ﴾؛ لأن الإيمان بعد الشرك، فإن العاصي مؤمن ولو كان عاصيًا، فهذا هو الذي أوجب على المؤلف أن يقيد التوبة من الشرك.

وقوله: ﴿وَءَامَنَ﴾ [صدَّق بتوحيد الله] هذا نقص في تفسير الإيمان؛ لأن الإيمان ليس هو التصديق في الشرع، صحيح أن الإيمان في اللغة يراد به: التصديق، لكنه في الشرع هو: التصديق بشرط أن يتضمن: القبول والإذعان، فلابد من قبول وإذعان، وإلا فليس بمؤمن لو صدَّق، فأبو طالب مثلًا مُصدِّق برسالة الرسول ﷺ ومع ذلك فهو كافر؛ لأنه لم يقبل ولم يُذعِن، وقول المؤلف: [صدَّق بتوحيد الله] أيضًا فيه قصور؛ لأنه ليس الإيمان أن تصدق بوحدانية الله، لكن أن تصدق بكل ما يجب الإيمان به، وقد بيَّن الرسول ﷺ أن الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فلابد من هذه الأركان الست في الإيمان.

وقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال المؤلف: [أدى الفرائض] وفي هذا أيضًا قصور، والمراد عمل صالحًا؛ أي: عمل عملًا صالحًا يشمل الفرائض والنوافل، والعمل الصالح هو الذي جمع بين أمرين: الإخلاص والمتابعة، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة:٥]، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا الإخلاص، و﴿حُنَفَآءَ﴾ هذا المتابعة؛ لأن الحنيف: الذي ليس بمائل، فمن خرج عن المتابعة فهو مائل، فالعمل الصالح إذن كل عمل تضمن الإخلاص والمتابعة، ضده العمل الفاسد، وهو الذي اشتمل على الشرك أو على البدعة، فهذا ليس بعملٍ صالح، من جمع هذه الأوصاف الثلاثة ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾، ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ من أفعال الترجِّي، لكنها بالنسبة لله سبحانه وتعالى ما تكون للترجِّي، تكون للتعليل؛ ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: عسى من الله واجبة؛ لأن العلة ملازمة للمعلول، وإذا وُجِدَت العلة ثبت المعلول، فالعلة من ثلاث هي: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح، فإذا وُجدت هذه وُجِد الفلاح.

وقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ أن يكون أي: الذي تاب وآمن وعمل صالحًا من المفلحين، قال المؤلف: [الناجين بوعد الله] يعني: الناجين بما وعدهم الله به، ولكن الفلاح ليس كما قال المؤلف: [هو النجاة فقط]؛ بل النجاة من المرهوب والفوز بالمطلوب هذا هو الفلاح، أن ينجو الإنسان مما

يكره، وأن يحصل له ما يحب، قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ لو قلنا: هذا للترجي مثلًا لتضمَّن فائدة، وهي: أن الإنسان وإن عمل هذا العمل فليكن راجيًا لا قاطعًا، فليكن راجيًا للفلاح، لا قاطعًا به؛ لأنه لا يدري قد يكون هناك موانع أو خلل لا يحصل معه الفلاح، فكأنه يرشد إذا قلنا: إن عسى هنا للترجِّي باعتبار العامل لا باعتبار الجازم أنها للترجي، وتكون الفائدة منها: هو أن الإنسان وإن عَمِل فلا يقطع، فليكن راجيًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ فهنا المقام ليس مقام جزم؛ بل هو مقام رجاء.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ هذه الآية تعليل ببطلان آلهة المشركين وإثبات الألوهية لله وذلك عن طريق إثبات الخلق، وأن الخالق هو الذي يجب أن يُعبَد، لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١] فإن هذا الوصف تعليل للعمل؛ فإن الخالق يجب أن يكون هو الإله المعبود، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠ - ٢١] فإذا كانوا لا يخلقوا كيف يستحقوا أن يُعبَدوا؟ وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]، هنا قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لإلزام هؤلاء المشركين بعبادة الله وحده، وقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ الخلق هو: الإبداع المبني على التقدير، فإن الله سبحانه وتعالى يُقدِّر ثم يخلق، فخلْقُه مبنيٌّ على الحكمة ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ولم يقل: من يشاء، مع أن في المخلوقات ما هو عاقل، فلماذا قال: ما يشاء دون من يشاء؟ تغليبًا لغير العاقل؛ لأنه أكثر، ثم من أجل أن يشمل الأعيان والأوصاف، والأوصاف معلوم أنها ليست من العقلاء، وإذا روعِيَت الأوصاف أُتِي بـ (ما)، وانظروا إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣] ولم يقل: من طاب، مع أن المنكوح عاقل، لكنه لما كانت المرأة تُنكَح لصفاتها قال: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ﴾ يعني: أنه راعى الصفة.

فهنا ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تغليبًا لغير العاقل لكثرته، وليشمل الأعيان والأوصاف، فالله تعالى خالق كل شيء الأعيان والأوصاف؛ ولهذا من مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله تعالى خالق للعبد ولأفعال العبد التي هي أوصافه، فالله تعالى يخلق ما يشاء.

وقوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أي: ما يشاء خلقه، فالمفعول إذن محذوف، وهذه المشيئة كل ما ذكر الله تعالى عن فعل من أفعاله أنه تابعٌ للمشيئة فإنه مقرون بالحكمة؛ لأن من أسماء الله تعالى الحكيم، فلا يخلق شيئًا عبسًا، ولا يحكم بشيءٍ عبسٍ، كل ما شاءه فهو مقرونٌ بحكمة.

وقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ قال المؤلف: [ما يشاء] يختار ما يشاء، والاختيار: الأخذ بخير الأمرين، فإنه سبحانه وتعالى أيضًا يأخذ بما يراه خيرًا من أفعاله وأحكامه، فمصير الخلق عائد لأصل التكوين، والاختيار عائد للتأييد المبني على الإرادة التامة، فهو لا معقب لحكمة ولا راد لقضائه،

فيختار ما يريد سبحانه وتعالى، يخلق الآدمي على هذا الوجه، يختار أن يكون على هذا الوجه، خلق البهيمة المركوبة اختار أن تكون على هذا الوجه، كذلك أيضًا اختار أن يكون شرعه كذا وإن لم يكن مخلوقًا على هذا الوجه، فإذن الاختيار أعمُّ من الخلق من وجه؛ حيث يشمل المخلوق وغير المخلوق، فيختار سبحانه وتعالى ما يريده من شرعه، أو أعم من هذا الوجه، أما الخلق فإنه أعم من حيث أنه يشمل الأعيان والأوصاف.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ قال: [للمشركين] ﴿الْخِيَرَةُ﴾ [أي: الاختيار]، قوله: ﴿مَا كَانَ﴾ هل هي نافية أو اسم موصول؟ قال بعضهم: إنها اسم موصول؛ يعني: يختار ما كان لهم الخيرة؛ يعني: ما يكون فيه خير لهم يختار الذي فيه خير لهم، وعلى هذا فقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ موصولٌ بقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لأنه مفعول به، وهذا القول ذهب إليه المعتزلة الذين يقولون: إنه يجب على الله فعل الأصلح أو الصلاح، فقالوا: إنه تعالى لا يختار إلا ما كان فيه الخيرة، أما ما لم يكن فيه الخِيَرة فلا يختاره، وهذا معناه: أنه سبحانه وتعالى يفعل ما هو أصلح أو ما هو صلاح، ولكن أكثر المفسرين - وعلى رأسهم ابن عباس رضي الله عنهما- يقولون: إن ما نافية، وكما قال المؤلف، والمعنى: لا يكون الخيرة لهؤلاء المشركين، ولا لأصنامهم أيضًا، فأصنامهم لا تطلب ولا تطاع، وكذلك فهم ليسوا لهم حق الاختيار في ما أراد الله، وهذا الخير هو الصواب، وعلى هذا فيكون الوقف على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ فقط، ثم تبدأ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ وهذا هو القول الصحيح في هذه الآية: أن الله هو الذي له الاختيار المطلق، وليس لأحد خِيَرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فلا يختارون من أمرهم إلا ما اختار الله، وقد تقدَّم لنا في العقيدة تفسير القول: هل يجب على الله فعل الأصلح والصلاح أو لا يجب، وذكرنا أنه واجب بمقتضى الحكمة وليس بمقتضى عقولنا، فإن الله تعالى بمقتضى كونه حكيمًا ما يفعل إلا ما هو صالح أو أصلح، لا يمكن أن يفعل ما ليس بصالح أو أصلح؛ لأنه حكيم، ولكن هل معنى ذلك: نحن نُوجب على الله ونقول: هذا أصلح من هذا، ويجب أن يفعل كذا؟ لا، ولكن الله سبحانه وتعالى يفعله وقد لا نعلم نحن بوجه الأصلحية أو بوجه الصلاحية، لا يلزم أن نعلم، وكم من الأشياء نظن أن الحكمة في مخالفة ما أمر الله به، أو ما يقع قدرًا، فيكون الحكمة فيما جاء به الشرع، وقضى به الله تعالى في قدره.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [الاختيار في شيء] فسَّر المؤلف الخيار بالاختيار، إذن فهي اسم مصدر؛ لماذا؟لأن كل كلمة تضمنت معنى المصدر دون حروفه فهي اسم مصدر، ونظير الخِيَرة الطِّيَرة، فإن الطيرة اسم مصدر بمعنى: التطير، وهكذا الخيرة اسم مصدر بمعنى: الاختيار ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [عن إشراكهم]، قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تقدم لنا أكثر من مرة أنها اسم مصدر بمعنى: التسبيح، والتسبيح: تنزيه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به، والذي لا

يليق به: النقص، ومشابهة المخلوقين، مُشابهة المخلوقين مُمتنعٌ على الله، والنقص ممتنعٌ عليه سبحانه وتعالى، فعليه: سبحان الله: تنزيهًا لله عن كل ما لا يليق به من نقص أو مُشابهة المخلوقين، وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: [عن إشراكهم] استفدنا من تقدير المؤلف أن (ما) مصدرية فيكون تنزيهًا عن فعلهم، ويحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولًا، ويكون العائد محذوف، والتقدير: عما يشركونه به، فيكون مُنزَّهًا عن الشركاء التي هي الأصنام، وقوله: ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ مأخوذة من العلو، لكنها تفيد معنى: التنزُّه مع العلو؛ يعني: تعالى بمعنى: ترفَّع وتنزَّه بعلو، فهي أبلغ من قولك علا؛ فإن علا تفيد العلو، لكن تعالى تفيد مع العلو التنزُّه والتحاشي عن ما يشركون به أو عن إشراكهم به، ولما بيَّن الله تبارك وتعالى عموم خلقه، وأنه هو الذي له الاختيار المطلق، وليس لأحد من خلقه اختيار؛ بل الخيار له وحده.

وقد ذكر بأنه عالم بكل شيء ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾، ﴿وَرَبُّكَ﴾ الخطابُ فيها وفي الذي قبلها إما للرسول ﷺ، وإما لكل من يصح توجيه الخطاب إليه ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ [تسر قلوبهم من الكفر وغيره] ﴿تُكِنُّ﴾ تُسِرُّ وتُخفِي ﴿صُدُورُهُمْ﴾ أي: قلوبهم، وإنما عبَّر عن الصدور؛ لأن القلب فيه، والقلب متصل بالصدر، فلهذا الصدر هو المُكِنُّ للقلب، الساتر له من الأشياء المستورة، فالله تعالى يعلم ما في صدورهم، وقول المؤلف: [من الكفر وغيره] صحيح، من الكفر وغير الكفر، فلا يخفى عليه شيء مما في القلب، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦] توسوس به أي: تحدث به، فهو سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء؛ بل هو يعلم ما لا تعلم أنت، يعلم مثلًا بأنك سوف توسوس في اليوم الفلاني بكذا وكذا قبل أن يقع منك.

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٧٤] [بألسنتهم من ذلك] ﴿يُعلنون﴾ يُظهِرون، وتخصيص المؤلف الإظهار بالألسن فيه قصور؛ لأن الإعلان قد يكون باللسان وقد يكون بغيره من الجوارح، قد يكون باللسان فيتكلم، وقد يكون بغيره من الجوارح فيفعل بيديه، أو قدميه، أو عينيه، أو غير ذلك، فهو أعم مما قال المؤلف.

الفوائد:

١- **يُستفاد من هذه الآية:** فضيلة هذه الأوصاف الثلاثة: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح.

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن هذه الأوصاف الثلاثة سبب للفلاح، لقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾.

٣- **ومنها:** أن الفلاح مرتبة عالية لا ينالها إلا ذوو الأوصاف الحميدة؛ التائبون، المؤمنون، العاملون صالحًا.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن العمل لا ينفع إلا إذا كان صالحًا، وهو ما جمع شرطين كما سبق:

الإخلاص، ومتابعة الرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** إثبات أن الله وحده هو الذي يخلق، لقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ لأن من لا اختيار له قطعًا لا خلق له.

٢- **ومنها:** أن الله تعالى قادر على كل شيء؛ لأن من يخلق ما يشاء معناه: أنه قادر.

٣- **ومنها:** إثبات الإرادة لله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ والإرادة هنا الشرعية أم الكونية؟ إن نظرنا إلى قرنها بالخلق قلنا: هي كونية، وإن نظرنا إلى لفظها بقطع النظر عن اقترانها بالخلق قلنا: إنها شاملة للكونية والشرعية، فإنه سبحانه وتعالى يختار كونًا وشرعًا ما يشاءه، وهذا أولى العموم أَولى أن تكون شاملة في الاختيار الكوني، والاختيار الشرعي.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان لا اختيار له، وقد تمسك بهذا الجبرية، لقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ فقالوا: هذه الآية تدلُّ على أن الإنسان ما له اختيار، وأنه مُجبَر على فعله، والجواب على ذلك أن يقال: ما كان لهم الخيرة المطلقة؛ يعني: التي تكون بدون الله، فالله يختار وهم يختارون، والدليل على هذا أن ما لهم الخيرة المطلقة: آيات كثيرة وأحاديث تدل على أن الإنسان له إرادة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ فهو سبحانه وتعالى أثبت للإنسان مشيئة وأثبت له الإرادة، والواقع يشهد بذلك، فالإنسان يُفرِّق بين الفعل الاختياري وبين الفعل غير الاختياري، فالإنسان إذا نزل من السطح بالدرج نزوله اختياري، ولكن إذا دفعه أحد من أعلى الدرج وصار يتدحرج نزوله غير اختياري، فإذن قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ النفي هنا يُسلَّط على الخيرة المطلقة التي لا تعارض، فالإنسان مُريد وله إرادة، وأما أن تكون نفيًا لمطلق الخيرة فهذا لا يمكن؛ لأن الآيات والواقع يشهد بأن الإنسان له خيرة، العلماء يقولون في كثير من الاستفسارات: يُخيَّر بين كذا وكذا.

٥- **ومن فوائدها:** انفراد الله تبارك وتعالى بالإرادة المطلقة، لا مُقيِّد لإرادته، لا مُعقِّب لحكمه، ولا راد لقضائه.

٦- **ومنها:** تنزيه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به، لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

٧- **ومنها أيضًا:** تعاليه وتنزُّهه عن هؤلاء المشركين، سواء قدرنا (ما) مصدرية، أو قدرناها موصولة، فهو سبحانه وتعالى متعالٍ عن المشركين؛ عن أصنامهم وعن شركهم.

فإذا نزَّه الله نفسه عن ذلك النقص، فالمعنى: أن هذه الأصنام ناقصة.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

١- **يُستفاد من هذه الآية:** إثبات العلم لله، وأنه شامل لما يُسَرُّ وما يُعلَن.

٢ ـ **ومن فوائدها:** التحذير والترغيب، تحذير الإنسان أن يظهر أو يعلن سوءًا؛ لأن الله يعلم به، وترغيبه أن يظهر، أو يعلن خيرًا؛ لأن الله يعلم به، إذن فالله أعلم بمقادير الخير والشر معناه: أنه لن يضيع، فهو معلوم، كما قال الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة أنه يعلم ويخبر بما عمل هؤلاء، ففي الآية ترغيب وتحذير، فمن أظهر خير وأعلنه فهو له ترغيب، ومن أظهر شرًا أو أعلنه فهو له تحذير.



قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٠ـ ٧٢].

التفسير

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ ﴿وَهُوَ﴾ الضمير يعود على الرب؛ يعني: وذلك الرب هو الذي يخلق، والذي يعلم هو الله، الله أصلها الإله حُذِفَت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال، كما في أناس فيقال فيها: الناس حُذِفت الهمزة فيها للتخفيف، فالله تعالى معناه: الإله أصلًا، ثم حذفت اللام للتخفيف وصارت الله، فما معنى الإله؟ إله بمعنى: مألوه وليست بمعنى: آلِه، فهي بمعنى: مألوه؛ مثل: غراس بمعنى: مغروس، وبناء بمعنى: مبني، وفراش بمعنى: مفروش، وأمثلتها كثيرة، فإله بمعنى: مألوه؛ أي: معبود، وسمي المعبود مألوهًا؛ لأن القلب يألهه؛ أي: يميل إليه، ومعلوم أن أَلِهَ موافقة في الاشتقاق لِأَهِل؛ إذ أن فيها الهمزة والهاء واللام، ففي الألوهية وهي العبادة نوع من التأَهُّل والاطمئنان؛ لأن الآلهة للشيء مطمئن إليه، فإذن الإله بمعنى: المعبود؛ لأن العابد يألهه أي: يميل إليه ويطمئن إليه، وليس الإله بمعنى: الآلِه؛ حيث قال المتكلمون: إن الإله بمعنى: الآلِه؛ أي: القادر على الاختيار؛ يعني: القادر على الخلق، لكن هم عندهم تعبيرات فلسفية، لو فسَّرنا الإله بمعنى: القادر على الخلق لكان المشركون الذين قاتلهم النبي عليه الصلاة والسلام موحدين؛ لأنهم يقولون: لا خالق ولا قادر على الخلق

إلا الله، ولا ريب أن هذا يؤدي إلى إبطال الرسالة والتوحيد، ومن ثَمَّ نعلم خطأ بعض المؤلفين الآن في التوحيد حيث يركزون على توحيد الربوبية ويتناسون توحيد الألوهية، وهذا خطأ عظيم؛ لأن التوحيد ليس الإقرار بالخالق والاعتراف به فقط؛ إذ أن هذا حاصلٌ من المشركين الذين استباح النبي عليه الصلاة والسلام دماءهم وأموالهم، لكن الإله بمعنى: المعبود، وهو أمر فوق القادر أو الخالق، ويقول تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لما كرر ألوهيته بصيغة الجملة الاسمية ﴿وهو الله﴾ هذه جملة اسمية طرفاها معرفة، والمعروف عند البلاغيين أن الجملة الاسمية إذا كان طرفاها معرفة فإنها تفيد الحصر، أكَّد ذلك بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهذا حصل أيضًا للألوهية في الله وحده، فليس معه إله.

كما قال الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون:٩١] فدل هذا على أن الإله هو المعبود الذي يخلق، ولهذا قال: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ ولا تظن أن هذه الآية تؤيِّد تفسير المتكلمين لما قال تعالى: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾؛ إذن هذا دليل على أن الله هو الإله الخالق، وإلا لقال: لذهب كل إله بمن عبده، لا؛ لكن لأنه لما كان الإله الحق هو الإله الخالق قال: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ وهنا الحصر حقيقي أو إضافي؟ الحصر حقيقي، وقد يشتبه على بعض الناس فيقول: إنه إضافي؛ وذلك لأن هذا الحصر إذا جعلناه حقيقيًا يشكل عليه كثيرًا أن الله أثبت آلهة سواه؛ حيث قال: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

وقال سبحانه وتعالى عن إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦]، وكذلك الكافرون قالوا للرسول ﷺ قالوا فيه: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥] فيظن الظان أننا لا يمكن أن نجمع بين هذه الآية وبين إثبات الربوبية للأصنام إلا إذا جعلنا الحصر إضافيًا؛ بمعنى: أننا نثبت ألوهية لكن على وجه آخر، ويكون النفي هنا على وجه آخر مخالف لما أثبتته، فنقول في ذلك: أصل الإله حقًا هو الخالق، وأما هذه الآلهة التي عُبدَت من دون الله فهي آلهة باطلة، ولهذا قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً﴾ فجعل ذلك إفكًا وليس بحقيقة، فهي وإن عُبدت وأُلِّهت فليست بآلهة، ولهذا تجدون أن الرسل - صلى الله عليهم وسلم - كل منهم يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ يعني: من إله يُعبَد ويستحق أن يُعبَد بحق سوى الله ـ عز وجل ـ، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء:٩٨ - ٩٩] ما معنى آلهة؟ أي: معبودة بحق، والتي أثبت الله لها العبادة، على هذا نقول: إن الجمع بين هذا الحصر وبين ما ذكر من إثبات الإلهية للأصنام هو: أن الإله هو المعبود بحق، وهذا لا ينطبق إلا على الله سبحانه وتعالى، وأما ما عُبِد

بغير حق فهو يسمى إلهًا لكنه لا يستحق أن يكون إلهًا، وكما قال الله: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هل هو ذكر على انفراده؛ بمعنى: أنك يُشرع تقول: لا إله إلا هو، أو ليس ذكرًا على انفراده ما لم يسبق الضمير مرجع؟ هذا هو المتعين، لا يمكن أن تقول: لا إله إلا هو إلا إذا سبق لهذا الضمير مرجع مذكور أو مرفوع مذكور؛ مثل: الله لا إله إلا هو، أو ملفوظ؛ مثل: أن يأتي شيء من أفعال الله فتقول: لا إله إلا هو، وأما لا إله إلا أنت فيصح؛ لأنك تخاطب الله فهو متعين، وإنما قلنا ذلك في الأول يعني: لا إله إلا هو لابد من مرجع خلافًا للصوفية، الصوفية يقولون: لا إله إلا هو، ثم يعيدونه فيقولون: هُو هُو هُو .. إلى آخره، فيعبدون الله ويذكرونه بلفظ الضمير فقط، ويحذفون لا إله إلا، يبقون يقولون هو هو، فيهزون الرؤوس، ويضربون الطبول، ويغبِّرون بالأصوات، ويقولون: هُو هُو، وربما يجرحون أنفسهم من شدة الانفعال والغيبوبة - نسأل الله العافية -، فالحاصل: أن هذا ما يكون إلا بسبق مرجع.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ الجار والمجرور خبر مقدم، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، فله وحده الحمد في الأولى والآخرة، أمَّا غيره فليس له الحمد الذي يستحقه الله لا في الأولى ولا في الآخرة، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ (ال) هذه للاستغراق؛ أي: جميع أنواع الحمد، وما يتعلق به من خير أو شر، فالله تعالى له الحمد كله فهو الذي لا يُحمَد على سوءٍ سواه، يُحمَد على كل حال، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الْحَمْدُ لله عَلَى كُلِّ حَالٍ»[1]، وقوله: ﴿لَهُ﴾ اللام هنا للاختصاص أو للاستحقاق؟ الاختصاص غيَر الاستحقاق، فالحمد المطلق مختص بالله، والمستحق للحمد حقيقة هو الله؛ لأن غيره وإن استحق أن يُحمَد، فإن ما أفاده من أسباب الحمد هو من الله سبحانه وتعالى، وغاية ما فيه أن يكون وسيلة، فالإنسان مثلًا يُحمَد على ما له من الصفات الكاملة، والإحسان إلى الخلق، وما أشبه ذلك، لكن هذا ممن؟ من الله، إذن فالحمد حقيقة لله، فالذي يستحق الحمد هو الله، والذي يختص بالحمد المطلق على جميع الأحوال هو الله سبحانه وتعالى، فهو إذن للاستحقاق والاختصاص ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يُحمَد في الدنيا على ما أجراه سبحانه وتعالى من أحكامه الكونية، وما شرعه من أحكام شرعية يحمد عليه حمدًا كاملًا، كذلك أيضًا ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال المؤلف: [الجنة] وليس كذلك، الآخرة تشمل منذ يُبْعَث الناس إلى أن يصلوا إلى منازلهم، فإنه سبحانه وتعالى يُحمَد؛ بل إن الله تعالى يفتح على نبيه في ذلك اليوم من المحامد ما لم يفتحه عليه من قبل، وهو سبحانه وتعالى في يوم القيامة يظهر حمده لكل أحد، فإنه يظهر عدله، ويظهر فضله وإحسانه، وتظهر حكمته، وتظهر قدرته إلى غير ذلك من الصفات العظيمة التي تظهر في ذلك اليوم ويستحق عليه الحمد، فليس المعنى: ما يُحمَد إلا في

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠٥٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

الجنة، هذا قصور جدًّا من المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ -،والله سبحانه وتعالى له الحمد في الآخرة، فأثبت قسمًا منه في الدنيا بين الناس إلى أن ينتهي كل إنسان إلى داره، وهو في الآخرة يُحمَد قلنا: محمول على ما يظهر في ذلك اليوم؛ من العدل، والقدرة، والرحمة، والحكمة، والفضل، والإحسان، وغير ذلك من أشياء كثيرة ما تظهر في الدنيا، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه يستأذن من الله عز وجل في الشفاعة، ويدخل تحت العرش، فيفتح الله عليه من المحامد ما لم يفتحه عليه من قبل[1]، وهذا قبل دخول الجنة؛ بل قبل أن يحاسب الخلق، فالله سبحانه وتعالى له الحمد في الآخرة ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ اللام ﴿وله﴾ خبر مقدم، وتقديم الخبر يفيد الحصر.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ قال المؤلف: [القضاء النافذ في كل شيء]، والحكم يشمل: القضاء وهو الحكم الكوني - كما قال المؤلف -، ويشمل الحكم الشرعي، فالحكم لله قضاءً وشرعًا، لا حاكم إلا الله، فمن ابتغى الحكم من غيره ضل، ومن اتبع هدى الله فإنه لا يضل ولا يشقى، وهنا ذكرنا أن تقديم الخبر يفيد الحصر؛ لأن الحكم لله وحده، وهو كذلك إذا كان المراد: الحكم المطلق، فالحكم المطلق لله ما يشاركه أحد، هو الذي يوجب الشيء، ويحرمه، ويندب إليه، ويبيحه، وكذلك في الأمور الكونية هو الذي ينزل الغيث، وهو الذي يزيل القحط، وهو الذي يحيي ويميت، ويرزق، كل هذا من الأحكام الكونية، هل أحد نازع الله في هذين الحكمين؟ نعم، الإنسان نازع ربه في الحكم الكوني وفي الحكم الشرعي، ففيهم مثلًا من أثبت مع الله خالقًا، وفيهم من زعم أنه رب يتصرف كما يشاء، والمخالفة في الحكم الشرعي أكثر وأبين، وما أكثر الذين يشرعون ويرون أن تشريعاتهم نافذة كشرع الله أو أعلى، وهؤلاء سبق أنهم كفار حتى لو صلوا، وصاموا، وزكوا، وحجوا فهم كفار.

وكذلك أيضًا من نازع الله في الحكم؛ مثل: فرعون فهو نازع الله في الحكم القدري، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] هذا الحكم المطلق فهمنا أنه لله، لكن هل هناك حكم مقيد؟ قلنا: نعم، فيه حكم مُقيَّد لكنه بأمر الله، ولهذا نحن نرى في كتب أهل العلم يذهبون إلى الحاكم، وقال الحاكم الشرعي، وبإذن الحاكم، وما أشبه ذلك، هذا الحكم الذي يستفيده هذا الإنسان مقيد أم غير مقيد؟ مقيد محصور، مقيد بأن يكون تحت حكم الله، محصور في مكان معين وفي زمن معين، فإذن الحكم المطلق هنا لله عز وجل في الدنيا وفي الآخرة.

وأما الحكم المقيد فهذا يكون لغير الله؛ مثل: ما يقول العلماء: الحاكم الشرعي يأخذ دور الحاكم ، وما أشبه ذلك، فالحكم مقيد في زمانه، ومكانه، ونوعه، أما في الزمان فمعلوم أنه مقيد، هل الحاكم الشرعي يبقى أبد الآبدين؟ لا، في مكانه هو ما يحكم إلا في بقعة من الأرض، ولا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٥١٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

يحكم في الأرض ولا في السماء، في نوعه؛ لأنه مقيد بأن يكون تحت حكم الله، فلا يملك أن يُغيِّر شيئًا من أحكام الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أيضًا قدم المعمول؛ يعني: غير متعلقة بـ (ترجعون)، وتقديم المعمول يدل على الحصر، فالرجوع إلى الله مهما طالت الدنيا، ومهما بعُد الإنسان، ومهما كان الإنسان أيضًا فإن مرجعه إلى الله، قال المؤلف: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [بالنشور] يكون متى؟ يوم القيامة، كل الخلائق مرجعها إلى الله سبحانه وتعالى وذلك في يوم القيامة، لا يبقى شيءٌ لا يُحشَر، كل شيء يُحشَر حتى يتبين أن الأمر كله مرجعه إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿قُلْ﴾ [لأهل مكة] ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ [أخبِروني] الخطاب للنبي ﷺ أرأيتم قل، لكن من المخاطب؟ المؤلف يقول: [لأهل مكة]، والصواب: أنه عام لكل أحد ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ [أي: أخبروني] تفسير المؤلف لها بـ [أخبروني] تفسير بالمعنى لا باللفظ؛ لأن (رأى) من الرؤية البصرية، والمعنى: أأبصرتم ذلك فأخبروني عنه، ولكن المؤلف فسَّره كغيره من أهل العلم يفسرونه باللازم؛ لأن من لازم الرؤية: إخبار الإنسان عما يرى ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أرأيتم يقولون: إنها تنصب مفعولين، مع العلم أنه قول البصرية، تنصب مفعولين: المفعول الأول قد يكون موجودًا وقد يكون محذوفًا، وأكثر ما يأتي محذوفًا، ولكنه قد يكون موجودًا؛ مثلًا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس:٥٩] هنا المفعول موجود ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧] هنا المفعول الأول محذوف ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ المفعول الأول محذوف، والتقدير: أرأيتم حالكم؛ يعني: أخبروني عن حالكم ماذا تقولون لو أنه حصل كذا وكذا، فالمفعول الأول محذوف، وجملة ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ في محل نصب هي المفعول الثاني، ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ [دائمًا] جعل بمعنى: صيَّر، فمفعولها الأول: الليل، ومفعولها الثاني: سرمدًا، إن صيَّر الله عليكم الليل سرمدًا، والليل: من غروب الشمس إلى طلوعها، واختفاء الشمس في الأفق هو الليل، وظهورها هو النهار، والنور الذي يسبقها بعد الغروب، أو يتقدمها بعد الفجر هذا من مقدمات النهار أو من مؤخرات الليل، وإلا في حقيقة الأمر أن الليل يكون من غروب الشمس إلى طلوعها، لقوله: ﴿سَرْمَدًا﴾ قيل: أن أصلها سردًا، والسرد التتابع؛ يعني: متتابعًا، وعلى هذا التقدير فالميم زائدة، ويكون وزنه الصرفي سرمدًا فعلًا، وأن الميم زائدة، لو قلنا: إن الميم أصلية، وأنه من سرمد إذا استمر، وعلى هذا فيكون الوزن الصرفي: فعللًا؛ يعني: تكون الميم أصلية، الذي يهمنا معنى السرمد، معناه: الدائم المستمر ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لو كان الليل سرمدًا إلى يوم القيامة أحد يستطيع أن يأتي بنهار؟ لا أحد يستطيع؛ بل ما أحد يستطيع أن يقدم النهار قبل وقته، ولا أن

يؤخره بعد وقته، فالآن لو اجتمع العالم مثلًا أن الشمس تخرج على اثني عشر، لو اجتمع العالم كلهم على أن تخرج اثنا عشر إلا دقيقة يستطيعون؟ لا يستطيعون، ولو أرادوا أن تتأخَّر وتخرج الساعة اثنا عشر ودقيقة، ما يستطيعون، أو على أن يُزحزحوها قليلًا عن مكانها، ما يستطيعون، إذن أننا لا نستطيع أن نُغيِّرها لا زمانًا ولا مكانًا ما نستطيع أن نجلبها ونأتي بنهار، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [بزعمكم] ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ [نهار تطلبون فيه المعيشة]، (مَن) مبتدأ، و(إله) خبره، و(غير الله) صفته، و(يأتيكم) حال من إله؛ لأن يوصف؛ يعني: أي إله يأتيكم بضياء، وقول المؤلف: [على زعمكم] هذا ما يفطن له إلا إنسان فاهمٌ في اللغة العربية؛ لأن (مَن) يُستفهَم بها عن التعيين، فتقتضي التعدد؛ لأن التعيين إنما يُطلَب عند التعدد، إذا تعدَّدت الأشياء يصير التعيين، فإذا قلت: مَن قام؟ فالآن أثبتُّ بهذا الاستفهام أن عددًا من الناس قد قاموا، ولكني أستفهم عن تعيين هذا القائم، فإذا قال: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ أثبتت الآية أن هناك آلهة والمطلوب: التعيين، عيِّنوا لي الإله الذي يأتيكم، هل حقيقة الأمر أن هناك آلهة متعدِّدين؟

ولهذا قال المؤلف: [بزعمكم] يعني: إن كنتم تزعمون أن هناك آلهة فمن الإله الذي يأتيكم بضياء؟ ويكون هذا أبلغ في التحدي، لو قال: هل إله غير الله؟ صار هنا الاستفهام عن وجود إله لا عن تعيينه، لكن الاستفهام عن تأويله أبلغ في التحدي؛ يعني: حتى على زعمكم أن هذه آلهة، فإنا نتحداكم أين الإله الذي يأتي بهذا الشيء؟ إذا قلتم: ما عندنا أحد يفعل هذا تبيَّن أن ألوهيتها باطلة؛ لأن الإله لابد أن يكون قادرًا سميعًا بصيرًا إلى آخر الصفات الكاملة، (مَن) يُطلَب به التعيين من المتعدد، وهنا ﴿مَنْ إِلَهٌ﴾ يقتضي أن هناك آلهة متعددة، وهذا ليس على حقيقته؛ بل على زعم هؤلاء المشركين، زعمهم وجود إله مستحق، وإذا كان ذلك على زعمكم مستحق للعبادة فلتكن قادرة، إذا لم تكن قادرة فهي لا تستحق العبادة ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ الباء هنا للتعدية؛ يعني: يجلب إليكم الضياء، وقال: ضياء؛ لأنه علامة النهار؛ بل إنه هو النهار في الواقع، إما علامته أو هو هو.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [ذلك سماع تفهُّم، فترجعون عن الإشراك] ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ يعني: أَصُمَّت آذانكم فلا تسمعون، والمراد بالاستفهام هنا: سمع التفهُّم الذي يرتدع به المرء عن غيِّه، هنا قد يقول قائل: لماذا لم يقل: أفلا تبصرون؟ الجواب: لأن النهار يكون الإبصار فيه أظهر؛ بل قال: أفلا تسمعون؟ نقول: لأنه تبيين لقوله: ﴿عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ والرؤية هنا ممتنعة، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وليس تبيينه على آخر الآية: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ فهو تبيين على أول الآية، والمعنى: أنكم لا تستمعون سمعًا تستفيدون به؛ لأن السمع؛ أو لأن الليل محل السمع، وليس محل الرؤية.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

١ - **يستفاد منه:** إثبات ألوهية الله.

٢ - **ويُستفاد من الآية أيضًا:** وانفراده بالألوهية، لقوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

٣ - **ويُستفاد من الآية:** اختصاص الله تعالى بالحمد المطلق، لقوله: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ بالحمد المطلق الشامل للدنيا والآخرة.

٤- **ومن فوائد الآية:** ظهور كمال صفات الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة؛ لأن الحمد: وصفُ المحمود بالكمال.

٥- **ومن فوائدها:** اختصاص الله تعالى بالحكم، أنه وحده الحاكم، لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ وما ذُكِر من إثبات الحكم في الآية فهو مقيد؛ مثل: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، فهذا مقيد.

٦- **ومن فوائد الآية:** إثبات البعث، لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾.

١- **من فوائد الآية:** تحدِّي هؤلاء المشركين أن تكون أصنامهم جالبة للخير أو دافعة للشر.

٢- **ويُستفاد منها:** بيان قدرة الله سبحانه وتعالى؛ حيث لا يُعجِزُه أن يجعل الليل سرمدًا إلى يوم القيامة.

٣- **ويُستفاد منها أيضاً:** تذكير العباد بنعمة الله، فإن الأشياء إنما تتبيَّن بضدها.

٤- **ومن فوائد الآية:** أنه لا يستطيع أحد أن يُغيِّر سنة الله في الكون، فإذا جعله سرمدًا ما استطاع أحدٌ أن يسير فيه.

٥- **ومن فوائد الآية:** الحثُّ على سماع ما يُتلَى من كتاب الله سمعَ تفهُّم وقبول، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾.

٦- **ومنها:** بيان نعمة الله على العباد في ضياء النهار، كم طاقة لكي يبقى هذا الضياء؟ ما يصلح؛ يعني: أن كل الإضاءة التي في الليل تسقط بالنهار، فكم تستهلك الأمة من طاقة في إضاءة الليل، مع أنها ما تكون مثل إضاءة النهار، فبهذا نعرف قدر نعمة الله سبحانه وتعالى من هذا الضياء الذي يستهلكه الناس بكميات كبيرة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

١- **هذه الآية يُستفاد منها:** ما يُستفاد من الآية التي قبلها إلا أن فيها زيادة، وهي: بيان نعمة الله سبحانه وتعالى، ويستفاد من الآية ما يستفاد من ما قبلها فيما اتفقَتا فيه، ومنها: بيان نعمة الله تعالى في الليل الذي جعله سكنًا، لقوله: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

٢-**ومن فوائدها:** أن نوم الليل أفْيَد للجسم من نوم النهار؛ حيث جعل الله الليل محلَّ السكن ووقتَه، وهذا أمر مشاهَد.

٣- **ومنها:** الحثُّ على التبصُّر في آيات الله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فإن هذا يفيد حث الإنسان على أن يتبصَّر فيما جعل الله سبحانه وتعالى من هذه الآيات حتى يستدل بها على كمال قدرة الخالق.



قال الله تعالى:

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٣، ٧٤].

التَّفْسِيرُ

قوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ﴾ الجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿جَعَلَ﴾؛ يعني: وجعل لكم الليل والنهار من رحمته. قوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ (من) هنا للسببية؛ أي: بسبب رحمته، أو بسبب ما اتصف به سبحانه وتعالى من الرحمة، والرحمة صفة حقيقة ثابتة لله سبحانه وتعالى، وهي غير الإرادة، غير إرادة الإنعام وغير الإنعام، فأهل السنة والجماعة يقولون: إن الرحمة صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل لا تُشبِه رحمة المخلوق، وأما الأشاعرة فيُحرِّفون معنى الرحمة إلى أنها الإنعام أو إرادة الإنعام، فيُفسِّرونها بالفعل، وهو الإنعام، أو إرادته؛ لأنهم يثبتون الإرادة، وهي صفة معنوية يثبتونها، وقد مر علينا أنهم لا يثبتون من الصفات إلا سبع صفات؛ منها: الإرادة، فيُفسِّرون الرحمة بإرادة الإنعام؛ لماذا؟ قالوا: لأن الإرادة دلَّ عليها السمع والعقل، ونحن لا نثبت من صفات الله إلا ما دل عليه العقل، فأما ما لا يدل عليه العقل فإنه يجب علينا أن نؤوِّله، ونحن نقول: نُحرِّفه على كلامهم، هم يسمونه: تأويلًا، ونحن نقول: هو تحريف، فيقولون: ما دل عليه العقل من صفات الله أثبتناه، وما لا يدل فإنه يجب أن نؤوِّله، وبالمعنى الأصح: أن نُحرِّفه، وما الدليل العقلي على الإرادة؟ يقولون: إن العقل يدل على الإرادة بواسطة التخصيص؛ تخصيص

المخلوقات كل شيء من المخلوقات خُصِّص بشيء، هذا أراد الله أن يكون قاسيًا فصار قاسيًا، وهذا يكون لينًا فصار لينًا، وهذا يكون طويلًا فيكون طويلًا، وهذا قصير فيكون قصيرًا إلى آخره، هذا يدل على إرادة؛ يعني: أمر لا يخلو من إرادة، والرحمة لماذا أنكرتموها؟ قالوا؛ لأن الرحمة عبارة عن رقة تعتري القلب تُوجِبُ الحُنُوَّ على المخلوق، فنقول لهم: هذه الرحمة التي ذكرتم إنما هي رحمة المخلوقين، ونحن نثبت لله رحمة لا تشبه رحمة المخلوقين.

ثم إننا نستدل على الرحمة بالعقل كما استدللتم على الإرادة بالعقل، كم لله سبحانه وتعالى علينا من نعمة؟ لا تعد ولا تحصى، وكم لله تعالى من تفريج كربات؟ لا تعد ولا تحصى، ما هو الأمر المقتضي لهذه الأشياء؛ لجلب النعم ودفع النقم؟ الرحمة؛ لأن القاسي الذي لا رحمة فيه ما يجلب النعم ولا يدفع النقم، فإذن الاستدلال بالحوادث التي فيها جلبُ النعم ودفع النقم أظهر وأبيَن من الاستدلال بالتخصيص على الإرادة؛ لأن دلالة التخصيص على الإرادة لا يفهمها إلا أفرادٌ من الناس، لكن دلالة جلب المنافع ودفع النقم على الرحمة كل الناس يفهمونها، حتى العامي في سوقه إذا رأى رجلًا قاسيًا على أولاده قال له: هذا منكر يا أخي، وإذا رآه مثلًا دائمًا يجلب الخير ويدفع الشر عنهم قال: هذا إنسان رحيم، فإذن دلالة العقل على الرحمة أقوى من دلالته على الإرادة، ومع ذلك هم يُثبِتون الإرادة ولا يُثبِتون الرحمة، فهم يقولون: من رحمته لا يمكن أن نثبت لله صفة هي الرحمة، وإنما نقول: من رحمته: من إنعامه، ونحن نقول: إن ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أن (من) للسببية، ورحمته هي صفته التي اتصف بها أزلًا وأبدًا، وبهذا افتتح كتابه: بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقرن ربوبيته بذلك: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهذه الربوبية كلها ربوبية رحمة، ما هي ربوبية انتقام وغلبة؛ بل هي ربوبية رحمة، فكيف ننكر هذه الصفة العظيمة من صفات الله ونثبت ما هو دونها؟ وهذا يدل على تناقض هؤلاء المُعطِّلين من الأشعرية والمعتزلة وغيرهم؛ لأنهم يتناقضون فيُثبِتون لله من الصفات ما يدلُّ العقل على إثبات ما هو أَولى منه، وينكرون من الصفات ما يدل العقل على إثباتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ﴾ جعل بمعنى: خلق، وليس بمعنى: صيَّر، ولهذا لم تنصب مفعولين ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ليل ونهار يتعاقبان على الناس ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [أي: في الليل] ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [في النهار للكسب]، قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ اللام للتعليل؛ أي: لأجل أن تسكنوا فيه، ولا يلزم من وجود المعلول وجود العلة، إذا لم تكن العلة مؤثرة؛ مثلًا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه علة غائية، والعلة الغائية لا يلزم من وجود المعلول وجودها، فلا يلزم من الخلق وجود العبادة، كذلك ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ هذه علة غائية وليست علة مؤثرة، ولا يلزم من وجود المعلول وجود العلة الغائية؛ فمثلًا: قد يقول قائل: نجد بعض الناس ما يسكنون في الليل، لا يسكنون بالليل، أحد معاشه بالليل؛ كالحراس، وأحد لهوه بالليل؛

كأصحاب البطالة الذين ينامون النهار ويسهرون الليل، فنقول: إن وجود المعلول إذا كانت العلة غائيةً لا يلزم منه وجود العلة، كما لو قلت: قدَّمت لك هذه البعير لتركب عليها، فقد تركب وقد لا تركب، أعطيتك القلم لتكتب به، ربما تكتب وربما لا تكتب، وقوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يقول المؤلف: [تستريحون]؛ إذ أنه ليس من السكنى، ولكنه من السكون، أين النون في قوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾؟ النون حُذِفَت؛ لأنه منصوب على الفعل، ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: في الليل؛ يعني: تستريحون، ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ لتبتغوا أي: تطلبوا، وقوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: من عطائه ورزقه، في النهار للكسب.

وفي الآية هنا تركيب ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، بدأ بالليل وقدَّم من بعده صفته، وهذا في الليل ففيه كلامٌ مُركَّب، الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ لعل هذه للتعليل؛ أي: لأجل أن تشكروا الله سبحانه وتعالى على نعمته، فهنا ذَكَر الله سبحانه وتعالى العلَّتين: الشرعية والقدرية، أما القدرية، العلَّة القدرية في خلق الليل والنهار: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، والعلَّة الشرعية: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ تشكرون الله سبحانه وتعالى على ما أنعم الله به عليكم من تعاقب الليل والنهار؛ لأن الأشياء تتبين بضدها، لو كان الليل سرمدًا والنهار سرمدًا ما كان أحد يستريحُ بليل، ولا يبتغي الفضل بالنهار، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك لأجل الراحة، مع أن هناك فوائد أخرى غير مسألة لتسكنوا فيه وتبتغوا من فضله، ذكرها الله في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهار، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ»[1].

الحاصل: أن في تعاقب الليل والنهار فوائد عظيمة تستوجب أن نشكر الله - سبحانه وتعالى - عليها.

واعلم أن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، أما الشكر بالقلب: فهو أن يعترف الإنسان بقلبه بأن هذه النعم من الله تعالى وحده، يعترف اعترافًا كاملًا حتى لو أن هذه النعم جاءت عن سبب، فليعتقد أن السبب من الله هو الذي أوجده فحصلت به هذه النعمة، وأما الشكر باللسان فإنه: الثناء على الله تعالى بما يستحق، سواء على هذه النعمة أو غيرها، كل ذلك داخل في الشكر، وعلى هذا فقول الإنسان: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، يعتبر شكرًا، وقوله حينما يأكل طعامًا أو يشرب شرابًا: الحمد لله؛ يعني: على هذا الطعام والشراب يعتبر أيضًا من الشكر، أما الثالث وهو الجوارح فهو: أن يقوم الإنسان بطاعة الله، سواء تتعلق بهذه النعمة أو لا، فيستعين بهذه النعمة على طاعته، أو يفعل الطاعة التي لا تتعلق بهذه النعمة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣١/ ٢٧٥٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

ثم قال: [واذكر] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ﴾ أفادنا المؤلف بتقدير: [واذكر] أن الظرف في ﴿يوم يناديهم﴾ متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ [أي: الله]، وذلك يوم القيامة، فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أظن مرَّت علينا هذه قريبًا، وهذا تكرار للتحذير من الشرك؛ يعني: معناه: اذكروا أيضًا اليوم النداء مرة ثانية، ﴿يوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ومعنى شركائي؛ يعني: الذين جعلتموهم شركاء لي في الخلق والرزق والتدبير، أو في العبادة؟ الذين أشركوا حين بُعِث الرسول في العبادة، فهم يُقرُّون بأن الله منفرد بالخلق والرزق، لكن من الناس من يُنكِر ذلك أيضًا، ويقول: لا رب، أو يقول: إن هذه الأشياء أوجدتها الطبيعة المحضة، هذا أيضًا نوع من الشرك، والأول تعطيلٌ محض، الذي ينكر الإله مطلقًا هذا معطل محضًا، والثاني مشرك، وقوله: ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ قال المؤلف: [ذُكِر ثانيًا ليُبنَى عليه].

الفوائد:

١- **يُستفاد من الآية:** الرحمة حقيقية ثابتة لله على وجه الكمال، ولا تشبه رحمة المخلوقين؛ فمثلًا: إذا قيل: إن الرحمة تقتضي الضعف والرقة وما أشبه ذلك، قلنا: هذا بالنسبة للمخلوق، فهي رحمة حقيقية لا تشبه رحمة المخلوق.

٢- **ومن فوائدها:** بيان نعمة الله سبحانه وتعالى بتعاقب الليل والنهار ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

٣- **ومنها:** أن الليل للسكن، والنهار لطلب المعاش، فقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ في الليل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النهار، ويتفرَّع على هذه المسألة فائدة وهي ما ذكره الأصحاب - رحمهم الله - في القسم بين الزوجتين، إذا كان للإنسان زوجتان، وأراد أن يقسم بينهما، فإن مدار القسم: الليل لمن معاشه في النهار، والنهار لمن معاشه في الليل، فإذا أشكل عليه الأمر فالعماد الليل؛ لأنه محل السكن.

٤- **ومنها أيضًا:** أن الليل هو محل السكن، فالسكون فيه بالنوم والراحة أفيَد للبدن من ذلك في النهار.

٥- **ومنها أيضًا:** إثبات الأسباب؛ حيث قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لتطلبوا، فالرزق ما يأتي من السماء وينزل؛ بل لابد فيه من طلب، إذا لم تفعل هذا السبب الذي يحصل به الرزق ما أتى الرزق؛ لأن الله تعالى حكيم ربط الأسباب بمسبباتها، وفي الآية ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾: إثبات الأسباب؛ لأن الأمور بأسبابها.

٦- **ومنها:** أن الرزق منَّة من الله عز وجل وفضل وعطاء ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فليس حاصلًا بمجرد كسب الإنسان وكدِّه، فكم من إنسان يكِدُّ ويكدح ومع ذلك يكون رزقه ضيِّقًا، وكم من

إنسان يفعل أسبابًا أقل مما فعله الأول، ثم يُوسَّع له في الرزق.

٧- **ومن فوائد الآية:** أهمية الشكر، لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٨- **ومنها:** أنه ينبغي للمرء أن يكون ذا بصيرة فيما سخر الله حتى يشكر الله عليها، فإن الله سخر لنا الليل والنهار، والشمس والقمر، فلنأخذ من هذا عبرة نتوصَّل بها إلى شكر الله سبحانه وتعالى.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يؤخذ من فوائدها ما سبق في الآية الأولى.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٥-٧٧].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ النزع بمعنى: الإخراج، نزع الشيء من الشيء؛ أي: أخرجه منه ﴿وَنَزَعْنَا﴾ [أخرجنا] ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ المراد بالأمة هنا: الطائفة، ولكنها ليست مجرد الطائفة، الطائفة التي كانت على منهاج واحد، فإذا كانت الطائفة على منهاج واحد فإنها تُسمَّى: أمة، ولهذا جاءت فيها النون الدالة على الجمع والاجتماع، فالدولة ذات الأحزاب لا تكون أمة؛ لأنها مختلفة، ولكن الأمة هي الطائفة التي اجتمعت على منهاج واحد؛ فمثلًا: أمة الإسلام على دين واحد، أمة الكفر على دين واحد، وهكذا.

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ شهيدًا بمعنى: شاهدًا، ولكنه على صيغة المبالغة أو بصيغة الصفة المشبَّهة باسم الفاعل، وما المراد بالشهيد؟ يقول المؤلف: [وهو نبيهم يشهد عليهم بما قالوا] هذا ما ذهب إليه المؤلف، وقال بعض العلماء: المراد بالشهيد: العريف؛ يعني: زعيمهم

كبيرهم ننزعه من بينهم، ثم نسأله هذا السؤال المبني على التحدِّي ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾، وهذا ما ذهب إليه الشيخ عبد الرحمن في «تفسيره» أن المراد بالشهيد هنا: الكبير من الأمة الذي يعتبر بمنزلة العريف؛ وذلك لأن الكبير من الأمة نائبٌ عن الأمة، وأيًّا كان فالأقرب - والله أعلم - ما ذهب إليه شيخنا أن المراد بالشهيد: مَن يكون شهيدًا بينهم، ومعتبرًا بينهم، وهذه منزلة العريف ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ من القائل؟ الله سبحانه وتعالى ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ البرهان: الدليل، قال: هاتوا الدليل على ما قلتم به من الإشراك، وليس عندهم دليل، وقوله: ﴿هَاتُوا۟﴾ فعل أمر المقصود به: التحدي والتوبيخ أيضًا، التحدي؛ لأنه طلب ما لا يمكن، والتوبيخ؛ لأنه سوف يلحقهم من الخِزي والعار أمام الناس في ذالك المجمع ما لا يستطيعون دفعه.

وقوله: ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ متى علموا أن الحق لله عندما لم يأتوا بدليل وبرهان على إشراكهم، فعلموا أنه لا حق لهم في هذا الإشراك؛ لأن الحق لله وحده، وأن هذه الأصنام ليس لها حقٌّ في العبادة، ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ﴾ يعني: في العبادة ﴿لِلَّهِ﴾ وحده، وهذا العلم لا ينفعهم في ذلك الوقت؛ لأنهم في ذلك اليوم يوم المجازاة، ينفعهم لو أنهم عمِلوا به في الدنيا لنفعهم، لو علموا أن الحق لله في الدنيا ثم عملوا لكان ذلك نافعًا لهم، أما بعد أن شاهدوا العذاب فيعلمون أن الحق لله، فإن ذلك لا ينفعهم.

ولكن فيه فائدة عظيمة، وهي: إقامة الحجة عليهم: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك:٨ - ١٠] فالفائدة من ذلك من كونهم يتحدَّون حتى يتبين لهم أن الحق لله هو: أنهم يعرفون أنهم لم يُظلَموا شيئًا ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ [أن الحق في الإلهية لله لا يشاركه فيه أحد] ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ [غاب عنهم] ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [في الدنيا من أن معه شريكًا تعالى عن ذلك] ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟﴾ ضل يقول المؤلف: بمعنى: غاب، ولكن ضلَّ أبلغ من غاب؛ لأن ضلَّ يقتضي كأنه أمر مطلوب يُطلَب ولكنه عجز عنه، كالضالة، الإنسان إذا ضلت بعيره مثلًا أو شاته يتطلَّبها فلم يجدها، ويكون ذلك أشد عليه حسرة، فهنا ضلَّ عنهم كأنه شيء مفقودٌ عزيزٌ عليهم، ولكنهم لم يتمكنوا منه.

وقوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ (ما) اسم موصول فاعل ضلَّ، وأين العائد؟ التقدير: ما كانوا يفترونه، وقول المؤلف: [في الدنيا]؛ لأن كانوا فعل ماضي، فما كانوا يفترون في الدنيا من أن مع الله شريكًا يضل عنهم هذا الشريك يوم القيامة، ولا يستطيعون أن يقوموا ببرهان عليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ قارون اسم رجل غني من بني إسرائيل، وكان من قوم موسى، قال المؤلف: [من أقاربه] فسَّر القوم هنا بالأقارب، فقال: إنه [ابن عمه، وابن خالته] كيف ابن عمه، وابن خالته؟ أخوان تزوَّجا أختين، فأتى كل واحد منهما بولد، يكون

هذان الولدان ابنَيْ عم وابنَيْ خالة، ولكن هذا دعوى ما ندري أتصح أم لا، وإنما قيل بها أنه كان ابن عمه، وقيل: إنه كان من قومه؛ أي: من بني إسرائيل؛ لأن بني إسرائيل هم قوم موسى، ونحن لا يهمنا أن يكون قريبًا من موسى أو بعيدًا منه، المهم: هو قصته التي وقعت، وأن هذا الرجل كان من قوم موسى [وآمن به] ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [بالكبر والعلو وكثرة المال] الباء للسببية ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: اعتدى واستطال عليهم ـ على قوم موسى ـ ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء القوم، وذلك بما أعطاه الله تعالى من المال صار طاغيًا، وهذا هو شأن الإنسان من حيث هو إنسان، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦، ٧] فهذا الإنسان إذا كثُر ماله ورأى أنه في غِنى عن غيره يطغى – والعياذ بالله –.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ [أعطيناه] ﴿مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: من كنوز المال، وهو جمع كنز، والكنز ما يُحتَفظ به ويُغلَق عليه، ويشمل جميع أنواع المال؛ من ذهب، وفضة، وزبرجد، وجواهر، ونقود، وغير ذلك هذه الكنوز.

وقوله: ﴿مَآ إِنَّ﴾ (ما) اسم موصول، وهي: المفعول الثاني لـ (آتيناه) فمفعولها الأول: الضمير الهاء في (آتيناه)، وقوله: ﴿مَآ﴾ أي: الذي ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ إنَّ حرف توكيد، ومفاتح اسمها، وجملة ﴿لَتَنُوٓأُ﴾: خبرها، والجملة لما قبلها وصف مخرجها صلة الموصول ما؛ يعني: الذي إن مفاتحه لتنوء بالعصبة، المفاتيح تنوء؛ أي: تثقُل به، ومفاتح جمع مفتح، وهو اسم للمفتاح قال المؤلف: ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ [تُثقل] ﴿بالعصبة﴾ [الجماعة] ﴿أولي﴾ [أصحاب] ﴿القوة﴾ [أي: تُثقلهم، فالباء للتعدية] الباء في قوله: ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ لتعدية الفعل إلى مفعوله بحرف الجر، وإنما احتاج المؤلف إلى هذا؛ لأن ناء ينوء يتعدَّى بنفسه أو بحرف الجر، وهنا تعدَّى بحرف الجر، [أي: تُثقلهم، فالباء للتعدية، وعدَّتهم قيل: سبعون، وقيل: أربعون، وقيل: عشرة، وقيل: غير ذلك] عدَّة من؟ عدَّة العُصبة، ولا ريب أن العصبة هي الجماعة التي يعصِب بعضها بعضًا، والعصب في اللغة: الشد، ومنه قول القرابة: عصبة؛ لأنهم يشدون أَزْر قريبهم، فهم جماعة ذوو قوة، بعض العلماء يقول: من ثلاثة إلى سبعة، وبعضهم يقول: إلى عشرة، وبعضهم كما قال المؤلف: [سبعون] وأربعون، مسألة خلافية، ولكن الظاهر لنا: أنهم هم الجماعة الذين يشدُّ بعضهم بعضًا، فلابد أن يكونوا ذوي كثرة، ولا حاجة إلى حدِّهم، لكن مع هذا مع كونهم جماعة مجتمعين هم أولوا قوة أقوياء، فاجتمع هنا في حقهم أمران: القوة بالكيفية، والعدد بالكمية، فصار عندهم كمية وكيفية، هؤلاء الجماعة لو اجتمعوا على حمل المفاتيح فقط لكانت المفاتيح تُثقِلهم؛ فمثلًا: هذا ما يحمله عشرة، مفاتيحه ما يحملها العشرة أصحاب القوة، فإذا كان هكذا، فما بالك بالخزائن؟ هذه مفاتيح الخزائن، فما بالك بما في هذه الخزائن؟ يعني: خير كثير جدًّا أعطاه الله سبحانه وتعالى، [واذكر ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ المؤمنون من بني إسرائيل ﴿لا تفرح﴾ بكثرة المال فرح بطر] ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾

الناصحون له، وهم كما قال المؤلف: [المؤمنون]؛ لأنه لا ينصح مثل هذه النصيحة إلا رجل مؤمن، وكلمة ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ الإضافة تفيد بيان أن هؤلاء على جانب كبير من النصح، وأن من كان من قومك فإنه يبعُد أن يغشَّك، فلابد أن يكون ناصحًا لك.

وقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ (لا) ناهية، والفرح ينقسم إلى قسمين: فرح يكون سرورًا لا يحمل على الأشر والبطر؛ بل يكون حاملًا للإنسان على رضاه بنعمة الله سبحانه وتعالى وقيامه بما أوجب الله تعالى فيها، والثاني: فرح بطر وترفُّع وعدوان وبغي، وهذا هو الفرح الذي نهى عنه هؤلاء القوم قارون.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ وهذه الجملة هل المراد: لا يحب ولا يكره، أو أنه إذا نفى المحبة ثبت ضدها، فالمرء إما أن يفرح، أو لا يفرح، أو يكره، قصدي: يحب، أو لا يحب، أو يكره، الإنسان إما أن يحب الشيء، أو يكره الشيء، أو لا يحب ولا يكره، فإذا قال الله تعالى: ﴿اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ هل المعنى: نفي المحبة فقط ويكون هذا الأمر الذي ينفي المحبة فيه ليس محبوبًا ولا مكروهًا عند الله، أو المراد: إثبات ضده؟ الظاهر - والله أعلم - أن المراد: إثبات ضده، وإن كانت القسمة العقلية لا تقتضي ذلك، ولكن السياق يقتضيه؛ لأن كل شيء نفى الله أنه يحبه نجد أنه مما يكرهه الله، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، و﴿لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾، و﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، ﴿لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

فالظاهر من السياق أن المراد: إثبات الكراهة، لكنه أتى بنفي المحبة؛ لأن المحبة محبوبة، فكأن هذا الذي أحبَّ الفساد أو أحبَّ الفرح وما أشبه ذلك يُقابَل بنقيض قصده، وقوله: ﴿الْفَرِحِينَ﴾ بذلك المشار إليه: كثرة المال، والمراد بالفرح الذي نفي الله محبته: فرح البطر والأشر، فإذا قال قائل: ما الجمع بين قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]؟ قلنا: إن المراد بقول الله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ فرح بفضل الله؛ الدين العلم والإيمان، ولهذا قال: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا، فدل هذا على أن الفرح الذي أُمِر به أن يفرح الإنسان بما أنعم الله به عليه من العلم والإيمان، وثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنِ»(١)، أما الفرح الذي لا يُحمَد صاحبه فهو الفرح بالدنيا على وجه البطر والأشر، والفرح بالدنيا على وجه أنه حصل للإنسان ما يسرُّه لا بطرًا، هذا لا بأس به، قال عمرو بن سلمة الكرمي لما كساه قومه ثوبًا قال: فما فرحت بشيءٍ بعد الإسلام فرحي بمثل هذا

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٦٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

الثوب[1]، أو قال: بهذا الثوب، وقالت عائشة: لأن أكون استأذنتُ النبيَّ ﷺ كما استأذنته سودة[2]؛ يعني: في الدفع بالمزدلفة أحب إليَّ من مفروح به، فالفرح الطبيعي الذي لا يحمل على البطر والأشر والكبرياء هذا أمرٌ لا يُذمُّ الإنسان عليه؛ بل إذا فرح به؛ لأنه وسيلة إلى مقصود شرعي كان بذلك محمودًا مأجورًا عليه؛ مثل: أن يفرح بما جاءه من المال؛ لأنه يحب أن يبذله في سبيل الله، أو في طلب العلم، أو في بناء المساجد، أو في التصدُّق على الفقراء يكون هذا الفرح محمودًا.

وقوله: ﴿وابتغ﴾ [اطلب] ﴿فيما آتاك الله﴾ [من المال] ﴿الدار الآخرة﴾ [بأن تنفقه في طاعة الله] ابتغ؛ أي: اطلب ﴿فيما﴾ في الذي ﴿آتاك الله﴾ يعني: أعطاك من المال من هذه الكنوز العظيمة التي مفاتحها تنوء بها العصبة اطلب فيها الدار الآخرة، والمراد بالدار الآخرة: الجنة هنا ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] كيف يطلب به الدار الآخرة؟ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ : [بأن تنفقه في طاعة الله] وحينئذٍ يكون ذلك ذخرًا لك عند الله في الدار الآخرة، وإذا عوَّد الإنسان نفسه على ذلك وروَّضها على هذا الأمر صار هذا الأمر سجيَّةً له، يفرحُ به ويُسرُّ وتنعمُ به نفسُه، ولذلك الكريم أحبُّ شيء إليه هو العطاء، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «زاد المعاد» أن الإنفاق لله سبحانه وتعالى، والإنفاق لله في الله؛ يعني: في حدود الشرع يقول: إنه من أكبر أسباب انشراح الصدر، وهذا أمر معروف، تجد أكثر الناس انشراحًا في الصدور: الكرماء، وأنه إذا أعطى إنسانًا عطية يجد لذلك سرورًا وانشراحًا، لو أنه استعمل هذا وابتغى به في الدار الآخرة، فإن ذلك لا يعود عليه عند الله، ثم مع ذلك يقول الناصحون له: ﴿وَلَا تَنسَ﴾ [تترك]؛ لأن النسيان يطلق على أمرين: أحدهما: الذهول عن الشيء المعلوم، والثاني: الترك، فهنا ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي: ولا تترك، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] معنى نسوه: تركوه، فلم يقوموا بحقه، فنسيَهم؛ أي: تركهم سبحانه وتعالى فلم يجبهم، ومنه: قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ [الحشر:١٩] أي: تركوه ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم ينسونها ويغفلون عنها ويتركونها إذا لم يعطوا الله حقه، وأما قوله تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦] المراد بالنسيان: الذُّهُول عن شيءٍ معلوم، فالله تعالى أحصاه، لكن هؤلاء نسوه، فهنا إذن من هذين الشاهدين من القرآن الكريم يتبيَّن لنا أن النسيان يُطلَق على معنيين: أحدهما: الترك، والثاني: الذهول عن شيء معلوم، أيهما الذي يصح أن يوصف الله به؟ الترك، أما الذهول فقد نفاه الله عن نفسه، فقال تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] هذا النسيان: نسيان ذهول، وليس تركًا؛ لأن الله يترك من يشاء من عباده ممن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٠٢) من حديث عمرو بن سلمة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٣/ ١٢٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

يستحقون الترك، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥] من أي النوعين؛ الذهول أو الترك؟ يعني: هل آدم ﷺ حين أكل من الشجرة كان ناسيًا؟ هذه المسألة فيها قولان لأهل العلم: منهم من قال: إن قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: ترك عن عمد، فيكون مستحقًا للعقاب، وعلى هذا الرأي فلا إشكال في المسألة، كونه يُعاقَب على أمر تركه من غير ذهول، تركه وهو عالمٌ به، فلهذا يكون ملومًا، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، ومنهم من قال: إن المراد بالنسيان: الذهول، وهؤلاء قصدوا بذلك: تجنُّب وصف آدم بتعمُّد المعصية؛ لأنه إذا ترك عن نسيان لا يُلام، وهؤلاء يحتاجون إلى جواب عن سقوط الإثم في النسيان، ويقولون: إن هذا من خصائص هذه الأمة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ»(١)، فقوله: «عَنْ أُمَّتِي» يدل على أن الأمم السابقة مؤاخذة به، وكون الأمم السابقة مؤاخذة أو غير مؤاخذة الحقيقة هذا لا يرجِّح أحد القولين، لكن الذي يرجح أنه نسيان ترك لا نسيان ذهول، قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ وهذان الوصفان مع صفة الغيِّ يدلان أنه فعل ذلك عن عمد، لكنه اغترَّ بغرور إبليس ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ لما قاسمهما ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] فاغترَّ آدم وفعل ما فعل.

المهم: أن النسيان هنا قوله: ﴿وَلَا تَنسَ﴾ من أي النوعين؟ ولا تترك ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وإنما قالوا: ولا تنس، كأنهم يقولون: اجعل انهماكك فيما تريد في الآخرة حتى كأن ما تريده للدنيا يغيب عنك، ولكن لا تنساه.

وقوله: ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [أي: أن تعمل فيها للآخرة]، يُشير المؤلف إلى أن المراد بنصيبه من الدنيا: أنه عائدٌ على قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يعني: لا تنس نصيبك من الدنيا بإمهالك، فما دمت قد أُعطيت مُهْلة فلا تنس هذه المُهْلة أن تُنفِق المال في طاعة الله، فيكون المراد بالنصيب من الدنيا هنا المراد: العيش في الدنيا؛ يعني: لا تنس أن تغتنم الفرصة في هذه الدنيا فتُنفِق، فتكون الدنيا هنا عائدةً على الجملة الأولى في المعنى؛ يعني: اطلب الدار الآخرة فيما تنفق حتى لا يضيع عليك الوقت، ويضيع نصيبك من الدنيا، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [أي: أن تعمل فيها للآخرة] كأنه يقول: اغتنم هذه المدة التي هي نصيبك من الدنيا اغتنمها للآخرة، فتكون الجملة الثانية عائدة على الجملة الأولى، ويحتمل - وهو الأقرب - ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾: أننا لا نأمرك بأن تُنفِق جميع مالك في الآخرة؛ بل اطلب الآخرة فيه، وخذ نصيبًا من الدنيا لك، فنحن لا نريد أن تنخلع من مالك، ولكننا نريد أن تبتغي به: الدار الآخرة، ومع ذلك فخُذْ نصيبك من الدنيا؛ من حيث: المأكل، ونظافة المنزل، والثياب،

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

والزوجات، وما أشبه ذلك، وهذا المعنى أقرب وأصح؛ لأننا على المعنى الذي ذهب إليه المؤلف تكون الآية في شيء من التكرار، ثم هل هي تكون سببًا لجلْبِه وقبوله النصيحة، أو نقول: إنه إذا قيل له: اطلب الآخرة ولا تنس حقك من الدنيا، أن هذا أقرب لقبول النصيحة؟ الأخير أقرب؛ لأنه لو قيل: هذا المال العظيم الذي مفاتحه تنوءُ بالعُصبة كله ابتغ به الدار الآخرة ربما يرفض، لكن إذا قيل: ابتغ به الآخرة وتمتَّع في الدنيا بنصيبك، هذا يكون أدعى للقبول، وهو أيضًا من الأساليب الحسنة في الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى -، والنبي - عليه الصلاة والسلام - قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[1]، لا تقل: إني أقوم الليل، وأصوم النهار ما عشت، هذا خطأ، إن لربك عليك حقًّا في عبادته، ولكن لنفسك عليك حقًّا بإعطائها الراحة، فالصواب: هو هذا.

وقال: ﴿وَأَحْسِن﴾ [للناس بالصدقة ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾] هنا المؤلف خصَّ الإحسان قال: [أحسن للناس بالصدقة]، ولكن الصحيح أن المراد: ما هو أعم؛ أي: أحسِن في عبادة الله، وفي معاملة عباد الله ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ الكاف هنا للتعليل، ولا تكون للتشبيه؛ لأن ما يمكن الإنسان أن يُحسِن كما أحسن الله إليه، إحسان الله إليه أكمل وأعظم، فالتشبيه ممتنع، فتكون الكاف هنا للتعليل، وقد جاءت الكاف للتعليل في عدة مواضع من القرآن؛ مثل: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] أي: واذكروه لهدايتكم، ومثل: قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»[2]؛ فإن الكاف هنا للتعليل وليست للتشبيه، وهذا المعنى الذي ذكرناه نسلم به من الإيراد الذي أورده بعض الناس على هذا الحديث، وهو: أنه من العادة أن المُشبَّه أقل شأنًا ورتبة من المُشبَّه به، ومحمد ﷺ لا شك أنه ليس أقل من إبراهيم، فكيف يقول: اللهم صلِّ على محمد كما صليت على إبراهيم؟ من العلماء من أجاز قال: إن المراد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم أن التشبيه بالصلاة على واحد بالصلاة على جماعة، إبراهيم وآله، وهذا يصح أنه يُعطَى محمد ﷺ مثل ما أعطي هؤلاء كلهم، ولكن لا حاجة لهذا التأويل؛ بل نقول: إن المعنى: أنك يا رب كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ لأن هذا من شأنك ومن عادتك التكرُّم، فامنُن أيضًا على محمد ﷺ، فيكون هذه الجملة: كما صليت للتعليل، وهي في الحقيقة للتوسُّل؛ يعني: أننا نتوسَّل إليك بما فعلت من قبل بإبراهيم وآله، أن تفعل ذلك في محمد ﷺ وآل محمد.

وقوله: ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بماذا أحسن الله إليه؟ بالمال العظيم الذي مفاتحه تنوء به العصبة، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الفساد في أي شيء؟ أول من بُدِئ بالبغي؛ حيث قال تعالى:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٩٦٨) من حديث أبي جحيفة ﷺ.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٥٧) ومسلم (٦٦/ ٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة ﷺ.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فلا تبغ الفساد في الأرض بالبغي، كذلك أيضًا إن كان هذا الرجل يعملُ بماله في معصية الله، فيكون هذا من الفساد في الأرض، وهذا هو الغالب أن من آتاه الله مالًا، وليس عنده إيمان، فإنه يجعل من ماله وسيلة إلى الفساد في الأرض، وقوله: ﴿ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كيف يكون الفساد في الأرض؟ بالمعاصي؛ لأن المعاصي في الحقيقة هي سبب الفساد في الأرض ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم:٤١] ولهذا ما من شيءٍ يكون في الأرض من فِتَنٍ وحروب وقتال وجدب وغيره إلا بسبب المعاصي ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر:٤٥]، الآن هذا الهَرْج الذي كثر في هذا العصر ولاسيما في هذا العام، ما هي أسبابه؟ ما تكاد تفتح الإذاعة إلا وتسمع من أول مصر إلى آخرها حروب في كل مكان واغتيالات وتفجيرات وفساد، كل ذلك بسبب المعاصي التي تُفعَل، فهي عقوبةٌ للعصاة الذين أُصيبوا بهذه، وإنذار للآخرين، فإنك تختار البلاد الآمنة المطمئنة التي يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ويجلب الناس إليها من كل مكان تجد أنها دُمِّرَت الآن مساكنها وبيوتها وأمنها ورخاؤها بسبب المعاصي، فهو إنذارٌ للآخرين.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

١- **يُستفاد من هذه الآية:** إثبات البعث والحساب، لقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

٢- **ومن فوائد الآية:** أن الرسل يُسأَلون يوم القيامة، لكنهم يُسألون تبكيتًا وتوبيخًا لأقوامهم الذين كذَّبوهم، هذا على تفسير المؤلف، أما على التفسير الثاني ففيه دليل على أن الزعماء هم الذين يُقامُون يوم القيامة للمناقشة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾.

٣- **ومن فوائد الآية:** تبكيت هؤلاء المشركين في ذلك اليوم العظيم؛ حيث يُتحدَّون بطلب الدليل على ما قالوا من الإشراك.

٤- **ومن فوائدها:** إذعان هؤلاء المشركين يوم القيامة بأن الحق لله، ولكن ذلك لا ينفعهم.

٥- **ومنها:** أن هذه الأصنام لا تنفع عابديها في أحوج ما يكونون إليها، لقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

٦- **ومنها:** أن اتخاذ هذه الأصنام آلهة من الافتراء والكذب، ويشهد لذلك: قول إبراهيم لقومه: ﴿أإفكًا آلهةً دون الله تريدون﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ

بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾.

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أن الغِنى سبب للطغيان؛ لماذا؟ لأن قارون إنما بغى وطغى بسبب ما آتاه الله تعالى من المال.

٢ - **ومن فوائدها:** أن القومية لا تنفع أصحابها، إنما النافع هو الإيمان بالله - عز وجل -، فهذا الرجل من قوم موسى ومع ذلك طغى عليهم.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الله يبتلي بالمال أي: بإعطاء المال، قد يبتلي الله العبد به، فكما أن الفقر ابتلاء، فكذلك الغِنى ابتلاء.

٤- **ومنها:** كثرة أموال هذا الرجل، لقوله: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾.

٥ - **ومنها:** أن هذا الرجل بغى عن علم؛ لأنه نُصِح ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ﴾ فنصحوه، ولكنه - والعياذ بالله - استمر في طغيانه.

٦- **ومنها:** أن من حسن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى أنه إذا ذُكِر الحكم تُذكَر العلة تخويفًا أو ترغيبًا، إن كان منصوحًا بطلب تُذكَر العلة ترغيبًا، وإن كان منصوحًا بنهي فإنها تُذكَر العلة تخويفًا، لقوله: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية:** إثباتُ المحبة لله؛ يعني: ما نفاها عن هؤلاء إلا وهي ثابتةٌ بضدِّه، ولهذا استدل العلماء بأن المؤمنين يَرَون ربهم بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] قالوا: فلما حُجِبوا عن ربهم دلَّ على أن غيرهم غير محجوبين، لو كان الكل محجوبين ما كان يُخصَّص هؤلاء بالحجب، إذن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ فيها إثبات المحبة؛ لأنه ما نفاها عن هؤلاء إلا وهي ثابتةٌ لغيرهم، ولولا ثُبُوتها لغيرهم ما كان لنفيها عن هؤلاء فائدة.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

١- **يُستفاد من هذه أن فيها:** دليلًا على أن قارون كان يُنفِق المال بغير روِيَّة، في المعاصي والفساد وغير ذلك، وقوله: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ لو كان ينفقها في الدار الآخرة ما قالوا له هذا.

٢ - **ومن فوائد الآية أيضًا:** أنه ينبغي لمن آتاه الله مالًا أن يُحسِن النية والقصد في بذله؛ يعني: كل إنسان عنده مال يبذله، لكن ينبغي أن يُحسِن النية والقصد ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ حين قال لسعد بن أبي وقاص: **«وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا»**[1]، قيَّدها بقوله: **«تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ»**، أما لو أنفق الإنسان في

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦) ومسلم (٥/ ١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

غير هذا الغرض فإنه لا يُثاب، وإن أنفق لغرض سيئ فإنه يُعاقَب.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن المال وإن اكتسبه العبد بفعله فهو من فضل الله، لقوله: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ فهو وإن كان الإنسان يكتسب ويتَّجِر ويُحصِّل لكنه من الله عز وجل هو الذي يُقدِّره.

٤ - **ومن فوائد الآية:** إثبات اليوم الآخر، لقوله: ﴿ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

٥ - **ومنها:** جواز تمتع الإنسان بما آتاه الله تعالى في الدنيا أن يتمتع به في الدنيا، لكن بشرط ألَّا يكون على سبيل المعصية، لقولهم في جملة النصيحة: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ يعني: هذا على الرأي الذي اخترناه، أما على رأي المؤلف، فإن هذا عائد على قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ويريد أن يكون نصيبه من الدنيا: الفسحة والمهلة التي يعطيها لا يضيعها.

٦ - **ومن فوائد الآية:** حسن دعوة هؤلاء؛ حيث ذكَّروه بنعمة الله عليه ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فكأنهم يقولون: أحسِن؛ لأن الله أحسن إليك، فأنت حينما تحسن تكون شاكرًا لنعمة الله.

٧ - **ومنها:** أنه ينبغي للداعي أن يُذكِّر المدعو بنعمة الله سبحانه وتعالى؛ لأن الإنسان إذا ذُكِّر بالنعمة قد يخجل من الله فلا يعصيه، أما إذا ذُكِر له الأمر والنهي مجردًا عن الأسباب والوسائل التي تحمله على الفعل أو الترك، فإن هذه الدعوة تكون قاصرة، فالذي ينبغي للداعي أن يُذكِّر المرء المدعو بما يقتضي إقباله وقبوله، لقولهم: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

٨ - **ومن فوائد الآية:** تحريم نية الفساد في الأرض، لقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وإذا حرُمت نية الفساد، فالفساد نفسه من باب أولى، فيحرُم على المرء أن يفسد وأن ينوي الفساد.

٩- **ومنها:** التحذير من الفساد، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

١٠- **ومنها أيضًا:** إثبات محبة الله؛ لأن نفيها عن المفسدين دليل على ثبوتها للمصلحين.



قال الله تعالى:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ

خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص:٧٨-٨٠].

التفسير

قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ [أي: المال] ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [أي: في مقابلته].

انظر جواب قارون لهؤلاء الناصحين ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ [أي: المال] ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ هم قالوا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فردَّ هذا الاعتراف لم يعترف؛ بل قال: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فقيل كما قال المؤلف: [أي: في مقابلته]؛ يعني: أنه ليس فضلًا من الله؛ ولكن لأني كنت عالمًا في التوراة وفاهمًا أُوتيت هذا الشيء، فجعل فضل الله عليه من باب المكافأة، وليس من باب الفضل، إذن هو ردَّ نصيحتهم ولم يعترف بأن الفضل لله – والعياذ بالله –، هذا قول، ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ هذا القول يرجع إلى معنى: إنما آتاني الله ذلك؛ لأني أهل له، فصار هذا المعنى ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: على علم من الله أني له أهل، القول الثاني: المعنى ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: أني أوتيته؛ لأني عالم بأسباب الرزق، فاكتسبته بما معي من العلم، وليس هذا من فضل الله؛ بل أنا رجل حاذق أعرف كيف أتصرَّف، وأعرف الأسباب التي يُؤتَى بها المال، فحصل لي ذلك بما عندي، كأنه يقول: إنما أوتيته بحولي وقوتي، وليس بفضل الله ومنَّته، فصار على المعنى الأول نسب هذا الإتيان على أنه مكافأة من الله له، وعلى القول الثاني: نسب هذا الفضل إلى حوله وقوته، وليس إلى فضل الله تعالى، يقول: أنا عالم أعرف كيف يكتسب المال فاكتسبته.

يقول المؤلف: [أي: في مقابلته، وكان أعلم بني إسرائيل بالتوراة بعد موسى وهارون] ما ذكره المؤلف أو ما زعمه من أنه أعلم بني إسرائيل بالتوراة بعد موسى وهارون غير مُسلَّم به؛ بل إن الظاهر: أنه قال: على علم من الله أني له أهل وأني أهل لهذا الشيء، أو على علم عندي؛ أي: على معرفة مني بالأمور، وأما أعلم بني إسرائيل بالتوراة فليس هناك ما يدل عليه.

ثم قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [الأمم] ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [للمال؛ أي: هو عالمٌ بذلك].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ هذه الهمزة للاستفهام، المراد به: التقرير؛ يعني: أنه قد علم كيف ندري أنه قد علم؟ لأن المُخبِر قد علم من هو؟ الله، وهو عالم بأن قارون عالمٌ بذلك، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ فالتقرير هنا من الله، هو الذي أخبرنا بأن قارون قد علم بهذا الأمر، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾ الإهلاك بمعنى: الإتلاف، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ جمع قرن، والقرن تارةً يُراد به: الأمة، وتارةً يُراد به: الزمن، فيقال مثلًا: تتابعت الأمم قرنًا بعد قرن؛ يعني: زمنًا بعد زمن، وهنا

قد أهلك من قبله من القرون [أي: الأمم]، ﴿مَنْ هُوَ﴾ مفعول أهلك؛ أي: الذي هو أشدُّ منه؛ أي: من قارون ﴿قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال، أشد منه قوة في ماله أو في بدنه؟ في بدنه، وأما المال فقال: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: أكثر مجموعًا للمال، أو أكثر جمعًا أي: تحصيلًا، وهذا هو ظاهر كلام المُفسِّر، أكثر جمعًا أي: تحصيلًا، ولكن إذا قلنا: أكثر جمعًا أي: مجموعًا كان أَولى؛ لأن المجموع نتيجة للقوة التي يُحصِل بها المرء المال، قال المؤلف: [أي: هو عالم بذلك]، فأفادنا بأن الاستفهام هنا للتقرير؛ يعني: أن قارون قد علم، ولكنه تجاهل الأمر - والعياذ بالله -.

قال المؤلف: [فيهلكهم الله ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾] يهلكهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا يسألهم عن ذنوبهم، لا يسألهم سؤال استخبار، وإنما يسألهم يوم القيامة سؤال تبكيت، فإن الله تعالى يسأل الناس يوم القيامة عن ذنوبهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢ - ٩٣] إذن نقول: النفي بحال والإثبات بحال؛ يعني: لو قال قائل: كيف تجمعون بين هذه الآية ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وأمثالها؛ مثل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن:٣٩]، وبين الآيات التي تثبت السؤال؛ مثل: ما أشرنا إليه من الآيتين: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؟

فالجواب على ذلك: أن يُقال: إن السؤال المنفي هو سؤال الاستخبار، الذي يُسأَل هل أذنبت وما ذنبك؟ والسؤال المثبت سؤال التوبيخ والتبكيت والتقريع؛ يعني: هم يُسألون ليُقِرُّوا، فهذا ثابتٌ كما ذكر الله هنا.

فتبيَّن الآن بذلك: أن السؤال المنفيَّ غير السؤال المُثبَت، وهذا هو الصحيح، وبعضهم يقول: إن السؤال المثبت يكون في وقت، والسؤال المنفي في وقت آخر؛ لأن يوم القيامة مقداره خمسين ألف سنة، فالمدة طويلة، فيمكن أن يُسألوا في موضع، ولا يُسألون في موضع آخر.

قوله: ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ من المجرم؟ هو فاعل الإجرام، والإجرام: المعاصي، فالمعنى: أن العصاة لا يُسأَلون، وأكثر ما يُطلَق الإجرام على الكفر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطفِّفين:٢٩] لماذا لا يسألون؟ يقول المؤلف: [لعلمه تعالى بها] يعني: بالذنوب، [فيدخلون النار بلا حساب] هذا هو ما مشى عليه المؤلف؛ أنهم لا يُسألون وإنما يدخلون النار بدون حساب، ولكن الصحيح: أنه لابد من حساب ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥ - ٢٦] فهم يُحاسَبون، لكنهم لا يُحاسَبون محاسبة منفوذًا حسناتهم وسيئاتهم؛ لأن ما لهم من حسنات، ولكنهم يُحاسَبون محاسبة توبيخ وتقريع - والعياذ بالله -.

وقال: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾، قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ المراد بقومه بنو إسرائيل، وخرج من بيته، ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ حال من فاعل خرج؛ يعني: حال كونه متلبسًا بزينته، قال المؤلف مُفسِّرًا للزينة: [بأتباعه الكثيرين] ففسَّر الزينة بالأتباع؛ لأن الأتباع من الخدم ونحوهم زينةُ الحياة الدنيا، قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويحتمل خلاف ما قال المؤلف، أن المراد بزينته: بماله العظيم الذي يتزيَّن به؛ من الخدم، والمركوبات، [بأتباعه الكثيرين مُتحلِّين بملابس الذهب والحرير على خيول وبغال متحلية] قد يكون كما قال المؤلف، وقد يكون أقل، وقد يكون أعلى مما قال، فالأَولى أن تبقى الآية على ظاهرها: ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: فيما يستطيع من الزينة، سواء باللباس، أو بالمركوب، أو بالأتباع، أو المال، أو بغير ذلك، المهم: في زينته التي يفخر بها على قومه.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يريدونها أي: يطلبونها أو يبتغونها، ولها ميزان في أنفسهم، قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ (يا) يقول المؤلف: [للتنبيه] وليست للنداء؛ لأن (ما) دخلت على المنادى؛ إذ ليت حرف تمنٍّي، والمنادى لابد أن يكون اسمًا يصح نداؤه، وعليه فتكون للتنبيه، وقيل: إنها للنداء، وأن المنادى محذوف، تقديره: يا قومنا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، ومثل هذا التركيب يا ليت متكرر في القران الكريم، والنحويون اختلفوا فيها على هذين الوجهين؛ منهم من يقول: إنها لمجرد التنبيه وليس هناك نداء ولا منادى، ومنهم من يقول: إنها للنداء؛ لأن المنادى محذوف والتقدير هنا: يا قومنا ليت لنا مثل ما أوتي، المعروف أن ليت تنصب الاسم وترفع الخبر، أين اسمها؟ ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ﴾ اللام هنا جر ومجرور خبر مقدم؛ لأن التقدير: ليت مثل ما أوتي قارون لنا، فلنا خبر مقدم، ومثل اسم مؤخر، وليت هنا للتمني.

وقوله: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ أوتي بمعنى: أُعطِي؛ أي: أعطيه من المال، ولهذا قال: [في الدنيا] من المال، والكنوز، والزينة، وقوله: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ ما قالوا: يا ليت لنا ما أوتي قارون؛ بل قالوا: مثله؛ لأنهم لو قالوا: ليت لنا ما أُوتي قارون كان ذلك حسدًا؛ لأنهم يتمنون بذلك زوال النعمة عنه، لكنهم قالوا مثله، وهذا ما يرجونه، إذا أُعطوا مثله يكون له مثله ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ﴾ [نصيب] ﴿عَظِيمٍ﴾ [وافٍ فيها] أي: في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: قارون ﴿لَذُو﴾ أي: صاحب حظ أو نصيب ﴿عَظِيمٍ﴾ يحتمل بمعنى: الوافر الكثير، وهذا إنما يقوله من نظره قاصر ولا يريد إلا الدنيا، والحقيقة أن الدنيا ليست فيها الحظ، وإنما الحظ نصيب الإنسان من الآخرة، أما نصيبه من الدنيا فهو ليس بشيء؛ لأنه نصيبٌ يزول أو يزول من أعطيه ولا يبقى، ولأنه نصيب في الغالب يحمل على الخسارة والخذلان، ويحمل على الأشر والبطر فيخسر الإنسان دينه ودنياه، وليس بالحقيقة حظًّا، لكن يقول ذلك من نظره قاصر، وإلى وقتنا هذا فالناس إذا رأوا شخصًا قادرًا قد أنعم الله عليه بالمال يقولون: ما شاء الله ! صاحب حظ، ولكن هذا من قصور

النظر؛ لأن الحظ حظ الآخرة.

والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ هذا هو الحظ العظيم الذي يلقى الأخلاق الطيبة الفاضلة ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: النصيب الوافي ولم يقيد ذلك أيضًا في الدنيا؛ يعني: كأنهم تناسوا الآخرة ورأوا أن الحظ هو حظ الدنيا ولكن قابلهم أهل العلم والإيمان فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بما وعد الله في الآخرة، كلمة الذين أتوا العلم تدل على أن الأولين جهال ما عندهم علم، وما معرفة الأمور بحقيقتها ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ﴾ [كلمة زجر] يُقصَد بها: زجر الإنسان عما يريد من الأمور التي ينبغي الإعراض عنها، وهو في الأصل كلمة عذاب ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] ولكنها يراد بها الزجر؛ يعني: ويلكم إن تمنَّيتم ذلك؛ أي: مثل ما أوتي قارون، والإعراب: ويل مفعول بفعل محذوف تقديره: ألزمكم الله ويلكم؛ أي: جعل الويل لازمًا لكم إن أنتم تمنيتم مثل ما أوتي قارون أو مثله؛ لأن هناك ما هو أفضل منه.

قال: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ [في الآخرة بالجنة] ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ ثواب الله خير أي: الثواب هو الجزاء، كأن العمل رجع إلى صاحبه بالجزاء عليه، فثواب الله في الآخرة خير لكن لمن آمن وعمل صالحًا، فالمؤمن العامل عملًا صالحًا ثواب الله له في الآخرة خير من الدنيا وما فيها، وقد قال الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «لَموضِعُ سَوطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١) ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾، ولكن ما هو الإيمان؟ التصديق مع القبول والإذعان، قوله: ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ ما هو العمل الصالح؟ هو الذي جمع بين أمرين: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسوله ﷺ خير من ما أوتي قارون في الدنيا ﴿وَلَا يُلَقَّـٰهَآ﴾ [أي: الجنة المثاب بها] ﴿إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ [على الطاعة، وعن المعصية] ﴿وَلَا يُلَقَّـٰهَآ﴾ أي: ما يوفَّق لها إلا الصابرون، قال المؤلف: [على الطاعة وعن المعصية]، ولكنه لم يأت بالأمر الثالث، وهو: الأقدار، لو قال: وعلى الأقدار لتمَّ له الأمر، فالتفسير ناقص، فهم الصابرون على طاعة الله لا يملون ولا يضجرون، وعن معصية الله لا يمارسونها، وعلى أقدار الله المؤلمة لا يتسخطون منها.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** بيان بغي قارون؛ حيث لم يعترف بفضل الله عليه.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن من اعتقد أن ما رزقه الله من كسبه فهو مُشابه لقارون في عدم اعترافه بنعمة الله؛ فمثلًا يقول: هذا بيدي وبمعرفتي بالأمور، والمكاسب، نقول له: أنت مشابه

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

لقارون.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** تقريع أولئك الذين يفتخرون بسعيهم بأن الله قد أهلك من كان قبلهم من القرون ممن هم أشد منهم قوة وأكثر جمعًا.

٤ ـ **ومن فوائد الآية:** أن المجرمين لا يُسألون فيُرحمون، وإنما يهلكون بدون سؤال، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

١ ـ **يستفاد من هذه الآية:** أن قارون كان يظهر الأبهة والعظمة؛ حيث يخرج في زينته؛ من المال والرجال.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن ذوي النظر القاصر يتمنون متاع الحياة الدنيا ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾.

٣ ـ **ومنها:** أن أهل العلم الذين يعلمون حقائق الأمور يدرون أن هذه الدنيا ليست بشيء، وأن ثواب الآخرة أعظم وأجل.

٤- **ومنها:** أنه لا ينال ثواب الآخرة إلا من آمن وعمل صالحًا، لقوله: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

٥ ـ **ومنها:** أنه لا يستحق لذلك الثواب في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص:٨١ـ ٨٤].

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ خسفنا به بمن؟ [بقارون] ﴿وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ فهوى في الأرض هو وداره، ولم تُغنِ عنه الأموال ولا الرجال ولا غيرهم، وإنما كانت عقوبته بالخسف؛ لأنه كان باغيًا عاليًا متكبرًا فأُخِذ بما يناسب حاله، فالعالي أي شيء يكون مناسبًا له؟ أن يُنزَّل بعد أن كان عاليًا، فلهذا كانت العقوبة مناسبة للعمل، قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠] وممن خسف به الله الأرض قارون ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [أو غيره بأن يمنعوا عنه الهلاك] ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ من فئة (من) حرف جر زائد إعرابًا، وفئة اسم كان مرفوع به، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها: اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ الإتيان بـ(من) هنا له فائدة من حيث المعنى، وهو: التنصيص على العموم؛ يعني: ما كان له أي فئة تقوم بنصره، والفئة: الطائفة التي يرجع إليها المرء هذه الفئة مأخوذة من فاء يفيء إذا رجع، وأما الفئة التي يرجع إليها المرء بنصرها له هي محل فيئِه أو محل رجوعه، المعنى: أنه ما كان له أحد حتى التي جرت العادة بأنه ينتصر له، ما كان له أحد ينصره.

وقوله: ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ النصر معناه: المنع مما يضر.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال المؤلف: [أو غيره بأن يمنعوا عنه الهلاك] فدون هنا بمعنى: غير، فلما نزل به بأس الله هل نفعته زينته؟ لا، هل منعه جنوده؟ لا، فما نفعته زينته ولا منعه جنوده؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - له القوة الكاملة والقدرة العظيمة.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [منه] يعني: هو ما كان أحد ينصره، ولا هو أيضًا انتصر بنفسه، فصار ضعيفًا بنفسه وبغيره ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من الله - عز وجل - ومن عذابه؛ بل أصبح عاجزًا وهو في بيته مخسوف به، أما العاقبة بالنسبة للذين تمنوا زينته بالأمس قال: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ هل هي بمعنى: صار أو معنى أصبح أي: دخل في الصباح؟ أصبح يعني: صار الذين تمنوا بالأمس يقولون إلى آخره، ويحتمل أن أصبح أي: دخل في الصباح، كما هو في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨].

وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا﴾ ما تقف على حد المعنى ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ هم يتمنون هذا أما اليوم فإنهم يقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ صار الآن يتعجبون ويعلمون أن الله - سبحانه وتعالى - يوسع الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء يعني هذا على حسب مسألة حكمته وليس؛ لأن قارون له حظ عظيم بل؛ لأن الله هو الذي

يعطي ويمنع وسيأتي في الفائدة إعراب كلمة ويكأن قوله: ﴿ٱللَّهَ﴾ ما محلها من الإعراب؟ اسم إن على أحد الوجوه من الإعراب، أو اسم كأن على الوجه الثاني من الإعراب؛ يعني: فيها وجهان، وقوله: ﴿يَبْسُطُ﴾ يقول: [يوسِّع] ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ أي: العطاء ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ للذي يشاء، فمن اسم موصول، هذه المشيئة مشيئةٌ مقرونة بالحكمة، فالله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ممن اقتضته حكمته أن يبسط لهم الرزق، وقد جاء في الحديث القدسي: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَو أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الفَقْرُ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَو أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الغِنَى»(١)، فالله تعالى حكيم يبسط الرزق لفلان؛ لأن الحكمة تقتضي ذلك ويضيقه على فلان؛ لأن الحكمة تقتضي ذلك ولو كانت المسألة اعتباطية بدون أي روية قد يكون لله ـ سبحانه وتعالى ـ الحكمة في ما أعطى وفي ما منع.

وقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ عباد جمع عبد، والمراد بالعبودية هنا: العبودية العامة التي هي: التذلل للأمر الكوني، وليس العبودية الخاصة التي هي: التذلل للأمر الشرعي، وقد مر علينا أن العبودية تنقسم إلى قسمين: عامة، وهي الخضوع للأمر الكوني هذه هي العامة وهي شاملة لجميع الخلق، قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] والنوع الثاني: العبودية الخاصة وهي الخضوع للأمر الشرعي؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] وهذه خاصة بمن؟ بالمؤمنين، يفيد الآن المعنى ﴿يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ العامة؛ لأن بسط الرزق وتزويد الرزق يكون للمؤمن وغير المؤمن، قال تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ وفي قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ دليل على أن جميع الخلق في قبضته ـ سبحانه وتعالى ـ، وأنهم لا يعجزونه، وعليه فإنما إذا كنا بالله ومع الله لا نهيب أي قوة في العالم؛ لأننا نعلم أن كل من في الكون فهو خاضع لله ـ سبحانه وتعالى ـ، وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [يضيق على من يشاء] يقدر يعني: يضيق يجعله على قدر معين، قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ قدر بمعنى: ضيق عليه حتى صار على قدر كفايته، أو على أقل أيضًا، فالله تعالى له الحكم في بسط الرزق وتضييقه، هل تعلمون أن أحدًا أفسده الغنى؟ نعم، مثل قارون، وربما يفسد الإنسان الفقر، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١] فمن الناس من إذا افتقر بعد الغنى - والعياذ بالله - أبى أن يتحمل ما نزل به، فكفر بالله، ومنهم من ينتحر، قال المؤلف: [وي اسم فعل بمعنى: أعجب] أي: أنا أعجب فهو اسم فعل مضارع، ويقول: [أي: أنا] إذن ففاعله ضمير مستتر وجوبًا، تقديره: أنا، قال المؤلف: [والكاف بمعنى: اللام] أي: لأنه، واللام هنا بمعنى: التعليل أي: أغضب لهذا الأمر؛ أي: أعجب أنه لا يفلح؛ أي:

---

(١) ضعيف جدًّا: أخرجه الكلاباذي في «بحر الفوائد» ص (٣٧٨) وقال الألباني في «الضعيفة» (١٧٧٥): ضعيف جدًّا.

أعجب لعدم فلاح الكافرين فصارت الآن ﴿ويكأنه﴾ مركبة من أربع كلمات هم: وي، وهي اسم فعل، والكاف هي بمعنى: اللام وهي للتعليل، أنَّ حرف توكيد، والهاء اسمها، وعلى هذا التقدير يكون الوقوف على وي فتقول مثلًا: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾، ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وتقف على وي، وقال بعضهم: إن وي اسم فعل يعني: مبالغ، والكاف حرف خطاب وليست حرف جر، وإنما هو حرف خطاب ولا محل له من الإعراب؛ لأن الفعل هذا فاعله مستتر تقديره: أنا، وعلى هذا يكون أنَّه حرف توكيد، والجملة التعليلية على تقدير اللام؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهنا فتح الهمزة؛ لأنها تعليل على تقدير حرف الجر، هذان إعرابان.

الإعراب الثالث: يقولون: وي اسم فعل مضارع بمعنى: أعجب، وكأن حرف تشبيه، والمراد بهذا التشبيه: التحقيق، كما تقول للإنسان: كأنك فاهم؛ أي: أنه فاهم، انظر الآن ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: أن الأمر حق لا يفلح الكافرون، فالأوجه ثلاثة، وهي: (وي) اسم فعل مضارع بمعنى: أعجب على كل التقديرات، (وي) ما تختلف، كأنه قيل: إن الكاف حرف جر بمعنى: لام، وأنَّ حرف توكيد هذا وجه، وقيل: إن الكاف حرف خطاب، وأنَّ حرف توكيد على تقدير اللام ويكا أنه لا يفلح الكافرون، وقيل: إن كأن جميعًا حرف تشبيه لكن يراد به: التحقيق، فقولك للفاهم: كأنك فاهمٌ وقد علم أن كأن للتشبيه ودخلت على اسم جامد ولضم أو لتحلية هي دخلت على مشتق.

وقوله: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لا يفلح، الفلاح هو: الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، إذن هو كلمة من أجمع الكلمات، والكافرون أي: الكافرون بالله - سبحانه وتعالى - وكلما أطلق الكفر فالمراد به: الكفر بالله، أما إذا قُيِّد فهو بحسب ما قُيِّد به؛ مثل: ﴿يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٦٥] هنا قيَّد الكفر بالطاغوت لكن عند الإطلاق يكون الكفر بالله، فكل من كفر بالله بأي نوع من أنواع الكفر سواء كان كفر تقليد أو كفر استكبار فإنه لا يفلح.

فإذا قال قائل: على أن يشكل على هذا ما كان عليه أهل الكفر من النعيم والترف في الدنيا؟ نقول: لا يشكل؛ لأنهم لا يفلحوا حتى وإن نعموا في الدنيا ماذا يفيدهم النعيم، وهم إذا ماتوا انتقلوا إلى جهنم؟ هذا النعيم في الحقيقة يكون وبالًا عليهم؛ لأنهم يفقدونه إلى عذاب، ولو كانوا معذَّبين في الأصل في الدنيا لكن انتقالهم إلى عذاب الآخرة أهون من انتقالهم من النعيم ولهذا إذا عذب أحد في الدنيا ماذا يفعل؟ ينتحر ليتخلص منه بزعمه إلى راحة وعلى كل حال لا يرتاح بل هو ينتقل إلى الشقاء - والعياذ بالله - لكن قصدي أنه إذا انتقلوا من هذا النعيم فهذا أشد وأنكى وأعظم عليه وأبلغ حسرة وهم في الحقيقة ما أفلحوا أن نقول إنهم هل استفادوا من وقتهم في الدنيا شيئًا؟ لا، أبدًا بل خسروا، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، قوله: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ بناء للفاعل والمفعول ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾ لولا هذه شرطية وهي: حرف امتناع لوجود، امتنع الخسف بوجود المنة فهي حرف امتناع لوجود وهي الذي بعدها يكون مبتدأ وخبره محذوف غالبًا، وقال ابن مالك:

وبعد لولا غالبًا حذف الخبر حتمٌ ....

وقوله: ﴿أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾ إن مصدرية، ومن فعل ماضٍ، وأن وما دخلت عليه وتأويل مصدر منخدع أو لولا منة الله علينا والخبر محذوف تقديره لولا منة الله علينا موجودة أو واقعة وأما قوله: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ فهي جواب لولا يعني: جواب الشرط، وهذا المشهور عند النحويين، وعندي ينبغي أن يقال: إن المبتدأ هنا لا يحتاج إلى خبر لا يحتاج إلى خبر أصلا ما نقول كما يقول النحويون أنه محذوف بل نقول: أنه لا حاجة لنا إليه والسبب لدلالة الجواب عليه فحينئذٍ نقول: لا فائدة لتقدير الخبر، نقول: هو مبتدأ ويحتاج إلى خبر، كما قيل: في القسم في قوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:١ - ٥] أنه ما يحتاج إلى جواب، ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «بدائع الفوائد» أو في «أحكام القرآن» يقول: إن الشيء المعلوم ما يحتاج إلى تقريب نقول: استغني عنه في جملة؛ لأن دلالة اللفظ على معناه ظاهرة؛ بل إذا كان السياق لا يحتاج إلى تقريب ما نقربه، قوله: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ما هو المن؟ المن هو العطاء الذي لا يراد به المقابلة أي: المكافأة ولا ريب أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يريد من عباده أن يكافئوه؛ لأنهم لو حاولوا المكافأة لا يستطيعون ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ قوله: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خسف بقارون ولكن منة الله عليهم منعه ذلك، انظر الآن رجعوا إلى الصواب وعرفوا أن هذه المتعة التي متع بها قارون لم تُغنِ عنه شيئًا، ثم قال المؤلف: [﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ بالبناء للفاعل والمفعول قراءتان سبعيَّتان] بالبناء للفاعل ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾، وبالبناء للمفعول ﴿لَخُسِفَ بنا﴾، على قراءة ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ الأمر فيها ظاهر؛ يعني: لخسف بنا كما خسف بقارون، وعلى قراءة ﴿لَخُسِفَ بنا﴾ يكون المراد: خسف الله عز وجل لا شك لكنهم قالوا ذلك تأدُبًا، فلم ينسب الخسف إلى الله؛ بل بناه للمفعول كراهية أن ينسبوا الخسف إلى الله، كقول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ هم يعرفون أن الذي يريد ذلك كله هو الله، لكن لما تكلموا عن الشر ما نسبوه إلى الله فقالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وهذا من الأدب في اللفظ هؤلاء قالوا لخُسِف بنا مع أن الخاسف هو الله لكن هذا من باب الأدب في اللفظ، يقول المؤلف: [﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمة الله؛ كقارون].

قال: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قد تقدم الكلام على إعراب ويكأنه.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا﴾، قوله: ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، وهي اسم إشارة قوله:

﴿ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ يحتمل أن تكون صفة لتلك ويحتمل أن تكون خبرًا، قوله: ﴿ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ يعني بذلك دار الجنة؛ لأن هي الدار الآخرة؛ لأن للإنسان في الدنيا والآخرة دورًا أربع: الدار الأولى: بطن أمه، والثانية: الدنيا، والثالثة: البرزخ، والرابعة: الآخرة، وهي التي ليس بعدها دار، ولهذا وصفت بأنها آخرة ليس بعدها شيء.

وقوله: ﴿نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ﴾ جملة نجعلها إن أعربنا الدار صفة فجملة نجعلها خبر وإن أعربنا الدار خبر فجملة نجعلها حال من الدار الآخرة يعني: الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعني: نفسه لضمير النفس تعظيمًا لمن ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا﴾ بالبغي ﴿وَلَا فَسَادٗا﴾ بعمل المعاصي خلافًا لقارون وأمثاله فالدار الآخرة للذين لا يريدون علوا في الأرض والعلو هنا سواء كان علوًّا عن أوامر الله أو علوًّا على عباد الله ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا﴾ إنما يريدون الذل لله والذل للعباد على الوجه الذي يرضاه الله هؤلاء هم الذين لهم الدار الآخرة فمن أراد العلو على الخلق سواء كان بماله أو بعشيرته أو بقوته البدنية أو بعلمه أو بسلطانه من أراد العلو على الخلق بهذه الأمور أو ذويها فإنه لا حظ له في الآخرة على حسب ما عنده من إرادة العلو، قوله: ﴿وَلَا فَسَادٗا﴾ الفساد يقول المؤلف: [بعمل المعاصي] فإن عمل المعاصي فساد في الأرض، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١] والفرق بين الصفتين أن الأول مستكبر متعالٍ متعاظم في نفسه والثاني بالعكس ما عنده التعالي لكنه يريد المعاصي؛ يريد مثلًا: الفجور، يريد السرقة، يريد قطع الطريق، وما أشبه ذلك، فكِلَا النيتين باطلة، لا إرادة في العلو ولا إرادة في الفساد في الأرض فمن لم يرد ذلك العلو ولا الفساد هو الذي يكون له الدار الآخرة

قال الله تعالى: [﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ عقاب الله بعمل الطاعات]، العاقبة النهاية التي تعقب ما سبقها هذه للمتقين فمن كان متقيًا لله عز وجل فالعاقبة له بكل حال ولكنها تكون باعتبار شخصيته وعمله أحيانًا وتكون له باعتبار عمله دون شخصيته قد تضمن هذا الإنسان المتقي قام بما يجب عليه من تقوى الله عز وجل ودعا إلى الله على بصيرة لكنه مات قبل أن تتم له المهمة نقول هذا ما لا عاقبة له؛ لأنه قد مات، وقد لا يتحقق العاقبة لكن العاقبة بعمله الذي دعا إليه لابد أن ينجح ولو بعد موت العامل فالإنسان الذي يتقي الله ـ عز وجل ـ لابد أن تكون له العاقبة حتى لو اعتدى عليه من يعتدي فإن العاقبة له ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥] فالعاقبة للمتقين في كل حال ثم قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ ﴿مَن جَآءَ﴾ من هذه شرطية تعم كل من جاء قوله: ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ الباء للمصاحبة ويحتمل أن تكون للتعدية المعنى أن الإنسان إذا أتى بالحسنة مُدَّخرًا لها يوم القيامة فإن له خيرًا منها، كيف الخيرية؟ قال المؤلف: [ثوابٌ بسببها وهو عشر أمثالها] عشر أمثالها فقط؛ يعني: إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والله تبارك وتعالى يضاعف لمن يشاء، ومن ثَمَّ من

جاء بالحسنة فله خير منها بلا ريب حتى إن من همَّ بالحسنة ولم يعملها كتبها الله في ميزانه حسنة وله خير منها، إن عملها أو لا، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [أي: مثله] من جاء بالسيئة يوم القيامة فإنه لا يجزى إلا مثلها ولهذا قال: ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: إلا جزاء ما كانوا يعملون لا يزاد عليهم، وفي قوله: ﴿وَمَن جَآءَ﴾ في الموضعين إشارة إلى أن المدار على مجيء الإنسان بذلك لا على عمله فقد يعمل الحسنة ثم يردُ عليه ما يبطلها قد يتضمن الإنسان عمل صدقة ثم من بها على هذا المتصدق عليه فلا تكون هذه صدقة؛ بل تبطل، من يُؤتَى به يوم القيامة عمل سيئة لكنه تاب منها أيضًا تذهب السيئة ولا يأتي بها يوم القيامة، التعبير بقوله: جاء ثم يدعون إشارة إلى أن ليس المدار على مجرد العمل بل المدار على أن يصل العمل إلى يوم القيامة فلا يبطل.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾.

١ - **من فوائد الآية:** بيان قدرة الله - عز وجل -.

٢- **ومنها:** التحذير من التعالي والبغي على الخلق.

٣- **ومنها أيضًا:** أن الله إذا أنزل العقوبة بأحد فليس له ناصر إلا الله، ولو عظمت قوته، وكثر جنده، لقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** أن هؤلاء الذين تمنوا مثل ما أوتي قارون عرفوا أن ما أوتيه ليس لكونه أهلًا له بل؛ لأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر كما قال لهم في الجواب: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ هنا تبين لهم أنه ليس لهذا السبب ولكن؛ لأن الله تعالى بيده الأمر يرزق من يشاء من عباده ويقدر.

٢ - **ومن فوائد الآية:** بيان أن تمني متاع الدنيا لابد أن يتبين للمرء أنه تمنٍ لا حقيقة له وذلك؛ لأنه يزول فهؤلاء الذين تمنوا مثل ما أوتي قارون لما زال وخسف به عرفوا أن هذا التمني في غير محله وأن حقيقة الأمر أن يتمنى الإنسان ما فيه ثواب الآخرة.

٣ - **ومن فوائد الآية:** إثبات مشيئة الله لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ ومنها إثبات حكمته في بسط الرزق وتضييقه يبسط ويقدر في هذه لحكمته - سبحانه وتعالى -.

٤- **ومنها:** اعتراف هؤلاء المتمنِّين بمنَّة الله عليهم، في قولهم: ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾

فهنا عرفوا منة الله عليهم حيث لم يعطهم مثل ما أعطي قارون فيكون مآلهم كمآله فتبين لهم بذلك نعمة الله عليهم.

٥ - **ومن فوائد الآية:** أنه لا فلاح للكافر لقوله: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ونأخذ من ذلك: إثبات عكسه للمؤمنين؛ أي: أن لهم الفلاح في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

١ - **من فوائد هذه الآية:** إثبات الجزاء يوم القيامة لقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** مدح من لا يريد العلو في الأرض ولا الفساد، وهو أعظم من مدح من لا يعلو ولا يفسد، وجه ذلك: أن انتفاء الإرادة ورد منه انتفاء الفعل، أما انتفاء الفعل فلا يلزم منه انتفاء الإرادة فقد يريد الإنسان الفساد والعلو ولكن ما يعلوا ولا يفسد لعدم تمكنه أو لفقده الأسباب أما الذي لا يريد فهو أسلم وأنزه.

٣ - **ومن فوائد الآية:** أن النية لها أثر لقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ والإرادة بمعنى: النية.

٤- **ومنها:** ذم من يريد العلو والفساد وسواء علا وأفسد أو لم يعلو ويفسد؛ لأنه إذا كان في الجنة هؤلاء الذين لا يريدون وهذا مدح لهم بلا ريب فإن من أراد فهو مذموم سواء تمكن من تنفيذ إرادته أو لم يتمكن.

٥ - **ومنها أيضًا:** أن المعاصي سبب للفساد وهذا يؤخذ من قوله: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ لأننا نعلم أن الفساد في الأرض ليس معناه: أن يأتوا بالمحاريث، والمناشير، ويقطعون الأشجار، ويهدمون البيوت؛ ولكن المعنى: أنهم يفعلون أفعالًا توجب الفساد ويفسر ذلك: قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

٦ - **ومن فوائد الآية:** فضيلة التقوى، تؤخذ من قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٧- **ومنها:** أن العاقبة تكون للمتقين، العاقبة في أي شيء؟ قال المؤلف: [العاقبة المحمودة]، ولكننا نقول: هي أعم من هذا فالعاقبة في الدنيا فيكون النصر لهم في الآخرة أو في آخر الأمر، العاقبة في الآخرة فتكون الدار الآخرة والجنة لهم دون غيرهم، فالعاقبة أعم مما قال المؤلف، حتى في الدنيا إذا تقابل المتقون والفجار في النهاية للمتقين، العاقبة النتيجة المرضية للمتقين.

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

١ ـ **يستفاد من هذه الآية:** أن جزاء الحسنة خير منها بالكمية والكيفية أما الكمية فالحسنة بعشر أمثالها وأما الكيفية فإن جزاء الحسنة دائمة وهذا خير منها كمية وكيفية ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

٢ ـ **ومنها:** أنه ليس المدار على عمل الحسنة بل المدار على أن يأتي بالحسنة لقوله: ﴿مَن جَاءَ﴾ فقد يعمل الإنسان الحسنة فيها ما يبطله فالمدار على أن يأتي الإنسان يوم القيامة بالحسنة لا على أن يفعلها.

٣ ـ **ومن فوائد الآية:** إثبات الجزاء لقوله: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية أيضًا:** أن السيئة لا تضاعف من قوله: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٥- **ومنها:** أن عدم مضاعفة السيئة عامٌ في مكة وغيرها، وجهه: أن الآية عامة ليس فيها استثناء، ثم إن السورة التي معنا تكون مكية السورة نازلة بمكة والآية نازلة بمكة ولم يُستثن شيءٌ، وأما ما يروى عن ابن عباس أنه قال: لا أقيم في بلد حسناته كسيئاته، فهذا باطل، لا يصح عن ابن عباس؛ لأن ابن عباس أفقه من أن يقول مثل هذا القول، لكن السيئة في مكة تُضاعف ما من جهة الكمية ولكن من جهة الكيفية؛ يعني: عقوبتها أشد وأبلغ ألمًا وتعرفون الفرق بين الكمية يعني ما تكون عشر سيئات لكن يكون أشد، فأنا مثلًا أضرب ضربًا هكذا لكن بالعصاة كان أعظم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

٦ ـ **ومن فوائد الآية:** التنديد بعامل السيئات؛ لأنه قال: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لم يقل: فلا يجزى عامله، وهذا تنديد بهم وبيان استحقاقهم ما يسوءوا من العذاب كأنه قال؛ لأنهم عملوا السيئات يجزون سيئة فهذا تبكيت وتنديد لهم.

٧ ـ **ومن فوائد الآية:** أن ثواب الله سبحانه وتعالى دائر بين العدل والفضل ما هو القسم الثالث؟ الجزاء إما عدل، أو فضل، أو جور، فجزاء الله تعالى دائر بين العدل والفضل، الفضل بالنسبة للمحسنين ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ والعدل بالنسبة للمسيئين ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وأما الجور فهذا ممتنع في حق الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ فجزاء الله تعالى دائر بين الفضل والعدل إذن فهو محمود على أي حال؛ لأنه إما عدل وإما فضل.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٥، ٨٦].

التفسير

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ الذي فرض عليه الله سبحانه وتعالى وهذا وعد محقق ببيان الشاهد ليقاس عليه الغائب فإن فرض القرآن على الرسول ﷺ ثابت محقق، وردُّه إلى معادٍ موجود وليس مشهودًا، فأراد أن يحقق الموجود بالمشهود ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ﴾ لفظ إجماع لم يقل: إن الله رادَّك إلى معاد؛ بل قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لأن فرض القرآن على الرسول ﷺ متيقن فإرادته سبحانه وتعالى أن يثبت الموجود بالمشهود فإن الموجود المشهود معروف لرادك إلى معاد موجود غير مشهود ولكنه حقق ذلك الموجود بالمشهود قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يقول المؤلف: [أنزله] وهذا أحد التفسيرين في الآية أن الفرض هنا بمعنى الإنزال وقيل: فرض أوجب عليك القرآن، الإيجاب معناه هنا أوجب القرآن أي: أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به.

فرض الله على نبيه ﷺ القرآن ثلاثة أمور: أن يتلوه، وأن يبلغه إلى الناس، وأن يعمل به، وحينئذٍ يكون الذي فرض عليك القرآن أي فرض عليك تلاوته وتبليغه والعمل به وهذا التفسير أقرب إلى ظاهر اللفظ؛ لأن الفرض بمعنى: الإنزال ليس موجودًا في اللغة العربية ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣] «وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يوم وَلَيْلَةٍ» هنا «أَعْلِمْهُمْ» هنا بمعنى: أوجب وألزم، قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ﴾ اللام هنا للتوكيد ورادك خبر إن، قوله: ﴿لَرَآدُّكَ﴾ أي لمرجعك إلى معاد قال المؤلف: [إلى مكة وكان قد اشتاقها] قد اشتاق إليها، والمعنى إن الذي انزل على رأي المؤلف إن الذي أنزل عليك القرآن لابد أن يعيدك إلى مكة لتفتحها كما أن القرآن أُنزل عليك فيها، هذا معنى كلام المؤلف فيكون رد المعاد، المعاد مكة أي: مكان العودة والرجوع وأنك سوف ترجع إلى المكان الذي أخرجت منه ويكون في هذه الآية وعد من الله - سبحانه وتعالى - أن يفتح النبي ﷺ مكة وأن يعود إليها وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه البخاري عنه، وقيل: إن المراد لرادك إلى معاد أي لرادك إلى يوم القيامة فالمراد بالمعاد معاد الناس يوم القيامة ويكون المعنى: أن الذي

فرض عليك القرآن وأوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به لم ينزله عبسًا قد أنزله لأمر يعود الناس إليه وهو يوم القيامة فيكون المعنى لرادك إلى معاد أي: إلي يوم القيامة لتدنَى وتسأل هل بلغت أم لم تبلغ؟ قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

وهذا المعنى أقرب من ما روي عن ابن عباس وهي مروية عنه أيضًا، وأنه قد روي عنه هذا المعنى ويقربه أن السورة مكية وإذا كانت مكية فكيف يقال لمن في مكة لرادك إلى معاد؟ هم في مكة فيكف يردوا إليها وأيضًا هو أنسب بالنسبة إلى صدر الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ هذا الخلق يكون عبسًا بل له يوم يعاد فيه الناس ويسألون عنه وهذا القول إن المراد لرادك إلى معاد أي إلى يوم يعاد فيه الناس ويجزون فيه على حسب هذا القرآن وما قاله بن عباس له ردٌ لكنه ضعيف وأن معني لرادك إلى معاد فتح مكة يعني إلى معاد أي إلى مكة فيكون إثارة إلى فتح مكة الذي هو علامة على قرب أجل النبي ﷺ، وقرب الأجل معناه: الموت ثم البعث.

وأعلم بمعنى عالم ﴿قُل رَّبِّىٓ﴾ الربوبية هنا خاصة يعني: ربي الذي أرسلني أعلم بمن جاء بالهدي ومن هو في ضلال يعني يعلم من هو أتي في الهدى ومن هو في ضلال مبين هل هو الرسول أو أنتم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الله أعلم، وقال المؤلف: [إن أعلم بمعنى: عالم] أعلم أي: عالم، وإنما أوَّلها بمعنى عالم؛ لأن أعلم اسم التفضيل، واسم التفضيل لا ينصب المفعول به وهنا من منصوبة؛ لأنه لا يصح أن تكون مجرورة لتقارب المعنى ولذا يقول أعلم بمن ضل ولكن هذا لا يصلح يعني معناه: أعلم من يضل عن سبيله فيكون له من الضالين سبحانه وتعالى وهذا أمر منكر لكن من منصوبة بلا ريب وأعلم اسم تفضيل وهو لا ينصب المفعول به فنحتاج حين إذن إلى أن نؤوله بمعنى عالم اسم فاعل ليس بمفعول به لو قلت المفعول به وهذا التقريب الذي وصل له المؤلف واقع على رأي من يرى أن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به وأما على رأي الكوفيين فإنهم يجوزون نصب اسم التفضيل بالمفعول به وحين إذن لا يحتاج إلى أن نؤوله إلى عالم ونجد أعلم اسم تفضيل ومن مفعول به هذان إعرابان:

الإعراب الأول: ما نص عليه المؤلف وهو أن أعلم بمعنى عالم ومن مفعول به.

والإعراب الثاني: أن أعلم اسم تفضيل ومن مفعول به لاسم التفضيل وهذا رأي الكوفيين والرأي الثالث أن من مفعول به بفعل محذوف دل عليه السياق وهو والتقدير على رأي هؤلاء قل ربي أعلم يعلم من جاء بالهدي فيجعلون من مفعول لفعل محذوف تقديره يعلم قل ربي أعلم وهذا تقدير مطلق أن ذكر فرد من أفراده فقد يعلم من جاء بالهدي ومن هو في ضلال مبين

والقاعدة عندي إذا اختلف النحويون في شيء أخذنا بالأسهل وأسهل هذه الآراء رأي الكوفيين؛ لأن الكوفيين الآن لا يحتاجون إلى تقدير، ولا تقدير يُعلَم، وتأويل أعلم بمعنى عالم يقول أعلم اسم تفضيل ومن مفعول به فهو مفعول به لأعلم مباشرةً أعلم من يضل عن سبيله قوله: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الهدى المراد به: العلم النافع ومن الذي جاء بالهدى النبي ﷺ ومن هو في ضلال مبين يعني وأعلم من هو في ضلال مبين ولم يقل ممن يأتي به قال ومن هو في ضلال مبين وأتى بـ (في) الدالة على الظرفية كأن هذا منغمس في الضلال والضلال يحيط به من كل جانب إحاطة الظرف بالمظروف ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ حين تقول: الماء في الإناء، الإناء يحيط بالماء من كل جانب هذا في ضلال مبين معناها: أن الضلال يحيط به من كل جانب، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام:١٢٢] فهنا الضلال يحيط بهؤلاء من كل جانب.

قوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى بين وقد تقدم لنا أنه بان الفجر وأبان الفجر بمعنى: ظهر يعني: أن الرباعي مثل الثلاثي في كل اختلاف وعلى هذا يقول: إن الرباعي لكنه بمعنى الثلاثي أي: بين وإما أنه لم يكن أعلم من جاء بالهدي ومن لم يأت به؛ لأن لا واسطة بين الهدي والضلال فالآن إما هدى وإما ضلال ويدل على ذلك: قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ ما هناك واسطة بين الهدي والضلال فيكون الإنسان لا مهتدٍ ولا ضال فالناس كلهم إما مهتدي وإما ضال ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ المهم هنا جَعْلُ الأمر دائرًا بين شيئين كلاهما خصيم للآخر وهما الهدى والضلال؛ لأنه لا واسطة بينهما يقول المؤلف: [نزل جوابًا لقول كفار مكة له] يعني: للنبي ﷺ إنك لفي ضلال أي فهو الآتي بالهدي وهم في ضلال وأعلم بمعنى عالم يحتمل أن ما قاله المؤلف صحيح وأنهم قالوا هكذا كما جاء في الآية، ويحتمل أن يكون غير صحيح وسبب النزول لابد أن يثبت بدليل صحيح أما مجرد أن نفهم من السياق أنهم قالوا وقيل لهم فهذا لا يجوز؛ لأن سبب النزول أمر منقول، والأمر المنقول لا يمكن أن يستنبطه الإنسان بقوله.

ثم قال تعالى مبينًا نعمته على محمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ هذه لا تتأتي على قواعد الكتابة الآن القواعد الإملائية لا تأتي الألف هنا؛ لأن الألف في القواعد الإملائية الحاضرة أنها تكون إذا كانت واو للجماعة مثل: [قالوا] فجاء الألف بعدها أما إذا كان واو الفعل فما حصل في القواعد الحاضرة لا تصلح لكن هذه القواعد في القرآن كان على الرسم العثماني فيرسمونه سواء كان موافق للقواعد الحاضرة أو غير موافق ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ القرآن ﴿يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ أي ينزل عليك ما كان الرسول يرجو هذا ولا خطر بباله أنه يلقى إليه القرآن فإذا كان لم يخطر بباله أن يلقى عليه القرآن فهل يمكن أن يقال: أنه تعلمه من

غيرك؟ لا؛ لأن المتعلم الشيء من غيره لابد أن يكون عنده أمل للحصول عليه حتى يسعى في أسبابه ويحصله أما شخص لم يكن يرجو ذلك إطلاقًا والمخبر بذلك أن يلقى إليه الكتاب فهو دليل على أنه ليس من عنده بل هو من عند الله سبحانه وتعالى لقوله: ﴿يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ولو قال الكتاب مع أنه ملقى؛ لأنه نائب فاعل قال أن يلقى إليك الكتاب القرآن وكتاب بمعنى مكتوب ويصف القرآن به؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ مكتوب بأيدي الملائكة مفعول بأيدي الناس يعني: مكتوب بأيدي الملائكة ومكتوب أيضًا وهو في أيدي الناس.

قال المؤلف: ﴿أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [القرآن] ﴿إِلَّا﴾ [لكن أُلقِي إليك] إشارة منه على أن الاستثناء منقطع وليس متصلًا؛ لأن المتصل هو أن يكون المستثنى من جهة المستثنى منه ومعلوم أن الرحمة ليس سياق رجاء وليس من الرسول من يرجو ذلك وما كان يرجو ولكن الأمر حصل بمجرد الرحمة.

قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ رحمة هذه تكون إما أداة استثناء والاستثناء هنا منقطع ورحمة منصوبًا على الاستثناء ويجوز أن يكون منصوب على أنه مفعول له يعني مفعول من أجله يعني ولكن أنز ل لأجل الرحمة والرحمة هنا لرسول ﷺ له ولغيره قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وهنا ذكر الربوبية الخاصة؛ لأن رحمة الله للنبي عليه الصلاة والسلام بالرسالة رحمة خاصة وإذا كان الأمر كذلك وأنه ألقى إليك الكتاب رحمة من ربك.

قال المؤلف: [﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ معينًا ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾]، قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ لا ناهية وفيه إشكال كيف تكون ناهية والفعل بعدها منصوب فلا تكونن نقول ليس بمنصوب بل هو مبني على الفتح لاختصار وجوه الترتيب وهو في محل نصب فلا تكونن ظهيرًا معينًا للكافرين على دينهم، الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما كان ظهيرا للكافرين لكنه عليه الصلاة والسلام ينهى عن أمر وإن لم يكن واقعًا منه أو متصورًا أن يقع حينها قال تعالى أيضًا: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنه يمكن أن يشرك ولكنه ينهى عن ذلك فقيل: إن النهي نهيه هو عنه نهي لأمته وقيل: بل إنه نهي حقيقي له وإن لم يكن ذلك متوقعًا منه، والفائدة من ذلك: بيان أن هذا الأمر لا ينبغي أن يكون والله أعلم.

الفوائد:

يستفاد من الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

١ - **الفائدة الأولى:** وجوب تلاوة القرآن والعمل به وتبليغه عن النبي ﷺ، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

٢ - **ويستفاد منه:** إثبات البعث في قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

٣- **ويستفاد منه:** الحكمة من إنزال القرآن وهو المجازاة على العمل به؛ لأن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ﴾ كأنه علة ومعلولة، كأنه إنما فرض القرآن من أجل المجازاة عليه.

٤- **ويستفاد من ذلك أيضًا:** دوام قدرة الله عز وجل على البعث ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾

٥- **ويستفاد من قوله:** ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ إثبات علم الله وأنه أكمل العلوم؛ لأن أعلم اسم تفضيل، فصحَّ أن نقول: أكمل العلوم.

٦ ـ **ويستفاد من هذه الآية أيضًا:** أن ما عدا الهدى فهو ضلال لقوله: ﴿أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأنه ليس هناك واسطة بين الهدى والضلال وذكرنا آيات شواهد لهذا الأمر مثل قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ ومثل قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا الميزان الحقيقة يتبيَّن به أشياء كثيرة اختلفت على بعض الناس مثلًا ما نشر في الصحف هذه الأيام من أن الأشعرية من أهل السنة والجماعة نقول مثلًا: هل قول الأشعرية هو قول السلف؟ الجواب: لا، حتى أن الكاتب هذا يقول: إن قول الأشعرية ليس كقول السلف؛ لأن الأشعرية لا يثبتون من الصفات إلا سبعًا على أن إثباتهم لها ليس على الوجه الذي يريده الله ورسوله، يعني: يقولون في صفة الكلام يقولون: إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وليس هو الحروف والأصوات.

وكذلك أيضًا نقول: هل هم موافقون للسلف أم غير موافقين؟ غير موافقين، إذا كان كذلك فإما أن يكونوا هم على الحق والسلف على الضلال وإما أن يكون السلف على الحق وهؤلاء على الضلال؟ هل هناك واسطة بأن يكون ليس على حق ولا على ضلال؟ ليس هناك واسطة؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ وحين إذن يكونوا ضالين وإذا ثبت ضلالهم فإنه لا يمكن أبدًا أن يقال: إنهم من أهل السنة والجماعة؛ لأنه يلزم من ذلك أن تكون السنة ضلالًا، لو كان هؤلاء الضالون من أهل السنة والجماعة للزِم أن تكون السنة ضلالة وهذا أمر غير ممكن ولكن يجب أن نعرف أنه وإن قلنا: إنهم ضالون في العقيدة لا يلزم أن نضللهم في كل شيء ونتجه إلى أهل السنة والجماعة في جميع الأشياء؛ لأن هؤلاء فيهم أئمة أو لهم علماء كبار لا شك أنهم يتجهوا إلى السنة في أمور كثيرة وأنهم يرتقون لها أيضًا فالإنسان يجب أن يكون كلامه في الناس على حين يفعل العبد فبالقسطاس المستقيم فلا يظلم أحدًا حقه و لا يعطى أكثر من حقه فالحاصل من هذا في آية أخرى ميزان واضح جدًا أنه ليس الأمر إلا ضلالًا أو حقًّا.

٧ ـ **ويستفاد من الآية الكريمة أيضًا:** إثبات أن الرسول عليه الصلاة والسلام على الهدى أعلم من جاء بالهدى ومعلوم أن الذي جاء وورد عن الناس الرسول؛ لأن الجهمية باقون على ما هم عليه ما جاءوا بجديد فالذي جاء بجديد هو الرسول ﷺ فأعلم من جاء بالهدي يشير على أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي على هدى وأن أولئك في ضلال مبين.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

١- **يستفاد من هذه الآية:** أن الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يتطلب الرسالة ولا خطرت على باله، لقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ويتفرع على هذه الفائدة بيان تكذيب هؤلاء الذين قالوا إنما يعلمه بشر الكفار يقولون إنما يعلم محمد القرآن بشر لو كان الرسول ﷺ يتعلم من بشر لكان متطلعًا إلى هذا القرآن والله يقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ أنه رحمة للخلق رحمة في الدنيا أم في الآخرة ففي الدنيا تستقيم أموره وتصلح أقواله ويعلى أمرهم وفي الآخرة في جنة النعيم فهذا القرآن رحمة أولًا وأخرًا وهو أشد نعمة من الله سبحانه وتعالى وأعظم منة من نزول المطر الذي تحتاجه الأرض؛ لأن القرآن تحيى به القلوب وتَصْلُح به الأعمال، وبحياة قلوبنا وصلاح الأعمال تحيى الأرض ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

٣ ـ **ومنها:** إثبات الربوبية الخاصة للرسول ﷺ، لقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فهذا يقتضي ربوبية خاصة كما أن النبي ﷺ له عبودية خاصة، عبودية خاصة وربوبية الله له خاصة أيضًا وإذا شئت أن تعرف أن الربوبية نوعان فاقرأ قول الله تعالى عن سحرة آل فرعون الذين آمنوا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١ - ١٢٢] الأولى عامة والثانية خاصة.

٤ ـ ويستفاد من قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: تحريم مظاهرة الكفار أو معاونتهم؛ لأن النهي للتحريم لاسيما وقد أكّد بتقديم الجار والمجرور ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وأيضًا بـلا تكونن؛ لأن النون هنا للتوكيد، والدليل على التوكيد دليل على أن الفعل بُنِيَ على الفتح فلا تكون وإلّا لوَجَبَ جَزْمُه.

المعاونة للكفار هل هي معاونة عسكرية أو معاونة فكرية أو معاونة المالية أو المعاونة المعنوية؟ كل ما فيه معاونة للكفار ومساعدة لهم وتقويتهم فإنه محرم؛ لأن الواجب علينا نحن المسلمين العكس من ذلك الواجب علينا إذلالهم وخذلهم بكل ما نستطيع بل قد قال الله للرسول ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣] وقال للمؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:١٢٣] يعني: هذا من تقوى الله إذا قاتلتموهم ليجدوا منكم غِلظة معناه إذا لم يقاتل ولم يجد منه غلظة فإنه مخالف للتقوى، والحاصل: أنه لا يجوز معاونة الكفار بأي وجه من وجوه المعاونة وهو من أخطر الأمور؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١] هو أن الخطاب هنا للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

كيف الرسول ينهى أن لا يكون ظهيرًا للكافرين؟ ذكرنا أن بعض المفسرين يقول: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾، إن هذا الخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - والمراد به الأمة ولكنه على حد قول الشاعر:

إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَة ....

نعم الخطاب للرسول والمراد: أمته وقال بعضهم بل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام من نهي عن الشيء لا يلزم منه الوقوع فإذا قال قائل نعم هو لازم الوقوع لكن هل يلزم منه جواز الوقوع؟ بمعنى: أن يكون - عليه الصلاة والسلام - ظهيرًا للكافرين،؛ لأنه إذا كان مستحيلًا لغوًا، فالنهي عن المستحيل لغوٌ أو قال أجاب على ذلك من لا شيء، إما أن نقول: إن الرسول ﷺ لولا تربية الله له لركن إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤ - ٧٥] وكان يقال الوجه الثاني المثال أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد يفعل الشيء من ما هو مظاهرة للكافرين وهو لا يعلم أنه مظاهرة قد يفعل وهو لا يعلم أنها مظاهرة فنهاه الله عنها لأجل أن يكون منها على حذر وعلى بعد من هؤلاء الكافرين ثم نقول أيضًا: إن ما جاز عقلًا وعادة قد يمتنع شرعًا، افرض أن هذا أمر قد يجوز للرسول عليه الصلاة والسلام باعتبار العادة أو باعتبار الحالة البشرية لكن هناك شرعية لا يمكن فيكون له عائد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام باعتبار الحالة البشرية الطبيعية أما شرعًا فلا يمكن أن يكون.



❁ **قال الله تعالى:**

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٧، ٨٨].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ يقول المؤلف: [حذف يصدوننك حذفت نون الرفع للجازم، والواو للفاعل لالتقائها مع النون الساكنة]، فصارت يصُدُّنك أصلها يصدوننك قبل دخول لا الناهية لما دخلت لا الناهية وجب حذف النون الأولى يصدُّوننك هذه يصدون، النون هذه علامة الرفع، فلما دخلت لا الناهية وجب حذف النون للجزم حذفنا النون الأولى للجزم أجزمه بالواو لما

حذفنا النون الأولى صار لدينا واو ساكنة والنون المشددة أو الحرف المشدد أوله ساكن فالتقاء الساكنان فأوجب حذف الأول منهما، قال ابن مالك في «**الألفية**»:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَق وَإِنْ يَكُنْ لَيِّنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَق

والواو من صفتها السكون، ولهذا حُذِفَت، وصار يصدونك وأما قوله لتسمعنا فليست من هذا الباب؛ لأن لتسمعنا ليس فيها شاهد، واللام في لتسمعنا من حروف القسم، لتسمعنا أصلها لتسمعونن، فحذفت النون لا لناصب ولا لجازم، ولكن لتوالي الأمثال: نون الرفع، ونون التوكيد المشددة، وحُذِفَت الواو أيضًا لالتقاء الساكنين النون المشددة والياء الساكنة قال: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ الواو في قوله يصدنك تعود إلى الكافرين ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أي: ولا يصدنك الكافرون والخطاب للنبي ﷺ ومعنى الصد يستعمل لازمًا ومتعديًا وإن كان لازمًا فهو بمعنى: أعرض وإذا كان متعديًا فهو بمعنى انصرف فإنك لو صددته عن الخطأ صرفته وهذا يكون متعديًا وتقول صددت عن الضلال أي أعرضت عنه فمثلًا أن يأتي في القرآن ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هل هو لازم أو متعدٍ الأولى أن نقول أنه متعدٍ؛ لأن من صد غيره فهو عن الحق أصد لكن من صد بنفسه قد لا يصد غيره فالأولى أن نحمل ما جاء في القرآن من ذكر الصد على أسلوب المتعدي لا على اللازم قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ من الاثنين من اللازم أو المتعدي الكاف مفعول به فعل متعدي يعني: لا يصرفونك هؤلاء لا يصرفنك عن آيات الله والمراد هنا الآيات الشرعية يريد به قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ لا يصدونك عن آيات الله أي: القرآن فإن القرآن آيات الله عز وجل ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦] وإنَّما كان القرآن من آيات الله؛ لأنه كلامه ولما تضمنه من الأخبار والقصص النافعة والأحكام العادلة ولأنه لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور:٣٤] تحدٍّ لهؤلاء الأعداء الذين هم أقوى الناس فصاحة ومع ذلك عجزوا ما استطاعوا ولهذا كان القرآن آية من آيات الله.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ إذا قلنا: ما الفائدة من قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾وأصل النهي لا يقع لا يصدونك عن آيات الله إلا إذا كانت نازلة فهل هذا الكلام لغو لا فائدة منه؟ لا ليس لغوًا لا فائدة منه بل فيه فائدة وهي تذكير الرسول - عليه الصلاة والسلام - بهذه الحجة والمستند وهو أنها أنزلت من عند الله، وإذا كان يذكر هذا المستند فإنه لا يمكن لأحد أن يصده عنه، فهو وإن كان مفهومًا أن الصد عن الشيء لا يكون إلا بعد وجوده، لكنه لأجل أن يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام بحال الإنسان حتى يكون ذلك أثبت له، وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ﴾ من عند الله، أو لا ترجع إليهم في ذلك هذا التفسير ليس بصحيح؛ لأنه تفسير ببعض اللازم؛ لأن صدهم للرسول عن ما أنزل إليه لا يلزمهم أن يرجع إليهم قد يرضون منه أن يخرج من دينه وإن

لم يوافقهم على دينهم؛ لأن أعداء المسلمين لا يهمهم أن يكون المسلمون نصارى أو يهودًا المهم أن يخرجوا من دينهم فهنا الآية ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ فنقول: إن هناك فرقًا بين لا يصدونك، وبين لا ترجع إليهم، لكن نعم قد يلزم من الصد أن يرجع إليهم وقد لا يلزم ولهذا الأولى أن نقول: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ فتخرج منها إليهم أو إلي غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الدعاء معناه الطلب أي: اطلب الناس أن يدخلوا في دين الله وادع الناس، أفادنا المؤلف - رَحِمَهُ اللَّهُ - أن المفعول محذوف تقديره الناس وادع الناس، إلى ربك لتوحيده وعبادته هذا التفسير لدعاء يعني: ادعهم إلى التوحيد والعبادة.

والتوحيد ثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات يعني: أُدعهم إلى كل هذا التوحيد.

والعبادة وهي توحيد الألوهية.

وقوله: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ هذا هو المهم أن تكون دعوة الإنسان إلى الله عز وجل لا إلى أي قصد أخر فمن دعا الناس إلى الحق ليقوي جبهتهم ويكثر فهذا داع إلى الله ومن دعا الناس إلى الله من أجل أن يكون له وجه بين الناس فإنه لا يدعوا إلى الله؛ بل لابد أن يكون الإنسان يدعو إلى الله فيكون ليس له غرض اللهم إلا رجل يقول أنا أحب أن أذهب إلى الجبهة التي أدعوا إليها لأجل أن أدعو إليها، فهذا لا حرج عليه ولكن مع ذلك الأولى أن يأخذ القصد الأول وإلا فلا حرج على الإنسان أن يدعو إلى الله ويحب أن يخبر أتباعه لأجل أن ينتصر الحق به قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:٦٣].

[﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في إعانتهم]، فسر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الآية بتفسير قد تكون على خلاف الظاهر فقال: [لا تكونن من المشركين بإعانتهم؛ لأن النبي لا يشرك؛ لأن من أعان قومًا فهو منهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص:٥٠)] وكأن المؤلف يقول: إن الله نهى الرسول أن يكون من المشركين لا لم ينهه على أن يشرك؛ لأن هذا لا يمكن أن يقع بل نهاه أن يكون منهم بمعنى معينًا لهم لا أنه مشرك كإشراكهم فإن هذا لا يمكن ولكن المعنى أنه لا يكون معينًا لهم على شركهم فإن ذلك يجعله منهم.

ويحتمل أن يكون على ظاهره أنه ينهاه أن يكون من المشركين والنهي عن الشيء لا يلزم من وقوعه ولا يلزم منه تلازم وقوعه شرعًا فإنه لو فرض أنه جائز أن يقع عادةً فإنه شرعًا لا يمكن وعلى هذا فمثل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ لا يلزم على جوازه شرعًا ولكن إن جاز أن يقع ذلك منه أو وقع منه فإنه يحبط عمله فما قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ

﴿ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ هذا الشرط لا يمكن أن يكون ولا يلزم من التعدي أو استحالات الشيء أن لا يقع شرطًا حتى في الأمور العادية لو قال الإنسان: إن خرجتي فأنتِ طالق، يصح، ولهذا نقول: تعليق الشيء على المستحيل يجعله مستحيلًا، هو جائز ولكن يجعلة مستحيلًا؛ مثل: قول الشاعر:

إِذَا شَـابَ الغُـرَابُ أَتَيْـتُ أَهـلِي وَصَـارَ القَـارُ كَـاللَّبَنِ الحَلِيـبِ

شاب الغراب يعني صار أبيض وهذا مستحيل وصار القَارُ الأسود فهل يمكن أن يكون مثل اللبن لا يمكن المعنى هنا أنه لا يأتي أبدًا؛ لأنه ما دام علَّقه على شيء مستحيل فالمُعلَّق على المستحيل مستحيل قال المؤلف: ولم يؤثر الجازم في الفعل ببنائه، والفعل ولا تكونن ما أثره في الفعل يقول المؤلف: [لبنائه] لأنه لولا البناء لقال: ولا تكون فحذفت لام الفعل الأولى ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿ولا تكن في ريب﴾ تكن هنا أثر أم لا يؤثر؟

فحذفت لام الفعل ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾المعنى هنا أثر أم لا يؤثر؟ يؤثر بالفعل وما الذي يؤثر به؟ حذف منه الواو ﴿وَلَا تَكُن﴾ هنا ما حذفت الواو، لماذا؟ قال: لبنائه؛ لأنه مبني على الفتح وأصل حذف لام الفعل من أجل السكون ﴿وَلَا تَكُن﴾ وتكن أصلها تكون، لو أننا أبقينا الواو وسكنَّا النون التقى ساكنان وهذا لو جاء في اللغة العربية فإذا التقا ساكنان فالأولى له حذف الأول ولهذا حذفت اللام التي هي لام الفعل ثم هنا ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فلم تحذف قال المؤلف: [لبنائه].

وقوله: ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الشرك ينقسم إلى: أكبر مُخرِج عن الملة، وإلى أصغر لا يُخرِج عن الملة، فالأكبر أن يشرك مع الله أحدًا في عبادته أو ربوبيته، فهو مشرك، وما دون ذلك مما أطلق عليه الشرك فهو شرك أصغر، والغالب أن الشرك الأصغر يكون إما شركًا قد يصل إلى الشرك الأكبر كالرياء فإن الرياء إنما كان شركًا؛ لأن الذي يعمل العبادة ويحصلها للناس، قد يؤدي به الأمر إلى أن يعمل أفضل عبادة للناس فيكون بذلك مشركًا شركًا أصغر، وقد يكون الشرك الأصغر لا يصل إلى الشرك الأكبر وإنما يتعلق بأمور أخرى وما هي تتعلق بالأشياء الشركية.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ لا ناهية وتدعو فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وحرف الواو محذوف لأنه مجزوم والضمة قبلها دليل عليها﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا﴾ مفعول تدعو والإله بمعنى: المألوه أي: المعبود ﴿ءَاخَرَ﴾ فإن هذا غير ممكن أن يكون مع الله إلهًا أخر حق وذلك؛ لأن الآلهة التي سوى الله باطل كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠] وفي هذه الآية ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ سمى الله تعالى ما يعبد إلهًا وذلك؛ لأن الإله فعال بمعنى مفعول أي معبود ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذه الجملة كالتعريض بالنهي السابق يعني فإنه لا إله إلا هو وهذا النهي بل هذا النفي نفي للحق؛ لأنه المعبود الحق وإنه لا إله إلا الله وحين إذن لا يكون بينها ولا بين ما سبقها منافاة إذ إن ما سبقها يثبت آلهة مع الله لكن منهي أن تدعى هذه الآلهة والثاني يقول: لا إله

إلا هو ينفي أن يكون هناك إله والجمع بينهما في أن يقال: الإله الحق الذي عبد وهو يستحق أن يعبد وأما الإله الباطل الذي عُبد وهو لا يستحق أن يعبد فهذا ثابت في غير الله، مع أنه يحتمل أن يكون منفيًا بمعنى النهي أي لا تعبد إلا الله والنفي بمعنى النهي يرد بالقرآن كما قال في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا المعنى قال المفسرون: لا ريب فيه أي لا ترتابوا فيه فجعلوا النفي بمعنى النهي ولكن الأولى أن يبقى النفي على ظاهره يعني يجعله نفيًا حقيقيًا ويكون النفي أبلغ من النهي؛ لأن النفي إثبات صفة وأما النهي فهو نهي عنه قد يمكن الامتثال وقد لا يمكن، يعني: قد يحصل الانتهاء أو قد لا يحصل ثم إذا كانت نفيًا فهي أعم وأولى فعليه نقول: هذا النفي لا يتعرض مع ما قبله؛ لأن ما قبله باعتباره أنها آلهة باطلة، والثاني: باعتبار أنها آلهة حق، فلا إله حق إلا الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

كلمة هو: ضمير يعود على الله وليس هو اسم مستقل بمعنى خلافًا للصوفية المبتدعة الضالة فهم يجعلون (هو) من أسماء الله ويقولون لا إله إلا هو مثل لا إله إلا الله ويقولون في أذكارهم الباطلة هو، هو، هو يكررونها ويكون هذا هو الذكر، فنقول الضمير هو ليس اسم علم لله وإنما هو ضمير يعود على الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا إله إلا الله الذي قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ كل شيء هالك بمعنى: زائل ومضمحل ومعدوم بعد الوجوب ﴿هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ قال المؤلف: [إلا إياه] يعني: إلا الله فإنه سبحانه وتعالى ليس بهالك كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ فسره المؤلف بقوله: [إلا إياه] قدم على قول أهل الباطل الذين قالوا: إن الله يفنى إلا وجهه - والعياذ بالله - وجعلوا الوجه هنا لم يعبر به عن الذات أي جعلوه معبرًا به عن صفة الوجه فقط وقالوا: إن الله يفنى إلا وجهه وهذا لا يصلح؛ لأنه كلام باطل وأن المراد بالوجه هنا الذات كله كل الذات العلية لكنه عبر بالوجه كسائر التعبيرات اللغوية حيث يعبر بالوجه عن الشيء كله.

قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ فقول المؤلف: [إلا إياه] تكون باعتبار الرد على من يقولون: بأنه يهلك إلا وجهه لكنهم صدوه بمعنى باطل وهو إنكار الوجه لكن المؤلف ما أظنه يقول ذلك فمعروف أن الأشاعرة ينكرون الوجه حقيقة ونحن نقول إن لله وجهًا حقيقيًا بلا شك وهذه الآية يستدل بها ولهذا قال: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ لكنه عبر بالوجه عن الذات كسائر أساليب اللغة العربية وقيل: إن المعنى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ إلا ما أريد به وجهه فيكون هذا عائد على الأعمال يعني جميع الأعمال مردودة غير مقبولة إلا ما أريد به وجه الله واستدل هؤلاء بأن قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا موجه إلى الإنسان، ثم قال ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ كأنه قال: إن الشرك هالك وتالف وغير نافع للمرء إلا ما أريد به وجه الله وهو الخالق له وأنه يبقى للمرء.

والهلاك ما لا يفيد الإنسان فمعنى هالك يعني: لا تفيده، مثل قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١) ولكن نقول: إن النوع الأول أقوى أي أن المراد كل شيء فانٍ وتالف إلا وجه الله وهو كتعليل لقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني فكأنه يقول هذه الأصنام المعبودة من دون الله لا تبقى والله تعالى هو الذي يبقى فكأنه ينبغي أن يستحق أن يعبد.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ هذه جملة مكونة من مبتدأ وخبر الخبر (له) مقدم، و(الحكم) مبتدأ مؤخر وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والمعنى له وحده الحكم، يقول المؤلف: [القضاء النافذ] أي أنه فسره بالحكم الكوني والصحيح أنه يشمل الحكم الكوني والشرعي حيث قال: [فله القضاء النافذ على كل أحد وله أيضًا الفصل بين الخلق في الأحكام الشرعية] لكن الحكم شامل للأمرين الحكم الكوني والشرعي وقد مر علينا أن من أمثلة الحكم الشرعي منها قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠]، وأما من الحكم الكوني ومنها قوله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠] قوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ الجملة فيها اختصار أن الحكم لله وحده مع أن غيره له الحكم ولهذا يقال الحاكم الشرعي وحاكم البلد وما أشبه ذلك والجواب على هذا أن يقال حكم هؤلاء مُقيد بحكم الله والحكم المطلق التام الشامل هو لله وحده فكونهم حكام فهو من باب التبعية إذ إن الحاكم الذي لا يحكم بغير ما أنزل الله فإن حكمه لم يمكث كثيرًا [﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالنشور من قبوركم]، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم وذلك بالنشور إذا نشركم من القبور فلا مرجع إلا إلى الله ويحتمل أن يكون الرجوع هنا أعم من ما ذكر المؤلف بحيث يكون المعنى وإليه ترجعون حتى في أحكامكم فإنما ترجعون إلى الله ولهذا يرد الحكم بين الناس إلى الله عز وجل.

تم بحمد الله تفسير سورة القصص

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

الفهرس

تفسير سورة القصص